الجرعة الصافية والنفحة الكافية

لمجدد عصره وفريد دهره الشيخ الأستاذ المربي أبو زين العابدين

المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي

الجـــزء الأول

تحقيق

الأستاذ/ محمد ولد الشيخ

الجرعة الصافية والنفحة الكافية
الجزء الأول

صفحة عنوان الناشر

الجرعة الصافية والنفحة الكافية

لمجدد عصره وفريد دهره الشيخ الأستاذ المربّي أبو زينِ العابدينَ

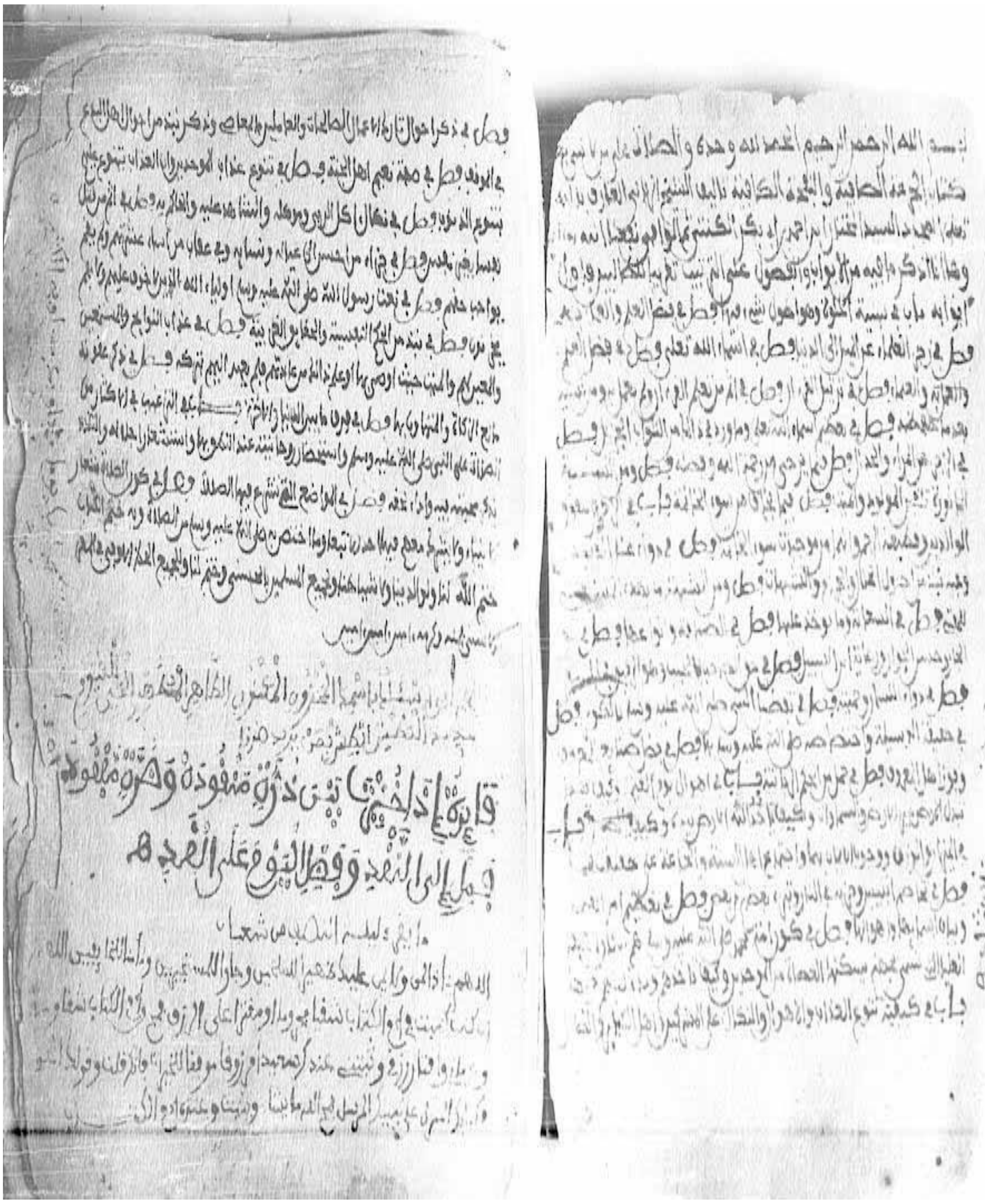
المختارُ بنُ أحمدَ بن أبي بكر الكُنْتيُّ

الجـــزء الأول

تحقيق

الأستاذ/ محمد ولد الشيخ


بسم الله الرحمن الرحيم



صورة من المخطوطة



الصفحة الأخيرة من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، إمام الغر المحجلين، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فمنذ نعومة أظفاري وأنا مهتم بالتراث الإسلامي وروائعه وبكل ماله صلة بثقافة أمتنا الغنية بكل مكوناتها، وبحكم نشأتي في بيت ينتسب أهله للعلم.. ظلت قصص الأولياء والصالحين وكراماتهم تشنف أسماعي دوماً، وقد كان جدي الكبير الشيخ سيد المختار بن أحمد بن أبي بكر بن سيدى محمد بن سيدى حبيب الله بن الوافي بن سيدي أعمر الشيخ بن الشيخ سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد الكنتي – دائم الحضور في كل مجلس علم بحكم يده الطولى، وباعه الواسع في كل المعارف والعلوم المرتبطة بالثقافة الإسلامية، ومكانته الروحية في الصحراء الكبرى خلال القرن التاسع عشر والقرون التي تلته.

وبمجرد اطلاعي على بعض مؤلفاته المركونة في منزلنا وفي المكتبات العامة والخاصة أدركت حجم الإرث الحضاري الذي ضيعناه وتركناه منسياً وراء ظهورنا ففكرت في تحقيق بعض كتبه ولكن المستوى العلمي لشخصي، وهو مستوى لايمكنني من إدراك كنه بحوره ولا الوصول إلى جزء من مراميه في كتبه جعلني أتراجع عن خوض التجربة وظل التردد والتوجس ديدني حتى وجدت

من الظروف العامة والخاصة، ما جعلني أفكر جدياً في خوض غمار التجربة، والدخول إلى لجة البحر مستعيناً بعون الله تعالى أولاً، وبإرادة وعزيمة صادقة ونية محققة على خدمة التراث الإسلامي والعربي في منطقتنا والعودة إلى المنابع الحقيقية لهذا التراث، رائدي في ذلك البحث عن الحقيقة، وجلائها للعامة والخاصة بعيداً عن أي هدف آخر.

ولم أقم خلال اختياري لهذا الكتاب بما يقوم به الكثير من الباحثين المهتمين بجزئيات البحث العلمي والتنفيذ الحرفي لما تمليه قواعد هذا البحث من أساليب صارمة، بل عمدت إلى اختيار أكثر النسخ التي وقعت بين يدي وضوحاً وأكثرها قابلية للقراءة ، وهي نسخة وجدتها عن طريق الأخ عبد الله ولد عابدين، الذي أرشدني مشكوراً إلى موقع "OMAR" وهو موقع ألماني مختص في نشر التراث وجمعه في جامعة فرايبورغ (ألمانيا)، بالتعاون مع مركز تكنولوجيا المعلومات التابع لجامعة توبنغن (ألمانيا). حيث يتضمن هذا الموقع قاعدة بيانات تحتوي على صور أكثر من ٢٥٠٠ من المخطوطات العربية النادرة، ولكن مشكلة الكثير من هذه المخطوطات أنها غير مكتملة، ويختلط بعضها ببعض حيث قمت في البداية باختيار كتاب " نزهة الراوي، وبغية الحاوي " للشيخ سيد المختار الكنتي، وبعد أن قطعت شوطاً فيه، وبعد تصفح أوراق المخطوطة تبيّن لي أن فيها انقطاعًا كبيرًا في النص يبدأ في اللوح ١٥ب وينتهي في اللوح ٦١! حيث إن ما بين الرقمين هو كتاب آخر في الفقه لا صلة له بموضوع كتابنا نزهة الراوي! فالقسم المفقود كبير،

إذ بعد الورقة ٦١ يبدأ الجزء الثاني من نزهة الراوي ثم لا يلبث أن يدخل كتاب آخر فقهي! وبعد أن تأكدت من أن هذه النسخة من المخطوطة من كتاب نزهة الراوي تالفة، أصبت ببعض الإحباط ولكني أعدت البحث من جديد مستعيناً بجهود صديقي العزيز المؤرخ الموريتاني الدكتور سيد أحمد ولد الأمير الذي تعرفت عن طريقه على أسلوب اختيار الموضوعات من الموقع، وتنزيلها على شاشة الكمبيوتر لإعادة القراءة فيها.

وبجهود مضنية لا تعرف الكلل ولا الملل من الصديق العزيز مروان العريان، تمكنت من اختيار مخطوط كتاب "الجرعة الصافية والنفحة الكافية" للشيخ سيد المختار، ومن أسباب اختياري له أن النسخة الموجودة من كتاب "الجرعة الصافية" هي نسخة تامة واضحة الخط، وهو كتاب مفيد يتناول قصص الأنبياء والأولياء وعباداتهم في خلواتهم جمعه المصنف من الكتب الستة وغيرها كالترغيب والترهيب وتاريخ الخطيب البغدادي وكثير مصادر متنوعة ذكرها في مقدمته وهو حقيق بالإحياء والتحقيق.

وقد بدأت جهود التحقيق من خلال تحويل الخط الأندلسي الصعب إلى خطوط مقروءة اليوم وقابلة للطباعة (الصف) وهي المهمة التي تولاها بجدارة الأخ مروان وزملاؤه على أكمل وجه.

ومن المهم التنويه إلى أن هذه المخطوطة الوحيدة هي المرجع الذي عدت إليه ووضعت قواعد سيجدها القارئ للأخطاء اللغوية التي تعود إلى الناسخ لا إلى المصنف، وكذلك للحذف الذي قد يوجد في بعض الجمل والعبارات، والتصويب له، أو اختيار معادل له وفقاً للسياق والمعنى وغير ذلك من القواعد المعروفة في التحقيق، كما خرّجت الآيات والأحاديث الموجودة بها، والأعلام المذكورين، وغير ذلك مما سيجده القارئ لهذا الكتاب بجزأيه، وأرغب من كل من سيطلع على هذا الكتاب أن يتعامل معي كأحد الهواة الذين يرغبون في تقديم بصمة مهما كان تواضعها ولست نداً للمؤلف أو خصماً له، بل أنا تابع له بكل معاني الكلمة فهو والدي... بكل الكلمات التي قد تأتي بعد هذه الجملة، وكل ما سيقع من أخطاء نحوية أو إملائية من المهم أن يأتي تصويبه على بريدي الالكتروني، mohamdsh@qu.edu.qa لتلافيه في الطبعات القادمة من الكتاب إن شاء الله.

وقبل الختام أجد لزاماً علي شكر بعض الأصدقاء الأعزاء الذين بذلوا معي جهوداً من أجل إخراج هذا الكتاب في أي مرحلة من مراحله ومن هؤلاء، الصديق الفاضل الأستاذ أحمد ولد باب أحمد ولد حم الأمين رئيس مجمع الشيخ سيد المختار الكنتي، وأخي الوحيد وصديقي سيد محمد ولد الشيخ الذي دعمني وشد على يدي وطلب مني عدم الاستسلام لليأس والاستمرار في هذا العمل حتى إكماله.

لهؤلاء جميعاً أقدم التحية، ولغيرهم ممن لم يسع المجال لذكرهم .

والله من وراء القصد .

المحقق

محمد ولد الشيخ

الدوحة

٢٠١٦/٥/١٧م

الموافق ١٠- شعبان -١٤٣٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

بقلم الأستاذ/ أحمد باب أحمد حم الامين

رئيس مجمع الشيخ سيدي المختار الكنتي الثقافي الإسلامي – نواكشوط

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد، فهذا أول كتاب يحقق في فن التصوف وفقه السلوك لإمام السالكين ومدار العارفين، ومقام الناسكين، فريد دهره ومجدد عصره، ظل الله في الأرض وحامي بيضة الإسلام والعِرض، من تأصل في أصل ذؤابة العز والمجد وتفرع في صروح الأمانة والعهد، شيخ الطريقة القادرية وملاذ الطائفة الأشعرية والمالكية. الشيخ سيدي المختار الكنتي، رحمه الله تعالى ، وخير وصف يمكن أن يوصف به الكتاب ما وصفه به مصنفه في تقديمه:

«هذا وان الله تعالى منَّ عليَّ بنفحات فضله ووفق لتأليف هذا الكتاب الذي لم ينسج ناسج على مثله، من غير قصد مني ولا قوة، ولكنه فيض أفاضه ونور فجره فجاء متناسباً غاية المناسبة وليس فيه قول تمجه الأسماع ولا معنى لا يحصل منه الإمتاع ولذلك سميته "الجرعة الصافية والنفحة الكافية" لأن مبانيه على متن الكتاب والسنة وقصص الأنبياء وأولياء الأمة فهذبته غاية التهذيب وقربته لإفهام السامعين غاية التقريب... ولذلك جمعته من متون الصحاح الستة وكتاب عمل

اليوم والليلة وكتاب الروضة للنووي وكثير من حفظي لما حفظته من كتب المشائخ كالسمرقندي وقوت القلوب..».

وكان الحظ والسبق في تدقيق الكتاب وتقديمه وتحقيقه وتحضير جرعاته وإفشاء نفحاته وإتحافنا بمحاسنه وجمائله ومقاصده ومسائله – للدكتور محمد ولد الشيخ وهو غني عن التعريف وحري بالتشريف الكاتب الأديب والباحث الأريب من اجتمعت فيه الخصال واتحدت لديه الأقوال والأفعال فاعتلى عرش الحقائق والمعالي فنهل من الدقائق والرقائق والمعاني، كان الله له ولياً ونصيراً.

والكتاب المحقق لبنة صغيرة المبنى لكنها كبيرة المعنى ستسهم في بلورة أدب التصوف السني ومفاهيمه وإشاراته وصفائه ودوره في علاج الأنفس والقلوب وترويض الأبدان، ومن خلال الكتاب تتجلى الطريقة القادرية الكنتية في أبهى حللها في الحفاظ على جوهر التصوف النقي المحصن بالسنة لتقدم الحلول التي نحتاجها اليوم على شكل جرعات ونفحات إيمانية ووجدانية تجعل المرء يذوق طعم السعادة بحلاوة الإيمان.

ترجمة الشيخ سيدي المختار الكنتي

نسبه :

الشيخ سيد المختار بن أحمد بن أبى بكر بن سيدى محمد بن سيدى حبيب الله بن الوافى بن سيدى أعمر الشيخ بن الشيخ سيدى أحمد البكاى بن الشيخ سيدى محمد الكنتي بن سيدي علي بن يحيى بن عثمان بن عبد الله الملقب يهس بن عمر الملقب دومان بن ورد الملقب شاكر بن يعقوب بن العاقب بن عقبة ابن نافع الفهري القرشى فاتح أفريقيا وواليها فى عهد معاوية بن أبى سفيان.

نشأته ودراسته:

ولد الشيخ سيد المختار بالمبروك (كثيب أوجال) سنة (١١٤٢هـ- ١٧٣٠م) شمال مالي الحالية لأبوين معروفين بالرئاسة والعلم فقدهما صغيراً، أمه في السنة الخامسة، وأباه في السنة العاشرة، ويبدو أن هذا اليتم المبكر قد ولَّد عنده إرادة في اقتحام المجاهيل وركوب الصعاب فقذف بنفسه في رحلة علمية شاقة عاد منها عالماً بالشريعة، عارفاً بالحقيقة وزعيماً للطريقة القادرية ليبدأ عهده الجديد بحدثين هامين أولهما بناء الزاوية المسماة قصر الحلة ١٧٥٤م، والتي تعد بمثابة الجامعة، وثانيهما زواجه من الدوحة الرؤوم الشيخة لاله عائشة الأزرقية ١٧٥٧م، وبهذين الحدثين الهامين في حياته بدأ إنطلاقته الكبرى نحو الأفق البعيد حيث شرع في تكوين معالم مجتمع المدينة الفاضلة محدداً رسالته في ثلاثة مقاصد

هي: ١ – نشر الإسلام والثقافة العربية، ٢ – زيادة رصيد المعرفة الإنسانية، ٣ – الدعوة إلى الله والإصلح بين الناس ، وبهذا التركيز الدامغ على الكليات برهن على سمو مقصده وبعده عن الأهواء وتوابع الذات، ففتحت له بلاد السودان صدرها وخلعت عليه الألقاب وأشتهر بذكائه وأتساع مداركه واتصافه في البحث والمناظرة ورجوعه إلى الحق، ودفئ لسانه وطار ذكره في الآفاق وارتحل الأئمة إليه وتوافد الأعيان عليه وتزاحم الطلاب من كل حدب وصوب عنده وامتدحه الكبار، وصارت تعاليمه التي حملها كل من وفد إليه من أبرز العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في افريقيا الغربية والوسطى ولعل من المناسب في هذ المقام أن نذكر جماعة من تلامذته نهلوا من معينه وحملوا تعاليمه ونشروها فكانوا مصابيح يُهتدى بهم:

١. العالم الجليل الشيخ سيديا ولد المختاربن هيبه
٢. العالم الجليل الشيخ القاضي ولد الحاج الفغة.
٣. الشيخ المصطفى ولد الحاج
٤. الشيخ سيدي أحمد ولد أعويسي
٥. الشيخ سيدي محمد ولد امني
٦. الشيخ بابا الحي ولد محمود
٧. الشيخ المختار السباعي
٨. الشيخ أبات ولد الطالب عبد الله

٩. الشيخ المصطف ولد العربي

١٠. الكوري ولد المختار السالم كري

١١. ويقي ولد سيدي الأمين

١٢. الشيخ محمد الأمين ولد عبد الوهاب

١٣. شماد المتغمبري

١٤. عبد ولد سيد أحمد البوبكري

١٥. أحمد ولد امينوه الوافي البوبكري

بالإضافة إلى الكثير من الولاة والأعيان وأهل الفضل والعلم، فكان له الأثر الكبير فى تنشئة أجيال من المثقفين ثقافة عالية وفي العقدين الأخيرين من عمره انكب على التأليف.

مؤلفاته:

وأوكل المهام القيادية إلى أبنائه الثمانية وبالأخص خليفته الشيخ سيد محمد وقد بلغت هذه المؤلفات أكثر من ثلاثمائة كتاب نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١. هداية الطلاب في الفقه.

٢. فتح الوهاب على هداية الطلاب.

٣. فقه الأعيان (فقه).

٤. الرشاد (الفقه).

٥. كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة (الإرشاد في الهداية وحسن الإعتقاد) (عقيدة).

٦. الممزوج (بين الشريعة والحقيقة) (تصوف).

٧. الأجوبة الأباتية (فقه).

٨. الأجوبة المهمة لمن له بأمر الله همة (تصوف).

٩. كشف النقاب على فاتحة الكتاب (علوم القرآن).

١٠. بلوغ الوسع في شرح الآيات التسع (علوم القرآن).

١١. الشموس الأحمدية في العقائد الأحدية (التوحيد).

١٢. تفسير البسملة (تفسير).

١٣. يتيمة اللآلىء في الرد على علماء تنيالى(فقه).

١٤. البرد الموشى في قطع المطامع والرشى (فقه).

١٥. جذوة الأنوار في الذب عن اولياء الله الأخيار.

١٦. الكوكب الوقاد في فضل المشائخ والأوراد (تصوف).

١٧. ألفية (في اللغة العربية).

١٨. فاتحوا إفريقيا (تاريخ).

١٩. فتح الودود فى شرح المقصوروالممدود(اللغة).

٢٠. العلم النافع.

٢١. نضار الذهب في كل فن منتخب.

٢٢. الجرعة الصافية والنفحة الكافية (تصوف، وفقه، وحديث).

٢٣. زوال الإلباس في طرد الشيطان الخناس.

٢٤. نزهة الراوي وبغية الحاوي (تاريخ ، وأخبار).

٢٥. نصيحة المنصف المبصر المتعطف.

٢٦. نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب.

٢٧. جذوة نورانية تبين للسالك ما يعرض له مما هو ربانى وشيطاني.

٢٨. كشف اللبس فيما بين الروح والنفس.

٢٩. الرسالة (في التصوف).

٣٠. لب الألباب في الأنساب.

٣١. شرح القصيدة الفيضية (التصوف).

٣٢. فوائد نورانية وفرائد سرية رحمانية(شرح الاسم الأعظم).

٣٣. الأجوبة الشافية للمختار في حقيقة التقوى ولإيمان.

٣٤. التذييل الجليل العادم المثيل.

٣٥. الذهب الإبريز (على القرآن الكريم) (تفسير).

٣٦. كتاب التعارف (في أخبار أهل الزمان) (تاريخ).

٣٧. كشف الغمة.

٣٨. الأجوبة اللدنية (شرح الناصري) (تصوف).

٣٩. لطائف القدسي.

وقد كان لتنقية الشيخ الطريقة القادرية مما علق بها من الشوائب الآثار البالغة في انتشارها في مغرب القرن التاسع عشر، ولقد كان رحمه الله شغوفاً بالمطالعة محباً للكتب حريصاً على اقتنائها فكان يُسَيِّر سنوياً قافلتين لجلب الكتب، إحداهما تتجه غرباً نحو فاس وغيرها من المدن المغربية ذات النشاط الثقافي حينها،

والأخرى شرقاً إلى مصر عبر تونس وبرقة بليبيا لجلب عصارة العقول ونوادر الكتب وطرائفها، ولم يزل على قدره مجاهداً في سبيل الله وناشراً للإسلام إلى أن أسلم النفس إلى بارئها يوم الأربعاء ١٢٢٦هـ الموافق ٢٩ مايو ١٨١١م عن أربعة وثمانين سنة، كلها عمل وبذل وعطاء، ودفن عند بئر له تسمى أبو الأنوار بأقصى شمال مالي وخلفه ابنه وخليفته الشيخ سيدي محمد فكان خير خلف لخير سلف وقد رثي بكثير من القصائد نذكر مقاطع من بعضها للشيخ سيدي ابن المختار بن هيبة حيث يقول:

أسيدنا المختاريا من وفاته	حياة ومحياه الكريم وفاة
دريت بلا شك شهيد محبة	وكل شهيد موته فحياة
أما كنت في حال الممات تروضنا	وتحي قلوباً أرضهن موات
وكنت تحلي بعد تخلية ولا	تقوم لأدني معتناك هنات

إلى أن يقول:

حنانيك يا شيخ الشيوخ فإننا	لدى بابك المفتوح اسرى وعفات
نرود به رود الظماء تحرقا	وتعرى له من طرفنا لحظات

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى اللهُ على سيّدِنا ومولانا محمدٍ وآلِه وصحبِه وسلّم

قال الشيخُ العالِمُ العامل، الوليُّ الكامل، العارفُ بالله تعالى، واسطةُ سِبط الأخيار العارفينَ والصالحين، ومجدِّدُ علوم الدين، الإمامُ بهذا الحين، ذلك الشيخُ الأستاذُ المربّي أبو زينِ العابدينَ سيّدُنا المختارُ بنُ أحمدَ بن أبي بكر الكُنْتيُّ[1] ثم الوافي، متّعنا اللهُ تعالى بطول حياتِه وأفاض علينا من بركاتِه، وجمعَنا وإياه في حضرة قدُسِه ومحلِّ أُنسِه، وحفظه ورعاه، وجعل الجنةَ مأوانا ومأواه، بجاه حبيبِه ومصطفاه، سيّدنا محمد بن عبد الله، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبِه، وعلى جميع أُمتِه وحزبِه، آمينَ يا ربَّ العالمين.

الحمدُ لله الذي جعل قلوبَ أوليائه معدِنًا للمصافات، ومركَزًا للمكاشفات، ويَنبوعًا للعلوم الظاهرة والحقائقِ الخفيّات، والصلاةُ والسلامُ على من جاء مكمِّلًا وجامعًا لجميع الرسالات، ومنقذًا لكافة العالَم من الهلَكةِ وأنواع الارتباكات، فجاء بالبراهينِ الواضحات، والآيات البيّنات، سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه القادات، ما دعا داع إلى الله تعالى، فنصح، وبيّن وجهَ الشريعة فأفصح. وأشكرُه على ما أنعم به عليّ فأسدى، فأعطى عطاء كثيرًا

---

(١) بضم الكاف: نسبة إلى قبيلة كنتة في تمبكتو (مدينة في مالي) أو في بلاد التكرور الشاسعة. انظر: الثمار الزكية للحركة السنوسية لعلي محمد الصلاّبي ٢/ ٢٩١، ومختصر فتح رب الأرباب بما أهمل في لب اللباب من واجب الأنساب، لعباس السيد رضوان، ص: ٥٢. وقال الأديب الزركلي في الأعلام ٧/ ٩٢: أقول: والكنتي، نسبة إلى زاوية الكنت.

وما أكدى[١]، وآتى كلَّ ذي رُشد رُشدَه، وللحقائق أظهر فأبدى، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ} [الأنفال: ٤٢]، إذ لم يخلقْ شيئًا سُدى.

هذا، وإنّ اللهَ تعالى مَنّ عليّ بنفحاتِ فضلِه، ووفّق لتأليف هذا الكتاب الذي لم ينسِجْ ناسجٌ على مثلِه، من غير قصد منّي ولا قوة، ولكنه فيضٌ أفاضه، ونورٌ فجّره فأهاضه[٢]، فجاء متناسبًا غايةَ المناسبة ليس فيه قولٌ تمَجُّه الأسماع، ولا معنًى لا يحصلُ منه الإمتاع، ولذلك سمّيتُه:

بالجُرعةِ الصافية والنّفْحةِ الكافية

لأنّ مبانيَهُ على متن الكتابِ والسنة، وقَصص الأنبياء وأولياءِ الأُمّة، فهذّبته غايةَ التهذيب، وقرّبتُه لأفهام السامعينَ غايةَ التقريب، وامتثلتُ فيه قولَه صلى الله عليه وسلم فيه : "[قيّدوا][٣] العلمَ بالكتاب"[٤]، فكلُّ علم لا يدُلُّ عليه ولا

---

(١) أكدى الرجل: قلّ خيره، وقوله تعالى: {وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى} أي: قطع القليل. مختار الصحاح (كدي).

(٢) الهيض: الكسر. قال الزبيدي: وهو أشد ما يكون من الكسر. تاج العروس (هيض).

(٣) إضافة لازمة أخلت بها النسخة أسعفنا بها مصادر التخريج.

(٤) وفي بعض الروايات: "بالكتابة". وهو حديث يروى مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأثر يروى موقوفًا من كلام عدة من الصحابة رضوان الله عليهم كما أحصاه وناقشه: الحافظ ابن حجر في إتحاف المهرة (٦٨٥) و(٧٧٧) و(٩٩٧٤) و(١٢٠٠٢) و(١٥٦٧٢) و(١٥٧٢٦)، والسخاوي في المقاصد الحسنة (١٠٠)، وغيرهما.

يُرشد إليه فإنّما يزيدُ مُتعاطيَه ضلالًا وإضلالًا، وحَيرةً وخبالًا، جعَلنا اللهُ من الذين يستمعونَ القولَ فيتّبعون أحسنَه.

ولذلك جمَعتُه من متونِ الصِّحاح الستة، وكتاب "الترغيب والترهيب"، وكتاب "عمل اليوم والليلة"، وكتاب "الروضة" للنووي، وكتاب "الإرشاد"، و"الروض الأنيق"(١)، ومعاني الكتاب الحكيم ونصوصه، وكثيرٍ من حفظي قديمًا لما حفظته من كتب(٢) المشايخ: كالسَّمَرْقَنديّ(٣) و"القوت"(٤)، و"اللُّباب"، و"سَنن السالكين"، وكتاب "الأشواق في مصارع العشاق"، وكتاب ابن الخطيب.

ومهما يكن فإن هذه الحديث أو الأثر صحيح لغيره ومؤيد به، فمن ذلك حديث: "اكتبوا لأبي شاة" المروي في الصحيحين: البخاري (٢٤٣٤) و(٦٨٨٠)، ومسلم ٤٤٧ و ٤٤٨ - (١٣٥٥).

وقد أحسن الكلام في هذا الحديث أو الأثر ابن شاهين في كتابه: ناسخ الحديث ومنسوخه، باب في تقييد العلم، ص ٤٦٥، وابن عبد البر في: جامع بيان العلم وفضله، باب ذكر الرخصة في كتاب العلم ١/ ٢٩٨، والخطيب البغدادي في: تقييد العلم، باب ذكر ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "قيدوا العلم بالكتابة"، والبغوي في: شرح السنة، باب كتبة العلم ١/ ٢٩٣، وغير هؤلاء.

(١) لابن غانم: عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي، عز الدين (ت ٦٧٨هـ).

(٢) في النسخة: كتاب.

(٣) لعله أراد نصر بن محمد السمرقندي أبا الليث (ت ٣٧٣ هـ) صاحب "بحر العلوم".

(٤) لعله كتاب: قوت القلوب، في التصوف، لأبي طالب المكي محمد بن علي الحارثي (ت ٣٨٦هـ).

نفَع اللهُ به سامعَه وقارئه وكاتبَه ومالكَه وجميعَ مَن سعى في شيءٍ منه بفضلِه العميم، إنه سميعٌ عليم.

بابٌ: في سُنيّة الخَلوة بالله تعالى
وكيف كانت خلوةُ الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلام
وخَلَواتُ ورَثتِهم الأولياءِ رضوانُ الله عليهم وأمدّنا بنفَحاتهم وبركاتهم، آمين

اعلمْ أيّها الأخُ السالك أمدّك اللهُ بمددِ أصفيائه، أنّ الخلوةَ سنّةُ الأنبياء وميادينُ الأولياء، وعلى متنها يصلون إلى رتبة الاصطفاء، ثم ينتهونَ إلى مركز الانتهاء، قال اللهُ تعالى: {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} [النجم: ٤٢].

فأولُ من دخل الخلوةَ آدمُ عليه السلام، فخلا بسَرَنْديبَ[١] شهرَ رمضان، فلمّا أتمّه خَرجت منه الأَكْلةُ منِيًّا وخرجت من حواءَ حيضًا، فأمَرَهما بالاغتسال من أثَر الخطيئة وبصَوم شهرِ رمضانَ كفّارةً لمُكثِ الأَكْلة في بطونِهما شهرَ رمضان كلَّه، فبكتْ حواءُ لمّا رأتِ الدم ووَجَدتِ الألم، فقال اللهُ تعالى لها: ما يُبكيكِ يا حواء؟

---

(١) قال ياقوت الحموي: "بفتح أوّله وثانيه وسكون النون ودال مهملة مكسورة وياء مثناة من تحت وباء موحدة. ديب بلغة الهنود: هو الجزيرة، وسرن لا أدري ما هو". معجم البلدان ٣/ ٢١٥. قلت: وهي جمهورية سريلانكا اليوم، أو جزيرة سيلان، باسمها عند الإنكليز، ولها أسماء أخرى غير أن أشهرها: سيلان وسرنديب، الاسم العربي، وهي دولة جزرية شمال المحيط الهندي جنوب القارة الهندية في جنوب آسيا. (ويكيبيديا: الموسوعة الحرة).

وهو أعلم، فقالت: أي ربّ، إنك أخرجتَ الأكلةَ من صُلب آدمَ لذّةً وأخرجتَها منّي دمًا وألمًا، [1]وآدم أتاها كُرهًا ولذلك أخرجتَها منهُ لذّة، ولكن أسترضيكِ وبناتِك أن أضعَ عنكنّ كُلَفَ المعيشة وأجعلَها على الرجال، فرضيتْ. ثم أمره[2] بصوم ذي الحجّة شكرًا لله على قَبول توبته، وأمرَه ببناءِ الكعبة[3]، فسار إليها ومعَه جبريل، فوصلَ إليها في أربع خُطُوات، فأمدّه اللهُ بالمُقرَّبين، فجعلوا أساسَها على متن الأرض السابعة، وجيءَ بقُبّة من ياقوتةٍ حمراءَ لها شعاعٌ يغلِب شعاعَ الشمس، فجعلوها على الأساس الخارج من الساهرة حتى اتّصلت بالعرش، فجدّد الخلوةَ بها ودموعُه تنهمر حتى صار ينزلقُ فيها إذا طاف بالبيت، فلمّا وقع الطّوَفانُ زمنَ نوح رُفعت إلى السماءِ فصارت البيتَ المعمور، وبقي الأساسُ، فبنى عليه إبراهيمُ عليه السلامُ قواعدَ البيت، وآزرَه إسماعيل.

ثم أصفى خواصَّ بنيه من النبيّينَ والصِّدّيقين على الخَلوة بالله.

والسرُّ في ذلك أنّ اللهَ تعالى أمَر بطينة آدمَ فخُمِّرت أربعين يومًا، فتربّى فيها أربعون حجابًا.

---

(١) تلحظ ها هنا اضطرابًا في النص يقطع به الناسخ الحوار بين الذات الإلهية العلية وأمنا حواء، إلى قوله: "ولكن أسترضيك".

(٢) في النسخة: أمده. تحريف.

(٣) يسرد المصنف رحمه الله هنا أن آدم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة، وأنها رفعت إلى السماء جراء الطوفان زمن نوح عليه السلام وأصبحت هي البيت المعمور، ثم جاء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام فبنيا قواعد البيت على أساس الكعبة الذي بقي في الأرض.

فلولا تلك الحُجُبُ ما عَمَر آدميٌّ الدنيا ولا التفت إليها، لِما ركّب اللهُ فيه من اللطائف والأرواح الكريمة، فإذا أزال تلك الحُجُبَ بالمجاهدة وصحبة الأسماءِ القاهرة حظي بالمشاهدة، قال اللهُ تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩].

وإلى هذا المعنى أشار النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله: "من أخلصَ لله أربعين صباحًا تفجّرت ينابيعُ العلم من قلبِه وقرَّت على لسانه"[١].

ولما أُلقي إبراهيمُ عليه السلام في النار عُريانًا أنزل اللهُ عليه قميصًا من الجنة وقال للنار: {كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ} [الأنبياء: ٦٩] اتّخذها خَلوة فاتّخذه اللهُ خليلًا، وكانت خَلوتُه فيها أربعين يومًا، وكان يقولُ بعد ذلك: ما رأيتُ أصفى ولا ألذَّ من تلك الأيام.

وبهذا المعنى بقي داوودُ ساجدًا أربعين يومًا فقُبلت توبتُه، ومدَحه ربُّه بقوله: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: ٣٠]، وبقوله: {فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص: ٢٤].

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٤٦٦)، وقال عقبه: كأنه يريد بذلك من يحضر العشاء والفجر في جماعة، ومن حضرهما أربعين يومًا يدرك التكبيرة الأولى كتب له براءتان: براءة من النار وبراءة من النفاق.

ولمّا أغرق اللهُ آلَ فرعون واطمأنّت بنو إسرائيلَ طلبوا من موسى عليه السلامُ أن يسألَ اللهَ أن يُنزلَ عليهم كتابًا مشتملًا على الأحكام الشرعيّة والحِكم الربّانية والمواعظِ وأمْر المَعاد، فسأل من الله ذلك فقال الله: لا أُنزلُه عليك إلّا بعد أن تخلوَ بي ثلاثين يومًا، وكان ذا القَعدة، فصامه وِصالًا من غير فِطر إجلالًا لمناجاة الله تعالى، فلمّا أتمّه وَجَد بفمه خُلوفًا[١]، فاستاك بعود خُرنُوب[٢]، فقالت الملائكةُ: يا موسى، إنا كنا نشتمُّ من فيك رائحةً طيّبة فأذهبتَها عنا. ثم رَقِي موسى الطُّورَ لمناجاة ربِّه، فأوحى اللهُ إليه أنْ: يا موسى، صُمتَ بأمرِنا وأفطرتَ بأمر نفسِك، فصمْ عشَرةً من ذي الحجّة تكونُ[٣] كفارةً لها واستعدادًا لقَبول الوحي، {فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} [الأعراف: ١٤٢]، فبقيت سُنّةُ المتوجّهينَ إلى الله صومَ أربعين يومًا. قال أهلُ التحقيق: ما من عبدٍ يصومُ أربعين يومًا بحفظِ الأنفاس والخُطُوات إلّا فتَح اللهُ عليه بقدر إخلاصِه فيها حتى يتشبّه بالملأِ الأعلى

---

(١) الخلوف من الفم بالضم، قال الإمام الخطابي: "أصحاب الحديث يقولون: خَلُوف بفتح الخاء، وإنما هو: خُلُوف، مضمومة الخاء، مصدر خَلَف فمه يخلف خُلُوفا: إذا تغير". غريب الحديث، له ٣/ ٢٣٩.

(٢) هو الخروب، أو القراطباء، أو القريط الشامي. تكملة المعاجم العربية، لدوزي ٤/ ٣٧. قلت: والعرب يعرفونه بهذا الاسم، قال ابن الصلاح: "هو الخَرُّوب والخُرْنُوب، ولا تقل: خَرْنُوب". إصلاح المنطق، ص: ١٣٣.

(٣) كذا بالرفع في فعل الكينونة، والجادة الجزم على جواب الطلب.

فتُخرقَ له العوائدُ وتُشرقَ الأنوارُ من قلبه فتزيلُ كثائفَ حُجُبِهِ حتى يستأنسَ بربّه ويتوحّش من حزبِه وسِربِه.

وأمّا **محمدٌ** رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فخَلَواتُه بربِّه لا تدخلُ تحت حصر، فلقد كان يخلو بربّه وهو صبيٌّ بعد شقِّ صدرِه وهُو ابنُ أربع سنين، وكان يقلقُه الحُبُّ وهو لا يدري ما الكتابُ ولا الإيمان، حتى قالت له بعضُ عمّاته: ما لي أراك ذابلَ الجسم مصفرَّ اللون؟ فإن كان قد داخَلك ألمٌ تجدُه في باطنك عالجناكَ بالأدوية حتى نُبرئك، فقال: يا عمّة، لستُ أجدُ ألمًا، إلّا أنّ حبَّ الله أقلقني فلا أدري بمَ أتقرّبُ إليه، وكأنّي أجدُ بينَ جوانحي شظايا مُدخُلا[تٍ][1]، فحُبِّب إليه الخلاء، فكان يتحنَّثُ بغار حِراءٍ الشهرَ والشهرين ويتزوَّدُ لمِثلها، فلمّا بلغَ الكتابُ أجَلَه وَجَدت ملائكةُ السموات نفَسَه فقالت: ربّنا، إنا نجدُ من الأرض نفَسَ مُحبّ، فقال اللهُ تعالى: اتّبعوا ذلك النفَس حتى تجدوا صاحبَه، فاتَّبَعوا النفَس حتى أشفَى بهم على رسول الله، فإذا هو بغار حِراءٍ يتحنّثُ وقد أقلقه الشّوق وأذْلقَه الذّوق، فرجَعوا إلى ربِّهم فسألهم وهُو أعلمُ، فقال: هل وجدتُم صاحبَ النفَس؟ فقالوا: بلى أيْ ربَّنا، وجَدْناه والشوقُ يقلقُه والذوقُ يُذلقُه، وقال: هل عرفتموه؟ قالوا: لا، قال: ذلك عبدي ورسولي وخِيرتي من خلقي، ذلك محمدُ بنُ عبد الله،

---

[1] نسي الناسخ التاء فأضفناها.

اذهبْ إليه إسرافيلُ وتوكَّلْ به، وأرِهِ ملكوتَ السمواتِ والأرض، وتلطَّفْ به، فكان يتراءى لهُ ويأتيه بالكلمةِ منَ الوحي والشيء.

ثم بُدئَ بالرُّؤيا[١] الصادقة، فكان لا يرى رُؤيا إلّا جاءت مثلَ فَلَقِ الصُّبح، ثم فَجَأهُ جبريلُ عليه السلام فناداه، فلما نَظر إليه قال له: أنت رسولُ الله حقًّا، وأنا جبريلُ رُوحُ القُدُس، فذُعر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فأتَى بيتَ خديجةَ، فقال: "زَمِّلوني زَمِّلوني"، ثم رَجَع إلى الجبل، فتعرَّضَ له الملكُ فقال: إنّي رسولُ الله إليك، فقال: اقرأْ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بقارئ"، على وجه الامتناع، فغَطَّه حتى بلغَ منه الجَهدَ ثم أرسلهُ، فقال: اقرأْ، قال: "ما أنا بقارئ"، على وجهِ النّفي والإخبار، فغَطَّه حتى بلغَ منه الجَهدَ ثم أرسلهُ، فقال: اقرأْ، قال: "ما أنا بقارئ"، على وجه الاستفهام والطلب، وقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} [العلق: ١، ٢][٢].

ولم يزلْ ذلك سُنّةَ المتوجِّهينَ في البداية الخوفُ والجزَع، وبعدَ ذلك الرجاءُ والطمع، وفي النهاية الأُنسُ والخِلع والنداءُ لمن تسمع.

وما من وليّ إلا وهُو على قدرِ نبيٍّ في البدايات، ويتفاوتونَ في النهايات، كما قيل في المعنى:

إشارتُنا شتّى ومعناكَ واحدٌ وكــلٌّ إلى ذاك الجمالِ يشــيرُ

---

(١) في النسخة: بالرؤية، خطأ، والتصويب هو الموافق لما جاء في صحيح البخاري على ما يأتي.

(٢) الخبر أخرجه البخاري (٣) و(٤٩٥٣) و(٦٩٨٢)، ومسلم ٢٥٢- (١٦٠)، من حديث عائشة، وهو في الجمع بين الصحيحين للحَميدي (٣١٧٥).

فمنَ الأولياءِ من هو معصومٌ محفوظٌ في بدايتِه ونهايته، كأبي يزيدَ[1]، رُوي أنه قال لأُمِّه: إنّي أجدُ في قلبي قسوةً لا أدري ما سببُها، فتذكّر أنّ أمَّه دهنتْه من دُهن بعض الجيرانِ وهو صغيرٌ بغير إذنِهم، فأمرَها أن تستحلَّهم ففعلتْ، فذهب عنه ما كان يجد.

وقال سُهيلُ بن عبد الله[2]: كنتُ صغيرًا في المُكتِب، فإذا اشتغلتُ باللّوح ضاع قلبي، وإذا اشتغلتُ بقلبي ضاع اللوحُ، فسألتُ اللهَ فجَمَع لي بينَهما.

وكانت ليحيى بن معاذٍ الرازي[3] بنتٌ صغيرة، فقالت لها أُمُّها: اسألي[1] اللهَ حاجتَك، فقالت لها: يا أُمّاه، إني أستحيي أن اسألَ اللهَ حاجةً هو يعلمُها.

---

(١) أبو يزيد، ويقال: بايزيد، البسطامي، واسمه: طيفور بن عيسى (ت ٢٦١ هـ): زاهد عارف مشهور، من كبار القوم، وهو بكنيته أشهر، له أخبار كثيرة، وكان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر، وكان جده مجوسيًّا فأسلم، ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية، بكسر الباء. تاريخ الإسلام للذهبي ٦/ ٣٤٥، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٦، وفيهما مزيد مصادر. وسوف يسوق المؤلف رحمه الله شيئًا من خبره مع والديه ها هنا بعد قليل.

(٢) لم أعرفه.

(٣) يحيى بن معاذ الرازيّ النيسابوري، أبو زكريا (ت ٢٥٨هـ): واعظ، زاهد، عابد، أحد الأوتاد لم يكن له نظير في وقته، وكان حكيم أهل زمانه. من أهل الري، أقام ببلخ، ومات في نيسابور. تاريخ نيسابور لابن البيّع، ص ٣٨، وطبقات الصوفية للسلمي (١٤)، وتاريخ إربل لابن المستوفي (خ: الورقة ١٨٩أ)، وتاريخ الإسلام ٦/ ٢٣١، وطبقات الأولياء، لابن الملقن، ص ٣٢١، وسواها.

فهؤلاء وأمثالُهم حفظتهم العنايةُ بدءًا وعَوْدًا، كطيفورِ بن عيسى[٢]، كان أبواه نَصْرانيَّيْنِ وقريتُه نصارى، فألهمَه اللهُ الحِكمةَ صبيّاً، فلمّا جيء به للمُكتِب قال المعلِّمُ له: قلْ: ثلاثة، فقال: أحدٌ، فضربه، فلم يزدْ على أن يقولَ: أحدٌ، فلمّا ألحَّ عليه جَعل يتكلّمُ بالحقائقِ الربّانية ويدعوه إلى الاسلام، فأخَذ بيده ثم ذهبَ به إلى أبويْه فقال لهما: إنّ ابنكما لا يصلُح لهذا الدّين، فراوَدَه أبَواهُ على النَّصرانيّة فأبَى إلّا الإسلامَ، فتَركاهُ، فلمّا جَنّ عليه الليلُ ساحَ، فإذا مكةُ، فوجَد عند البيت خمسَ مئة صديقٍ فصَحِبَهم وأخَذ عليهم، فتربّى وأدرك الولايةَ العُظمى حتى رأى اللهَ في بعض غَيْباته، فقال له: أيْ ربِّ، كيف الوصولُ إليك وقدِ انقطعت دونَك الغايات وانتهتْ دونَ عظمتِك النِّهايات؟ فقال له: انسلِخْ من نفسِك تجدْني قريبا منكَ، [قال][٣]: فانسخلتُ من نفسي كما ينسلخُ الكبْشُ من شَواه[٤]، فإذا أنا وربّي، فقال له: أنت معروفٌ ولستَ بطَيْفور، أتدري لمَ سمّيتُك معروفاً؟ قال: لا يا ربّ، قال: لأنك معروفٌ في السماء معروفٌ في الأرض، وذلك أولُ من سُمّي معروفًا، ثم قال له: ارجعْ إلى قريتِك، فإنّ أبويْكَ قد اشتاقا إلى رؤيتك، وإني

---

(١) في النسخة: اسأل، بخطاب المفرد المذكر، خطأ.

(٢) هو أبو يزيد الذي سبقت إلماحة ترجمته.

(٣) زيادة لازمة أخل بها الناسخ.

(٤) لعل المراد بالشوى، بالفتح، هنا: الصوف والجلد، يقال، مجازًا: "أعطاه من الشوى"، وهو رذال المال، ويجوز أن يعني بها الأطراف، على سبيل المجاز أيضًا. تاج العروس (شوي).

أهديتُهما[1] بكَ، وجميعَ أهل قريتِك، رُوي أنهما قالا: أيْ ربَّنا إيتِنا بطيفورٍ على أيِّ دين كان، فلمّا قَرع البابَ عليهما مشَتْ أمُّه فقال لها زوجُها: هه! فقالت: وقع في قلبي أنّ قارعَ الباب ابني طيفورٌ، فأصابني ما ترى، فابتدَر البابَ فإذا ابنُهما واقفٌ بالباب، فقال لهما: لستُ لكما بولدٍ ولستُما لي بوالديْنِ حتى تؤمنا بالله وحدَه، فقالا: دينُنا دينُك، فتشهَّدا بشهادةِ الحقّ. وكان أبوهُ شَمّاسَ[2] أهل القرية، فأسلم جميعُ أهل القرية بإسلامِه، فعلّمهم شرائعَ الإسلام بعدَما أسلموا وحسُنَ إسلامُهم.

ومنهم مَن سبقت إليه الغفلةُ ثم تداركتْه العناية، كإبراهيمَ بن أدهم[3]، فإنه كان في بداية أمرِه ملكًا ذا بَذَخ ونعمة، ثم أنقذه اللهُ بعنايته الأزليّةِ إلى الولاية.

---

(١) كذا، والجادة: هديتهما.

(٢) الشّمّاس، قال الخليل: من رؤساء النصارى الذي يحلق وسط رأسه لازمًا للبيعة، والجميع: الشمامِسة. العين ٦/ ٢٣٠.

(٣) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي، وقيل: التميمي، أبو إسحاق البلخي (ت ١٦١ هـ): زاهد مشهور من أهل بلخ، كان من أبناء الملوك والمياسير، يروى أنه خرج متصيِّدًا فهتف به هاتف أيقظه من غفلته، فترك طريقته في التزين بالدنيا ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع. خرج إلى مكة وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض، ودخل الشَّام، وبها مات. وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والحمل والطحن، ويشترك مع الغزاة في قتال الروم. وجاءه إلى المصيصة (من أرض كيليكيا) عبد لأبيه يحمل إليه عشرة آلاف درهم ويخبره أن أباه قد مات في بلخ وخلف له مالًا عظيمًا، فأعتق العبد ووهبه الدراهم ولم يعبأ بمال

وكان الفُضَيلُ بن عياض لصًّا فتداركتْه العناية. وكان بَنانٌ الجمّالُ[1] مطربًا، وكان حبيبٌ العَجَميُّ[2] من أهل الغفلة، وكان الشِّبْليُّ[3] حاجبًا للواثق بالله[4]،

أبيه. طبقات الصوفية للسلمي (٣)، وسير السلف الصالحين لقوام السنة، ص ٩٦٣، والتوابين لابن قدامة (٦٤)، ووفيات الأعيان لابن خلكان١/ ٣١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي ٢/ ٢٧، وتاريخ الإسلام ٤/ ٢٨٨، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٧، وطبقات الأولياء، لابن الملقن، ص ٥، وأعلام للزركلي ١/ ٣١، وغيرها كثير.

(١) ذكره السمعاني في (الحباسي) من الأنساب عرضًا ولم يترجم له، واليافعي في مرآة الجنان ٢٠٢/٢، وسواهما، ولم يترجم له.

(٢) حبيب بن عيسى العجمي العابد، أبو محمد (ت١٤٠هـ): أحد الأعلام، زاهد أهل البصرة وعابدهم، روي أنه كان يقول:"كل عمل لا يكون سرّه عندك آثر عندك من علنه فهو رياء". أصله من فارس. مشاهير علماء الأمصار للدارمي (١١٩٩)، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٨/ ٢٧، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال ٥/ ٣٨٩، وتاريخ الإسلام ٣/ ٦٢٧ وسير أعلام النبلاء ٦/ ١٤٣، وفيها مزيد مصادر.

(٣) دلف بن جحدر، وقيل: جعفر، وقيل: جعفر بن يونس وهكذا هو مكتوب على قبره، الشبلي، أبو بكر (ت٣٣٤ هـ): شيخ الطائفة، ناسك، صاحب أحوال، مشتهر بالصلاح. له شعر جيد، سلك به مسالك المتصوفة. أصله من خراسان، ونسبته الى قرية (شبلة) من قرى ما وراء النهر. طبقات الصوفية، للسلمي (٦١)، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٧٣، وتاريخ الإسلام ٧/ ٦٨٧ وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٦٧، والأعلام للزركلي ٢/ ٣٤١، وسواها.

(٤) في مصادر ترجمة الشبلي السابقة أنه كان حاجبًا للموفق، وكلا الخليفتين لا ينسجم في العصر مع الشبلي، فإن الواثق بالله توفي سنة ٢٣٢هـ، والموفق مات عام ٢٧٨، فالبعد بينهما وبينه ماثل.

وأمثالُهم كثيرةٌ. ثم أقبلوا للقُرب فلم يضرَّهم البعد؛ لأنّ مَن سبقت له العناية لا تضرُّه الجناية، والكلُّ في تدبير العزيز الحكيم.

واعلمْ أنّ الناسَ قسمانِ لا ثالثَ لهما: حيٌّ وميّت، فالحيُّ ينتفعُ بكلِّ اسم وكلِّ موعظة وكلِّ آية، والميّتُ لا ينتفعُ بشيءٍ من ذلك ما لم تُحيِه همّةُ نبيٍّ أو وَليّ، قال اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: ٢٤] وهي: الحِكمةُ والهمّةُ الجاذبة.

ثم الموتُ موتانِ: موتُ غفلة وموتُ عناد، فموتُ الغفلةِ يحيا صاحبُها بالهمّة وينتبه بالدّعوة وينجذبُ بالتجلّي باسمه الهادي. وموتُ العناد لا يحيا صاحبُها بشيءٍ من ذلك، قال اللهُ تعالى لرسولِه رأسِ الهُداة: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} [النمل: ٨٠]، بدليل قولِه تعالى: {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} [يس: ٧٠]، وقال: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥]. قال صلى الله عليه وسلم: إنّ اللهَ يُحيي القلوبَ الميّتة بنورِ الحِكمة، كما يُحيي الأرضَ الميّتةَ بوابلِ المطر"(١).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧٨١٠) من حديث أبي أمامة، وتعقبه الهيثمي في مجمع الزوائد (٥١٨) فقال: "فيه عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، وكلاهما ضعيف لا يحتجّ به". وأخرجه مالك في الموطأ (رواية أبي مصعب الزهري، حديث: ٢١١٧)، و (رواية سويد الحدثاني، حديث: ٨١٥) بلاغًا عن لقمان عليه السلام.

والمرادُ بالحياةِ هنا: حياةُ القلب لا حياةُ الجسم، قيل لبعضِ الملوك: إنّ من ثمرةِ الدنيا شجرةً من أكلَ من ثمرِها لم يذُقْ طعمَ الموتِ أبداً، فبَحث عليها حتى كَلَّ فلم يجدْها، فقال له بعضُ الحُكماء: إنّما هي شجرةُ العلم النابتةُ في أرضِ القلب، أصلُها الهُدى وفَرعُها الخَشية وثمرُها المعرفة وأوراقُها الأدب، فمن أكَل منها لم يُصِبْه موتُ الجهل أبدًا.

قال شيخُ الإسلام الهَرَويُّ، في قولِه تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} [الأنعام: ١٢٢]، قال: الحياةُ في ثلاثة أشياءَ: حياةُ العلم من موتِ الجهل، ولها ثلاثةُ أنفاس: نفسُ الخوف ونفَسُ الرجاءِ ونفسُ المحبة، الحياةُ الثانية: حياةُ الجمْع من موتِ الفُرقة ولها ثلاثةُ أنفاس: نفسُ الاضطرار[١] ونفَسُ الاحتقار ونفسُ الافتخار، الحياةُ الثالثة: حياةُ الوجود وهي حياةٌ بالحقِّ ولها ثلاثةُ أنفاس: نفسُ الهيْبة، وهي مركَزُ الاعتلال، ونفسُ الوجود، وهو يمنعُ من الانفصال، ونفسُ الانفراد وهو يورثُ الاتّصال بلا علة، وليس وراءَ ذلك ملحظٌ للنَّظّارة ولا محلٌّ للإشارة.

وإنما قيل للمطر: حيّ؛ لأنه يجمعُ القوةَ المتفرّقةَ المتضادّة، أما ترى قولَه تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: ٣٠]؟ ففي قوله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا} [النحل: ٧٨] : موتٌ، {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} [النحل: ٧٨]: حياة، وفي قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا

---

(١) في النسخة: الإضرار، خطأ يصوبه كلامه الآتي.

لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} [الأنعام: ١٢٢] يعني: العلمَ الشّرعيَّ والأدبَ[١] السُّنّيّ، فهذه أولُ الحياة وبابُها ومفتاحُ خزائنِها.

وأما وسَطُ الحياة فحياةُ الجمْع من موتِ التفرقة، وأنفاسُها الثلاثةُ مفاتحُ أنفاسِ الثلاثِ الأُوَل، فمنَ الخوف ينشأُ الاضطرار، ومن الرجاءِ ينشأُ الافتقار، ومن المحبة ينشأُ الافتخار.

وأمّا غايةُ الحياة فهي حياةُ الوجود؛ لأنّ الوجودَ كلَّه حيٌّ بحياةِ مُوجِدِه، كما قال تعالى: "يا عبدي، اطلُبْني تجدْني، فإن وجدتَني وجدتَ كلَّ شيء، وإن فتُّك فاتَك كلُّ شيء"[٢]. وهذا هو عينُ الوجود المشارِ إليه بقولِهم:

فوجْدي به وجـدٌ لوجدِ وجـودِهِ ... ووجْدُ وجودِ الواجدينَ لهيـبُ

لئن متُّ وجْـدا في محبّة سـيّدي ... فـإنّ المنايـا في الفـؤاد تطيـبُ

ومن علاماتِ حياة القلب: تجافي الجَنْب عن المضاجع، قال الله تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة: ١٦] أي: لا تنامُ أعيُنُهم خوفا من الله

---

(١) في النسخة: والآداب.

(٢) أخرجه ابن كثير في تفسيره ٤/ ٤٢ (سورة الأنفال) و ٧/ ٤٢٦ (سورة الذاريات) وعضد الرواية الأولى منهما بقوله صلى الله عليه وسلم من حديث أنس المرويّ في الصحيحين: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان...."، (الجمع بين الصحيحين، للحَميدي، حديث: ١٩٠٩)، وعنه أخرجه ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٣٨، وفي تفسيره أيضًا ١/ ٤٣٩.

فيؤدّي ذلك إلى تجافي جنوبِهم عن المضاجع، وهي صفةُ الرَّبّانيِّين، ولا سبيلَ إلى ذلك معَ كثرة الأكل والشُّرب، كما قيل: من كثُر أكلُه كثُر شُربُه، ومن كثُر شربُه كثُر نومُه[1]، ومن كثُر نومُه كثُر[تْ] خطاياه، ومن كثُرتْ خطاياهُ قلَّ دينُه، ومن قلَّ دينُه فالنارُ أوْلى به.

وعن بعضِ السلَف[2] قال: من عجَز عن ثمانيةٍ فعليه بثمانية، الأُولى: من أراد ثوابَ قيام الليل وهو نائمٌ فلا يعصِ اللهَ بالنهار، الثانية: من أراد ثوابَ صيام الأبد وهو مُفطِرٌ فعليه بحفظِ لسانِه، الثالثة: من أراد فضلَ العلماء فليتفكَّرْ في خلق السمواتِ والأرض، الرابعة: من أراد فضلَ الصّدَقة فليأمُرْ بالمعروف ولينْهَ عن المنكر، الخامسة: من أراد فضلَ الزّكاة فليكُفَّ نفسَه عن الشبُهات، السادسة: من أراد فضلَ الحجِّ فلْيُلازم الجمُعة، السابعة: من أراد فضلَ العابدين فلْيرحَمْ جميعَ خلق الله، الثامنة: من أرادَ فضلَ الأولياء فلا يرضَ لأخيه المؤمن إلّا ما يرضى لنفسِه.

واعلمْ أنّ الانبياءَ والأولياءَ، معَ عِصمتِهم وحفظِهم وعلُوِّ منصبِهم ليس إليهم من الهدايةِ شيءٌ، بل اللهُ يَهدي من يشاءُ على أيديهم بفضلِه فيُضلُّ من يشاءُ

---

(١) هذا الأثر أخرجه إلى هنا: شرف الدين الطيبي في الكاشف عن حقائق السنن ١٠/ ٣٢٩٣، وفيه: "ثقل نومه"، وأخرجه غيره نقلًا عنه.

(٢) روح البيان، لأبي الفداء الخلوتي ٩/ ٤٥٣ (سورة الحشر).

رغمًا بعدلِه، فليس في الحُكم نَسَب ولا للحِكمة سبب، وإنّ اللهَ لا يرضى إلّا بما أحبّ ولا يُعصَى إلّا بما أراد، فالإرادةُ حُكمٌ والرِّضى حِكمة، والقدرةُ تطَّرِدُ وتنعكس، رَضيَ اللهُ في الأزلِ على[1] أقوام فاستعملهم في أسبابِ الرِّضى من غيرِ سبب، وسَخِط على أقوام فاستعملهم في أسبابِ السُّخطِ من غيرِ سبب، [وخاطَبَهم بقوله][2]: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} [الأنعام: ١٢٥]، وخاطَبَ رسولَه بقولِه: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: ٥٦] والحكمُ عامٌّ في كلِّ أحد.

وقد خصَّ رسولَه صلى الله عليه وسلم بأتمِّ الفضائل وأعلى الوسائل، حتى أنه لم يُسبَقْ بفضيلة ولم يَحتجْ لوسيلة، إذْ ليس لهُ في جميع ذلك نظر، بل ذلك محضُ سابقةِ سعادة أيّدتْه وخصوصيّة قرَّبتْه، فلو كان لهُ في التدبير نظرٌ لَما مُنع منَ الشفاعة في عمِّه ومنَ الاستغفار لأبيه، ولو كانتِ الهدايةُ بيد آدمَ لَهَدى قابيل، ولو كانت بيدِ نوح لَهَدى كنعان، أو بيدِ إبراهيمَ لَهَدى أباه آزَر، أو بيدِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم لَهَدى عمَّه أبا طالب. جَلَبتِ العنايةُ سلمانَ من فارس، وجاءت ببلالٍ

(١) كذا في النسخة، والجادة: عن.

(٢) ما بين معكوفين زيادة واجبة أخل بها الناسخ فاطّرحها ونسقناها على وفق قوله الآتي: "وخاطب ...".

من الحبشة، وأَخَذَتْ بضَبْعَيْ[1] صُهيبٍ من الرُّوم، وأبو طالبٍ يناديهِ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو في سياقِ الموت: "يا عمِّ، قلْ: لا إلهَ إلّا اللهُ كلمةً أشهدُ لك بها بين يدَي الله" فأبى[2]. فسبحانَ مَن أعطى ومَنَع، وأضرَّ ونفَع، لا مُعقِّبَ لحُكمِه، ولا رادَّ لقضائه، ولا مشاركَ له في أمرِه .

واجعلْ كدَّك وجِدَّك في إصلاح قلبِك، فإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول[3]: "إنّ في الجسدِ مُضغةً إذا صَلَحتْ صَلَحَ[4] الجسدُ كلُّه، وإذا فسَدتْ فسَد الجسدُ كلُّه، ألَا وهي القلب"؛ لأنّ الذِّكْرَ إذا لم يكنْ بالقلبِ فهو هَذَيان، قال تعالى: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨]، وقال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} [ق: ٣٧].

---

(١) الضبع بالفتح: العضد، ويسمى به الإبط للمجاورة، يقال: أخذت بضبعي فلان فلم أفارقه. تاج العروس (ضبع).

(٢) متفق عليه، أخرجه الشيخان من حديث المسيب بن حزن بن أبي وهب: البخاري (١٣٦٠) و(٣٨٨٤) و (٤٦٧٥) و (٤٧٧٢) و (٦٦٨١)، ومسلم ٣٩ - (٢٤)، وانظر: الجمع بين الصحيحين، للحَميدي (٢٨٧٥).

(٣) متفق عليه، أخرجه الشيخان من حديث النعمان بن بشير: البخاري (٥٢)، ومسلم ١٠٧ - (١٥٩٩).

(٤) في شرح النووي: "قال أهل اللغة: يقال: صلح الشيء وفسد بفتح اللام والسين وضمهما، والفتح أفصح وأشهر". المنهاج ١١/ ٢٨ -٢٩.

وإنّما سُمِّي الإنسانُ إنسانًا بقلبِه لا بجسمِه، قال بعضُ الحُكماء: الإنسانُ نُسخةُ الوجود وفيه ما في كلِّ موجود. فهو يُحاكي كلَّ شيء ولا يُحاكيه شيءٌ؛ لأنّ اللهَ أودَعَ في قلبِه جميعَ الأسرار وكنْزَ التّقوى وسرَّ المعرفة، وجَعل الجسمَ طِلَسْمًا[١] عليه، وجَعل نصفَ هذا الطِّلَسْم لطيفًا روحانيًّا ونصفَه كثيفًا جسمانيًّا، وجَعل نصفَه ساكنًا ونصفَه متحرّكًا، ونصفَه نورًا ونصفُه ظُلمةً، فهو من جهةِ الحسِّ: مفعولٌ به مجبورٌ، ومن جهة المعنى: فاعلٌ غيرُ محصور، أودَعَ اللهُ فيه قوةَ الجلْبِ والدّفع، والضُّرِّ والنفْع، وجَعل رأسَه عرشَه وصدرَه كُرسيَّه، ونصفَه الأعلى سماواتٍ نورانيّةً روحانيّة، ونصفَه الأسفلَ أرضًا ظُلُماتيّةً نفْسيّة. وجنْباهُ مَشرقُه ومغربُه، وحركاتُه جَرَيانُ الشمس والقمر، وأعضاؤه كالكواكبِ السيّارة السبع على عدد الأيام، وجَعل على ظهرِه أربعا وعشرين فِقارةً على عدد الساعات، وله ثمانيةٌ وعشرونَ مَفصِلًا[٢] على عددِ المنازل، ولهُ: ثلاثُ مئةٍ وستونَ عِرقًا ناهضةً على عدد أيام السنة، وثلاثُ مئةٍ وستونَ عِرقًا ساكنةً على عدد الليالي، وعقلُه ديوانُه ولسانُه تَرجُمانُه، وأُذُناهُ صاحبا خبرِه، وعيناهُ حارساه، ومعِدتُه بيتُ مالِه،

---

(١) بكسر الطاء وفتح اللام وسكون السين، قال الزبيدي: كسِبَطْر: اسم للسر المكتوم، وقد كثر استعمال الصوفية له في كلامهم، فيقولون: سر مطلسم وحجاب مطلسم وذات مطلسم، والجمع: طلاسم، وعندي أنه عربي، وشدد شيخنا اللام وقال: إنه أعجمي. انتهى. من تاج العروس (طلسم).

(٢) وزان مسجد. المصباح المنير (فصل).

ومرارتُه مِلحُ جسدِه، ولولا هي لأنْتَنَ الجسد، ورئتُه مِرواحةُ المَلِك[١] ويداه حاجباهُ ورجلاهُ مَركَبُه. وجَعل لحمَه بمثابة التّراب وعظامَه بمثابة الجبال، وشعرَه بمثابةِ النبات وعروقَه بمثابةِ الأنهار. وجَعل له سبعةَ معادنَ والجلدُ محيطٌ بجميعِها، وهي: اللحمُ والعظمُ والعَصَب والمُخُّ والشَّحْم، فهذه خمسةٌ خفيّة وثلاثةٌ ظاهرةٌ وهي: الجلدُ والشعرُ والظُّفر، ويخرجُ منه اثنا عشَرَ عنصرًا أنقباءُ على عددِ البروج: سبعةٌ في الرأس وخمسةٌ في سائرِ الجسد، فالذي في الرأس: الأُذُنانِ والعينانِ والمَنخِرانِ[٢] والفمُ، والتي في الجسد: السُّرة والثّدْيان والمَخرَجان. وكلُّ نقيبٍ موكَّل على بحرٍ سوى المَخرجَيْنِ والثَّديَيْن، فبحرُ المَنخِريْنِ مَسُوسان، وبحرُ العينيْنِ مالحان، وبحرُ الأُذُنيْنِ مُرّان، وبحرُ الفم عذْبٌ فُرات، فسبحانَ مَن {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠].

ولم يجعلِ اللهُ في هذا الاختراع الربّانيِّ أفضلَ من الرُّوح، وهو الملِك، وبصلاحِه صلاحُ القلب، وبصلاح القلبِ صلاحُ جميع الجوارح، وبصلاح جميع الجوارح صلاحُ جميع الأعمالِ والأحوال، وبصلاح الأعمال والأحوال صلاحُ الدّنيا والآخرة، قال اللهُ تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ

---

(١) هذا وما بعده على التشبيه والتصوير.

(٢) فصّل الزبيدي ضبط الميم والخاء من هذه الكلمة، فقال: "والمنخر، بفتح الميم والخاء، وبكسرهما، وهما نادران، وبضمّهما، وكمجلس ومُلمُول: الأنف"، خمس لغات. تاج العروس (نخر).

لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة: ١١١]، فوزيرُ الرُّوح: العقل، وزوجتُه: النفْس، وحُرّاسُه: الفِكرُ والذِّكْرُ والفهمُ والفِطنةُ والذكاء، وجنودُه: الأعمالُ الصالحات، وخَدَمُه: الجوارح، وحصونُه: الأحوالُ السَّبعةُ وهي: الإيمانُ والإسلامُ والإحسانُ والتوكُّلُ واليقينُ والتفويضُ والرِّضى، وسلاحُه: الإخلاصُ والزُّهد والنُّصح.

وممّا أنزل اللهُ في بعضِ كتُبِه المنزَّلة: إنّي خلقتُ آدمَ وركّبتُ فيه من كلِّ رطْبٍ ويابس وحارٍّ وبارد، وخلقتُه من ترابٍ وماء، ثم جعلتُ فيه نفْسًا ورَوحًا، فيُبوسةُ جسَدِه من التراب، ورطوبتُه من الماء، وحرارتُه من النفْس[١]، وبرودتُه من الرُّوح، فمن نفسِه حدَّتُه وشهوتُه وحبُّه ولهوُه ولعبُه وضحِكُه وسَفَهُه وخَدْعُه وحتفُه وخوفُه، ومن روحِه: وقارُه وعفافُه وفهمُه وحياؤه وتكرُّمُه وصدقُه وميزُه ورحمتُه، فمسكَنُ الخوفِ والحبِّ والرجاء: القلب، ومسكنُ الشهوة واللهوِ واللعبِ والسَّفَه والخداع والشُّحّ والبخل: النفْس، ومسكنُ الرحمةِ والرأفة: الكبِد، ومسكنُ الضحك: الرئة، ومسكنُ القوّة: الكُلْيتان، ومسكنُ الشجاعةِ: الحَشاشة، ومسكنُ الجُبن: النَّحر، ومسكنُ الخواطرِ: القلب، فخاطرُ السُّوء يُلقيه الشيطانُ على النفْس، وخاطرُ الخيرِ يُلقيه الملَكُ على الرُّوح، واللِّسانُ يُترجمُ عن الجميع، والكلُّ يُعرَضُ على الوزير وهو العقل، فما استَقبَح من ذلك رَدَّه، ومن[٢] استحسَنه أمضاه.

---

(١) الضبط من النسخة.

(٢) كذا في النسخة.

والتوفيقُ والخِذْلانُ حَكَمانِ يبعثُهما الملِكُ الأكبرُ دائبيْنِ قاهرَيْنِ للجميع، فإذا قهر التوفيقُ الخِذلانَ استحالت الخواطرُ إلهامًا وتلقّيًا وإفهامًا، فاستنار القلبُ بشُعاع فجرِ البصيرة، فيتصلُ بشُعاع نُورِ العرش، فيظهرُ سلطانُ الرُّوح على سلطانِ النفْس، فيتزجَّجُ البدنُ، فيكونُ العبدُ روحانيًّا كاملًا يصاحبُ الأملاك ويشاهدُ الأفلاك وتتجلّى عنه جميعُ الأحلاك بذلك أوانَ الكشفِ التامّ وتلقّياتِ العلم العامّ.

ثم اعلمْ أنّ للنفْس ثلاثةَ أطوار: طورا تكونُ فيه أمّارةً فهي محجوبةٌ بظُلمة الجسدِ عن حُكم باريها، ونفْسٌ لَوّامة وليس لها إلّا بعضُ فِراسة، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "اتّقوا فِراسةَ المؤمن، فإنه ينظرُ بنُور الله"[١]، ونفْسٌ مطمئنّة، وهي التي تتنوَّرُ بنُور الرُّوح، فلها المكاشَفةُ والمشاهدةُ والمراقَبةُ والمطالعة، وذلك معنى قولِه تعالى: "لا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليّ بنوافلِ الخيرات حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ لهُ سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيّدًا وصاحبًا". ففي هذه الحالة تُخرَقُ له العوائد؛ لأنّ أحوالَه وأفعالَه بالله لا بنفسِه.

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري، وقال: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه.

وفي الأَمّارة نزل قولُه تعالى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} [لقمان: ٣٤] الآيةَ. سُئل الشيخُ فتْحٌ العَجَميُّ(١) عن هذه الآية، معَ اطّلاع الأولياءِ على المُغيَّبات، فقال: النفسُ لا تدري ذلك، إنما تعلمُه الرُّوحُ التي هي {مِنْ أَمْرِ رَبِّي} [الإسراء: ٨٥] ، فإذا ترَوَّضتِ النفْسُ أدركتْ بواسطة الرُّوح ومددِها وما اكتسبتْه من أشعّة نورِها. وفي قولِه تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} [الجن: ٢٦-٢٧]، وكذلك اتّباعُ الرسول بواسطة، كما يشهدُ له قولُه تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف: ١٠٨]، وعطفُ النَّسَق يقتضي المشاركةَ كما هو معلومٌ بالمشاهدة، وفي قولِه تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} [الفجر: ٢٧] الآيةَ.

فاشتراكُ الأنبياءِ والأولياء في الارتضاءِ والعبوديّة يقتضي اشتراكَهما في المُعجزاتِ والكرامات والدعوةِ إلى الله فافهَمْ.

واعلمْ أنّ لهذا الملِكِ الرَّبّانيِّ ملِكًا آخَرَ يُضادُّه وهو الشيطان، فملِكُه الهوى، ووزيرُه الغواية، وزوجتُه النفْسُ الأمّارة، وسُرِّيّتُه(٢) الدّنيا، وجاسوسُه الشيطان، وحبائلُه الشّهوات، وجنودُه المعاصي، وأسلحتُه الأحوالُ السيئة، وحرفتُه

(١) لم أعرفه.

(٢) السُّرّيّة، بالضم: الأمة أو الجارية التي بوّأتها بيتًا واتخذتها للملك والجماع. تاج العروس (سرر).

الوقوفُ معَ العوائد، فلا يزالُ الشيطانُ يتجسَّسُ لينالَ من المُلك الربّانيِّ غِرّة أو ينتهزَ فرصة، حتى إذا يئس أتى الهوى فيقولُ له: إنك لستَ بمَلِك إنما المَلِكُ الرُّوح، فيقولُ له: عندَ من هو؟ فيقول: عند فلان، فيقولُ له: هلّا حاربتَه؟ فإنك عدوُّه الأقدم من عهدِ آدمَ، فيقولُ له: هيْهات! إني رأيتُ جندا لا يُطاق ومشربا لا يُذاق، قد أحدقت به أسوارٌ راسخات وجبالٌ شامخات، مملوءةٌ بأنواع الرُّماة والعيونِ الرامقات، وإنه معصومٌ منّي ما دام في هذا الهيكل العظيم، وفي هذا الناموس المستقيم، فيذهبُ إليه الهوى في خيلِه ورَجِلِه، يكادُ يتميّزُ غيظا من أجلِه، الكِبرُ شيمتُه، والعُجبُ عصمتُه، فإذا تراءى الجمعانِ نَكَص على عقِبيْه وقد سُقِط في يديْه، فتهزمُه أجنادُ الحقّ، فلا ترى إلا صِنديدًا مقتولًا، ولواءً منثولًا، وأسيرًا مغلولًا، وفَلًّا مفلولًا، فيأخذُ الرُّوحُ الهوى فيسجنُه، ويبثُّ سراياهُ في تلك الساحة، فلا تترُكُ للهوى حصنًا إلّا هدمتْه، ولا كيدًا إلّا ردمتْه، ولا صرحًا إلّا دَمْدمتْه، ولا حبالةَ غَيٍّ إلّا فرَّقتْها، ولا ستارةَ زيْن[1] إلّا خرّقتْها، فيضربُ الحقُّ أطنابَه على كلتا الساحتين، فتصبحُ العينُ قريرة والخيراتُ كثيرة والعلومُ غزيرة والحقائقُ مُنيرة والعِصَمُ بالكُلِّ مُديرة، وإن غَلَب الهوى، وذلك لا يكونُ إلّا قبلَ التمكين، انعكس الأمرُ، فيكونُ الهوى معبودُه وللغواية يقودُه، قال اللهُ تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الجاثية: ٢٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إنّي لا أخافُ عليكُم أن تُلبَسَ عليكم الطُّرُقُ من بعدي فتضِلُّوا، ولكنْ أخافُ عليكم أن

---

(١) كذا بالزاي، ولعلها: رين، بالراء على ما نرى مما يوافق المعنى هنا.

تتَّبعوا الهوى"، وقال: "أكبرُ معبودٍ عُبد في الأرضِ: الهوى". ولذلك صار جهادُها هو الجهادَ الأكبر.

وكلُّ مَن جَعل الشهواتِ نُصبَ عينيْه فإنه كعابدِ وثن؛ لأنها كلَّها أصنامٌ شيطانيّة وحُظوةٌ نفسانيّة ألِفَتها العادات فغشيَتها الغَفَلات، فاحتجبتْ بها القلوب، وأظلمت من أجلِها الأرواح، وتقَوَّتْ بها النفْسُ الأمّارة، فصاحبُها كمُربِّي الثعبان، قال الشاعر:

مَن لاعَب الثعبانَ في كــفِّهِ — هيهاتِ أن يسلمَ من لدغتِهْ

فذيّلتُه وقلت:

ومن أطاعَ النفسَ في شهوتِهْ — أمسى غريقًا في شبا غفلتِهْ
ومــن يؤمِّــرْها عــلى روحِهِ — ستسقِهِ السُّمَّ على ســكرتِهْ
ومــن يُتابعْهــا عــلى زلّــةٍ — سيقرَعُ السنَّ لدى حسرتِهْ
ومــن يُزكِّهــا عــلى رغمِها — يغشِّها الأنــوارَ في خَلوتِهْ
هيَ التي تُكرمُ مَن صدَّهــا — عن المهاوي مِن[١] ضُحى نظرتِهْ
ومَـــن يُكرِمْهــا تُهِنْــهُ ولا — تُبقــي عليه من سَــنا حُرمتِــــهْ
ومَن يُدَسِّـــها يخِبْ ســعيُهُ — ويجتــني الزَّقــومَ مــــن نِحلتِهْ
ومــن يخَــفْ نقمــةَ فاطــرِهِ — يُتِــحْ لــه الرحمـــةَ في غُـــربتِهْ
من يتّــقِ اللهَ يجِــدْ مخرجــاً — وتأتِـــهِ الأرزاقُ فــي نومتِــهْ
مــن يتوكّــلْ حســـبُهُ ربُّــهُ — ينَجِّـــهِ والــشــرُّ في حوْبتِهْ

---

(١) في النسخة: "ومن"، ولا يستقيم العجز مع الواو.

من يطلبِ الرُّشدَ مجدًّا يجدْ رشــدًا مبينًا وهْو في حُجرتِهْ
ومن تكنْ باللهِ نصرتُهُ تخافُه الملوكُ في نهضتهْ
ومن يُصاحبْ مُقسطًا يُردِهِ ويقتني الشرورَ من صُحبتِهْ
ومن يصاحبْ صالحًا يُعلِهِ ويقتني الخيراتِ من رؤيتِهْ
ومن يحبَّ المالَ طبعًا يرى منهُ نكالًا في شَفَا حُفرتِهْ
ومن يحبَّ الجاهَ لا للتُّقى يقاسِ منه الهمَّ في كرْبتِهْ
ومن يُرجي الفضلَ من ناقصٍ رامَ التقاطَ الدرِّ من صخرتِهْ
ومن يُعمَّرْ يلقَ من دهرِهِ سرورَهُ والحُزنُ في نجْعتِهْ
المالُ مالَ لهُ كلُّ الورى وجدَّ [كلُّهُمُ](١) في خدمتِهْ
والحرُّ من يكتُمُ أسرارَهُ في صدرِه ولو على زوجتِهْ
والمتّقي من يتّقي ربَّهُ يبكي مدى الدهرِ على حوْبتِهْ
ومن يقومُ الليلَ منزعجًا يُحيي الدُّجى بالذكرِ في رحلتِهْ
يُجافي عن فراشِه جثتَهْ يدعو كريمًا غابَ في قُربتِهْ
أشهى إليه من لذيذِ الكرى تملُّقُ الأسحارِ في رغبتِهْ
إذا النسيمُ هبَّ هبَّ لهُ موجد(٢) يخافُهُ على مُهجتِهْ
يسقيهِ من تسنيم نفحتِهِ خمرا تذيبُ القلبَ عن حضرتِهْ
فيشهدُ المكتوبَ في سُكرِه ويُدركُ المرغوبَ في خمرتِهْ
لهُ حنينٌ في الدُّجى مُحرِقٌ تغشّيهِ الأنوارُ في سجدتِهْ
يلبِّيهِ اللهُ إذا ما دعا ويُدنِهِ والقلبُ في غمرتِهْ

---

(١) كذا العجز في النسخة ناقص أسقط الناسخ منه شيئًا أخلّ بوزنه، وما بين معكوفين تقدير منا لأقرب معنى.

(٢) العجز بهذه الكلمة مكسور، وهو هكذا في النسخة.

هـــمُ صِـحابِي وبِهِمْ أُلفتِي والمـرءُ مجبـــولٌ على فِرقتِـهْ
ثـــم صـلاتُهُ على عبدِهِ الـ ـمصطفى المختارِ من خيرتِهْ

ثم اعلمْ أنّ قلبَ المؤمن هو بيتُ الربِّ تعالى، وهو أفضلُ من الكعبة ومنَ البيتِ المعمور. والمرادُ بالمؤمن: التامُّ الإيمان الذي عَرِي قلبُه من كلِّ شيءٍ سوى مُقلِّبه تعالى؛ لأنه غَيورٌ لا يقبلُ شراكة الأغيار، قال الرسولُ صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ لا ينظرُ إلى صُورِكم وأعمالِكم وإنّما ينظرُ إلى قلوبِكم وأحوالِكم"(١)، برمزِ قولِه تعالى {أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} يعني: الوارداتِ الربّانيةَ {وَالْعَاكِفِينَ} يعني: المعارفَ الإلهيّة؛ لأنها تُلازمُ قلبَ العارف فلا تفارقُه طَرْفةَ عين {وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [البقرة: ١٢٥] وهي: أنواعُ الانكساراتِ لله تعالى حالَ التجلِّيات، فتجلِّي الرحمة يُغيب، وتجلِّي العظمة يُذيب.

رُويَ أنّ بعضَ الأولياء خَرج معَ بعض خواصِّه من مُريديه على رَسْم التفكُّر، فبينما هو يتبعُه إذا غاب على(٢) عينيْهِ فجَعل يطلبُه، فمرَّ في طلبِه إياه بضَحْضاح من الماء، فجاوَزَه في طلبِ الشّيخ حتى يئسَ من وجودِه، فرجَع أدراجَه، فإذا الشيخُ قائم في محلِّ الضَّحضاح ولا ضحضاحَ، ثم قال له: كنتَ في طلبي؟ قال: نعم، قال: قد مررتَ بضَحْضاح مُستنقِع في موضعي هذا؟ قال: نعم، وأين

(١) رواه مسلم ٣٤- (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة.
(٢) كذا استعمال المؤلف رحمه الله، والقياس: غاب عنه.

الضَّحضاح؟ فتبسّم الشيخُ ثم قال له: الضَّحضاح أنا، إنّ اللهَ تعالى تجلَّى عليَّ بعظمتِه فذُبتُ، ثم تجلَّى عليّ برحمتِه فبعثَني، فها أنا ذا.

وممّا أوحى اللهُ إلى موسى عليه السلام: يا موسى، إنّ في أجوافِ أحبائي بيتًا يُسمّى القلبَ، أرضُه الإيمان، وسماؤه المعرفة، وشمسُه الشوق، وقمرُه المحبة، ونجومُه الخطاب، وعرشُه الهمّة، ورعدُه الخوف، وبرقُه الرَّجاء، وغمامُه الحِلم، ومطرُه الرحمة، وشجرُه الوقار، ومِصباحُه الحِكمة، ودُهنُه العلم، وضياؤه الفِراسة، وليلُه الأُهبة، ونهاره اليقَظة، وله أربعةُ أركانٍ: ركنٌ منَ الأُنس، وركنٌ من التوكّل، وركنٌ من الصِّدق، وركنُ من الرجاء، وله أربعةُ أبواب: بابٌ من العلم، وبابٌ من الحلم، وبابٌ من التُّقى، وباب من المعرفة وعليه قيدٌ من الرّضى.

واعلمْ أنّ أشرفَ الذّكر ذكرُ الله في الصّلاة؛ لأنها سُلّمُ الارتقاءات ومعدِنُ المصافاة، ومركزُ التجلّيات، يغشى شُعاعُها القلوبن ويُفتحُ بها رتْقُ الغيوب، وبها قُرّةُ أعيُن المحبوب، قال الرسولُ صلى الله عليه وسلم: "حُبِّب إليّ من دُنياكم ثلاث: النساءُ، والطِّيبُ، وجُعلت قُرّةُ عيني في الصلاة"[١]. قالت عائشةُ رضي اللهُ عنها: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يكونُ معَنا كأحدِنا، حتى إذا ثُوِّب

(١) ذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٠٦)، وأبو الحسن الملا الهروي في الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (١٦٠)، وكلاهما درس رواياته وطرقه بما فيه غناء، فانظره ثمة.

بالصلاة انْزمَع فكأنّه ما عَرَفنا وما عرفْناه حتى يفرُغَ من شأنِها. وليس منَ الأعمال عملٌ يبقى مع الأُمّة إلى قيام الساعة غيرُها، وليس من الأعمال عملٌ لا يزالُ واجبا على المؤمنِ ما دام معَه عقلُه غيرُها، وليس من الأعمال عملٌ ينهى عن الفحشاءِ والمنكر غيرُها، قال اللهُ تعالى {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥]، وليس منَ الأعمال عملٌ يُفزَعُ إليه عندَ الكُرُبات فتنجلي غيرُها، وفي الصحيحين، أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا حَزَبه أمرٌ فَزِع إلى الصّلاة[١]، وليس من الأعمال عملٌ يُستجلَبُ به الرّزقُ غيرُها، وقال اللهُ تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُك} [طه: ١٣٢]، وقال في عدم سقوطِها عن المؤمن ما دام في عقلِه: {فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [النساء: ١٠٣] صلاةَ المريض.

قولُه {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [العنكبوت: ٤٥] أي: ولَذكْرُ الله في الصلاةِ أكبرُ من ذكرِه في غيرِها، وإن شئتَ قلت: ولَذكرُ الله لعبدِه في الصّلاة أكبرُ من ذكرِ العبدِ لله بها، وإن شئتَ قلت: ولذكرُ الله في الصّلاة بالقلب أكبرُ من ذكرِ العبدِ لله، وإن

---

(١) رواه أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة، ولفظه فيهما: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى". وليس في الصحيحين هذا اللفظ، فلعله وهم من المؤلف رحمه الله، وطالع لو أردت: جامع الأصول، لابن الأثير (٧٠٥٠)، وتحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، للمزي (٣٣٧٥)، كلاهما أورد هذا الحديث ورمز له (د) إشارة إلى أبي داود فقط، و"المسند الجامع" للدكتور بشار عواد معروف (٣٢٧٨).

شئتَ قلت: ولَذكرُ الله في الصّلاة بالقلبِ أكبرُ من ذكرِه إيّاه باللّسان، وذلك[١] أنّ الصّلاةَ تَزجُر العاصيَ وتبشِّرُ المطيع.

والصلاةُ إذا لم تنْهَ عن الفحشاءِ والمنكر لم تزِدْ فاعلَها إلّا بُعدًا منَ الله، وذلك أنّ في الصلاة أقوالًا وأفعالًا وأحوالًا، فالأقوالُ والأفعال تنقطعُ والأحوالُ تُرافقُ العبدَ إلى الأبد، قال الرسولُ صلى الله عليه وسلم: "مَن صلّى ركعتيْنِ لا يحدِّثُ فيهما نفسَه"- بشيءٍ من أمر الدّنيا[٢]- "غُفر له ما تقدَّم من ذنبِه"[٣].

واعلمْ أنّ الحضورَ في الوضوء يكونُ على قدْر حضورِ المصلّي معَ الله خارجَهُ، وعلى قدْر الحضورِ في الوضوء يكونُ حضورُ المصلِّي في صلاتِه، إذ ليس لهُ من صلاته إلّا ما عَقَل.

فإذا قمتَ إلى الصّلاة فاجعلِ الكعبةَ نُصبَ عينيْك والصّراطَ تحتَ قدميْك والجنةَ عن يمينِك والنارَ عن شمالِك وملَكَ الموت وراءَ ظهرِك، واعتقدْ بها آخرَ صَلَواتِك في الدنيا.

---

(١) كتب أحدهم هنا في الحاشية بإزاء بدء التعليل: "أحال بالسبب".

(٢) ليست العبارة ما بين شرطتين من متن الحديث

(٣) رواه الشيخان: البخاري (١٥٩) و (١٦٤)، ومسلم (٢٢٦)، من طرق عن عثمان بن عفان، وأوله فيهما: "من توضأ نحو وضوئي هذا ثم قام فركع ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه....." اللفظ لمسلم. وانظر مزيد فائدة في الجمع بين الصحيحين للحَميدي (١٠١).

ثم انوِ بخوفٍ ورجاءٍ، وكبِّرْ بتحقيقٍ وعظَمة، واقرأْ بترتيلٍ وتدبُّر، واركَعْ بخضوع، واسجُدْ بخشوع، وتيَقَّنْ أنه ليس لك منها إلّا ما عَقَلت.

وحافظْ على صلاةِ الجماعة، فإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَن صلّى أربعينَ يومًا في جماعةٍ لا تفوتُه معَها تكبيرةُ الإحرام كُتِبتْ له براءتانِ من النار وبراءةٌ من النّفاق"(1).

واعلمْ أنّ أولّ مَن صلّى الصُّبحَ آدمُ عليه السلام، وكان لا يعرفُ ظُلمةَ الليل، فأوْجَس في نفسِه خِيفةً أن يكونَ ذلك الأمرُ من أجل خطيئتِه، فبات مَغْشيّا عليه، فلمّا رأى ضوءَ الصُّبح صلّى ركعتيْنِ شكرًا لله تعالى. ثم فُرِضتْ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأُمّتِه ليُخرَجوا بها من ظُلماتِ الجهل إلى نورِ العلم، ومن ظُلماتِ الشِّرك إلى نور الإيمان، ومن ظُلماتِ المعاصي إلى نور التوبة، قال اللهُ تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ *لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ*(2) إِلَى النُّورِ} [الأحزاب: ٤٣].

وأولُ مَن صلّى الظهرَ إبراهيمُ عليه السلامُ لمّا فَدى ولدَه بذِبْح عظيم، وكانت قد أصابته همومٌ أربع: ذبحُ ابنِه ورضوانُ ربِّه ووَجْدُ والدة ابنِه وشماتةُ عدوِّه إبليسَ، فلمّا زالت همومُه الأربعةُ صلّاها أربعًا كلُّ ركعةٍ شكرًا لما يقابلُها من الهمِّ المُزال بفضل ربِّه، ففُرِضتْ على هذه الأُمّة لتكونَ مُزيلةً لأربعة: وسوسة

---

(1) رواه الترمذي (٢٤١) عن أنس.

(2) أسقط الناسخ هذه الكلمات الثلاث من الآية الكريمة.

الشيطان، وآثار العصيان، وليُفدَى مصلِّيها بكافرٍ منَ النّيران، ولينالَ بها رضى الرحمن يومَ العرض والميزان.

وأولُ مّن صلّى العصرَ سُليمانُ لمّا ردَّ اللهُ عليه مُلكَه وكَبَت صخرًا عدوَّه وأسالَ لهُ عيْنَ القِطر وتاب عليه، فصلّاها أربعًا مقابلةً لهذه النِّعم وشكرًا عليها، فوَجَبت على هذه الأُمّة ليرُدَّ اللهُ عليها مُلكَ فارسَ والرُّوم، وليُعينَها على قهرِ عدوِّها الهوى، وليفتحَ عليها خزائنَ الأرض والسماء، وليغفرَ لها ما تقدَّم من ذنبِها وما تأخَّر، فكان ذلك كذلك.

وأولُ مّن صلّى المغربَ: عيسى عليه السلام لِمّا قيل: إنه ثالثُ ثلاثة، ليَظهرَ كذِبُهم وافتراؤهم ولتَظهرَ عبوديّتُه، فوَجَب على هذه الأُمّة شكرًا على ما خصَّها من مْحض التوحيد.

وأولُ مَن صلّى العشاءَ: يونُس لمّا أخرجه اللهُ من الظُّلماتِ الثلاث وإنباتِ شجرة اليقطين، فوَجَب على هذه الأُمّة ليُزيلَ اللهُ عنهم بها ظُلمةَ الشِّرك والشكِّ والجهل، وليُنبتَ شجرةَ اليقطين في قلوبِهم، قال اللهُ تعالى: {مَثَلًا(١) كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} [إبراهيم: ٢٤] الآيةَ.

---

(١) وهم الناسخ فكتب موضع هذه الكلمة: "ومثل".

وأولُ مَن توضَّأ آدمُ لـمّا اسودَّ وجهُه وجسدُه منَ البكاء، فعلّمه جبريلُ الوضوءَ والغُسلَ، فابيضَّ وجهُه وجسدُه، وبذلك سُمِّي الوضوءُ وضوءًا؛ لأنّ وجهَ آدمَ استضاءَ ورَجَع إليه نورُه بسببِه. ثُم فُرض على أُمّةِ محمد صلى الله عليه وسلم ليزولَ به سوادُ قلوبِهم وسوادُ الذُّنوبِ التي باشَروا بأبدانِهم.

وقد جَعل الذّكرَ روحَ الصّلاة، فالمُصلّي يذكُرُ اللهَ: قائمًا وراكعًا وساجدًا وجالسًا، وعلى جنبِه إذا كان مريضًا، فالذكرُ رحمةٌ منَ الله خصَّ بها الأبرار وحجَبَها عن الفُجّار، قال اللهُ تعالى في نَعْتِ المنافقين: {وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٤٢]، وقال في وصفِ المؤمنينَ: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ} [آل عمران: ١٩١]، وأمَرَهم بذلك فقال: {اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، وقال: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، الآيةَ. وقال صلى الله عليه وسلم: "اذكروا اللهَ حتى يقولَ الناسُ: إنكم مجانين"[١].

---

(١)روى أبو نعيم في "الأربعون على مذهب المتحققين من الصوفية"، ص ٢١، وعنه الألوسي في روح المعاني ٢/ ٤٦، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى بالناس تخر رجال من قيامهم في صلاتهم لما بهم من الخصاصة- وهم أهل الصفة- حتى يقول الأعراب: إن هؤلاء مجانين.

وللذكرِ بدايةٌ ونهايةٌ وتوسُّط، فالبدايةُ: ذكرٌ باللّسان معَ علاج ومُجاهدة، والتوسُّط: هو الذكرُ بالقلب معَ كشفٍ ومُراقبة، والنهاية: أن يتصوَّبَ الذكرُ إلى الرُّوح فيكونَ معَ ذوقٍ ومشاهدة، ثم يتصوَّبَ إلى النفْس المطمئنّة فتتزكّى به ثم تلتهبَ أشعّةُ أنوارِه في أجزاءِ البدن فتُزيلَ كلَّ كثيفة وتبقى في محلِّها كلُّ لطيفة، فيكونَ الجسمُ كلُّه ذاكرًا، فإذا كان ذاكرًا صار اسمًا من أسماءِ الله.

رُوي أنّ أبا الحَسَن الشاذليَّ رضي اللهُ عنه لمّا قَدِم على شيخِه سيدي عبد السلام ابن مشيش[١] توضَّأ من عينٍ تحتَ الجبل، فتجرَّد من علومِه ورسومِه ثم

---

(١) عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر الادريسي الحسني، أبو محمد (ت ٦٢٢ هـ): ناسك مغربي، اشتهر برسالة له تدعى "الصلاة المشيشية". ولد في جبل العلم، بثغر تطوان، وقتل فيه شهيدًا، قتله جماعة بعثهم رجل يدعى ابن أبي الطواجين الكتامي (ساحر متنبئ)، ودفن بقنة الجبل المذكور. ويذكر الزركلي في الأعلام أن زِكْري محمد بن عبد الرحمن، الفقيه المالكي (ت ١١٤٤ هـ)، كتاب: "الإلمام والإعلام" (خ) في صلاة القطب ابن مشيش، منه نسخة في جامعة الرياض. الأعلام للزركلي ٤/ ٩ و٦/ ١٩٧. وقال الزركلي أيضًا: "في اسم أبيه خلاف، قيل: هو بشيش بالباء الموحدة، واشتهر بمشيش. وفي فهرس دار الكتب المصرية ٨: ١٦٥ ذكر رسالة منسوبة إليه: "شجرة الشرف" (خ) ٥٥ ورقة في السلالة النبوية جاء خطأ أنه فرغ من تأليفها سنة ١١٣٦هـ، فإن صح أنها له فالتاريخ لكتابتها، لا لتأليفها. وقال الخروبي في "شرح تصلية ابن مشيش": كان بعض من لقينا من الاشياخ يقول: مشيش بتشديد الشين. وقال صاحب "الإشراق" (خ): ابن مشيش، هو الجد الجامع للأشراف العلميين كلهم. وفيه: هو عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى. انتهى.

أقْبلَ إليه فقيرًا، فلمّا جلس بين يديْه قال: جئتُك لأسألَ عن الاسم الأعظم، وكان بإزائهما ابنٌ صغيرٌ للشيخ، فقال له: استغرِقِ الاسمَ الأعظمَ حتى تكونَه، فتبسَّم الشيخُ فقال له: ما أرى الصبيَّ إلّا وقد أجابك.

وللذكرِ جنسٌ ونوعٌ وفصلٌ وخاصّة[١]:

فجنسُه: لا ينضبطُ بقولٍ ولا فعل ولا حال، بل كلمّا ذكرتَ اللهَ به وتقرَّبتَ إليه بسببِه فهو ذكرٌ، حتى يتناولُ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر والصدقةَ وإفراغَك من دلوِكَ في إناءِ أخيك وإعانتَه، والكفَّ عن شهوةٍ لله وفعلَ شهوةٍ مُباحة، ليستعفَّ بها عن شهوةٍ محرَّمة، إلى غير ذلك.

ونوعُه: يتناولُ الذكرَ بالأسماءِ والقرآن والحديث وما يُتوصَّلُ به[٢] إلى ضبطِها.

وفصلُه: يتناولُ الذكرَ بالأسماءِ والصِّفات والأدعِية والتوجُّهاتِ لا لغَرَض في حقِّ الخاصّة.

والخاصُّ: لأهل الرّياضة، ولا يتناولُ الذكرَ إلّا باسم واحدٍ حتى يُفتَحَ له فيه، ثم ينتقلُ إلى غيرِه بتدريج الشيخ إيّاهُ على حَسَبِ الطبع والحال، لئلّا تختلفَ عليه التجلِّياتُ فيطولَ عليه السَّيرُ، وربّما خلا باسم لا يوافقُ طبعَه فيكونُ فيه حتفُه،

---

(١) كذا في النسخة، والحديث يدور حول خاص الذكر لا خاصته.

(٢) في النسخة: "بها"، وليس صوابًا.

ككونِه في مقام الرُّبوبيّة والرَّحمانيّة فيخلو باسم الجلالة، فإذا تجلَّى عليه بالعظَمة أتلفتْه.

فالأولُ وما في معناهُ يُتقرَّبُ به إلى الله للرِّضى ونيْل التقرُّب. والخاصُّ للوَصلة والمعرفة وكشفِ الحجاب والتوصُّل إلى محبةِ ربِّ الأرباب.

يُروى أنّ العارفينَ يومَ القيامة يأتُونَ على جِدةٍ ونور يغشاهم من كلِّ جانب، فيسألُهم اللهُ تعالى، وهو أعلمُ، فيقول: من أنتم؟ فيقولون: نحن العارفون، عرَفْنا الناسَ فيك أحوجَ ما كنّا إليهم، فيقول: صدقتُم، أنتم عبادي وأهلُ وِدادي، لا خوفٌ عليكمُ اليومَ ولا أنتم تحزَنون، فيُنصَبُ لهم منابرُ من نُور على يمينِ العرش فيجلسونَ عليها، فيقول: يا عبادي، أتدرونَ لمَ فضّلتُكم على جميع خلقي وكرَّمتُكم وأعليْتُ منزلتَكم؟ فيقولون: أنت أعلمُ سبحانك وتعاليْت، فيقول: لأنكم خَدَمةُ جلالي وكبريائي، كلُّ الناس يعبدوني على الحظوظِ وأنتم لم تعبدوني على حظّ، إنّما عبدتموني محبّةً وتعظيمًا لجلالي[١] وأداءً لحقّي، فيغبِطُهم الأنبياء. أخرجه الترمذي[٢].

(١) في لطائف المعارف، لابن رجب الحنبلي (ص ٢٠٥- ٢٠٦): " لما عرف العارفون بجلاله خضعوا، ولما سمع المذنبون بعفوه طمعوا، ما ثم إلا عفو الله أو النار، لولا طمع المذنبين في العفو لاحترقت قلوبهم باليأس من الرحمة، ولكن إذا ذكرت عفو الله استروحت إلى برد عفوه".

(٢) أخرج الترمذي في سننه (٢٣٩٠)، عن أبي مسلم الخولاني، قال: حدثني معاذ بن جبل، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال اللهُ عزّ وجل: المتحابُّون في جلالي لهم

وقال صلى الله عليه وسلم[(١)]: "إنّ لله عبادًا ليسوا برُسُل ولا أنبياءَ يغبِطُهم الأنبياءُ والرُّسلُ يومَ القيامة"، قال له أصحابُه: أخبرْنا من هم يا رسولَ الله، قال: أُناسٌ يجتمعونَ من قبائلَ شتّى لم تجمعْهم أُلفةُ نَسَب ولا دنيا يتباذلونَها، وإنّما اجتمعوا حبًّا فيّ وطلبًا لمعرفتي وتعظيمًا لجلالي، [يَجعلُ اللهُ][(٢)] وجوهَهم نورًا وتُنصبُ لهم منابرُ من نور، *يَشفَعون فيُشَفَّعون، ويسألونَ فيُعطَوْن*[(٣)]". أخرجه البيهقي.

منابرُ من نور يغبِطُهم النبيُّونَ والشهداء". ثم قال عقبه: "وفي الباب عن أبي الدرداء، وابن مسعود، وعبادة بن الصامت، وأبي هريرة، وأبي مالك الأشعري. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو مسلم الخولاني اسمه: عبد الله بن ثوب".

(١) أخرج المؤلف رحمه الله هذا الحديث بالمعنى، فلفظه عند البيهقي مختلف، وهو في "شعب الإيمان"، له: الباب الحادي والستين، قصة إبراهيم في المعانقة (٨٥٨٥). وأخرجه أبو داود في سننه (٣٥٢٧) وفيه مزيد تخريج هناك.

(٢) زيادة مقتضاة أسقطها الناسخ، واستدركناها من كتاب الإمام الذهبي "العلو للعلي الغفار"، ص: ١٠٠ الذي نقل المؤلف رحمه الله منه هذه الزيادة وأدخلها في متن البيهقي كما أشرت آنفًا.

(٣) العبارة بين نجمين ليست من متن الحديث، كما ألمحنا قبل قليل، وهو يشبه ما رواه الشيخان: البخاري ومسلم من حديث أنس وأبي هريرة: "فيقال لي: يا محمّد، ارفعْ رأسك وقل يسمع لَك، وسل تعطه، واشفَعْ تُشفَّع". ينظر: الجمع بين الصحيحين للحَميدي (١٩٠٢) و (٢٣٨٨).

وذلك معنى قولِه تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} [المدثر: ٣٨- ٣٩].

فتبيّنَ لك من هذا أنّ الصلاةَ نور يغشى القلوبَ شُعاعُها، إذ هي الصلةُ بين الله وبينَ عبيدِه، لتنوُّع مشاهدِها بين ذكرٍ وتكبيرٍ، وقول ودعاءٍ، وركوع وسجودٍ، وقيام وجلوسٍ، وصلاةٍ على النبيِّ.

وذلك أنّ المُصلّيَ إذا رفَع يديْهِ أولًا قَصَد بذلك نبْذَ الدنيا وراءَ ظهرِه قائلًا: اللهُ اكبر، معناه: الذي يتصاغرُ كلُّ شيءٍ عند ذكرِه، فحينئذٍ ينظرُ اللهُ إلى قلبِ عبدِه المؤمن، فإنْ وَجَده قد تخَلّى من كلِّ ما سواه تَجلّى عليه بأنواع المشاهَدات تجلّيًا يعجِزُ عن حكايةِ النُّور منهُ اللسان {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء} [السجدة: ١٧]، وينبجِسُ من قلبِه طِيبٌ تنفتحُ له أبوابُ السمواتِ، فلا يبقى روحانيٌّ إلّا شمّ رائحةَ ذلك الشَّذى، فيقولونَ له: ربَّنا، ما هذه الرائحةُ الطيّبةُ التي أتتْنا من ناحيةِ الأرض؟ فيقولُ الله: تلك رائحةُ فم عبدي فلان، ويذكرُه بأحبِّ أسمائه إليه، أُشهدُكم أنّي قدِ اصطفيتُه وتولَّيتُه، وقد فتحتُ له ما بينَه وبينَ عرشي، وجعلتُه من رجال حضرةِ القدُس، فتتنزَّلُ عليه السَّكينةُ وتكتنفُه الملائكةُ فلا يقرَبُه الشيطانُ بوسوسةٍ إلا رمَوْا به إلى الخافقَيْن، فإبليسُ لهُ لا سبيلَ إليه، فإنّهُ وليٌّ من أولياءِ الله وليس لكم عليه سلطانٌ، فتعرفُه الملائكةُ وتُصلّي عليه بأنْ تدعوَ له بالعِصمة والحفظِ والرحمة.

فيقولُ عندَ ذلك: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} [الفاتحة: ٢] ، معناه: على ما أنعَمَ به عليه منَ الكشْفِ والمشاهدة والمنَعة من نزْغةِ الشيطان ووسوسته، أو: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} بلا علّة، وهو أشرف، فيقولُ الله: منِ الإلهُ الذي حمِدتَ، فإنّ بني آدمَ اتَّخذوا دوني شُركاءَ من خلقي؟ فيقول: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢]، فيقولُ الله: وما ربُّ العالَمين؟ فيقولُ: {الرَّحْمَنِ} [الفاتحة: ٣] ، فيقولُ الربُّ: وما الرحمن؟ فيقول العبدُ: {الرَّحِيمِ} [الفاتحة: ٣] ، فيقولُ الربُّ: وما الرَّحيم، فإنّ كثيرًا من عبادي حَجَبتْهمُ الوسائطُ عن مشاهدة رحيميّتي؟ فيقولُ العبد: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤] ، فيقولُ الربُّ: مدحتَني ووحَّدتَني وعظَّمتني وعَرَفتَني حقَّ معرفتي، وقد بسَطتُ إليك يدي بالعطاء فاسألْ، فيقولُ العبدُ: إنّي لم أعبدْك لعلّة ولا على مسألة، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاتحة: ٥] لذاتِك {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] على ذلك، فيقولُ الربُّ: لا بدَّ من تُحفةٍ إذا قَدِم الحبيبُ زائرًا للحبيب، فيقولُ العبدُ: إن كان ولا بدَّ من المسألة {اهْدِنَا} [الفاتحة: ٦] أي: اجعلْ لنا دليلًا من أنفُسِنا؛ لأنّ من لا واعظَ لهُ من نفِسه فلا واعظَ له. وحقيقةُ الهداية نورٌ إلهيٌّ لا يُسندُ اللهُ أمرَه إلّا إليه ولا يَأوي إلّا للقلوبِ الخاليةِ من غيره، قال اللهُ تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: ٥٦]، فإذا كان أشرفُ الخلقِ على الإطلاق لا يَهدي مَن أحبَّ، فما الظنُّ بغيرِه؟ قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّما أنا داعٍ مُرشدٌ وليس إليّ من الهداية شيء، والشيطانُ مُغْوٍ قرينٌ وليس إليه من الغوايةِ شيء، ولكنّ اللهَ يهدي من يشاء ويُضلُّ من

يشاء، فمن يُضللِ اللهُ فلا هاديَ له، ومن يهدِ اللهُ فلا مُضلَّ له. {الصِّرَاطَ} [الفاتحة: ٦] وهو يُطلَقُ على كلِّ سبيل، مستقيمًا كان أو غيرَ مستقيم، فلما قال: {الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦] أخْرجَ كلَّ طريقٍ لم تأتِ الرُّسلُ الكرامُ بها، فلمّا قال: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧] بمُواجهةِ خطابِك الباقيةِ آثارُه بيدِ المستمسِكينَ به، دَخَلت اليهودُ والنَّصارى لتمسُّكِ الفريقيْنَ بالتّوراة والإنجيل معَ النَّسْخ والتغييرِ والتبديل، فلمّا قال: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧] أخْرج اليهودَ، فلمّا قال: {وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٧] أخرجَ النّصارى وبقِي الذين أنعَمَ اللهُ عليهم بعزِّ الدنيا وفوْز الآخرة.

وإن شئتَ قلتَ: {الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧] بغنى الدّنيا وسعادة الآخرة، وإن شئتَ قلتَ: {الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} بحبِّ الجليل ورفض القليل ومتابعةِ التنزيل والأمن منَ التحويل، وإن شئتَ قلتَ: {الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} بتصحيح الخدمة وتهذيبِ العَزْمة وإصلاح الأصلِ للذُّرّيّة، وإن شئتَ قلتَ: بالإيمانِ في العاجل والأمانِ في الآجل.

فصارتِ الصلاةُ بهذه المثابة على ثلاثةِ أثلاث: ثُلُثٌ لربِّه، وثُلُثٌ بينَه وبين ربِّه، وثُلُث لنفسِه، والكلُّ نفعُه واصلٌ إليه واللهُ الغنيُّ الحميد.

والذّكرُ على قسميْن: ما يتحجرُ وقتُه، كالفرائضِ التي لا يزادُ فيها ولا يُنقَصُ منها، ومنه ما لا وقتَ له ولا حدَّ، كالنوافل والتطوُّعاتِ ومُطلق الذّكر، وهو

مضمارٌ بين الخاصّة والعامّة؛ لأنّ العامةَ يقتصرونَ على الواجبات، والخاصةَ معَ الله في جميع الأوقات، فلو حيل بينَهم وبين الذّكر لرأَوْا ذلك كفراً، {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} [الإسراء: ٨٤]، فالمُحِبّونَ منهم الذكرُ عينُ أرواحِهم، فإذا مُنعوا منه ماتوا في الحين.

رُويَ عن الشِّبليِّ أنه رأى رجلًا والصّبيانُ يرمونَه بالحجارة وقد أدمَوْا وجهَه، وهو يمسحُ الدّمَ ويقول: سبحانَ مَن سلَّط على هؤلاء الصّبيان، فقال لهم: اترُكوه، فقالوا: دعْنا نقتلوه فإنه كافر، فقال لهم: ما الذي رأيتُم من كفرِه؟ فقالوا: يزعُم أنه يرى اللهَ ويكلِّمُه، فقال لهم: اترْكوهُ حتى أُكلِّمَه، فتركوه، فقال له الشِّبليّ: أحقٌّ ما يقول الصّبيان؟ قال: وما الذي قالوا؟ قال له الشِّبليّ: قالوا: تزعُم أنك ترى اللهَ وتُكلّمُه، فصاح صيْحةً كادت نفْسُه تَزهَقُ من شدّتِها، ثم قال: يا شبليّ، وحقِّ مَن تيَّمني بحبِّه وخيَّمني بين بُعدِه وقربِه، ولو غابَ عني طَرفةَ عين لَتقطّعتُ من ألم البيْن، ثم انصرف والصّبيانُ خلفَه وهو يقول:

خيالُك في وَهْمي وذكرُك في فمي ... ومثـــواكَ في قلبي فأين تغيـــبُ

فهذا وأمثالُه ليس لهم وقتٌ مخصوصٌ، قال الرسولُ صلى الله عليه وسلم: "ليس عندَ ربِّكم مساءٌ ولا صباح"(١).

---

(١) ذكره الطيبي في الكاشف عن حقائق السنن ٦/ ١٧٨٨، وعزاه إلى الجنيد، فهو بهذا الاعتبار ليس حديثًا نبويًّا، ثم وضح معناه فقال: "أشار بهذا أنه غير متطلع للأوقات، بل هو متوفي شهود الوقت عن الحالات والتارات".

فالمحبّةُ أعزّك اللهُ هي أساسُ السُّلوك، وحِرفةُ الملوك، وهي على قسميْن: محبّةُ العوامّ، وهي الحبُّ لغَرَض حفظِ عامّة المؤمنين، كما يدُلُّ عليه قولُه صلى الله عليه وسلم: "أحِبُّوا اللهَ لِما يغذوكُم به منَ النِّعم، وأحِبُّوني لحبِّ الله إيّاي"(١)، قال اللهُ تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: ٣١].

وقال بعضُ المحقِّقين: ليس الشأنُ أن تُحبَّ الله، بل الشأنُ أن يُحبَّك الله. فكلُّ شيءٍ قدَّم العبدُ حبَّه على حبِّ الله وطاعتَه على طاعةِ الله فهو معبودُه من دون الله، قال اللهُ تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} [البقرة: ١٦٥]، وقال صلى الله عليه وسلم: "لن يبلُغَ أحدُكم حقيقةَ الإيمان حتى يحبَّ لأخيه المؤمن ما يحبُّ لنفسِه"(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: "لن يؤمنَ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والدِه ووَلَدِه والناسِ أجمعين"(٣)، فقال له عُمرُ رضي اللهُ عنه: لَأنت أحبُّ إليّ من كلِّ شيءٍ إلّا من نفْسي التي بينَ جنبَيّ، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لن تبلُغَ حقيقةَ الإيمان حتى أكونَ أحبَّ إليكَ من نفسِك التي بين جنبيْك، فسكتَ عمرُ هُنيّةً ثم قال: لَأنت يا رسولَ الله أحبُّ إليّ من نفسي التي بين جنْبَيَّ، فقال: "الآنَ يا عمر"(2) بلغتَ

(١) رواه الترمذي (٣٧٨٩) عن ابن عباس. وزاد في آخره: "وأحبوا أهل بيتي لحبي"، ثم قال عُقيبه: هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه.

(٢) رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده (٣٠٨١)، وابن حبان في صحيحه (٢٣٥) كلاهما باللفظ الذي ساقه المؤلف، ورواه البخاري (١٣)، ومسلم ٧١ و٧٢ – (٤٥)، أربعتهم عن أنس، به. وطرح الشيخان لفظ : "حقيقة الإيمان"، وزاد مسلم: "أو لجاره".

(٣) أخرجه البخاري (١٤) عن أبي هريرة، و(١٥) عن أنس.

حقيقةَ الإيمان؛ لأن عمرَ عبَّر أولًا عن الحبِّ الطبيعيِّ في نظره، وآخرًا فيما تقتضيه الحقيقة، فإذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إليه من نفسِه، فعبّر عن ذلك وصدّقَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

فجَعل تعالى لحبِّه وحبِّ رسولِه علاماتٍ وشروطًا وثمرةً، فقوله: {يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} دليلُ المحبّة وثمرتُها وفائدتُها اتّباعُ الرسول، فما لم تحصُل المتابعةُ فلا محبّةَ لكم حاصلة، ومحبّتُه لكم مُنتفية، فجَعل سبحانَه اتّباع رسولِه دليلًا لمحبّتهم لله. ووجودُ الشروط[3] ممتنع بدون وجود شرطِه، فعُلم انتفاءُ المحبّة عندَ انتفاءِ المتابعة، فانتفاءُ محبّتِهم لله لازمُ انتفاءِ المتابعة لرسولِه، وانتفاءُ المتابعة ملزومٌ لانتفاءِ محبّةِ الله، فيستحيلُ حينَئذٍ ثبوتُ محبّتِهم لله وثبوتُ محبّة الله بدون المتابعةِ لرسولِه صلى الله عليه وسلم.

ودلّ على أنّ المتابعةَ للرّسولِ هي حبُّ الله ورسولِه وطاعةُ أمرِه، ولا يكفي ذلك في العبوديّة حتى يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما، فلا يكونُ شيءٌ أحبَّ إليه منَ الله ورسولِه، ومتى كان عندَه شيءٌ أحبَّ إليه منهما فهذا هو الشرطُ الذي لا يُغفَرُ لصاحبِه البتّة، قال اللهُ تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِين} [التوبة: ٢٤]، فكلُّ من قدَّم طاعةَ أحدٍ من هؤلاء على طاعة الله ورسولِه، أو قولَه على قولِه، أو مَرْضاتَه على

مَرْضاتِه، أو خوفَ أحدٍ منهم أو رجاءه أو التوكُّلَ عليه على خوفِ الله ورجائه والتوكُّل عليه فهو ممّن ليس اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما وإن قال ذلك بلسانه، فهو كذبٌ منه وإخبارٌ بما ليس هو عليه، قال صاحبُ "المدارج"(١): ولا يتمُّ شيءٌ من ذلك حتى يُحَكِّمَه على نفسِه ومالِه وولدِه وجميع أمورِه تحكيمًا ليس فيه اختيارٌ ولا معه حَرَجٌ نفْسانيّ، قال اللهُ تعالى {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥]، وحُكمُه بعدَ موتِه كحُكمِه في حياتِه؛ لأنّ كتابَ الله الذي هدى به واهتدى بأيدينا وبين ظَهْرانِينا، فكلُّ(٢) مَن لم يرضَ بأحكامِه الظاهرةِ والباطنة، ولم يتأدَّبْ بتأدُّبِ آدابِه الظاهرة والباطنة، ولم يقفْ عندَ حدودِه الظاهرة والباطنة، ولم يؤمنْ بوعدِه ووعيدِه ولم ينزجرْ بمواعظِه البليغة، ولم يميِّزْ بين ناسخِه ومنسوخِه ومُحكمِه ومتشابهِه فليس من محبّة الله في شيء، بل هو في قيْدَ الجفاءِ والبعدِ والطردِ عن الله ورسولِه. فهذا حبُّ عامةِ المؤمنين، بدليل قولِه

(١) هو ابن قيم الجوزية، وكتابه: "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين"، ولم أسترشد إلى موضع كلامه المنقول عنه عند المؤلف.

(٢) في النسخة: فكله، خطأ.

صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيدِه، لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكونَ هواه تَبَعًا لما جئتُ به"(١).

وأمّا حبُّ الخاصّة فحقيقةُ التهالُك وعدم التمالُك، قال اللهُ تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤]، فقوله {يُحِبُّهُمْ} بِساطُه الجذْب، وهو مقامُ المُرادينَ منَ الأنبياءِ والأولياء، كما في قولِه صلى الله عليه وسلم {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠](٢)، فأمدَّ صديقَه بتجلّي الأُلوهيّة الذي هو غايةُ التجلّيات، فكانت بدايتُه صلى الله عليه وسلم نهايةَ سائرِ الأنبياء، ونهايتُه غايةً لها كما يدلُّ عليه قولُ إبراهيمَ عليه السلام في مظهرِ نهايته {إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات: ٩٩]، وقولِ موسى عليه السلامُ عندَ مظهرِ نهايتِه: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: ٦٢].

فشتّانَ ما بينَ تجلّي الرُّبوبيّة الذي هو نهايةُ الخليل والكليم، وتجلّي الألوهيّة الذي هو بدايةُ الحبيبِ الكريم صلى الله عليه وسلم، ومن أمدّه من أقطاب أُمّتِه: مرادون(٣) وسائرُ الأنبياء وخواصُّ أُممِهم: مُريدون(١)، ففي أهل الحبِّ من أُمتِه

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، والنسوي في الأربعين (٨)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢٧٩)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٦/ ٢٠ الترجمة (١٦٠٩)، وفيه مزيد تخريج، وسواهم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٥) و (٣٦٥٢)، ومسلم ٧٥ - (٢٠٠٩)، كلاهما من طرق عن أبي بكر الصديق، وانظر الجمع بين الصحيحين، للحَميدي (٣).

(٣) في النسخة: مرادين.

صلى الله عليه وسلم مرادونَ، وهم المُجدَّفونَ الذين يبلُغونَ غايةَ المحبّة والقُربِ في أولِ وهْلة بلا نَسَب ولا معالجةِ سبب، ومريدون، وهم الذين يَصِلونَ إلى الله لكنْ معَ الأنساب ومعالجةِ الأسباب، على متْنِ السلوكِ والانتساب، إلى المشايخ الأقطاب.

وكلُّ ما هو منَ الله إلى العبد فتحقيق، وكلُّ ما منَ العبد إلى الله فهو تشريع، فالتحقيقُ أصلٌ والتشريعُ فرعُه، ولولا التحقيقُ ما صحَّ تشريع، ولولا التشريعُ ما ظَهر تحقيق.

وعلى الجُملة، فإنّ محبّةَ الله لعبادِه هدايةٌ وترفيع، ومحبّةُ العباد لله خدمةٌ وتصديق، وشتّانَ ما بينَ الحقوق والحظوظ، فالحقوقُ وإن قلَّت كمال، والحظوظُ وإن كثُرتْ نقْص، فمَن غَلَب سلطانُ المحبّة على قلبِه لا يتكلَّم، فإنْ تكلَّمَ [تكلَّمَ][٢] لا بلسانِه، وإن نَظَرَ نَظر لا بعينِه، وإنِ استمع سمِع لا بأُذُنِه {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً} [النمل: ٣٤] الآيةَ. فيصيرُ القلبُ محكومًا عليه لا حُكمَ لهُ من نفسِه، ولذلك قيل: المحبّةُ نارٌ لا تبقي ولا تذَر

---

(١) في النسخة: مريدين.

(٢) تكرار واجب أخلّ به الناسخ، وتأمل ما بعده.

لا عينًا[1] ولا أثر، وقيل: إنّ أولَ المحبّة قلبٌ هائم وميلٌ دائم ونعيمٌ مُلازم، وآخرُها لا حدَّ له ولا راحةَ ولا تعبيرَ عنه.

وجَعلوا للمحبّة حرفيْن وهما: الحاءُ، التي هي منتهى حروفِ الحلق، والباءُ التي هي ابتداءُ حركةِ الشفتيْن، إشارةً إلى أنّ الحبَّ تكونُ بدايتُه من الله ونهايتُه إليه، كما قيل: من كانت بالله بدايتُه كانتْ إلى الله نهايتُه، ومَن كان في الله كسرُه كان على الله جبْرُه، ومَن كان في الله تلَفُه كان على الله خَلَفُه، ومَن كان منَ الله حبُّه كان على الله قربُه.

وهي التي إلى علمِها شمّر السابقون، وعليها تفانَى المحبُّون، وبرُوح تسنيمِها تَروَّح العابدون، فهي قُوتُ القلوبِ وغذاءُ الأرواح وقُرّة العيون.

وهي الحياةُ التي مَن حُرِمَها فهو من جُملةِ الأموات، والنّورُ الذي مَن فَقَده فهو في بحار الظُّلمات، والشّفاءُ الذي مَن عُدِمَه حَلَّت بقلبِه جميعُ الأسقام، واللَّذّةُ التي مَن لم يظفَرْ بها فعيشُه كلُّه همومٌ وآلام.

وهي روحُ الإيمانِ والأعمال، والمقاماتِ والأحوال، التي متى خَلَت منها فهي كالجسدِ الذي لا رُوحَ فيه، تحملُ أثقالَ السائرينَ إلى بلدٍ لم يكونوا بالِغيهِ إلّا بشِقِّ

(١) في النسخة: لا عين، خطأ لا يجوز لأنه ليس سجعة، ويجوز فيما بعدها مراعاة للمزاوجة.

الأنْفُس، وتوصلُهم إلى منازلَ لم يكونوا بدونِها أبدًا واصليها، وتُبوِّئُهم من مقاعدِ الصِّدق إلى مقاماتٍ لم يكونوا لولا هي داخليها.

وهي مطايا القوم التي سَرَيانُهم على ظهورِها إلى الحبيب، وطريقُهمُ الأقوَمُ الذي يُبلِغُهم منازلَهم الأُولى عن قريب. تالله، لقد ذهب أهلُها بشرفِ الدنيا والآخرة، إذْ لهم من معيّة محبوبِهم أوفرُ نصيب.

وقد قدَّر اللهُ يوم قدَّرَ مقاديرَ الخلائق بمشيئتِه وحِكمته البالغة، أنّ المرءَ معَ مَن أحبّ، فيا لها نعمةً على المحبيِّن سابغة، ما أجزَلَها! لقد سبَق القومُ إلى السعادة وهم على ظهورِ الفُرُش نائمون، ولقد تقدَّموا الركْبَ وهم في سيْرهم واقفون، قال الشاعرُ في حقِّهم:

مَن لي بمثل سـيْرِك المُذَلَّلِ   تمشـي الهُوَيْنا وتَجِي في الأُوَلِ[١]

أجابوا المؤذِّنَ إذْ ناداهم: "حيَّ على الفلاح"، وبَذَلوا نفوسَهم في طلبِ الوصول إلى محبوبِهم، وكان بذْلُهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسيرِ بالإدلاج والغدوِّ والرَّواح، ولقد حمِدوا مسْراهم، وإنما "يحمَدُ القومُ السُّرى عندَ الصّباح"[٢].

---

(١) البيت في "طريق الهجرتين وباب السعادتين"، لابن قيم الجوزية، ص ٢٣٠.

(٢) شطر بيت لخالد بن الوليد صار مثلًا يضرب في الصبر على النائبة، وفي عاقبة الصبر. وانظر تفصيلًا وافيًا فيه عند الميداني: مجمع الأمثال (٢٣٨٢).

ومن علاماتِ محبّة العامّة: مُلازمةُ الطاعةِ ظاهرًا وباطنًا وتجنُّبُ المعاصي ظاهرًا وباطنًا، وتركُ خلافِ الأَوْلى همّةً وعزمًا، قال الشاعرُ:

تعصي الإلهَ وأنــت تُظهرُ حبَّهُ　　　هذا لعَمْري في القياسِ بديــعُ

لو كان حبُّكَ صــادقا لأَطعتَهُ　　　إنّ المُحبَّ لمن يحبُّ مُطيعُ[1]

ومنها: حبُّ محابِّ الله، فيحبُّ الأنبياءَ والأولياءَ وأهلَ الطاعة حبًّا مُغايرًا لحبِّ مَن سواهم، ويحبُّ كتابَه والآثارَ الواردةَ عنه على لسان رسولِه. وعلامةُ ذلك: الاكتفاءُ بهما والانكبابُ عليهما وتعظيمُهما وتدبُّرُ معانيهما، قال الشاعر[2]:

لو[3] كنت تزعُم حبّي[4]　　　لَمَا[1] هجــرتَ كتابــي

---

(١) ينسب هذا البيتان باشتهار إلى الإمام الشافعي (وهما في ديوانه المطبوع، ص ٩١)، ونسبتهما في مصادر أخرى إلى المحمود بن الحسن الوراق، كما في: التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ١٢، وفوات الوفيات لابن شاكر ٤/ ٨١، والمواهب اللدنية بالمنح المحمدية، للقسطلاني ٢/ ٦٣١، وسواهم. وعند غير من ذكرت إلى: محمد ابن الحنفية، ورابعة العدوية، وسواهما أيضًا، وفي "الإحياء" ٤/ ٣٣١ أن قائلهما: عبد الله بن المبارك.

(٢) البيتان غير منسوبين في المصادر، وقد أوردهما أولًا أبو بكر الكلاباذي (ت ٣٨٠هـ) في كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف، ص ١٥٤، وفيهما اختلاف، ثم نقلهما عنه ابن الجوزية وغيره وفق ما أثبتناه هنا.

(٣) في الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن قيم الجوزية، ص ٢٣٦، وسواه ممن نقل عنه: "إن".

(٤) الصدر في كتاب "التعرف": "إن لم تكن جافيًا بي".

ألستَ تسمعُ قولي وحُسنَ خطابي[٢]

يُروى عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من كان عندَه مصحفٌ لا يقرأُه حاكَمَه عندَ الله تعالى، فيقول: يا ربِّ، إنّ هذا تَرَكني وراءَ ظهرِه[٣]، فيقولُ اللهُ لكتابه: أما يُرضيك أن أحُكِّمَك فيه؟ فيقول: بلى، فيأخُذ بناصيتِه فيكُبُّه في النارِ على مَنخِرِيْه". أخرجه ابنُ ماجة.

ومنها: بُغضُ الكفَرةِ والمُبتدعين وأربابِ المعاصي، طبعًا وشرعًا، معَ إضمارِ الشَّفَقة لهم، فيدعوهم الى الله وإلى طاعتِه بحَسَب الحال.

ومنها: الغَيْرةُ إنْ تُنتهكْ محارمُ الله.

ومنها: تعلُّقُ القلبِ بمساجد الله وإنْ منَعَهُ من لزومِها بذاته مانع، رُوي أنّ مالكًا رضي اللهُ عنه تَرَكَ صلاةَ الجماعة والجامعَ في آخر عمُرِه، فقيل لهُ في ذلك، فقال: إنّ من الأعذارِ ما لا يُعبَّرُ عنه، فلمّا احتُضر قال لأصحابه: ما تنتقمونَ عليّ؟ قالوا: ننتقمُ عليك ثلاثةَ أمور: تركَ الجامع وكثرةَ أكل اللّحم ولُبسَك رفيعَ

---

(١) في "التعرف": "فلِمْ".

(٢)والبيت في "التعرف":

أمـا تدبّـرتَ مـا فيـهِ مـن لذيـذِ خطـابي

وهو الصواب من غير ارتياب، وعند غيره: "تأملت" مكان: "تدبّرت" التي في صدره ولا فرق.

(٣) في النسخة: "وراء ظهري"، ولا يسوغ.

الثياب، قال: أمّا تركُ الصلاة في الجامع فإنّه أصابني سَلَسُ بول وأُجِلُّ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أُلوّثَهُ ببولي، وأمّا تركُ صلاة الجماعة فلأجْل استنكاح بشَكٍّ يُلازمُني، وأمّا كثرةُ أكل اللحم فإنهُ بَلَغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ أكلَ اللّحم يجمعُ العلمَ في الذِّهن ويُجيدُ الفهم، وأمّا لُبْسي رفيعَ الثياب فإجلالًا لكتابِ الله وسُنّة رسولِه صلى الله عليه وسلم ولم يكنْ ذلك مني تشهِّيًا ولا رغبةً في زينةِ الحياة الدنيا، فأثنَوْا عليه بخير ودعَوا له به إذْ سألهم وفسَّر لهم ذلك حتى طابت أنفسُهم، وعلِموا وجهَ ما نقَموا عليه.

ومنها: وجودُ اللّذةِ في العبادات، لا سيّما في الصلاة، إذْ لا محبّةَ إلّا بشوق، ولا شوقَ إلّا بعد ذوْق، ولا ذوْقَ إلّا بقذِف الرضى في القلب كما يشهدُ لذلك قولُه صلى الله عليه وسلم: "ذاقَ طعمَ الإيمان من رَضِيَ بالله ربًّا وبالاسلام دينًا وبمحمدٍ رسولًا"(١)، فيُعلم من هذا أنّ للايمانِ طعمًا وأنّ القلبَ يذوقُه كما يذوقُ الفمُ طعمَ الطعام والشراب.

وقد عبّر النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن حقيقة الإيمانِ والإحسان وحصولِهما للقلب ومباشرتِها له بالذَّوقِ تارَةً وبالشرابِ أخرى: بوجودِ الحلاوة تارَةً، كما

---

(١) رواه مسلم ٥٦ - (٣٤)، عن العباس بن عبد المطلب.

قال: "ذاق"، وقال: "ثلاثٌ من كُنّ فيه وَجَد حلاوةَ الإيمان"[1]. ولمّا نهاهم عن الوِصال قالوا: إنك تواصل، قال: "إنّي لستُ كهيئتِكم، إنّي أُطعَمُ وأُسقى"[2].

وقد غَلُظَ حِجابُ مَن ظنَّ أنّ هذا الطعامَ والشرابَ حِسِّيّ، بل المقصودُ أنّ ذوْقَ حلاوة الإيمان أمرٌ يجدُه القلبُ تكونُ نسبتُه إليه كذَوْقِ حلاوة الطعام إلى الفم، وذوْقِ حلاوةِ الجِماع إلى اللَّذّة، كما قال صلى الله عليه وسلم: "حتى تذوقي عُسَيلتَه ويذوقَ عُسيْلتَك".

وللإيمانِ طعمٌ وحلاوةٌ يتعلّقُ بها ذوْقٌ ووَجْد، ولا تزولُ الشُّبهةُ والشكوك إلّا إذا وصَل العبدُ إلى هذه الحالةِ فباشَر الإيمانَ قلبُه حقيقةَ المباشرة، فيذوقُ طعمَه ويجدُ حلاوتَه.

ففي هذا الحديثِ الشريف إشارةٌ إلى أنّ القلوبَ السليمةَ من أمراض الغفلةِ والهوى تتنعَّم بملذوذاتِ المعاني كما تتنعَّمُ النفوسُ بملذوذاتِ الأطعمة، وإنّما ذاقَ طعمَ الإيمان مَن رَضِي بالله ربًّا؛ لأنه لمّا رَضي بالله ربًّا استسلم له وانقادَ لحُكمِه وألقى قيادَه إليه، فيجدُ لّذّةَ العيش وراحةَ التفويض، ولمّا رَضي بالله ربًّا كان له

(١) رواه الشيخان: البخاري (١٦) و(٢١) و(٦٩٤١)، ومسلم ٦٧- (٤٣) و٦٨- (٤٣)، من طرق، عن أنس.

(٢) رواه الشيخان: البخاري (١٩٢٢) ومسلم ٥٥- (١١٠٢) عن ابن عمر، والبخاري (١٩٦٤) ومسلم ٦١- (١١٠٥) عن عائشة، والبخاري مفردًا (١٩٦٣) (١٩٦٧) عن أبي سعيد.

الرِّضى من الله، فأوجدَه حلاوةَ ذلك ليعلمَ ما مَنّ به عليه، وليعرفَ إحسانَ الله عليه. ولمّا سبقت لهذا العبدِ العناية خَرَجت لهُ العطايا من خزائن المِنَن، فلمّا وَصَلتْه أمدادُ الله وأنوارُه عُوفي قلبُه منَ الأمراض والأسقام، فكان سليمَ الإدراك، فأدرك لَذّةَ الإيمان وحلاوتّه لصحّةِ إدراكِه وسلامةِ ذوْقِه.

وقولُه صلى الله عليه وسلم: "وبالإسلام دينًا"؛ لأنه إذا رَضِي بالإسلام دينًا فقد رَضي بما رَضِي به المولى.

ويلزمُ مَن رَضِي بمحمدٍ نبيًّا أن يكونَ له وليًّا، وأن يتأدّبَ بآدابه ويتخلّقَ بأخلاقِه زُهدًا في الدنيا وخروجًا عنها، وصفحًا عن الجِنايات وعفوا عن مَن أساء إليه، إلى غيرِ ذلك من تحقيق المتابعة: قولًا وفعلًا، وأخذًا وتركًا، وحبًّا وبغضًا، فمَن رَضِي بالله استسلم له، ومَن رضي بالإسلام عملَ به، ومَن رَضي بمحمدٍ تَبِعه، ولا يكونُ واحدٌ منهما إلّا بكُلِّها، إذْ مُحالٌ أن يرضى بالله ربًّا ولا يرضى بالإسلام دينًا، ويرضى بالإسلام دينًا ولا يرضى بمحمد رسولًا.

واعلمْ أنّ محبةَ العامّة على قسمين: فرْضٌ ونَدْب، فالفرْضُ: المحبّةُ التي تبعثُ على امتثال الأوامر والانتهاءِ عن المعاصي والرِّضى بما يقدِّرُه تعالى، فمَن وَقَع في معصية مِن فعل محرَّم أو تركِ واجب فلتقصيره في محبّة الله، حيثُ قدَّم هوى نفسِه

على طاعة ربِّه، والتقصيرُ يكونُ معَ الاسترسال في المباحاتِ والاستكثارِ منها، فيُورثُ الغفلةَ المُقتضيةَ للتوسُّع في الرجاء، فيُقْدِم على المعصية.

والنَّدبُ: هو الباعثُ على الإكثار من نوافل الخيراتِ بعدَ إتقانِ الواجبات، والكفُّ عن جميع المحرَّمات معَ اجتنابِ الوقوع في الشُّبُهات وخلافِ الأَوْلى، فالمتّصفُ بذلك في عموم الأوقاتِ والأحوال نادر. وفي "البخاريِّ"[١] من حديث أبي هُريرة، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن ربِّه تعالى أنه قال: "ما تَقرَّب إليّ عبدي بمثل قضاءِ ما افترضتُه عليه"[٢]- وفي رواية[٣]: "بشيءٍ أحبَّ إليّ من أداءِ ما افترضتُه عليه"- ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمْعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورِجلَه التي يمشي بها[٤]"، *فبي يسمع وبي يبصرُ وبي يبطشُ وبي يمشي*[٥]، "ولئنْ سألني لأُعطِينَّه، ولئنِ استعاذَني لأُعيذَنّه، وما تردَّدتُ عن شيءٍ

---

(١) في صحيحه صحيح البخاري (٦٥٠٢).

(٢) أخرج هذا اللفظ: أحمد (٢٦١٩٣) والبزار في البحر الزخار (٩٩) عن عائشة، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء (١) وفي الورع (١) عن أنس. وفيها أربعتها: "أداء"، موضع: "قضاء".

(٣) أخرج هذه الرواية أبو البركات النيسابوري في "الأربعين" (٩).

(٤) في النسخة: "فيها"، وما هنا من صحيح البخاري.

(٥) العبارة ما بين نجمين ليست من متن البخاري، بل هي من كتاب الروح، لابن قيم الجوزية، ص ٢٣٨

أنا فاعلُه *مثلَ*[١] تردُّدي عن *قبض*[٢] نفسِ *عبدي*[٣] المؤمن يكرهُ الموتَ و[أنا أكرهُ] مساءتَه"[٤].

ويستفادُ من قولِه: "وما تقرَّب إليّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليّ من أداءِ الفرائض" أنّ أداءَ الفرائض أحبُّ إليه منَ الإكثار من النوافل، وعلى هذا فقدِ استُشكل كونُ النوافل تفتحُ بابَ المحبّة ولا تفتحُها الفرائض، أُجيبَ بأن المرادَ من النوافل: ما كان منها مقرونًا معَ أداءِ الفرائض، فتكونُ متمِّمةً لها ومشتملةً عليها، وأمّا باستقلالِها فلا. ويؤيّدُه ما أخرجه أبو أُمامةَ: "ابنَ آدم، إنك لن تُدركَ ما عندي إلّا بأداءِ ما افترضتُه عليك"[٥]. وأُجيبَ أيضًا بأنّ الإتيانَ بالنوافل إنّما هو بسببِ محضِ المحبّة كالخوفِ [منَ][٦] العقابِ عن التَّرك، بخلاف الفرائض، فلذلك جُوزِيَ العبدُ المُكثرُ منَ النوافل بفتح بابِ المحبّة عليه جزاءً وفاقًا، وقد يحظَى المفضولُ بما لم يحظَ به الفاضل، واللهُ يختصُّ من يشاء بما يشاء.

---

(١) ما بين نجمين ليس في البخاري.

(٢) كذلك.

(٣) كذلك.

(٤) في النسخة: "ويكره"، خطأ، وما هنا من صحيح البخاري الذي صرح المصنف بالنقل عنه.

(٥) رواه أبو إسحاق الختلي في "المحبة لله" (١٥٦).

(٦) حرف الجر إضافة لازمة لتمام السياق.

واستُشكل أيضًا كيف يكونُ البارئُ جلَّ وعلا سَمْعَ[1] العبدِ وبصَرَه؟ فأُجيبَ بأجوبةٍ، منها: أنه جاء به على وجهِ التمثيل، والمعنى: كنتُ سمعَه وبصرَه في إيثارِه أمرَه، فهو يحبُّ طاعتي ويؤْثرُ خدمتي كما تحبُّ هذه الجوارح. ومنها: أنّ كُلّيَّتَه مشغولةٌ بي فلا يُصغي بسمعِه إلّا إلى ما يُرضيني ولا ينظرُ ببصرِه إلّا [إلى][2] ما أمرتُه به. ومنها: أنّ المعنى: كنتُ له في النُّصرة كسمعِه وبصرِه ويدِه ورجلِه في المَعونة على عدوِّه. ومنها: أنه على حذفِ مضاف، أي: كنتُ حافظًا سمْعَه به فلا يسمعُ إلّا ما يحِلُّ سماعُه، وحافظَ بصرِه كذلك.. إلخ.

ويحتملُ معنًى آخرَ هو أدقُّ مما تقدَّم، وهو: أنَ يكون بمعنى مسموعِه؛ لأنّ المصدرَ قد جاء بمعنى المفعول مثلَ: فلانٌ أملي بمعنى: مأمولي، والمعنى: أنه لا يسمعُ إلّا ذكري ولا يأنَسُ إلّا بمناجاتي، ولا ينظرُ إلّا في عجائبِ مَلَكوتي، ولا يمُدُّ يدَه إلّا إلى ما فيه رضائي، ورجلَه كذلك.

وقدِ اتّفق العلماءُ ممّن يُعتدُّ بقوله على أنّ هذا من بابِ المجازِ والكناية على نُصرة العبدِ وتأييدِه وإعانتِه، حتى كأنه تعالى تنزَّلَ منه منزلةَ الآلات التي يُستعانُ بها، ولهذا وَقع في رواية: "فبي يسمعُ وبي يُبصرُ، وبي يبطِشُ وبي يمشي".

ومعنى حلاوةِ الإيمان: اشتدادُ الطاعات وتحمُّلُ المشَقّات في الدِّين، بحيث يؤْثرُ ذلك على أعراض الدنيا. فمنِ استكمل الإيمانَ عَلِم أنّ حقَّ الله ورسولِه آكَدُ

---

(١) الضبط من النسخة.

(٢) حرف الجر إضافة لازمة لتمام السياق.

عليه من كلِّ شيءٍ، فيترُكُ لهما كلَّ شيء، ولأنّ الهدايةَ من الضّلال والخلاصَ من النار إنّما كان بالله على لسانِ رسولِه.

وفي قولِه صلى الله عليه وسلم استعارةٌ تخيليّة، فإنه شبَّه رغبةَ المؤمن في الإيمان بشيءٍ حُلْو وأثبت له لازمَ ذلك الشيءِ وأضافهُ إليه، وفيه تلميحٌ إلى قضيّة المريض والصحيح؛ لأنّ المريضَ الصَّفراويَّ يجدُ طعمَ العسل مرًّا، قال الشاعر[1]:

ومن يكُ ذا فـم مُرٍّ مريــضٍ   [يجدْ] مرًّا به المــاءَ الزُّلالا[2]

والصحيحُ أنه يجدُ حلاوتَه على كُنهِها، فكلمّا نَقَصت شيئًا ما نَقَص ذوقُه بقدْرِ ذلك.

واختُلف في الحلاوة المذكورة في قوله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثٌ مَن كُنّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلّا لله، وأن يكرهَ أن يعودَ إلى الكُفرِ بعدَ أنْ أنقذَه اللهُ منه كما يَكرهُ أن يُقذفَ في النار" هل هي محسوسةٌ أو معنويّة؟ فقيل: معنويّة، وهو قولُ الفقهاءِ ومَن لا ضوْءَ معَه، وقيل: محسوسةٌ، وهو قولُ السَّلفِ الصالح منَ الصّحابة

---

(١) البيت للمتنبي.

(٢) العجز في النسخة: "يكن مرًّا به الماءُ الزلالُ" وهذا خطأ ، ولعل سببه أن الناسخ أبدل "يجد" بيكن، فرفع الماء على الاسمية للكينونة وأتبعها بالزلال مرفوعًا أيضًا فحصل اللبس.

والتابعين[1]، وعليه الساداتُ الصُّوفيّة، والحقُّ معَه؛ لأنّ ذلك أبقى للفظِ الحديث على ظاهرِه وأسلمُ من مخالفة سَلَفِ الأُمّة الصالح، وأَوْلى إلى عَدَم الافتئاتِ على الشارع بغيرِ بُرهانٍ منَ الله.

ويشهدُ لذلك أحوالُ الصّحابة والسَّلفِ الصالح وأهل المعاملات، فإنه حُكي عنهم أنهم وَجدوا حلاوةً محسوسةً، فمن ذلك: حديثُ بلالٍ حين صُنع به ما صُنع من الرَّمضاء إكراهًا على الكُفر وهو يقول: أحدٌ أحد، فمَزَج مرارةَ العذاب بحلاوة الإيمان، وكذلك عندَ موتِه[2]، أهلُه يقولون: واكرباه! وهو يقولُ: واطَرباه!

غـدًا ألقَـى الأحبّـهْ محمـدًا وصَحبَـهْ

فمَزج مرارةَ الموتِ بحلاوة اللقاء، وهي حلاوةُ الإيمان.

ومنها: حديثُ الصحابيِّ الذي سُرق فرسُه وهو في الصّلاة، فرأى السارقَ حين أَخَذه فلم يقطعْ لذلك صلاتَه، فقيل له في ذلك، فقال: ما كنّا فيه ألذُّ من ذلك. وما ذلك إلّا لحلاوةِ الإيمان التي وَجَدها محسوسةً وما فُتح عليه فيها من قُرّة العيْن.

---

(١) سوف يأتي المؤلف رحمه الله بالأمثلة.

(٢) كذا.

ومنها: حديثُ الصحابيَّيْنِ اللذيْنِ بَعَثهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه عيْنًا من قِبَل العدوّ، فرآهما بعضُ العدوّ فنَبَلَ القوسَ ورمى الصحابيَّ فأصابه، فبقي على صلاتِه ولم يقطعْها، ثم رَماهُ ثانيةً فأصابَه فلم يقطعْ لذلك صلاتَه، ثم رماه ثالثةً فأصابَه، فعندَ ذلك أيقظَ صاحبَه فقال: لولا أنّي خفتُ على المسلمين ما قطعتُ صلاتي. وما ذلك إلّا لشدّة ما وَجَد فيها من الحلاوة حتى أذهبتْ عنه ما يجدُ من ألم السلاح.

ومثلُ هذا رُوي كثيرًا عن أهل المقامات، من ذلك: ما رُوي عن عُروةَ بن الزُّبير رضي الله عنه أنه أصابتْه أُكْلةٌ[1] في رُكبتِه وقد آلمتْه، وكان لا يمَسُّها أحدٌ ليعالجَها إلّا مَنَعه من ذلك لشدّة ما يجدُ من الألم، فاتّفق رأيُ الأطباء أنها إن لم تُقطعْ أهلكتْه، فقالت لهمُ ابنتُه وهُو لا يعلم: إذا رأيتموه استغرق في صلاتِه فافعَلوا ما بدا لكم فإنّه إذا دَخل في صلاته غابَ عن كلِّ شيء، فأمهَلوه حتى قام يُصلّي حزبَه فقَطعوها وزفَّتوها، واستمرَّ في صلاتِه ولم يشعرْ، حتى إذا فَرَغ من حزبِه انفتل، فإذا رجلُه مقطوعة، فقال: أين رجلي؟ فقالوا: قطعناها وأنت تصلّي، فقال: لم أشعرْ، إلّا أني وَجدتُ في صلاتي رائحةَ الزِّفْت[2].

(١) كقرحة، وهي: الحكة. تاج العروس (أكل)، وكوثر المعاني الدراري للشنقيطي ١/٢١١.

(٢) أما خبر قطع رجل عروة بن الزبير فيذكر أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٧٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٠/ ٢٥٩، وغيرهما، أن عروة بن الزبير كان يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف

واعلمْ أنّ من موجباتِ المحبّة: استغراقَ النِّعمة في عين المِنّة، بحيثُ لا ترى لنفسِك قدرًا ولا قُدرة معَ مخامرة الفرج والسرور لقلبِك لِما مَنّ به عليك من فضلِه ورحمتِه، إذْ صيَّرك أصلًا لمحبتِه: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨] من مال وعمل.

وهذه المحبّةُ تنشأُ من مطالعةِ العبد على نعم الله: الظاهرة والباطنة، فعلى قدْرِ مطالعتِه تكونُ قوةُ المحبّة، وأعظمُها تأهُّلُه لمحبتِه ومعرفتِه ومتابعةِ حبيبِه، وأصلُ هذا كلِّه نورٌ يقذفُه اللهُ تعالى في قلب العبد، فإذا دار ذلك النورُ أشرقتْ له ذاتُه، فرأى به نفسَه وما أُهِّلتْ له من الكلمات والمحاسن، فعَلَتْ همّتُه وقَوِيتْ عزيمتُه وانقَشعتْ عنه ظلُماتُ نفسِه وطبعِه؛ لأنّ النورَ والظلُمات لا يجتمعانِ إلّا يطرحُ أحدُهما الآخر، فوَقَعتِ الرُّوحُ حينئذٍ بين الهيْبة والأُنس بالحبيبِ الأول، فيستحيلُ عليها بعد ذلك الالتفاتُ إلى غيرِهِ والمحبةُ لسواه، قال الشاعر(١):

نقِّلْ فؤادَك حيث شئتَ من الهوى ... ما الحبُّ إلّا للحبيـــبِ الأولِ

كم منــزلٍ في الأرض يألفُه الفتـى ... وحنينُه أبـــدًا لأول منـــزلِ

ويقوم به ليله، فما تركه إلا ليلة قطع رجله، ثم عاوده من الليلة المقبلة. والله ولي ثوابك، والضمين لحسابك. (كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري ١/ ٢٠٩- ٢١٢).

(١) هو أبو تمام، كما في: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، لابن بشر الآمدي١/ ٦٩.

فيستحلي اللسانُ ذكرَ الله وما والاه، وأسرعتِ الجوارحُ إلى طاعة الله، فحينئذٍ يدخلُ الحبُّ قلبَ العبد فيتوغَّلُ فيه توغُّلَ الغواص في البحار، فيستلذُّ بيَ استلذاذَ الظمآنِ الشديدِ ظمأُه للماءِ الشديدِ بردُه في اليوم الشديدِ قُرُّه، فيقفُ عَنَتُ الطاعات لاستلذاذِه به، بل تصيرُ غذاءً لقلبه وسرورًا وقُرةَ عيْن في حقِّه ونعيمًا لروحِه يتلذَّذُ به أعظمَ من اللَّذات الجسمانيّة.

وعن ابن عطاء[1]: من ألزمَ نفسَه آدابَ السُّنة نوَّر اللهُ قلبَه بنُور المعرفة فيؤهِّلُه ذلك لأنْ يسمعَ القرآنَ بأُذُنيْ قلبِه، فإذا سمعَه بهما تشرَّبتْه أجزاؤه، فيسمعُه بكلِّ شعرة فيطيبُ ويغيبُ عندَ سماعِه، بحيثُ إذا قرأ الآيةَ عَلِم سببَ نزولِها وحكمتَها ومعناها ومحلَّ الإعجاز منها، وحظَّه المختصَّ به، ومدلولَ ظاهرِها ومدلولَ باطنِها، ومركزَ الإشارةِ منها، كما قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ لهذا القرآن سبعةَ بطون، ولكلِّ بطنٍ بطون".

---

(١) أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، الشيخ العارف، تاج الدين، أبو الفضل الإسكندري (ت ٧٠٩ هـ): متصوف شاذلي، وإمام عارف من العلماء، صاحب إشارات وكرامات وقدم راسخ في التصوف، صحب الشيخ أبا العباس المرسي تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي وأخذ عنه. وكان من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية. له تصانيف منها: "الحكم العطائية". الوافي بالوفيات ٨/ ٣٨، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٩/ ٢٣، وأعلام الزركلي ١/ ٢٢١ وما بعدها.

ويظهرُ ذلك لمن نوَّر اللهُ بصيرتَه في قوله تعالى: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا} وهي: الصلاةُ والزكاة {وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} وهم: الصَّومُ والحجُّ والجهادُ والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، {أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا}: يجمعُ لهم بينَ الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجِّ والجهاد، {وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا} [الشورى: ٤٩- ٥٠]: بأنْ لا يجعلَ له حظًّا في الأعمالِ الصّالحات. وفي معنى الآية قولُه صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ قَسَم بينكم أعمالَكم كما قَسَم بينكم أرزاقَكم"، فمنَ الناس مَن فُتحَ له في الصلاة دونَ الزّكاة، ومنهم من فُتحَ له في الصَّوم دونَ الحجِّ، ومنهم مَن فُتحَ لهُ في الحجِّ دونَ الصَّوم، ومنهم من فُتحَ له في العلوم دونَ سائر الأعمال، قال صلى الله عليه وسلم في أمرِ العاقبة(١): "ومن الناس من يُدعى من باب الصّلاة، ومنهم من يُدعى من باب الصَّدَقة، ومنهم من يُدعى من باب الصّوم وهو الرَّيّانُ لا يدخُلُه إلا الصائمون" إلخ، فقال أبو بكر: فهل في الناس من يُدعى من جميع أبوابِ البرّ؟ قال: "نعم، وأرجو أن تكونَ(٢) منهم".

ومعناها الظاهر: أنّ اللهَ يهَبُ لمن يشاء إناثا كشُعيب، ويهبُ لمن يشاءُ الذكورَ كإبراهيم، أو يُزوِّجُهم ذُكرانًا وإناثًا كمحمد صلى الله عليه وسلم، ويجعلُ من يشاءُ عقيمًا كيحيى وعيسى على جميعِهم أفضلُ الصّلاة والسلام. وإنّما قدَّم ذكرَ

(١) متفق عليه: البخاري (١٨٩٧) و (٣٦٦٦)، ومسلم ٨٥ - (١٠٢٧) من حديث أبي هريرة، وانظر أيضًا: الجمع بين الصحيحين، للحَميدي (٢٢٧١).

(٢) في النسخة: أكون، خطأ والتصويب من مصدري التخريج الآتيين.

الإناث في الآية معَ كونِهنَّ مفضولاتٍ جبرًا لكسر قلوبِّ المختصِّينَ بولادة الإناث، وقال صلى الله عليه وسلم: "مِن يُمنِ المرأة أن تَبتكرَ بأُنثى"، والحِكمةُ في بدايتِه بالإناثِ لأنّهنّ أصلُ التناسل، قال اللهُ تعالى: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ} [البقرة: ٢٢٣] الآيةَ. فالرجُلُ بمثابة الماءِ والمرأةُ بمثابة الأرضِ التي هي محلُّ الزّرع والنبات، فكما أنّ الماءَ لا يُنبتُ إلّا إذا صادف بقعةً طيّبةً، كذلك الرجلُ لا يلدُ إلّا إذا باشَرَ زوجةً وَلُودًا، قال اللهُ تعالى: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا} [الأعراف: ٥٨].

فهذا مثلٌ ضربَه اللهُ للقلوب: الطيّبةِ والخبيثة، فالقلوبُ الطيّبةُ إذا أصابتْها أمطارُ التنزيل وأنهارُ الحِكمة يخرجُ نباتُها بإذن ربِّها رويًّا مونعًا نضيرًا فتُنبت أعمالًا صالحات، وتُثمرُ أحوالًا طيّبات، فتصيرُ بساتينَ وأَجَمات تتنعَّمُ فيها وبها جميعُ الحيَوانات منَ الإنس والجنِّ والدوابِّ والحشرات، فالإنسُ عبارةٌ عن الصّالحينَ والصّالحات، والجنُّ عبارةٌ عن المُخلَصِين من المؤمنينَ والمؤمنات، والدوابُّ عبارةٌ عن المُنهمِكينَ في الشَّهوات، والحشراتُ عبارةٌ عن أهل الزَّيْغ والغَفَلات.

وأمّا القلوبُ الخبيثةُ فالكسِّباخ والمزابل: لا تُنبتُ أصلًا، وإن أنبتت لا تُنبتُ إلّا نباتًا قليلًا متفرقًا لا نفْعَ فيه؛ لأنها لا تُنبتُ إلّا شِركًا وشكًّا ونفاقًا وغلًّا، وحسدًا مُذِلًّا، فهذه النباتاتُ لا خيرَ فيها كما أنه لا خيرَ في مِثلَ: الزَّقُّوم والضَّريع والشَّبْرق: من نبات الأرضِ المضروبِ بها المَثَلُ والمرادُ غيرُها.

فيدخُل في الأحوال: العلمُ بنوعيْه، والإيمانُ والإحسانُ، والتوكُّلُ والتفويضُ، واليقينُ والمراقبةُ، والتسليمُ والرضى، والحِلمُ والصَّبر، والتواضعُ والزُّهد، والصّدقُ والإخلاصن إلى غير ذلك، ويدخُلُ في الأعمال: إقامةُ الصلاة وإيتاءُ الزّكاة والصومُ والحجُّ والجهادُ الأصغرُ، والنطقُ بالشّهادتيْن والدعوةُ إليهما برِفْق، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، وإعانةُ الضعيف ومواساةُ الفقراء وإطعامُ الطعام على حبِّه، والأخذُ على يدِ الظالم، وصلةُ الرَّحِم، وكفُّ الأذى وإماطتُه، وتعليمُ الجاهل وإرشادُ الضالّ، وكتمانُ السرّ وأداءُ الأمانةِ والوفاءُ بالوعد، وحفظُ العهد.

ومن علاماتِ المحبّة: التسَلّي عن المصائب؛ لأنّ المحبَّ يجدُ منَ المحبّة ما يُنسيه المصائب، فلا يجدُ من مسِّها ما يجدُه غيرُه، حتى كأنه اكتسبَ طبيعةً ثانيةً ليست من طبائع المخلوقات، بل يقوى عليه سلطانُ المحبّة حتى يلتذَّ بكثيرٍ من المصائبِ التذاذًا زائدًا على التذاذِ الخَلِيِّ بحظوظِه وشَهواتِه.

وللمُحبِّ ثلاثُ علامات، وهي: أن يكونَ كلامُه ذكرًا لمحبوبِه وصمتُه فكرًا فيه وعملُه طاعةً له، وأن يكونَ ذلك على سبيل الدّوام والاستمرار، وما تلذَّذ المتلذِّذونَ بشيءٍ ألذَّ من ذكر المحبوب، فالمُحبُّونَ قدِ اشتغلتْ قلوبُهم بلزوم ذكر الحبيبِ عن اللَّذّات، وانقَطعتْ أوضاعُهم عن عارضِ داعي الشَّهوات، ورَقَتْ إلى معادنِ الذخائرِ وبقيّة الطلبات.

وربّما تزايدَ وَجْدُ المُحبِّ، وهاجَ الحنين وباحَ الأنين، وتحرَّكتِ المَواجد، وتغيَّر اللونُ واستَرْخَت الجوارحُ وفتُر البدن واقشعرَّ الجلد، وربَّما صاح وربّما بكى، وربّما شَهَق، وربّما وَلِه، وربّما سقط، وربّما تزايدَ الوجدُ على المُحبِّ فقتله.

وهو أولُ نقدٍ من نقود المحبّة، وهو بذلُ الرُّوح، فما للمُفلِس الجبانِ وسَوْمَها(١) بدم المُحبِّ بيّاع وصلِهم؟ تالله، ما هزُلت فيستامَها المُفلِسون، ولا كَسَدت فيُنفقَها بالنسيئة المُعْسِرون، لقد سِيمت بالعَرْض في سُوقٍ من يزيدُهم يرضى لها بثمنٍ دونَ بذلِ النفوس، فتأخَّر البَطّالون وقُدِّم المحبّون ينظرونَ أيُّهم يَصلُحُ أن يكونَ ثمنَها؟ فدارتِ السلعةُ بينَهم، ووَقَعتْ في أيدي رجال أذِلّة على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين، فهذا بيعٌ أشرفُ من بيع المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهمُ الجنّةَ، فالمُحبّون باعوا أنفسَهم لمحبوبِهم فلم يرضَوْا لها بثمنٍ دون موتِهم في محبتِه، والمؤمنونَ باعوا أنفسَهم لله ورضُوا بأنْ يكونَ ثمنُها مخلوقًا مثلَهم وهو الجنة.

فالمُحبّونَ تخلَّصوا ببيعِهم أنفسَهم من رِبْقات الوجود إلى مشاهدة الملِك الحقِّ المعبود، فعُوِّضوا من ذلك أنْ جَعلهم في مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مُقتدِر، فهم شهداءُ المحبّة، جزاؤهم عندَ ربِّهم مشاهدةُ حبيبِهم، وشهداءُ المعترَك تخلَّصوا ببيعِهم من رِبْق الهوى والشيطان فصاروا عبيدًا لله مُخلَصين، فلم يبلُغوا من المحبّة

---

(١) الضبط من النسخة.

مبلغًا رَفَضوا فيه المكوَّناتِ بأسرِهان فجَعل اللهُ جزاءهم النجاةَ من النار ودخولَ دار القرار جزاءً وِفاقًا على الفريقيْن، ولكنْ على قدْر هممِهم. قل: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} [الإسراء: ٢٠].

أمّا شهداءُ المحبّة في هذه الأُمّة فكثيرونَ جدًّا لا يحيطُ بهم كتابٌ حافظ، منهم: ابنُ الفارض(١)، وابنُ معتب(٢)، وقد صنَّف السُّيوطيُّ كتابًا سمّاه كتابَ "الغربة في إحصاءِ شهداءِ المحبّة" أتَى فيه بالعجَبِ العُجاب.

---

(١) عمر بن عليّ بن مرشد بن عليّ الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، أبو حفص وأبو القاسم، المعروف بابن الفارض، المنعوت بالشرف (ت ٦٣٢ هـ) : أشعر المتصوفين وسلطان العاشقين، وكان جميلًا نبيلًا، حسن الهيئة والملبس، حسن الصحبة والعشرة، رقيق الطبع، فصيح العبارة، سلس القياد، سخيًّا جوادًا. وكان أيام ارتفاع النيل يتردد إلى مسجد في الروضة يعرف بالمشتهى، ويحب مشاهدة البحر في المساء. وكان يعشق مطلق الجمال. واختلف في شأنه، كشأن ابن عربي، والعفيف التلمساني، والقونوي، وابن هود، وابن سبعين، وتلميذه الششتري، وابن مظفر، والصفار، من الكفر إلى القطبانية، وكثرت التصانيف من الفريقين في هذه القضية. وفيات الأعيان ٣/ ٤٥٤، وتاريخ الإسلام ١٤/ ٧٦ وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٦٨، وفيهما مزيد مصادر، وأعلام الزركلي ٥/٥٥.

(٢) ربما يريد: أحمد بن معتّب بن أبي الأزهر عبد الوارث بن الحسن أبا جعفر (ت ٢٧٧هـ): الفقيه المحدث، الزاهد العابد، شهيد القرآن، من أصحاب سحنون، وكان ثقة ثبتًا نبيلًا عالمًا بالحديث والرجال، حسن التقييد، سمع منه الناس، ولم يكن من النقاد في الفقه. جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، للدكتور قاسم علي سعد (١٧٩).

رُوي أنّ حاتمًا الأصمَّ[1] رضي الله عنه كان من شهداءِ الخوفِ والمحبّة، فأُتي[2] بطبيبٍ يهوديّ لمّا اشتدَّت عليه علّتُه، فقال: عليَّ بإراقتِه[3] فأتوْه بها، فلمّا رآها قال: إنّ صاحبَكم ليس بعليل وإنّما فُتِّتت كبدُه من الخوف، وإنه يموتُ غدًا، وأنا أشهدُ بألّا إلَه إلّا الله وأنّ محمدًا رسولُ الله، وأشهدُ أنه لا يبلُغُ هذا المبلغَ من العبدِ إلا دينُ حقّ قائم، وقد رضِيتُ بالإسلام دينًا.

وحُكي أنّ وليًّا من هذه الأُمّة احتُضِرَ وما في قلبِه داء، وإنّما انقَطع نياطُ قلبِه شوقًا وتوْقًا، فجيءَ بالطبيب إليه، فلما جَسَّ يدَه التفَتَ إليه مبتسمًا وجَعل يقول:

جَسَّ الطبيبُ يدي فقلــتُ لهُ   دعْ يا طبيبُ يدي وجُسَّ فؤادي

---

(١) حاتم بن عنوان، أبو عبد الرحمن، المعروف بالأصمّ (ت ٢٣٧ هـ): زاهد، اشتهر بالورع والتقشف. له كلام في الزهد والحكم. من أهل بلخ، وزار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل. شهد بعض معارك الفتوح، ومما حدّث به عن نفسه قال: لقينا الترك، ورماني أحدهم بوهق فأقلبني عن فرسي، ونزل عن دابته فقعد على صدري، وأخذ بلحيتي هذه الوافرة، وأخرج من خفه سكينا لذبحني بها، فرماه بعض المسلين بسهم فما أخطأ حلقه، فسقط عني، فقمت إليه، فأخذت السكين من يده فذبحته. كان أبو بكر الوراق يقول: حاتم الأصمّ لقمان هذه الأمة. تاريخ الخطيب ٩/ ١٤٩ وما بعدها، والأعلام للزركلي ٢/ ١٥٢.

(٢) قيدها الناسخ: "فأوتي".

(٣) كناية عن البول.

وعن الأصمعيِّ رضي الله عنه أنه دَخل الرُّسْتاقَ فإذا هو بإنسانٍ حَسَن الوجْه وهو مربوطٌ إلى عَمود، فلمّا رآه أنشَد فقال:

سـمومُكَ بالفكرِ مقطوعـةٌ   وهل يُقطعُ الدّهـرُ إلّا بهِمْ

إذا كنـتَ في نعمـةٍ فارْعَهـا   فإنّ المعاصـي تُزيـل النِّعـمْ

مصـائـبُ دنياك ممزوجـةٌ   فهل يؤكلُ الشهدُ إلّا بسُـمّ

فقلت: ما الاسم؟ قال: غاب عني الاسمُ والكُنية، ثم أنشأ يقول:

غَيَّب اسمي وكنيتي وفؤادي   ضَلّ عقلي من هولِ يوم المَعادِ

فقلت: فيمَ حُبِست؟ قال: في الحبّ، فقلتُ له: وما الحبّ؟ قال: شيءٌ دقيقٌ لهُ كُمونٌ في القلب ككمونِ النار في الجَنْدل: إنْ قدحتَه أوْرى، وإن تركتَه توارى. ثم أنشأ يقول:

بانوا فأضحى الجسمُ من بُعدِهمْ   لا تُبصـرُ العيـنُ لـه فَيّا

وا خجْلتي منهـمْ ومـن قولِهـمُ   ما تركـوا للفقـرِ في شـيّا

بـأيِّ وجـهٍ أتلقّاهـمُ   إنْ وَجَدوني بعدَهـم حيّا

قال الأصمعيّ: فقلتُ له: صفْ لي أين أُخذوا؟ قال: ركبوا سُفنَ الخَشية واستعملوا مجاذفَ الطاعات وأرَقُّوا قُرُبات التوكُّل، وعَصَفت عليهم ريحُ الشّوق فألقتْهم في بحارِ المعرفة، وتلقَّتْهم أمواجُ الرضى وجمَّلتْهم ثيابُ اليقين، فصار

القومُ قاصدين، حتى غابوا عن أعيُنِ الناظرين، وكأنّي- والله- بهم قد خَرَقوا الحُجُب، والملائكةُ تتلقّاهم بالرُّوح والرَّيْحان، وهم يقولون: يا ملائكةَ الله، أين الصراط؟ فتقولُ لهمُ الملائكة: أبشِروا فقد جاوزْتُموه بخمسٍ مئة عام، ثم شَهَق شهقةً [و]فارَقَ الدنيا.

وكان إبراهيمُ عليه السلام محبًّا كثيرَ التأوُّهِ والبكاء، فبكى يومًا بكاءً شديدًا، فنزلَ عليه جِبريلُ عليه السلام فقال: يا إبراهيم، إنّ ربَّك يقولُ لك: هل رأيتَ خليلًا يُعذِّبُ خليلَه؟ فقال، يا جبريل، إذا ذكرتُ خطيئتي نسيتُ خُلّتي[١]، وإذا كان هذا حالَ إبراهيمَ عليه السلام- معَ نُبوءته وخُلّتِه- فما حالُ العاصي معّ زلّتِه وخطيئتِه؟ فحاسِبْ نفسَك قبلَ أن تُحاسَب، ومهِّدْ لها قبلَ أن تُعاب، وجاهِدْها الجهادَ الأكبر، وقلْ: ذبْحُها باسم الله واللهُ أكبر.

وكان شُعيبٌ رضي الله عنه محبًّا، بكى خمسين عامًا حتى ذابت عيناه فردَّهما اللهُ عليه، ثم بكى خمسين حتى ذابتا أيضًا، فردَّهما اللهُ عليه، فقال: يا عبدي، إنْ كان بكاؤك خوفًا من ناري فقد آمنتُك منها، وإن كان شوقًا إلى جنّتي فقد أبحتُها لك تتبوَّأُ منها حيث تشاء، فقال: لم يكنْ بُكائي خوفًا من نارك ولا طمعًا في جنّتك، ولكني أبكي شوقًا إليك وحبًّا في لقائك ورغبةً في النظرِ إلى وجهِك الكريم، فقال اللهُ له: صدقتَ، أعلمُ ذلك من نيّتِك، وإنما سألتك لأُظهرَ فضلَك

(١) بالضم، وهي الصداقة. تاج العروس (خلل).

لملائكتي، فبِعزَّتي حلفْتُ، لأجْعلنَّ رجُلًا من أنبيائي أتجلَّى عليه بكلامي راعيَ غُنَيْمتِك عشْرَ سنين، فلمّا أتاه موسى عليه السلامُ عَرَفه، فلذلك دعاهُ إلى رعيةِ غنمِه ثمانيَ حِجَج على أن يَنكِحَه إحدى ابنتيْه، ثم أَمَرَه بإتمام العشَرة[1] تبرُّعًا منه وإكرامًا له ورفعًا للمشقّة عنهُ، فأتمَّها موسى عليه السلامُ تكرُّمًا، معَ أنّ شعيبًا عالمٌ أنه سيُتمُّها.

رُوي أنّ أبا يزيدَ البِسطاميَّ[2] رضي الله عنه قام اثنيْ عشَرَ يومًا لم يُفتحْ عليه بشيء، فمسَّهُ ألمُ الجوع، فخَرج يطلبُ رزقًا، فانتهى إلى بابِ يهوديّ، فوجد عندَ بابِه كلبًا فوقفَ بالباب سائلًا، فدفع له رغيفًا، فلمّا أخذه وَثَب الكلبُ في وجهه، فقال له أبو يزيد: إنّما هو رغيفٌ واحدٌ ونحن كلبان! لك نصفُه ولي نصفُه، ثم رمى بنصفه إلى الكلب، فاتَّبعه الكلبُ وحَمَل عليه، فقال له: بحقِّ خالقِك إلّا كففتَ عني حتى أسألَ ربي، فأنطق اللهُ الكلبَ فقال: يا أبا يزيد، إنّي مُلازمٌ بابَ هذا اليهوديِّ سبعَ سنين لم أُعرضْ عن بابه ولا خَطر ببالي الطمعُ في غيرِه، فإن أطعَمَني شيئًا أكلتُه وإن أحرَمَني لم أعدِلْ عن بابه، فالتفتَ إلى الكلبِ فقال له: الجسمُ يقومُ بالأبواب والقلبُ بينَ يدَيْ ربِّ الأرباب، فنودي: لولا أنّا علِمْنا ذلك من قلبِك لَمَحوْنا اسمَك من ديوانِ خاصَّتِك.

---

(١) كذا في النسخة، ولا يضر، فالمعدود غائب.

(٢) سبقت إلماحة إلى ترجمته.

وقيل: إنّ سُفيانَ الثوريَّ رضي الله عنه أقام ثلاثةَ أيام لم يذُقْ شيئًا، فقال لأُخته: التمسي عندَ بعض الجيران طعامًا، فدقَّتْ على بعض جيرانِهم ففَتَحوا لها فقالت لهم: إنّ سُفيانَ عَدِم القُوتَ منذُ ثلاثة أيام، فهل من شيءٍ يُتقوَّتُ به؟ فقالوا لها: إنّا منذُ خمسة أيام لم نذُقْ ذَواقًا، فذهبتْ فدقَّتْ على غيرِهم فقالوا: إنّا مُعدَمونَ منذُ سبعة أيام، فنوديَ: يا سُفيان، إن كنتَ محبًّا لنا فاصبرْ على البقاءِ وإلّا فإسألِ الإقالة، فقال: لا يا ربِّ، لا أُقيلُ ولا أستقيل[1]، وأعوذُ بوجهِك أنْ أفعلَ ما لا ترضاه، فإنّي سألتُ والمقصودُ أنت، وإني صابرٌ راضٍ عنك في كلِّ ما مَنَعتَ ومَنَحت، وعندَ العافية والبليّة.

ورُوي أنّ بعضَ الصّالحين ضاقتْ معيشتُه، فشكا إلى صديقٍ له ضيقَ معيشتِه، فنوديَ: إنْ رَضِيتَ بقضائنا وإلّا فارتحلْ من قُربِنا، فقال: أيْ ربِّ، رَضِيتُ بالقرب ولو كنتُ أعَضُّ على الجمر.

وقال أبو يزيدَ رضي الله عنه: حَجَجتُ سنةً إلى بيتِ الله الحرام، فجعلتُ أدعو وأتملَّق، فإذا بهاتفٍ يقولُ: يا أبا يزيد، لو دعوتَنا بمِثل هذا الدعاءِ ألفَ سنةٍ وحَجَجتَ ألفَ حَجّة ما تقبَّلتُ منك ذَرّةً، قلتُ: ولِمَ؟ قال: لأنك ترى عملَك ولا ترى منِ استعملَك، قلت: يا ربِّ، إذا لم تقبلْ منّي عبادتي وعزَّتِك لَأقطعَنَّ ما بيني وبينَك، فقيل لي: يا أبا يزيد، إنْ كان بيدِك فاقطعْه، نحن وصلناك، ولو شئنا

(١) الإقالة والاستقالة في الأصل: الفسخ، خاصة بين المتبايعين. تاج العروس (قيل).

قَطَعناك، قلت: وعزّتِك لا أبرَحُ مِن حَرَمِك حتى أعلمَ رضاكَ عني، فقيل لي: قلْ: وعزَّتِك وجلالِك، لو يعلمُ العالَمونَ ما تعلمُه منّي لَرجَموني، قلتُ: وعزَّتِك وجلالِك لو يعلمُ العالَمُ ما أعلمُه من كرَمِك ما عبدوك، وإذا بهاتفٍ يقول: يا أبا يزيد:

لا تقلْ ولا أقولُ   أنت عندَنا مقبولُ

وكان الجُنَيْدُ[١] رضي الله عنه يقولُ: لولا ما أجدُ باللّيل من لَذّةِ المناجاة ما أحببتُ البقاءَ في الدنيا.

وقال بعضُ الصّالحين: لي أربعونَ سنةً ما غَمَّني إلّا طلوعُ الفجر لأنه يقطعُ عليّ لَذّتي.

---

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز (لأنه كان يعمل الخز) أبو القاسم (ت ٢٩٧ هـ): صوفي، من العلماء بالدين.

أصله من نهاوند إلا أن مولده ومنشأه ووفاته ببغداد. قال أحد معاصريه: ما رأت عيناي مثله، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد. وقال ابن الأثير في وصفه: إمام الدنيا في زمانه. وعده العلماء شيخ مذهب التصوف، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، ولكونه مصونًا من العقائد الذميمة، محميّ الأساس من شُبه الغلاة، سالمًا من كل ما يوجب اعتراض الشرع. تاريخ بغداد ٨/ ١٦٨-١٧٨، والكامل في التاريخ، لابن الأثير ٦/ ٦١١، والأعلام للزركلي ١٤١/٢ وغيرها.

وقيل لزيدِ بن هارون: كم تصلّي منَ اللّيل؟ فقال: أوَأنامُ منه شيئًا؟ إذنْ لا أنامَ اللهُ لي عينًا.

ورُوي عن مُطرِّفٍ رضي الله عنه أنه قال: إنّي لأستحيي أن يراني اللهُ آكلًا نهارًا أو نائمًا ليلًا أبدًا.

وكان ثابتٌ البُنانيُّ يصلِّي ثلاثَ مئةِ ركعة، وصام ستّينَ سنةً، وكان يقولُ في دعائه: اللهُمَّ إن كنتَ أعطيْتَ أحدًا الصلاةَ في قبرِه فأعطِني ذلك. وذكر بعضُ أصحابِه أنه رآه في قبرِه وهُو يُصلِّي.

وكان عليُّ بنُ عبد الله رضي الله عنه يسجدُ في كلِّ يوم ألفَ سجدة، ولذلك سُمِّي بالسَّجَّاد.

ورُوي أنّ أُوَيْسًا القَرَنيَّ رضي الله عنه قال: والله لَأعبُدنَّ اللهَ عبادةَ الملائكة، فكان يقطعُ نهارَه صيامًا وليلَهُ قيامًا.

وقال عامرُ بن قيس: واللهِ لَأجْهَدَنَّ، فإنْ نَجَوْتُ فبرحمة الله، وإنْ هلكتُ فبعدَ جَهْد.

وصلَّى مسروقٌ رضي اللهُ عنه حتى انتفختْ قدماه.

وأمّا أبو مُسلم الخَوْلانيُّ رضي الله عنه فقد عَلَّق سوْطًا في بيتِه يُخوِّفُ به نفسَه، فإذا أحسَّ منها فتورًا أخَذ السَّوطَ وضربَ به في رِجليْه ويقولُ لنفسِه: أنتِ أحقُّ

بالسَّوطِ من الدابة. وكان يقولُ: أيظنُّ أصحابُ محمدٍ أنهم قد فازوا؟ فوالله لَنُزاحِمَنَّهم يومَ القيامة حتى يعلموا أنهم خَلَّفوا بعدَهم رجالًا.

وأمّا ضَيْغَمٌ العابدُ[1] رضي الله عنه فقد تعبَّد قائمًا حتى قعد، وجالسًا حتى استلقى، ومُستلقيًا حتى ماتَ وهو ساجدٌ، وكان يقولُ في دعائه: اللهُمَّ إنّي أُحبُّ لقاءك فأَحِبَّ لقائي. وقال أيضًا: لو علمتُ أنّ رضاهُ في تقريضِ لحمي بالمقارض لَفعلتُ.

وكان بِشْرٌ[2] دائمَ الأحزان، فقيل له في ذلك، فقال: إنّي مطلوب. وكان لا ينامُ الليلَ فيقولُ: أخافُ أن يأتيَني أمرُه وأنا نائم.

"وقالت أم سليمان[3]: يا بُنيَّ، لا تُكثرِ النومَ، فإنّ كثرةَ النّوم بالليل تدَعُ الرجالَ فُقراءَ يومَ القيامة".

---

(١) ضيغم بن مالك، أبو مالك الرَّاسبي البصري العابد (ت ١٩٠ هـ): يروي عن مالك بن دينار. روى عنه ابنه مالك بن ضيغم. أخبارُه في العبادة مشهورة يُستغنى بشهرتها عن الاستغراق فيها. الثقات لابن حبان (٨٧٠٣)، وتاريخ الإسلام ٤/ ٨٦٧، وفيه أن كنيته أبو بكر، والثقات ممن لم يقع في الكتب الستة، لابن قطلوبغا (٥٤٠٥).

(٢) الحافي، أشهر من أن يعرف.

(٣) كذا النصّ في النسخة، وفي سنن ابن ماجه (١٣٣٢)- وعنه نقل المصنف رحمه الله-: عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قالت أم سليمان بن داود لسليمان..."، فذكره. وإسناده ضعيف.

ورُوي عن سعيد بن المسيِّب أنه قال: ما من رجُلٍ قام منَ اللَّيل فتوضَّأ فصلَّى ركعتيْنِ إلّا تبسَّم الجبّارُ في وجهِه وقال: يا ملائكتي، أُشهدُكم أنّي قد غفرتُ له.

وفي بعض الكتُب المُنزَّلة، أنّ اللهَ أوحَى إلى داوودَ عليه السلام: يا داوود، قلْ لبني إسرائيلَ: مَن صلَّى في السَّحَر ركعتيْنِ بقلبٍ حاضر توَّجْتُه بتاج كرامتي يومَ القيامة، ويا داوود، إذا حدَّثتْك نفسُك بالنّوم فاذكُرْ مصارعَ أهل النار وصوْلةَ الزَّبانيَةِ وبُعدَ قعرِ جهنّم، فإنْ فعلتَ ذلكَ انتفَى نومُك، يا داوود، خُذْ قِسطَك منَ الليل ولا تغفُلْ عن الصّلاة، واجعلْ مكانَ الضَّحِكِ بكاءً خوفًا منّي أُنجيكَ(١) من حرارة جهنَّمَ يومَ القيامة.

ويُروى أنّ يحيى بنَ زكريّا عليهما السلامُ شَبِع ليلةً من خُبز الشّعير فنام عن حزبِه، فأوحى اللهُ إليه: يا يحيى، هل وجدتَ دارًا خيرًا من داري وجِوارًا خيرًا من جِواري؟ وعزّتي وجلالي، لو اطَّلعتَ على الفِردوس لَذابَ جسمُك، ولو اطَّلعتَ على جهنَّم مرّةً لَبكيْتَ الصَّديدَ بعد الدموع ولَلَبِستَ الحديدَ بعدَ المُسوح.

وكان سليمانُ عليه السلام يَمكُثُ معتكفًا في مسجده الشهرَ والشهريْن، ويقومُ حتى يقعَ الطائرُ على رأسه يظُنُّه جمادًا، ولـمّا شغلَه جِيادُ الخيل عن صلاة

---

(١) كذا في النسخة، والجادة: أنجِك، مجزومًا بجواب الطلب.

العصر عَرْقبَ[١] ما قدِرَ عليه منها، فلمّا فعل بها ما فَعل لله عَوَّضَه منها الرِّيحَ تجري بأمرِه رخاءً حيثُ أصاب، ومن يومِئذٍ ما تَرك عبدٌ شيئًا من أمرِ الدنيا لله إلّا عوَّضه خيرًا منه.

قيل لابنِ أدهم: ما عوَّضَك اللهُ من مُلكِكَ الذي تركْتَ لله تعالى؟ فقال: عوَّضَني منه شيئين، أحدُهما: أنه ما خَطر على بالي منذ تركتُه لله، الثاني: ما اشتهيْتُ طعامًا ولا شرابًا إلّا حَضَرني في الوقتِ من دونِ كُلفة، وكان يتناولُ العُشبةَ فيجعلُ وَرَقَها في فيه ويُلقي النَّوى مِن فيه.

رَوى عنه بعضُ أصحابه أنه صاحَبَهُ إلى الصحراء، فبينما هما كذلك إذ أصابه ظمأٌ شديد، فقال لابن أدهم: إني قد عطِشتُ، فبحثَ بعَقِبِه فإذا عينُ ماء، ثم أَخَذ من الرَّمل، فإذا هو في يدِه سُكّرٌ ما ذاق الذائقونَ مثلَه، ثم تناول بيدِه مرّةً أخرى فإذا هو سَوِيقٌ لم أذُقْ سَوِيقًا مثلَه قطّ، فتعجَّبتُ ممّا رأيتُ، فقال: مَن أخلص لله في الخَلَوات رَزَقه ما يشاء بالفَلَوات.

واشتهى عليه بعضُ أصحابه رغيفًا حارًّا، فتناول من الترابِ فإذا أرغِفةٌ كأنّها أُخرِجتْ من التَّنُّور، فناوله إياها.

---

(١) قال الزبيدي: "وفي النوادر: عرقبت البعير وعلّيت عليه: إذا أعنته برفع. قال: ويقال: عرقب لبعيرك، أي: ارفع بعرقوبه حتى يقوم". تاج العروس (عرقب).

ومن علاماتِ محبّة الله تعالى وإجلالِه: أن لا تحلفَ باسمِه لا صادقًا ولا كاذبًا. رُوي أنّ اللهَ تعالى أوحى إلى داوودَ عليه السلام: أنْ يا داوود، لا تحلفْ باسمي لا صادقًا ولا كاذبًا، فمَن حَلَف باسمي صادقًا أورثتُه الفقرَ، ومن حلفَ به كاذبًا أورثتُه همَّ القلبِ وأدخلتُه النارَ ولا أُبالي.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إياكم والأيْمانَ الفاقرة، فإنها تَذَرُ الديارَ بلاقع"[1]، وفي رواية: "إياكم والأيْمانَ الفاجرةَ عند البيع، فإنها تنفقُ ثم تمحق"[2].

وفي حديثٍ قُدُسيٍّ: "ما عَلِم بجلالي مَن حَلَف بي كاذبًا"، وفي رواية: "ملعونٌ مَن سَأل باسمي، وملعونٌ من سُئل باسمي ولم يفعلْ".

ومن علاماتِ المحبّة: أن لا تُنازعَ أحدًا في أمرٍ من أمورِ الدُّنيا. رُوي أنّ رجُليْنِ اختَصما في أرض، فنَطَّق [3] اللهُ لَبِنةً من حائطٍ في تلك الأرض، فقالت: يا هذان، إلى كم تختصمان؟ وعزّةِ ربِّي، إنّي كنتُ مِلِكًا من الملوك، ملكتُ الدنيا ألفَ سنةٍ ثم مِتُّ فصِرتُ ترابًا ألفَ سنة، ثم أخَذَني فَخّارٌ فصنع منّي إناءً فاستُعمِلتُ حتّى انكسرت، ثم صِرتُ ترابًا ألفَ سنة، ثم أخَذَني رجلٌ فضَرَب منّي لبِنةً وجُعلتُ في هذا الحائطِ ثلاثَ مئة سنة، فلو تعلمونَ من عظَمةِ الله ما أعلمُ ما

---

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين (٢٥٤٣) عن واثلة بن الأسقع، مع اختلاف في لفظه.

(٢) رواه في النسائي الكبرى (٦٠١٠) عن أبي قتادة الأنصاري.

(٣) كذا

تنازعتُم في أمرٍ من أمور الدّنيا الفانيةِ التافهِ أمرُها، فانصَرفا وتَرَكا ما كانا يختصمانِ فيه.

ورُوي أنّ عيسى عليه السلامُ مرَّ في بعض سياحتِه بجُبٍّ، فتوضَّأ منه وشرب، فإذا هو مُرّ، فسأل اللهَ تعالى أن يُكلِّمَه الجُبُّ، فقال: يا رُوحَ الله، إنّي كنت إنسانًا، فلمّا قُبِضتْ رُوحي صرتُ ترابًا، فلمّا تطاولتْ علَيّ السنينُ والأعوام جُعِلتُ جُبًّا، فلم تنتقلْ عني مرارةُ الموت، وهي ما تجدُه في[1] الماءِ.

رُوي أنّ اللهَ أوحى إلى داوودَ عليه السلامُ: "يا داوود، عجِبتُ ممّن أحبَّني كيف يهدأُ قلبُه؟ يا داوود، قلْ لبني إسرائيلَ: لو رأيتُم الجنةَ وما أعددتُه لأوليائي من النّعيم ما ذقتُم ذَواقًا بشهوة، أين المشتاقونَ الذين صَرَفَهم شوقي عن التلذُّذ بالطعام والشراب؟ أين الذين جَعلوا موضعَ الضحك بكاءً قويًّا منّي، فطالما صلَّوا والناسُ نيام؟ يا داوود، وعزّتي وجلالي إنّي قد رَضِيتُ عنهم، ولولاهم ما رضِيتُ على[2] أهل الدنيا".

وكان داوودُ عليه السلام محبًّا رقيقَ القلب، وقد تَحاكَم إليه جبريلُ وميكائيلُ وهو لا يعرفُهما؛ لأنهما تَصوَّرا له بصورة رجُليْن وضَرَبا له الأمثال، فلمّا قالا قضى داوودُ على نفسِه، فَهِم المثَلَ وعَلم أنهما ملَكانِ فخَرَّ من حينِه ساجدًا، فلم يرفعْ

(١) عبارة الناسخ: "في من الماء".

(٢) كذا، والجادة: رضي عنه.

رأسَه أربعينَ يومًا حتى نَبَت العُشبُ من دموعِه فغَطّى رأسَه حتى أكَلتِ الأرضُ من جبهتِه وهو يقولُ في سجودِه: ربِّ، زَلَّ داوودُ زلّةً أبعدَ ما بينَ السماءِ والأرض، ربِّ إنْ لم ترحمْ ضعفَ داوودَ ولم تغفرْ له جعلتَ ذنبَهُ حديثًا في الخلائقِ من بعدِه، فجاءه جبريلُ من بعدِ أربعينَ ليلةً فقال: يا داوود، إنّ اللهَ قد غفرَ لك الهمَّ الذي همَمْتَ به، وقال داوود: قادرٌ على أن يغفرَ ليَ الهمَّ الذي همَمْتُ به وقد عرفتُ أنّ اللهَ عدلٌ لا يميلُ، كيف بأُوريا إذا جاء يومَ القيامة يخاصمُني في دمِه يقولُ: يا داوودُ الخاطئُ سبحانَ خالقِ النُّور، إلهي، بأيِّ عين أنظرُ إليك يومَ القيامة، وإنّما ينظرُ الظالمونَ من طرَفٍ خَفيّ؟ سبحانَ خالقِ النُّور، إلهي، بأيِّ قَدَم أقومُ بينَ يديْكَ يومَ القيامة، يومَ تزِلُّ أقدامُ الخاطئين؟ سبحانَ خالقِ النُّور، إلهي، من أين يَطلبُ العبدُ المغفرةَ إلّا من عندِ سيّدِه؟ سبحانَ خالقِ النُّور، إلهي، لا أُطيقُ حرَّ شمسِك، فكيف أُطيقُ حرَّ نارِك؟ سبحانَ خالقِ النُّور، إلهي، لا أُطيقُ صوتَ رعدِك، فكيف أُطيقُ صوتَ جهنَّمَ؟ سبحانَ خالقِ النُّور، إلهي، الويلُ لداوودَ منَ الذنبِ العظيم الذي أصابَه! سبحانَ خالقِ النُّور، إلهي، كيف يستترُ الخاطئونَ بخطاياهُم دونَك وأنت تُشاهدُهم حيثُ كانوا؟ سبحانَ خالقِ النُّور، إلهي، اغفرْ لي ذنوبي، فلا تباعِدْني من رحمتِكَ لِهواني. سبحانَ خالقِ النُّور، إلهي، أعوذُ بوجهِكَ الكريم من ذنوبي التي أوبقَتْني. سبحانَ خالقِ النُّور، إلهي، فَرَرتُ إليكَ بذنوبي واعترفتُ بخطيئتي، فلا تجعلْني منَ القانطين، ولا تُخْزِني يومَ يُبعَثون. سبحانَ خالقِ النُّور. فنوديَ: يا داوود، أجائعٌ أنت فتُطعَمَ؟ أعطشانُ أنت

فتُسقى؟ أعُريانُ أنت فتُكسى؟ فلمّا أُجيبَ في غيرِ مطلبِه ولم يُجَبْ في ذكر خطيئتِه بشيءٍ نَحَبَ نحبةً هاجَ منها ما حولَه منَ العشق، واحترق من قُرِّ جوفِه، ثم أنزل اللهُ عليه جبريلَ بقَبولِ توبتِه ومغفرة زلّتِه.

قال وَهْب[1]: إنّ داوودَ لـمّا سمع نداءً أنّي غفرتُ لك، قال: ربِّ، كيف وأنت لا تظلمُ أحدًا؟ قال: اذهبْ إلى قبر أُوريا فنادِهِ وأنا أُسمعُه نداءك، فتحلَّلْ منه، قال: فانطلق داوودُ عليه السلامُ ولَبِسَ المسوح، حتى جلسَ عندَ قبر أُوريا ثم نادى: يا أُوريا، فقال: من هذا الذي قَطَع عليَّ لَذّتي وأيقظَني من نومتي؟ قال: أنا داوود، قال: ما حاجتُك يا نبيَّ الله؟ قال: أسألُك أن تجعلَني في حِلٍّ ممّا كان منّي إليك، قال: وما كان منك؟ قال: عرَّضتُك للقتل، قال: عرَّضتَني للجنّة فأنت في حِلّ، فأوحى اللهُ إليه: يا داوود، ألـم تعلمْ أنّي حَكَمٌ عدْلٌ لا أقضي بالتعنُّت؟ إنّي أعلمتُه أنك قد تزوَّجتَ امرأتَه، فرَجَع فناداهُ فأجابهُ فقال: من هذا الذي قَطَع عليّ لَذّتي؟ قال: أنا داوود، قال: يا نبيَّ الله، أليس قد غفرتُ لك؟ قال: بلى، قال: إنّما

(١) هو: ابن منبه، كما يصرح به في الأثر الآتي. وهو: وهب بن منبه بن كامل بْن سيج بن الأسوار الأبناوي الصنعاني الذماري، أبو عبد الله (ت ١١٤هـ): مؤرخ، كثير الإخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات. يعد في التابعين. ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. تاريخ الإسلام ٣/ ٣٣٤، والأعلام للزركلي ٨/ ١٢٥ وسواهما.

فعلتُ ذلك بكَ لمكانِ امرأتِك، فقد تزوَّجتُها، قال: فسَكَت ولم يُجبْهُ، فدعاه مرةً أخرى فلم يُجبْهُ، فقام عنِ القبر وجَعل يحْثُو الترابَ على رأسِه ويُنادي: الويلُ لداوود ثم الويلُ الطويلُ له! سبحانَ خالق النُّور، الويلُ لداوودَ إذا نُصِبتِ الموازينُ بالقسط. سبحانَ خالق النُّور، الويلُ لداوودَ ثم الويلُ الطويلُ لداوودَ حينَ يؤخذُ بذَقنِه فيُدفَعُ إلى المظلوم. سبحانَ خالق النُّور، الويلُ لداوودَ ثم الويلُ الطويلُ لداوودَ حينَ يُسحَبُ على وجهِه معَ الخاطئينَ إلى النار. سبحانَ خالق النُّور. فأتاهُ نداءٌ من السموات: يا داوود، قد غفرتُ لك ذنبَك ورحِمتُ بكاءك وأَقَلْتُ عثْرتَك، قال: فكيف وصاحبي لم يَعفُ عني؟ قال: يا داوود، أعطيتُه في زوجتِه منَ الثوابِ ما لم ترَ عيناه ولم تسمعْ أُذُناه، فأقول: أرضِيَ عبدي؟ فيقول: يا ربّ، من أين لي هذا ولم يبلُغْه عملي؟ فأقول: هذا عِوضٌ من عبدي داوود، فأستوهبُك منه فيهبُك لي، فقال: الآنَ يا ربِّ قد عرفتُ أنك قد غفرتَ لي.

قال وهبُ بنُ منبِّه: إنّ داوودَ لمّا تاب اللهُ عليه بكى على خطيئتِه ثلاثينَ سنةً لا يَرقَأُ دمعُه ليلًا ولا نهارًا، فقَسَم الدهرَ بعدَ الخطيئة على أربعةِ أيام: يوم للقضاءِ بينَ بني إسرائيل، ويوم لنسائه، ويوم يَسبَحُ في الجبالِ والفيافي، ويوم يخلو بربِّه في دارٍ له فيها أربعةُ آلاف مِحراب فيجتمعُ إليه الرُّهبانُ فينوحُ معَهم على نفسِه ويساعدونَهُ على ذلك، فإذا كان يومُ سياحتِه خَرج إلى الفيافي فيرفعُ صوتَه بالمزاميرِ ويبكي، فيبكي معَه الشجرُ والرِّمال والطيرُ والوحوش، حتى تسيلَ دموعُهم

[مثلَ][1] الأنهار، ثم يأتي الجبالَ فيرفعُ صوتَه ويبكي، فتبكي معه الجبالُ والحجارةُ والطّيرُ والدوابُّ حتى تسيلَ من بكائهمُ الأوديةُ، ثم يأتي الساحلَ فيرفعُ صوتَه فيبكي، وتبكي معَه الحِيتانُ ودوابُّ البحرِ وطيرُ الماء، فإذا أمسى رَجَع، فإذا حانَ يومُ نَوحِه على نفسِه نادى مناديه: أنّ اليومَ يومُ نوْح داوودَ على نفسِه، فيحضُر من يساعدُه، فيدخُل الدارَ التي فيها المحاريبُ، فيبسُطُ فيها ثلاثةَ بُسُطٍ من المُسوح فيجلسُ عليها وتجلسُ معَه أربعةُ آلاف راهبٍ عليهمُ البرانسُ، فيرفعُ صوتَه بالبكاءِ والنَّوْح على نفسِه ويرفعُ الرُّهبانُ معَه أصواتَهم، فلا يزالُ يبكي حتى تَخضَرّ الفُرُشُ بدموعِه، فيقعُ فيها كفَرْخ الطّيرِ المذبوح يضطرب، فيجيءُ سُليمانُ فيحملُه، ويأخُذ داوودُ من تلك الدُّموع بكفَّيْه ويمسحُ بهما على وجهِه ويقولُ: ربِّ اغفرْ لي ما ترى. فلو وُزن دمعُ داوودَ بدموع أهل الدُّنيا لَرَجَح وزنُها.

روى الأوزاعيُّ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]: "إنّ مَثَلَ عينيْ داوودَ كمَثَل القِربتيْنِ تَنطفانِ ماءً، ولقد خَدَّتِ الدّموعُ في وجهِه *خُدودًا كخدودِ*[3] الماءِ في الأرض".

---

(١) زيادة مقتضاة لتمام المعنى أخلت بها النسخة.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا (٣٤٠)، والبغوي في تفسيره٧/ ٨٥، وسواهما. وإسناده ضعيف.

(٣) في الرقة والبكاء مكان هاتين الكلمتين: "كأخدود"، وعند البغوي: "كخديد".

وقال وَهْب: لمّا تاب اللهُ على داوودَ عليه السلامُ قال: يا ربِّ، غفرتَ لي، فاجعلْ لي شيئًا أتذكَّرُ به خطيئتي فأستغفرُك لنفسي وللخاطئينَ إلى يوم القيامة، فوَسَم اللهُ خطيئتَه في يدِه اليمنى، فما رَفَع بها طعامًا ولا شرابًا إلّا رآها، وما قام خطيبًا إلّا بَسَط راحتَه فاستقبل بها الناسَ ليرَوْا وَشْمَ الخطيئة.

وكان يبدأُ في دعائه بالاستغفار للخاطئينَ قبلَ نفسِه.

وعن الحَسَن[1]: كان داوودُ بعدَ الخطيئة لا يجالسُ إلّا الخاطئين، يقولُ: تعالَوْا إلى داوودَ الخاطئ، ولا يشربُ شرابًا إلّا مَزَجَهُ بدموع عينيْه، وكان يجعلُ خبزَ الشَّعير اليابسَ في قَصْعتِه فلا يزالُ يبكي عليه حتى يبتلَّ بدموع عينيْه، وكان يَذُرُّ عليه الملحَ والرَّمادَ فيأكلُ ويقولُ: هذا أكلُ الخاطئين. وكان قبلَ الخطيئة يقومُ نصفَ الليل ويصومُ نصفَ الدَّهر، فلمّا أصاب الخطيئةَ قام اللَّيلَ كلَّه وصام الدَّهرَ كلَّه.

وقال: ثلاثٌ كان داوودُ إذا ذَكَر عقابَ الله تَخَلَّعتْ أوصالُه فلا يشدُّها إلّا الأسى، وإذا ذَكَر رحمةَ الله تراجعت.

رُوي أنّ حبشيًّا أتَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله، إنّي أعملُ الفواحش، فهل لي من توبة؟ قال: "نعم يا حبَشيّ"، فوَلَّى ثم رَجَع فقال: يا رسولَ

---

(١) هو: البصري، بلا شك، وجاء في الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثعلبي ٨/ ١٩٦، سوق سنده، فقال: "سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن"، ثم ذكره.

الله، أكان يراني وأنا أعملُها؟ قال: "نعم"، فصاح الحبَشيُّ صيحةً خَرَجت روحُه. ولمّا مات الحبشيُّ أقْبلَ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو يمشي على صدورِ قدميْهِ، فلمّا وَصَل جنازتَه أعرَضَ بوجهِه قليلًا ثم أقْبلَ عليه، فقال أصحابُه: رأيْناك يا رسولَ الله فعلتَ عندَ قبْضِ هذا الحبشيِّ شيئًا لم نَرَكَ فعلتَه قبلَه، فقال: "إنه لمّا مات ابتَدر رضوانُ خازنُ الجنّاتِ رُوحَه فجَعَلَها في أكفانٍ بيضٍ من سُندُسِ الجنّة، وفُتحت أبوابُ السمواتِ لقدوم روحِه، وامتلأتِ الأرضُ من الملائكة، واحتَوشَتِ الحُورُ يُقبِّلْنَه، ولذلك مشيْتُ على صدورِ قدمَيَّ، والإعراضُ الذي رأيتُموني فعلتُه استحياءً من الحُور لمّا جَعَلْنَ يُقبِّلْنَه"، فقالوا: يا رسولَ الله، هذا له خاصّةً أم لنا عامّةً؟ فقال: "بل له ولمن مات موتَه". انتهى.

والشُّهداءُ(١) يتفاوتونَ في الدَّرجات، فأشرفُهم وأعلاهم منزلةً وأقربُهم من الله: شهداءُ المحبّة، ثم شهداءُ الخوفِ والهيبة، ثم المتمسِّكونَ بالسُّنةِ عند فسادِ الأُمّة، ثم شهداءُ الصَّحابة، ثم غُزاةُ البحر، ثم العلماءُ العاملونَ المُخلصون، ثم حَمَلةُ القرآن المُجِدُّون الممْتثلون، ثم طلبةُ العلم لوجهِ الله الراغبون، ثم الفارُّونَ منَ الفتنِ المُشمِّرون، ثم القائمونَ على ذي سُلطانٍ جائر فيأمرونَه بالمعروفِ

(١) يطيب كلام المؤلف في هذه البابة، بتعداده أصنافَ الشهداء في الشرف والدرجة، ومن يلحق بشهداء المعارك منهم ومن سواهم، ويحلو قوله ويعلو، ليبدو لنا كثير من الشهداء لم نكن نعلمهم، فهو من بديع ما كتب رحمه الله.

وينهَوْنَه عن المنكر فيُقتَلون، والمُطعمونَ الطعامَ ابتغاءَ رضوانِ الله المُشْفقون، والأئمةُ العادلون، ثم القضاةُ المُقسِطون، ثم المؤذِّنونَ المحتسبون.

ويلحقُ بشهداءِ المعترك، في الأجر دونَ الحُكم والدرجة، أقوام، منهم: من مات دونَ حُرَمِه، ومَن مات دونَ مالِه ومن مات دونَ دمِه، وقارئُ سورة السَّجدة والمُلكِ كلَّ يوم، وقارئُ الإخلاصِ في مرضِ موتِه، والمُستعفِفُ الميِّتُ عشقًا، وصاحبُ الهدم، والمتردِّي، وغريقُ البحر، وكاظمُ الغيْظ، والذي يعفو بعدَ القُدرة، والذي يغُضُّ بصرَه عن محارم الله، والمرابط، والمُدمنُ على صلاة الجماعةِ، ومُلازمُ المساجد، والمشتغلُ بمصالح المسلمين، والمُكثِرُ من صدقةِ السِّرّ، والمتجرِّدُ لزوالِ كربِ المسلمين والمدافعُ عنهم، وميِّتُ الحجّ وميّتُ الحَرَميْن، والميِّتةُ بجِماع أو حَمْل أو نِفاس، والمَدِينةُ في طاعةِ بعلِها، وحابسةُ نفسِها على أيتام لها، والمُحسِنةُ على جيرانِها، وميّتُ ذات الجنْب أو بالإسهال والمبطونُ والمطعون، والميِّتُ في طلبِ الحلال استعفافًا، وحاملُ الطعام إلى أنصار المسلمين، وكافلُ الأيتام المُحسِنُ إليهم.

واعلمْ أنّ القلوبَ لا تزالُ مضطربةً برياح الهوى حتى يسكِّنَها اللهُ بأنوار السَّكينة، وهي أولُ وارداتِ الحقِّ بعد الإيمان، قال اللهُ تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} [الفتح: ٤].

وحقيقةُ السَّكينة: ظلالٌ نورانيّة تردُ على قلوبِ أصفياء الله من خزائن غيوبِ الله، وهي التي نزلتْ على أبي موسى لتَسمعَ تلاوتَه وقد أُوتيَ مزمارًا من مزاميرِ آل داوود[١]، فلا يشعرُ بها حتى نَفَر منها فرسُه فخرج ليُمسكَه وليعلمَ سببَ نفوره فإذا هو بمثل الظُّلّة وفيها مثلُ المصابيح، فجعلت ترتفعُ علوًّا وهو ينظرُ إليها حتى غابتْ عن عينيْهِ، فرَجَع إلى موضعِه فابتدأ القراءةَ، فإذا بفرسِه قد نَفَر ثانيةً، فخرج أيضا فإذا الظُّلّةُ والمصابيحُ على حالها الأولى وهي تدنو، فأمسك، فارتفعتْ، فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهُ بما رأى، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "تلك السَّكينةُ جاءتك لتسمعَ القرآنَ، ولو أنك دُمتَ على قراءتك لأصبحتَ والناسُ ينظرونَ إليها". أخرجه البيهقيُّ[٢].

والسَّكينةُ تتنوَّعُ بحسَب المقامات، أولُها: سَكينةُ بني إسرائيلَ التي أُعطُوها في التابوت، وكانت ريحًا حَجُوبًا تمنعُ قلوبَ العدوِّ عندَ سماع حجيجِها جعلها اللهُ لأنبيائهم معجزةً ولملوكهم كرامةً ولعامّتهم قوةً في قلوبهم وطُمأْنينةً لنفوسِهم.

السَّكينةُ الثانيةُ: هي التي تنطقُ على ألسنة المحدِّثين، وليست هي بشيءٍ يُملكُ بحيلة، وإنما هي من لطائف مِنَح الحق، فتُلقي على لسان المحدِّث الحِكمةَ كما يُلقي

---

(١) أما شأن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وأنه أوتي مزمارًا من مزامير داود عليه السلام، فمروي في البخاري (٥٠٤٨) ومسلم ٢٣٦- (٧٩٣)، عنه رضي الله عنه.

(٢) في شعب الإيمان (٢٦٨٠)، من حديث أُسَيد بن الحضير. وهو في صحيح مسلم ٢٤٢- (٧٩٦)، وأخرجه البخاري تعليقًا (٥٠١٨).

المَلَكُ الوحيَ على قلوب الأنبياء، فينطقُ المحدِّثُ بنُكتة الحقائق معَ ترويج الأسرار وكشفِ الشُّبَه.

الثالثة: التي كانت في قلبِ رسُول الله صلى الله عليه وسلم ثم أمدَّ بها عِلْيَةَ أصحابِه وتوارثَتْها خواصُّ أمّته، وهي مُباينةٌ للتي كانت معَ بني إسرائيلَ؛ لأنها في حقِّهم كانت ريحًا حَجُوجًا تسكُنُ التابوتَ وغايتُها النَّصرُ على الأعداء تُرعبُهم فيها بهفيفها كسائر المحسوسات، وهي في حقّنا أنوارٌ ربّانيّة وحقائقُ قُدُسيّة لتسكُنَ القلوب وتُكشفَ الغيوب، قد تجمَّعت بها أنواعُ الأمداد، واضمحلَّت بأنوارها جميعُ الأضداد.

ومن نُور هذه السَّكينةِ الثالثة نزلتْ سكينةُ الوهّاب، على أربابِ الخشوع في الطاعات: في الرعايةِ والتعظيم، وحضورِ القلب ومُحاسبة النفْس، ومُلاطفة الخَلق ومراقبة الحقّ، والرِّضا بالقَسْم والوقوفِ مع الأدب.

ولا تتنزَّلُ هذه السَّكينةُ إلّا في قلب نبيّ أو وليّ، قال المقدِسيّ إنّ اللهَ ذكر السَّكينةَ في ستةِ مواضعَ من كتابه، الأولى: في البقرة {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ} [البقرة: ٢٤٨] الآيةَ. الثانية: في سورة "براءةٌ": {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ} [التوبة: ٢٥] الآيتين. الثالثة: في "براءةٌ" أيضًا: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ} [التوبة: ٤٠] الآيةَ. والثلاثةُ الأُخَرُ في سورة الفتح في أوّلها وفي أول حزب:

{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ} [الفتح: ١٨]. السادسة: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ} [الفتح: ٢٦] الآيةَ.

قال ابنُ تيميَةَ[1]: مَن كَتَب هذه الآياتِ وشربَها أو حَمَلها معَه عندَ تقلُّدِه الأمورَ والوقائعَ العظام، لا سيّما معَ الأرواح الروحانية والطَّوارق الشيطانيّة، رأى من تأثيرها- في السكونِ والطُّمَأْنينة- العَجَبَ.

وقد سُئل الإمامُ عليٌّ رضي الله عنه عن سَكينة بني إسرائيلَ فقال: هي ريحٌ هفّافةٌ لها رأسٌ ووجهٌ كوجه الإنسان.

---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني الدمشقيّ الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين، ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ): شيخ الإسلام الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع مفتي الفرق قدوة الأمة أعجوبة الزمان بحر العلوم حبر القرآن علم الزهاد نادرة العصر.
ترجمه تلميذه الإمام الذهبي في أربعة كتب له: تذكرة الحفاظ ٤/ ١٩٢، والمعجم المختص بالمحدثين، ص ٢٥، وثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام، ص ٢٢، ومعجم الشيوخ الكبير١/ ٥٦، وانظر كذلك: الرد الوافر، لابن ناصر الدين، ص ٣٣، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر (٤٠٩)، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي ١/ ٣٥٨، والأعلام للزركلي ١/ ١٤٤ وسواها. ولشمس الدين ابن عبد الهادي الدمشقي الحنبلي (ت ٧٤٤هـ): " العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية".

وقال مجاهد[١]: هي على صورة هِرّة لها جناحانِ وعينان، ولها شُعاع، جناحُها من زُمُرُّد وزَبَرْجَد، فإذا سمعوا صوتَها أيقنوا بالنّصر ووَقَع الرُّعبُ في قلوب العدوّ.

وقال ابنُ عبّاس: هي طَسْتٌ من ذهبٍ كانت تُغسَلُ فيه قلوبُ الأنبياء.

وقال وَهْب: هي رُوح من رُوح الله كان معَهم، فإذا اختلفوا في شيءٍ أخبَرهم ببيانِه، وكان التابوتُ من خشبٍ مموَّه بالذهب طولُه ثلاثةُ أذرُع وعرضُه ذراع، فيه ألواحُ التّوراة، وكانت بنو إسرائيلَ تستنصرُ به على الأعداء أنبياؤها وملوكُها.

وقد جمَع اللهُ لهذه الأُمّة أنواعَ السَّكينة كما جمَع لنبيِّها أنواعَ الرّضى ومتفرِّقات الأديان، فالتي تَنطِقُ على ألسنةِ المحدِّثين من غير فِكر ولا رُوِيّة، قال ابنُ عباس: لمّا قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ من أُمّتي لَمحدِّثينَ وإنّ منهم لَعُمر"[٢]، فكنا نرى أنها تَنطِقُ على لسانه فيكشفُ الشُّبهَ من غير تفكُّر ولا تدبُّر.

---

(١) مجاهد بن جبر وقد قيل: بن جبير، مولى عبد الله بن السائب القارئ، كنيته أبو الحجاج، المكي (ت ١٠٤ هـ): تابعي، مفسر من أهل مكة. مشاهير علماء الأمصار، لأبي حاتم، ص ١٣٣، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي ٢٧/ ٢٢٨، وتاريخ الإسلام، للذهبي ٣/ ١٤٨، ومعرفة القراء الكبار، له، ص ٣٧، وطبقات المفسرين، للداوودي ٢/ ٣٠٥، والأعلام، للزركلي ٥/ ٢٧٨ وسواها.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٦٩) و(٣٦٨٩) من حديث أبي هريرة- وعقب الأخير زيادة عن ابن عباس وهم المصنف بسببها فظن أن الراوي هو ابن عباس، ونصها: قال ابن عباس رضي

وأمّا السَّكينةُ التي نزلتْ في قلبِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقلوبِ المؤمنين فتُلقي في قلوبِهم النورَ فتنجذبُ قُواهم بها لأسبابِ التوفيق ومراتبِ التحقيق فيزدادوا إيمانًا معَ إيمانهم ويتأدَّبوا بالآداب الربّانيّة ويتخلَّقوا بالأخلاق الرحمانيّة: فيُعبَّرُ عنها بالأَمَنة، وهي التي تُسكِّنُ الفزَعَ وتَذهبُ بالغمِّ، وتكونُ على هيئة النُّعاس لأخْذِها إياهم على الطبع والعوائدِ الغالبة فتجذبُهُم عن مُشاهدة عالَم المُلك إلى عالَم المَلكوت، كما في قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ} وهي: خواصُّ المؤمنين {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُم} [آل عمران: ١٥٤] وهم: من لم يبلغْ حقيقةَ الإيمان التامِّ الذي يستوجبُ لمن قام به مخامرةَ السَّكينة لذاتِه، وليسوا بمنافقين؛ لأن طائفةَ المنافقينَ رَجَعتْ معَ عبد الله بن أُبَيّ[1]، فلم تشهَد الوقْعة، وهم الذين في قلوبِهم مرَض، أي: ضعف؛ لأنّ اللهَ أخرجَهم من جُملة المنافقين ولم يُبرِئْهم من خَطَرات السُّوء وفلَتات الأقوال، كما في قوله تعالى: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [الأحزاب:

الله عنهما: "من نبي ولا محدّث"- ومسلم ٢٣- (٢٣٩٨) من حديث عائشة، ولفظه فيه: "قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطاب منهم"، ثم قال محققه: وقد اختلف تفسير العلماء للمراد بمحدَّثون، بفتح دال مشددة، فقال ابن وهب: ملهمون، وقيل: مصيبون إذا ظنوا فكأنهم حُدّثوا بشيء فطنوه، وقيل: تكلمهم الملائكة، وقال البخاري: يجري الصواب على ألسنتهم.

(١) كما في تفسير الطبري ٧/ ٣٢٢.

١٢] الآيةَ. وأمّا المؤمنونَ الكاملون فهمُ الذين قال اللهُ في نعتِهم ومِدحتِهم: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} [آل عمران: ١٧٣] الآيةَ، وهم سبعونَ فيهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

فالأمانةُ أساسُ الإيمان، والإيمانُ التامُّ مغناطيسُ السَّكينة، فما حلَّت الأمانةُ قلبًا إلّا حلَّه الإيمان، ولا حلَّ الإيمانُ قلبًا إلّا نزلتْ عليه السَّكينة.

والأمانةُ مَلَكةٌ ربّانيّة تنبني عليها قواعدُ التكليف: الشرعيّةِ[١] والحقيقيّة، فالأمانةُ تستدعي الإيمانَ، والإيمانُ يستدعي السَّكينة، والسَّكينةُ تستدعي اليقين، واليقينُ يستدعي الاستبصار، والاستبصارُ يستدعي الفكرة، والفكرةُ تستدعي الاعتبار، والاعتبارُ يستدعي عظَمةَ الحقِّ في القلب، وعظَمةُ الحقّ في القلب تستدعي الزُّهدَ فيما سواه، والزهدُ فيما سواهُ يستدعي الحياءَ، والحياءُ يستدعي الصِّدق، والصّدقُ يستدعي النُّصح، والنُّصحُ يستدعي العفاف، والعفافُ يستدعي الوفاء، والوفاءُ يستدعي المروءة، والمروءةُ تستدعي الصِّلة، والصِّلةُ تستدعي الوُصلةَ بالله، والوُصلةُ تستدعي المراقبةَ، والمراقبةُ تستدعي الكشفَ، والكشفُ يستدعي المعرفة، والمعرفةُ تستدعي القُرب، والقربُ يستدعي المشاهدة، والمشاهدةُ تستدعي الغَيبةَ في الله عن كلِّ ما سواه، ومقاماتُ المُشاهدة لا يُحاطُ بها ولا يُعبَّرُ عنها ولا يعرفُها إلا مشاهدةُ شاهد.

---

(١) في النسخة: الشريعة.

وللأمانة فَرع، وهو[1] ضدُّ الخيانة، وينبني عليها أساسُ: المعاملات، والتبرُّعات، والعقود، مثلَ: البيوع والإجارة والأكْرية[2] والجِعالات[3] وإحياءِ المَوات والمزارعات والقسمةِ والمواريثِ والعُهدة وتبيين العيوبِ والحَمالات[4]، معَ النَّفَقات والصّدقات والمَبِيت والطلاقات والتعليقات والعِدَد واللِّعانات والتحفُّظ من قذفِ المحصَنات ورفْع الهمّةِ عن نكاح الإماءِ والمجوسيّات. والتبرُّعات مثلَ: الهباتِ والصَّدَقات والنِّحَل والأوقافِ والتوليجات والوَلدِ والإيداع والعاريات والمنائح واللُّقَطاتِ والصَّوالّ[5]، والمحافظةِ على النَّحر والذَّكاة. وأمّا العقودُ فمثلَ: عَقْد الذمة وإعطاءِ الأمان وإبرام الصُّلح والحِلف، قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ الإسلامَ لم يزدْ حِلفَ الجاهلية إلّا تأكيدًا"[6]،

(١) كذا، وإن كانت الجادة: وهي.

(٢) جمع الكِراء، وهو: أجرة المستأجر، وهو في الأصل مصدر من كارَيْته. التعريفات الفقهية لعميم الإحسان، ص ١٨١.

(٣) جمع جِعالة ، بالكسر، وهي: إجارة على منفعة مظنون حصولُها، ولا ينتفع الجاعل بجزء من عمل العامل، وإنما بتمام العمل. بداية المجتهد ٢ / ٢٥٧.

(٤) جمع الحَمالة، بفتح الحاء، وهي: الدية والغرامة التي يتحملها الإنسان عن غيره. لسان العرب (حمل).

(٥) كذا في النسخة، بصاد مهملة، ولعله بالضاد المعجمة من الضلال الذي هو التيه، والله أعلم.

(٦) رواه الطبري في التفسير ٨/ ٨، عند قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: ١]، وسواه.

وعقدِ الجوار والعهودِ والمواعيد والأيْمان والنُّذور، حتى يتناولَ الطلاقَ وعقدَ النكاح.

فمن قام بما ذُكر فهو أمينٌ، ومَن خان في شيءٍ منه فهو خائنٌ، وقال صلى الله عليه وسلم: "لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له"[1]، حتى يتناولُ ذلك من أوْدَعك سرًّا، وقال الرسولُ صلى الله عليه [وسلم]: "إذا حدّثك الرجلُ ثم التفتّ فهي أمانة"[2].

والأمانةُ من حيث هي أمانةٌ على قسميْن: ما هو للحقّ، وما هو للخَلْق. فالذي للحقِّ فقط: الجوارحُ ورعايةُ الحدود والمحافظةُ على الفرائض، معَ اعتقادِ وَحدانيّته والإيمان بالغيب، وما سوى ذلك فللخلق. فالأمانةُ الكبرى تشمُلُ الجميع، والصغرى إنما تتناولُ المعاملاتِ والتبرُّعات والعقودَ كما قدّمتُه، فالكبرى ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ} [الأحزاب: ٧٢] الآيةَ، وأمّا الصغرى

---

(١) روي هذا الحديث مرفوعًا عن أنس، في: الإيمان لابن أبي شيبة (٧)، ومسند إسحاق بن راهوية (٤٠٩)، ومسند أحمد (١٢٣٨٣) و(١٢٥٦٧) و(١٣١٩٩) و(١٣٦٣٧)، وغيرهم. فهذا المرفوع، أما الموقوف ففي: الإيمان لابن أبي شيبة (٥١) من كلام قسامة بن زهير، والإيمان للقاسم بن سلام (١٦) من كلام عمر بن الخطاب، وغير ذلك.

(٢) رواه أبو داود (٤٨٦٨)، و الترمذي (١٩٥٩) من حديث جابر، وسواهما.

فمدلولُ قولِه تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء: ٥٨].
قال ابنُ عباس- عندَ قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ}-: المرادُ بالأمانة: الطاعةُ والفرائضُ التي فَرَض اللهُ على عبادِه عرضَها على السمواتِ والأرضِ والجبال على أنها إذا أدّيْنَها أثابَهنّ وإذا ضيّعنها عُذِّبن.

قال ابنُ مسعود: الأمانةُ: أداءُ الصلوات وإيتاءُ الزكاة وصوم رمضان وحجُّ البيت وصدقُ الحديث وقضاءُ الدَّين والعدلُ في المكيال والميزان وأداءُ الودائع. وقيل: جميعُ ما أمر اللهُ به ونَهى عنه. وقيل: هي الصومُ وغُسلُ الجنابة وما يخفى من الشرائع.

قال عبدُ الله بن عَمْرِو بن العاص: أولُ ما خَلَق اللهُ منَ الإنسان الفرجَ وقال: هذه الأمانةُ استودعتُكها. فالفرجُ أمانة والأُذُنُ أمانة والعينُ أمانة واليدُ أمانة والرِّجلُ أمانة واللسانُ أمانة والبطنُ أمانة، ولا إيمانَ لمن لا أمانةَ له.

وفي روايةٍ عن ابن عبّاس: هي أماناتُ الناس والوفاءُ بالعهود.

فحقٌّ على كلّ مؤمن أن لا يغِشَّ مؤمنًا ولا معاهدًا في شيءٍ لا قليل ولا كثير، فعَرَض اللهُ هذه الأمانةَ على أعيانِ السموات والأرض والجبال، وهذا قولُ جماعة من التابعينَ وأكثر السلف، وقال لهنّ: أتحمِلْن هذه الأمانةَ بما فيها؟ قلن: وما فيها؟ قال: إن أحسنتُنّ جوزِيتُنّ، وإن عصيْتُنّ عوقبْتُنَّ، فقلن: لا يا ربّ، نحن مسخَّراتٌ لأمرِك لا نريدُ ثوابا ولا عقاباً، وقُلنَ ذلك خوفًا منه وخشيةً وتعظيمًا

لدين الله تعالى أن لا يقمنَ بها، لا معصيةً ولا مخالفةً لأمرك، وكان العرضُ عليهن تخييرًا لا إلزامًا، ولو ألزمهنّ لم يمتنعنَ من حملها، فالجمادات كلُّها خاضعةٌ لله عزَّ وجل مطيعةٌ لأمرِه ساجدةٌ له.

قال بعضُ أهل العلم: ركَّب اللهُ تعالى فيهن عقلًا وفهمًا حين عرض عليهنّ الأمانةَ حتى عقَلْن الخطابَ وأجبْنَ بما أجبْن. وقيل: المرادُ من العرض على السّموات والأرض: العرضُ على أهلها من الملائكة دون أعيانها، والقولُ الأولُ أَصحّ، وهو قولُ علماءِ السَّلف.

وحكمةُ هذا العرض إظهارُ فضيلةِ آدمَ، لإقدامِه على حمل ما عَجَز عن حملِه أعظمُ الكائنات طلبًا لمرضاة الله ورغبةً في مثوبته، وليس مرادُ الله تعالى بقوله: {إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢] آدمَ وخواصَّ بنيه من الأنبياء والأولياءِ والمؤمنينَ الذين قاموا بما حُمِّلوا من أعباء أمانة الله، بل المراد: مضيِّعُها من الكفَرة والعجَزة، وإنما خصَّهم بالذكر لأنهمُ الأكثرونَ والحُكم للأكثر، فهؤلاء أفضلُ من الملائكة؛ لأنّ اللهَ ركَّب فيهمُ الشهوةَ وسُنوح الحاجات، فتخلَّقوا معَ تلك الشواغل بأخلاق الملأِ الأعلى وزادوا عليها بالوفاء بما عاهدوا اللهَ عليه من حمل الأمانة والقيام بحقِّها، فهم أفضلُ العالمين على الإطلاق. رُوي أنّ اللهَ تعالى قال لآدم: إنّي عرضتُ الأمانة على السّموات والأرض والجبال فلم تُطقْها، فهل أنتَ حاملُها بما فيها؟ قال: يا ربّ، وما فيها؟ قال: إن أحسنتَ جُوزيت وكنتَ أشرفَ

خلقي وأحبَّهم إليّ وأقربَهم مني منزلة، وإن أضعتَها عذَّبتُك عذابًا لا أعذِّبُه أحدًا من العالمين، فحملتْه الرَّغبةُ في حبِّ الله وقربِه وتشريفه إياه على حملِها، فقال: هي بين أذُنيّ وعاتقي ولكن على أنْ تُعينَني، فقال له: هلَكاتُك ثلاث: فرجُك، فإنْ دعاك إلى ما لا يحلُّ فقد أعنتُكَ عليه بطبقتينِ فأطبِقْ، وفمُك، فإن دعاك إلى ما لا يحلُّ فقد أعنتُك عليه بطبقتينِ فأطبِق، وعينُك فإنْ دعتْك إلى ما لا يحلُّ فقد أعنتُكَ عليها بطبقتينِ فأطبقْ.

فلمّا بلغت الدولةُ نبيَّنا صلى الله عليه وسلم طلب مزيدَ المعونة والتخفيف، فتجاوز اللهُ عنه وعن أُمّتِه الخطأَ والنّسيانَ وحديثَ النفْس وما استُكرهوا عليه، وجَعل الحسَنةَ بعشْر أمثالِها إلى سبع مئةِ ضعف والسيّئةَ بمثلها، ومَن هَمَّ بحسنةٍ فلم يعملْها كُتبت له حسنةً، ومَن همَّ بسيّئة ولم يعملْها لم يُكتبْ عليه شيء، وإنْ تَركها بعدَ القُدرة عليها خوفاً وحياءً منَ الله كان في ظلِّ عرشِه يومَ القيامة، ومَن تَرَك مالاً حراماً لله عوَّضَه اللهُ بعشَرة أمثالِه حلالاً طيباً، ومَن عمل ذنباً فستره اللهُ عليه في الدنيا لم يؤاخذْه اللهُ به يومَ القيامة، ومنِ اقتصَّ منه في الدُّنيا كان كفّارةً له يومَ القيامة ورَفَع عنها ما لا تطيقُه من الفرائض، وحَلَّ للمضطَرِّ منها غيرِ العاصي بسفره أكلُ الميْتة والتيمُّم إنْ خاف عطشاً واغتصابُ ما يسُدُّ رمَقَه إنْ لم يجد مندوحة، والنُّطقُ بكلمة الكُفر إن تيقَّن القتلَ إذا كان القلبُ مطمئنّاً بالإيمان، والكذبُ للإصلاح بينَ المسلمين أو لإرهاب العدوِّ وخديعتِه إنْ جرَّت نفعاً.

قال مجاهد: ما كان بينَ أن يحملَها آدمُ وبينَ أن يُخرَجَ من الجنّة إلّا مقدارُ ما بين الظهر والعصر.

وعن حُذيفةَ بن اليمانِ[1]، قال: حدّثنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حديثيْنِ قد رأيتُ أحدَهما وأنا مُنتظرٌ الآخرَ، حدّثنا أنّ الأمانةَ نزلتْ في جذرِ قلوبِ الرّجال، ثم نزلَ القرآنُ فعَلِموا منَ القرآن وعَلِموا منَ السُّنة. ثم حدَّثنا عن رفْع الأمانة وقال: "ينامُ الرجُلُ النَّومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ من قلبِه فيظلُّ أثرُها مثلَ الوَكْت، ثم ينامُ الرجُلُ النّومةَ فتُقبضُ الأمانةُ من قلبِه فيبقى أثرُها مثلَ المَجْل، كجمرٍ دحرجْتَه على رجلِك فنَفِط، فتراه مُنْتبِراً وليس فيه شيءٌ- ثم أخَذ صلى الله عليه وسلم حصاةً فدحرَجَها- فيصبحُ الناسُ يتبايعونَ ولا يكاد أحدٌ يؤدّي الأمانةَ حتى يقالُ: إنّ في بني فلان رجُلاً أميناً، وحتى يقالُ للرجُل: ما أجلدَه، ما أظرفَه، ما أعقلَه! وما في قلبِه مثقالُ حبّة من خرْدَل من إيمان، ولقد أتى عليّ زمانٌ وما أبالي أيَّكم بايعتُ، إن كان مسلماً لَيَرُدَّنَّه عليَّ دينُه، وإن كان نصْرانيّاً ويهوديّاً ليرُدنّهُ على ساعيه، أمّا اليومَ فما كنتُ أبايعُ منكم إلّا فلاناً وفلاناً".

قوله: "نزلتْ في جذْر قلوبِ الرّجال"، جذرُ الشيء: أصلُه، والوَكْتُ: الأثرُ اليسير كالنُّطفة في الشيء من غير لونِه، والمَجْلُ: خشونةٌ تكون في الكفّ من أثر العمل، والمنتبِر: المنتفخُ وليس فيه شيءٌ.

---

(١) هو في البخاري (٦٤٩٧) و (٧٠٨٦) و(٧٢٧٦)، ومسلم ٢٣٠- (١٤٣)، وما في الخبر من لفظ غريب يشرحه المصنف آتيًا.

وقال: "إذا ضُيِّعت الأمانةُ فانتظرِ الساعةَ"، قيل: كيف إضاعتُها؟ قال: "إذا وُسِد الأمرُ إلى غير أهلِه فانتظر الساعة"[1].

وقال: "أدِّ الأمانةَ إلى منِ ائتمنك ولا تخُنْ مَن خانَك"[2].

{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ} [الفتح: ٦] بما خانوا العهدَ ونقَضُوا الأمانة، وهذا تفسيرٌ لقوله تعالى: {الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢] أن المرادَ به: المنافقون والمشركونَ وأهلُ الظُّلم.

{وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [الأحزاب: ٧٣] بأنْ يهديَهم ويرحَمَهم بما أدَّوْا منَ الأمانة.

وقيل: {عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ}: ليظهرَ نفاقُ المنافق وشركُ المشرك فيُعذِّبَهم اللهُ ويُظهرَ إيمانَ المؤمن فيتوبَ عليه، أي: يعودَ عليه بالمغفرة والرحمةِ إنْ حصل منه تقصيرٌ في بعض الطاعات.

وقال صلى الله عليه وسلم: "أولُ ما تفقِدونَ من دينِكم: الأمانةُ، حتى لا تكادونَ تجدونَ رجلاً أميناً"[3]، وقال صلى الله عليه وسلم: "لتنتقِضَنَّ عُرى

---

(١) رواه البخاري (٥٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) في أبي داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤) من حديث أبي هريرة بإسناد حسن.

(٣) هو في: مصنف عبد الرزاق (٥٩٨١)، والتفسير من سنن سعيد بن منصور (٩٧)، والفتن، لنعيم بن حماد (١٦٨٥) من حديث ابن مسعود، وغيرهم.

الإسلام عُروةً عُروة، فكلّما نُقضت عُروةٌ استمسك الناسُ بالأخرى، فأولُ عُرى الإسلام انتقاضاً: الأمانةُ، ثم الحياء، ثم الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، ثم الجهاد، ثم الخشوع، ثم الزكاةُ ثم الحجُّ ثم الصّيام، وآخرُ عُروة تنتقضُ من عُرى الإسلام: الصلاة". أخرجه البيهقيُّ(١) وغيرُه.

ولمّا دَخل آدمُ الجنةَ اشتغل عن نعيمِها بمُناجاة ربِّه والخَلوة به، فنسي كلَّ شيء وغاب عن الأكوان وملاحظة الحظوظ، ولذلك نسي العهدَ حتى أكل من الشجرة معَ القدَر السابق، وذلك معنى قولِه تعالى: {فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} [طه: ١١٥]، فهذه الآيةُ كالتفسير لقولِه تعالى: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [طه: ١٢١- ١٢٢] معناه: أنّ خطيئتَه لم تكنْ عن عهدٍ وتساهُل، بل كانت عن نسيانٍ وتجاهُل، ولذلك اعتذر اللهُ عنه بقولِه: {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: ٢١].

قيل: إنّ اللهَ تعالى قال لآدمَ: يا آدم، ألم أجعلْ لك فيما أبحتُه لكَ من الجنّة مندوحةً عن الأكل من شجرةٍ نُهيتَ عنها؟ فقال: يا ربّ، غَرَّني إبليسُ بيمينه ولم أكُ أحسَبُ أنّ أحداً يتجاسرُ على أن يحلفَ بك كاذباً، فخرَّ ساجداً وهو يقول: ظلمتُ نفسي وعملتُ سُوءاً فاغفرْ لي، فغفرَ له وأمَره ببناءِ البيت الحرام. ولمّا رأى سَعةَ الأرض وما جَعل اللهُ فيها من المرافق قال: سبحانكَ وتعاليْت، فهلّا جعلتَ

---

(١) في شعب الإيمان (٥٢٧٧) من حديث أبي أمامة الباهلي.

في هذا العالَمَ الكثيرِ المرافق أُمّةً من خلقِك تسبِّحُك وتقدِّسُ لك؟ فأوحى اللهُ إنّي جاعل فيها أُممًا كثيرةً يخلُفُ بعضُها بعضاً وكلُّهم من صُلبك، ولن أُميتَك حتى أُريَك ما تقَرُّ به عينُك، منهمُ الأنبياءُ والأولياءُ والصالحون، ومنهم الفَسَقةُ والكافرون، فلم يمتْ آدمُ حتى رأى من صُلبه مئةَ ألف.

وأُخرِجتْ حوّاءُ[١] من الجنّة وهي حامل، فوَلَدتْ توأميْن أحدُهما ذكرٌ وهُو قابيلُ والآخرُ أنثى واسمُها إقليما[٢]، ثم حَملت في الدنيا ثانياً فوَلَدت توأميْن أحدُهما ذكر واسمُه هابيلُ وتوأمةً أنثى واسمها لَبُودي[٣][٤].

(١) **لطيفة:** في تفسير الطبري، عن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: "سُميت حواء بذلك لأنها خلقت من شيء حيّ". تفسير الطبري ١/ ٥١٣.

(٢) اسم إقليما عند الطبري في تاريخ الرسل والملوك ١/١٤٣: قليما، وعند ابن العبري في تاريخ مختصر الدول ١/ ٥: قليميا، وعند المسعودي في أخبار الزمان، ص ٧٤: قليما، إلى غير ذلك مما في غيرها من المصادر.

(٣) هي في الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٦/١ وغيرها: لبود، وعند المسعودي في أخبار الزمان وغيره: لبوذا.

(٤)الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٦، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢٣/ ٢٦٩: "فحملت أول بطن فولدت قابيل وأخته لبود توأمته، ثم حملت فولدت هابيل وأخته إقليما توأمته". وفي تاريخ العوتبي لأبي المنذر الصحاري العوتبي، ص ١٤، أن إقليما هي أخت قابيل، كما عند المصنف رحمه الله هنا.

فلمّا أَدرَكا أوحَى اللهُ إلى آدمَ عليه السلام أن يُزوِّجَ كلَّ واحد منهما بتوأمِه الآخر، وكانت إقليما أجملَ من لبُودي، فقال قابيل: لا أتزوَّجُ إلّا توأمتي وإنّ الله لم يوح إليك شيئاً، فأمرهما آدمُ أن يُقرِّبا قُرباناً فأيُّهما قُبل قُربانُه فهو أحقُّ بأقليما، وكان هابيلُ صاحبَ غنم وقابيلُ صاحبَ زرع، فتُقبِّل قربانُ هابيل، وكان من تُقبِّل قُربانُه جاءته نارٌ بيضاءُ من السماء فأحرقته[1] ومَن لم يُتقبَّلْ بقي على حاله. فسوَّلتْ له نفسُه قتلَ أخيه بغْياً وصدّاً، فقال له: لأقتُلنَّك، قال: ولِمَ؟ قال: لأنّ اللهَ تقبَّل قُربانَك ولم يتقبَّلْ قُرباني، قال له هابيل: إنّما يتقبَّلُ اللهُ من المتقين ربُّ العالمين، فقتله غَيْلة.

فلما قتلَه ضجَّت الجبالُ واغبرَّتِ الأرض وشاكتِ الأشجار وعَدَتِ الذئابُ على الغنم والسِّباعُ على البقر وتوحَّشت الوحوش، وكانتِ الأشجارُ قبلَ مقتل هابيلَ تؤكلُ كلُّها لا مرارةَ فيها ولا شوكَ ولا تصلُّب، وكانتِ الوحوشُ كلُّها منقادةً مذلَّلةً لآدمَ وذرّيّته.

فمن يومئذٍ ما أُحدثت بدعةٌ ولا ضلالة إلّا رَفَع اللهُ قدرَها من بركاتِ السماءِ والأرض حتى عُبدت الأصنام، فأنزل اللهُ على بني آدمَ الرِّجْز والبلايا، فاعتزلتْهم

(١) في تفسير الثعلبي ٣/ ٢٢٣: "نار بيضاء من السماء لا دخان لها ولها دوي وحفيف، فتأكل ذلك القربان وتلك الغنيمة وتحرقهما، فيكون ذلك علامة القبول "

الملائكةُ ولازمتْهمُ الشياطين، فأرسَل اللهُ النبيِّين مبشِّرينَ ومنذرين، فهدى اللهُ مَن وفَّقه بفضلِه وأضلَّ مَن خَذَلَهُ بعدلِه.

ولمّا قَتل قابيلُ هابيلَ أُمر آدمُ عليه السلام بقتلِه قِصاصاً، ففرَّ ولم يقدِرْ عليه، فذهب إلى عَدَنَ فسكنها وعبدَ النار، فهو أولُ مَن سنَّ المجوسيّةَ.

فزوَّج آدمُ ابنَه شيثَ بإقليما ورَفَع اللهُ كبشَ هابيلَ إلى الفردوس، فرُعي ألفيْ سنة حتى فَدى اللهُ به إسحاقَ أو إسماعيلَ من الذَّبح.

وكان شيثُ وصيَّ آدمَ عليه السلامُ وخليفةً من بعدِه، ومعناه: هبةُ الله، ومِن صلبِه جميعُ الأنبياءِ عليهم السلام. وانتقل نورُ النبيِّ إليه وإلى إقليما، وكان إذا لم يجدْ مصباحاً تصبَّح بوجهها حتى يقضيَ مأرَبَه. وقال لابنه شيث: أوصِ منِ انتقل إليه هذا النورُ من بنيكَ ألّا يضَعَه إلّا في المطهَّرات من النساء.

وولدت حواءُ أربعينَ بطناً، كلُّ بطن ذكرٌ وأنثى.

واعلمْ أنك لا تشمُّ رائحةَ سرِّ الخصُوصيّة ما لم تذبحْ بقرةَ النفس بمُدْية المجاهدة، قال سيدي أبو العباس المُرْسي(١): بقرةُ كلِّ إنسان: نفسُه، وذبحُها: قطعُ حظوظها.

---

(١) أحمد بن عمر المرسي، أبو العباس، شهاب الدين (ت٦٨٦هـ): فقيه متصوف، من أهل الإسكندرية، لأهلها فيه اعتقاد كبير إلى اليوم، يقولون: "وسيدي المرسي أبو العباس" كما نسمعهم.

فقطعُ الحظوظِ الحِسِّيّة للعوامّ، وقطعُ الحظوظ المعنويّة للخواصّ، وقطعُ حظوظِها الدُّنيويّة للسالكينَ، وقطعُ حظوظِ الدُّنيا والآخرة للواصلين، وقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: لولا الشياطينُ يحومونَ على قلوب بني آدمَ لنظروا في ملَكوتِ السموات. وفي حديث أبي الدَّرداء[1]: "لا يفقَهُ الرجُلُ كلَّ الفقه حتى يَرى للقرآن وجوهاً كثيرة". قال ابنُ مسعود: ما مِن آيةٍ في القرآن إلّا ولها أقوامٌ يعملونَ بها.

وقد صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، وحدّاً ومطلَعاً"[2]، قال جعفرٌ الصادقُ رضي الله عنه المطلع: تجلِّي الحقّ كلامه في قلوبِ أوليائه، فما من كلمةٍ ولا حرفٍ إلّا وله من هذه الأقسام الأربعة حظٌّ ونصيب، فظاهرُه للعوامّ: إيماناً وتقليداً، وباطنُهُ للخواصّ: فراسةً وكشفاً، وحدُّه لخواصِّ الخواصّ: وَحْياً وإلهاماً، ومطلَعُه وراءَ ذلك كلِّه يقصُرُ الوصفُ دونَ بيانه، فتنفَدُ العبارة وتستقلُّ الإشارة، فتبقى دُولةً بينَ الأغنياءِ منهم.

إنّ اللهَ يأمُرُكم أن تذبحوا بقرةَ التصديق بمُدْية التحقيق فتضربوها بلسان التوفيق فتُحيي ميّتَ التعويق، فينبئُ بأسرارِ الغيوب فيبِينُ الفرْقُ بين الطالبِ

---

(١) هو في تاريخ دمشق، لابن عساكر ٧٢/ ٥٥.

(٢) أخرجه زين الدين العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١) وعزاه إلى ابن حبان في صحيحه، ولم أقف عليه.

والمطلوب، فتُسفرُ البقرةُ عن نقابِ صُفرتها وقابِ حيْرتها بتبيين خبرتِها، فيُجرَّمُ الفاجر ويُبرَّأ المتهمُ المستاجر.

فنفسُ ابن آدمَ أصلُها الحياةُ والمعرفة، فعُجنت في طينة التخلُّق فنقلتْها ظُلمةُ الطِّينةِ البشَريّة والحظوظ الطبيعيّة لأرض القطيعةِ والجهل، فهي مقتولةُ الحظوظ لا يُدرَى مَن قَتَلَها أعدْوُ الطبع أم من عادةِ الوضع؟ فوجَب البحثُ عن القاتل ليُطرَدَ ويُجرَّم، أو يُقتصَّ منه فيُهزَم وبلِجام الحقّ والحقيقةِ يُلجَم فيُلزَم.

فالكاملُ يُنزِلُ نفسَه منزلةَ القتيل ثم يقُصُّ آثارَها، ويأخُذُ ثارَها. ولما كان الإنسانُ نُسخةَ الوجود، كان سرًّا لحاضر المفقود، فالمقتولةُ غيْلةً: روحُه، والمذبوحةُ طلباً لتحصيل خبرِها والعلم بقاتلِها: النفْسُ، والطالبُ: العقل، والحاكمُ: السرّ. ولمّا كانت هي المذبوحةَ حسُن ضربُ الميّت، الذي هو النفسُ، بلسانِها، إشارةً لذكر الله(١)؛ لأنّ اللهَ أمَرَهم أن يضربوا الميّتَ بلسانها فيحيا لهم بإذن الله.

فعلمَ أربابُ القلوب أنْ لا حياةَ لقلوبِهم إلّا بذكِر الله، قال اللهُ تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا} بالغفلة {فَأَحْيَيْنَاهُ} [الأنعام: ١٢٢] باليقَظة، وإن شئتَ قلت: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا} بسهام العدا {فَأَحْيَيْنَاهُ} بنُور الهدى، وإن شئتَ قلت: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا} بالشّهوات {فَأَحْيَيْنَاهُ} بغُيوث الآيات، وإن شئتَ قلت: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا} بكثائفِ

(١) هذا استخلاص بديع منه رحمه الله وكلام ذو رونق.

الطبع {فَأَحْيَيْنَاهُ} بتجلِّيات النفْع، وإن شئتَ قلت: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} بحبِّ الشّهَوات {فَأَحْيَيْنَاهُ} بالزُّهدِ في الفانيات والرغبةِ في الباقياتِ الصّالحات، إلى غير ذلك، قال ابنُ عطاء: تفسيرُ القرآن على وجْه الاقتباس هو فهمٌ يهبُه اللهُ تعالى لمن يشاء بباطنِ الحُكم المتدرِّج في باطن المعنى اندراجَ النباتِ في الحبّة، معَ تقديم معناهُ الظاهر.

وعن وَهْبٍ قال: سمعتُ مالكَ بنَ أنس يقول: ليس العلمُ بكثرة الرِّواية، وإنما هو نورٌ يضعُه اللهُ في القلب.

وقيل لمالك: ما تقولُ في طلبِ العلم؟ قال: حسنٌ جميل، ولكنِ انظرْ ما يلزمُك من حينَ تُصبحُ إلى حينَ تمسي فالزمْه.

قال مُطرِّف: قال رجلٌ لمالك: أوصِني، قال: إذا هممتَ بأمرٍ من طاعة الله فلا تحبِسْهُ فُواقًا حتى تُمضيَه، فإنك لا تأمَنُ الأحداثَ، وإذا هممتَ بغير ذلك فإنِ استطعتَ أن لا تُمضيَه فُواقًا فافعلْ، لعلّ اللهَ يُحدثُ لكَ تركَه، ولا تستحيِ إذا دُعيتَ لأمر ليس بحقّ أن تقول: إنّ اللهَ لا يستحيي منَ الحقّ، وطهِّرْ ثيابَك ونقِّها من معاصي الله، وعليك بمعالي الأمور وكرائمِها، واتقِّ رذائلَها وما تسفسَفَ منها فإنّ اللهَ تعالى يحبُّ معاليَ الأمور ويبغضُ سفاسفَها، وأكثرْ تلاوةَ كتابِ الله، واجتهدْ أن لا تأتيَ عليك ساعةٌ إلّا ولسانُكَ رطبٌ بذكر الله، ولا تمكّن الناسَ من نفِسك، واذهبْ حيث شئت. وقال: من أحبَّ أن يُفتحَ له فُرجةٌ في قلبه فليكنْ

عملُه في السرِّ أكثرَ من عمله في العلانيَة. وقال: إذا لم يكنْ للإنسان في نفسِه خيرٌ لم يكنْ للناس فيه خير. وقال: عليك بمجالسةِ مَن يزيدُ في عملِك قولُه ويدعوك إلى الآخرة فعلُه.

وسأله رجلٌ عن مسألة من علم الباطن فغضِب وقال: إنّ علمَ الباطن لا يعرفُه إلّا مَن عرَفَ علمَ الظاهر، فمتى عَلِم عِلمَ الظاهر وعملَ به فَتَح اللهُ عليه علمَ الباطن، ولا يكونُ ذلك إلّا معَ فتح قلبِه وتنويره، ثم قال للرجل: عليك بالكيْس المحض وإياكَ وبُنَيّاتِ الطريق، وعليك بما تعرف ودعْ ما لا تعرف.

وقال: ما أسرَّ أحدٌ سريرةَ خيرٍ إلّا أُلبس رداءها، ولا أسرَّ سريرةَ شرّ إلّا ألبسه اللهُ رداءها.

وعن مجاهدٍ قال: من أعزَّ نفسَه أذلّ دينَه، ومن أذلَّ نفسَه أعزَّ دينَه. وعنه أيضاً أنه قال: إنّ العبدَ إذا أقبَلَ إلى الله بقلبِه أقبلَ اللهُ بقلوبِ المؤمنينَ إليه. وعنه أيضاً: إنّ لبني آدمَ جُلَساءَ من الملائكة، فإذا ذَكَر الرجلُ المسلمُ أخاه بخير قالتِ الملائكة: ولكَ مثلُه، وإذا ذَكَره بسُوء قالتِ الملائكة: ابنَ آدم المستورُ العورة، اربَعْ على نفسِك واشكُرْ لله الذي سَتَر عورتَك.

وقال السُّدّي[1]: من أراد أن يسلمَ دينُه فعليه بالعزلة؛ لأنّ هذا زمانُ عُزلة ووَحْدة. وعنه أيضاً قال: من أطاع مَن فوقَه أطاعه مَن هو دونَه، ومن خاف اللهَ خافَه كلُّ شيء. وقال: إنِ اغتممْتَ بما ينقُصُ من مالك فابكِ على ما ينقُص من عُمُرِك. وقال: من علاماتِ الاستدراج العمى عن عيوبِ النفس، ومن تَزيَّن للناس بما ليس فيه سَقَط من عين الله، ولم يكمُل الرجُلُ حتى يؤْثرَ دينَه على شهوتِه، ولن يهلِكَ حتى يؤْثرَ شهوتَه على دينِه، ولن يَرِدَ القيامةَ أرفعُ درجةً منَ الرّاضينَ عن اللهِ تعالى على كلِّ حال، ومَن وُهب له الرضا فقد أبلغ[2] أفضلَ الدَّرجات، ومن لم يعرفْ ثوابَ الأعمال ثقُلتْ عليه في جميع الأحوال، وحرامٌ على كلِّ عالم لم يعملْ بعملِه أن يتَّخذَه المتَّقونَ إماماً.

وعن عبد الله بن أحمدَ بن حنبلٍ قال: جاء أبو إبراهيم[3]، فاستأذنَ في الدُّخول على أبي فأذِن له، فقال لي أبي: سلِّمْ عليه فإنهُ من كبار المسلمين، فسلَّمتُ

(١) إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الحجازي المفسر مولى قريش (ت١٢٨ هـ): تابعي. التاريخ الكبير للبخاري (١١٤٦)، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٦٢٥)، والثقات لابن حبان (١٦٥٩)، وطبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها، لأبي الشيخ ١/ ٣٣٢، وتهذيب الكمال ٣/ ١٣٢، وتاريخ الإسلام ٣/ ٣٧١، والأعلام للزركلي ١/ ٣١٧.

(٢) كذا.

(٣) هو: أبو إبراهيم السائح، كما عرف هو بنفسه، والخبر في: طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى ١/ ١٨٦، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٢٢٨ وغيرهما.

عليه فقال له أبي: حدِّثْنا يا [أبا] إبراهيم، فقال أبو إبراهيم: خرجتُ إلى الموضع الفلانيِّ قربَ الدَّير الفلاني فأصابتني علّةٌ منعتْني من الحركة، فقلتُ في نفسي: لو كنتُ بقرب الدَّير لعلّ فيه من الرُّهبان من يداويني، فإذا أنا بسبُع عظيم قَصَد نحوي حتى جاءني فاحتملني برِفقٍ على ظهرهِ حتى ألقاني عندَ الدَّير، فنظر الرُّهبانُ إلى حالي معَ السّبُع فأسلموا كلُّهم، وهم أربعُ مئة راهب.

واعلمْ أنّ العلومَ ثلاثةٌ: علم الشريعة الظاهرة، وعلمُ الحقيقة الباطنة، وعلمُ الغيب. فعلمُ الشريعة: للخاصِّ والعامّ، وعلمُ الحقيقة لخواصِّ الصّالحين، وعلمُ الغيب: للأنبياءِ والأولياء، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ أنزل عليّ ثلاثةَ علوم: علمٌ أخَذ عليّ العهدَ فيه أنْ أبُلّغَه للخاصِّ والعام، وعلمٌ أخَذ عليّ العهدَ فيه أن أخبرَ به ولا أطلعَ عليه إلّا خواصَّ أمّتي، وعلمٌ اختصَّني به لعلمِه أنه لا يقدرُ على حملِه غيري".

أمّا علمُ الحقيقة فقد علَّمه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لخواصِّ أصحابه، قال أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنكم تقولونَ: أكثر أبو هريرة، وما أكثرتُ، لقد أخذتُ(١) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جِرابَيْ علم(٢)، أمّا أحدُهما فقد

(١) في مصدر التخريج الآتي: حفظت.

(٢) في مصدر التخريج الآتي: وعاءين.

بثثْتُه، وأمّا الآخرُ لو قلتُ منهُ كلمةً واحدة لقطعتُم هذا البلعومَ[1] قبلَ أن أُتمَّها، أمّا إخواني من الأنصار فقد شَغَلهم إصلاحُ أموالهم، وأمّا إخواني من المهاجرين فقد شَغَلهم الصَّفقُ بالأسواق، وأمّا أنا فكنت ألازمُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على ملءِ بطني فأسمعُ ما لم يسمعوا وأعي ما لم يعوا، فشكوتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثرةَ النّسيان فدعا لي وأمَرني أن أضُمَّ على ثيابي بعدَما فَرغ من دعائه، ففعلتُ، فما سمعت من يومئذ شيئاً إلّا حفظتُه، وما حفظت شيئاً فنسيتُه[2].

وأمّا علمُ الكوائن وتواريخ الدُّنيا وتصاريفِ الدّول فقد اختصَّ به حُذيفةُ بن اليمان، قال رضي الله عنه: والله ما مات رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى ترَكنا وما يخفقُ طائرٌ بجناحيْه إلّا وعندنا منه علم، حفظهُ من حفظه ونسِيَهُ مَن نسِيَه، وما من قائدِ قوم يبلُغُ أتباعُه ثلاثَ مئة فصاعداً إلّا وقد أخبرَنا بأسمائهم وأسماءِ آبائهم وصفاتهم وألوانِ خيولهم إلى قيام الساعة، ولقد كنتُ أعرفُهم إذا رأيتُهم كما يعرفُ الرجُلُ وجهَ الرجُل إذا توارى عنه بحائط[3].

---

(١) أخرج هذه القطعة ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٩١٠).

(٢) الخبر في البخاري (١١٨) و(١١٢٣) و(٣٧٠٨).

(٣) رواه مسلم ٢٣- (٢٨٩١).

ثم رآه أهلُ العراق فقالوا له: إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قد أخبرك بعلم الكوائن، فما هو كائنٌ في عامنا هذا؟ قال: أفرأيتُم إنْ أخبرتُكم أكنتُم مُصدِّقيَّ؟ قالوا: نصدِّقُك ولا نشُكّ، قال: إنّ إحدى أمّهاتِكم تسيرُ إليكم في عامكم هذا لتُقاتلَكم، قالوا: هذا ما لا يكونُ أبداً، فقال: والله إنه الحق وإنها لتأتيكُم يومَ كذا وكذا، وإنه يُقتلُ حولَها قتلى كثيرونَ من المسلمين، فيهم طلحةُ بنُ عبد الله، وإنّ الزُّبيرَ ينصرفُ عن القتال تائباً ومقلعاً، وإنّ رجلاً من تميم يُسمَّى ابنَ جماهر يقتلُه غيلةً، وإنّي ميّتٌ من عامي هذا قبلَ الوقعة، وإنها أولُ الفتن وما بعدَها أشدُّ منها[1].

وأمّا عليٌّ رضي الله عنه فقد أوتيَ من ذلك العجبَ العُجاب[2]، وقد كان فيه بحراً عُباباً، حتى زعمت طائفةٌ من الشِّيعة أنه نبيٌّ، محتجّينَ بقوله صلى الله عليه وسلم: "أنت منّي بمنزلة هارونَ من موسى إلّا أنه لا نبيَّ بعدي"[3]، فرفضوا قولَه: إلّا أنه لا نبيَّ بعدي، فكفروا بتكذيبهم كتابَ الله، وفي قوله: {وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠] ورمتْه الرافضةُ بالكفر والزَّندقةِ لمّا بلَغَهم عنه من غريبِ علوم الباطن والحقائق الربّانيّة، ولذلك قال:

---

(١) رواه باختصار: الطبراني في المعجم الأوسط (١١٥٤) والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٧١ (٨٤٥٣).

(٢) في النسخة: العجائب، تحريف.

(٣) متفق عليه: البخاري (٣٧٠٦) و (٤٤١٦)، ومسلم ٣٠ و٣١ و٣٢- (٢٤٠٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص.

يا رُبَّ جوهرِ علم لو أبوحُ بهِ لقيل لي أنت ممّن يعبُدُ الوثنا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلمونَ دمي يروْنَ أقبحَ ما يأتونَه حسنا

ولذلك قال له الصّادقُ المصدوقُ صلى الله عليه وسلم: "أنت يا عليُّ مثلَ عيسى، يهلِكُ فيك اثنان: مُحبٌّ مُفرط ومُبغضٌ مُفرط "(١).

وكان الأمرُ كذلك، فهو الذي استنبط علمَ النّحو والكيمياء والإستطرلاب وأسرار الحروف والحساب والتنجيل وعلم الحفر والأوقاف والتفسير والفرائض ودقائق القسمة، إلى غير ذلك.

رُوي أنّ بعض المُلحدة أتاه فجَعل يُطريه، فقال له: إني دونَ ما أطريتني به وفوقَ ما في نفسك. وقال له بعضُهم: ثبَّتك اللهُ يا أميرَ المؤمنين، فعلم ما في نفسِه فقال له: على قلبك؛ لأنه أراد بالتثبيت: الموتَ.

وجاءه بعضُ القَدَريّة فقال له: إني سائلُكَ عن القَدَر، فقال: بحرٌ عميقٌ لا تلجْهُ، فقال: لا بدَّ من الجواب، فقال له: ليلٌ مُدْلهِمّ فلا تقتحمْه، فقال: إنّي في حَيرة فأرشِدْني، فقال له: يا فتى، أشاركتَ اللهَ في خلقِك حين خَلَقك؟ قال: لا، قال: أبمشيئتِه أنشَأ السمواتِ والأرضَ حين أنشأهُما أم بمشيئتك؟ قال: بل بمشيئته، قال: بمشيئته يُميتُك حين يُميتُك أم بمشيئتك؟ قال: بمشيئته، قال:

(١) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في الملحق من المسند (١٣٧٦) و(١٣٧٧)، وفيه تمام تخريج.

أجعلَ لك السمعَ والبصرَ والفؤادَ بمشيئته أم بمشيئتك؟ قال: بل بمشيئته، قال له: ويبعثُك حين يبعثُك بمشيئته أم بمشيئتك؟ قال: بل بمشيئته، قال: أوَ يُدخلُك الجنّةَ أو النارَ بمشيئته أم بمشيئتك؟ قال: بل بمشيئته، قال: أوَ يُمرضُك بمشيئته أم بمشيئتك؟ قال: بل بمشيئته، قال: أله شريكٌ في مُلكه؟ قال:لا، قال: يا فتى، إنكم معاشرَ القَدَرية جعلتُم له شُركاءَ بغير بُرهانٍ من الله أتاكم، يا فتى، إذا كنت لا تشاركُه في خلقِك وبعثِك فإنك لا تشاركُه في فعلك ورزقِك، فإنه كما أنك لا تشاركُه في خلقِك فإنك لا تشاركُه في رزقِك وحركاتك، ألستم تقرأون في كتاب الله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦]؟ قال: بلى، قال: ألستم تقرأون {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٩]؟ قال: بلى، ولكنْ إذا عَمِي البصر لم ينفَع الأثر، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله، وأشهدُ أنك على الحقّ المبين، فقال عليّ: ففهِّموا أخاكم فإنه قد آمن وصدّق آنفًا.

ثم ورِثتْه عنهم أولياءُ التابعين فتابعيهم على قدْرِ مراتبِهم وفَتَح اللهُ عليهم، {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ} [البقرة: ٦٠]، وامتدّ ناموسُه في أولياءِ الله في كلِّ قرن وجيل إلى يومِنا هذا فيَستعلِنون عند صلاح الأُمّة على سبيل الانتفاع ويستخْفُون عندَ فسادِها حرمانًا، وعددُهم ثابتٌ لم ينتقصْ.

ولقد ظهر في سلسلة الذّهب، من ذلك العجَب ، قال الجوْزيُّ[1] في ترجمة موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحُسين بن عليّ رضي اللهُ عنه[2]: قال شقيقُ بن إبراهيمَ البَلْخيّ: خرجتُ حاجًّا فنزلتُ بالقادسيّة، فبينما أنا أنظرُ إلى الناس وكثرتِهم إذا أنا بشابٍّ حسن الوجه مشتملًا بشمْلة وعليه ثوبُ صُوف قد جلس منفردًا، فقلتُ في نفسي: هذا الشابُّ من الصّوفية يريدُ أن يكونَ كلًّا على الناس في طريقِهم، فقلتُ في نفسي: والله لأذهبنّ إليه، ودنوْتُ منه، فلمّا رآني مُقبلًا قال: يا شقيق {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ} [الحجرات: ١٢]، ثم مضى وتَرَكني، فقلتُ في نفسي: إنّ هذا لأمرٌ عظيم، قد تكلّم على ما في نفسي ونَطَق باسمي! ما هو إلّا عبدٌ صالح، لألحقَنّه ولأسألنّه أن يجعلَني في حِلّ، فأسرعتُ في

---

(١) أما الجوزي فهو: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ الجوزي أو ابن الجوزي الواعظ (ت ٥٩٧هـ) صاحب التصانيف السائرة في فنون العلم وصاحب كتاب "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" وأشياء كثيرة يطول شرحها، قال فيه مترجموه، كالذهبي: "ما علمت أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل". وقال ابن منقذ: "توفي وهو ابن مائة وخمس عشرة سنة وابتدأ التأليف وهو ابن عشر سنين". ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي ١٢/ ١١٠٠، وتذكرة الحفاظ، له ٤/ ٩٣، والوفيات لابن منقذ، ص ٣٠١، وكتب طبقات الحنابلة وسواها. قلت: ولم نقف على كلمته هذه فيما عندنا من مصادر.

(٢) أبو الحسن المدني الكاظم. تاريخ الإسلام ٤/ ٩٨٤، والتكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل، لابن كثير ١/ ٢٣٥ وغيرهما.

أَثَره فلم أَلحقْهُ وغاب عن عيني، فلما نزلنا واقِصةَ(١) إذا به يصلّي وأعضاؤه تضطربُ ودموعُه تجري، فقلتُ: هذا صاحبي أمضي إليه فأستحلُّه، فصبرتُ حتى جلس وأقبلتُ نحوَه، فلمّا رآني مقبلًا قال: يا شقيق، اتلُ {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [طه: ٨٢]، ثم تَركني ومضى، فقلتُ في نفسي: إنّ هذا الفتى لَمِن الأبدال: قد تكلّم على سرّي مرتين، فلمّا نزلنا إذا بالفتى قائمٌ على البئر وبيده رَكوةٌ(٢) يريدُ أن يستسقيَ ماءً، فسقطتِ الرَّكوةُ من يده في البئر وأنا أنظرُ إليه، فرأيتُهُ قد رَمَق السماء، وسمعته يقول: ربي، إنّي ظمئتُ من الماء وقُوتي إذا أردتُ إطعامًا، اللّهم سيّدي ما لي سواها فلا تعدَمْنيها، فقال شقيق: فوالله لقد رأيتُ البئرَ وقدِ ارتفع ماؤها فمدّ يدَه فأخذ الرَّكوةَ وملأها ماءً فتوضّأ وصلّى أربعَ ركعات، فمال إلى كثيبِ رمل فجَعل يُفيض منه بيدِه ويطرحُه في الرَّكوة ويَحوكُه ويشرب، فأقبلْتُ إليه وسلّمت عليه فردّ عليّ السلامَ، فقلت: أطعِمْني من فضل ما أفاءَ اللهُ عليك، فقال: يا شقيق، لم تزلْ نعمةُ الله علينا ظاهرةً وباطنة، فأحسنْ

(١) واقصة. قال ياقوت: "منزل بطريق مكة بعد القرعاء نحو مكة وقبل العقبة". وعدّ اليعقوبي المنازل من الكوفة إلى المدينة ومكة تسعة، فقال: "من أراد أن يخرج من الكوفة إلى الحجاز خرج على سمت القبلة في منازل عامرة ومناهل قائمة، فيها قصور لخلفاء بني هاشم، فأول المنازل: القادسية، ثم المغيثة، ثم القرعاء، ثم واقصة، ثم العقبة، ثم القاع، ثم زبالة، ثم الشقوق، ثم بطان". معجم البلدان، لياقوت ٥/ ٣٥٤، والبلدان، لليعقوبي، ص: ١٥٠.

(٢) الركوة مثلثة، والتثليث فيها مشهور والأفصح الفتح، وهي: الدلو الصغيرة هنا. تاج العروس، والمصباح المنير (ركو).

ظنَّك بربِّك. ثم ناوَلني الرَّكوةَ فشربتُ منها فإذا سَويقٌ وسكّر، فوالله ما شربتُ قطُّ مثلَه لذّةً ولا رائحة، فشبِعتُ ورَوِيت، وأقمتُ أيامًا لا أشتهي طعامًا ولا شرابًا، ثم لم أرهُ حتى دخلنا مكّة، فرأيته ليلةً إلى جنب قُبة الشرابِ وقد انتصف الليلُ وهو يصلّي بخشوع وأنينٍ وبكاء، فلم يزلْ كذلك حتى ذهب الليلُ، فلمّا رأى الفجرَ جلس في مُصلّاه يسبّحُ الله، ثم قام وصلّى الغداةَ وطاف البيتَ سبعًا، ثم خرج فاتّبعتُه فإذا له غاشيةٌ[1] وموالي، وهو على خلافِ ما رأيتُه عليه في الطريق، وإذا الناسُ قدِ احتوشتْه يسعَوْنَ إليه ويتبرّكُون به، فسألتُ عنه رجلًا كان إلى جنبي فقال: ذلك موسى الكاظمُ بن جعفرِ بن محمد بن عليّ بن الحُسين بن عليّ، فقلتُ في نفسي: هذه العجائبُ لا تنبغي أن تكون إلّا لهذا السيد.

وعن الليث بن سعد، قال: حجَجْتُ سنةَ ثلاثَ عشْرةَ ومئة فأتيتُ مكةَ، فلمّا صلّيتُ العصرَ رقِيتُ، فإذا أنا برجل جالس وهُو يدعو فقال: يا ربّ، يا ربّ، حتى انقطع نفَسُه، ثم: يا ربّاه يا ربّاه حتى انقطع نفَسُه، ثم قال: يا ألله يا ألله حتى انقطع نفَسُه، ثم قال: يا حيّ يا حيّ حتى انقطع نفَسُه، ثم قال: يا أرحمَ الراحمين حتى انقطع نفَسُه سبعَ مرات، ثم قال: إني أشتهي من هذا العنبِ فأطعمْنيه، اللّهمّ إنّ بُردتي قد أخْلقَت. قال: فوالله ما استتمّ كلامَه حتى نظرتُ إلى سلّة مملوءةٍ عنبًا وليس على وجه الأرض عنب، وبُرديْنِ موضوعيْن، فأراد أن يأكُل، فقلت: أنا

(١) كذا في النسخة، ولعله أراد: حاشية.

شريكُك، فقال لي: ولِمَ؟ فقلت: لأنك كنت تدعو وأؤمّن، فقال لي: تقدّم فكلْ ولا تدخرْ شيئًا، فتقدمت فأكلت شيئًا ما أكلتُ مثلَه قطّ، وإذا عنبٌ لا عجَم له، فأكلتُ حتى شبِعتُ والسّلةُ لم تنتقصْ، فالتفت إليّ فقال: يا ليث، إنه لا يأكُلُ من ثمار الغيب إلا رجالُ الغيب المطّلعونَ على علوم الغيب. ثم ناوَلني أحدَ البُردينِ فقلت: أما البُردان فإني غنيٌّ عنهما، فقال لي: تَوارَ عني حتى ألبَسَهما، فتواريتُ عنه فاتّزر بأحدِهما وارتدى بالآخر، ثم أخذ البُرديْنِ اللذيْنِ كانا عليه فجَعَلهما في يدِه، فنزل فاتّبعتُه، حتى إذا كان بالمسعى لقيه رجلٌ فقال: اكسُني كساك الله يا ابنَ رسول الله، فدفَعهما إليه، فقلت للرجل: من هذا؟ فقال: جعفرُ بن محمد بن عليّ بن الحُسين، فأطلبتُه لأسمعَ منه فلم أجدْهُ.

ومن هذا الباب ما رُوي عن عُمرَ بن الفارِض أنه بينما هو يومًا في بعضِ مدارس مصرَ إذا هو بشيخ يتوضّأ، فجَعل ينكّسُ في وضوئه، فأنكَرَ عليه، فرفع إليه رأسَه فقال: يا عُمر، إنه لا يُفتح عليك هنا، وإنما يُفتحُ عليكَ بمكّة فسرْ إليها، فعلم عمرُ أنه من أولياء الله وإنما خلط في وضوئه يسترُ الحالةَ. قال عُمر: فقلت له: يا سيّدي، كيف أسيرُ إلى مكة وليس هنا مسافرون؟ فأشار لي إلى مكة، فرأيتُها من مصر، وجعلتُ أمشي حتى دخلتُها.

ثم إنّ عُمرَ بنَ الفارض بقيَ بمكّةَ زماناً، فلمّا حضَر الشيخَ البقّالَ[١] الموتُ قال عُمرُ: فناداني من مصرَ فقال: احضُرْ وفاتي، قال: فجئتُه، فقال لي: إذا أنا مِتُّ فادفنّي هناك، وأشار إلى الجبل المُقطَّب، ورأيتُ المكانَ الذي أشار إليه، قال: فلمّا مات حملتُه إلى قبره فوضعتُه، فإذا أنا برجُل من أولياءِ الله تعالى، فقال لي: تقدَّمْ يا عُمر وصلِّ عليه، ونزلت طيورٌ وفيها طيرٌ كبير، قال: فتقدَّمتُ وصلَّيت، قال: فجاء الطائرُ الكبيرُ إلى الشّيخ البقّال فالتقَمَه حتى صار في حوْصلتِه ثم طار وطارتْ تلك الطيورُ خلفَه، فالتفتَ إلى الوليِّ الذي صلَّى معي فقلت: يا سيدي، ما هذا؟ فقال: يا عمر، أما سمعتَ قولَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: "أرواحُ الشُّهداء في حواصلِ طيورٍ خُضْر"[٢]؟ أولئك شهداءُ السيوف، وأمّا شهداءُ المحبّة فهم بأرواحِهم وأجسادِهم، وهذا الشّيخُ منهم، وقد كنتُ يا عُمرُ بلغتُ هذه المنزلةَ فزللْتُ زلّةً فأُنزِلتُ عنها، وأنا أرجو منَ الله عزَّ وجلّ الرجوعَ إليها. وفي قبرِ هذا الشّيخ دُفن عُمرُ بن الفارض رضي اللهُ عنهما.

(١) يوسف بن علي بن أحمد، أبو الحجاج، عفيف الدين، ابن البقال البغدادي (ت ٦٦٨هـ): صوفي، من الحنابلة. كان شيخ رباط " المرزبانية " ببغداد. وقبره بتربة الإمام أحمد. ولما حدثت واقعتها مع المغول كان بمصر. له تصانيف، منها "سلوك الخواص". الحوداث الجامعة، لابن الفوطي، ص ٣٦٠، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/ ٢٨٠، والأعلام للزركلي ٨/ ٢٤٢.

(٢) رواه مسلم ١٢١- (١٨٨٧)، ولفظه: "أرواحهم في جوف طير خضر"، والترمذي (١٦٤١).

ومن خواصِّ هذه الأُمّة أرضُ الطِّيب التي لم تنلْها أُمّة، ولو أتيحتْ لأحدٍ لأُتيحت لهارونَ وموسى عليهما السلام مدةَ التِّيه، وإنما أنزل اللهُ عليهما المنَّ والسّلوى وأظلَّهما بالغمام وفجَّر لهما الماءَ من الصّخرة قال اللهُ تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا} [البقرة: ٦٠]، وقال في آية أخرى: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} [الأعراف: ١٦٠].

وأمّا هذه الأُمّةُ زادها اللهُ عزًّا وشرفًا لديه فقد وَجدوا نعيمًا في سياحتِهم يربُو على نعيم الجنة، فضلاً عن نعيم الدنيا.

ومن ذلك: ما رواه الأنطاكيُّ(١) رضي الله عنه قال: دخلتُ ومعي نفَرٌ عشَرةٌ جبلَ الأكام(٢)، فسرنا فيه أياماً، فهبطنا وادياً وإذا فيه بحيرةٌ فيها ماءٌ عذب، وإذا على شاطئ البحيرة مسجدٌ أبيضُ، وإذا بعيون تطّردُ من تحت المسجد إلى البحيرة، فجلسنا في المسجد، فلمّا كان وقتُ الظهر جاء رجلٌ فأذَّن، ثم دَخَل فسلَّم علينا وركَع ركعتينِ ثم أقام الصّلاةَ، فدخل علينا ثلاثونَ رجلاً فيهم شيخٌ، فدخل

---

(١) لعله: أحمد بن عاصم، أبو عبد الله الأنطاكي: الزاهد الحكيم صاحب المواعظ، من كبار المشايخ وزهادهم وأولي الحكمة واللسان. ينظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٨٧، وفيه تخاريج ترجمته، وطبقات الصوفية للسلمي، ص ١١٨- ١٢٠، وله ترجمة ضافية في بغية الطلب فى تاريخ حلب، لابن العديم ٢/ ٨٤٨- ٤٥٠، وغير هؤلاء.

(٢) ويسميه ياقوت أيضًا: جبل اللكام. معجم البلدان ٧/ ٦٧٥.

المِرحابَ فصلَّى بنا، ثم انصَرفوا ولم يكلِّمونا، فلمّا دَخل وقتُ العصر صلَّينا لأنفُسِنا ولم يأتِنا منهم أحد، فلمّا كان وقتُ المغرب جاء رجلٌ، فأذَّن وأقام الصّلاة، فتقدَّم الشّيخُ فصلَّى بنا، ثم قاموا يصلُّونُ إلى أنْ غاب الشَّفَقُ، ثم أذَّن وأقام الصَّلاة، ولم يكلِّمونا، وصلَّى بنان ثم انصرفوا، فلمّا كان بعدَ ساعة جاء رجلٌ منهم معَه شيءٌ، فوَضَعَه في زاويةِ المسجد، ثم قال لنا: هلُمُّوا يرحمْكمُ الله، فقمنا إليه، وإذا نحن بمنديلٍ أبيضَ لم أرَ مثلَه وتحتَه مِكبّةٌ من زبرْجَد خضراءُ، فكشفناها فإذا بمائدةٍ من ياقوتٍ أحمرَ عليها طعامٌ يشبهُ الثَّريد، فأكلنا منهُ، فكنا نأكُلُ ولا ينقُص ممّا على المائدة شيءٌ، فلمّا جاء وقتُ السُّحور جاء ذلك الرجلُ فحَمَل المائدة، ثم أذَّن ثم أقام الصَّلاة، فتقدَّم الشّيخُ، فصلّى بنا جميعاً وجلس في محرابِه يفتتحُ القرآنَ ثم حَمِد اللهَ وأثنى عليه ثم دعا بدعاءٍ حَسَن، ثم قال: إنّ اللهَ تعالى افترَض على هذا الخَلق فريضتيْنِ في آية واحدة والناسُ عنها غافلون، فقلت: وما هما يرحمُكَ الله؟ فقال لي: تقدَّم جَبَرَك الله، فقدَّمني على أصحابي، فقال: نعم يا غُلَيْمُ جَبَرَك الله، قال جلّ جلالُه: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} فوصفَه لنا بالعداوة لنحترزَ منه من أوّل وهْلةٍ حتى لا يجدَ إلينا سبيلًا، الفريضةُ الثانية: {فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} [فاطر: ٦] بالمُراغمة لهُ وفعل كلِّ ما يَغيظُه ومخالفتُه في كلِّ ما يأمرُ به منَ التخويف من الفقر وأمرِه بالفحشاءِ وتزيينِه للشّهوات، فقلتُ له: أوصِني بوصيّة، قال: نعم جَبَرَك الله، قال: اجتهدْ في رضا خالقِك أكثرَ منَ اجتهادِك في رضا نفسِك، واعملْ لدُنياكَ بقَدْر مقامِك فيها، واعملْ لربِّكَ بقدْرِ حاجتِك إليه،

وأطعْ إبليسَ بقدرِ نُصحِه لك، وارتكبْ منَ المعاصي بقدْرِ طاقتِك على النار، واحفظْ لسانَكَ عن ما لا ترجو فيه ثواباً كما تحفظُ كِيسَك منَ السِّلعة التي لا ترجو فيها ربحاً، واترُكْ أربعةً لأربعة ثم لا تُبالِ متى مِتَّ: اترُكِ الشَّهوةَ إلى الجنّة، والنومَ إلى القبر، والراحةَ إلى الصّراط، والعجزَ إلى الميزان. ثم قام فمضى، فقُمنا يومَنا ذلك، فلمّا كان الليلُ جاء الرجُلُ ومعَه تلك المائدةُ عليها مثلُ ذلك الطعام، فأكلْنا وقُمنا عندَهم ثلاثةَ أيام، فلمّا كان اليومُ الرابع ودَّعناهم، فقال الشّيخُ في آخرِ كلامِه: يا فتيان، استُروا المكانَ سَتَرَكمُ اللهُ في الدُّنيا والآخرة، فانصرفنا من عندِهم فسِرْنا في وادٍ على حافَتِه أشجارٌ مثمرةٌ من كلِّ لون، وما شممْنا رائحةً مثلَ رائحة تلك الأشجار، وهي لا تُشبهُ ثمارَ الدنيا ولا أشجارَها.

ومن هذا البابِ ما رَوى الأنطاكيُّ، قال: كنتُ في مسجد الرسُول صلى الله عليه وسلم، إذْ دَخَل عليّ رجلٌ فقال لي: إن شئتَ أريتُكَ رجالَ الحقّ، فقلت: نعم، قال: من لي بهم؟ فقلت: قمْ معي إلى قبر رسُول الله صلى الله عليه وسلم، فقام معي، فإذا هم عندَ قبرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قيامٌ، فالتفتَ واحدٌ من القوم إلى صاحبي فغُشِي عليه، فجعلتُ أخدُم القومَ، فلمّا انصرفوا مضَيْنا معهم، فالتفتَ إليّ رجلٌ منهم فقال لي: إلى أين؟ إنك لا تستطيعُ صحبتَنا؟ فقال غيرُه: دعْه، فلعلَ اللهَ يجبُرُه، فسِرتُ معَهم، فكنتُ في وَسَطِهم، فكنتُ أرى كأنّ الأرضَ تُطوى، وكأنّ الجبالَ يدنو بعضُها من بعض، وأرى الغبارَ ساطعاً، وكنت أرى الجبالَ على البُعد فنتجاوزُها في لحظة، وكنتُ أسمعُ دَبيبَ الأرض مثلَ صوت

الرَّحى، وأرى كنوزَ الأرض تظهرُ لنا تارَةً وتغيبُ تارَةً أخرى، حتى وصلتُ إلى وادٍ كثيرِ الأشجار والنبات، وإذا أقوامٌ قيامٌ يُصلُّون نحواً من سبعينَ رجلاً، فبِتْنا في ذلك الوادِ، فلمّا أصبحنا وطلعتِ الشمسُ إذا نحن بمدينة عليها سُورٌ أبيضُ من حجارةِ المهر، وهي قطعةٌ واحدة، وإذا نهرٌ عظيمٌ يدخُل، وليس لها بابٌ إلّا من الموضع الذي يدخُلُ منه الماءُ وعليه شُبّاكٌ من ذهبٍ وفضّة، وإذا أرضُها من ذهب، والأنهارُ تجري على تلك الأرض فتخترقُ قِباباً من تلك الحجارة، وأرضُها مغروسةٌ بالزَّعفران وأنواع الطِّيب، وفيها طيورٌ من كلِّ لون وثمارُها كبارٌ تكادُ تزنُ التفّاحةَ رِطلاً بالشّاشيّ، وكذلك جميعُ فواكهها لا تُشبهُ فواكهَ الدّنيا في العِظَم ولا في اللّون ولا في الطّعم ولا في الرائحة، وكنا نأكُلُ من ثمارها وفواكِهِها أكلاً ذريعاً فلا يثقُلُ على المعدة، وفيها كلُّ لون من الثمارِ إلّا النخل، وليس لنا عملٌ فيها إلّا الصلاةَ والذكرَ والأكلَ، وكنا لا نحتاجُ إلى وُضوءٍ ولا إلى شرابِ ماءٍ ولا نوم، فقُمنا كذلك أربعينَ يوماً، ثم خرجنا منها، فأخذتُ ثلاثَ تُفاحاتٍ فلم يمنعوني، فخرجنا منَ الموضع الذي دخلنا منه، فلمّا سِرنا ساعةً قالوا: إلى أين تريدُ أن نودّيك؟ فقلت: من حيثُ أخذتُموني، فقلت: ما اسمُ هذا الموضع؟ فقالوا: مدينةُ الأولياء، خَلَقها اللهُ تعالى نُزهةً لأوليائه في دار الدنيا، فمرةً تظهرُ لهم باليمن، ومرةً بالشام، ومرةً بالعراق، ولم يدخلْ هذه المدينةَ من لم يبلغْ درجةَ الأربعينَ غيرُك، وهي مبنيّةٌ في أرض الغيْب. وأخذْنا في طريق المدينة، فما كان إلّا ساعةٌ وإذا أنا بها، فقلت: ما هذا الموضع؟ قالوا: المدينة، فكنتُ آكلُ من التفاحةِ

كلّما جُعتُ فلا تنقُص، ولا أحتاجُ إلى طعام ولا شرابٍ أيامًا كثيرةً. وكان بيني وبينَ الشّيخ الكِنانيِّ صداقةٌ، فدخلتُ عليه فأعطيتُه تفاحةً وحدَّثته بالحديث فأخَذَها وجَعَلها في خُفِّه ليُفطرَ عليها، فلمّا نمتُ رأيتُ واحداً منهم فقال لي: حدَّثتَ الكِنانيَّ وأعطيتَهُ التفاحة؟ فقد أخذْنا ما أُعطيتَ، أوَما علمتَ أنّ هذه الثمارَ لا يأكلُها إلّا مَن رَفَض الدُّنيا وراءَ ظهرِه ولم يتلوَّثْ بالشّهواتِ الفانية؟ فلمّا أصبحتُ قال الشّيخُ الكِنانيّ: ذهبتُ لآكُلَ التفاحةَ فلم أجدْها.

ومن هذا الباب: ما رواهُ سَرِيٌّ السَّقَطيُّ[1]، قال: كنتُ- في بداية أمري- مجتهداً، فأولُ ما فُتح به عليّ أني هجَّرتُ إلى المسجد يومَ جُمُعة، فلمّا تكاملَ الناسُ في المسجد وأخَذ الإمامُ يخطُب أصابتني حُرقةُ بول، فهمَّني ذلك؛ لأنّي إن تماديتُ خفتُ ضيْعةَ صلاتي وإنِ انصرفتُ تخطَّيتُ الرِّقاب، فالتفتُّ إلى فقيرٍ كان إلى جنبي فقال: يا سريّ، أصابتك حُرقةُ بول؟ فقلتُ: نعم، فغطّى رأسي بردائه ثم قال: اقضِ حاجتَك، فإذا بمدينة ما رأيتُ مثلَ بهجتِها، وإذا بمياهٍ تطَّرِد وأطيارٍ تغرِّد، وإذا قومٌ فقال لي بعضُهم: دونَك المُستراحَ، فقضيْتُ حاجتي ثم انصرفت، فإذا ميضاءة ما رأيتُ ميضَأةً أوسعَ منها، وإذا على حافتِها أكوابٌ مملوءةٌ ماءً

---

(١) سري بن المغلس السقطي، أبو الحسن (ت ٢٥٣ هـ): من كبار المتصوفة، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته، وهو خال الجنيد وأستاذه. طبقات الصوفية للسلمي، ص ٥١، و بغية الطلب فى تاريخ حلب ٩/ ٤٢١٤، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٥٧، وتاريخ الإسلام ٨٨/٦، والأعلام للزركلي ٣/ ٨٢ وسواها.

فاستنجيْتُ ثم توضَّيت، فلمّا فرغتُ قال: أفرغتَ يا سَرِيّ؟ قلت: نعم، فرفَعَ رداءه عن[1] رأسي، فإذا أنا جالسٌ في موضعي، فدَهِشتُ وتحيَّرتُ وجعلتُ الفقيرَ من همّي، فلمّا قُضِيتِ الصّلاةُ انصرف فتبعتُه، فلمّا خرجنا من المسجد التفتَ إليّ مبتسماً فقال: كأنك شككْتَ في الأمر؟ فقلتُ: نعم، فوضَع طرْفَ ردائه على رأسي فإذا المدينةُ على حالها وإذا الميضأةُ والمُستراحُ على حالِها، وإذا أرضُ المدينة وكأنّها صيغتْ من فضّة، وإذا أشجارُها مونعةٌ ثماراً لم يرَ الراءونَ مثلَها، وبقي شَذى رائحتها بمَنخَريَّ أسبوعاً، والفقيرُ يقول: حقِّقِ الأمرُ حتى لا يخالطَك ريْبٌ بعدَها، فقلتُ له: ما هذه الأرضُ وما هذه المدينةُ وما هذه المياه؟ فقال: أمّا الأرضُ فأرضُ الغيب، والمياهُ كذلك، وأمّا المدينةُ فمدينةُ قُرّة عين الأولياء، قال الله تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً} [السجدة: ١٧]، وليس ذلك خاصّاً بالآخرة، بل في الدّنيا والآخرة.

ومن ذلك: ما رواه أبو عمران[2]، قال: سرتُ من مكّةَ أريدُ زيارةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فأصابني في الطريق عطشٌ شديدٌ حتى يئستُ من نفسي، فجلستُ تحتَ شجرة أم غَيْلان، إذ أقبل فارسٌ على مركوبٍ أخضرَ وعليه ثيابٌ خُضْرٌ وبيدِه قدحٌ أخضرُ فيه شرابٌ أخضر، فدفَعَه إليّ فقال: اشربْ، فشربتُ منه ثلاثَ مرات فلم ينقُصْ، فقال في الثالثة: إلى أين تريد؟ فقلتُ: المدينةَ لزيارة

(١) في النسخة: على.

(٢) لعله في أغلب الظن: أبو عمران الجصاص. طبقات الصوفية للسلمي، ص٧٧.

الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال لي: إذا دخلتَ المدينةَ فسلِّمْ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيْهِ وقلْ لهُ: رضوانُ يُقرئُك السلام.

وقال أبو عمران: كنتُ في سفينة، فانكسرت وبقيتُ على لوح منَ السفينةِ ومعيَ امرأةٌ قد وَلَدت صبيّةً، فصاحت بي فقالت: يا أيُّها الرجل، إنّي عطشانةٌ، فقلت: هو ذا يَرى حالَنا، فبينَما نحن في مُحاورة إذْ أحسستُ بشيءٍ فوقي فرفعتُ رأسي فإذا برجُل جالس في الهواءِ وبيدِه سلسلةٌ من ذهبٍ في طرَفها رَكوةٌ من ياقوتةٍ حمراءَ فيها ماء: قال هاكُما فاشرَبا، فأخذتُها وسقيْتَ المرأةَ وشربتُ بعدَها، ثم أخذتُ السلسلةَ فقلتُ له: مَن أنت يرحمُك الله؟ فقال: أنا رجلٌ تركتُ هوايَ لمرضاة الله فأجلسَني في الهواء. نقَلَها صاحبُ "الرياض.

ومن ذلك: ما رواه الأنطاكيُّ، قال: رأيتُ الغوْثَ- واسمُه: أحمدُ بن عبد الله البَلْخيُّ- بمكّة حرسَها الله وهو على عَجلةٍ من ذهبٍ والملائكةُ يَجُرّونَها في الهواء بسلاسلَ من ذهب، فقلتُ له: إلى أين؟ فقال: إلى أخ من إخواني اشتقتُ إليه، فقلت: لو سألتَ اللهَ أن يسوقَهُ إليك؟ فقال: وأين ثوابُ الزيارة؟

وقال: دخلتُ قُبّةً ببيت المقدِس بالليل، فبتُّ فيها، فبينَما أنا قائمٌ أُصلّي إذِ انشقَّت القُبّةُ نصفيْنِ فبقيَتْ مشقوقةً حتى بصُرتُ السماءَ فنزلَ منها خلْقٌ لا يُحصي عددَهُ إلّا اللهُ عزّ وجلّ وهم يقولون: سبحانه هُوْ هُوْ، سبحانَ من ليس إلّا هُوْ

أَهَيا شَرَاهِيا[١]، فلم يزالوا يقولونَ ذلك، فلمّا كان آخرُ الليل قال لي واحدٌ منهم كان إلى جنبي: ما قصّتُك؟ قلتُ: جئتُ أُصلّي بهذا الموضع بالليل، فمن أنتم؟ قالك نحن الملائكة، دخلنا أمسِ البيتَ المعمورَ فلا نرجعُ إليه إلى يوم القيامة، وذلك أنه يدخُل إليه في كلِّ يوم سبعونَ ألفَ ملك فلا ترجعُ إلى يوم القيامة، فإذا دَخَلوا البيتَ المعمورَ في يومِهم ساروا من ليلتهم إلى الصَّخرة من بيتِ المقدس ثم يمضُونَ إلى بيتِ الله الحرام فيطوفونَ به أسبوعاً ثم يُصلُّونَ خلفَ المقام ركعتيْنِ ثم يمضُونَ إلى المدينة فيُسلِّمونَ على محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ثم يرجِعونَ إلى مَصافِّهم، فلمّا صَدَروا انضمّتِ القبّة فأصبحتْ كما كانت.

ومن هذا الباب: ما أخرجه البيهقيُّ في مسندِه، عن واثلةَ بن الأسقَع، قال: بينما نحن جلوسٌ معَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم إذْ أناخ أعرابيٌّ قَلُوصَه، ثم أقبلَ إلى رسُول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، هل مِن شاهدٍ معَك على ما دعوتَنا إليه؟ قال: "نعم، ادْعُ أيَّ شجرةٍ شئتَ فقلْ لها: إنّ محمداً يدعوكِ"، فذهبَ الأعرابيُّ إلى نخلةٍ كانت قريبةً من مجالسِنا فدعاها كما أمَرَه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، فتمايلتْ يميناً وشمالاً حتى انقلعتْ فأقبلَتْ تخُدُّ الأرضَ بعروقِها حتى سَجَدتْ بين يدَيْ رسُول الله صلى الله عليه وسلم، فلمّا رأى الأعرابيُّ ذلك قال: يا محمد، ابسُطْ يدَكَ لأُبايعَك، فإنه لا شكَّ بعدَ عِيان ولا كِبْرَ بعدَ إيمان، فإنّي

---

(١) في تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠٤ أن معناها: يا حي يا قيوم، وساق خبرًا عن عائشة.

أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله وأشهدُ أنّ محمداً رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، وكان قد عَجِفتْ قَلُوصُه، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن يُتوّجُهُ فأضمنَ له الجنّة؟"، قال عليّ: أنا يا رسولَ الله، فنزعَ عِمامتَه فجَعَلها على رأسِه، ثم قال: "مَن يحملُه فأضمَنَ له الجنّة؟"، قال عثمان: أنا يا رسُولَ الله، فأتاه بقَلُوص، ثم قال صلى الله عليه وسلم لسلمانَ: اذهبْ يا سَلمانُ إلى أهلي فقلْ لهم يُزوِّدوا هذا الأعرابيَّ، فطافَ سلمانُ ببيوتِ النبيِّ كلِّها فلم يجدْ فيها شيئاً، وذهبَ إلى بيتِ عليّ رضي الله عنه فكلَّم فاطمةَ فقالت: والله يا سلمان لقد طوَيْنا منذُ ثلاثةِ أيام، وإنّ الحَسَنَ والحُسَينَ لَيتمعَّكانِ جوعاً، ولكنِ اذهبْ بدِرعي هذا فبِعْهُ لفُلانٍ اليهوديِّ فلعلّه يُعطيكَ فيه منَ الزَّرع والتمرِ ما يُزوِّدُ به رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ضيفَه، فلما أتيتُ اليهوديَّ أريتُه الدّرع فقلتُ: يا فلان، هذا درعُ فاطمةَ بنتِ محمد بعثتْ به إليكَ لتُعوِّضَها منه آصُعاً لضيفِ رسول الله وإن آلَ عليّ لَطوايا، قال اليهوديّ: هذا الزُّهدُ والإيثار، والله ما زَهِد مثلَ هذا الزُّهد إلّا نبيّ، أُشهدُكَ أنّي أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله وأنّ محمداً رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، ارددْ يا سلمانُ إلى بنتِ رسول الله درعَها، ثم بَعَث إليها من التمر والزّرع ما فيه بلاغٌ للأعرابيِّ فجئتُ به إليها، فبعثَتْهُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تأخُذْ منهُ شيئاً، ثم رفعتْ يدَيْها إلى السماءِ فقالت: اللهُمّ اسدُدْ فاقةَ الحسَنِ والحُسين ممّا لا منّةَ فيه لأحدٍ سواك، فما استتمَّتْ كلامَها حتى وُضِعتْ بين يديْها مائدةٌ من ثَريد فبعثتْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء ومعَه عليٌّ رضي الله عنه، فلمّا دَخَلا

وَجَدا رائحةَ المائدة، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "يا فاطمة، من أينَ لكِ هذا؟ قالت: {هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [آل عمران: ٣٧]، قال: "الحمدُ لله الذي لم يُمتْني حتى أراني في أُمّتي مثلَ مريمَ بنتِ عِمران"، فأكلوا منَ المائدةِ وأطعموا من شاءوا وهي بحالِها لم تُقضَ ولم تنقُصْ، فأكلوا منها يومَهم ذلك، فلمّا كان الليلُ رُفعت.

ومن ذلك: ما رواه الثعلبيُّ في "الإرشاد"(١)، أنّ بعضَ إخوانِه الصّائمينَ حدَّثه أنه كان في جماعةٍ من الأصحاب، إذْ وُصف لهم مسجدٌ بالصَّعيد بقُرب أُسْوان، وأنّ الأولياءَ يجتمعونَ فيه، قال: فسافرتُ معَ صاحبٍ لي حتى وصَلْنا الموضعَ، فوجدنا مسجداً صغيراً، وعندَ باب المسجد خابيةٌ فيها ماء، فأقمنا فيه، وعندّ كلِّ واحد منّا زادُه، وأُخبِرنا أنّ لُبثَنا في الموضع أكثرَ ما يكونُ أربعونَ يوماً، وأُوصِينا بالصّمت، وأنْ لا نُكلِّمَ أحداً ممن نراهُ منَ الأولياء، فرأينا في اليوم الأولِ رجُلاً ثم في الثاني رجُليْنِ ثم في الثالثِ ثلاثةً، ثم كذلك، وأنهم يروْنَهم في حال طيَرانِهم، فمرِض صاحبي فمرّضتُه في بيتٍ بإزاءِ المسجد، قال: واستغرقتُ في العبادة داخلَ المسجد، فأكثرتُ من تلاوة القرآن، وكنتُ كلّما أردتُ الطُّهرَ

---

(١) لعله: الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٥هـ): الإمام المفسر الفقيه دفين الجزائر، وكان عموم الناس يعتقدونه. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي ٤/ ١٥٢، ومسامرات الظريف بحسن التعريف، لمحمد عثمان السنوسي، ص ٢٢٠، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمخلوف ١/ ٣٨٢. وله كتاب بعنوان: "الإرشاد في مصالح العباد"، كما في الأعلام للزركلي ٣/ ٣٣١ وغيره.

وجدتُ الخابيةَ ملأى[1] بالماء، قال: فمات صاحبي وما شعرتُ بموتِه، فلمّا خرجتُ بالليل وجدتُ قبرَه وثوبَهُ ملقًى على البيت، فعلمتُ أنّ الأولياءَ تولَّوْا تجهيزَه والصلاةَ عليه، فكنتُ كلَّ يوم أرى زيادةَ رجُل حتى كمُل عددُهم أربعينَ، وأرى المسجدَ يتَّسعُ، وكنتُ أُصلّي خلفَهم في آخرِ المسجد، وكانوا يجتمعونَ في صلاة الصُّبح وصلاة العصر، وكان إمامُهم يقرأُ في الصُّبح بقراءة قالونَ، ويَقنُتُ بقولِه: اللهُمّ اهدِنا فيمن هديتَ وعافِنا فيمن عافيتَ وتولَّنا فيمن تولَّيْت، فاكفِنا شرَّ ما قضيتَ، فإنك تقضي ولا يُقضَى عليك، وإنه لا يذِلُّ من واليْت، ولا يعِزُّ من عاديْت، تباركتَ ربَّنا وتعاليْت. وكان أحدُهم إذا خرج من المسجدِ يثبُ كالنَّسر ثم يعلو، فلمّا أتممْتُ أربعين يوماً صلّى بنا إمامُهم صلاةَ الصُّبح، فخرجوا، وبقيَ الإمامُ والخَديم، فجاءني الخديمُ وأجلَسَني بينَ يدَي الشّيخ، فأوصاني بوصيّةٍ ثم صَرَفني.

ومن ذلك: ما رُوي عن الأنطاكيّ، قال: وُصِف لي أنّ ببابِ الأبواب ثلاثةَ نفرٍ من الأبدالِ من العشَرة، فقصدتُهم وسألتُ عنهم، وإذا واحدٌ منهم هو إمامُ الجامع، فرأيتُ عليه بِزّةً حسَنةً وثياباً ناعمةً، وإذا له نعمةٌ كثيرةٌ يديرُها، وكان اسمُه إبراهيمَ واسما صاحبيْه: الحَسنَ والحُسين، فأتيتُ إبراهيمَ فقلتُ له: أنا ضيفُك، ففرِح بي ورحَّب، فلمّا صلَّيتُ العشاءَ الأخيرةَ أخَذ بيدي ومضَيْنا إلى

---

(١) كذا.

منزلِه، وإذا له قصرٌ عظيم وحاشيةٌ كثيرة، فقدَّم إلينا مائدةً كبيرةً فيها طعامٌ كثير، فجلسَ معَ الحَسن والحُسين ولم يجلسْ معَنا، فأكلنا، وسألتُهما عنه فقالا: إنه لا يأكلُ إلّا اللبن، فلمّا كان وقتُ النوم فُرش له فراشٌ كبيرٌ فنام عليه، ولم أزلْ أُراقبُه، فلمّا كان وهْنٌ من الليل، تعارَّ فصلَّى ركعتيْن ولم يتوضَّ، قرأ في إحداهُما بالفاتحة والكافرون، وفي الثانية الفاتحةَ والإخلاص، فسلَّم وقال: لا إلهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له، لهُ المُلكُ ولهُ الحمد، وهُو حيٌّ لا يموت، بيدِه الخيرُ وهُو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، اللهُمَّ لا مانعَ لِما أعطيْتَ، ولا مُعطيَ لِما منعْتَ، ولا رادَّ لِما قضَيْتَ، ولا ينفَعُ ذا الجَدِّ منكَ الجَدُّ، قالها ثلاثاً رافعاً بها صوتَه، ثم صلَّى ركعتيْنِ قرأ في الأُولى بالفاتحة و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}، وفي الثانية بالفاتحةِ وآيةِ الكُرسيِّ ثلاثَ مرّات، ثم رَجع إلى فراشِه، فلمّا أصبح قال: فأذَّن وصلَّى ركعتي الفجرِ من غيرِ أن يُجدِّدَ وضوءًا وكأنه ما نام، وخرجَ إلى صلاة الفرضِ. فأقمتُ عندَهم شهراً على هذا الحال، فلمّا كان يومُ عَرَفةَ قال لي: اقرأِ اليومَ سورةَ الأنبياء والحجّ، فإذا مررتَ بذكر نبيّ منَ الأنبياءِ فصلِّ عليه وعلى نبيِّنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فإنك إذا فعلتَ ذلك أعطاك اللهُ ثوابَ مَن حجَّ إلى بيتِ الله الحرام. فلمّا ارتفع النهارُ أتاني الحَسنُ فأخَذ بيدي من المسجدِ فأدخَلني الدار، فإذا القومُ قد أحرَموا، فدَفَع لي إزاريْنِ وقال لي: انْوِ الحجَّ، فأحرمتُ بحَجّة، فخرجوا من الدار وقد حَملوا معَهم سطلاً صغيراً مملوءاً دراهمَ صِحاحاً، فلمّا توسَّطْنا المقابرَ صلَّينا ركعتيْنِ وقالوا لي: انْوِ الحجَّ، ثم لبَّوْا فلبَّيْتُ وسَجدوا فسجدتُ معَهم، فلمّا كان بعدَ ساعةٍ رَفعوا

رءوسَهم ورفعتُ معَهم، فرأيتُ جبالاً أعرفُها، ورأيتُ جمالاً وأُناساً سائرينَ، فقال لي إبراهيم: هؤلاءِ خرجوا من منًى يريدونَ عرفاتٍ، ثم أخَذوا بيدي فصِرنا حتى وافيْنا مسجدَ عرفات، فاشترَوْا ماءً واغتسلوا واغتسلتُ معَهم واشترَوْا خبزاً وتمراً، فقال لي إبراهيم: كلْ، فقلتُ له: إنّي صائم، فقال: لا تخالفْ نبيَّك عليه السلام، فإنه ما رخَّص في صوم عرفةَ للحُجّاج وقد أفطرَ في هذا اليوم، فلمّا فرغْنا منَ الحجّ دَفع إليّ السّطلَ الذي فيه الدراهمُ وقال: أنفقْها في حوائجِك واستعنْ بها على أمورِك، وعليك بالشام. فافترقْنا فلم أرَهم بعدَ ذلك.

ومن شهداءِ المحبّةِ من يُصيِّرُه الحبُّ ماءً[1]، فمنهم من يرجعُه بتجلّي الرحمة لينتفعَ به العالَم، كسيدي أحمدَ الرِّفاعيّ[2]، ومنهم من يُبقيهِ في حضرةِ قُدُسِه ومقعدِ صدقِه، تعلو همّتُه عن عالم جنسِه، كالشّيخ الخُراسانيّ[3]، قال الغضائريُّ[1] في

---

(١) أي: يذوب فيصير ماء كما يأتي.

(٢) أحمد بن علي بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة الرفاعيّ الحسيني المغربي، أبو العباس، قدس الله روحه (ت٥٧٨هـ): الإمام الزاهد الكبير، وسلطان العارفين فِي زمانه، ومؤسس الطريقة الرفاعية. تاريخ واسط، لبحشل، ص ٢٦٥، وتاريخ الإسلام ١٢/ ٦٠٥ وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٧٧، و طبقات الأولياء، لابن الملقن، ص ٩٣- وساق نسبه إلى الإمام جعفر الصادق- والأعلام للزركلي ١/ ١٧٤، وغيرها.

(٣) الذي يسوق الآن خبره مع سري السقطي.

"المورِدِ العذْب": دخلتُ يوماً على سَرِيّ السَّقَطيّ وعندَه رجلٌ خُراسانيّ، فدَفع لي سَرِيٌّ قطعةً وأمَرَني أن أشتريَ بها شيئاً، فذهبتُ ثم عُدتُّن فلم أجِدِ الخُراسانيّ، فقلتُ لسَريّ: ما فعل الخُراسانيّ؟ فقال: سألني عن مسألةٍ من المحبّة فأجبتُه عنها فذابَ وصار ماءً كما ترى، قال: فجمعنا ذلك الماءَ وجعلناهُ في جرّةٍ ودفنّاهُ في البيت تبرُّكاً به رضي اللهُ عنه.

وكان سَرِيٌّ رضي اللهُ عنه إذا شغَلَهُ أحدٌ عن عبادة ربِّه يقول: اللهُمَّ من شَغَلني عنكَ فاشغَلْه بك، فما دعا على أحدٍ بهذا الدعاءِ إلّا أصلحَ اللهُ حالَه وجَعل شغلَه عبادتَه.

ورُوِي عن أبي سُليمانَ الدَّوَاتيِّ أنه قال: كنتُ راكباً على حمار فضربتُه بغير حاجة، فرَفَع إليّ [رأسَه][٢] فقال: هو القِصاصُ يا أبا سُليمان؟ فقلِّلْ إن شئتَ أو كثِّرْ.

ومنهم من يَخفى أمرُه، فإذا عُثر عليه سأل اللهَ تعالى قبْضَ رُوحِه، فيقبضُه في الحين. قال القرطبيُّ في "التذكرة"[٣]: قال عبدُ الله بنُ نُوح: رأيتُ كهلاً بمسجدِ

---

(١) علي بن عبد الحميد بن عبد الله بن سليمان الغضائري الحلبي، أبو الحسن (ت٣١٣هـ). تاريخ مدينة السلام ١٣/ ٤٨٠، وسير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني، ص ١١٤١، وتاريخ الإسلام ٧/ ٢٦٧.

(٢) إضافة لازمة أخلت بها النسخة.

(٣) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي، ص ٢٠٧.

النبيِّ صلى الله عليه وسلم وشَغَله نفضُ التّرابِ عن جُدرانِه، فسألتُ عنه فقيل لي: إنه من وَلَد عثمانَ بن عفّانَ رضي اللهُ عنه وإنّ له أولاداً وموالِيَ ونعمةً موفورةً، وإنه اطَّلع يوماً في المرآة فصَرخ وجُنَّ ولَزِم المسجدَ كما ترى، وإذا أراد أهلُه أخْذَه ليُداووهُ عاذ بالقبرِ الشريفِ فتركوه، قال: فراقبتُهُ نهاراً فلم أرَ منه اختلالاً في عقلِه وراقبتُه ليلاً، فلمّا ذهبَ جُنحُ الليل خرجَ من المسجدِ فاتَّبعتُهُ حتى أتى البقيع فقام يُصلِّي ويبكي حتى قُربِ طلوع الفجر فجلسَ يدعو، فجاءت إليه دابّةٌ لا أدري أشاةٌ هي أم ظَبْيةٌ أم غيرُهما فقامتْ عندَه وتفاجَّتْ فالتقَم ضَرعَها وشربَ ثم مَسَح ضرعَها وقال لها: اذهبي بارك اللهُ فيكِ، فولَّت تمرُج، وانسللتُ فسبقتُه إلى المسجدِ فأقمتُ لياليَ أخرُج بخروجِه إلى البقيع ولا يشعرُ بي، فسمعتُه يقولُ في مُناجاتِه: اللهُمَّ إنك أرسلتَ إليّ ولم تأذَنْ لي، فإنْ كنتَ رضيتَني فأْذنْ لي وإن لم ترضَني فوفِّقْني بما يُرضيكَ عنّي، فلمّا جاء وقتُ رحيلي أتيتُهُ مودِّعاً فتجهَّمني، فقلتُ له: أنا صاحبُكَ منذُ ثلاثِ ليالٍ بالبقيع اتّبعتُك أصلّي بصلاتِك وأؤمِّنُ على دُعائك، فقال: هل أطلعتَ على ذلك أحدًا؟ قال: قلت: لا، قال: انصرفْ يا هذا، قلتُ: ما الرسولُ الذي أُرسل إليك؟ قال: اطَّلعتُ في المرآةِ فرأيتُ شيْبةً في وَجْهي، فعلمتُ أنها رسُولُ الله إليّ، فقلتُ: ادعُ لي، فقال: ما أنا بأهلٍ لذلك ولكنْ تعالَ نتوسَّلْ إلى الله برسُولِه، فقمتُ معَه تُجاه قبرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقال: ما حاجتُك؟ قلتُ: العفو، فدعا دعاءً خفيفاً فأمَّنتُ على دعائه، ثم

مال على جدار القبر فإذا هو ميّت، فتنحَّيتُ عنه حتى تفطَّن له الناس، وجاء أولادُه ومَواليهِ فاحتملوهُ وجهَّزوه وصلَّيتُ عليه فيمَن صلَّى.

ومنهم مَن إذا فَطِنَ الناسُ له انْخنَس، قال ابنُ عبّاد: قال لي بعضُ السادات: خرَجْنا من مدينة رسُول الله صلى الله عليه وسلم، فلمّا كنّا بالزّاوية نزلتُ فوقفَ بنا رجلٌ عليه ثيابٌ رَثّةٌ وله منظرٌ وهيئةٌ ومروءة، فقال: مَن يبغي خادماً، من يبغي ساقياً؟ فقلتُ: دونكَن خُذِ القِربة، فأخذها وانطلق، فلم يلبثْ إلّا يسيراً حتى أقبَلَ وقدِ امتلأتْ ثيابُه طيناً وأثَّرتِ العِصَمُ في كتفيْه، فوضعَها وهو كالمسرور الضاحك، قال: ألكُم غيرُها؟ قلتُ: لا، وأطعمناهُ قُرصاً بارداً فأخَذَه وحَمِد اللهَ سبحانه وشكرهُ شكراً كثيراً، ثم اعتزل وجَعل يأكلُه أكلَ جائع، فأدركتْني عليه شفقة، فقمتُ إليه بطعام طيِّب كان معنا فأكثرتُ له وقلتُ له: قد علمتُ أنه لم يقعْ منك الغرضُ بموقع، فدونَكَ هذا الطعامَ، فنظر في وجهي وتبسَّم وقال: يا عبدَ الله، إنّما هي فَوْرةُ جُوع فما أبالي بأيِّ شيءٍ رددتُها عنّي، فرجعتُ عنه، فقال لي رجلٌ إلى جنبي: أتعرفُه؟ قلتُ: لا، قال: إنه رجلٌ من بني هاشم ثم مِن وَلَدِ العبّاس ثم وَلَد سُليمان بن أبي جعفرٍ المنصور، كان يسكنُ البصرةَ فتابَ فخَرج منها فقعدَ فما عُرف له موضع، قال: فأعجبني قولُه، ثم تجمَّعتُ به وآنستُه وقلتُ له: يا فتى، أنا رجلٌ من إخوانِك، وقد بَلَغَني موضعُك، فأحببتُ الاتصالَ بك، فهل لكَ أن تُعادلَني، فإنّ معي فضلاً من رحالتي، فجزاني خيراً وقال لي: لو أردتُ هذا لكان لي مُعَدًّا، ثم أَنِس بي فجَعل يُحدّثُني، فقال: أنا رجلٌ من ولدِ

العبّاس كنتُ أسكنُ البصرةَ وكنتُ ذا كِبْر شديد وتجبُّر وبَذْخ، وإنّي أمَرتُ خادماً لي أن تحشوَ لي فراشاً من حرير ومِخَدّة بوردشير، فبينما أنا نائمٌ إذا بقُمع وردِ قد أغفلتْه الخادم، فقمتُ إليها فأوجعتُها ضرباً ثم عدتُ إلى مضجَعي بعدَ إخراج القُمع من المِخدّة، فأتاني آتٍ في منامي في صورة فظيعة فهزَّني وقال: أَفِقْ من غَشْيتِك وأبصرْ من حيرتِك، ثم أنشأ يقول:

يا خدُّ إنك إنْ تُوسَّدْ ليِّنًا   ووُسِدتَ بعد الموتِ صُمَّ الجندلِ
فامهَدْ لنفسِكَ صالحاً تسعدْ بهِ   فستندمَنَّ غداً إذا لم تفعلِ

فانتبهتُ فزِعاً فخرجتُ من ساعتي أُهاذي هارباً، فهذا خبري. قال الراوي: فلمّا قضى حديثَه انخنسَ عنّي ومضى، فطلبتُه في الرَّكب كلِّه فلم أرَ له أثراً ولم أقعْ منه على خبر.

فانظرْ إلى هذه الهمّةِ العالية والعزيمةِ الصّادقةِ التي تَرَكتْ مُلكَ الدّنيا بعدَ القُدرة عليه والتمكُّن منهُ لواردٍ واحد، فصار يَحمِلُ القِربةَ على ظهرِه لسدِّ رَمَقِه وليتقوَّى على عبادة ربِّه.

وأقوى منه عزيمةُ ابن الرَّشيد(١)، فإنه فارقَ أمَّهُ وأباهُ في صباهُ لمّا دعا ربُّه فلبّاه. قال بعضُ السادات: كنتُ أسكُنُ بغداد، وكانت لي بها دُوَيْرةٌ، فاحتجْتُ إلى بناءِ حائطٍ سَقَط منها، فخرجتُ إلى موقفِ البنّاءينَ ألتمسُ رجلاً يعملُ لي فيه،

(١) يريد ابنًا لهارون الرشيد الخليفة، كما يسرد آتيًا.

قال: فوقعتْ عيني على شابّ نحيفٍ ذي وجهٍ نظيف، فجئتُ إليه وقلتُ له: يا حبيبي، أتريدُ الخدمة؟ قال: نعم، قلتُ له: قُمْ معي، قال: على شروط، قلت: ما هي؟ قال: على أن تكونَ الأجرةُ درهماً ودانُقاً، قلتُ: نعم، قال: وإذا أذَّن المؤذِّنُ تترُكُني حتى أُصلّي معَ الجماعة، قلتُ: نعم. قال: فأتيتُ به إلى منزلي فعمل عملاً لم أرَ مثلَه، فذكرتُ له الغداءَ قال: لا، فعلمتُ أنه صائم، فلمّا سَمعَ الأذانَ قال: الشرط، قلتُ: نعم، قال: فحَلَّ مِنطقتَه وتفرَّغ للوضوءِ وتوضَّأ وضوءاً ما رأيتُ أحسنَ منه ثم خَرج إلى الصّلاة فصلَّى معَ الجماعة، ثم عاد إلى عملِه، حتى سَمع المؤذِّنَ من العصر، قال: الشرط، فخرج إلى الصّلاة فصلَّى معَ الجماعةِ ثم رَجَع إلى عملِه، فقلت: حبيبي، إنّما كان عملُ البناءين إلى العصر، فقال: سبحانَ الله! إنّما كانت خدمتي إلى الليل، قال: فعمل إلى المغربِ فأعطيتُهُ درهمَيْن، فلمّا رآهما قال لي: ما هذا؟ قلتُ: والله ما هو بعضُ أجرتِكَ لاجتهادِك في عملِك، فرماهُما إليّ وقال: لا أزيدُ على ما كان بيني وبينَك شيئاً، فرغَّبتُه فلم أقدرْ عليه، فأعطيتُه درهماً ودانُقاً وسار، فلمّا كان منَ الغدِ بكَّرتُ إلى الموقفِ فلم أجدْهُ، فسألتُ عنه فقيل لي: إنه لا يأتي إلّا من يوم السبتِ إلى يوم السبت، قال: فتعلَّق به قلبي فقلتُ: لا أعملُ شيئاً إلى يوم السبت، فلما كان السبتُ أتيتُهُ فوجدتُه فقلت: بسم الله، قال لي: على الشَّرطِ الذي تقدَّم، قلت: نعم، قال: فحملتُه إلى المنزلِ فعملَ يومَه ذلك وزادَ فيه على ما تقدَّم، فلمّا كان السبتُ الثالثُ جئتُ إلى الموضع فسألتُ عنه فقيل لي: هو مريضٌ بخيمةِ فلانة، وكانت عجوزاً معروفةً بالصّلاح، فسِرتُ إلى الخيمة

فدخلتُ عليه، فإذا هو مضطجعٌ على الأرض وليس تحتَه شيءٌ وقد توسَّد صخرةً ووجهُه يبدو تهلُّلاً، فسلَّمتُ عليه فردَّ عليّ، فقعدتُ عندَ رأسِه أبكي لغُربتِه وصِغَر سِنِّه، ثم قلتُ: ألك حاجة؟ قال: نعم، قلت: وما هي؟ قال: إذا كان الضُّحى منَ الغد فأتِني، فإنك تجدُني ميّتاً، فاغسِلْني واحفِرْ قبري ولُفَّني في هذه الجُبّة ولا تُعلمْ بي أحداً منَ الناسن وافتُقْ جيبَها وأخرِجْ ما فيهِ وأمسِكْهُ عندَك، فإذا صلَّيتَ عليَّ وواريتَني فاذهبْ إلى هارونَ الرَّشيد وادفعْ إليه ما تجدُه في الجيْبِ واقرَأْ عليه منّي السلام:

أبلغْ سلاماً ممّن حانتْ منيّتُهُ ... إلى الرشيدِ فإنّ الأجرَ في ذاكا
وقلْ غريبٌ له شوقٌ لرؤيتكمْ ... على تمادي النَّوى والبعدِ إياكا
ما صدَّهُ عنكَ لا كُرهٌ ولا مللٌ ... لأنّ قُربتَه في لَثْم يُمناكا
وإنما بعَّدتْني منكَ يا أبتي ... نفسٌ لها عفّةٌ عن ليل دنياكا
إن فاتني الجمعُ في دار الدُّنى بكمُ ... فإننا نلتقي في يـوم أُخـراكا

قال: فلمّا أصبحتُ ذهبتُ إلى الخيمةِ وقدِ امتدَّ الضُّحى، فوجدتُه قد مات رحمةُ الله عليه، فحفرتُ قبرَهُ بيدي وغسَّلتُه وفتَّقتُ جيبَه، فإذا فيه ياقوتةٌ تساوي ألفَ دينار، فقلت: لقد زهدَ هذا في الدُّنيا، قال: فدفنتُه. فصرتُ أرتقبُ خروجَ الرَّشيد، فلمّا خرجَ تعرَّضتُ له فدفعتُ إليه الياقوتةَ، فلمّا رآها خَرّ صَعِقاً فاحتوشتْني الأعوانُ والخَدَمة، فلمّا أفاق قال: خَلُّوا عنه فخَلُّوا سبيلي، فقال بعدَما احتملني إلى القصرِ وأدخلني بيتَه: يا أخي، ما فعلَ اللهُ بصاحبِ هذه الياقوتة؟

قلت: إنه قد مات، فوصفتُ له حالَهُ، فجعلَ الرَّشيدُ يبكي ويَصيحُ: انتفعَ الولدُ وخاب الوالد، ثم نادى: يا فلانةُ، فخَرجتِ امرأةٌ، فلمّا رأتْني أرادتْ أن ترجِعَ فقال لها: لا عليكِ منهُ، فسلَّمتْ ودخلتْ، ورمَى إليها الياقوتةَ فصاحتْ صيْحةً وغُشي عليها، فقالت: يا أميرَ المؤمنين، ما فعلَ ولدي؟ فقال لي: صفْ لها حالَهن فوصفْتُ لها قصّتَه، فجَعلَتْ تبكي وتَصيحُ: ما أشوقَني إلى لقائك يا قُرّةَ عيني، ليتَني كنتُ أسقيكَ إذا لم تجدْ ساقياً وأونسُكَ إذا لم تجدْ مؤْنساً، فجعلتْ تقولُ:

أبكي غريباً أتاهُ الموتُ منفردا   لم يلقَ إلفاً لهُ يشكي الذي وَجَدا
من بعدِ عزٍّ وأُنْسٍ كان مجتمعاً   أمسى فريداً وحيداً لا يَرى أحدا
يا غائباً قد قضى مولايَ فُرقتَهُ   فصار منّي بعيدَ القُربِ مُبتعدا
يبني إلى الناس ما الأيامُ تُخلقُهُ   والربُّ يبني الذي يبقى لهُ أبدا
إنْ أيأسَ الموتُ من لُقياكَ يا ولدي   فإننا نلتقي يومَ الحسابِ غدا

قال أميرُ المؤمنين: يا أخي، هذا ولدي، وكان معي قبلَ ولايتي على هذا الأمر يزورُ العلماءَ ويُجالسُ الصّالحين، فلمّا وَلِيتُ هذا الأمرَ نَفَر منّي وباعَدَ نفسَه عنّي فقلتُ لأُمِّه: هذا ولدٌ مُنقطعٌ إلى الله تعالى لا بدَّ أن تصيبَهُ الشدائدُ ومُكابدةُ المِحَن، فادفعي إليه الياقوتةَ ليجدَها وقتَ احتياجِه إليها، فدفعتْها إليه، فعزَمتُ عليهِ أن يُمسكَها، فغاب عنّا خبرُه وفقدناهُ إلى أنْ رَمَى إلينا دُنيانا ولقي اللهَ جلّ وعزّ نقيّاً تقيّاً، ثم يا أخي، أرِني قبرَهُ، فخرجتُ معه إليه، فبكى بكاءً طويلاً عندَ

قبرِه وترحَّم عليه وسألني الصُّحبة، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، إنّ في ولدِك عظةً وعبرة.

ومن ذلك: ما رُوي عن مالكِ بن دينارٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: احتبَسَ عنّا المطرُ بالبصرة، فخرجنا نستسقي مراراً فلم نَرَ أثراً لإجابةِ طِلبتِنا، فخرجتُ أنا وعطاءٌ السُّلميُّ وثابتٌ البُنانيُّ ويحيى البَكّائيُّ ومحمدُ بنُ واسِع وأبو محمدٍ السَّختِيانيُّ وحبيبٌ الفارسيُّ وحسّانُ بن أبي شنان وعُتبةُ الغُلامُ وصالحٌ المُرّيُّ حتّى وصلنا للمُصلَّى وخرج الصِّبيانُ من المكاتب، فلم نجدْ أثراً لإجابة، فلمّا انتصفَ النهارُ انصرف الناسُ وبقيتُ أنا وثابتٌ البُنانيُّ في المصلَّى، فلمّا أظلم الليلُ إذا أنا بأسودَ مليح الوجه رقيقِ الساقيْن عظيم البطنِ عليه مئزرُ صُوفٍ قوَّمتُ جميعَ ما عليه بدرهميْن، فجاء بماءٍ فتوضَّأ ثم أتَى المحرابَ فصلَّى ركعتيْنِ خفيفتيْنِ كان قيامُه وركوعُه وسجودُهُ سواءً، ثم رَفَع طرْفَهُ إلى السماء فقال: إلهي وسيّدي، إلى كم ترُدُّ عبادَك فيما لا ينقصُك، أنفِدَ ما عندَك أم فنِيتْ خزائنُ مُلكِك؟ أقسمتُ عليكَ بحبِّك لي إلّا ما سقيَتنا غيثَكَ الساعةَ، فما أتمَّ كلامَهُ حتى تغيَّمتِ السماءُ فمُطرْنا مطراً كأفواه القِرَب، ولم نخرجْ من المُصلَّى إلّا ونحن نخوضُ في المياه إلى الرُّكَب، وبقينا نتعجَّبُ من الأسود. قال مالكٌ: فتعرَّضتُ فقلتُ له: يا أسود، أما تستحيي منَ الله؟ قال: بماذا؟ قلتُ: بقولِك: بحبِّك لي، وما يُدريك أنه يحبُّك؟ قال: تنحَّ عنّي يا من شُغل عن الله بنفسِه، فأين كنتُ أنا حين خصَّني بالتوحيد؟ أفتراهُ بَدَأني بذلك إلّا لمحبّتِه إيّاي؟ ثم قال: محبّتُه فيّ على قدْرِهِ ومحبّتي لهُ على قدْرِهِ،

فقلتُ: رحِمك الله، قفْ قليلاً، فقال: إنّي مملوكٌ وعليّ فرضٌ من طاعةِ مولايَ الصَّغير. قال: فجعلنا نقفو أثرَه على البُعد حتّى دَخل ديارَ النخّاسين، وقد مضى نصفُ الليل، فطال علينا النصفُ الثاني، فلمّا أصبحنا أتيْنا النخّاسَ فقلتُ له: أعندَكَ غلامٌ تبيعُه منّا للخدمة؟ فقال: نعم ومئةُ غلام كلُّهم للبيع، وجَعل يَعرضُهم علينا غُلاماً بعد غُلام، حتى عرضَ علينا سبعينَ غلاماً ولم أرَ صاحبي بينَهم، فقال: ما عندي غيرُ هؤلاء، فلمّا أردنا الخروجَ دخلْنا حُجرةً خَرِبةً فإذا به فيها، فقلتُ له: بِعْنا هذا الغلامَ، قال: ذلك غُلامٌ مشؤومٌ ليستْ له بالليل همّةٌ إلّا البكاء، ولا بالنهار إلّا الصَّلاةُ والنوم، فقلتُ: لا أريدُ غيرَه، فدعاه فجاء وهو يتناعسُ، فقال لي: خُذْه بما شئتَ، بعدَ أنْ تبرّأ لي من عيوبه، فاشتريتُه، فالتفتَ إليّ فقال: يا مولايَ الصَّغير، لمَ اشتريتَني؟ فأنا لا أصلحُ لخدمة المخلوقين، فقلتُ له: ما اسمُك؟ قال: ميمون، فأخذتُ بيدِه وقلتُ له: إنما اشتريتُك لأخدُمَك بنفسي وعلى رأسي، قال: ولمَ ذلك؟ فقلتُ: ألستَ صاحبَنا البارحةَ بالمُصلّى؟ قال: أوَ قدِ اطَّلعتَ عليّ؟ فقلت: أنا الذي اعترضتُك البارحةَ في الكلام، قال: فجعل يمشي حتى أتى مسجداً وصَلّى فيه ركعتيْنِ ثم قال: إلهي وسيّدي ومولاي، سرٌّ كان بيني وبينَك أطلعتَ عليه المخلوقين وفضحتَني فيه بينَ العالَمِ، فكيف يطيبُ الآنَ عيشي وقد وَقَف على ما كان بيني وبينَك غيرُك؟ أقسمتُ عليكَ إلّا ما قبضتَ رُوحي الساعةَ الساعة، ثم سَجد فانتظرتُه يرفعُ رأسَه ساعةً، فحرَّكتُه فإذا هو قد مات، فمددتُ يديْهِ ورِجليْه فإذا هو يبتسمُ وقد غلبَ البياضُ على السواد، وإذا وجهُه

كالقمر ليلةَ البدر، فبينما أنا في شأنه إذا بشابٍّ قد أقبلَ فقال: السلامُ عليكم، عظَّم اللهُ أجرَك في أخينا ميمون، هاكُمُ الكفنَ فكفِّنوه، فناولني ثوبيْنِ ما رأيتُ مثلَهما فكفَّنّاهُ فيهما. قال مالكٌ: فبقبرِه إلى الآنَ نستسقي ونطلبُ الحوائجَ من الله تعالى.

ومن شُهداءِ المحبّة مَن لا يموتُ إنّما يتوفّاهُ الحقُّ فيُنقلُ من دارٍ إلى دار، كما قال اللهُ تعالى في حقِّ عيسى عليه السلامُ: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: ٥٥]، وقال في آيةٍ أخرى مُكذِّباً لليهود لمّا قالوا: إنّا قتلنا المسيحَ عيسى ابنَ مريم، قال: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء: ١٥٧]، قال الشيخُ عبدُ الحقّ وغيرُه: يروى عن عُمرَ بن عثمانَ بن شُعبةَ، قال: رأيتُ في الليالي في المنام كأنّ قائلاً يقولُ لي: إذا كان غدٌ فأتِ مُصلَّى خَوْلانَ تُصلِّي على وَليٍّ لنا، قال: فخرجتُ قبلَ طلوع الفجر مخافةَ أن يفوتَني ولم يُؤتَ بميّتٍ إلى ذلك المُصلَّى، قال: فانصرفتُ، فبينما أنا بينَ تلك الآكام إذا بميّتٍ على رأس حمّال عليه عباءةٌ، فقال الحمّالُ لي: يا هذا، إنّ هذا الميّتَ غريبٌ فهل لك أن تُصلِّيَ عليه؟ فقلتُ في نفسي: أنا منذُ اليوم جالسٌ من أجلِه، قال: فصلَّيتُ عليه، ثم قال الحمّالُ: ادخُلْ معي حتى نُواريَه، فدخلتُ في قبرِه فصَوَّبَهُ عليَّ فأضجعتُه فحللتُ العُقدةَ عن وجهِه، فالتفت الميّتُ إليّ مبتسماً فقال: سوف أشكرُكَ عندَه غداً يا عمر. ثم عاد كما كان.

وعن أبي عليٍّ الرُّوذْباريِّ رضي الله عنه، قال: قَدِم علينا فقيرٌ فمات، فجئتُ فدفنتُه، فكشفتُ عن خدِّه فجعلتُه على التّراب ليرحمَ اللهُ غُربتَه، ففتحَ عينيْه

وقال: يا أبا عليّ، تُذلِّلُني بين يديْ من يُذلِّلُني؟ فقلتُ: يا سيّدي، أحياةٌ بعدَ موت؟ قال: بلى، أنا مُحبٌّ لله، وكلُّ مُحبّ لله فهو حيّ، وإنما يُنقَلونَ من دارٍ إلى دار، يا رُوذْباري، لأنصُرنَّك غداً بجاهي.

وقال أبو سعيدٍ الخَرّاز: كنّا بمكّة، فمرزْنا ببابِ بني شيْبةَ، فرأيتُ به شابّاً حسنَ الوجه ميّتاً، فنظرتُ في وجهِه فتبسَّم في وجهي وقال لي: يا أبا سعيد، ما علمتَ أنّ الأحياءَ أحياءٌ وإنْ ماتوا، وإنما يُنقلونَ من دارٍ إلى دار؟

ومن المُحبِّين: سيدي أبو بكر التنوجي، وكان من تلاميذ جدِّنا سيدي عُمر الشيخ ابن سيدي أحمدَ البكّاء، بل من مُريديه، حتى بَلغ مبلغَ الرجال، وكان من أكابرِ الأولياءِ له كراماتٌ جمّة، من جُملتِها طيُّ الأرض، وكان لا تُغلقُ الأبوابُ دونَه، وربّما فُتح الحائطُ بين يديْهِ حتى يمُرَّ ثم يرجِعُ كما كان. قال صاحبُ "التشوُّف": حدّثني الثقةُ أنّ أبا بكر التنوجيَّ بات بمسجدِ صُنهاجةَ[١] وأصبح ميّتاً فيه، فأخَذوا في تجهيزِه، فرُفع من بينِهم فضَجُّوا وبكَوْا ثم قالوا: لو أراد اللهُ بنا خيراً لتولَّينا تجهيزَ ذلك العبدِ الصالح، وكان ضريحُه بينَ ظَهرانينا.

قال الجوزيُّ: ومنهم: أحمدُ بن نَصْر الخُزاعيُّ[٢] رضي اللهُ عنه، كان من أكابرِ العلماء ومشاهيرِ الأولياء، ومنَ الآمرينَ بالمعروف، أخَذ الحديثَ عن مالك بن

---

(١) بضم الصاد، وجائز كسرها: قوم بالمغرب من ولد صنهاجة الحميري،. تاج العروس (صهج)

(٢) من أكبر شهداء المحنة وضحاياها، قتله الواثق بالله بيده سنة ٢١٣هـ.

أنس وحمّاد بن زيد وهُشَيم وغيرِهم، امتحنه الواثقُ في القرآن فأبى عن القولِ بخلقِه فقَتَلَهُ سنةَ إحدى وثلاثين ومئة بسُرَّ مَن رأى وصُلب جسدُه هناك وأُنفذ رأسُه إلى بغداد.

وعن أحمدَ بن حَنْبلٍ أنه قال: رحم اللهُ أحمدَ بن نصْرٍ ما كان أسخاهُ، جاد بنفسِه في مرضاةِ الله.

وعن إبراهيمَ بن إسماعيلَ بن خَلَف، أنّ رأسَه [كان][1] يقرأُ القرآنَ بعدَ ما قُطع، فمضيْتُ إليه، فبتُّ بقُربٍ من الرأس مُشرفاً عليه، وكان عندَه حُرّاس، فلمّا نامتِ العيونُ وهَدَأتِ الأصوات، سمعتُ الرأسَ يقرأُ {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت: ١- ٢] فاقشعرَّ جلدي وأدركتْني هيْبةٌ شديدة، ثم رأيتُه بعدَ ذلك في النوم وعليه السُّندُس والإستبرقُ وعلى رأسِه تاجٌ من نور يلمعُ، فقلتُ له: ما فعلَ اللهُ بكَ؟ فقال: غَفر لي وأدخَلني الجنّةَ بفضلِه الحديثَ.

ورأيتُ في تأليفِ الشّيخ الحافظ أبي القاسم هبةِ الله بن الحُسين الطبريّ في "الكرامات": حدّث- رحمه اللهُ- بسنده، عن حمّاد بن سلَمة، قال: إنّ ثابتًا البُنانيَّ رُفع من قبرِه فلم نرَ له أثراً في القبر، وكان كثيراً ما يقولُ: اللهُمَّ إنْ كنتَ رفعتَ أقواماً من قبورِهم فاجعلْني منهم.

---

(١) لفظة الكينونة إضافة لازمة أخلت بها النسخة.

وروى أبو نُعيم في "حِليتِه" أنّ خالدَ بنَ معْدانَ كان يُسبِّحُ في اليوم أربعينَ ألفَ تسبيحةٍ سوى ما يقرأُ منَ القرآن، فلمّا مات وُضع على سريره ليُغسَّلَ فجَعل يُحرِّكُ أصابعَه، ومات وهُو صائم.

قال صاحبُ كتاب "التشوُّف": سمعتُ داودَ بنَ عبد الخالق، قال: سمعتُ غيرَ واحد من أصحابِ الفقيه يغمُورِ بن خالدٍ يقولُ: جاءني أبو مَهْدي، وكان من الأولياءِ الكبار، فقال: يا يغمُور، اذهبْ معي إلى زيارة شابّةٍ مسكوريّةٍ لم تبلُغ الحُلُمَ وهي من الأولياء، فذهبنا إلى كهفٍ بجبل دَرَن، فوجدناها قدِ انقطعتْ عن الناس، فخاضتْ معي في علوم لا أعرفُها، وكانتْ مريضةً، فانصرفنا عنها، ثم مرَرْنا بها يوماً آخرَ لنزورَها، فلمّا قرُبنا منَ الكهف قال لي أبو مهدي: إنّ تلك الشابّةَ في النَّزع، فرأيتُ نُوراً يسطُعُ من الكهف الذي كانتْ فيه، فدخلنا عليها فوجدناها تجودُ بنفسِها، فقالت: يا أبا مهدي، إذا أنا مِتُّ فاستُرْني بهذا الثوبِ الذي عليّ واذهبْ إلى أبويَّ بمكانِ كذا واقرأْ عليهما السلامَ وأعلمْهما بالحال، ففعلنا ما أمَرَتْنا به، فلما خرجنا من الكهف رأيناها تُحملُ في الهواء، فسألنا عن اسم أبويْها، فلمّا دخلنا عليهما قالت لنا أمُّها: لعلّكما قريبا عهدٍ بابنتي، فأعلمناهما فعزَّيناهما وانصرفنا.

رَوى أبو الفرج الجَوزيُّ في كتابِه "سلوة الأحزان"، قال: قال لي بعضُ أصحاب ثابتٍ البُنانيّ: بالله الذي لا إلهَ إلّا هو، لقد أدخلتُ ثابتاً في لحدِه ومعي

فلانٌ، فلمّا سوَّيْنا عليه اللّبِنَ سَقَطتْ لبِنة، فإذا هو يُصلّي في قبره، وكان يقول: يا ربّ، إن كنتَ أعطيتَ أحداً الصّلاةَ في قبرِه فأعطني ذلك. وقال الذين كانوا ينقلونَ الجِصَّ: كنا إذا مرَرْنا بجنَباتِ قبرِ ثابت سمِعنا قراءةَ القرآن.

ورَوى أبو نُعيم في "حِليتِه" أنّ طاوساً قال لابنِه: إذا قبرتَني فانظُرْ في قبري، فإنْ لم تجدْني فاحمَدِ اللهَ، فإنْ وجدتَني فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فنظر ابنُه في قبره فلم يجدْ شيئاً، فرُؤيَ في وجهِه السُّرورُ.

وعن ذي النُّون المصريِّ، قال: رأيتُ فتًى بفِناء الكعبةِ يبكي، فقلتُ له: يا فتى، ممَّ بكاؤك؟ فقال: أنا الغريبُ المطلوب، فعرفتُ معنى كلامِه، فجلستُ أبكي معَه وهو يجودُ بنفسِه، فلم أزلْ معه حتى قضَى نحْبَهُ، فخرجتُ فاشتريتُ له كفناً ثُم عُدتُّ فلم أجدْهُ، فقلتُ: سبحانَ الله! من سبقَني بحظّي من ثوابِه؟ فإذا هاتفٌ يهتفُ: يا ذا النُّون، هذا الغريبُ الذي طلبه إبليسُ في الدّنيا ولم يرَهُ، وطلبَهُ مُنكَرٌ ونَكيرٌ فلم يرَياهُ، وطلبَهُ رضوانُ خازنُ الجنّة فلم يرَهُ، فقلتُ: فأين هو يا سيّدي؟ قال: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر: ٥٥].

ومن غريبِ ما اتّفق لبعضِ مَن جَمَع بينَ الشّهادتيْنِ: شهادة السَّيف وشهادة المحبّة ما رواه صاحبُ كتاب "الأشواق في مصارع العُشّاق" زمنَ عُمرَ رضي الله عنه، وذلك أنه جهَّز جيشاً من المسلمينَ إلى بعض حصُون النَّصارى بالشام، وكان في جيش المسلمينَ أخَوانِ آتاهُما اللهُ بصيرةً في الدِّين ونجدةً في جهادِ

المشركين، وكانا لا يترُكانِ للنّصارى شاذّةً ولا فاذّةً إلّا اغتنماها وفازا بغنائمِها، وقد قَتلا عدّةً من أبطالِهم وفُرسانِهم مُبارزةً ومحاربة، فلمّا اشتدّ الحصارُ على أهل الحِصن قال طاغيتُهم: يا قوم، انصِبوا للرّجُليْن حبائلَ المكر والحِيَل حتى تظفَروا بهما فإنّكم إنْ ظفِرتُم بهما كُفيتُم حربَ مَن سواهُما من المسلمين، فما زالوا ينصِبونَ لهما المصائدَ ويجتهدونَ لهما في المكائد إلى أنْ ظَفِروا بهما فقَتلوا أحدَهما شهيداً وذهبوا بالآخرِ إلى طاغيتِهم، فلمّا مثُل بينَ يديْهِ جَعل يتأمَّلُه، فقال: إنّ قتلَ هذا لَمصيبةٌ، وإنّ رجوعَه إلى المسلمين لَداهيةٌ مُهلكة، ووَدِدتُ أنْ لو دَخل معي النَّصرانيّةَ وله من مالي ما أحبَّ، ليكونَ لها عوناً وعَضُداً، فقال لهُ بِطْريقٌ من بطارقتِه: أيُّها الأمير، أنا أفتنُه عن دينِه، وذلك أنّ العربَ تُكثرُ الصَّبوةَ إلى النّساء، ولي بنتٌ لها جمالٌ وكمال، ولو رآها لفُتنَ بها، فقال: هو إليكَ، فاحتَمَلَه، ففُرش المنزلُ بأنواع الفراش وأُلبستِ الصَّبيّةُ ما زاد في زينتها وجمالها، وجيء بالرجُل فأُدخِل المنزلَ وأُحضِر الطعام، ووقَفتِ النَّصرانيّةُ بين يديْه كالخادم المطيعةِ لسيّدِها تنتظرُ أن يأمُرَها بشيءٍ فتمتثلَ أمرَه، فلمّا رأى المسلمُ ما نزلَ به اشتغل بعبادة ربِّه وتلاوة القرآن، وكان له صوتٌ حَسنٌ ونغَمةٌ وقريحةٌ مؤثِّرةٌ في النّفوس، فأحبّتْهُ النَّصرانيّةُ حبًّا شديدًا وكَلِفتْ به كَلَفاً عظيماً، فما زالتْ على ذلك سبعةَ أيام حتى عيلَ صبرُها، فامتَحنَ اللهُ قلبَها بالإسلام وصارتْ تقولُ: ليتَهُ يرتضيني فيُدخلَني في الإسلام، فلمّا عيلَ صبرُها وضاق صدرُها ترامتْ بينَ يديْهِ فقالت: أسألُكَ بدينِك إلّا ما سمعتَ كلامي، قال: وما كلامُكِ؟ قالت: اعرضْ عليّ

الإسلامَ، فعَرضَهُ عليها فأسلمتْ وتطهَّرتْ وعلَّمها كيف تُصلّي، فلمّا فعلتْ ذلك قالتْ له: يا أخي، إنّما كان دخولي الإسلامَ بسببِكَ وابتغاءَ قُربِك، فقال: إنّ الإسلامَ يمنعُ من النّكاح إلّا بشاهديْنِ عادليْنِ ومَهْر، وأنا لا أجدُ الشاهديْنِ والمهرَ هنا، فلو تحيَّلتِ في خروجِنا من هذا الموضع لَرجوْتُ الوصولَ إلى بلاد الإسلام، وإنّي أُعاهدُكِ أن لا تكونَ لي في الإسلام زوجةٌ سواكِ، وقالت: إنّي مُحتالةٌ في ذلك، فدعتْ أباها وأُمَّها فقالت لهما: إنّ هذا المسلمَ قد مال إليّ وطمِعتُ أن أُدخلَه في دين النَّصرانيّة، فأنا أُواسيهِ بنفسي فيما يريد، وقال لي: إنّ هذا الأمرَ لا يليقُ في بلدٍ قُتل فيه أخي، فلو خرجتُ عنه ليتسلَّى قلبي ولَفعلتُ ما هو المرادُ منّي، ولا بأسَ أن تُخرجوني معه إلى قريةِ كذا وكذا فإنّي ضامنةٌ لكم وللأمير ما تريدونَه، قال: فذهبَ والدُها إلى ملكِهم وعرَّفهُ الأمرَ، فسُرَّ بذلك سروراً كثيراً، فأمَرَ بإخراجِها معَهُ إلى القرية، فخرجتْ معه، فلمّا وَصَلا إلى القرية بقيا يومَهما ذلك، فلمّا جَنَّ الليلُ أخَذ في الرَّحيل وقطْع السَّبيل، قال: فسارا ليلتَهما تلك، وكان الشابُّ قد ركبَ جواداً سابقاً وأردَفَها خلفَه، فما زال يقطعُ الأرضَ حتى قرُبَ الصَّباحُ، فمال بها عن الطريق فنزلا وتوضَّآ جميعاً ليُصلِّيا، فبينَما هما كذلك إذْ سَمِعا قعقعةَ السّلاح وصَلصَلةَ اللَّجْم وكلامَ الرّجال فقال لها: يا فلانة، هذا تبَعُ النَّصارى قد أدرَكَنا فما تكونُ الحيلةُ والفرسُ قد كلَّ؟ قالتْ لهُ: ويحَك! إنّي أراك قد فَزِعتَ وخِفت، قال: نعم، قالت: وأين ما كنتَ تُحدِّثُني به من قُدرة ربِّك وغِياثِه للمستغيثينَ به؟ تعالَ نتضرَّعْ وندعُهُ لعلّه يُغيثُنا بغِياثِه ويتداركُنا بلُطفِه،

قال: نعم والله، ولَنعمَ ما قلتِ، فأخَذا في التضرُّع والدُّعاء، فبينَما هو يدعو وينتحبُ والجاريةُ تؤمِّنُ ووَجْبةُ الخيل تدنو وتقرُب، إذْ سَمع كلامَ الحُسين الشّهيدِ وهو يقولُ: يا أخي، لا تخفْ ولا تحزَنْ، فالوفدُ وفدُ الله وملائكتُه أرسَلَهُ إليكما يشهدونَ عليكما بالتزويج، وإنّ اللهَ قد باهَى بكما ملائكةَ السماءِ وأعطاكُما أجرَ الشُّهداء والسُّعداء وطَوى لكما الأرضَ، وإنكما قد أصبحتُما بقُرب مدينةِ الرسُول صلى الله عليه وسلم، وإنّكما قد قطعتُما في ليلتِكما هذه مسيرةَ شهر وعشْرِ ليالٍ، فإذا اجتمعتُما بعُمرَ بن الخطاب فاقرآ عليه السلامَ منّي وقولا لهُ: جزاكَ اللهُ عن الإسلام وأهله خيراً فقد نصحتَ واجتهدتَ، قال: ثم رَفَعتِ الملائكةُ أصواتَها بالسلام عليه وعلى زوجتِه وقالوا: إنّ اللهَ زوَّجَها منكَ قبلَ أن يُخلقَ أباكما آدمُ بألفيْ سنة، فغشيَهما البِشْرُ والسُّرور والأمنُ والحُبور، فزاد اليقينُ، فلمّا بَرِقَ الفجرُ صلَّيا. وكان عُمرُ بن الخطاب يُغلِّسُ بصلاة الصُّبح، وربّما دَخلَ المحرابَ ومعه رجلان، فيبتدئُ بسُورة الأنعام وسُورة النساء فينتبهُ الراقدُ ويتوضَّى المتوضِّي ويأتي البعيد، فما يُتمُّ القراءةَ إلّا والمسجدُ قدِ امتلأ بالناس فيُصلِّي الركعةَ الثانيةَ بسُورة خفيفة، فلمّا كان ذلك اليومُ صَلَّى من أولِ ركعة بسُورة خفيفةٍ وأوجَزَ فيها، ثم في الثانية كذلك، فلمّا سلَّم نظر إلى أصحابِه وقال: اخرُجوا لنتلقَّى هذيْنِ العروسيْنِ اللذيْنِ احتفل أهلُ السموات بشأنِهما، فتعجَّب أصحابُه من كلامِه إذْ لم يُبيِّنْ لهم كلَّ البيان، فتقدَّم والصَّحابةُ من خلفِه وعن يمينِه وشمالِه حتى خَرجوا من باب المدينة فوجَدوا الشابّةَ وزوجتَه قد قرُبا من بابِ المدينة، فرحَّب بهما عُمرُ

وجميعُ الصَّحابة وسُرَّ بقدومِهما سروراً عظيماً، وأَمَر عُمرُ بوليمةٍ عظيمة فصُنعتْ من ساعتها فأكَلَ جميعُ أهل المدينة منها كرامةً لهما واعتناءً بأمرِهما واقتداءً بالملأِ الأعلى فيهما لِما كوشفَ به عُمرُ رضي الله عنه من سرِّهما وعظيم قدْرِهما.

وأمّا التُّقى فلها درجاتٌ متفاوتة وأنواعٌ متباينة، أدناها: اتقاءُ الشِّرك، وأعلاها: اتّقاءُ ما سوى الحقّ برفض جميع الخَلْق أَنَفةً وعنايةً وتوفيقاً وهدايةً، فالخوفُ للملائكة، قال تعالى: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} [النحل: ٥٠] الآيةَ، والرَّهبةُ للزاهدين، قال اللهُ تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً} [الحديد: ٢٧] الآيةَ، والرَّغبةُ للعارفين، قال اللهُ تعالى: {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا} [الأنبياء: ٩٠]، والوَجَلُ: حالةٌ تغيبُ عند مُعاينة ما يُخافُ إذا بَغَتَه، قال اللهُ تعالى: {لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} [الحجر: ٥٣]، وهي تصيبُ كلَّ أحدٍ، لا سيَّما من غَلَب عليه الخوفُ أو كان في حالةِ القبض، والحياءُ للمُحبّين، والهبةُ للواصلين، والوَلَهُ للمجذوبين، والخَشيةُ للعلماءِ العاملينَ الجامعينَ بين الحقيقة والشّريعة، إذْ لا يكمُلُ العبدُ دونَ جمعِيّتها، قال اللهُ تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨].

وحقيقةُ الخَشْية: أخذُ الأُهبةِ قبلَ نزولِ الصَّدمة، وإن شئتَ قلتَ: الاستعدادُ للحقوق بما يمنعُ من أسبابِ الخوف، وإنْ شئتَ قلتَ: ارتكابُ ما تُحمَدُ عواقبُه واجتنابُ ما تُذمُّ مشاربُه، وإنْ شئتَ قلتَ: التجافي عن دار الغرور والرّغبةُ في دار

الخلود، والاستعدادُ للموت قبلَ نزول الموت ورفضُ مُوجِباتِ الفوْت، معَ استحضار عظَمةِ الملكِ المعبود. وكذلك قدَّمها الحقُّ تعالى في قولِه: {وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ} [النور: ٥٢] وقولِه: {وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ} [التوبة: ١٨].

وتركُ الخَشية لغيرِ الله شرطٌ في التمكين، وتركُ الخوفِ من غيرِ الله شرطٌ في صحّة الإيمانِ واليقين، قال اللهُ تعالى: {فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٧٥].

وقولي: لا يكونُ الرجلُ كاملاً إلّا بجمعيّتها، دليلُه: ما جاء في كتاب الله تعالى من قولِه: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ} [الكهف: ٦٠]، وبينَ البُحور الأربعة مناسبةٌ، فبحرُ طَبَرِيّةَ عذْبٌ فُرات، وبحر القَلزوم مِلحٌ أُجاج، وكذلك بحرُ الحقيقة: عذْبٌ فُراتٌ ليس فيه إلّا الكراماتُ وقُرّةُ العين وكشفُ الحجاب والقربُ من ربِّ الأرباب، وبحرُ الشريعة مشتملٌ على جميع التكاليفِ الشاقّة من رَجْم الزَّواني وجَلدِهم وقطع يدِ السارق وتصليبِ المُفسدينَ في الأرض وتقطيع أيديهم وأرجُلِهم من خِلاف، إلى غير ذلك.

وفي الصِّحاح[1]: أنّ موسى عليه السلام سألهُ بعضُ بني إسرائيلَ فقال له: هل تعلمُ أحداً أعلمَ منك؟ فقال: لا، فنقَم اللهُ عليه عدَمَ الأدب إذْ لم يَرُدَّ العلمَ

---

(١) الخبر في البخاري: (١٢٢) و(٣٤٠١) و(٤٧٢٥) و(٤٧٢٦) و(٤٧٢٧)، ومسلم ١٧٠- (٢٣٨٠) من حديث أُبيّ بن كعب.

إلى الله تعالى، وصَدَق موسى عليه السلامُ والصِّدقُ شيمتُه؛ لأنه لا يعلمُ في بني إسرائيلَ أعلمَ منه، وهم أهلُ العلم يومَئذ، وإنما يَستمدُّونَ من مشكاتِه ولا علمَ له يومئذ بالخَضِر رضي الله عنه ولا بعلِومه، فقال اللهُ مُجيباً لهُ ولقومِه: بلى، عبدُنا خَضِر، فإنه أعلمُ منك، فقال: إلهي، دُلَّني على الطريق إليه لأتعلَّمَ من علمِه وأقتبسَ من نُورِه، وكان خديمُه يوشَعُ قد أتاه بحُوتٍ مشويّ ليتغذى به فقال له: قد جعلتُ ذلك الحوتَ دليلَكَ إليه، فإذا فقدتَهُ فإنك تلقاهُ، فأمَرَ فتاهُ أن يجعلَ الحوتَ في مِخْلاتِه ويمضيَ معَه.

فانطلقا على شاطئ البحر حتى أدركَهما الأعداءُ، فنزلا إلى ظلِّ شجرةٍ بالشَّطّ، فنام موسى عليه السلامُ في ظلِّها، فإذا بالحوتِ قد تحرَّك ثم خَرج ومضَى في البحر، فجَعل فيه طريقاً، فقال يوشَع: إذا استيقظ نبيُّ الله موسى أُعلِمُه، فانتبهَ موسى ونَسِيَ الأمرَ يوشَعُ، فانطلقا حتى أدركهما العَياءُ وحان وقتُ إفطارِهما، فقال موسى عليه السلامُ ليوشَع: {آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} [الكهف: ٦٢]، وكان موسى يواصلُ الصَّومَ في سفرِ الطُّورِ أربعينَ يوماً ولا يصيبُه نَصَبٌ ولا وَصَب؛ لأنه في طلبِ الخالق، فكان غذاؤه روحانيًّا، فلمّا كان طلبُهُ لمخلوقٍ كان غذاؤه من جنسِهِ فوَجَد النَّصَبَ، فشتّانَ ما بينَ من يطلُبُ العلمَ وبينَ من يطلبُ العالَمَ.

فقال له يوشَع: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ} [الكهف: ٦٣] الآيةَ، فقال موسى: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا} [الكهف: ٦٤] إلى الصخرة، ثم اقتَصّا أثرَ الحُوتِ في البحرِ، فوَجَدا خَضِراً، وذلك قولُه تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} [الكهف: ٦٥]: خصوصيّةً واجتباءً، وفي قولِه: {مِنْ لَدُنَّا}: أنه أنالهُ منَ الله بلا واسطةٍ لقُربِه، وهُو العلمُ الموهوب، ولو كان الكلُّ موهوبًا إلّا أنّ النَّبويَّ لمّا كان بواسطة المَلَكِ والكتابة صار كأنه غيرُ موهوب، والفرقُ بينَهما أنّ علمَ الشَّريعة يتناهَى وعلمُ الحقيقة لا يتناهَى؛ لأنّ اللهَ تعالى يقولُ في حقِّ علم الشَّريعة: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} [المائدة: ٣]، وقال: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥] ، *وقال في حقِّ علم الحقيقة: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: ٢٦٩]، وقال:*(١) {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ} [لقمان: ٢٧]، ولذلك قال اللهُ لموسى: بلى عبدُنا خَضِرٌ أعلمُ، بالنّسبة إلى علومِهما لا بالنّسبةِ إلى ذواتِهما؛ لأنّ موسى نبيٌّ كريمٌ والخَضِرُ وليٌّ حكيم.

ولا خلافَ بينَ أهل السُّنّة أنّ منصبَ الأنبياء أشرفُ من منصبِ الأولياء، ولو بلَغوا ما بلَغوا، لتفاوُتِ ما بين المُجدِّ والمُجدّ، بخلافِ الكراميّة والشِّيعة

(١) صحح الناسخ على هذه العبارة ما بين نجمين وكتبها في الحاشية.

الذين يزعُمونَ أنّ الأولياءَ أفضلُ من الأنبياء، مُستدلّينَ بهذه القضيّة، ولا دليلَ لهم فيها، إذْ ربّما حَظِيَ المفضولُ بما لم يحظَ به الفاضلُ.

وكان موسى على بحرٍ من الشريعة الظاهرة، وكان الخَضِرُ على بحرٍ من العلوم الباطنة، وكلٌّ منهما لا علمَ لهُ بما عليهِ الآخَر، فقال الخَضِرُ لموسى: أنت على علم علَّمَكهُ اللهُ لا أعلمُه وأنا على علم علَّمنيهُ اللهُ لا تعلمُه، وما علمي وعلمُكَ من علم الله إلّا مثلُ مَن غَمَسَ إبرةً في بحرٍ ثم أخرجَها، أفتراها تنقُصُ من البحر شيئاً؟ قال: لا، فالتقى البحرانِ بمجمَع البحريْن، فقال اللهُ تعالى في حقِّ موسى: {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: ١٤٤]، وقال في حقِّ الخَضِر: {آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} [الكهف: ٦٥]، فافهمْ تغنَمْ وتسلمْ. فموسى على بساطِ الاصطفاءِ والشكر، ومدَدُه منَ الأنانيّة [تارةً][١] ومن جبريلَ تارَةً أخرى، والخَضِرُ بساطُه الرحمةُ والاجتباء ومدَدُه [من] اللَّدُنّيّة [تارةً] ومن إسرافيلَ تارةً أخرى، ومنزلتُه منَ الأولياء منزلةَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم من الأنبياء، فكلُّ وليّ لا يكونُ مددُه من النبيّ فليس بوليٍّ كامل؛ لأنه سيّدُ الأولياء، وهو واحدٌ من هذه الأُمّة.

(١) إضافة لازمة أخلت بها نسخة المخطوط، وكذا ما بعدها.

وكذلك إلياسُ عليه السلامُ؛ لأنه اجتمع معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأخَذ عليه شريعتَه. وعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: غزوْنا معَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كنّا بفَجِّ الناقة إذا بقائل يقولُ رافعٍ صوتَه: اللهُمَّ اجعلْني من أُمّة محمدٍ المرحومة المغفورِ لها المُتابِ عليها المستجابِ لها، فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "يا أنسُ، انطلقْ فانظُرْ ما هذا الصوتُ"، فدخلتُ الجبالَ فإذا أنا برجُل أبيضِ الرأس واللِّحية عليه ثيابٌ بيضٌ طويلُ القامة، فلمّا رآني قال: أنت رسُولُ النبيِّ عليه السلام؟ قلتُ: نعم، قال: ارجعْ فقلْ له: أخوكَ إلياسُ يريدُ لقاءك، فرجعتُ إلى رسُول الله فأعلمتُه، فجاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأنا معَهُ حتى قرُبْنا منهُ، فتأخَّرتُ وتقدَّم النبيُّ صلى الله عليه وسلم فتحدَّثا طويلاً، وإذا بسُفرةٍ قد نزلتْ عليهما من السماءِ فيها تفاحٌ ورُمّان وكُرسُف، فدَعَواني فأكلتُ معهما ثم تنحَّيتُ، فجاءت سحابةٌ فحملتْهُ، فلقد كنتُ أنظرُ إلى بياض ثيابِه على متن السَّفينةِ وهي تسيرُ به إلى ناحيةِ الشام حتى توارتْ عنّي، فقلت: يا رسُولَ الله، من أين هذا الطعامُ: قال: {هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [آل عمران: ٣٧].

ولقد حضَر الخَضِرُ وفاةَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعليّ: لا تكشفوا رسُولَ الله، واغسِلوه من فوقِ ثيابِه، وقال لأبي بكرٍ رضي اللهُ عنه: ادفنوا رسولَ الله في الموضع الذي قُبِضتْ فيه روحُه فإنّ اللهَ ما قبضَ رُوحَ نبيٍّ إلّا في

أحبِّ الأمكنة إليه. وذكر أبو عُمر[1] في كتاب "التمهيد"[2] أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لمّا غُسِّل وكُفِّن سمعوا قائلاً يقولُ من زاويةِ البيت يسمعونَ الكلامَ ولا يروْنَ الشّخص: السلامُ عليكم يا أهلَ البيت، إنّ في الله خَلَفاً من كلِّ هالك وعِوضاً من كل تالف وعزاءً من كلِّ مُصيبة، فعليكم بالصّبر فاصبِروا واحتسبوا، ثم دعا لهم، وانقطعَ الصّوتُ، فأجمع الصَّحابةُ رضوانُ الله عليهم أنه الخَضِرُ عليه السلام.

وذَكَر ابنُ أبي الدُّنيا[3] في كتابِه[4] أنه أخَذ عنهُ[5] هذا الدعاءَ، وذكَر فيه ثواباً عظيماً ومغفرةً ورحمةً لمن يقولُه دُبُرَ كلِّ صلاة، وهو: اللهُمّ يا مَن لا يشغلُه سمعٌ عن سمع، ويا من لا تغلطُه المسائل، ويا من لا يتبرَّمُ بإلحاح المُلحّين، أذِقْني بردَ عفْوِك وحلاوةَ مغفرتِك.

---

(١) أبو عمر: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت٤٦٣هـ).

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٢/١٦٢.

(٣) أبو بكر: عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي الأموي القرشي، المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ).

(٤) أخرج ابن أبي الدنيا هذا الأثر في كتابين له، الأول: الفرج بعد الشدة، ص ٦١، والثاني: الهواتف (٦٢) عن عليّ بن أبي طالب، و (٧٢) عن عمر بن الخطاب.

(٥) يعني: الخضر عليه السلام.

وذَكر أيضاً [عن][1] عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه في هذا الدعاءِ بعينِه نحوَ ما ذَكر عن عليٍّ رضي الله عنه في سَماعِه منَ الخَضِر.

فلمّا لقيهُ موسى قال لهُ ما حكاهُ اللهُ عنهُ من قولِه تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ} [الكهف: ٦٦] الآيةَ، أي: هل تقبلُني حتى أكونَ من أتباعِك الذين يَسيحونَ معكَ في الأرض لأتعلَّمَ منَ العلوم التي خصَّك اللهُ بها دوني فتُرشدَني إلى تعلُّمِها برِفْق؟ وقال الخَضِرُ مجيباً ومُبيِّناً لهُ ما سيكونُ منهُ من النَّكير عليه: {إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} [الكهف: ٦٧]، ثم بيَّن عُذرَ موسى بقولِه: {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا} [الكهف: ٦٨] معَ مُخالفتِه لِما عندَك ومُباينتِه له، وذلك أنّ علمَ موسى تشريعٌ وعلمُ الخَضِر تحقيق، وشريعةٌ بغير حقيقة كدارٍ لا ساكنَ فيها أو جسم لا رُوحَ فيه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ من العلم كهيئةِ المكتوب لا يعلمُه إلّا العالِمونَ بالله وهو علمُ القلب".

فصحَّ أنّ للقلبِ علماً كما أنّ للسانِ علماً، فعلمُ اللّسان تشريع، قال صلى الله عليه وسلم: "أُمِرتُ أن أُقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلهَ إلّا الله، فإذا قالوها فقد عَصَموا منّي دماءهم وأموالَهم إلّا بحقِّها"[2]. وعلمُ القلبِ تحقيق، وهُو الحديثُ الأوّل "إنّ منَ العلم كهيئة المكتوب" إلخ.

---

(١) حرف الجر إضافة لازمة يقتضيها السياق.

(٢) يروى هذا الحديث في الصحيحين، متفقًا عليه، ومن أفراد البخاري ، ومن أفراد مسلم، انظر تفصيلًا في: الجمع بين الصحيحين، للحميدي (٥) و (١٢٩٧) و(١٦٩٢) و(٢٠٧٢) و (٢١٧١) و(٢٦٦٣).

فعلمُ اللسانِ حُجّةُ الله على خلقِه، وعلمُ القلبِ لا يُخشى الله إلّا به، فعلمُ اللّسان في الدفاترِ والسطور، وعلمُ القلبِ سرٌّ مُودَعٌ في الصُّدور، وإليه الإشارةُ بقول رسُول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ أبا بكر لم يَفضُلْكم بكثرة صلاةٍ ولا صوم، وإنّما فَضَلَكم بشيءٍ وَقَر في صدره، ألا وهُو النُّور"(١)، قالها ثلاثاً.

فعلمُ اللسانِ منقولٌ عن منقول، وعلمُ القلبِ لا عن مَلَك ولا عن رسُول، علمُ اللِّسان لصُحبة أبناءِ الدُّنيا، وعلمُ القلبِ لصُحبة الملأِ الأعلى.

عَلِم الخَضِرُ عليه السلامُ بعلم القلبِ ما لم يعلمْهُ موسى عليه السلامُ بالوحي النَّبويّ، إنما صار علمُ الخَضِر ظُلماً وعُدواناً في الشريعة لسدِّ الذَّريعة في قتلِه نفْساً بغير نفس، وفي إساءتِه بخَرْق سفينةِ قوم أحسَنوا إليهم فحَملوهم بغيرِ نَوْل، وفي إحسانِه بتقويم الجدار مجّاناً إلى قوم قد حَرَموهم معَ شدّة حاجتِهم إلى ما يسُدُّون به رَمَقَهم، وكان موسى قائماً معَ أشخاصِ الشريعة، فوَجَب عليه الإنكارُ حفظاً لحدودِ الرّسالة، ولو لم يُنكرْ لكان جاحداً لها {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا} [البقرة: ٢٢٩].

وإنّما أطلعهُ الخَضِرُ على ما يُخالفُ الشَّريعة من أسرار الحقيقةِ ودقائق الحِكمة ليعلمَ موسى أنّ الشَّريعةَ سفينة، ولا بدَّ للسفينة من عُمّار وذخائرَ لا يحيطُ بعلمِها إلّا مالكُها أو مَن جعلَهُ اللهُ ناطوراً عليها من خواصِّ عبيدِه، فمَثَلُ موسى

(١) مروي في بحر الفوائد للكلاباذي، ص ٤١، والمقاصد الحسنة للعجلوني (٩٧٠)، وغيرهما.

والخَضِر عليهما السلامُ كمثلِ عبديْنِ حَظِيَّينِ عندَ سيّدِهما، فوكَلَ أحدَهما بإصلاح السفينة وإجارتِها لمن يحملُ فيها ذخائرَه، ولم يأمُرْه بعلم المحمولِ فيها ولا بتفتيش الذخائر، ووَكَل الآخرَ على الذخائر المحمولة في السفينة والعلم بذواتِها وأثمانِها وكيفيّة أرباحِها وما يؤولُ إليه أمرُها، ولم يجعلْ إليه من أمرِ السّفينة شيئاً، فكلٌّ منهما مُحسِنٌ في تصرُّفِه، فموسى- وهو الموكَلُ بالسَّفينة- مُحسنٌ بنكيرِه، والخَضِرُ- وهو الموكَلُ بسياسة الذخائر- مُحسنٌ في تدبيرِه إلّا أنه أعلمُ من موسى عليه السلامُ بأسرار المالكِ وحقائقِ أمورِه.

رُوي أنه كوشفَ لبعض الأولياءِ عن ملَكيْنِ يختصمانِ، أحدُهما يقول: الخَضِرُ أعلمُ من موسى والآخَرُ يقول: موسى أعلمُ من الخَضِر، وإذا مَلَكٌ آخرُ جاء ليفصِلَ، فقالك والله ما علمُ الخَضِر في علم موسى إلّا كعلم الهُدهُد في علم سُليمانَ حيث قال لهُ: {أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} [النمل: ٢٢]، فظنّ الوليُّ أنّ علمَ سُليمان أتمُّ فإذا بهِ مُفتقرٌ إلى هُدهُدٍ ضعيف يُطلعُه على سرّ لطيف، حيث يرى الماءَ في الفِجاج ويصيحُ: {هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [الفرقان: ٥٣]، فلم يتمَّ نظمُ مُلكِ سُليمانَ إلّا بهُدهُد من أضعفِ الحيَوان.

كذلك إقامةُ الحدود الشرعيّة لا تصحُّ إلّا بحفظ العقودِ الحقيقيّة، فالشرائعُ شجرةٌ والحقائقُ ثمارُها، والشرائعُ أشخاصٌ والحقائقُ أرواحُها، قال ابنُ عطاء الله: الأعمالُ أشخاص وأرواحُها وجودُ سرِّ الإخلاص فيها. وقال: ما كلُّ مُصَلّ

مُقيم، وما كلُّ مُقيم بمستقيم، قال إبراهيمُ عليه السلامُ معَ خُلّتِه: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} [إبراهيم: ٤٠]، وقال صلى الله عليه وسلم لمنِ اختَصَر له في الوصيّة: "قل: الله، ثم استقمْ"[١]. قال اللهُ لنبيِّه: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [هود: ١١٢].

ومن خصائصِه صلى الله عليه وسلم: أنه كان يَحكُم بالحقيقة والشريعة، أخرجه السُّيوطيُّ في "خصائصه"[٢].

وعن ابن الخطيب[٣]، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالسٌ ومعَه الخلفاءُ الأربعةُ، إذ طاف عليهم رجلٌ ظاهرُ الوَضاءة وأثرُ السُّجود في جبهتِه والخشوعُ ظاهرٌ على وجهِه، فقال لأبي بكر: "اذهبْ إليه فاقتلْهُ"، فأتاهُ وهو يُصلّي فهاب أن يقتلَه في صلاته، فلمّا طال عليه القيامُ انصرف إلى رسول الله فقال له قبلَ أن يُكلِّمَه: "مهلًا إذا عتبتَ شيئاً"، فقال: وجدتُه يُصلّي فلم أتجاسرْ أن أقتُلَه وهو يُصلّي ويحسنُ الصّلاة، فالتفت إلى عُمرَ فقال: "اذهبْ إليه يا عُمرُ فاقتلْهُ"، فذهب عُمرُ ليقتلَه فإذا هو يُصلّي، فقام عندَه طويلاً رجاءَ أن ينفتلَ من

---

(١) رواه مسلم ٦٢ - (٣٨)، والترمذي (٢٤١٠)، وابن ماجة (٣٩٧٢)، عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

(٢) الخصائص الكبرى، للسيوطي ٢/ ٣٢٩.

(٣) والحديث عند أحمد في مسنده (١١١١٨)، عن أبي سعيد الخدري، وإسناده ضعيف، وفيه أنه أمر عليًّا فقام فقتله.

صلاته فيقتلَه فلم ينفتلْ، فلمّا طال عليه القيامُ وأعجبتْه صلاتُهُ انصرف إلى رسُول الله صلى الله عليه وسلم *وقال عُمرُ لرسُول الله مثلَ ما قال له أبو بكر، ثم التفتَ إلى عثمانَ فقال: "اذهبْ إليه يا عثمانُ فاقتلْهُ ولا أظنُّني تدركُه"، فذهب عثمانُ فلم يرَهُ، فانصرف إلى رسُول الله صلى الله عليه وسلم*(١) فقال له قبلَ أن يتكلَّم: "لعلّك لم تُدركْهُ يا عثمان؟"، فقال: نعم، فرأينا الكراهةَ في وجهِ رسُول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "إنّا لله وإنّا إليه راجعونَ، أمرٌ محتومٌ وقضاءٌ سابق، ذلك شخصُ الفتنة لو قتلتُموهُ ما اختلف اثنانِ من أمّتي إلى يوم القيامة، تلك الفتنةُ يَرى المسيءُ فيها أنهُ مُحسن، ويكونُ دمُ المؤمن أحلى عندَ المؤمن من شرب الماءِ البارد، يصبحُ الرّجلُ فيها مسلماً ويمسي كافراً يبيعُ دينَه بعَرَض يسير من الدنيا". انتهى.

رُوي أن موسى لمّا قال للخَضِر {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} [الكهف: ٦٦]، قال لهُ: كفى بالتوراة علماً وببني إسرائيلَ شُغلاً، قال له موسى: إنّ اللّهَ أمَرَني بهذا، فحينئذٍ قال له: {إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا} [الكهف: ٦٧- ٦٨] فنظر له موسى على شرطِ المريدِ معَ شيخِه بقوله: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} [الكهف: ٦٩] فشَرَط عليه الخَضِرُ شرطاً يقتضي طولَ الصُّحبة بقولِه: {فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي

(١) ما بين نجمين كتبه الناسخ في الحاشية مستدركًا، وأوله عنده: "وقال له مثل ما قال لأبي بكر"، وهي عبارة مكررة.

عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۞ فَانْطَلَقَا} [الكهف: ٧٠- ٧١] يمشيانِ على ساحل البحر يطلُبانِ سفينةً يركبانِها، فمرَّت عليهما سفينةٌ، فعرفوا الخَضِرَ فحملوهما بغير نَول، فلمّا لَججوا أخَذ الخَضِرُ فأساً فاقتلع به لوحاً من ألواح السفينة، ثم لمسَ موضعَ اللَّوح بيدِه لئلّا يدخُلَها الماءُ، وكان موسى عليه السلامُ رجلاً شديداً فقال: عَمَدتَ [إلى](١) سفينةِ قوم حَمَلونا بغير نَوْل فخرقتَها {لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [الكهف: ٧١].

ورُوي أنّ موسى لمّا رأى ذلك أخَذَ ثوبَه فحشَا فيه الخرقَ جرياً على العادة؛ لأنّ الشريعةَ تلازمُ العادةَ غالباً، إذ هي حقُّ العامّة، قال العالمُ لموسى: {أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} [الكهف: ٧٢] {قَالَ} لهُ موسى: {لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ} الشَّرطَ {وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} [الكهف: ٧٣].

فبينما هما يسيرانِ وقد فارقا أهلَ السفينة إذْ مرَّا بصِبْيانٍ يلعبونَ، فإذا فيهم صبيٌّ وضيءٌ ظَريف، فأخَذ برأسِه فاقتلعَهُ، {قَالَ} لهُ موسى: {أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} [الكهف: ٧٤]، {قَالَ} لهُ الخَضِرُ: {أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} [الكهف: ٧٥]، وإنما زاد ذلك ليُنبِّهَهُ على أنه نَقَض العهدَ مرَّتيْن، وقيل: إنّ هذا اللفظَ توكيدٌ للتوبيخ، فلأجْل ذلك {قَالَ} لهُ موسى:

(١) إضافة لازمة لاستقامة النص.

{إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا} [الكهف: ٧٦] لإغضائك عنّي مرّتيْن.

{فَانْطَلَقَا} من مدينة جيجلَ حتى أتَيا قريةَ تِلِمْسانَ، وكان بها قومٌ من البَربَر لئام، فاستضافاهم[١] فلم يُضيِّفوهما، واستطعماهُم فلم يُطعموهما، فجعل اللهُ لهما الرحمةَ في قلبِ امرأةٍ بَربَريّة فأطعمتْهما، فلَعن موسى رجالَ البَربَر ودَعا لنسائهم بالبركة، وقال: البربرُ أمّةٌ خسيسة، يَحرِمونَ الضَّيف ويُظهرون الحَيْف {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا} مائلاً فدَعَمه حتى استقام، فأنَّبَهُ موسى عليه السلامُ وقال: {لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا} [الكهف: ٧٧]، وكان ذلك حلالاً في شرع موسى حراماً في عقودِ الحقيقة، {قَالَ} لهُ: {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ} [الكهف: ٧٨] تأمُرُني بما لا يحِلُّ؟ تريدُ منّي أن آخُذَ الأُجرةَ على عملٍ عملتُه لله واللهُ أمَرَني به؟ فبكَى موسى عليه السلام، وتمسَّك بأذيالِه، وقال: أخبِرني بتأويل ما عملتَ قبلَ أن تُفارقَني، قال لهُ: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف: ٧٨].

{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} [الكهف: ٧٩] وكانوا عشَرة: خمسةٌ زَمْنى وخمسةٌ يعملونَ في البحر يتكسَّبونَ باستئجارِها، {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ} سالمةٍ {غَصْبًا} [الكهف: ٧٩]، وهو:

---

(١) في النسخة: فاستضافهم.

الجُلَنْدَى[1] بن أسَد[2] الأَزْديُّ، وهُو من أجدادِ المُهَلَّب بن أبي صُفْرة، وأبو صُفرةَ هذا ممّن أسلمَ على يدِ رسُول الله صلى الله عليه وسلم وحسُن إسلامُه، وذلك أنّه وَفَد على رسُول الله صلى الله عليه وسلم وعليه حُلّةُ دِيباج مخوصةٌ بالذهب، فقال له: أنا طارقُ بنُ ظالم بن غالب، حتى بَلَغ الجُلَنْدَى، وهو الملِكُ الذي كان {يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}، فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أنت أبو صُفرة، دَعْ عنك ظالماً وغالباً وطارقاً ووحِّدِ اللهَ وصدِّقْ رسُولَه واتَّبعْ ما جاء به من ربِّه"[3]، فبُهتَ وقال لهُ: مَن أخبرك بصُفرةَ يا محمد؟ قال: "اللهُ الذي يعلمُ السّرَّ وأخفى"، قال: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله وأشهدُ أنّ محمداً رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وأنّ الدِّينَ دينُك، وصُفرةُ: ابنةٌ ليس لي غيرُها فاسألِ اللهَ أن يرزُقَني منَ البنينَ ما تقَرُّ به عيني، فدعا له رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وبشَّره، فرزقَهُ الله المُهَلَّب، وكان من صُلبه رُكنُ الدَّولة، فكثُروا وملَكوا، وهي دولةُ المُهَلَّبيِّين، وكانوا وُزراءَ بني مروان، وامتدَّت دولتُهم حتى اتّصلت بدولة البَرامِك.

---

(١) الجلندى- بضم الجيم وفتح اللام وسكون النون وفتح الدال مقصورًا- بن المستكبر: رئيس أهل عمان. ينظر في ترجمته وأخباره: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للبدر العيني ١٨/ ٢٩، وفتح الباري لابن حجر ٨/ ٩٦، والمحبر لابن حبيب، ص ٧٧ وكا بعدها، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ١٩/ ٧٤ (الفهرس)، وأسواق العرب في الجاهلية والإسلام، لسعيد الأفغاني، ص ٢٦٣- ٢٦٥ و٤٦٤ .

(٢) كذا في النسخة، .

(٣) الخبر في كنز العمال (٣٧٥٧٦).

ورُوي أنّ الخَضِرَ اعتذر إلى القوم وذَكر لهم شأنَ الملِك سرًّا، ولم يكونوا يعلمونَ خبرَه، وقال: أردتُّ إذا هي مرَّت به أن يترُكَها لعَيْبِها، فإذا جاوزتُموهُ أصلحتُم سفينتَكم وانتفعتُم بها.

{وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ} كافراً طبعاً، وكان {أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا} أي: علِمْنا أنه إن أدرك وتمكَّن منهما {أَنْ يُرْهِقَهُمَا}: يُكلِّفَهُما لجهالتِه وغَلَبتِه حينئذٍ لهما {طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} [الكهف: ٨٠- ٨١]، وقيل: أبدَلهما اللهُ منه جاريةً فتزوَّجها نبيٌّ منَ الأنبياء فوَلَدتْ له سبعةَ أنبياءَ، وقيل: أبدَلَهما اللهُ منه غُلاماً مسلماً، وقيل: إنّ الغلامَ الذي قُتل فَرِح به أبواه حين وُلد وحَزِنا عليه لمّا قُتل، ولو بقي لكان سبباً لهلاكِهما، فلْيرضَ العبدُ بقضاءِ الله، فإنّ قضاءَ الله للمؤمن فيما يكرهُ خيرٌ له من قضائه فيما يحبُّ مما تكونُ عاقبتُه خُسراناً.

{وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ} وهما: أصرمُ وصَريم، {وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا}، قال ابنُ عباس: كان الكنزُ لوحًا من ذهبٍ مكتوبًا فيه: عجبًا لمن أيقَن بالموتِ كيف يفرَح، عجبًا لمن أيقنَ بالقدَر كيف ينصَب، عجبًا لمن أيقنَ بالرّزق كيف يتعب، عجبًا لمن أيقنَ بالحسابِ كيف يغفُل، عجبًا لمن أيقنَ بزوال الدنيا وتقلُّبِها بأهلِها كيف يطمئنُّ إليها، لا إلهَ إلّا الله محمدٌ رسولُ الله، وفي الجانبِ الآخر مكتوباً: أنا اللهُ لا إلهَ إلّا أنا وحدي لا شريكَ لي، خلقتُ الخيرَ

والشرَّ، فطُوبى لَمَن خلقتُه للخير وأجريتُه على يديْه، وويلٌ لمن خلقتُه للشرِّ وأجريتُه على يديْه، {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} كان اسمَه كاشحٌ. وكان بينَهما وبينَ كاشح المذكورِ الذي حُفظ من أجلِه سبعةُ آباء، قال محمدُ بنُ المُنكدري[1]: إنّ اللهَ تعالى يحفظُ بصلاح العبدِ ولدَه وولدَ ولدِه وعِترتَه وأهلَ دُوَيْرتِهِ حولَه، فما يزالونَ في حفظِ الله ما دام فيهم. قال سعيدُ بن المسيِّب: إنّي لأُصلّي فأذكُرُ ولدي فأزيدُ في صلاتي من أجلِهم. {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} [الكهف: ٨٢] بأنْ يعقِلا منافعَهما ويُدركا أمَدَ التكسُّب والدَّفعَ عن أموالِهما بالتي هي أحسن.

فإن قلتَ: كيف قال في الأولى: {فَأَرَدْتُ} [الكهف: ٧٩] وفي الثانية: {فَأَرَدْنَا} [الكهف: ٨١] وفي الثالثة: {فَأَرَادَ رَبُّكَ} [الكهف: ٨٢]؟ ما الحكمةُ في كلِّ لفظٍ من هذه الألفاظِ البالغة غايةَ البلاغةِ والبراعة؟ فالحكمةُ في ذلك- والله أعلم- حُسنُ الأدب، فإنّه لمّا ذَكر العيبَ أضافهُ إلى نفسِه فقال: {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا}، ولمّا ذَكر القتلَ عبَّر عن نفسِه بلفظ الجمع تنبيهاً على أنه من العلماءِ العُظماء في علم الباطن وعلوم الحِكمة وأنهُ لم يُقدِمْ على مثلِ هذا القتل إلّا بحكمةٍ عالية، ولمّا ذَكر رعايةَ المصالح في مال اليتيميْنِ لأجل صلاح أبيهما أضافهُ إلى الله تعالى؛ لأنّ حفظَ الأبناء وصلاح أحوالِهم رعايةً لحقِّ الآباء ليس ذلك إلّا إلى الله تعالى، ولذلك أضافهُ إليه.

---

(١) كذا سماه بزيادة ياء بعد الراء، وهو: محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهُدير القرشي التيمي المدني، أبو عبد الله أو أبو بكر (ت ١٢١-١٣٠هـ). تاريخ الإسلام ٣/ ٥٢١.

{وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا}: إذا بَلَغا وعَقَلا وقوِيا {رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} أي: باختياري ورأيي، بل فعلتُه بأمرِ الله وإلهامِه إيّاي؛ لأنّ تنقيصَ أموالِ الناس وسَفْكَ دمائهم وتغييرَ أحوالِهم لا يكونُ إلّا بالنصِّ وأمرِ الله تعالى، وهذه درجةُ الأولياء، أراد اللهُ أن يُظهرَها لك ويُريَك آثارَ رحمتِه عليهم، ومنها تحمُّلُ الضّررِ الأدنى لدفع الضّررِ الأعلى، وهي قاعدةٌ عظيمةٌ في المَهْيعيْن، {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف: ٨٢].

ورُوي أنّ موسى لمّا أرادَ أن يُفارقَ الخَضِرَ قال له: أوصِني، فقال لهُ: يا موسى، لا تطلُب العلمَ لتُحدِّثَ به واطلبْهُ لتعملَ به، ولمّا أرادا أن يفترقا قال لهُ الخَضِر: لو صبرتَ لرأيتَ ألفَ عَجَبٍ، كلُّ [عَجَبٍ][(١)] أعجبُ مما رأيتَ، فبكى موسى على فراقِه وقال لهُ: أوصِني يا وليَّ الله، فقال له: يا موسى، اجعلْ همَّك في مَعادِك ولا تَخُضْ فيما لا يعنيك، ولا تأمنِ الخوفَ في أمنِك ولا تنْسَ الأمنَ في خوفِك، وتدبَّرِ الأمورَ بعواقبِها، ولا تترُكِ الإحسانَ في قُدرتِك[(٢)]، فقال موسى: زِدْني يا وليَّ الله، قال: يا موسى، إياكَ واللَّجاجةَ، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تضحكْ من غير عَجب، ولا تُعيِّرْ أحداً بخطيئتِه بعدَ النَّدم، وابكِ على خطيئتِكَ يا ابنَ عمران، وإياك والإعجابَ بنفسِك والتفريطَ فيما بقي من عُمُرِك، فقال لهُ موسى: قد أبلغتَ في الوصيّة تمَّم اللهُ عليك نعمَهُ وغَمَدك في رحمتِه وكلأَك من

---

(١) إضافة يقتضيها السياق اطرحها ناسخ الأصل.

(٢) هذه وصية عزيزة جزى الله موردها خيرًا.

عدوِّه، فقال لهُ الخَضِر: أوصِني أنتَ يا نبيَّ الله، فقال: إياك والغضبَ إلّا في الله والرضا عن أحدٍ إلّا في الله، ولا تحبَّ أحداً إلّا في الله، ولا تحبَّ الدنيا ولا تُبغِضْ من أجلِها، فإنْ فعلتَ خرجتَ منَ الإيمان وتدخُل في الكفر، قال لهُ: لقد أبلغتَ في الوصيّة يا ابنَ عمران، فأعانك اللهُ على طاعتِه، وأراك السُّرورُ في أمرِك وحبَّبك إلى خلقِه ووسَّع عليك من فضلِه، قال له موسى: آمين.

قال الجَوْزي: أنكر موسى قتلَ الغلام ونَسِي {فَوَكَزَهُ مُوسَى} [القصص: ١٥]، وأنكر إقامةَ الجدار ونَسِيَ {فَسَقَى لَهُمَا} [القصص: ٢٤]. كان موسى ينظرُ في التّوراة التشريع[١]، والخَضِرُ ينظرُ في مرآة التحقيق، فعَلِم بذلك كونَ أصحابِ السّفينة من ذريّة الأنبياءِ فأنقذَهم، وعوَّض أبوي الغُلام جاريةً وَلَدت سبعةً من الأنبياء، والغلامانِ لم يموتا حتى نالا النبوّةَ والرّسالة، وأعلمَ أنّ للتقوى خاصّيتيْنِ: المخرَج من كلِّ هوْلٍ وشدة، وتيسير الرِّزق والإتيان به من حيثُ لا يَحتسِب، قال اللهُ تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: ٢- ٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: "أبَى اللهُ أن يرزُقَ المؤمنَ إلّا من حيثُ لا يحتسب"، وقال اللهُ تعالى في وَصْفِ المَعاد: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم: ٧٢].

---

(١) كذا.

قيل: إنّ رجلاً منَ الأبدال بَلَغَه أنّ بمدينة كذا رجلاً حدّاداً يُدخلُ يدَه في النار ويأخُذُ الحديدةَ المُحْمرَّةَ بيدِه فلا تعدو عليه النار، فقصَد الرجلُ تلك القرية، فلمّا دَخَلها سأل عن الحدّاد فدُلّ عليه، فلمّا رآه وتأمَّلهُ وَجَده يصنعُ ما قد وُصف لهُ، فأمهَله، حتى [إذا](١) فَرَغ من عملِه أتاه فسلَّم عليه وقال لهُ: إنّي أريدُ الليلةَ أن أكونَ ضيفَك، فقال: نعمْ وكرامةً، واحتملَهُ إلى منزلِه فتعشَّى عندَه وناما جميعاً، فلم يرَ لهُ أثرَ قيام ولا عبادة، فقال: لعلّه يستترُ منّي، فبات عندَه ثانيةً وثالثة فرآهُ لا يزيدُ على الفرائض إلّا اليسيرَ من النوافلِ ولا يقومُ من الليل إلّا قليلاً، فقال لهُ: يا أخي، إنّي سمعتُ ما أكرمَك اللهُ به ورأيتُهُ بادياً عليك، ثم نظرتُ إلى اجتهادِك فلم أرَ عملَ من تَظهرُ عليه الكرامة، فمن أين لك هذا؟ فقال: نعمْ، أنا أُحدّثُك، وذلك أنه كانت لي جارةٌ وكنتُ بها مُولَعاً، فراودتُها عن نفسِها كثيراً فلم أقدرْ عليها لاعتصامِها بالوَرَع، فجاءتْ سنةُ قَحْطٍ وشدّة، فعُدم الطعامُ وعَمَّ الجوعُ البُلدان، فبينما أنا في يوم من الأيام قاعدٌ إذا بقادم يقرعُ الباب، فخرجتُ فإذا بها واقفةٌ، فقالت: يا أخي، أصابني جوعٌ شديدٌ فرفعتُ إليكَ رأسي لتعطيَني شيئاً لله، فقلتُ لها: لا، ألا تعلمينَ ما كابدتُه من حبِّك وقاسيتُه من أجلِك؟ وأنا لا أُطعمُكِ إلّا أن تُمكّنيني من نفسِك، فقالت: الموتُ ولا معصيةُ ربّي، فرجَعتْ، فلمّا كان بعدَ يومين عادتْ وقالتْ ما قالتهُ في المرّة الأولى فأجبتُها مثلَ جوابي الأول، فدخلتْ فقعدتْ في البيت وقد أشرَفتْ على الهلاك، فلمّا وضعتُ الطعامَ بينَ يديْها

(١) إضافة لازمة يقتضيها السياق.

إذْ رقَّتْ عيناها وقالت: تُطعمُني لله؟ فقال: لا، إلّا أن تمكّنيني من نفسِك، فقالت: الموتُ خيرٌ من عذاب الله، ثم قامتْ وترَكتِ الطعامَ فخرجتْ وهي تقولُ:

أيا واحداً إحسانُه يشمُلُ الخَلْقا بسمعِكَ ما أشكو بعينِك ما ألقى
فقد صدمتْني شدّةٌ وخَصاصةٌ ونازَلَني ما بعضُه يمنعُ النُّطقا
كأنّيَ ظمآنٌ ترى الماءَ عينُهُ فلا غُلةٌ تُروى ولا شَربةٌ تُسقى
تُنازعُني نفسي إلى نيل أكلةٍ لذاذتُها تفنَى وقصّتُها تبقى
أأعصيكَ بعدَ مِنّةٍ منك نلتُها فكيف وبالطاعاتِ نستجلبُ الرِّزْقا

قال: فلمّا كان بعدَ يوميْنِ إذا بها تقرعُ البابَ، فخرجتُ إليها فإذا هي واقفةٌ قد قطع الجوعُ صوتَها فقالت: قد أعيتْني الحِيَل ولا أقدرُ على إبداءِ وجهي لغيرِك منَ الناس فهل تُطعمُني لله؟ فقلت: لا، إلّا أن تُمكّنيني من نفسِك، قال فدخلتْ فقعدتْ في البيت، ولم يكنْ عندي طعامٌ حاضر، فقمتْ فأضْرَمتُ ناراً وصنعتُ الطعام، فلمّا نَضِجَ وحملتُه في القصْعة تداركَني اللهُ بلطفِه وقلتُ لنفسي: ويلَكِ! هذه امرأةٌ ناقصةُ عقل ودين تمتنعُ من طعام لا قُدرةَ لها على الصّبر دونَه لِما نالَها من الجوع، وهي تتردَّدُ إليك المدةَ بعدَ المدّة ويمنعُها الوَرَعُ والتقوى، وأنت لا تنتهي عن معصية الله، اللّهمّ إني أتوبُ إليك، فقلتُ لها: كلي ولا روعَ عليكِ، فإنه لله، قال: فرفعتْ بصرَها إلى السماء وقالت: اللّهمّ إن كان صادقاً فأجِرْهُ من نار الدنيا والآخرة، قال: فتركتُها تأكلُ وقمتُ لأردَّ النارَ إلى التنوّر، وكان فصلَ قُرّ وبرد،

فوقعتْ جمرةٌ على قدمي فلم أجدْ لها ألماً لقُدرة الله تعالى، فوقع في نفسي أنّ الله قد أجاب دعوتَها، فأخذتُ الجمرَ بيدي فلم أجدْ لها ألماً ولا مسّاً، فدخلتُ عليها فقلت: أبشري، فإنّ اللهَ قد أجاب دعوتَك، فرَمَتِ الطعامَ وسجدتْ لله وقالت: اللّهمّ كما أريتَني مرادي فيه وأجبتَ دعوتي فاقبضْ روحيَ الساعةَ، فقبض اللهُ روحَها في تلك الساعة رحمةُ الله عليها، فاجتمع الناسُ للصلاةِ عليها، وقال بعضُ من حضرَ الأمرَ:

دعتْ فأجاب مولاها دُعاها ... وتاب على غويٍّ قد دعاها
أراها سُؤلَها فيه امتناناً ... وآتاها كما شاءت مُناها
أتته لبابِه ترجو نوالاً ... وتدعوهُ لكربٍ قد دهاها
فمال إلى غوايتِه وأهوى ... لشهوته وأمّل مُنتهاها
ولم يعلم مرادَ الله فيهِ ... وتوبتُه أتتْه وما نواها
قضايا الله أرزاقٌ فمن لم ... تجئْ من أجله يوماً أتاها

رُويَ أنه كان في بني إسرائيلَ رجلٌ من خيارهم قدِ اجتهد في عبادة ربِّه وزهِد في دُنياه، وكانت له زوجةٌ صالحةٌ تساعدُه على شأنه، وكانا يعيشان بعمل الأطباق والمراويح، يعملانِ بالنهار ويبيعانِ ما عمِلاه بالعشِيّ، يذهبُ به الرجلُ فيدورُ في الأزِقّة والأسواق يلتمسُ مشترياً يبيعُ له ذلك، فمرَّ يوماً ببابٍ من أبواب أهل الرفاهيَةِ من أبناء الدنيا، وكان الرجلُ وضيءَ الوجه جميلَ الصّورة، فرأته امرأةُ صاحب الدار فعشقتْه وكلِفتْ به، وكان زوجُها غائباً، فدعت خادمَها فقالت لها:

هل لكِ أن تتجمَّلي حتى تدخلي على ذلك الرجل؟ فإنّي قد ملتُ إليه بكُليّتي، قال: فخرجت الخادمُ فدعتْه لتشتريَ منه الأطباق على أن يذهبَ معها إلى الدار، فدخلتْ ودَخل بإزائها، فلمّا بلغ الأُسطوانةَ[١] أغلقت الأبوابَ من خلفه وقالت لهُ: اجلسْ حتى تأتيك سيّدتي فتشتريَ منك بأكثرَ ممّا يشتري به الناس، فإذا بسيّدتها قد خرجت فجذبتْه إليها وأدخلتْهُ كُرهًا وقالت: كم لي أطلبُ خلوةً منك! وقد عيلَ صبري من أجلِك، وكم طلبني من الملوك والرُّؤساء فلم أُلقِ على أحد منهم، والرجلُ لا يرفعُ رأسَه حياءً من الله عز وجل وخوفاً من عقابِه، فطمع في أن يُفلتَ منها فلم يستطعْ، فقال: أريدُ منكِ شيئاً، قالت: ما هو؟ قال: ماءٌ طاهر وأصعَدُ به إلى أعلى موضع في دارك أقضي به أمري وأغسلُ به درناً لا يمكنُني أن أُطلعَكَ عليه، قالت: الدار متّسعة لها خبايا وزوايا وبيتُ مَطهَرة، قال: ما غرضي إلّا الارتفاع، قال: فصَعِدتْ به إلى أعلى موضع في الدار ودفعتْ إليه الإناءَ ونزلتْ عنه، فتوضَّأ فأحسَن الوضوءَ ثم صلّى ركعتينِ ثم علا سطحَ المَطهَرة ونظر إلى الأرض فإذا هي بعيدةٌ، فخاف أن لا يصلَ إليها إلّا وقد تمزَّقتْ أشلاؤه، ثم تفكَّر في معصية الله وعذابه فهان عليه بذلُ نفسِه، فقال: إلهي وسيّدي، قد ترى ما نزل بي ولا يخفى عليكَ حالي، وبذلُ نفسي في نَيْل رضاكَ يسير، وأنت على

(١) الأسطوانة، كأقحوانة: السارية، والغالب عليها أن تكون من بناء، وهي فارسية، معرّبة: أُستون. تاج العروس (سطن).

نجاتي قدير، فرمى بنفسِه من أعلى السطح، فبَعَث [اللهُ][1] له ملكاً حَمَلَه على جناحه فأنزله سالماً، فلمّا وَصل إلى الأرض حمِدَ اللهَ ورجَع إلى زوجتِه- وكان قد أبطأ عنها- فسألَتْه: ما فعلتَ؟ كيف ترجعُ دونَ شيء؟ فأخبرها بما عَرَض له من الفتنة وكيف أنجاهُ الله وكيف رَمى بنفسه، فقالت: الحمدُ لله الذي صَرَف عنك الفتنة وأزال عنك المحنة، ثم قالت[2]: إنّ الجيران تعوَّدوا منك أن تُضرمَ النار، فإن رأوْنا الليلةَ دون نار علموا أنا لا عشاءَ عندنا، ومن شُكر الله كتمُ ما نحن فيه من الفاقة ووصالُ هذه الليلة وصيامُها، فقامتْ إلى التنُّور وملأته حطباً لتغالطَ الجيران وأضرمتْه ناراً، قال: فتوضَّيا وقاما إلى الصلاة، فإذا بامرأة من جيرانها تستأذنُها في الدخول لأنْ توقدَ من نارها، فقالت: شأنُكِ والتنّور، فلما دَنت المرأةُ من التنُّور نادتْها: يا فلانةُ، أدركي خبزَكِ قبلَ أن يحترق، فقالت لزوجِها: اسمعْ ما تقولُ هذه المرأة، فقال: سيري وانظري، فمشتْ فإذا التنُّور قد امتلأ خبزاً أبيضَ نقيّاً، فأخذت المرأةُ الأرغفةَ ودخلت بها على زوجها وهي تشكرُ اللهَ تعالى لِما أوْلى من الخيرِ العميم الجسيم، فأكلا وشربا وشكرا اللهَ تعالى. ثم قالتِ المرأةُ لزوجها: تعال ندعُ الله عسى أن يمُنَّ علينا بشيء يعينُنا على كدِّ العيش ويعينُنا على عبادته والقيام بطاعتِه، قال لها: نعم، ثم دعا الرجلُ ربَّه وأمَّنت المرأةُ على دعائه، فإذا سقفُ بيتِهما قد ارتفع، وإذا ياقوتةٌ نزلتْ من السماء فأضاء البيتُ من نورها، فزادا

(١) لفظ الجلالة واجب الإثبات هنا وغفل الناسخ فلم يكتبه.

(٢) في النسخة: قال.

اللهَ ثناءً وشكراً لتلك الياقوتة سروراً عظيماً، ثم صلَّيا ما شاء اللهُ أن يصلِّيا، ثم ناما، فرأتِ المرأةُ في نومِها كأنها دخَلت الجنةَ فرأت منابرَ كثيرةً مصفوفةً وكراسيَّ منصوبةً، فقالت: ما هذه المنابرُ والكراسيّ؟ قيل لها: أما المنابرُ فمنابرُ الأنبياء، وأما الكراسيُّ فكراسيُّ الصّدّيقين، فقالت: وأين كرسيُّ زوجي؟ فقيل: هذا، فنظرتْ فإذا في أحدِ جوانبه ثَلْمة، فقالت: وما هذا الثَّلْمُ؟ فقيل: هي الياقوتةُ النازلةُ عليكما، فانتبهتِ المرأةُ وهي باكيةٌ حزنًا على أن يرُدَّها اللهُ إلى موضعها، فمكابدةُ الجوع والمسكنة في الأيام القلائل الخالية أهونُ من ثلْم[١] كرسيِّك بين أصحابِ الفضائل، قال: فدعا الرجلُ ربَّه فإذا الياقوتةُ قد طارت صاعدةً إلى السماءِ وهما ينظرانِ إليها حتى غابتْ عن أعيُنهما، وما زالا على فقرِهما وعبادتِهما حتى لقيا اللهَ تعالى.

فهذه من نفحاتِ الله للمتّقين، قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ للهَ نفَحاتٍ، فتعرَّضوا لنفحاتِه"[٢] بالتقوى والضّراعة والدُّعاء.

---

(١) كذا في النسخة، وفيها اختلال واضح تقديره أنها أيقظت زوجها وأخبرته بمنامها، أسقطه الناسخ.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (٢٧)، والطبراني في الدعاء (٢٧): عن أبي هريرة، والدولابي في الكنى والأسماء (١٨١٠) عن ابن عمر، والطبراني في المعجم الكبير ١/ ٢٥٠ (٧٢٠) وفي الدعاء (٢٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٠١) عن أنس، ووقفه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٢١ على أبي الدرداء.

قال الهاتف:

حتى متى عنا تصُدُّ وتُعرضُ هلّا إلى نفَحاتِنا تتعرَّضُ
إن كان أعياك السَّقامُ وطبُّهُ فالجأْ إليّ أنا الطبيبُ المُمرضُ
أوَ ليس قد راشتْ جناحَك أنعُمٌ منا، فما لك نحوَنا لا تنهضُ
انزلْ بساحتنا ولذْ بجنابِنا فنزيلُ ساحةِ ربعِنا لا يُرفضُ

وممّن جَعل اللهُ له مخرجًا بسببِ تقواه: جُرَيْجٌ العابد، قال صلى الله عليه وسلم: "لم يتكلَّمْ في المَهْد إلّا ثلاثة: عيسى ابنُ مريم، وصبيُّ المرأة، وصاحبُ جُرَيْج، وكان جُريْجٌ رجلًا عابدًا، فاتّخَذ صَوْمعةً، فجاءتْه أُمُّهُ وهو يصلّي فقالت: يا جُريْج، فقال: يا ربّ، أُمّي وصلاتي! وأقْبَل على صلاته، فانصرفتْ، فلمّا كان منَ الغدِ أتتْهُ وهو يصلّي فقالت: يا جُريْج، فقال: يا ربّ، أُمّي وصلاتي، فأقْبل على صلاته، فلمّا كان منَ الغدِ أتتْهُ وقالت: يا جُريج، فقال: يا ربّ، أُمّي وصلاتي، فأقْبل على صلاته، فقالتْ أُمُّه: اللّهمَّ لا تُمِتْهُ حتى ينظرَ إلى وجه المومِسات. فتذاكر بنو إسرائيلَ جُريجًا وعبادتَه، وكانتِ امرأةٌ بَغِيٌّ في المجلس، قالت: لَأفتِنّنّهُ لكم، فتعرّضتْ له فلم يلتفتْ إليها وتمسَّك بالتقوى والورَع، فأتتْ راعيًا كان يَأوي إلى صَوْمعتِه فمكَّنتْه من نفسِها فواقَعَها فحَملتْ منهُ، فلمّا وَلَدتْ قيل لها: ممّن هذا؟ فقالت: هو من جُريْج الراهب، فأتوْهُ واستنزلوه من صَومعتِه وهدموها وجعلوا يضربونَه، فقال: ما شأنُكم؟ قالوا: زنَيْتَ بهذه البَغِيّ، وقد وَلَدتْ منك، فقال: وأين الصبيّ؟ فجاءوا به إليه، قال: دعوني حتى أصلّيَ، فصلى ركعتيْنِ، فلمّا فَرغ

منهما أتى الصبيَّ وطَعن بطنَهُ وقال: يا غلام، من أبوك؟ فقال: فلانٌ الراعي، قال: فأقْبلوا على جُريْج يُقبِّلونَه ويتبرَّكونَ به، فقالوا: نبن صومعتَكَ من ذهب، قال: لا، بل أعيدوها من طينٍ كما كانت، ففعلوا. وهذا حديثٌ صحيحٌ مُخرَّجٌ في جميع الصِّحاح[1].

ومن ذلك: ما رُويَ، أنه كان رجلٌ في بني إسرائيلَ وهو قاضي جماعتِهم، وكانت له زوجةٌ بديعةُ الجمال كثيرةُ الصَّونِ والاحتمال، فأراد ذلك القاضي النهوضَ إلى حجِّ بيت المقدِس، فاستخْلَف أخًا له على القضاء وأوصاهُ بزوجته، وكان أخوهُ قد سَمع بجمالها وكمالِها، فكلِف بها، فلمّا سافر أخوهُ أقْبل إليها فراوَدَها عن نفسها، فاستعصَمتْ بالتقوى والوَرَع، فلمّا يئس منها خافَ أن تُخبرَ أخاه بصَنيعِه، فاستدعَى عليها شهودًا زُورًا بالزِّنا ورَفَع مسألتَها إلى ملكِهم فأمَر برجْمِها، فحُفرتْ لها حفرةٌ فأُقعدتْ فيها ورُجمت حتى عَلَتْها الحجارةُ، وقال: تكونُ الحفرةُ قبرَها، فلمّا جَنَّ عليها الليلُ جَعلتْ تئنُّ لشدّة ما هي به من الرَّجْم والغمّ، إلّا أنّ اللهَ - بقُدرتِه- أمسك فيها الرُّوح، فمرَّ بها رجلٌ يريدُ قريةً من قرى الشام، فلمّا سَمع أنينَها قَصَدَها فأخْرجَها وحَملَها إلى زوجته وأمَر بمعالجتها حتى برئتْ من جِراحات الرَّجْم واستقلَّتْ وقدَرتْ على النهوض، فدَفَعتْ إليها ولدَها تحملُه وتكفُلُه وتبيتُ في بيتٍ قد جَعلاهُ لها، فرآها بعضُ الشُّطّار فراوَدَها عن

(1) هو في البخاري (١٢٠٦)، ومسلم ٧ و٨- (٢٥٥٠)، من حديث أبي هريرة.

نفسها فاعتصَمتْ بالوَرَع، فعَزَم على قتلها، وجاء لبيتها ودَخل عليها البيتَ وهي نائمة، فأهوى بالسِّكّين ليذبحَها فوَقَع على الصبيِّ، فصاحتْ به ففَرّ، فلمّا عَلم أنه إنّما ذَبح الصبيَّ خاف على نفسِه فخَرج مُستخْفيًا، وعَصَمها اللهُ، فأصبحتِ المرأةُ والصبيُّ مذبوح، فجاءتْ أُمُّه وقالت لها: أنتِ ذبحتِيهِ[1]، فضربتْها ضربًا وجيعًا، ثم أتى أبوه فخلّصها منها وقال لزوجتِه: اتركيها فإنّها بريئة ولا تفعلُ مثلَ هذا، فخلَّصها اللهُ منهم، فخرجتِ المرأةُ فارّةً بنفسِها لا تدري أين تتوجّه، وعندها دُرَيْهِمات، فمرَّت بقريةٍ من القرى فإذا الناسُ مجتمعون على رجُل وهو مصلوبٌ على خشَبة إلّا أنه لم يمتْ، فقالت: يا قوم، ما له؟ فقالوا لها: أصاب ذنبًا لا يُكفِّرُه إلّا قتلُه أو صدَقةُ دراهمَ عددُها كذا، فقالت: خذوا الدراهمَ وخَلُّوا سبيلَه، فدَفعتْ إليهم ما معها من الدراهم فسرَّحوهُ، فتاب على يديْها وآلى على نفسِه أن يخدُمَها[2] لله حتى يتوفاهُ الموت، فبنى لها صوْمعةً وأسكنها فيها، وصار يحتطبُ ويأتيها بقُوتِها، فاجتهدتْ في العبادة حتّى كانت لا يأتيها مريضٌ ولا مُصاب ولا ذو عاهة فتدعو له إلّا شفاهُ اللهُ تعالى.

وكان اللهُ أنزل بأخي زوجِها الذي رَجَمها عاهةً في وجهه، وأنزل بالمرأة التي ضربتْها بَرَصًا، وأقعد الشّاطرَ، فلمّا رَجع القاضي من حجِّه سأل أخاهُ عن زوجتِه

---

(١) كذا، على لهجة العامة، والجادة: ذبحته، بتاء الخطاب المؤنثة المكسورة.

(٢) هذا الفعل يجوز في عينه الضم والكسر، وهو من بابي: نصر وضرب.

فقال له: زَنَتْ فرَجمناها، فاحتَسَبها عند الله. وشاعَ خبرُ المرأة، فكانوا يقصِدونَ صَوْمعتَها من أطراف الأرض، فقال القاضي لأخيه: لو قصَدتَ هذه المرأةَ الصالحة لعلّ اللهَ أن يجعلَ لك على يديْها شفاءً، فقال: احمِلْني إليها، وسَمع بها زوجُ المرأة التي ضربتْها فحَمَلها إليها، وسَمع بها الشاطرُ المقعَدُ فسار إليها، واجتمع الجميعُ عندَ باب صوْمعتِها، وكانت ترى جميعَ من يأتيها من صوْمعتِها ولا يراها أحد، قال: فانتظَروا خديمَها حتى وَصَل فرغِبوا إليه أن يستأذنَ عليها، ففعل، فذهبتْ إلى البابِ لتنظرَ إلى زوجِها وأخيه واللصِّ والمرأة، فعرفتْهم وهم لا يعرفونَها، فقالت لهم: يا هؤلاء، إنكم لا تُشفَوْن ممّا بكم حتى يعترفَ كلُّ واحدٍ منكم بذنبِه السالف، فإنّ العبدَ إذا اعترف بذنبِه ثم تابَ تاب اللهُ عليه وأعطاهُ ما قَصَد، فقال القاضي لأخيه: يا أخي، تبْ ولا تُصِرَّ على معصيتك، فقال: الآنَ أقولُ الحق، فعلتُ وصنعتُ، وقصّ القصّةَ، وقالت المرأةُ أُمُّ المذبوح: كانتْ عندي امرأةٌ نسبْتُ إليها ما لم أعلمْهُ وضربتُها عمدًا ونفيتُها، وقال الشاطر: دخلتُ على امرأةٍ لأقتلَها بعدَ مُراودتِها على الزِّنا واعتصامِها بالوَرع فذبحتُ ولدًا كان بينَ يديْها، ففتحتْ بابَ صوْمعتِها فأبدتْ إليهم وجهَها فعرفَها الجميعُ وخَضَعوا بين يديْها، فقالت: اللّهمَّ كما أريتَهم ذُلَّ المعصية فأرِهمْ عزَّ الطاعة، فشفاهم اللهُ عزّ وجل، فرَجَع إليها زوجُها.

وهذه روايةٌ في الزُّهد والتفكر ينبغي إيرادُها للامتناع بها. قال مالكُ بن دينارٍ[1] رحمه اللهُ تعالى: أتيتُ المقابرَ يومًا على رسْم التفكر والاعتبار، فجعلت أجُولُ بين القبور وأنشدُ بذهنٍ حاضر:

أتيتُ القبورَ فناديتُها فأين المعظَّمُ والمحتقرْ
وأين المذل بسلطانه وأين العزيز إذا ما قدرْ
وأين الملبَّى إذا ما دعا وأين المزكَّى إذا ما افتخرْ

فإذا بصوتٍ من القبور يُجيبُني ويقول:

تفانَوْا جميعًا فلا مخبرٌ وماتوا جميعًا ومات الخبرْ
تنوحُ عليهم بناتُ الثَّرى وتمحو محاسنَ تلك الصُّورْ
وقد قلدَ القومُ أعمالَهم فإمّا نعيمٌ وإمّا سَقَرْ
وساروا إلى مالِكٍ قادرٍ عزيز مطاع إذا ما أمرْ
فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما ترى معتبَرْ

(١) مالك بن دينار السامي الناجي: مولى امرأة من بني ناجية بن سامة بن لؤي بن غالب القرشي، البصري، أبو يحيى (ت١٣١هـ): أحد الأعلام، من رواة الحديث، وكان من زهاد التابعين والأخيار والصالحين والمتعبدة الصبر والمتقشفة الخشن. التاريخ الكبير للبخاري (١٣٢٠)، والثقات، لابن حبان (٥٣١١)، وسير السلف الصالحين، لقوام السنة، ص ٩٣٣، ووفيات الأعيان، لابن خلكان (٥٥١)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال ١٣٥/٢٧، وتاريخ الإسلام ٤٨٨/٣، والأعلام للزركلي ٢٦٠/٥، وسواها، وحكاياته ورواياته كثيرة جدًّا منثورة مشتهرة في غير ما كتاب.

فنظرتُ فإذا بُهلولُ المجنونُ جالسٌ بين القبورِ، وهو ينظرُ إلى السماء فيبتهلُ وإلى الأرض فيعتبر، وعن يمينه فيضحك وعن يسارِه فيبكي، فسلَّمتُ عليه فردَّ عليَّ السلام، فقلت له: يا بُهلول، أراك قعدتَ بين القبور، قال: نعم، قعدتُ بين قوم [إذا قعدتُ][1] لا يؤذونَني وإذا قمتُ لا يغتابونَني، فقلت: أراك إنْ تنظرْ إلى السماء فتبتهل وإلى الأرض فتعتبر وعن يمينك فتضحكُ وعن شمالك فتبكي؟ قال: إذا نظرتُ إلى السماء تذكَّرتُ قولَهُ تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [الذاريات: ٢٢]، وحُقَّ لمن سَمع هذه الآيةَ أن يبتهل، وإذا نظرتُ إلى الأرض تذكَّرتُ قولَه تعالى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ} [طه: ٥٥] الآيةَ، وحُقّ لمن سَمع هذه الآيةَ أن يعتبر، وإذا نظرتُ عن يميني تذكَّرت قولَه تعالى: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ} [الواقعة: ٢٧] وحُقّ لمن سمع هذه الآيةَ أن يضحك، وإذا نظرتُ إلى الشِّمال تذكَّرتُ قولَه تعالى: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ} [الواقعة: ٤١] وحُقّ لمن سَمع هذه الآيةَ أن يبكي، فقلت: والله يا بُهلول إنك حكيم، فهل لكَ من حاجة؟ قال: نعم، أريدُ أن أشتريَ قميصًا حصيفًا، فقلت: نعمْ إن شاء الله، فذهبتُ إلى السُّوق وقد مُلئتُ سرورًا فاشتريتُ له قميصًا جديدًا، فأتيتُهُ والقميصُ معي لأدفعَه إليه، فأخَذه وقلَّبه ورماهُ إليّ، فقال: لستُ أريدُ مثلَ هذا، فقلت: صفْهُ لي يا بُهلول، قال: نعم، أريدُ قميصًا من قُمُص أهل الإخلاص وذوي البصيرةِ والاختصاص، محفوظًا من الدَّنَس والانتقاص، زُرع قطنُه في حديقةٍ مشرقة بأنوار الحدائق، محروسة من الأعراض والبوائق، سُقي من

---

(١) إضافة لازمة لا يستوي النص من دونها.

السَّلسبيل، وحُفظ من العطش بجزيل، فأينَعَ بها وأثمر وأنبتَ قطنًا، ثم التُقط بأنامل الكرام البرَرة، التالينَ لسورة الحمد والبقرة، ثم حُلج بأكُفِّ الوفا، على دقّة الصَّفا، بحركاتٍ بغير خفا، ثم جلَّلته الأوتار، المتّصلةُ بنور الأنوار، ثم غزلتْه بناتٌ طاهرات، ونساءٌ خيِّرات، بمغازل الحمدِ والثناء، والمحبّة السابغةِ والاعتناء، فجُعلتِ الجنّةُ على نَسْجِه ثوابًا، وكان بينَ لابسِه والنار حِجابًا، ثم قُصِر غَسلُ الثوب بماءِ مَعِينٍ عذب، فطلعتْ عليه شمسُ الشَّوق والغَلْق، فسَطَع بياضُه، وزال اعتراضُه، وامتاز، بحُسن الصّنعة والطراز، فأعجَب كلَّ تاجرٍ وبزّاز، فوقع إلى خيّاطٍ مطبوع في صنعتِه، بعيد المدى في همّته، صادق البكاء في عَبرتِه، فنظر إلى الثوبِ بفكره، وقاسَهُ ببصره، وميَّز ما غاب من قدرِه، وأوقَع فيه المِقراض، بلا شكٍّ ولا اغتماض، فجَعل يديْه من حقائق الإخلاص، وقدَّر الكُمَّيْن كامليْنِ بلا انتقاص، ثم علَّق البنائق(١)، وألصَق بهما النَّيافق(٢)، بإيصال الحقائق بالدقائق، وكان الخياطُ بربِّه واثقًا، وللشكوك والظنونِ مفارقًا، ثم قاسَ التدوير، وخَلَطه بلطائفِ التدبير، ثم فتحَ الجيْب، وأمدَّه بشواهد الغيب، وأزال عنه النقصَ والعيب، ثم صوَّر الطرق، وزيَّنه بلواعج الشّوق، فاعتزل القميصَ من أسفلَ إلى فوق. فهل تقدرُ يا مالك، على ذلك؟ فقلت: إنّما يقدرُ عليه من

(١) عرى الأزرار، جمع: بنيقة، كسفينة. الجيم، لأبي عمرو الشيباني١/ ٨٨ (باب الباء)، وتاج العروس (بنق).

(٢) وهو المنطق أيضًا، وأول من اتَّخذه هاجر أم إسماعيل لتخفي أثرها على سارة، كما ثبت في صحيح البخاري وتبعها نساء العرب. قال الخليل: والنيفق: دخيل. قوت المغتذي على جامع الترمذي، للسيوطي ١/ ٤٣٩، و العين ٥/ ١٧٨.

أحاط بوصفِه، ومَلَك لمعانيهِ وكشْفِه، فصفْ لي لابسَه يرحَمْكَ الله، فقال: يلبَسُه قوم خصَّهمُ اللهُ بأنواره، وكتبهم في ديوان أبرارِه، واجتباهم في أزَلِ سابقته، وأقواهُم بالعزائم الصادقة، فأجسامُهم بين أهل الأرض تسعى، وقلوبُهم في غِياض رياض الملكوتِ ترعى، لا يتكلَّمون بغير ذكره لفظة، ولا ينظرونَ إلى غيره لحظة، فهم شموسُ الناظرين، وأقمارُ المشاهدين، بهم يقصمُ اللهُ الجبابرةَ ويُسلِّمُهم، ويرزقُ العبادَ ويرحمُهم، ثم أقام وهو يقول: إليك فرّ الهاربون، ونحوك قصَدَ الطالبون، وببابك أناخ التائبون، ثم ذهب وتركني.

ومن هذا الباب: ما رُوي عن بعض السادات، أنه قال: بينما أنا أطوفُ بالكعبة في ليلةٍ مُظلمة إذْ سمعتُ صوتَ حنين يعبّرُ عن قلبٍ حزين، وهو يقول: يا كريم لطفَكَ القديم، وإنّ قلبي على العهد مُقيم، فطاش لُبّي ووَلِهَ قلبي لسَماع ذلك الصوت، حتى أشرفتُ منه على الموت، فقصدتُ نحوَهُ فإذا هي امرأة، فقلت: السلام عليكِ يا أمةَ الله، فقالت: وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه، فقلت: أسألُكِ بالله العظيم ما العهدُ القديم الذي قلبُكِ عليه مقيم؟ فقالت: لولا أنك أقسمتَ عليّ بالجبار، ما أطلعتُك على الأسرار، انظرْ إلى هذا الصبيِّ النائم بين يديّ، فإذا صبيٌّ يغُطّ، قالت: خرجتُ وأنا حاملٌ به إلى حجّ هذا البيت، فركبتُ البحرَ في سفينة، فهاجت الأمواجُ علينا واختلفت الرّيح فانكسرتِ السفينة، فنجوْتُ على لوح منها ووضعتُ هذا الصبيَّ وأنا على ذلك اللوح، فبينما أنا به في حِجْري والأمواجُ تضربُني إذا بملّاح من خدَمة السفينة قد وَصَل إليّ وحصَل

معي على اللوح، وقال: أنا ما زلتُ أهواكِ وأنا في السفينة، وقد حصلتِ معي، فمكّنيني من نفسِكِ وإلّا رميتُكِ في البحر، فقلت: ويلَك! ما كان لكَ فيما رأيتَ تذكرةً وعبرة؟ فقال: قد رأيتُ مثلَ هذا مرارًا ونجوتُ فأنا لا أبالي، ثم ألحَّ عليَّ فخِفتُ منهُ وأردتُ أن أصانعَه، فقلت: مهلًا حتى ينامَ هذا الصبيّ، فأخَذهُ من حِجري ورماهُ في البحر، فلمّا رأيتُ جُرأتَه وما حلَّ بالصبيِّ طار قلبي وزاد كربي، فرفعتُ طرْفي إلى السماءِ وقلت: يا مَن يحولُ بين المرءِ وقلبِه حُلْ بيني وبينَ هذا العدوّ، فلم أشعرْ إلّا ودابةٌ خرجتْ من البحر فاختطفتْه وبقيتُ وحدي، فتزايد وَلَهي على الصبيِّ ووَجْدي، فقلتُ:

قُرّةُ العين حبيبي ولدي ضاع مني للثناءِ جَلَدي

يا إلٰهي قد ترى ما حلَّ بي فارزق الصبرَ عليه سيّدي

واجمع الشملَ وكنْ لي راحمًا فرجائي لي فيكَ أقوى عُمُدي

قالت: فبقيتُ يومي ذلك إلى الليل، فلمّا أصبحتُ إذا بقلاع بيضٍ تلوحُ في البحر، فما زالت الأمواجُ تقذفُه والرياحُ تسوقُه حتى وصلتُ السفينةَ، فأخَذوني من اللوح وأدخلوني السفينة، فنظرتُ فإذا الصبيُّ بينَهم، فترامَيْتُ عليه وقلت: يا قوم، من أين لكم هذا الصبيّ؟ فقالوا: بينما نحن نسيرُ إذْ حُبِست السفينةُ بنا، فنظرنا فإذا دابةٌ كأنها جبلٌ شامخ، وإذا بهذا الصبيّ على ظهرها يمُصُّ إبهامَهُ، فحدَّثتُهم بقصّتي وشكرتُ ربّي على ما أنالني، وعاهدتُه ألّا أبرحَ بيتَه ولا أنثني

عن خدمته، فما سألتُه بعدها شيئًا إلا أعطانيه، قال: فمددتُ يدي إلى نفقة كانت معي فأعطيتُها منها، فقالت: إليكَ يا بطّالُ عني، أحدّثُك بإفضالِه وكريم فعالِه أفآخُذُ الرِّفدَ على يديّ غيره؟ فلمّا لم أقدرْ عليها أن تقبلَ مني شيئًا تركتُها وانصرفتُ عنها وأنا أنشدُ هذه الأبيات:

وكم لله من لطفٍ خفيٍّ   يدِقُّ خفاه عن فهم الذكيِّ
وكم عُسرٍ أعاد اللهُ يسرًا   ففرَّج لوعةَ القلب الشّجيِّ
إذا ضاقت بكَ الأسبابُ يومًا   فثق بالواحدِ الفردِ العليِّ

ومن ذلك: ما رواه شيخُ المريدين والحُجّاج أبو الحَسن الدرّاج[1]، قال: كنتُ كثيرًا ما آتي مكّةَ شرَّفها الله، وكان الناسُ يتبعوني لمعرفتي بالطريق وحفظ المناهل، فحجَجْتُ في بعض الأعوام فقلت: آخُذ طريقَ الثغر، فدخلتُ القادسيّةَ ثم أتيتُ مسجدَها فدخلت، فإذا رجلٌ مجذومٌ قاعدٌ في المحراب، فلمّا رآني قال: يا أبا الحسن، الصُّحبةَ! فقلتُ في نفسي: فرَرتُ من الأصحّاء فأصحبُ المجذومين؟ فقلت له: إنّي لا أصاحبُ أحدًا، فسكتَ عني، فلمّا أصبحتُ من الغدِ سافرتُ وحدي، قال: فدخلتُ العقبةَ فأويْتُ إلى مسجدها فإذا أنا بالرجُل المجذوم قاعدًا

---

(١) لم أعرفه، وفي تاريخ بغداد إشارة إليه من غير ترجمة، قال الخطيب: "بكير الدراج أخو أبي الحسين وأبي الحسن، وجميعهم من مشايخ الصوفية البغداديين، ذكر ذلك أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب الإخوة والأخوات من الصوفية". تاريخ بغداد ٧/ ٦٠٩.

بالمحراب، فقلتُ في نفسي: سبحانَ الله، كيف سبقني هذا المجذومُ وقد تركتُه بالقادسيّة ولا ظهرَ معهُ ولا قوة؟ فرَفع إليّ رأسَه وتبسَّم وقال: يا أبا الحسن، يصنعُ اللهُ بالضعيف ما يتعجَّبُ منه القويّ، قال: فبتُّ تلك الليلةَ متحيّرًا، فلمّا أصبحتُ سافرتُ وحدي، فلمّا نزلتُ بالقَرْع أويْتُ إلى بعض مساجدِها فإذا هو في محرابِهِ يصلّي، فلمّا فَرغ تراميْتُ عليه فقلت: الصُّحبةَ سيّدي! فجعلتُ أُقبِّلُ قدميْه، فقال لي: ليس إلى ذلك من سبيل، فجعلتُ أبكي وأنتحبُ لِما حُرمتُ منه، فقال لي: مهلًا عليك، فإنه لا ينفعُك البكاء، ثم جَعل يقولُ لي:

أتبكي على بُعدي ومنك ذا البُعدُ ... وتطلبُ ودًّا حين لا يمكنُ الودُّ
نظرتَ إلى ضعفي وظاهر علّتي ... فقلتَ سقيمٌ لا يروحُ ولا يغدو
ولم تدر أنّ اللهَ جلّ جلالُهُ ... يمُنُّ بلُطفٍ ما تخيّلهُ العبدُ
لئن كنتُ في رأي العيان كما ترى ... وفي الجسم من فَرْط الزّمانةِ ما يبدو
وليس معي زادٌ فيوصلَني إلى ... محلّ بهِ يأتي إلى السيّدِ الوفدُ
فلي خالقٌ ألطافُه بي خفيّةٌ ... فليس له ندٌّ ولا منهُ لي بدُّ
فسرْ سالمًا عنّي ودعْني وغُربتي ... فإنّ الغريبَ الفردَ يؤنسُهُ الفردُ

قال: فكنتُ بعدَ ذلك لا آتي منهلًا إلّا وجدتُه قد سبقني إليه، فلمّا وصلتُ المدينةَ غاب عنّي أمرُه وعَمِي عليّ خبرُه، فلقيتُ أبا يزيدَ البَسطاميَّ رحمه الله وأبا بكر الشِّبلي وطوائفَ من المشايخ فذكرتُ لهم قصّتي وشكوتُ غُصّتي، فقالوا:

هيهات! ذلك أبو جعفر المجذوم[١]، بحُرمتِه نستسقي وبه يُستجاب دعاؤنا، فازداد شوقي إليه وإلى لقائه، فسألتُ اللهَ العظيمَ أن يجمعَ شملي به، فبينما أنا واقفٌ بعَرَفات، فإذا جاذبٌ يجذِبُني من ورائي، فالتفتُّ فإذا به، فصحتُ صيْحةً غُشي عليّ منها، فلمّا أفقْتُ من غَشيتي لم أجدْه، فزاد وَجْدي عليه وضاقت عليّ المسالك، فسألتُ اللهَ تعالى رؤيتَه فلم يكنْ إلّا أيامٌ قلائلُ إذا به يجذِبُني من خلفي، فالتفتُ فإذا به، فقلت له: عزمتُ عليكَ بالله إلّا ما وقفتَ، فوقف، فسألتُه أن يدعوَ لي ثلاثَ دعوات، الأولى: أن يُحبِّبَ اللهُ إليّ الفقر، الثانية: أن يرزقَني الصبر، الثالثة: أن يجمعَ اللهُ همّي فيه، فدعا بتلك الدّعَوات، فما برحتُ حتى وجدتُ ذلك من نفسي والحمدُ لله ربّ العالمين.

واعلمْ أنّ التقوى لا تُغني عنك شيئًا ما لم تجعلْ حشوَها سرَّ الإخلاص، قال اللهُ تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة: ٥] الآية، وفي جميع الصِّحاح[٢] أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينما ثلاثةُ رجال ممّن كان قبلَكم يسيرون، إذا أصابَهم المطر، فلجأوا إلى كهفٍ، فبينما هم في الكهفِ إذِ انهار عليهم فسدّتْه صخرةٌ عظيمة لا حيلةَ في قلعِها ولا زوالها، فأيقنوا بالهَلَكة، فقال أحدُهم: يا هؤلاء، إنه لا يُنجيكم ممّا أنتم فيه إلّا أن تسألوا اللهَ بأعمال

---

(١) لم أعرف هذه الشخصية، أعني بهلولًا أبا جعفر هذا.

(٢) وهو حديث الغار، أخرجه البخاري ومسلم، وانظر تفصيلًا في رواته وطرقهم عند الحميدي في: الجمع بين الصحيحين (١٢٦١). وأخرجه أبو داود في سننه (٣٣٨٧) عن ابن عمر.

عملتموها لوجهِه خالصة، فقال أحدُهم: اللهُمَّ إنه كان لي أبوانِ شيخان وكنتُ أُنفقُ عليهما وأقومُ بمُؤْنتهما، وكان لي بنونَ وبناتٌ صغار وكنتُ لا أُطعمُهم إلّا من سُؤر أبويّ، فجئتُ ليلةً بعشائهم فوجدتُ أبويّ قد ناما وإذا الصِّبيةُ يتضاغَوْنَ[1] جوعاً، فكرهتُ أن أوقظَ أبويَّ فأنغّصَ عليهما، وكرهتُ أن أقدِّمَ الصِّبيةَ عليهما، فبتُّ واقفاً حتى استيقظ أبواي فأطعمتُهما ثم ذهبتُ بما فَضَل عنهما إلى الصِّبية، فإنْ كنتَ تعلمُ أنّي ما فعلتُ ذلك إلا لوجهِك وابتغاءَ مرضاتك ففرِّجْ عنا ما نحن فيه، فانشقَّتِ الصَّخرةُ بقدرة الله حتى نظروا إلى السماء، وقال آخَرُ: اللّٰهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنه كانت لي بنتُ عمّ أحبُّها، وكانت ذاتَ منصبٍ وجمال، وكنتُ لا أقدرُ عليها حتى اشترطتْ عليّ أن آتيَها بمئة دينار، فاحتلتُ حتى جمعتُ ذلك فأتيتُها به فمكَّنَتْني من نفسها، فلمّا جلستُ بين شِعبيْها قالت: اتقِّ اللهَ ولا تفُضَّ الخاتَمَ إلّا بحقِّه، فقمتُ عنها وتركتُ لها المالَ، فإنْ كنتَ تعلمُ أنّي ما فعلتُ ذلك إلا لوجهك وابتغاءَ مرضاتك ففرِّجُ عنّا ما نحن فيه، فانفَسخَت حتى وَجَدوا الإرواحَ ولم يقدِروا على الخروج. وقال الثالثُ: اللّٰهمَّ إنك تعلمُ أنّي كنتُ أبني داراً، فجمعتُ البنّائينَ وأعطيتُ لكلٍّ منهم صاعاً من شعير إلّا رجلاً منهم أباه فعزلتُه وجعلتُ أتَّجرُ له فيه حتى جمعتُ منهُ بقراً كثيراً وأعبُداً، ثم جاءني مرةً بعدَ مدّةٍ وقد أضرَّ به الفقرُ يطلبُ صاعَه، فقلتُ له: اذهبْ إلى هذا البقر والأعبُد فهم

(١) في "تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم"، ص ١٧٩: "أي: يصرخون ويبكون، والضغو والضغاء: صوت الذليل المقهور".

صاعُك، فقال لي: إني لم آتِكَ لتستهزئَ بي، فقلتُ له: إنّي لم أزلْ أتَّجرُ لك في صاعك حتى اجتمعَ منهُ ما ترى، فلمّا رأى الجَدَّ مني ذهب إلى بقرِه وأعبُدِه فأخَذ الجميعَ، فإنْ كنتَ تعلمُ أني ما فعلتُ ذلك إلّا لوجهِكَ وابتغاءَ مرضاتك ففرِّجْ عنّا ما نحن فيه، فانجابتْ عنهم الصَّخرةُ فخرجوا يمشُونَ في الشمس". انتهى.

وليس شيءٌ من الأعمال يُبلِّغُ العبدَ إلى أعلى الدرجات في ساعة إلّا الإخلاص، أما ترى أنّ سَحَرةَ فرعونَ أصبحوا وهم يُقسِمونَ {بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ} [الشعراء: ٤٤]، فلمّا رأوا الآياتِ أخلَصوا لله فما أمسَوْا من ذلك اليوم إلّا وهُم المقرَّبون؟ رُوي أنّهم لمّا سَجَدوا كشَف اللهُ لهم ما بينَهم وبين الأرض السابعة من ملكوتِه، ولمّا رَفَعوا رؤوسَهم كُشِف لهم ما بينَهم وبين العرش، فلذلك هان عليهم عذابُ الدنيا في جَنْب ما كوشفوا به من عَظَمة الله تعالى وكبريائه: فقالوا مُجيبينَ لفرعون- لمّا أوعدَهم بقولِه: {لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ} [الشعراء: ٤٩]-: {لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ} [الشعراء: ٥٠]، وقالوا له أيضاً: {فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ} [طه: ٧٢] الآيةَ. فاستمعْ إلى هذا الخطابِ البارزِ من قلوبٍ قد امتلأتْ حِكمةً وإيماناً وأخلصتْ لله استبصاراً وإيقاناً، فلم يكتفُوا بتحقير أمرِه بقولِهم: {لَا ضَيْرَ} حتى حرَّضوه على قتلِهم بقولِهم: {فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ}.

وبالإخلاص وتصميم العزم بَلَغ الشُّنْبُكيُّ[1] في ثلاثة أيام، فكوشف به بعضُ الأولياء، فقال له: أنت الشُّنبُكيّ؟ قال: نعم، قال له: أيَّ عمل عملتَ في هذه الأيام الثلاثة؟ قال له: وما ذلك؟ قال: نوديتُ أنِ اذهبْ إلى الشُّنبُكيِّ قلتُ: يا ربّ، ومن الشُّنبُكيّ؟ قال: رجلٌ أقْبل عليّ بكُليّته فأقبلتُ عليه فبلَّغتُه أعلى مقاماتِ الأولياء في ثلاثة أيام، فقلت: أيْ ربّ، وأين هو؟ فنوديتُ: إنك بموضعِكَ هذا الذي أنت فيه، فأتيتُكَ لأُخبرَك وتدعو لي، فقال: أما إذا قلتَ ما قلت وسألتَ عمّا سألتَ عنهُ ممّا عملتُ في الأيام الثلاثة، فإني تفكَّرتُ في اليوم الأول في الدنيا، فإذا هي أمرٌ حائل وظلٌّ زائل فنبذتُها وراءَ ظهري، ثم تفكَّرتُ في أمر الآخرةِ في اليوم الثاني فإذا هي حظوظٌ وشَهَوات فضربتُ بها وجوهَ طالبيها، ولم يبقَ معي في يومي هذا إلّا الله فأخلصتُ له نيّتي وأقْبلتُ عليه بكُليّتي، لعله يغفرُ حَوْبتي ويَقبلُ توبتي ويرحمُ عَبرتي ويجبُرُ زلّتي.

---

(١) أبو محمد (بدون تسمية). تاريخ إربل، لابن المستوفي ٤٦/٢ (القسم الثاني)، وكذا اسمه وضبطه فيه، ولم أعرفه، وقال محققه الأستاذ سامي الصقار: "إنه انتهت إليه رياسة الصوفية في وقته، وتخرج به السالكون مثل: الشيخ أبي الوفاء، وكان شريف الأخلاق كامل الأدب، وكان في بدايته يقطع الطريق ثم تاب، وتنسب إليه أقوال كثيرة في الحث على الزهد والطاعة". ثم قال: "ذكره الشعراني في "الطبقات الكبرى" إلا أنه لم يذكر تاريخ وفاته، وذكره صاحب "الشذرات" بين أصحاب عدي بن مسافر، كذلك له ذكر في "الكواكب الدريّة"، وهو منسوب إلى الشنابكة".

واعلمْ أنّ علمَ الشريعة ثوبٌ يسترُ مساوئ الرّجال، وعلمُ الحقيقة غذاءٌ تنتعشُ به أرواحُ الدّيانة وأبدالُ الشريعة، فمن تحقَّق ولم يتشرَّعْ فهو مكشوفُ العورات معَ وجودِ الحياة، ومن تشَرّع ولم يتحقَّ فهو ميّتٌ لا محالةَ، والكاملُ مَن جَمع بينَهما. أمَا ترى أنّ الخَضِرَ لم يكمُلْ كلَّ الكمال حتى أخَذ علومَ الشريعة على رسُول الله صلى الله عليه وسلم وفاوَضَهُ في علوم الحقيقةِ والغيوب فصار قائدَ أولياء الله بعدَه في كلِّ عصرٍ وجيلٍ يأخذونَ عليه ويتأدَّبونَ بآدابِه ويشربونَ من موارد شرابِه؟

وهو: الخَضِرُ(١) بن عاميلَ بن سماجيلَ بن علقامَ بن عيصو بن إسحاق(٢)، وكان أبوه عاميلُ ملكاً من ملوك الفرس، وأُمُّه اسمها: ولها بنتُ فارس، وهو أيضاً ملكٌ من ملوكِ الفرس، تزوَّجها الملكُ عاميلُ ثم فضَّل عليها غيرَها فأدركتْها الغَيْرة فخرجتْ معَ حاضنتها في زِيِّ رجُليْنِ على خيلٍ عِتاق وهي حاملٌ بالخَضِر، وكان بينَهما وبين مدينة أبيهما مسيرةُ ستّة أشهر، فخرجتْ وهي تُنشد:

ولُبسُ عباءةٍ وتقَرُّ عيني ... أحبُّ إليّ من لُبس الشُّفوفِ
وموتٌ بالفيافي ألذُّ عندي ... منَ الحَلْي وتصديةِ الكفوفِ

---

(١) بفتح الخاء وقد تكسر، وكسر الضاد وقد تسكن. تفسير الألوسي ٨/ ٣٠١.

(٢) كذا ساق المصنف رحمه الله نسبه واختاره، قال القرطبي في "تفسيره" ١١/٤٤: "واختلف في اسم الخضر اختلافًا متباينًا"، وذكر وجوهًا أخرى، وكذلك فعل ابن الملقن وفصّل أكثر في التوضيح لشرح الجامع الصحيح ٣/ ٣٧٠- ٣٧١.

فلمّا قرُبتْ من بلد أبيها أصابها المَخاضُ فوَلَدتِ الخَضِرَ، فألقتْه في مغارةٍ وطرحتْ عندَ رأسِه أربعةَ أحجارٍ من الياقوتِ البَرْهَمانيِّ[1]، ثم بكتْ وقالتْ:

لقد رسخَتْ في القلبِ منك مودّةٌ   كما رسخَتْ في الراحتيْنِ الأصابعُ
ولكنْ إلهي كُنْ عليه خليفتي   فيا ربِّ ما ضاعتْ لديكَ الودائعُ

فولدتْه بأرضٍ جدْباءَ لا نباتَ فيها فأصبحتْ من ليلتها مُخضرَّةً بالعُشب، فلذلك سمَّته أمُّه الخَضِرَ، وسمّاه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أحمدَ حينَ اتَّبعَهُ وآمنَ به وأخَذ عليه، فاستودعتْه فذهبتْ هي وحاضنتُها إلى مدينة أبيها، فعَثر عليها راعي غنم لأنه رأى شاةً من غنمِه تُرضعُه، فحَملَهُ وحَمل اليواقيتَ، ثم ربّاهُ وتبنّاهُ، فكان لمّا شبَّ آيةً في العلم والكتابة.

ثم إنّ أباهُ أراد أن يكتُبَ صُحُفَ إبراهيمَ عليه السلام، فطلبَ من يُحسنُ الخطَّ البارعَ فدُلَّ عليه فأرسَل رُسُلَه إلى الراعي الذي تبنّاهُ أن يرفعَه إليه ففَعل، فلما رآهُ الملكُ توسَّمهُ فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الرجل، فالتفت الملكُ إلى الرجُل

(١) كذا في النسخة، والصواب في هذه النسبة: بهرماني، الهاء قبل الراء، كما في غير مصدر من مصادر اللغة، وهو ياقوت حجري عقيق أحمر، واسمه: ياقوت سرنديب، والبهرماني أعلى درجاته، وسبب تسميته بذلك أنه يشبه لون البهرماني، وهو الصبغ الخالص الحاصل عن العصفر دون زردج (اسم للعصفر). ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي، ص ٥٣٤، والجماهر في معرفة الجواهر، لأبي الريحان، ص١٥، ونخب الذخائر في أحوال الجواهر، لابن الإكفاني، ص ١، وتكملة المعاجم العربية، لدوزي (بهرم).

الذي أتى به فقال له: إن صدقتَني نجوْتَ وإلّا عاقبتُكَ، فأخبره بكلِّ ما كان، ثم أتاهُ باليواقيت، فقال: الولدُ والله وَلَدي واليواقيتُ يواقيتي، وهي مصروفةٌ إليك وأضعافُها مراراً، ثم خَرج الولدُ عن المملكة إلى أنْ سافر معَ ابن خالتِه ذي القرنيْنِ الأكبر الحِميَريّ إلى بحر الظُّلمات، فشرب من عين الحياة، فهو حيٌّ إلى يوم القيامة[1]، وقيل: يقتلُه الدَّجّالُ ثم لا يقدرُ على إحيائه، وهو الصحيح، ولا يشُكُّ في حياته اليومَ إلّا مُلحد.

وليس منَ الأولياء أحدٌ إلّا وُهو يُلاقيه ويأخُذ عليه، وهو الذي يسمعُ المؤمنونَ سلامَه عندَ المخاوف، وربّما سلَّم من غير خوف.

وعن عليّ[2] رضي اللهُ عنه أنه كان يجتمعُ معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في كلِّ موسم عندَ البيت ويُسلِّمُ عليه ويخلو به ويتحدَّثانِ ما شاء الله أن يتحدَّثا، فإذا

---

(١) قال النووي: "جمهور العلماء على أنه حي موجود بين أظهرنا، وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة"، وقال الألوسي: "ونقل عن الثعلبي المفسر أن الخضر نبي معمر على جميع الأقوال محجوب عن أبصار أكثر الرجال، وقال ابن الصلاح: هو حي اليوم عند جماهير العلماء والعامة معهم في ذلك". شرح النووي على مسلم ١٥/١٣٥، وتفسير الألوسي ٨/٣٠٣.

(٢) في تفسير القرطبي ١١/ ٤٣، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في "الهواتف"، أن عليًّا لقي الخضر وعلمه هذا الدعاء... إلخ- قلت: وهو في "الهواتف" (٧٢)- وفي مصادر أنه من حديث ابن عباس، وأن اللذين يلتقيان هما الخضر وإلياس عليهما السلام. المزكيات، لابن سختوية المزكي (٢٣)، ومشيخة ابن شاذان الصغرى (٥٢)، وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٦/٤٢٧، وغير ذلك، والله تعالى أعلم.

هَمّا بالافتراق يقولان: بسم الله، ما شاء الله، لا يصرفُ السُّوءَ إلا الله، بسم الله، ما شاء الله، ما يكونُ من نعمةٍ فمنَ الله، بسم الله ما شاء الله توكَّلنا على الله حسبُنا الله ونعمَ الوكيل.

فبان من هذا أنّ علمَ الباطن لا يُتوصَّلُ إليه إلّا بعدَ إتقان العلم الظاهر، وذلك في حقِّ السالكين، وأمّا المجاذيبُ فغيبٌ من غيوبِ الله لا يتقيَّدونَ بظاهرٍ ولا باطن، فالواجبُ التسليمُ لهم في أقوالهم وأحوالِهم معَ اعتقادِ كونِهم منَ الله بالمكانة التي لا يُدرَكُ مداها ولا يُحاوَلُ مُنتهاها.

وأمّا السالكونَ فلا؛ لأنّ عقولَهم معَهم، والتكليفُ مبنيٌّ على العقل فلا يسقطُ إلّا بذهابِه، قال اللهُ تعالى: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون} [التوبة: ١٢٢]، يعني: مخالفةَ أمرِ الله وأمرِ رسُولِه، وهو قولُ قَتادةَ ومُجاهد.

وقيل: التفقُّهُ صفةٌ للطائفة النافرة، قال الحسن: {لِيَتَفَقَّهُوا}: الذين خرجوا بما يُريهم اللهُ من الظهورِ على المشركينَ والنُّصرة، {وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون} إذا رَجعوا إليهم، ومعنى ذلك: أنّ الفرقةَ النافرة إذا شاهدوا نصرَ الله على أعدائهم وما يريدُ اللهُ من إعلاءِ دينه وتقويةِ نبيِّه صلى الله عليه وسلم، وأنّ الفئةَ القليلةَ لقد غَلبت جمعاً كثيراً، فإذا رَجَعوا من ذلك النفير إلى

قومِهم من الكفار أنذَروهم بما شاهدوا من دلائل النَّصر والفتح والظَّفَر {لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون} فيتركوا الكفرَ والنِّفاق.

ورُدَّ على هذا القول بأنّ هذا النوعَ لا يُعدُّ فقهاً في الدّين، ويُمكنُ أن يجابَ عنه بأنهم إذا عَلِموا أنّ اللهَ هو ناصرُهم ومُقوِّيهم على عدوِّهم كان ذلك زيادةً في إيمانِهم، فيكونُ ذلك فقهاً في الدّين.

وأمّا الاحتمالُ الثاني- وهو: أن يقالَ: إنّ هذه الآيةَ كلامٌ مستأنَفٌ لا تعلُّقَ لها بالإيمان، وهو ما ذكرتُه قبلُ عن مجاهد[1]، أنّ ناساً من أصحابِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم خَرجوا إلى البوادي فأصابوا معروفاً ودَعَوْا مَن وَجدوا منَ الناس إلى الهدى، فقال الناسُ لهم: ما نراكُم إلّا وقد تركتُم صاحبَكم وجئتُمونا، فوَجَدوا في أنفسِهم من ذلك حرَجاً، فأقْبلوا كلُّهم من البادية حتى دَخلوا على رسُول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ، والمعنى: هلّا نَفَر من كلِّ فرقة طائفةٌ وتقعدُ طائفةٌ ليتفقَّهوا في الدِّين ويُبلِّغوا ذلك إلى النافرينَ ليُنذِروا قومَهم إذا رَجَعوا إليهم لعلّهم يحذَرونَ بأسَ الله ونقمتَه إذا خالفوا أمرَه؟

والآيةُ دليلٌ على أنه يجبُ أن يكونَ المقصودُ من العلم والفقه: دعوةَ الخلق إلى الحقّ وإرشادَهم إلى الدِّين القويم والصّراط المستقيم، وكلُّ مَن تفقَّه وتعلَّم لهذا

(١) تفسيره، ص ٣٧٧.

المقصِد كان على المنهج القويم والصراط المستقيم ومَن عَدَل عنه وتعلَّم العلمَ لطلبِ الدُّنيا والجاه ورفْع الصِّيت، كان من الأخسَرينَ أعمالاً.

ومن رواية أبي هريرةَ(١)، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أول من تُسَعَّرُ به النارُ يومَ القيامة ثلاثة: عالم، ورجلٌ مات بينَ صفَّي المسلمينَ والمشركينَ غازياً، وذو مال مُنفِق"، قال: فقلنا: ما بالُهم يا رسُولَ الله؟ إذا لم ينجُ هؤلاءِ فمن ينجو؟ قال: "من أخلصَ عملَه لوجهِ الله، قال: يوقفُ العالمُ بينَ يدَي الله فيقالُ له: ما عملتَ فيما علمتَ؟ فيقول: أيْ ربّ، أمرتني بتعلُّم العلم فتعلَّمتُ وعملتُ وعلَّمتُ، فيقول: صدقتَ، ولكنْ كنتُ أعلم من نيّتِك أنك لم تُرِدْ بذلك وجهي وإنّما أردتَ أن يُرفعَ صِيتُكَ به في الأرض فيقالَ: فلانٌ عالمٌ عاملٌ تقيّ، فقد قيل ذلك، وهو حظُّكَ من علمِك، اذهبوا به فكُبُّوهُ في النار على مَنخَريْه، ثم يُؤتى بالمُجاهد حتى يوقفَ بين يدَي الله، فيقول: فيمَ قُتلتَ؟ فيقول: يا ربّ، أمَرْتَ عبادَكَ بالجهاد وأوجبتَه عليهم، فغزوتُ في سبيلِك فمِتُّ مُقبِلاً غيرَ مُدبِر، فيقولُ: صدقتَ، ولكنْ كنتُ أعلمُ من نيّتِك أنك لم تُردْ بذلك وجهي ولا إعلاءَ كلمتي، بل كنتَ تريد أن يرى الناسُ جُرأتَك وشجاعتَك ليقالَ: فلانٌ باسلٌ شجاعٌ وقد قيل ذلك، وهو حظُّك، اذهبوا به فكُبُّوه في النار على مَنخَريْه، فيفعلوا(٢) به ذلك، ثم يؤتى بصاحبِ المال حتى يقفَ بينَ يدَي الله فيقولُ: ما صنعتَ في مالي الذي فضَّلتُكَ به؟ فيقول: يا ربّ، جمعتُه لا من شُبهة ولا حرام، فأنفقتُ منه على عيالي

(١) عند الترمذي (٢٣٨٢)، وغيره، وقال: "هذا حديث حسن غريب".

(٢) كذا، والجادة: فيفعلون.

غيرَ مُسرِف ولا مُقتِّر، ووصلتُ فيه رَحِمي وأكرمتُ ضيفي وأدَّيتُ زكاتي وتصدَّقتُ منه على ذي الحاجةِ الفقير، فيقولُ اللهُ تعالى: صدقتَ، ولكنْ كنتُ أعلمُ من نيّتِك أنك لم تُردْ بذلك وجهي، بل كنتَ تريدُ بذلك أن يقولَ الناسُ: فلانٌ كريمٌ مُنفقٌ وَصُول، وقد قيل ذلك، وهو حظُّكَ، اذهبوا به فكُبُّوهُ في النار على مَنخَرَيْهِ فإنّي لا أقْبَلُ من الأعمال إلّا ما كان خالصاً لوجهي".

قال صلى الله عليه وسلم: "الناسُ كلُّهم هالكونَ إلّا العلماءُ[١]، والعلماءُ كلُّهم هالكونَ إلا العاملون، والعاملونَ كلُّهم هالكونَ إلّا المخلِصون، والمخلِصون على خطرٍ عظيم"[٢]، فلمّا سمعه عليٌّ رضي الله عنه قال: ليس العَجَبُ ممّن هلكَ كيف يهلِكُ، وإنّما العجَبُ ممّن نجا كيف نجا[٣].

---

(١) المستثنى في الحديث مرفوع تباعًا على ما ترى، والواجب نصب جميع المستثنيات فيه: العلماء، العاملون، المخلصون، ولكنّ رفع المستثنى وحقه النصب وجوبًا ها هنا قد تطرق إلى الراوي على شاكلة قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكرُ الله وما والاه، وعالمٌ أو متعلم" المروي عند الترمذي (٢٣٢٢) وابن ماجة (٤١١٢)، وتقدير رفع المستثنى فيه على التأويل، وهي نظرية فرضها شرف الدين الطيبي (ت٧٤٣هـ) فحواها: أن التقدير: "كأنه قيل: الدنيا مذمومة لا يحمد مما فيها إلا ذكر الله تعالى وعالم أو متعلم". شرح المشكاة، للطيبي ١٠/ ٣٢٨٤. قلت: وليست هذه كتلك.

(٢) أخرجه النيسابوري في تفسيره المسمى "غرائب القرآن ورغائب الفرقان" ١/ ٢٣٥.

(٣) تؤثر هذه الكلمة عن عيسى ابن مريم عليه السلام، كما في تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، للسمرقندي، ص ٦٠٣.

رُويَ[1] أنّ سُليمانَ بنَ عبد الملك بَعث إلى أبي حازم[2]، فجاءه، فقال: يا أبا حازم، ما لنا نكرهُ الموتَ؟ قال: لأنكم خرَّبتُم آخرتَكم وغمرتُم دنياكم، فأنتم تكرهونَ أن تنتقلوا من دارٍ قد عمَرتُموها إلى دارٍ قد خرَّبتموها[3]، قال: صدقتَ، قال: فكيف القدومُ إلى الله تعالى؟ قال: أمّا المُحسنُ فكالغائب يقدَمُ على أهله، وأمّا المسيءُ فكالآبق يقدَمُ على مولاه، فبكى سُليمانُ فقال: ليت شعري، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ قال: اعرضْ نفسَك على كتابِ الله عز وجل فإنك تعلمُ ما لك عندَ الله، قال: يا أبا حازم، وأين أجدُ ذلك؟ قال: عندَ قولِه تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار: ١٣ - ١٤]، فقال سُليمان: فأين رحمةُ الله؟ قال: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦]، قال: كلُّ عمل تكرهُ الموتَ من أجلِه فاتركْهُ، ولا يَضرَّك متى مِتّ.

فالإحسانُ هو عينُ الإخلاص أو موجبُه؛ لأنّ حقيقةَ الإحسان أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه، ويستحيلُ فيمن هذا صفتُه أن يعملَ عملاً لغير الله خالصاً، لأنّ ثلاثةَ

(١) الخبر في سنن الدارمي (٦٧٣)، وحلية الأولياء ٣/ ٢٣٤، سير السلف الصالحين، لقوام السنة، ص ٧٩٧، وسواها.

(٢) هو أبو حازم الأعرج المدني التمار القاص الزاهد، واسمه: سلمة بن دينار (ت١٤٠هـ). تهذيب الكمال في أسماء الرجال ٣٣/ ٢١٦، وتاريخ الإسلام ٣/ ٦٦٤، وفيهما مصادر ترجمته.

(٣) هذا جواب بديع لعمري.

أحوال متلازمة: الإحسانُ والإخلاصُ والمراقبة، فلا يمكنُ وجودُ واحدٍ منها بدون الآخَر.

وعن البزّار[١] بسندِه، عن عمّار بن ياسر رضي الله عنه، قال: بعثني النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى حيٍّ من قَيْس[٢] أُعلِّمُهم شرائعَ الإسلام، فإذا قومٌ كأنهمُ الإبِلُ الوَحْشيّة طامحةٌ أبصارُهم، ليس لهم إلّا شاةٌ أو بعير، فانصرفتُ إلى رسُول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا عمّارُ، ما عملتَ؟"، فقصَصْتُ عليه قصّةَ القوم وأخبرتُه بما هم فيه من غَلَبة الشّهوة، فقال: "يا عمّار، ألا أخبرُكَ بأعجبَ منهم؟ قومٌ عَلِموا بما جَهِل أولئك ثم سَهَوْا كسهوِهم".

وعن عَدِيٍّ بن حاتم رضي اللهُ عنه، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يُؤتى بأُناس يومَ القيامة إلى الجنة، حتى إذا دَنَوْا منها واستنشَقوا روائحَها وعاينوا ما أعدَّ اللهُ فيها لأوليائه نُودوا: أنِ اصرِفوهم عنها فليس لهم فيها نصيب، فينصرفونَ بحسرةٍ ما انصرف بها أحدٌ من الأوَّلينَ والآخرين، فيقولون: ربَّنا، لو أدخلتنا النارَ قبلَ أن تُريَنا ما أريتنا ما أعددتَ لعبادك المُخلَصين، فيقول لهم: ذلك أردتُ بكم، كنتم إذا خلوْتُم بي بارزْتُموني بالعظائم وإذا لقيتُم الناسَ لقيتُموهم مُخبِتين، تُرُونَ الناسَ من أعمالِكم خلافَ ما تعطوني من قلوبِكم، هبتُم الناسَ ولم

(١) في مسنده (١٤٣١).

(٢) تحرفت في النسخة: "قريش"

تهابوني، وأجللتُم الناسَ ولم تُجِلُّوني، فاليومَ أذيقُكم ألَمَ عقاب معَ حُرمتكم من عظيم ثواب"(١).

ولا يلفتنَّكَ ما بَلَغك من إثم مَن عَلِم ولم يعملْ وما بَلَغك من الزَّجرِ عن طلبِه لغير وجهِ الله، ولكنْ تعلَّمْ واجتهدْ في طلب الإخلاص والتوفيق للعمل، وجاهدْ نفسَك باستعمال ما علمتَ في الحال، فإنّ ذلك يَريضُها ويورثُكَ علمَ ما لم تعلمْ، فإنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من عَمِل بما علم أورثَه اللهُ علمَ ما لم يعلم"(٢).

والتقوى سُلَّمُ الترقّي إلى تحصيل العلم النافع، والعلمُ النافع هو الذي يُزهّدُك في دُنياك ويُرغِّبُك في أُخراك ويأخُذ برُمّتِك إلى مولاك، وحقيقتُه: ما اكتنفتْه الخَشيةُ وخالطتْه الفكرة وزاحمتْه العِبرة وغَشِيتْه المعرفة، ولَأنْ تتوسَّد علماً خيرٌ لك من أن تتوسَّدَ جهلاً، وقيل: ويلٌ للجاهل إذا لم يتعلَّمْ وويلٌ للعالم إذا تعلَّمَ ولم يعملْ سبعينَ مرّة، وقال صلى الله عليه وسلم: "أشدُّ الناس عذاباً يومَ القيامة عالمٌ لم ينفعْه اللهُ بعلمِه"(٣)، وقال(٤): "أخوَفُ ما أخافُ على أُمّتي عالمُ السَّوء، وإنه

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٧/ ٨٥ (١٩٩) والأوسط (٥٤٧٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ١٢٤-١٢٥، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٤/ ٢٨، وسواهم.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٥.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٧٨)، وسواهما.

لَأشدُّ فتنةً عليها منَ الدَّجال[1]، وإنّ أهلَ النار يتأذَّوْنَ بنتنِ بطنِه في النار[2]، وإنه[3] لَيُلقَى في النار فتنزلقُ أمعاؤه فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ حولَ الرَّحى، فيطوفُ به أتباعُه فيقولون له: ويلَك! ما بالُك؟ ألستَ كنتَ تأمُرُنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: يا ويْلاهُ! كنتُ آمرُكم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكُم عن المنكرِ وآتيه".

فصلٌ: في فضل العلم والعملِ بهِ

قال الرسُولُ صلى الله عليه وسلم: "مَن يُرِدِ اللهُ به خيراً يُفقِّهْهُ في الدِّين وإنّما أنا قاسمٌ ويعطي اللهُ *ما يشاء لمن يشاء، وإنكم تأخُذونَ عنّي ألقابَ المسائل، وسيأتي قومٌ من بعدِكم يستخرجونَ من المسألةِ الواحدةِ مئةَ مسألة*[4]، ولن يزالَ أمرُ هذه الأُمّة مستقيماً حتى تقومَ الساعةُ وحتى يأتيَ أمرُ الله"[5].

---

(١) إلى هنا عند أحمد في مسنده (٧٦٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٨٦٤١)، وسواهما، عن علي بن أبي طالب.

(٢) تأذي أهل النار ليس بنتنه من متن أحد الحديثين.

(٣) من هنا إلى آخره، أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم ٥١- (٢٩٨٩) عن أسامة بن زيد.

(٤) ما بين نجمين ليس من متن الحديث في مصدري التخريج

(٥) رواه البخاري (٧١) و(٧٣١٢)، ومسلم بإثر حديث ٩٨- (١٠٣٧) و١٠٠- (١٠٣٧)، عن معاوية.

وعن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه قال: [قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم][1]: "تجدونَ الناسَ معادنَ، خِيارُهم في الجاهليّة خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهوا"[2].

وعن ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشَّيطان من ألفِ عابد"[3]، وقال: "فضلُ العالِم على العابد كفضلي على أدناكم"، وفي رواية: "كفضل الشمسِ على سائر الكواكب".

وحقيقةُ الفقه: التوصُّلُ إلى علم غائبٍ بعلم شاهد، وفي الاصطلاح أنّ الفقهَ عبارةٌ عن: العلم بأحكام الشَّرع وأحكام الدين. وذلك ينقسمُ إلى: فَرْضِ عيْن وفرضِ كِفاية، ففرضُ العيْن: معرفةُ أحكام الطّهارة وأحكام الصّلاة والصَّوم، وعلى كلِّ مكلَّفٍ معرفةُ ذلك، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم"[4]، ذكَره البَغَويُّ بغيرِ سَند[5]. وكذلك كلُّ عبادة وَجَبتْ

(١) ما بين معكوفين سقط من النسخة، وهو ثابت في مصدري التخريج.

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٣) و(٣٣٨٣) و (٣٤٩٣) و(٣٤٩٦) و(٣٥٨٨)، ومسلم ١٦٨- (٢٣٧٨) و ١٦٠- (٢٦٣٨)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه ابن ماجة (٢٢٢).

(٤) رواه ابن ماجة (٢٢٤) عن أنس.

(٥) في شرح السنة ١/ ٢٩٠.

على المكلَّف بحُكم الشَّرع يجبُ عليه علمُها مثلَ: عِلم الزَّكاةِ إذا حصَل لهُ مالٌ يجبُ في مثلِه الزَّكاةُ، وعِلم أحكام الحجِّ إذا وَجَب عليه.

وأمّا فرضُ الكفاية منَ الفقه فهُو: أن يتعلَّمَ حتى يبلُغَ درجةَ الاجتهاد ودرجةَ الفُتْيا، وإذا قَعَد أهلُ بلدٍ عن تعلُّمِه عَصَوْا جميعاً، وإذا قام به من كلِّ بلد واحدٌ فتعلَّم حتى بلَغ درجةَ الفتوى سَقَط الفرضُ عن الباقينَ وعليهم تقليدُه فيما يقعُ لهم منَ الحوادث.

وعن أُمامةَ، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "من سَلَك طريقاً يلتمسُ به علماً سهَّل اللهُ لهُ طريقاً إلى الجنّة"، أخرجه الترمذيّ[1].

وعن أنس، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "من خَرَج وهُو يطلُبُ العلمَ فهُو في سبيل الله حتى يَرجِعَ"، أخرجه الترمذيُّ أيضاً[2].

وعن عبدِ الله بن عَمْرِو بن العاص، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "العلمُ ثلاثةٌ وما سوى ذلك فهُو فَضْل: آيةٌ مُحكَمة، وسُنّةٌ قائمة، وفريضةٌ عادلة"،

---

(١) أخرج الترمذي في سننه ثلاثة أحاديث بهذا اللفظ ليس فيها ثلاثتها أمامة، فالأول منها: (٢٦٤٦)- وقال: "هذا حديث حسن"- والثالث: (٢٩٤٥)، وكلاهما عن أبي هريرة، وأما الثاني: (٢٦٨٢) فعن أبي الدرداء. وقد أورد بعضه البخاري في باب: العلم قبل القول والعمل، من كتاب العلم ١/ ٢٤، فلهذا لا يعد في تعاليقه، لكن إيراده له في الترجمة يشعر بأن له أصلًا، وأخرجه مسلم ٣٨- (٢٦٩٩) عن أبي هريرة، وهو من أفراده.

(٢) في السنن (٢٦٤٧).

أخرجه أبو داود(1). فالآيةُ المُحكَمةُ: هي التي لا اشتباهَ فيها ولا اختلافَ في حُكمِها وما ليس بمنسُوخ، و{هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} [آل عمران: ٧]. والسُّنّةُ القائمة هي: المستمرّةُ الدائمةُ المعمولُ بها التي لا خَللَ في إسنادِها. والفريضةُ العادلة هي التي لا جَوْرَ فيها ولا حَيْفَ في قضائها وقِسمتِها.

قال الفُضَيلُ بن عِياض: عالمٌ عاملٌ عابدٌ: عظيمٌ في ملَكوتِ السماء، أخرجه الترمذيّ، وقال الشافعيُّ: طلبُ العلم أفضلُ من صلاة النافلة(2)، وعن أبي هريرة، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ الملائكةَ لَتضَعُ أجنحتَها لطالبِ العلم رضًا بما يصنع"، أخرجه البيهقيّ(3). وعنه أيضًا، عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنّ الحِيتانَ في البحر والطَّيرَ في الهواء والوَحشَ في الفَلَوات لَيستغفرونَ لطالبِ العلم". . رُوي أنه يوزَنُ دمُ الشُّهداء ومِدادُ العلماء، فيرجحُ مِدادُ العلماء بدم الشهداء٤. ومن مات في طلبِ العلم قبلَ حصُول

(١) في سننه (٢٨٨٥) وإسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن رافع التنوخي وعبد الرحمن بن زياد وهو ابن أنعم.

(٢) في مسنده- بترتيب سنجر- (١٨١٦)، وفي آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم، ص ٧٢.

(٣) في السنن الكبرى (١٣٥٦)، والسنن الصغير (١٢٣) من حديث صفوان بن عسال.

(٤) رواه أبو الطيب الجعفري في جزء ابن عمشليق (١٤).

المقصود بَعَث اللهُ له ملكيْنِ يُعلِّمانِه في قبرِه حتى يبعثَه اللهُ يومَ القيامة عالِمًا فقيهًا، أخرجه أبو داودَ في فضْل العلم(١).

رُوي أنّ سُفيانَ بن عُيَيْنةَ كَتَب إلى مالكٍ رضي اللهُ عنه: من عبدِ الله سُفيانَ بنِ عُيَيْنةَ إلى أخيه مالكِ بن أنس، السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه، أمّا بعدُ، فإنه بَلَغني عنك أنك اشتغلتَ بأمر العامّة واجتماع الناس عليك، وبَلَغني عنك من رفاهيَةِ العيش ما لا يليقُ بأمثالك من لُبس الرَّقيق وأكل الرِّقاق(٢)، ولم يبلُغْني عنكَ كبيرُ عبادة، وأخافُ عليكَ أن تكونَ مِلتَ بكُليّتِك إلى شَهَواتِ الدُّنيا وزينتِها، وأنت تعلمُ أنّ اللهَ تعالى قد ذمَّ أقوامًا بالاشتغال بالطيِّباتِ في هذه الحياة الفانية، فقال: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا} [الأحقاف: ٢٠] الآيةَ. وأنت تعلمُ أيضًا ما كان عليه سَلَفُك ومَن أدركتَ منهم من التقشُّف والإعراض عن زينة الدنيا، فلا تخالفْ سبيلَهم فيُخالَفَ بك إلى النار، وإياكَ أن تجعلَ كتابي هذا في غير الموضع الذي هُو به في نفسي، وهُو النُّصحُ لك، فإنّ اللهَ يقول: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: ٣]، والسلامُ عليك.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في النسخة هنا وفي الموضع الآتي من جواب مالك عليه: الرقيق، خطأ استدركه الناسخ نفسه وأصلحه في الحاشية، فطابق ما أثبتناه.

فلمّا قرأ مالكٌ كتابَه كَتب إليه: من عبدِ الله مالكِ بن أنس إلى أخيه سُفيانَ بن عُيَينة، السلامُ عليكَ ورحمةُ الله وبركاتُه، أمّا بعدُ، فإنه بَلَغَني كتابُك فقرأتُه ووقَعَ منّي موقعًا عظيمًا. أمّا ما ذكرتَ منَ اجتماع الناس عليّ فإنّي لم أدعُهم إلى نفسي، ولو دعوتُهم إلى نفسي لكان ذلك من حقِّ الواجبِ عليّ[1]، فإنّ اللهَ تعالى يقولُ لرسُوله: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف: ١٠٨]، والعلماءُ وَرَثةُ الأنبياء فتجبُ عليهم الدعوةُ إلى الله بما معَهم منَ العلم وإن لم يفعلوا فقد خالفوا أمرَ الله وخانوا الأمانةَ وضيَّعوا ما جَعلهم اللهُ مُستخلَفينَ فيه من تبليغ العلم والحكمة، فإنّ اللهَ تعالى كما أَخَذ العهدَ على الأنبياءِ بالتبليغ فقد أَخَذه على العلماءِ بالتبيين، فقال: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} [آل عمران: ١٨٧]، وإنّ اللهَ قَسَم بين الناس أعمالَهم كما قَسَم بينَهم أرزاقَهم، وجَعل قسمَ تعليم الكتابِ والسُّنّة: بيانَهما، ولستُ أرى ما أنت فيه بأفضلَ ممّا أنا فيه إن صحَّتِ النيّة، وكلانا بخير. وأمّا ما ذكرتَ من لُبسي الرقيقَ وأكلي الرِّقاقَ فلستُ بمُخالِف في ذلك سبيلَ السَّلَف، فإنّ اللهَ تعالى يقول: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} [الأعراف: ٣٢]، وكان صلى الله عليه وسلم يلبَسُ ما وَجَد ولا يأنَفُ من لُبس

---

(١) كذا عبارة الناسخ، ولعل استقامتها أن يقول: من حقي الواجب عليهم، أو يقول: من الحق الواجب عليّ لله، إحدى العبارتين، ويعضده ما بعده.

الثّوب الخشِن لخشونتِه ودناءته ولا لُبس الثوبِ الرفيع[1] لخِسّته ودماثتِه، ولقد كانت تُشترى له الحُلّةُ للقاءِ الوفود بالثمن الرفيع فيلبَسُها للقائهم، ولقد كان يحبُّ الحَلواءَ والعسلَ واللَّحمَ والثَّريد، ويأخُذ منه أخذًا صالحًا إذا وَجَده، ويأكُلُ ما وَجَد، ولم يكنْ ذلك تشهِّيًا منه ولا ميلًا إلى طيّباتِ الحياة الدنيا. ولقد كانت تُلازمُني الوفودُ يأتونَني من أقطار الأرض، وكنت ألبَسُ رقائقَ الكَتّان استمالةً لهم إلى الحقّ وكرامةً للعلم؛ لأنّ حُسنَ الظاهر يجلُبُ[2] أهلَ الظاهر حتى يوصلَهم إلى ذَوْق حلاوة الدِّين ولَذّة العلم، وليس لي في زينة الدنيا من أرَب. وأمّا أكلي الرِّقاقَ فإنه قد حَدث بأحشائي من ضَرْب المنصور إيّاي فَتْقٌ ضعَّفَ[3] معِدتي عن هضْم غير الرقاق، فلا تترُكني من كتابِك متى تخيَّلتَ منّي خللًا في السُّنة أو الديانة، فإنه سبيلُ سلفِك والسلامُ عليك.

فصلٌ: في حقائقِ الذِّكر وما شرُفت به هذه الأُمّةُ من ذلك

قال اللهُ تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [البقرة: ١٥٢]، ولذلك عشرون معنى، وهي: {فَاذْكُرُونِي} بالإخلاص {أَذْكُرْكُمْ} بالاختصاص، {فَاذْكُرُونِي} بالحضور {أَذْكُرْكُمْ} بتيسير الأمور، {فَاذْكُرُونِي} بالنيّة {أَذْكُرْكُمْ} بجزيل العَطيّة، {فَاذْكُرُونِي} بالصَّفاء {أَذْكُرْكُمْ} بغُفران الجفاء، {فَاذْكُرُونِي} بالقلوب {أَذْكُرْكُمْ}

---

(١) كذا في النسخة: الرفيع، بفاء معجمة بنقطة واحدة من تحت على الطريقة الأندلسية.

(٢) يجوز في عين هذا الفعل الضم، وبابه: طلب، والكسر، وبابه: ضرب. مختار الصحاح (جلب).

(٣) كذا.

بغُفران الذنوب، {فَاذْكُرُونِي} بالضمائر {أَذْكُرْكُمْ} برَفْع الضرائر، {فَاذْكُرُونِي} برَفْع الأصوات {أَذْكُرْكُمْ} بتيسير الأوقات، {فَاذْكُرُونِي} في الخَلَوات {أَذْكُرْكُمْ} بالرّحمة والصَّلَوات، {فَاذْكُرُونِي} بلا نسيان {أَذْكُرْكُمْ} بمغفرة العصيان، {فَاذْكُرُونِي} بالمساءِ والصباح {أَذْكُرْكُمْ} باللُّطف والفلاح، {فَاذْكُرُونِي} في السُّجود {أَذْكُرْكُمْ} بالنِّعمة والجود، {فَاذْكُرُونِي} بالمعذرة {أَذْكُرْكُمْ} بالمغفرة، {فَاذْكُرُونِي} بأداءِ الفريضة {أَذْكُرْكُمْ} بالنِّعمة العريضة، {فَاذْكُرُونِي} بالأسحار {أَذْكُرْكُمْ} بغَرْس الأشجار، {فَاذْكُرُونِي} بالاستغفار {أَذْكُرْكُمْ} بالعَشِيِّ والإبكار، {فَاذْكُرُونِي} بالأيام القلائل {أَذْكُرْكُمْ} بلُبْس الحُلل والغلائل، {فَاذْكُرُونِي} بالصّبر على البلاء {أَذْكُرْكُمْ} بالدرجةِ العلياء، {فَاذْكُرُونِي} بالشّوق والحبّ {أَذْكُرْكُمْ} بالدُّنوِّ والقرب، {فَاذْكُرُونِي} بالألباب {أَذْكُرْكُمْ} بزوال الحِجاب، {فَاذْكُرُونِي} على التوالي {أَذْكُرْكُمْ} بفضلي ونوالي.

وليس العَجَبُ من قولِه: {فَاذْكُرُونِي}، وإنما العجَبُ من قولِه: {أَذْكُرْكُمْ}، وليس العجَبُ من قوله: {يُحِبُّونَهُ} وإنما العجَبُ من قولِه: {يُحِبُّهُمْ} [المائدة: ٥٤]، وليس العجَبُ من فقيرٍ يُحبُّ مُحسنًا وإنّما العجَبُ من مُحسن غنيّ يحبُّ فقيرًا.

نزل جبريلُ على رسُول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنّ اللهَ تعالى يقول: "إني أعطيتُ أُمّتَك ما لم أُعطِ أُمّةً من الأُمم"، قال: "وما هو؟"، قال: قولُه تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}.

ولقد أجْزلَ العطاءَ والموهبة، لمن حَظِي هذه المنقَبة، حيث خَلَق المَلَك والفلَك، والنورَ والحلَك، والعُلويَّ والسُّفلي، والعرشَ والكُرسيّ، والبهائمَ

والهوامّ، والوحشَ والأنعام، ولم يقلْ لصنفٍ من هذه الأصناف: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} معَ انكبابها على تسبيحِه أبد الآباد، فهي تَوَدُّ شكرَ مولاك، على ما أنعَم به عليك من هذه النِّعم وأولاك. قال أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: سُئل رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ العباد أفضلُ عند الله يومَ القيامة؟ قال: "الذاكرون اللهَ كثيرًا"، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، ومنَ الغازي في سبيل الله؟ قال: "لوضربَ بسيفِه في المشركينَ لكان الذاكرونَ اللهَ كثيرًا أفضلَ منه [درجةً]"(١). ذكره الترمذي(٢).

وقال عبدُ الله بن بُسْر(٣) رضي الله عنه: قال رجُل: يا رسُولَ الله، إنّ شرائعَ الإسلام كثُرتْ عليّ، فأْمُرْني بشيءٍ أتشبّثُ به، قال: "لا يزالُ لسانُك رطبًا بذكر الله". أخرجه الترمذيّ(٤).

قال أبو الدّرداءِ رضي الله عنه: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أُنبِّئُكم بخيرِ أعمالِكم وأزكاها عند مليكِكم، وأرفعِها في درجاتِكم، وخيرٍ لكم من

---

(١) سقط هذا اللفظ من النسخة وهو ثابت في مصدر تخريجه الآتي.

(٢) في سننه (٣٣٧٦).

(٣) في النسخة: بشر، تصحيف.

(٤) في سننه (٣٣٧٥).

إعطاءِ الذّهبِ والفضة، وخيرٍ لكم من أن تلقَوْا عدوَّكم فتضربوا أعناقَهم ويضربوا أعناقَكم؟"، قالوا: وما ذلك يا رسولَ الله؟ قال: "ذكرُ الله"[1].

وقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معَه إذا ذكرني، فإنْ ذَكَرني في نفسِه ذكرتُه في نفسي، وإنْ ذَكَرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ خيرٍ منه، وإنْ تقرَّب إليّ شبرًا، تقرَّبتُ إليه ذراعًا، وإنْ تقرَّب إليّ ذراعًا، تقرَّبتُ منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولة"، ذكره البخاريّ[2].

وقال أبو هريرة: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ونحن متوجِّهون إلى مكّةَ وقد مرَّ بجبل يقالُ له: جُمْدان[3]، فقال: "سيروا هذا جُمْدان، سبق المفردون"، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: "الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات". رواه مسلم[4]. وفي رواية[1]: "المُستهتَرونَ بالذّكر".

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجة (٣٧٩٠).

(٢) بل ذكره الشيخان: البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم ٢١- (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) بالضم ثم السكون، وتحرف اسم الجبل في النسخة: حران، والتصويب من مصدر التخريج. وفي ذلك يقول ياقوت: "وصحّفه بعض رواة مسلم فقال: حمران، بالحاء والراء، وهو من منازل أسلم بين قديد وعسفان، قال أبو بكر بن موسى: جمدان جبل بين ينبع والعيص على ليلة من المدينة، وقيل: جمدان: واد بين ثنية غزال وبين أمج، وأمج من أعراض المدينة"، ثم ساق الحديث. معجم البلدان ٢/١٦١.

(٤) رواه مسلم ٤- (٢٦٧٦).

قال ابنُ عبّاس: من عجَز منكم عن البلاء أن يكابدَه وعن العدوِّ أن يجاهدَه، وبَخِل بالمال أن ينفقَه، فلْيُكثرْ من ذكر الله. ذكرهُ البزّار[٢].

قال جابرُ[٣] بنُ عبد الله رضي الله عنهما: خَرج علينا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ونحن بمسجد المدينة فقال: "إنّ لله سَرايا من الملائكة تحُلُّ وتقفُ على مجالس الذّكر في الأرض، فإذا رأيتُم رياضَ الجنّة فارتَعوا"، قالوا: وما رياضُ الجنّة يا رسُولَ الله؟ قال: "مجالسُ الذِّكر، اغدوا وروحوا في ذكرِ الله، من كان يريدُ أن يعلمَ منزلتَه عندَ الله فلينظرْ كيف منزلةُ الله عنده، فإنّ اللهَ تعالى يُنزلُ العبدَ [منه][٤] حيث أنزلَه من نفسِه"، ذكره الترمذي[٥].

قال صاحبُ "الرياض"[٦]:

---

(١) في الترمذي (٣٥٩٦).

(٢) في مسنده (٤٩٠٤).

(٣) خلط المصنف ها هنا، فأسند إلى جابر حديث الترمذي الذي ليس راويَه في سننه هو جابر على ما نوضحه، وخالف في متن الترمذي فساق متنًا ليس هو بمتن الترمذي الذي هو في سننه أيضًا. فرواية جابر، بالمتن الذي ذكره المصنف ونص عليه في المنتخب من مسند عبد بن حميد (١١٠٥)، ومسند أبي يعلى الموصلي (١٨٦٥)، وسواهما، عن جابر، به.

(٤) إضافة لازمة من مصدري التخريج السابقين.

(٥) في السنن: من حديث أبي هريرة (٣٥٠٩)، وحديث أنس (٣٥١٠).

(٦) لم أعرفه.

ألا علّلوني باسم من لم يزلْ فردا ومن يمنحُ الآلاءَ والطَّولَ والرِّفدا
ومن ذكرُه أُنسي إذا الليلُ جنَّني أُصيِّرُه وردًا فاستعذبُ الوردا
إذا ما شدا شادٍ وهيْنَم باسمِهِ يكادُ فؤادي أن يطيرَ له وجدا
وتهنأُ أعضائي موافقةً لهُ فلا تنكروا رفضي إذا الشوقُ بي أودى
عجبتُ لمن يشتاقُ قربَ حبيبِهِ ويشكو النوى منه لقد جَهِل القصدا
فهل هو إلّا حاضرٌ غيرُ غائبٍ يشاهدُه في السرِّ من أخلص الودّا
فيبصرُهُ في كلِّ شيءٍ بدا لهُ فيعرفُه العقلُ الرَّزينُ بما أهدى
وهبْتُ له كلّي ولُذتُ بركبِهِ فجُملتُهُ كلّي ولم أستجزْ ردّا
فها أنا مُلقًى في يديهِ رهينةٌ أُسائلُه الرُّحمى وأستنجزُ الوعدا
يُقرِّبُني طورًا فأزهو بقُربِهِ ويُبعدُني طورًا فأرضى بما أردى
رضيتُ بما يُؤتي ويمنعُ سيّدي فما القصدُ إلّا أن أكونَ له عبدا

ولازِم الذِّكرَ وسَرمَديًّا، فإنه يتصوّبُ من اللسان إلى القلب ثم منَ القلب إلى الرُّوح ثم من الرُّوح إلى النفْس ثم من النفْس إلى الصّدر، ثم يسيرُ في البدن فيتنوَّرُ بنُور الذكرِ حتى يخالطَ دمَه، فتكونُ أجزاؤه كلُّها ذاكرةً. رُوي أنه كان بالبصرة رجلٌ لا يفتُرُ عن ذكرِ الله تعالى، وأكثرُ ذكرِه: "ألله ألله"، فبينما هو واقفٌ تحتَ منارةٍ إذْ سقطتْ عليه خشَبةٌ فشجّتْه، فكتب دمُه على الأرض: "ألله ألله"، فتعجَّب الناسُ من ذلك، فقال لهم بعضُ من حضَر منَ السّادات: أتعجَبونَ من رجُل خالَطَ ذكرَ الله دمُه فصار ذاكرًا بذكرِه؟ وفي معنى ما ذكرتُه أنشدوا فقالوا:

بلذيذِ ذكرك تُنعشُ الأرواحُ | وضياؤه بجوانحي وضّاحُ
فكأنما جسدي زجاجٌ أبيضٌ | وبكلِّ جارحةٍ به مصباحُ
إنْ قال بسم الله يومًا قائلٌ | مضتِ الكروبُ وجاءتِ الأفراحُ
ومنَ العجائب أن تراني ضاحكًا | والقلبُ فيه من الغرام جراحُ
فالبرقُ يبدو والعيونُ سناؤهُ | وبإثره غيثٌ أتى ورياحُ
يا مضت أحكامُه في خلقِه | طُرًّا فما للكل عنه براحُ
خضعتْ لعزِّك يا مليكُ رقابُنا | وتذلَّلتْ لجلالِك الأشباحُ
للخلق يشكو كربَهُ[١] | فله بأبوابِ العبيد صياحُ
ويصدُّ عنك وأنت مالكُ أمرِهمْ | ولكَ القلوبُ وعندكَ المفتاحُ
فارحمْ ضراعتَنا إليك وفقرَنا | والطُفْ فلطفُك يا كريمُ مباحُ

قال بعضُ العارفين: جسدُ ابن آدم سورٌ مَشِيد، وقلبُه ملِك، وأعضاؤه رعيّة، وخواطرُه جواسيس، وحركاتُه أجناد، وصدرُه مدينة، وقدماه مطيّة، ويداه حارسانِ يرُدّانِ ما يَرِدُ على البدن، وأذُناه رائدان، وعيناه طلائع، وفمُه تَرجُمان، ولسانُه سامر، وشَهَواتُه رُومٌ تدورُ بالمدينة وترومُ مُلكَ السُّور، فإذا كان السامرُ ذاكرًا لله تعالى حُرِس السُّورَ وحُفظت المدينةُ وعاشت الرعيّةُ وبقِي الملِكُ وحَفَدةُ الأجناد، وسافرت الجواسيسُ وجاءتْ بالأخبار، واغترَّ التَّرجُمانُ وأيَّد الحارسُ

(١) كذا الصدر في النسخة مختل لم يتضح لي منه غير هذه الثلاث الكلمات والبقية ضرب الناسخ عليها.

وصحَّت المطيّة وبَعُدت الرُّومُ عن المدينة، وإذا غَفَل السامرُ وسَكَتَ عن ذكر الله تعالى أدركتْه الغفلة وأصابه النَّوم، فتمكَّنت رُومُ الشهوة من السُّور فأهلكت الملِكَ وتفرَّقت الأجنادُ وضاعتِ الرَّعيّة، وفي ذلك يقال:

لسانُكَ سامرٌ والجسمُ سورُ   وورومُ هواكَ ويكَ بهِ تدورُ
فإنْ ضيَّعتَه وغَفَلتَ عنهُ   فإنك دونها شكٍّ أسيرُ
وإنْ بالذِّكرِ كنتَ له حريساً   تأمَّنتِ الرَّعيّةُ والأميرُ
إذا عِللُ الذنوبِ بنا أحاطتْ   فذكرُ الله ترياقٌ ونورُ

واعلَمْ أنّ ذكرَ الله تعالى يقي منَ الأهوال، وهو مباركٌ في كلِّ حال، ألا ترى أنّ يعقوبَ عليه السلامُ حين وجَّه يوسُفَ معَ إخوتِه لم يذكُرِ الله، بل لم يزدْ على أنْ قال: {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ} [يوسف: ١٣]، فعوقبَ على ذلك بطُول البيْنِ والبُعد، ولمّا سأله أبناؤه توجيهَ بِنيمينَ معَهم قال: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤]، فلمّا قدَّم ذكرَ مَولاه أنعَم عليه برجوع الاثنينِ وتوبةِ الجميع ونُقلتِهم من وادي كنعانَ إلى مُلك مصرَ والمقام به وتمام النِّعمة. رُوي عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما من دابّةٍ تدِبُّ على أديم الأرض ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيْه، ولا شجرٍ ولا إنسانٍ إلّا جَعل

اللهُ مناطَ حياتِه ورزقَه في ذكر الله تعالى، فإذا قدَّر اللهُ موتَه أنساهُ ذكرَه فيموت، سوى بني آدمَ فإنّما تموتُ قلوبُهم "(١).

واعلمْ أنّ الذكرَ والمحبّةَ متلازمان لا يوجد أحدُهما بدون مُلازمِه، فإنْ وقعتِ المحبّةُ أولًا استَجلبت الذّكرَ؛ لأنّ من أحبَّ شيئا أكثرَ من ذكرِه، وإذا كان الذكرُ أولًا استجلبَ المودّةَ، أما ترى أنّ اللهَ تعالى لمّا ذَكر المنافقين الذين لا يحبُّون الله أصلًا وَصَفَهم بقلّة ذكرِه فقال في معرض ذمِّهم: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٤٢]، ولمّا ذَكر المؤمنين وصَفَهم بكثرة ذكرِه فقال: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ} [آل عمران: ١٩١]، وقال: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، وأمَرَهم بذلك بعدَما وَصَفَهم به طبعًا وبيَّن لهمُ الكيفيّةَ فقال: {اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: ٤١- ٤٢]، ثم وصَفَهم تعالى- بعدَ حصُول ثمرة الذِّكر- بالحالةِ المُقتضية لذلك، فقال: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢]، قال الكِنانيُّ(٢): جَرتْ مسألةٌ في المحبّة بمكّةَ في الموسم، فتكلَّم المشايخُ فيها، وكان الجُنَيْديُّ(٣) أصغرَهم سنًّا، فقالوا: هاتِ ما عندك يا

---

(٢) كذا النسبة في النسخة مجودة النون، وفي الرسالة القشيرية وغيرها: الكتاني، أبو بكر، ولعله: محمد بن جعفر الأحول المؤدب، كما في تاريخ بغداد ٢/ ٥٣٢.

(٣) يعني الجنيد بالطبع.

عراقيّ، فأطرق برأسِه ودمعتْ عيناه ثم قال: هو عبدٌ ذاهبٌ عن نفسِه متّصلٌ بذكرِ ربِّه، قائم بأداءِ حقوقِه ناظرٌ إليه بقلبِه، أحرَقَت قلبَه أنوارُ هدايتِه وصفا شِربُه من كأس وُدِّه، وكَشَف له الحقُّ عن أستارِ غيبِه، فإنْ تكلَّم فبالله، وإن سكتَ فلله، وإن تحرَّك فبأمرِ الله، وإن سكنَ فمعَ الله، فهُو لله وبالله ومع الله، فبكى الشّيخُ والجماعةُ فقالوا: ما على هذا مزيد، جَبَرَك اللهُ يا تاجَ العارفين(١).

ومن علاماتِ المحبّة: الحبُّ في الله، وعن أنس، [قال](٢): قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ما تحابَّ اثنان في الله إلّا كان أفضلَهما أشدُّهم حبًّا لصاحبِه" ذكره البزّار(٣).

وعن أبي هريرة، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "زار رجلٌ أخاً له في قرية، فأرسَل اللهُ على مَدْرجتِه مَلَكًا، فلمّا أتى عليه قال له: أين تريد؟ قال: أريدُ زيارةَ أخ لي في هذه القرية، قال: هل لهُ عليكَ من نعمةٍ ترُدُّها؟ قال: لا، غيرّ أني أحببتُه في الله، قال: إني رسُولُ الله إليك، فإنّ اللهَ قد أحبَّك كما أحببتَه فيه". ذكره مسلم(٤).

---

(١) الحكاية في: الرسالة القشيرية ٢/ ٤٩٣.

(٢) زيادة لازمة.

(٣) في مسند (٦٨٦٩).

(٤) في صحيحه ٣٨- (٢٥٦٧).

وعن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، [قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم][(١)]: "والذي نفسي بيدِه، لا تدخلونَ الجنّةَ حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابُّوا، ألا أدُلُّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتُم؟ أفشُوا السّلامَ بينكم"، أخرجه أبو داود[(٢)].

وقال أبو هريرةَ: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "سبعةٌ يُظلُّهمُ اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلّا ظلُّه"[(٣)]، فيذكُر فيهم: "رجُليْنِ[(٤)] تحابّا في الله اجتمعا عليه وافترَقا عليه".

وقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "قال اللهُ تعالى: وَجَبتْ محبّتي للمُتحابِّينَ فيّ والمُتجالسينَ فيّ والمُتباذلينَ فيّ"، رواه مالكٌ في "الموطأ"[(٥)].

وعن معاذٍ، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "قال اللهُ تعالى: المتحابُّونَ بجلالي لهم منابرُ من نور، يَغبِطُهم الأنبياءُ والشُّهداء"، رواه الترمذيّ[(١)].

---

(١) ما بين معكوفين سقط من النسخة، أسقطه الناسخ.

(٢) في سننه (٥١٩٣) من طريق زهير بن معاوية الجعفي، عن الأعمش، به. وهو في صحيح مسلم ٩٣- (٥٤)، من طريق أبي معاوية (محمد بن خازم الضرير) ووكيع، عن الأعمش، به.

(٣) رواه الشيخان: البخاري (٦٦٠)، ومسلم ٩١- (١٠٣١).

(٤) في الصحيحين: "ورجلان".

(٥) موطأ مالك: رواية أبي مصعب الزهري (٢٠٠٧).

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال: رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ منَ العباد لَعبادًا يَغبِطُهم الأنبياءُ والشُّهداء" قيل: ومن هم يا رسولَ الله؟ قال: "هم قومٌ تحابُّوا برُوح الله على غيرِ أموالٍ يتباذلونَها ولا أنسابٍ، وجوهُهم نور، يُحمَلون على منابرَ من نُور، لا يخافونَ إذا خاف الناس ولا يحزنونَ إذا حزِن الناس"، ثم تلا صلى الله عليه وسلم قولَه تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: ٦٢][٢].

قال أبو [مالكٍ][٣] الأشعريُّ رضي الله عنه: أقْبل رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم على الناس بوجهِه لمّا قضى صلاتَه وقال: "أيُّها الناس، اسمعوا واعقِلوا، واعلَموا أنّ لله عباداً ليسوا بأنبياءَ ولا شُهداء، يَغبِطُهمُ الأنبياءُ والشُّهداءُ على منازلِهم وقُربِهم من الله"، قال: فمشى رجلٌ من الأعراب من قاصيةِ الناس وألوى بيده إلى رسُول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسُولَ الله، ناسٌ من أبناءِ الناس ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ يغبِطُهم النبيُّونَ والشهداءُ على منازِلهم وقُربِهم من الله؟ انْعَتْهم لنا وصِفْهم لنا، فسُرَّ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم

(١) في سننه (٢٣٩٠)، ثم قال: "وفي الباب عن أبي الدرداء، وابن مسعود، وعبادة بن الصامت، وأبي هريرة، وأبي مالك الأشعري. وهذا حديث حسن صحيح".

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (١١١٧٢)، وغيره.

(٣) في النسخة: أبو موسى، خطأ تصويبه ما في كتب السنة ومظان الحديث، فإن شهر بن حوشب لا يروي فيها عن أبي موسى الأشعري.

بسؤال الأعرابيِّ فقال: "هم أناسٌ من أفناءِ[١] الناس ونوازع[٢] القبائل، لم تصلْ بينَهم أرحامٌ يتقاربونَ بها، تحابُّوا في الله وتصافَوا فيه، يضعُ اللهُ لهم يومَ القيامة منابرَ من نُور فيحملُهم عليها فيجعلُ وجوهَهم نوراً وثيابَهم نوراً، يَفزعُ الناس وهم لا يفزَعون، هم أولياءُ الله تعالى الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون"[٣].

وإنّما اعتنى رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ببيان أمرِ الأولياء وحَضَّ على معرفتهم لعلمِه بما سيكونُ في أُمّتِه منَ التكذيب بهم وتكذيبِهم وقتلِهم وتشريدِهم، فالمعتزلةُ والرافضةُ ومَن في معناهم يُنكرونَ وجودَ الأولياء أصلاً، وسِفْلةُ الفقهاءِ يُغرُونَ بهم الأمراءَ لِما يجري على ألسنتِهم حالةَ غيبتِهم عن شهودهم ممّا يخالفُ ظاهرَ الشَّرع، ولو أنهم تثبَّتوا علموا حقيقةَ ذلك، رُوي أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "أنتم أشبهُ الأُمم ببني إسرائيل"[٤]، فقِوامُ بني إسرائيلَ بأنبيائها، وقِوامُ أُمّتي بأوليائها، فلمّا أراد اللهُ هلاكَ بني إسرائيلَ سلَّطهم على أنبيائهم فقَتلوا في قرنٍ واحد سبعينَ نبيًّا، فقام صُلحاؤهم فنَهوْهم عن ذلك فقتلوهم، فانتقم اللهُ منهم فسلَّط عليهمُ الجبابرةَ من الفرس والرُّوم

---

(١) أفناء الناس، ممدودًا، أي: جماعاتهم، جمع: فِنو، بكسر الفاء، وقيل في أفناء الناس: أي: أخلاطهم. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، لعياض السبتي ٢/ ١٥٩.

(٢) أي: جماعات من قبائل شتى. التيسير بشرح الجامع الصغير، لزين الدين المناوي ٢/ ١٤٩.

(٣) أخرجه معمر بن راشد في جامعه الملحق بمصنف عبد الرزاق (٢٠٣٢٤) وغيره.

(٤) البزار في مسنده (٢٠٤٨) وتمامه فيه : "سمتًا وسمةً وهديًا"، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٣٩ (٩٨٨٢) بأطول من الأول.

والبربرِ فأبادوهم، ولا يزالُ أمرُ أُمّتي مستقيماً ما تمسَّكتْ بأوليائها، فإذا اراد اللهُ هلاكَها أُولِعتْ بكلّ وليٍّ وصالح تقتلُه فينتقمُ اللهُ لهم منها وقد بيَّنتُ ذلك في كتابي المسمى بـ"كشف اللُّبس"، غيرَ أني لم أنصَّ فيه على أعيان المقتولينَ من أولياء الله(١)، فأولُ من قُتل منهم: عثمانُ بن عفانَ رضي الله عنه، وقتلَهُ هو أولُ خطبٍ طَرق الإسلام، قال عَمْرُو بن العاص: لمّا افتتحنا مصرَ والإسكندريّةَ وفرغْنا من أمر الرُّوم أتانا ملأُ المصريِّين وفيهم شيخٌ كبير، وكان أعلمَهم، فقال: لن تزالوا ظاهرينَ على مَن ناوأكم ما لم تقتلوا أخيرَكم إماماً فتختلفَ كلمتُكم فيكونَ بأسُكم بينكم، فهممْنا بقتلِه، فقال لنا ملَؤهم: لا تقتلوهُ، فإنه شيخٌ خَرِف لا يدري ما يقول، فكففْنا عنهُ، فلمّا قُتل عُمرُ رضي الله عنه قلتُ: هذا ما أخبرنا به الشّيخُ، فلمّا نظرنا إذا هو ليس به، إذ إنما قتلَه عِلجٌ نصرانيّ، فلمّا قُتل عثمانُ رضي الله عنه واختلفتْ وجوهُ الناس علِمْنا أنه ما قال الشّيخ، فتنغَّص العيشُ ووقعتِ البغضاءُ بينَ الناس، وصار قتلُ المسلم أحلى عندَ المسلم من شُرب الماء، وفي ذلك يقال:

ضحَّوْا بعثمانَ في الشهر الحرام ضُحًى ... فأيَّ ذِبح عظيم ويلَهمْ ذَبحوا
وأيَّ سُنّة شرّ سنّ أولُهُمْ ... وبابِ سَوء على سلطانِهم فتَحوا
ماذا أرادوا أضلّ اللهُ سعيَهمُ ... بسفكِ ذاك الدم الزّكي الذي سفَحوا

---

(١) تلك فكرة جديرة بالاهتمام والجمع على يد باحث جلد مستقص جزى الله من رمى ببذرتها.

وقال عَدِيّ[1]:

فكيف رأيتَ الخيرَ أدبَرَ بعدَهُ   عن الناس إدبارَ السحابِ الجوافلِ
وكيف رأيتَ اللهَ ألقى عليهمُ الـ   ـعداوةَ والبغضاءَ بعدَ التواصـلِ

فجرَّ مقتلُه إلى وقعة الجَمل، ومات فيها الزُّبيرُ بن العوّام وطلحةُ بن عبد الله، وبَلَغت القتلى اثنيْ عشَرَ ألفاً، ثم جرَّت إلى وقعةِ صِفّين فمات فيها عمّارُ بن ياسر فيما لا يُحصى من المسلمين من الفريقيْن، حتى بَعْثِ الحَكَميْن فحَكَما بغير حقّ ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً، فالتبس عليهمُ الأمر، فكثُر الخلافُ على عليّ رضي الله عنه حتى صار يقول: أُعصَى ويُطاعُ معاوية؟ والله إنهم على باطلِهم لَأصبرُ منكم على حقّكم، وإني ودِدتُ أن يبعثَ اللهُ أشقاها حتى يَخضِبَ هذه من هذه، ويشيرُ إلى لحيتِه ويافوخِه. رُوي أنه رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في نومِه فقال له: ما لقيتُ يا رسُول الله من أُمّتك، فقال له: هلّا دعوتَ عليهم؟ قال: وبمَ أدعو عليهم يا رسُولَ الله؟ قال له: قل: اللهُمّ أبدِلْني منهم خيراً منهم لي، وأبدِلْهم منّي شرًّا عليهم منّي، فعَلِم بذلك أنّ أجَلَه قد قرُب.

---

(١) ينسب البيتان لكعب بن مالك الأنصاري أو الوليد بن عقبة، الأول أكثر، والبيتان من جملة أبيات لأحدهما في رثاء عثمان بن عفان، وقيل: لغيرهما أيضًا. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر ٣/ ١٠٥٠، وسير السلف الصالحين، لقوام السنة، ص ١٦٧، وتهذيب الكمال ١٩/ ٤٥٩، وتاريخ الإسلام ٢/ ٢٥٤، ونهاية الأرب في فنون الأدب ١٩/ ٥١٢ وغيرها.

فتَوامَرتِ[1] الخوارجُ فيما بينَها فأرسَلوا ستةَ فُتّاك، منهم اثنانِ[2] إليه بالكوفة، واثنانِ إلى عَمْرو بن العاص بمصرَ، واثنانِ إلى معاويةَ بدمشق.

فأمّا ابنُ مُلجِم وصاحبُه فقصَدا عليًّا رضي الله عنه فنزلا على امرأةٍ يقالُ لها: قَطَام[3]، كانت تقومُ الليلَ لا تفتُر وتصومُ النهارَ لا تُفطر، وكانت خارجيّةً، فخَطَبَها[4]، فقالت: لا تتزوَّجُني إلّا على ثلاثة شروط: ثلاثةُ آلاف دينار، أو عبدٌ وأمَة، أو قتلُ عليّ، فقال لها: أمّا قتلُ عليّ فمن لي به؟ قالت: اطلُبْهُ فإنه لا حُجّابَ عليه ولا حرَس، فإن قتلتَه فقد أرحْتَ المسلمين منه وأخذتَ بثأرِ قومِك وطرتَ بغنائها، أو إنْ متَّ صرتَ إلى الجنّة، وما عندَ الله خيرٌ وأبقى، فقال لها: إني لم أجئْ إلّا لقتلِه وقدِ اجتمع مَلؤنا على قتل هؤلاء الظَّلَمة الثلاثة: عليٍّ ومعاويةَ وعَمْرو بن العاص.

---

(١) سهل الناسخ همز المؤامرة، وهو جائز.

(٢) هما: عبد الرحمن بن ملجم وشبيب بن بجرة الأشجعي. تاريخ الإسلام ٢/٣٤٣، وغيره من دواوين التاريخ.

(٣) هي: قطام بنت الأخضر بن شجنة من بني تيم الرباب، وكان عليّ قتل أباها وأخاها يوم النهروان. تاريخ الإسلام.

(٤) يعني: عبد الرحمن بن ملجم الحميري- وعداده في مراد، ويقال: إن مراد أخواله- ويأتي ذكر مراد بعد قليل. أنساب الأشراف، للبلاذري ٢/ ٤٨٩.

فسَلّا سيفيْهما ورصَداه عند الباب الذي يدخُل منه، فلما كانت تلك الليلةُ بات عندَ ابن عبّاس فلم ينَمْ، وكان ربّما خَرج ونَظَر إلى السماء فيقول: ما كذبَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبتُ، ولكنها الليلةُ التي وُعِدتُ، فلمّا أسحَر إلى المسجد اجتمع عليه الوزُّ ولها أصوات، فجَعل الناسُ يطرُدونَه ويقول: ذَرُوهنَّ فإنهنّ نوائحُ على عليّ.

فلما أدخَل رأسَه في المسجد ضربَهُ ابنُ مُلجم على يافوخِه فقتَلَهُ لعنةُ الله عليه بملأٍ من قومِه، فلمّا احتُضر دَخل عليه وجوهُ الناس فقالوا: هلّا أِذنتَ لنا في مُرادٍ فلا نترُكَ منهم عيناً تطرِف؟ فقال: كيف آذنُ لكم في مُرادٍ وإنّما قتلني رجلٌ واحد؟ فإنْ أعشْ فإنّما هي ضربةٌ بضربة، وإن أمُتْ فالعفوُ أقربُ للتقوى، وإن أخذتُم بحقِّكم فالنفْسُ بالنفس، ولا أكونُ أولَ خليفةٍ حَكَم فيكم بحُكم الجاهليّة، وإنّي قُتِلتُ يومَ قُتل عثمان، قالوا: وما معنى ذلك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: كانت أَجَمةٌ في الزّمانِ الأول، وكان فيها ثلاثةُ ثيران: أبيضُ وأحمرُ وأسود، وكان معَهم في الأَجَمة أسد، وكان لا يقدِرُ عليهم لتناصُرهم عليه، فلمّا يئس منهم احتال عليهم فقال للأحمرِ والأسود: تعالَوا نقتلِ الثورَ الأبيض؛ لأنّ لونَه يُخالفُ ألوانَنا وإنهُ يدُلُّ الناسَ علينا لنَصاعة بياضِه فتخلُص لنا الأَجَمة، فوافقاه على ذلك فخلَّيا بينَه وبينَ الثّور الأبيض فقتلَهُ، فلمّا أكله أقْبلَ على الثور الأحمر فقال له: إنّ هذا الثورَ الأسودَ يُخالفُ لونُه ألوانَنا فهلّا تترُكُني أقتلُه فتخلصَ لنا الأَجَمة؟ فخلّى بينَه وبينَ الثّور الأسود فقتلَه، فلمّا فَرغ من أكلِه أقْبل إليه فقال له: ما تريد؟ فقال

الأسد: أريدُ أكلَكَ، فقال: ألستَ قد أعطيتَني العهودَ والمواثيقَ أنك لا تضرُّني إذا خلَّيتُ بينَك وبينَ أخوَيَّ وقد فعلتُ؟ فقال له: إني قاتلُكَ لا مَحالةَ، فقال له: إن كنتَ فاعلاً ولا بدَّ فدعْني أصيحُ ثلاثاً فقال لهُ: صحْ ما شئتَ، فجَعل يصيحُ ويقول: ألا إني قُتلت يومَ قُتلَ الثَّورُ الأبيض.

فنحن معشرَ أصحابِ محمد أدخلْنا في أمرِنا مَن ليس منّا وفاوضْناهم في شأننا، فاستعانوا ببعضِنا على بعض وجَعلوا يقتلونَنا واحداً بعدَ واحد حتى خَلَت لهمُ الأَجَمة، وإنّ الخاذلَ منهم كالقاتل، ولقد بذلتُ الجَهدَ في نَصْره ومنَعتِه فأبى، وليس لي بدٌّ من طاعتِه.

ثم أمَر بإخراج الناس عنهُ وبَعَث إلى بنيهِ: الحَسنِ والحُسين ومحمدِ ابن الحنَفيّة فقال لهم: يا بَنيَّ، أسْتودِعُكمُ[1] اللهَ وأستخلفُه عليكم، وإني أوصيكُم بتقوى الله، فإنّ فيه الفوزَ والغنيمةَ في الدُّنيا والآخرة، وإياكم والتخوُّضَ في دماءِ المسلمينَ بغير حقّ، وإنّي لا أرى أنّ اللهَ جامعٌ لكم بينَ النبوّة والخلافة، فاستمسِكوا بسُنّة رسُول الله صلى الله عليه وسلم وسُنّة الخلفاءِ الراشدينَ من بعدِه، واجعلوها ملاذَ أمرِكم، ولا يلفتنَّكم عنها هؤلاءِ بما يُمنُّونكم به منَ الاستخلاف، إنها أمانيُّ باطلة ودعاوًى كاذبة، فقدِ استولتِ الفتنةُ على قلوبِ

(١) في النسخة: استودعتكم، ولا يسوغ لضرورة تناسق العطف.

القوم وأخَذ حبُّ الدّنيا بأزِمّة نفوسِهم وتوغَّلوا في البَطَر والأشَر وقد غَلَب خِيارَ هذه الأُمّة أشرارُها.

وإنّ الأمرَ صائرٌ إلى معاويةَ، فاحتلْ يا حُسيْنُ في ضبطِ أمرِك حتى تُسلِّمَه إليه من غير ضغطٍ ولا غَلَبة، فإنّي سمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ وأنت على[1] حِجرِه[2]: "إنّ ابني هذا سيّدٌ ولعلّ اللهَ يُصلحُ به بينَ فئتينِ عظيمتيْنِ من المسلمين"[3].

ثم أوصاهم بوصايا كثيرةٍ حِكْميّة صَدَّ وجوهَنا عن حكايتها قصدُ الاختصار.

فوَلِيَ بعدَه الحَسنُ ستةَ أشهر، فسار إلى معاويةَ في جموع العراقِ واليمنِ وخُراسانَ وما وراءَ النهر، وسار إليه معاويةُ في جُموع الشام ومصرَ، فتراءى الجَمْعانِ بموضع يقالُ له: بستكين(٤)، فأرسَل معاويةُ عيوناً لهم فيهم رجلٌ يثقُ به فقال له: ما رأيت؟ قال: رأيتُ زَمازمَ سوداً لن ترجعَ حتى تقتُلَ أقرانَها ولئن قَتل هؤلاءِ أقرانَهم من هؤلاء وهؤلاءِ أقرانَهم من هؤلاء فلا خيرَ في العيش بعدَ ذلك،

---

(١) في مصدر التخريج: "في".

(٢) تحرفت هذه الكلمة في النسخة: "حقره"، والتصويب من مصدر التخريج.

(٣) رواه البخاري (٢٧٠٤) و(٣٦٢٩) و(٣٧٤٦) و(٧١٠٩) من دون قوله: "على حجره"، فإنه في جامع معمر بن راشد الملحق بمصنف عبد الرزاق (٢٠٩٨١)، والحديث من أفراد البخاري.

(٤) بناحية الأنبار. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٣/ ١٣٧، والخبر فيه.

فقال له: ما ترى؟ فقال: الرأيُ تُرسلُ إلى الحَسن فتُصالحُه على أن يُسلِمَ إليك الأمرَ وتعطيه كلَّ ما سأل، فإنّ في ذلك صلاحَ الأُمّة وحقنَ دمائها، قال معاوية: أوتراهُ فاعلاً ذلك وبيدِه جماجمُ العرب تُحاربُ من حارب وتُسالمُ من سالَمَ؟ قال نعم: لأنه بَلَغَني عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنّ ابني هذا سيّد، ولعلّ اللهَ يُصلحُ به بين فئتيْنِ عظيمتيْنِ من المسلمين"، ولا أُراهما إلّا لعّانيْنِ.

فطمِع معاويةُ في ذلك، فكتَب إليه- بعدَ الثناءِ على الله والصّلاة على رسُوله-: "أمّا بعدُ، فمن معاويةَ بن أبي سُفيان إلى الحَسَن بن عليّ، السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه، وقد بعثتُ إليكَ كتابي هذا وأنت ترى ما عليه المسلمونَ من تشتيتِ الشَّمل وتفريقِ الكلمةِ وصَيْرورة المسلمينَ فرقتيْنِ: فرقةً معي وفرقةً معك، والرُّومُ يرغبونَنا(١)، فإنّ [إحدى](٢) الفرقتيْنِ هَلَكت مالوا على الأخرى فلا يُقدِّمون دنياها على دينها، وإنّ هذه أُمّةُ جَدِّك والدِّينُ دينُه، ولئن تركتَ مُلكاً لتَرجِعنَّ إلى عِلم ونُبوءة، وأنا إن تركتُ هذا السُّلطانَ لا أرجعُ إلى شيء، ولولا ذلك لتركتُه لك نظراً للأُمّة، وأحقُّ مَن نَظَر في مصالحِها أنت".

فبَعَث إليه الحَسنُ رضي اللهُ عنه- بعدَ الثناءِ على الله والصّلاة على رسُوله صلى الله عليه وسلم-: "من عبدِ الله الحَسن بن عليّ إلى معاويةَ بن أبي سُفيان،

---

(١) كذا مجودة، ولعلها: يرقبوننا.

(٢) زيادة لازمة أخلت بها النسخة.

السّلامُ عليكَ ورحمةُ الله وبركاتُه، أمّا بعدُ، فإنه وَرَد عليَّ كتابُك تذكُر فيه منَ النظر للأُمّة ما ذكرْتَ، ولستُ أظُنُّ أنّ ذلك القصْدَ منك، بل قصدُك طلبُ المُلك والسُّلطان، وإني لستُ عليه بحريص إلّا أن يكونَ فيه صلاحُ الأُمّة، فإن أعطيتَني العهودَ والمواثيقَ: أن لا تطلُبَ أحداً من أهل اليمنِ والحجاز والعراق بدم ولا تِباعةٍ ممّا كان منهم في دولة أبي، وأن يكونَ الأمرُ لي من بعدِك، وأن تسيرَ في هذه الأُمّة بسيرةِ مَن كان قبلَكَ من الخُلفاء، وأن تبعثَ إليّ على رأس كلِّ سنةٍ مئةَ ألفِ دينارٍ من بيتِ المال: أسلمتُ إليك الأمر".

فالتزم له معاويةُ جميعَ ذلك، فسار الحَسنُ بجموعه حتى خالطَ جموعَ معاويةَ فأسْلمَ له الأمرَ وكتبا ذلك، فسُمّي ذلك العامُ **عامَ الجماعة**.

فلما تمَّ الأمرُ قال له بعضُ أصحابِه: السلامُ عليكَ يا عارَ العرب، فقال: اخترنا العار عن النار، واخترنا الآخرةَ عن الدنيا، واخترتُ الجماعةَ عن الفُرقة، واخترتُ حقْنَ دماءِ المسلمين عن سفكِها، كانت جماجمُ العرب بيدي يُسالمونَ من سالَمْت ويحاربونَ من حاربتُ، فتركتُها ابتغاءَ مرضاة الله.

ثم خَلَفَ معاويةُ على العراق زيادَ ابنَ سُمَيّةَ(١) وضَبَطَه، إلّا أنه يحكُمُ بالجَوْر، فاستولى على الخراج ومَنَع الصّحابةَ الأرزاقَ والأُعْطيةَ التي كانت لهم زمنَ

(١) زياد ابن سمية بضم المهملة، وهي أمه مولاة الحارث والد أبي بكرة (وسمي بأبي بكرة لأنه تدلى يوم الطائف من الحصن ببكرة، وأتى إلى بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم، وكُني يومئذ بأبي بكرة) نفيع- مصغر النفع بالنون والفاء- وهو الذي ادعاه معاوية أخًا لأبيه وألحقه

الخُلفاء، فقام عليه رجالٌ من أصحابِ رسُول الله صلى الله عليه وسلم فأكثَروا عليه النَّكيرَ والرّدَّ، وأمَروه بالمعروف ونهَوْهُ عن المنكر، فقال لهم: هيهاتِ! ذهب ما تعرفون، فقالوا له: ما نعرفُ والله خيرٌ ممّا تعرفُه، فبَعَث إلى معاويةَ يقولُ له: إنّي ضبطتُ العراقَ، إلّا أنّ رجالاً من أصحابِ محمدٍ ضَيَّقوا عليّ، فإن كانتْ لكَ بالعراق حاجةٌ فائذَنْ لي في قتلِهم أو أبعثُ إليهم بالتوجُّهِ إليكَ فترى فيهم رأيَك، منهم: عَمْرُو بن الحَمِق[1] وفلانٌ وفلان، حتى عدَّ طائفةً من الأعيان.

فلمّا بَلَغ عائشةَ رضي الله عنها ما بَعَث به ابنُ سُميّة إلى معاويةَ[2] وتوجُّهُهم إليه وَجُدتْ من ذلك وَجْداً عظيماً وقالت: إنهم مقتولون، سمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ لعَمْرِو بن الحَمِق: "إنك مقتولٌ يا عَمْرُو صبْراً في

بنسبه فقيل له: زياد ابن أبيه، وكان من أصحاب علي رضي الله عنه، فلما استخلفه معاوية صار من أشد الناس بغضًا لعلي وأولاده. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، لشمس الدين الكرماني ١٥/ ٢، وانظر أيضًا: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر ٢/ ٥٢٣، وأسد الغابة، لابن الأثير (١٨٠٠)، وتاريخ الإسلام ٢/٥٥٤.

(١) هو: عمرو بن الحمق (ككتف) بن الكاهن أو الكاهل بن حبيب بن عمرو بن القين بن رزاح بن عمرو بن سعد بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي الكعبي (ت ٥٠هـ): من قتلة عثمان. معرفة الصحابة لأبي نعيم ٤/ ٢٠٠٦، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣/ ١١٧٣، وأسد الغابة (٣٩٠٦)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال ٢١/ ٥٩٦، وتاريخ الإسلام ٢/ ٤٢٤، وتاج العروس (حمق)، والأعلام للزركلي ٥/٧٦-٧٧.

(٢) قال البخاري: "أول رأس بعث في الإسلام: رأس عمرو بن الحمق، بعثه زياد إلى معاوية". التاريخ الأوسط ١/ ١٠٥.

عُصْبة من أصحابي، تبكي عليكُم السماءُ والأرض"، قال: أفأُقتَلُ على الحقِّ يا رسُولَ الله؟ قال: "أجلْ، وقاتلُكَ على الباطل"[١]، فأرسَلتِ ابنَ عُمرَ وقالت له: اطوِ الأرضَ، إنْ أدركتَهم ولم يُقتلوا فقلْ لمعاويةَ: لا يقتلْهم، وحدِّثْهُ بما سمعتَ، فوَجَد معاويةَ قد فَرَغ منهم، فلمّا بَلَغ عائشةَ مقتلُهم قامتْ قائمةً ثم جلستْ وجَعَلتْ تبكي وتقول: مات أعلامُ الصَّحابة وخَلَت السّبيلُ لابنِ آكَلةِ الكُبود[٢] وابنِ سُميّةَ، فصارا يتلاعبانِ بأُمّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

فهذا آخرُ ما وَقَع زمنَ الصّحابة، وهو مغفورٌ لهم، لقوله صلى الله عليه وسلم: "إنّ أصحابي يَكْبُونَ بعدي كبْوةً يغفرُها اللهُ لهم بسابقةِ صُحبتي، وإنه سيأتي من بعدهم أقوامٌ يترخَّصُون في قتالِ المسلمين بما وَقع بينَ أصحابي فيَكُبُّهم

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) تعني: هند بنت عتبة القرشية الهاشمية، امرأة أبي سفيان صخر بن حرب، وهي أم معاوية، أسلمت زمن الفتح وشهِدَت اليرموك. وكانت هند من أحسن نساء قريش وأعقلهنّ، ولها شعر جيد. أخبارها قبل الإسلام مشهورة. وشهدت أحدًا، وفعلت ما فعلت بحمزة، قالوا: لما كان يوم أحد جعلت هند بنت عتبة والنساء معها يجدعن أنوف المسلمين، ويبقرن بطونهم، ويقطعن الآذان، وبقرت هند عن بطن حمزة فأخرجت كبدة، وجعلت تلوك كبده، ثم لفظته، وقيل: لم يمثل بأحد ما مثل بحمزة، قطعت هند كبده، وجدعت أنفه، وقطعت أذنيه، وبقرت بطنه. الطبقات، لخليفة، ص ٣٩، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ١/٣٧٢، وأسد الغابة (٧٣٤٢)، وتاريخ الإسلام ٢/ ١٦٦، والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٨/ ٣٤٦.

اللهُ على مناخرِهم في النار"، رواه السُّيوطيّ، وقال: "القاتلُ والمقتولُ في الجنّة إلّا قاتلَ الزُّبير"[١].

أمّا معاويةُ ومَن معَه فإنّهمُ اجتهدوا فأخطأوا فلهم أجرٌ واحد، وأمّا عليٌّ ومن معَه فقد اجتهدوا وأصابوا فلهم أجران.

ثم دسَّ يزيدُ إلى زوجةِ الحَسن[٢] بمالٍ في حياة أبيه وواعَدَها أن يتزوَّجها إنْ سمَّتْه، ففعلتْ مخافةَ أن يَليَ الأمرَ بعدَ أبيه، فلمّا مات معاويةُ جَعل الأمرَ لابنه يزيدَ شغفاً به، وأباهُ جميعُ أهل العَقْد والحلِّ من الصحابةِ وغيرِهم، لعسفِه وتجبُّره وسخافةِ دينِه، فقَتل الحُسينَ وأهلَ بيته ومَسْلمةَ بن عَقيل، ثم بَعث إلى أهل المدينة جيشاً كثيفاً وأمَّر عليه مسلمَ بنَ الوليد بن عُقبة وأمَرَه أن لا يرُدَّ أهلَ الشام عن شيءٍ أرادوه بعدوِّهم وأن يدعوَ مَن هنالك منَ المهاجرينَ وأبنائهم وسائرَ أشرافِ قريش إلى الإقرار بكونِهم أرِقّاءَ ليزيدَ إن شاء عَتَق وإن شاء استرَقَّ، فمن أبَى فليقتُلْهُ.

---

(١) لم أقف على هذين الأثرين.

(٢) واسمها: جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي. الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١/ ٣٨٩، و تهذيب الكمال ٦/ ٢٥٣، وغيرهما.

فلمّا جاء نعيُ الحُسين وأهل بيتِه المدينةَ فرّ مروانُ[1] ومَن كان معه من بني أُميّة، وكان قبلَ ذلك خليفةً على المدينة من قِبَل معاوية، فلقي جيشَ مُسلم بأثناءِ الطريق فرَجع معهم هو ومَن كان معَه من بني أُميّةَ ومواليهم، فسمع بهم أهلُ المدينة فتجمَّعوا لهم وقاتلوهم قتالاً شديداً خارجَ المدينة، فاقتحم بعضُ جيش الشام عورةً في الحِصن دُلُّوا عليها، فانتشَر جيشُ الصّحابة ليمنَعوا الحِصن، فركبَ أهلُ الشام ظهورَهم فوَضَعوا فيهم السَّيفَ، فصبَر سُبّاقُ المهاجرينَ والأنصار حتى مات أكثرُهم، وأُحصِي من ماتَ من المهاجرينَ والأنصار وأبنائهم فبَلَغت عِدّتُهم سبعَ مئة، فأباحوا المدينةَ ثلاثةَ أيام، فبلغ عدُّ القتلى اثنيْ عشَرَ ألفاً وافتَضُّوا فيها ألفَ عذراءَ.

ولم يُصلَّ في مسجد رسُول الله ثلاثةَ أيام، ولم يبقَ في المدينة إلّا أبو ذرّ، قال: كنتُ كلَّما دَخل وقتُ صلاة من الخمس سمعتُ الأذانَ والإقامةَ من القبر الشّريف.

---

(١) يعني: مروان بن الحكم، أبا عبد الملك، وقيل: أبو القاسم، وأبو الحكم (ت٦٥هـ): خليفة أموي، كان كاتب عثمان في أيامه ومن خاصته، ثم أمير المدينة في عهد معاوية، وهو أول من ملك من بني الحكم بن أبي العاص، وإليه ينسب (بنو مروان) ودولتهم (المروانية)، وكان من أكبر الأسباب التي دخل بها الداخل على عثمان؛ لأنه زوّر على لسانه كتابًا في شأن محمد بن أبي بكر، وكان رجلًا قصيرًا أحمر الوجه أوقص دقيق العنق كبير الرأس واللحية، وكان يلقب "خيط باطل" لدقة عنقه. تاريخ الإسلام ٢/ ٧٠٦، والأعلام للزركلي ٧/ ٢٠٧، وسواهما.

حتى تراجعَ الناسُ ثم صار الجيشُ إلى مكّةَ شرَّفها الله، فمات مسلمُ بن عُقبةَ قبلَ الوصول إليها، ومات يزيدُ وهم مُحاصِرو أهل مكّة فجاءهم نعيُه، فذهبَ أميرُ الجيش بعدَ مسلم إلى عبدِ الله بن الزُّبير وهو أميرُ الحجاز واليمن بعدَ معاويةَ، فقال له: هلُمَّ أبايعْكَ فتكونَ أميرَ العامّة؛ لأنّ الجيشَ جيشي ومعظمُ أهل الشام قومي فلا يختلفُ عليك اثنان، فلو كنّا نطلبُ الخلافةَ لرجُل من حِميَر أو رجُل من عكٍّ أو من مَذحِج[1] لاتّهمتُمونا، إنّما نحن سلاحُ من قدَّمتموهُ من قُريش، وإنكم لأحبُّ إلينا من بني أُميّة لولا أنكم أمرتُموهم فكانت طاعتُهم في أعناقِنا فأدَّيناها، فنتَر يدَهُ من يدِه فقال: دونَ أن أقتُلَ بكلِّ قتيل من أهل الحجاز قتيليْنِ من أهل الشام؟ فقال: والله لقد أفِك قومٌ نسبوك إلى العقل والدَّهاء، أدعوك إلى الخلافة وتدعوني إلى الحرب! وأُخاطبُك سرًّا وتخاطبُني جهرًا؟ فانصرف، ودَفع الخلافةَ إلى مروانَ بن الحَكَم بن العاص بن أُميّة.

فاشتُهر عليٌّ زينُ العابدين بالولاية العُظمى، فضُربت إليه أكابدُ[2] الإبل منَ العراق واليمن وسائر الأقطار، فهمّ عبدُ الملك بقتلِه مخافةَ أن يدعوَ الناسَ إلى نفسِه، وسببُ ذلك أنّ عبدَ الملك لمّا فرغ من أمرِ ابنَي الزُّبير: عبدِ الله ومصعَبٍ رضي اللهُ عنهما فقَتلهما واستولى على ما كان تحتَ أيديهما منَ اليمن والحجازِ والعراق وصَفِي له مُلكُ الأقاليم، بَعَث ابنَه هشاماً أميراً على حُجّاج الشام، فلمّا

(١) كمجلس. تاج العروس (ذحج).

(٢) كذا، والمشهور: أكباد.

بلغ البيتَ اجتهد أن يصلَ إليه فلم يقدرْ لكثرة الزِّحام، فأَمَر بكُرسيّ فنُصِب له بالرَّحْبة، فلمّا جاء زيْنُ العابدين تفسَّح لهُ الناسُ حتى طافَ بالبيت، فقال مشايخُ أهل الشام: من هذا الذي قد هابَهُ الناسُ هذه الهيْبة؟ فقال هشام: لا أعرفُه، مخافةَ أن يَرغبَ فيه مشايخُ الشام، وكان الفرزدقُ حاضراً، فقال مُجيباً لهشام:

هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهمُ — هذا التقيُّ النَّقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَه — والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحرَمُ
وليس قولُك من هذا بضائرِهِ — العُربُ تعرف مَن أنكرتَ والعجَمُ
يكاد يُمسكُهُ[١] عِرفانُ راحتِهِ — رُكنَ الحَطيم إذا ما جاء يستلمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهلَهُ — بجدِّه أنبياءُ الله قد خُتموا
مشتقّةٌ من رسُول الله نبعتُهُ — طابتْ عناصرُهُ والخيمُ والشِّيَمُ
يُغضي حياءً ويُغضَى من مهابتِهِ — فما يُكلَّمُ إلّا حين يبتسمُ
بكفِّه خيزُرانٌ ريحُهُ عَبقٌ — بكفِّ أروعَ في عِرنينِه شَمَمُ
إذا رأته قريشٌ قال قائلُها — إلى مكارم هذا ينتهي الكرمُ
من معشرٍ حبُّهم دِينٌ وبغضهُمُ — كفرُ وقربُهمُ مَنجى ومعتصَمُ
لا يستطيعُ جوادٌ بُعدَ غايتهمْ — ولا يُدانيهمُ قومٌ وإن كرُموا
همُ الغِياثُ إذا ما أزمةٌ أزَمَتْ — والأُسدُ أُسدُ الشَّرى والناسُ محتدمُ

(١) الإمساك في هذا البيت يتعدى إلى مفعولين، الأول: الضمير، والثاني: ركن الحطيم.

إنْ عُدَّ أهلُ التقى كانوا أئمتَهمْ   أو قيل من خيرُ أهل الأرض قيل همُ
ما قال لا قطُّ إلّا في تشهُّدِهِ   لولا التشهُّدُ كانت لاؤه نَعمُ

فغضب هشامٌ على الفرزْدق وأمَر بسَجنِه بالمُجلَّل، فحَمَل إليه زينُ العابدين اثنيْ عشَرَ ألفَ درهم واعتذر إليه، فقال له الفرزْدق: مدحتُك لله لا للعطاء، فردَّ إليه المالَ، فقال عليّ: نحن أهلُ بيت لا تُرجَعُ إلينا مواهبُنا واللهُ يعلمُ نيّتُك ويُثيبُكَ عليها، فأخَذ المالَ وشكر الله، فجَعل يهجو هشاماً، فلمّا خاف أن يتغالى في هجوِه أطلقَه.

فلمّا انصرف من حجِّه قال لأبيه عبدِ الملك: إني رأيت فتًى من بني عليّ لئنْ لم تعاملْه ليُفسدَنَّ عليك ما أنت فيه، لقد ضُربت إليه أكبادُ الإبل وهابَه الناسُ هيبةً ما رأيتُها على ملكٍ من ملوك الدّنيا، فبعث إلى خليفتِه أن يبعثَ به إليه في جامعةِ حديدٍ ففَعل، فكان كلّما دَخل وقتُ صلاةٍ من الخمس رَمَى بالحديد فصَلّى فإذا فَرَغ أعاده، فقال له بعضُ أصحاب عبدِ الملك المبعوثِ معَه: لمَ تعيدُ الحديدَ على نفسِك وقد أقدَرك اللهُ على زوالِه من غير علاج؟ قال: أحبُّ أن يذكِّرَني أغلالَ النار وقيودَها.

فلمّا كانوا بأثناءِ الطريق أرادوا أن يَحُولوا بينَهُ وبينَ صلاتِه فعقَدوهُ، فأرخَوْا ذلك[1]. فدَخل على عبد الملك وهو نائمٌ بين نسائه فسلَّم عليه حتى أيقَظَه، فقال:

---

(1) كذا العبارة.

من هذا الذي تجاسَر عليّ في هذه الساعة وفي هذا المكان؟ قال: من تجاسَرتَ على الله في حقِّه فأخرجتَهُ من حُرَم الله مُكبَّلًا مُغَلَّلاً ظلماً وعدواناً، فقال له: من أنت؟ قال: أنا عليُّ بن الحُسين، قال: وأين أصحابُك؟ قال: تركتُهم بموضع كذا، قال له: ومتى فارقتَهم؟ قال: عندَ صلاة العشاء، فقام إلى الأبوابِ فإذا هي مُغلقةٌ والحرسُ جلوس، فقال لهم: كيف ضيَّعتُم الأبواب؟ قالوا: ما ضيَّعنا لك باباً، قال: كيف وقد دَخل عليّ رجلٌ وهُو عندي الآن؟ قالوا: لم يكنْ ليدخُلَ من هذه الأبواب إلّا أن يكونَ نزلَ من السماء، فلمّا رَجَع لم يجدْهُ، فسأل نساءه عنه فقُلْنَ له: بينما نحن ننظُرُ إليه وقد أصابتْنا منه وَحْشة وكنا نظنُّه من الإنس إذْ غاب عن أعيُننا فلم ندرِ أدَخل الأرضَ أم صَعِد إلى السماء. فرَجَع من ليلته إلى أصحابِه وقد ناموا، فجَعل الغُلَّ في عنُقِه والكَبْلَ والقيدَ في يديْهِ ورِجليْه، فلمّا أصبحوا إذا هو جالسٌ وألقى الحديدَ وصلَّى الصُّبحَ ثم أعاد الحديدَ عليه، فسألوه أين ذهبَ فلم يُخبِرْهم، فهابوهُ.

فلمّا كان بعدَ أيام إذا رُسُلُ عبدِ الملك ومعَهم دوابُّ فُرْهٌ وثياب، وإذا كتابُ عبدِ الملك فيه أن أزيلوا عنه الحديدَ واحمِلوه على هذه الدوابِّ وائتوا به مُكرَّماً واكسُوهُ تلك الثيابَ، فركب الدوابَّ وامتنع من لُبس الثّياب.

فلمّا قدِم على عبدِ الملك أكرَمَه وأجلسَهُ معَه على سرير مُلكِه، فاستحلَّه فجعله في حِلّ وقال له: يا عبدَ الملك، إياكَ ودماءَ أهل البيت فإنها بلاء، قال: صدقتَ،

لكنْ بَلَغَني أنك تتصدَّى إلى المُلك، قال: أمّا مُلكُكَ الذي أصبحتَ فيه فلا أتصدَّى له، ولا يزِنُ عندي جناحَ بعوضة، وأمّا مُلكُ القلوب والعلم والغيوب فنعمْ، مَن كان قاتَلَنا على ذلك فليقتُلْنا ولا يُنظرْنا، فقال: لا يقتلُكم على ذلك إلّا ظالم، ثم قال لهُ: إنْ شئتَ أقمتَ عندي مُكرَّماً، وإن شئتَ رددتُك مُكرَّماً، قال: بل تُخلي سبيلي، فخَلَّى سبيلَه فخلا برُسُلِه فقال لهم: أخبروني بشأن الفتى ومتى فقدتُموهُ فأخرجوا له التاريخَ، فوافق ما عندَهم ما عندَه، فقالوا له: ما رأينا مثلَه، لا يأكُلُ ممّا عندَنا، ولم نرَ عليه أثرَ جُوع ولا عطش، وكان الحديدُ لا يعدو عليه متى شاء طَرَحَه بغير علاج، وإذا قام إلى الصلاة اصفرَّ لونُه واضطربتْ جوارحُه واقشعرَّ جلدُه، وإذا سجدَ بلَّ الترابَ بدموعِه، وكلما طالت صحبتُنا له زادت في قلوبنا هيبتُه وإجلالُه، وما نراه إلّا وليًّا من أولياءِ الله، فقام من حينِه وبَعث إلى عُمّالِه بكلِّ إقليم أن كُفُّوا عن دماءِ بني عبد المُطَّلب، فإنّ بني حرب لمّا أُولعوا بدمائهم أزال اللهُ مُلكَهم وقَطع شَأْفتَهم فقصُرت مدّتُهم.

فلما مات عليُّ بن الحُسين استخلَف ابنَه زيدًا، فلما ظهرت ولايتُه وضُربت إليه أكبادُ الإبل صَلَبه الوليدُ، وقيل: مروانُ الحمار، فنسجت العنكبوت على عورته، فلما قصده[1] الناسُ ظنوهم[2] يتبرَّكونَ به، فأمرهم[3] مروانُ بحرقِه ونسفِه،

(١) في النسخة: "قصد".

(٢) في النسخة: "ظنوه".

(٣) في النسخة: "أمرهم".

فحرقوه ونسفوه وهم يقولون لزوّاره: {انْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} [طه: ٩٧]، ثم عَمَدوا إلى كلِّ قبر من قبور العلويِّينَ فجعلوا ينبِشون ويحرقون، وطلبوا قبرَ عليّ رضي الله عنه لينبِشوه ويحرقوا جثّتَه فلم يقدروا عليه؛ لأنه رضي الله عنه أخبرَ أصحابَه بظهور بني أُميّة، فأمرهم بإخفاءِ قبره لئلّا ينبشوه فيحرقوه، فجعلوه في رَحْبة المسجد مسجدِ الكوفة، وحَرقوا محمدَ بن أبي بكر في جيفة حمار، فسلَّط اللهُ عليهم عبدَ الله السَّفّاح وأبا مُسلم الخراسانيَّ فأبادوا خضراءهم وقتلوا مروانَ وحَزُّوا رأسَه، فجيء به إلى عبد الله السفّاح، فلمّا رآه سَجَد لله شكرًا، فأمَر عُمّالَه بقتل كلِّ مَن قدَروا عليه، فقَتلوا في يوم واحد أربعَ مئة رجل فلم ينجُ إلّا الشَّريد.

فلما مات السفّاحُ وولي ابنُه أبو جعفر المنصورُ وَضَع السيفَ في العلويّة، فقتل منهم في خلافتِه ما ينيفُ على المئة، وكانت له جواسيسُ يأتونه بالصِّدق والكذب فيقتُلُ على أدنى شُبهة ويقتُل منهم الصالحَ والطالح سوى مَن تَرك منهم في دهليزِه[1] بعدَ موتِه.

وأفنى الرشيدُ البرامكَ.

---

(١) في النسخة: "دهليسه"، والدهليز معروف، فارسي معرب: داليج أو دليج. لسان العرب (دهلز).

فلما أفضى الملكُ إلى المأمون اعتزل فدعا إلى القول بخلق القرآن وأعانه على ذلك ابن أبي دؤاد[١] وأدخل في الأمة علمَ الكلام والفلسفةَ وغيرَ ذلك من العلوم الفاسدة ففسدت الأمة وعمّت أولياءَ الله النقمة فتبرّأوا لله من الأمة، فاعتزلت العباسية وتشيّعت العلوية وأعلنت قبائحَها أهل الأهواء من الروافض والقَدَرية والجبريّة والإباضيّة والنصبيّة وأغرَوا الأُمراءَ بالأولياءِ والعلماء ليفتنوهم بالعذابِ الشديد والقتل المُبيد، فمنهم مَن فرّ إلى شواهق الجبال، ومنهم مَن تغيّب في أرض الغيب، ومنهم من صَبر وكابَد حتى أظهر اللهُ أمرَه وهم كارهون.

فممّن صَبر على القتل في ذات الله: أحمدُ بن نصْر الخزاعيُّ[٢]، وأبى أن يقولَ بخلق القرآن حتى صلبوه وقطعوا رأسَه وأنفَذوه إلى بغدادَ، وصار حُجّةً عليهم

---

(١) في النسخة أينما ورد: "داوود"، وهو: أحمد بن أبي دؤاد بن جرير بن مالك الإيادي، أبو عبد الله (ت٢٤٠هـ): أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، ورأس فتنة القول بخلق القرآن، وكان معروفاً بالمروءة والعصبية، وله مع المعتصم في ذلك أخبار مأثورة، نشأ في طلب العلم وخاصة الفقه والكلام، حتى بلغ ما بلغ، وصحب هياج بن العلاء السلمي، وكان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار إلى الاعتزال. وفيات الأعيان ١/ ٨١، والأعلام للزركلي ١/ ١٢٤.

(٢) هو المصلوب، الإمام الكبير الشهيد أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي المروزي ثم البغدادي، أبو عبد الله (ت٢٣١هـ): كان أحد نقباء بني العباس فِي ابتداء الدولة الهاشمية. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/٧٩، وتاريخ بغداد ٦/ ٣٩٧، وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٨٠، وتهذيب الكمال١/٥٠٥، وتاريخ الإسلام ٥/ ٧٦٦، وسير أعلام النبلاء١١/ ١٦٦، والأعلام للزركلي ١/ ٢٦٤.

لقراءته القرآنَ كلَّ ليلة يسمَعُ ذلك الخاصُّ والعامّ، وكان ماهرًا في علم الحديث، أخَذه عن مالكٍ وهشام وحمّاد بن زيد.

وكذلك امتُحن أحمدُ بن حنبل بالحديد والضرب الشديد حتى تخلَّعت مفاصلُه، فيضربونه، حتى إذا غُشي عليه تركوه، فإذا أفاق أعادوا الضربَ وهُو لا يزيدُ على أن يقولَ: هو كلامُ الله وكلامُ الله غيرُ مخلوق.

حتى جيءَ بشيخ من أهل الشام في جامعةٍ حديدة، وكان حسنَ الشَّيْبة عظيمَ الهيْبة، فأُدخِل على الواثق، فقال له: يا شيخ، إن شئتَ دعوتُ إليك أحمدَ بن أبي دُؤاد ليناظرَك في خلق القرآن، فقال: إنّ أحمدَ لا يطيقُ مناظرتي لأنه يصبو ويخِفّ، فقال الواثق: أحمدُ يصبو ويخفّ؟ قال: نعم، فقال الواثق: عليَّ بأحمد، فجيء به يُهرول، فقال الواثق: دعوتُك لتناظرَ هذا الشاميّ، فقال له الشاميُّ: يا أحمد، حين مات النبيُّ أكمل اللهُ له دينَه أم لا؟ قال: أكملَه، قال: فهل دعا الناسَ إلى هذا القول الذي حَمَلتَ عليه الناسَ أنت وأصحابُك أم لا؟ قال: لم يدعُ الناسَ إليه، قال: فهل علِمَه أم جهِله؟ قال: لا أدري، قال: فهل فرَّط اللهُ في الكتابِ من شيء؟ قال: لا، قال: فهل دعا الناسَ إليه أبو بكر؟ قال: لا، قال: فهل دعا الناسَ إليه عمر؟ قال: لا، قال: فهل دعا الناسَ إليه عثمان؟ قال: لا، قال: فهل دعا الناسَ إليه عليّ؟ قال: لا، قال: إذا لم يسَعْك ما وسِعَ النبيَّ وأبا بكر وعُمرَ وعثمانَ

وعليًّا فلا وسَّع اللهُ عليك، فأفحَم [ابنَ][1] أبي دؤاد، فقام الواثقُ إلى الشيخ وأزال عنه الحديدَ بيده وأمَر بالغالية[2] فضَمَّخ بها لحيتَه وخَلع عليه، ثم قام إلى بيته واستلقى على قفاهُ وجعل يقول: إذا لم يسعْني ما وسِع النبيَّ وأبا بكر وعمرَ وعثمان وعليًّا فلا وسَّع اللهُ عليّ، فمن يومئذٍ انقطعتِ المحنةُ على القول بخلق القرآن.

ثم انتصب الأئمةُ للردِّ على تلك الفرق المُبطلة، منهم: الإمامُ الأشعريُّ وإمامُ الحرمَيْن وطوائفُ، فألجَموهم؛ لأنهم لم يكونوا أهلَ روايةٍ ولا دراية، لعداوتِهم لأصحاب رسُول الله صلى الله عليه وسلم، فخَمَدت جمرتُهم، إلّا أنّ طوائفَ من المعتزلة مهَروا في علم الكلام رجاءَ أن يستغنُوا عن الأحاديثِ الواردة عن الصّحابة وتأويل الكتابِ بعلم الكلام وزِبدات العقولِ والآراءِ والجَدل، فضلُّوا وأضلُّوا، قال صلى الله عليه وسلم: "ما ضلَّ قومٌ بعدَ هُدى إلّا اشتغلوا بالجدلِ والآراء"، أخرجه النسائي[3].

---

(١) إضافة لازمة.

(٢) الغالية: مسك وعنبر يعجنان بالبان، وأول من سماها بذلك: معاوية بن أبي سفيان. التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، لأبي هلال العسكري، ص ٢٥٠.

(٣) لم أقف عليه عند النسائي كما أراد المصنف رحمه لله، بل هو مروي في سنن ابن ماجة (٤٨)، والترمذي (٣٢٥٣)، وعند ابن أبي عاصم في السنة (١٠١).

ولمّا قَتل المقتدرُ الحَلّاجَ(١) بعث اللهُ على الأُمّة التتارَ فأبادوها قتلًا وسبيًا، فذهبت دولةُ الأُمّة بالكُلِّيّة وهلَكتِ العرب، فأَخَذوا المقتدرَ فقتلوه شرَّ قِتلةٍ بأنْ أخذوه فدقُّوا صُلبَهُ وأدخلوا عمودًا من حديد في دُبُره حتى أخرجوهُ مِن فيه وألقَوه في مرحاض، وقتلوا معَهُ خمسَ مئة فقيه [من](٢) الذين كانوا أمَروه بقتل الحَلّاج وأصابوا به بلادَ الإسلام يقتلونَ المسلمين كيف شاءوا، حتى أباحوا الشام واحتوَوْا على ما فيه، وبقي الناسُ ثلاثَ سنين ولا خليفةَ لهم، فصار الرجلُ الواحدُ يَمُونُ سبعينَ امرأةً وأكثرَ من قومِه لقلّة الرجال.

حتى جَبر اللهُ صدعَ الإسلام بقلاوونَ التركيِّ من قوم يقالُ لهم: بنو عثمان، قدماءُ في الإسلام أهلُ سُنّة وجماعة، جَمع بواقي المسلمينَ وقومَه فقاتلهم فهَزَمَهم من الشام حتى أتوْا طاغيتَهم بالعراق، ثم إنّ أحدَ ملوكهم أسلم فأسلم قومُه

(١) الحسين بن منصور الحلاج، أبو مغيث (ت٣٠٩هـ): كان جده مجوسيًّا، ونشأ بواسط أو تستر ثم قدم بغداد فخالط الصوفية وصحب من مشيختهم الجنيدَ وأبا الحسين النوري وعمرًا المكي. قال فيه الخطيب: "والصوفية مختلفون فيه، فأكثرهم نفى أن يكون منهم وأبى أن يعده فيهم، وقبله من متقدميهم: ابن عطاء وابن خفيف الشيرازي وإبراهيم النصراباذي، وصححوا له حاله ودونوا كلامه، حتى قال ابن خفيف: الحسين بن منصور عالم رباني. ومن نفاه عن الصوفية نسبه إلى الشعوذة في فعله، وإلى الزندقة في عقده، وله إلى الآن أصحاب ينسبون إليه، ويغلون فيه". وقال الذهبي: "قتلوه على الكفر والحلول والانسلاخ من الدين، نسأل الله العفو". تاريخ بغداد ٨/ ٦٨٨، وتاريخ الإسلام ٧/١٤٣، والأعلام، للزركلي ٢/ ٢٦٠.

(٢) إضافة لازمة.

بإسلامِه، فجاهد الطائفةَ الكافرة، فكان ذلك سببَ إطفاء جمرتِهم وردِّهم عن بقيّة المسلمين.

رُوي أنها أعظمُ من وقعة بُخْتِ نَصَّرَ ببني إسرائيل، بل لم يُسمعْ بوقعةٍ مثلُها من زمن آدمَ إلى يومنا هذا، ومن أراد استيفاءَ ما ذكر فلينظرْ إلى كتُب[١] التواريخ، كالطبقاتِ للسيوطيِّ، والدَّمِيريّ، وأمّا هذه العُجالةُ فلا يمكنُ جلبُ غيرِ هذا.

وقال الجُنَيْدُ رضي الله عنه: إذا رأيتَ الرجُلَ يُصدِّقُ بمعجزاتِ الأنبياء وكرامات الأولياء فاسألْهُ الدعاء.

وقال المُرْسي رضي اللهُ عنه: التصديقُ بطريقتنا هذه ولاية.

وقال ابنُ عطاء الله: إذا مررتَ برجُل يدَّعي الولايةَ ومعَه رجُلان أحدُهما مُصدِّق وآخَرُ مُكذِّب فاسأل الدُّعاءَ من المُصدِّق؛ لأنه صدَّق بحسِّ طَويّته، أمّا المدَّعي فإنّ الدَّعوى تشينُه؛ لأنّ الدعاوى ليست من شأنهم بل من شأنِهمُ الإخفاءُ حتى يكونَ اللهُ هو الذي يُظهرُهم؛ لأنهمُ الأتقياءُ الأصفياءُ الأخفياء.

وربّما كان بعضُهم يُظهرُ أشياءَ تُخِلُّ بالمروءةِ سَترًا للحال، كأبي الغوْث، فإنه كان رضي اللهُ عنه يتَّخذُ فرسًا من خشبٍ يعدو عليها معَ الصِّبيان، وكان مُخرَّب الظاهر حتى أظهره اللهُ من غير قصدٍ منهُ، وأولُ ما ظهر يومَ الأراك؛ وذلك أنّ الرُّومَ تكاثرتْ على المسلمين حتى همُّوا بالهزيمة، فركب على خشبتِه وجمع

(١) في النسخة: "كتاب".

الصِّبيانَ، ثم أخذ عصًا وجَعل يضربُ بها رؤوسَ الخنازير، وكلما ضرب خنزيرًا مات مكانَه، وقد حَشَر اللهُ عليه من الخنازير ما لا يُحصى، ويقولُ للصِّبيان: اقتلوا الرومَ، فلمّا فَرغ من قتلِهم خَرّ مغشيًّا عليه، ولقد رآهُ جميعُ العسكر وشاهدوه يقتُلُ الرُّومَ أشدَّ القتل ويكُفُّهم عن المسلمين ويُحرِّضُهم عليهم. وكان بتِلِمْسانَ والعسكرُ بغَرْناطةَ: من بلاد الأندَلُس، فاشتُهر من يومئذ أمرُه وأقْبل الناسُ عليه، ولم يزلْ يُلبِسُ عليهم بعدَ ذلك وهم لا يقبلون.

وكان الناسُ ينسُبونَ كثيراً منهم للجنون، كما كان الكَفَرةُ ينسُبون الأنبياءَ إلى الجنون، قال الله تعالى حكايةً عنهم: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} [الشعراء: ٢٧]، وقال: {أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ} [سبأ: ٨].

سُئل الجُنيدُ رضي اللهُ عنه عن الوليِّ: أهو الذي تُطوى له المسافةُ؟ قال: لا، قيل لهُ: أهو الذي يمشي على الماء؟ قال: لا، قيل لهُ: أهو الذي يطيرُ في الهواء؟ قال: لا، قيل لهُ: فبماذا نعرفُهم؟ قال: بثلاثةِ أشياءَ: اتّباع السُّنّة والكتاب، والتوغُّل في معارفِ الله، واحتقارِ العاجل، فإنّ المسافةَ تُطوى لإبليسَ وهو شرُّ الخلق، والغرابُ يطيرُ في الهواء ويأكُل الدبَر، والحوتُ والكَرْكيُّ يمشيانِ على الماء وهما ما قد عرفتُم.

فلهذا انقلبت الحصاءُ لرجال تبراً وطعاماً وماءً فُراتاً يأخُذون من ذلك متى شاءوا، وربما مات آخرونَ جوعاً وعطشاً وهم أفضلُ عند الله منهم وأرفعُ منزلةً،

كأبي ترابٍ النَّخْشَبيِّ[1]، فإنه مات بفَلاةٍ من الأرض فلدغتْهُ الحيّات وانتهبت السِّباعُ لحمَه ومات جُوعاً وعطشاً، وهو أفضلُ مَن على وجه الأرض يومَئذٍ.

وإنّما الكراماتُ لأطفال الصّالحينَ يتحبَّبُ اللهُ إليهم بها، وأمّا فحولُ الأولياء فقد رَفَعوا هممَهم عن ذلك، فكانت كراماتُهم في عالم الملَكوت وحضرة الجَبروت وتجلِّياتِ القُدُس ومحلِّ الأُنس.

وأمّا الكراماتُ المَلَكيّة فربما كانت حجاباً عن الله، حيث التفتَ عليها وأطمئنَّ إليها، وقصاراها كونُها دلائلَ على صدقِهم وجوالبَ لقُربِهم، قال بعضُهم:

ولا تلتفتْ في السَّيْر شبراً فكلُّ ما سوى الله غيراً فاتَّخذْ ذكرَه حِصْنا
ومهما ترَ كلَّ المراتبِ تُجتلى عليكَ فحُلْ عنها فعن مثلِها حُلنا
وقلْ ليس لي في غيرِ ذاتِك مطلبٌ فلا صورةٌ تُجلى ولا ثمْرةٌ تُجنى

---

(١) عسكر بن الحصين النخشبي، أبو تراب (ت٢٤٥ هـ): شيخ عصره في الزهد والتصوف، ومن جلة مشايخ خُراسان والمذكورين بالعلم والفتوة والتوكل والزهد والورع، اشتهر بكنيته، ونخشب هي نسف: بلد من نواحي بلخ. طبقات الصوفية للسلمي (٢٠)، وحلية الأولياء١٠/ ٢١٩، وتاريخ بغداد ١٤/ ٢٦٦، وسير السلف الصالحين، لقوام السنة، ص ١٢٠٩، طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح (٢٢٨)، وتاريخ الإسلام ٥/ ١١٨١، وطبقات الشافعيين لابن كثير، ص ٣٢٦، والأعلام، للزركلي ٤/٢٣٣ وسواها.

ورُوي أنّ عيسى عليه السلامُ كان يُلازمُه في سياحته بعضُ حَوارِيِّيه، وكان صديقاً، فبينما هو رديفُه إذ عدا عليه أسدٌ فافترسَه، فوَجَد عليه عيسى عليه السلامُ وَجْداً عظيماً فقال: يا ربّ، صديقٌ واحد لي كنتُ أستأنسُ به سلَّطتَ عليه كلبَك فافترسَه بين يدي، فنزل عليه جبريلُ في الحين فقال لهُ: يا رُوحَ الله، إنّ اللهَ يغارُ على أصفيائه أن يكونَ لهم أنيسٌ غيرُه، وإنّ اللهَ كَتَب في سابق أزلِه أن لا ينالَ درجةَ الصِّدِّيقيّة إلّا بافتراس الأسدِ إياه، وقد فعل اللهُ بكما ما هو خيرٌ لكما، وهو أعلمُ بمصالح عبادِه فيما يُحبُّون وما يكرهون، {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦].

واعلمْ أنّ أولياءَ الله عرائسُ مُخدَّراتٌ، بهم تتعطّرُ الأكوانُ والكائنات، ولو أنّ اللهَ أظهَرهم كلَّ الظُّهور لكانوا حُجّةً على مَن خالَفَهم بعدَما عَرَفهم، وإنما لم يعاجلْ بالعذاب مَن لم يتَّبعْهم ويقتدِ بهم لأنه إنّما فعل وهو مُنكرٌ كونَهم أولياءَ، ولو كان بعدَ العلم لعوجلَ، قال اللهُ تعالى: "من عادى لي وليًّا فقد بارَزَني بالمحاربة، ومن آذاهُم فقد آذاني، ومن آذاني يوشكُ أن أؤاخذَه بالمُعاقبة".

قال ابنُ عطاء الله رضي الله عنه: سبحانَ مَن لم يجعل الدليلَ عليهم إلّا من حيثُ الدليلُ عليه، ولم يوصِلْ إليهم إلّا من أراد أن يوصلَهُ إليه.

قال زَرُّوقٌ[1] على هذا المحَلّ: معرفةُ الوليِّ أصعبُ وأبعدُ من معرفة الله؛ لأنّ اللهَ تعالى ظاهرٌ بجلالِه وكمالِه، وآثارِ صنعتِه، والوليُّ محجوبٌ بهذه الصُّورة البشَريّة، فمن أراد اللهُ حرمانَه زَوى عنهُ الحقيقةَ الربَّانيّة وأشهَدَه الصُّورةَ البشّريّة فيحجُبُه بها، فيقول: {مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ} [المؤمنون: ٣٣].

ومن أراد انتعاشَه وانتفاعَه طَوى عنه الصُّورةَ البشّريّة، وأشهَده الحقيقةَ الرَّبّانيّة، فأدركهُ إدراكاً قطعيًّا لا ظنّيًّا ولا جسمانيًّا، ثم انتفع فارتفع، فلأنْ يُقطَّعَ إرَباً إرباً أحبُّ إليه من مفارقتِه أو العدول عمّا هو عليه من الهُدى والتحليق، وتعلو همَمُه حتى لا يرَى في الوجود غيرَ شيخِه ونبيِّه بعدَ موجِدِهما ومَهْديْهما ومُجْرَيْهما، وذلك أوانُ التمكين، فتستوي عندَه المَحمَدةُ والمَذمّة والرَّخاءُ والشِّدة، فيختارُ الجَدَّ على الهُزال، والتعبَ على الراحة، والفقرَ على الغنى، والموتَ على الحياة، فتصفو أعمالُه وتستقيمُ أحوالُه الغيْبيّةُ عن سوى المَهْديْن، فلا يجدُ العدوُّ الأكبرُ إليه سبيلاً، ولا يجدُ القرينُ في قلبه مَقيلاً.

---

(١) أحمد بن أحمد البرنسي الفاسي المغربي المالكي، أبو العباس، زروق (ت٨٩٩ هـ): فقيه محدث صوفي. التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، للسخاوي ١/ ١٥٧، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمخلوف (١٠١٤)، وفهرس الفهارس، للكتاني (٢٣٨)، والأعلام، للزركلي ١/ ٩١.

قلتُ: وإنما قَرن الشَّيخُ اللفظَ بالتنزيه ليُشيرَ به على المُبايَنة معَ وجود التشبيه، وذلك من أوجُه، أحدُها: أنّ الوليَّ يُدركُه أشكالُه، واللهُ تعالى لا يُدركُه أحدٌ من خلقِه. الثاني: أنّ الوليَّ يدركُه من أراد اللهُ أن ينفعَه ببركاتِه دونَ واسطة كالمُرادينَ. الثالثُ: أنّ اللهَ تعالى حَجَب خلقَه عنه بحُجُب كمالاتِه، والوليُّ حَجَبه بصفات بشريّتِه. الرابع: أنّ اللهَ تعالى لا يُتقرَّبُ إليه بالجهةِ والمكان، والوليُّ يُتقرَّبُ إليه بالجهةِ والمكان.

رُوي أنّ بعضَ خُلفاءِ العبّاسيّة سأل إمامَ الحرميْن عن الدليل من الكتاب والسُّنّة على أنّ اللهَ تعالى لا يُنسَبُ إلى جهةٍ ولا مكان، فقال له: قولُه صلى الله عليه وسلم: "لا تفضِّلوني على يونُس بن متّى"، فقال لهُ العبّاسيّ: إنه لم يظهرْ لي وجهُ المناسبة بينَ هذا الأثر وبين نفْي الجهةِ والمكان عن ذاتِ الله تعالى، فقال إمامُ الحرمَيْن: أمهِلْني ثلاثةَ أيام حتى يُحشَرَ علماءُ بغداد، فإنْ بيَّنوا لك وجهَ المناسبة فذلك وإلّا بيّنتُه لك حتى لا يبقى معَك شكٌّ ولا ريب، فقال الخليفة: أفعلُ، فحَشَر علماءَ بغدادَ فسألهم فقالوا لهُ: لم يظهرْ لنا وجهُ المناسبة، فقال لهم: قد أمهلتُكم ثلاثةَ أيام، فإن بيّنتُم فأْتوني بالبيان وإن عجَزتُم فأْتوني فلْنطلُبْ من يُبيِّنُه، فإنها مسألةٌ عظيمةُ الموقع منَ الدِّين، فنُظِروا ثلاثةَ أيام فلم يظهرْ لهم وجهُ المناسبة، فأقْبلوا إليه قائلين: إنه لا مناسبةَ بينَ الأثر وما سألتَ عنه من نفْي الجهةِ والمكان، فتوجَّهوا بجماعتهم إلى إمام الحرميْنِ فقالوا: إنها لم تظهرْ لنا مناسبةٌ فأفتِنا، فقال لهم: ألستُم تعلمون ضرورةً أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم

أفضلُ من جميع الرُّسُل؟ قالوا: بلى، قال إمامُ الحرمَيْن: فلم يبقَ إلّا وجهٌ واحد، وهو أنّ اللهَ لمّا رَفَع النبيَّ صلى الله عليه وسلم إلى المستوى وحطَّ يونُسَ في بطن الحوت إلى التُّخوم فليس النبيُّ بأقربَ إلى الله حيثُ رَفَعه إلى المستوى في تلك الحالة من يونُسَ حيث نزلَ به إلى التُّخوم بالنسبة إلى الحِطّة والمكانة؛ لأنه تعالى لا تُقرِّبُ إليه جهةٌ ولا مكان وإنّما يُقرِّبُ من يشاءُ بالرضا ويُبعدُ من يشاءُ بالسُّخط، قالوا: بيَّنتَ رضي الله عنك بياناً شافياً لا يُبقي شكًّا ولا شُبهة، فخَلَع عليه الخليفةُ خِلعةً سَنِيّةً وأمَر له بمئة ألفِ دينار من بيت المال.

ويشهدُ لهذا ما رواه ابنُ الخطيب[١] في "مواهبِه"[٢]، قال: لما انتهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى العرش تمسَّك العرشُ بأذيالِه، وناداهُ بلسان حالِه: يا **محمّد،** أنت في صفاءِ وقتِك، آمناً من مقتِك، أَشهدَك جمالَ أحديّتِه، وأطلعَك على كمال صمَديّتِه، فأنا الظمآنُ إليه، اللهفانُ عليه، المتحيِّرُ فيه، لا أدري من أيِّ وجهٍ آتيه، جَعَلني أعظمَ خلقِه، فكنتَ أعظمَهم منهُ هيْبة، وأكثرَهم فيه حيْرة، وأشدَّهم منهُ

(١) أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (ت٩٢٣هـ): من علماء الحديث، وصاحب المؤلفات الحافلة والفضائل الكاملة، وأحد شراح "البخاري"، واسم كتابه: المواهب اللدنية في المنح المحمدية، في السيرة النبوية. الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، لنجم الدين الغزي ١/ ١٢٨، وديوان الإسلام، للشمس الغزي ٤/ ١٩، والأعلام للزركلي ١/ ٢٣٢.

(٢) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٢/ ٤٩١.

خوفاً، يا **محمّد**، خَلقَني فكنتُ أرعدُ لهيبةِ جلالِه، فكتب على قائمتيَّ: لا إلهَ إلّا الله، فازددتُ لهيبة اسمِه ارتعاداً وارتعاشاً، فكتب: محمدٌ رسُولُ الله فسَكن لذلك قلقي وهدأ رُوْعي، فكان اسمُك إنقاذاً لقلبي وطُمأنينةً لسرِّه، فهذه بركةُ اسمِك عليّ، فكيف إذْ وَقَع جميلُ نظرك إليّ؟ يا **محمّد**، أنت المُرسَلُ رحمةً للعالمين، ولا بدَّ لي من نصيبي من هذه الرحمة، ونصيبي يا حبيبي أن تشهدَ لي بالبراءة مما نَسَبه أهلُ الزُّور إليّ، وتقوَّلَهُ أهلُ الغرور عليّ، زعموا أني أسعُ مَن لا مِثلَ له، وأحيطُ بمن لا كيفيّةَ له. يا **محمّد**، من لا حدَّ لذاتِه ولا حدَّ لصفاتِه، كيف يكونُ مفتقراً إليّ أو محمولاً عليّ؟ إذا كان الرحمنُ اسمَه والاستواءُ صفتَه، وصفتُه قائمةٌ بذاتِه، فكيف يتّصلُ بي أو ينفصلُ عني؟ يا **محمّد**، وعزّتِه وجلالِه، لستُ بالقريب منهُ وَصْلاً ولا بالبعيدِ عنه فصْلاً، ولا بالمُطيق له حِملاً، أوجَدني منه رحمةً وفضلًا، ولو محَقَني لَكان حقًّا منهُ وعدلًا. يا **محمّد**، أنا محمولُ قُدرتِه ومعمولُ حكمتِه.

وإنّما عبَّر تاجُ العارفينَ بالتنزيه في محَلِّ التشبيه اقتداءً بالله تعالى في قولِه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الإسراء: ١]، إذ الباءُ تقتضي المُصاحبةَ، كما في قولِه صلى الله عليه وسلم: "اللهُمّ أنت الصاحبُ في السَّفر"(١)، فالمصاحبةُ بالإسعافِ والألطاف، لا بالذات في جميع الحالات؛ لأنّ مَن ظنَّ أنه يَتقرَّبُ إليه بالخُطى فقد وَقَع في الخَطا.

---

(١) رواه مسلم ٤٢٥- (١٣٤٢) عن ابن عمر.

وفي كلام بعض أهل الإشارات: لمّا كان صلى الله عليه وسلم ثمرةَ شجرةِ الكون، ودُرّةَ صدقِ الوجود، وسرَّ معنى كلمةِ {كُنْ} ولم يكنْ بُدٌّ من عَرْض هذه الثمرة بينَ يدي مُثمرِها ورفعِها إلى حضرة قُربتِه والطوافِ بها على نُدمان حضرتِه، أرسل إليه أعزَّ خُدّام المُلكِ إليه، فلمّا وَرَد عليه قادماً، وافاهُ على فراشِه قائماً، فقال: قمْ يا نائم، فقد هيأتُ لك الغنائم، فقال: يا جبريل إلى أين؟ قال: يا **محمّد**، اترُكِ الأين، فإنه لا أين، ولا وصْلَ ولا بيْن، ولا حجابَ ولا رَيْن، إنما أنا رسُولُ القِدم، أُرسلتُ إليك لأكونَ من جُملة الخَدم، يا **محمّد**، أنت مرادُ الإرادة، والكلُّ مرادٌ لأجلِك، وأنت مرادٌ لأجلِه، أنت صفوةُ كأس المحبّة، أنت دُرّةُ هذه الصَّدفة، أنت شمسُ المعارف، أنت بدرُ اللطائف، ما مُهدتِ الدارُ إلّا لأجلِك، وما حُميَ هذا الحِمى إلّا لوصلِك، وما [رُوِّق][(١)] كأسُ المحبّة إلا لشربِك، فقال عليه السلام: يا جبريل، فالكريمُ يدعوني إليه، فما الذي يفعلُ بي؟ قال: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} [الفتح: ٢]، فقال: يا جبريل، هذا لي، فما لعيالي وأطفالي؟ قال: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: ٥]، قال: يا جبريل، الآنَ طاب قلبي، فها أنا ذاهبٌ إلى ربّي، قال جبريلُ: يا **محمّد**، إنما جيء بي إليكَ لأكونَ خادمَ دولتك وحاجبَ حاشيتك وحاملَ غاشيتك، وجيء بالمركَبِ إليكَ لإظهار كرامتِك؛ لأنّ من عادة الملوكِ إذا

(١) في النسخة: روى، ولا معنى له، وما هنا من المواهب.

ارتادوا[1] حبيباً واستدعَوْا قريباً وأرادوا ظهورَ إكرامِهِ واحترامِه، أرسَلوا أخصَّ خُدّامِهم وأعزَّ نُوّابِهم لنقل أقدامِهم، فجئناكَ على رسْم عادة الملوك وآدابِ السلوك، فمنِ اعتقد أنه يوصَلُ إليه بالخُطى فقد وَقَع في الخَطا، ومن ظنَّ أنه محجوبٌ بالغَطا فقد حُرم العَطا[2]، ومَن نَسَبه إلى مكان فقد أتَى ببُهتان، تُنسَبُ الأمكانُ[3] إليه ولا يُنسَبُ إليها، واصطفاني من الملأِ الأعلى واصطفاك من البشَر، واصطفى العرشَ من العالَم العُلْويّ والكعبةَ البيتَ الحرامَ من العالَم السُّفْليّ، وشهرَ رمضانَ من الشهور وشهرَ مولدِكَ من الدُّهور، والجمُعةَ من الأُسبوع والبيتَ المعمور من السقفِ المرفوع، والمقرَّبينَ من الملائكة، وأولي العزم من الرسُل، وأُمّتَك من الأُمم، والأقطابَ من الأبدال، والأبدالَ من الأولياء، والأولياءَ من الصّالحين، والصالحينَ من المؤمنين، والشُّهداءَ من المجاهدين، والمخلصينَ من العلماءِ العاملين، فيُقرِّبُ إليه من خلقِه من يشاء كما يشاء، {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣].

وممّا فُضِّلتْ به هذه الأُمّةُ: أن أعطاها اللهُ ما مَنَعه سائرَ الأمم، بل مُنعت منه الرسُلُ الكرام، وهي الرؤيةُ، فقد ثبت وتواترَ رؤيةُ كثيرٍ من أولياء الله للبارئ

---

(١) في المواهب: استزاروا، وهو لفظ حسن.

(٢) إلى هنا نص "المواهب".

(٣) كذا في النسخة، والجادة: أمكنة.

وخطابُه لهم بغير واسطة، منهم: أبو يزيد(١)، وشيخُنا سيّدي عبدُ القادر الجِيلي(٢)، وأبو تُرابٍ النَّخْشَبيُّ وغيرُهم، وذلك من بركة نبيِّهم وما أُيِّدوا به من أنوارِ وراثته، فمنهم من تقتصرُ رؤيتُه على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، حتى أنه إذا قام إلى الصّلاة وقال إمامُه فيُصلّي به، وإذا قال في تشهُّدِه: "السلامُ عليك أيُّها النبيُّ" ردَّ عليه. وكان المُرسي يقول: لو غاب عنّي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لحظةً ما عددتُ نفسي من المسلمين.

وقال موسى عليه السلام: {رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي} [الأعراف: ١٤٣]، فأُعطي محمدٌ وأقطابُ أُمّتِه من غير سؤال من الكلام والرؤيةِ ما مُنع منه موسى عليه السلامُ معَ السُّؤال(٣).

وقد تمسَّك مَن نفى الرُّؤيةَ من الخوارج والمعتزلة وأهل البِدَع بظاهر هذه الآية، وهو قولُه تعالى: {لَنْ تَرَانِي} زاعمينَ أنّ "لن" من أدواتِ النفي المؤبَّد. ولا

---

(١) لم أعرفه.

(٢) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي (ت٥٦١هـ): الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة، شيخ الإسلام علم الأولياء، صاحب المقامات والكرامات وشيخ الحنابلة، ومؤسس الطريقة القادرية. تاريخ الإسلام ١٢/ ٢٥٢، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٣٩، وفوات الوفيات ٢/ ٣٧٣، والأعلام للزركلي ٤/ ٤٧.

(٣) هذا تقرير لطيف.

حُجّةَ لهم في ذلك ولا دليلَ ولا يشهدُ لهم بذلك كتابٌ ولا سُنّة، ودعواهمُ التأبيدَ مجرَّدُ خطأٍ لا خفاءَ فيه، ودعوى باطلةٌ لم تردْ عن أحدٍ من أهل اللسان، إذْ لا يشهدُ لما قالوهُ نصٌّ عن أهل اللُّغة والعربيّة ولم يقلْ به أحدٌ منهم.

ويدُلُّ على صحّة ما قلناهُ قولُه تعالى في صفة اليهود: {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا} [البقرة: ٩٥] معَ أنهم يتمنَّونَ الموتَ يومَ القيامة، كما يدُلُّ عليه قولُه تعالى: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} [الزخرف: ٧٧]، وقولُه: {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} [الحاقة: ٢٧].

فإن قالوا: إن "لن" معناها: تأكيدُ النّفي كـ"لا" التي تنفي المستقبل، فإنْ قلنا بصحةِ هذا التأويل فيكونُ النفيُ محمولاً على الدُّنيا جمعاً بينَ دلائل الكتابِ والسُّنة؛ لأنه قد ثبت في الحديثِ الصحيح(١) أنّ المؤمنينَ يرَوْنَ ربَّهم يومَ القيامة.

ولأنّ موسى عليه السلامُ كان نبيًّا كريمًا يستحيلُ في حقِّه أن يسألَ اللهَ تعالى ما لا يجوزُ أو يكونَ جاهلاً بمثل هذا، ولكنه غَلَب عليه الحُبُّ(٢) وغَمَرهُ الحال، حتى سأل ما لا يُنالُ بالسؤال والاكتساب، ولأنه سأل أمراً عظيماً كان مخبوءاً لغيره،

---

(١) في البخاري (٤٥٨١) و(٧٤٣٩)، ومسلم ٣٠٢- (١٨٣) عن أبي سعيد الخدري. وفي البخاري (٦٥٧٣) و(٧٤٣٧)، ومسلم ٢٩٩- (١٨٢) و ١٦- (٢٩٦٨) عن أبي هريرة. وللإمام الدارقطني (ت٣٨٥هـ) كتاب "رؤية الله"، تحقيق الأستاذين: إبراهيم العلي وأحمد فخري، نشرته مكتبة المنار، الزرقاء- الأردن، ١٤١١هـ.

(٢) هذا تقرير بديع لطيف آخر منه رحمه الله.

وهو نبيُّنا صلى الله عليه وسلم، وأمدَّ بذلك أقطابَ أُمّتِه كما هي عادةُ الله في عدم استبشارِه بأمرٍ دونَها، قال موسى: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: ٦٢]، قال **محمّدٌ** صلى الله عليه وسلم: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠]، وقال: "السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصّالحين"[١].

قال عبدُ الله بن عبّاس: تعجَبونَ أن تكونَ الخُلّةُ لإبراهيم والكلامُ لموسى والرؤيةُ **لمحمّد** صلى الله عليه وسلم وعلى جميعهم؟

ولأنّ موسى أُعطِي الكلامَ من غير مسألةٍ ولا هُجوس لنفسِه، فإنه عِين على القيام بأعبائه، فلمّا تَهاوَن بأمر الرؤيةِ حتى سألها منَ الله مُنِعَها، ثم أحاله على الجبل ليُنبِّهَه على عِظَم ما سأل؛ لأنّ الجبلَ من أشدِّ المخلوقاتِ وأصلبِها، فإذا لم يقمْ بأعباءِ التجلِّي فكيف يقومُ به بشرٌ خُلِق من ضعف؟

ولو أنّ موسى عليه السلامُ صَبَر وتأدَّب حتى يكونَ اللهُ هو المتفضِّلَ عليه بالرؤيةِ لأعانهُ عليها ولأمدَّه برُوح منه يقدِرُ بها على حملِ أعباءِ الرُّؤية، كما أمدَّ نبيَّه **محمّدًا** صلى الله عليه وسلم، حيثُ لم يسألْها ولا هَجَست ببالِه ولم يُدخلْها لنفسِه، فلقد أدَّبه ربُّه فأحسَن تأديبَه حيث يقولُ له: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} [الإسراء: ٨٠]،

---

(١) البخاري (٨٣١) و (٨٣٥) و(١٢٠٢) و(٦٢٣٠) و(٦٢٦٥) و(٧٣٨١) عن عبد الله بن مسعود.

فمدخَلُ الصِّدقِ هو الذي دخلتَه بربِّك لا بنفسِك. وقال صلى الله عليه وسلم: "إنا لا نجعلُ على أمرِنا هذا من يَطلبُه"[1]؛ لأنّ من طلب أمراً وُكلَ فيه إلى نفسِه فيعجِزُ عن القيام به، ومن أدخَله ولم يطلبْه تولَّى اللهُ إعانتَه عليه فيقومُ به، وكان صلى الله عليه وسلم لا يغزو إلّا عن إذنٍ منَ الله، إلّا يومَ أُحُد، فإنه امتنع من الخروج للمشركين ينتظرُ الإذنَ من الله، فلمّا ألحَّ عليه أصحابُه ليخرُجَ خَرج مُوافقةً لهم، وكان من القتل والهزيمةِ ما لم يخفَ.

فعلَّق اللهُ رؤيتَه على استقرارِ الجبل، وهو قولُه تعالى: {وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي} [الأعراف: ١٤٣]، وهو أمرٌ جائزُ الوجود في نفسِه، وإذا كان كذلك ثبت أنّ رؤيتَه جائزةُ الوجود؛ لأنّ استقرارَ الجبل عند التجلّي غيرُ مستحيلٍ إذا جَعل اللهُ له قوّةً على ذلك، والمعلَّقُ بما لا يستحيلُ لا يكونُ مُحالاً.

قال وَهْبٌ[2] ومحمدُ بن إسحاق: لمّا سأل موسى عليه السلامُ الرُّؤيةَ أرسَل اللهُ تعالى الضَّبابَ والصواعقَ والرَّعدَ والبرقَ والظُّلمةَ حتى أحاطت بالجبل

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٥٨٩٩) بغير هذا اللفظ، فعن أبي موسى، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان، فتشهد أحدهما، وقال: يا رسول الله، جئنا تستعين بنا على بعض عملك، وتشهد الآخر، فقال مثل مقالته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أخونكم عندي من يطلبه"، فلم يستعن بهما في شيء حتى قبض.

(٢) يعني: ابن منبه.

الذي عليه موسى عليه السلامُ أربعةَ فراسخ من كلِّ جانب، وأمَر اللهُ أهلَ السمواتِ أن يعترضوا على موسى عليه السلام، فمرَّت به ملائكةُ سماءِ الدُّنيا على صُوَر الثيران رافعي أصواتِهم بالتسبيح والتقديس، أصواتُهم كأصواتِ الرُّعود، فقال: يا ربّ، إني كنتُ عن هذا غنيًّا، ثم أمَر ملائكةَ السماء الثانية: أنِ اهبِطوا على موسى فيهبطون عليه على صُوَر الأُسْد لهم لَجَبٌ بالتسبيح والتقديس، ففَزِع موسى واقشعرَّتْ كلُّ شعرةٍ في بدنِه، ثم قال: ندمتُ على مسألتي، فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه شيءٌ؟ فقال رئيسُ الملائكة: يا موسى، اصبِرْ لما طلبتَ، فقليلٌ من كثيرٍ ما رأيت، ثم أمَر اللهُ ملائكةَ السماءِ الثالثة: أنِ اهبِطوا على موسى واعترِضوا عليه، فهَبَطوا عليه في صُوَر النُّسور لهم قصفٌ ورجفٌ ولَجَبٌ شديدٌ، رافعي أصواتِهم بالتسبيح والتقديس، ألوانُهم كلَهَب النار، ففَزِع موسى واشتدَّ فَزَعُه ويئسَ من الحياة، فقال له رئيسُ الملائكة: مكانَكَ يا ابنَ عمرانَ حتى ترى ما لا صبرَ لكَ عليه.

ثم أمَر اللهُ ملائكةَ السّماءِ الرابعة: أنِ اهبِطوا على موسى واعترِضوا عليه، فهَبَطوا عليه لا يُشبهُهم أحدٌ من ملائكةِ السَّمواتِ الثلاثةِ السابقين، ألوانُهم كلَهَب النار وسائرُ خَلقِهم كالثلج الأبيض، أصواتُهم عاليةٌ بالتسبيح لا يُقاربُ أصواتَهم شيءٌ من أصواتِ الذين مرُّوا فيه قبلَهم، فاصْطكَّتْ رُكبتاهُ وأرعَد قلبُهُ واشتدَّ بكاؤه، فقال رئيسُهم: يا ابنَ عِمرانَ، اصبِرْ لِما سألتَ، فقليلٌ من كثيرٍ ما رأيتَ. ثم أمَر اللهُ ملائكةَ السماءِ الخامسةِ: أنِ اهبِطوا على موسى واعترِضوا عليه،

فهبطوا عليه ولهم سبعةُ ألوان، فلم يستطعْ موسى أن يُتْبِعَهم بصرَه؛ لأنه لم يرَ مثلَهم ولم يسمعْ أصواتاً مثلَ أصواتِهم، فامتلأ جوفُه رُعباً واشتدَّ حُزنُه وبكاؤه، فقال له رئيسُهم: مكانَكَ يا ابنَ عِمرانَ حتى ترى ما لا صبرَ لكَ عليه.

ثم أمَرَ اللهُ تعالى ملائكةَ السماءِ السادسة: أنِ اهبِطوا على موسى، فهبطوا عليه وفي يدِ كلِّ واحدٍ منهم مثلُ النخلةِ العظيمةِ الطويلة منَ النار أشدُّ ضوءاً من الشمسِ ولباسُهم كلَهَب النار، إذا قدَّسوا وسبَّحوا جاوَبَهم من كان قِبَلَهم من الملائكة، كلُّهم يقولون بأصواتٍ لم يُسمَعْ بمثلها: سُبُّوحٌ قُدُّوس ربُّ الملائكة والرُّوح ربُّ العزّة أبداً لا يموت، في رأس كلِّ واحدٍ منهم أربعةُ أوجُه، فلمّا رآهم موسى رَفَع صوتَه يُسبِّح معَهم وهُو يبكي ويقول: يا ربّ، اذكُرْني ولا تنسَ عبدَك، ولا أدري أأُفلِتُ ممّا أنا فيه أم لا؟ إن خرجتُ احترقتُ، وإن قمتُ مِتّ، فقال له رئيسُ الملائكة: قد أوشكتَ يا ابنَ عِمرانَ أن يشتدَّ خوفُك وينخلعَ قلبُك، فاصبِرْ للذي سألتَ.

ثم أمَرَ اللهُ تعالى أن يُحملَ عرشُه في ملائكةِ السماءِ السابعة، فلمّا بدا نورُ العرش انصَدع الجبلُ من عَظَمةِ الربِّ سبحانه ورَفَعت الملائكةُ أصواتَها يقولون: سبحانَ الملكِ القُدُّوس ربِّ العزّةِ أبداً لا يموت، فارتجَّ الجبلُ لشدّة أصواتِهم وسَقَطت كلُّ شجرةٍ كانت عليه، فخَرَّ مُوسى صَعِقًا ليس معَه رُوحُه، فأرسَل اللهُ برحمته الرُّوح فغشيَتْهُ وقلبَ عليه الحجرَ الذي كان جالساً عليه فصار عليه كهيئةِ

القُبّة لئلّا يحترقَ، فلمّا أفاق وقام يُسبِّحُ ويقول: آمنتُ بكَ وصدَّقتُ أنه لا يراكَ أحدٌ فيعيش، فمن نظر إلى ملائكتك انخلعَ قلبُه، فما أعظمَك وأعظمَ ملائكتَك، أنت ربُّ الأرباب وملكُ الملوكِ والإلهُ العظيمُ فما يعادلُك شيءٌ ولا يقومُ لك شيءٌ، ربِّ تُبتُ إليك، لكَ الحمدُ، لا شريكَ لك، ما أعظمَك وما أجلَّك يا ربَّ العالمين، وذلك قولُه تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا} [الأعراف: ١٤٣].

قال ابنُ عبّاس: ظَهر نُورُ ربِّه للجبلِ فصار تراباً، واسمُ الجبل: زُبَيْر.

وقال الضحّاكُ: أظهر اللهُ عزَّ وجلَّ من النُّور للحُجُب مثلَ مِنخَر الثور. قال عبدُ الله بن سلّام وكعبُ الأحبار: ما تجلَّى للجبل من عَظَمة الله إلّا مثلُ سَمِّ الخِيَاط فصار دكًّا.

وقال السُّدّيُّ: ما تجلَّى إلّا قدرَ الخِنصَر، كما يدلُّ عليه ما رُوي عن أنس، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآيةَ: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا} فقال هكذا، ووضعَ الإبهام على المِبعَضِ الأعلى من الخِنصَر، فساخ الجبل. ذكره البغَويُّ بغير سند. وأخرجه الترمذيُّ(١) أيضاً عن أنس، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآيةَ، قال حمّاد: هكذا، وأمسَك سُليمانُ بطرَف إبهامِه على أنمُلة إصبعِه

(١) في سننه (٣٠٧٤).

اليمنى، فساخ الجبلُ، {فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ [سُبْحَانَكَ][1] تُبْتُ إِلَيْكَ} [الأعراف: ١٤٣] من سؤالي ما ليس لي، وحسناتُ الأبرار سيّئات المُقرَّبين[2].

ثم[3] إنّ اللهَ تعالى أنزلَ عليه التوراةَ في عشَرة ألواح من الزُّمُرُّد طولُ كلِّ لوح عشَرةُ أذرع، فلمّا نظر فيها قال: يا ربّ، إنّي أجدُ في الألواح أُمّةً هي خيرُ أُمّةٍ أُخرِجتْ للناس: يأمُرونَ بالمعروف وينهَوْن عن المنكر، ويؤمنونَ بالكتابِ الأول وبالكتابِ الأخير، ويقاتلونَ أهلَ الضَّلالة حتى يقاتلوا الأعورَ الدجّال، ربِّ اجعلْهُم أُمّتي، قال: تلك أُمّةُ **محمّدٍ** يا موسى.

قال: ربِّ إنّي أجدُ في الألواح أُمّة هم الحَمّادونَ رُعاةَ الشمس المُحكَّمون إذا أَمَروا، قال: نفعلُ إن شاء الله، فاجعلْهم أُمّتي، قال: هي أُمّةُ **محمّد**. قال: ربِّ إنّي أجدُ أُمّةً يأكلونَ كفّاراتهم وصَدَقاتِهم ويؤجَرون عليها، وهم المستجيبونَ المُستجابُ لهم، الشافعونَ المشفوعُ لهم، فاجعلْهم أُمّتي، هي أُمّةُ **محمّد،** قال: ربِّ إنّي أجدُ في التَّوراة أُمّةً إذا أشرفَ أحدُهم على شَرَفٍ كبَّر الله، وإذا هَبَط [واديًا][4]

(١) طرح الناسخ هذه الكلمة من الآية الكريمة.

(٢) هذه العبارة ليست حديثًا نبويًّا، بل هي من كلام أبي سعيد الخرار أحمد بن عيسى الصوفي البغدادي، كما في ترجمته من تاريخ بغداد للخطيب ٥/٤٥٥، وترجمته في تاريخ دمشق لابن عساكر ٥/ ١٣٧، وعنه السخاوي في المقاصد الحسنة (٤٠٤)، وغيرهم.

(٣) الخبر في الدر المنثور، للسيوطي ٣/٥٥٦ وما بعدها.

(٤) إضافة لازمة أخل بها النسخة واستدركناها من المصدر السابق.

وحَّد[1] اللهَ، الصَّعيدُ لهم طَهورٌ حيث لا يجدونَ الماءَ، غُرٌّ مُحجَّلون من آثارِ الوضوء، فاجعلهم أُمّتي، قال: هي أُمّةُ **محمّد.** قال: ربِّ إنّي أجدُ أُمّةً إذا همَّ أحدُهم بحَسَنةٍ ولم يعملْها كُتبتْ له حَسَنةً، وإن عملَها كُتبتْ بعشْرِ أمثالِها إلى سبع مئةِ ضِعف، فاجعلْهم أُمّتي قال: هي أُمّةُ **محمّد.** قال: ربِّ إنّي أجدُ أُمّةً مرحومةً ضُعفاءَ يَرثون الكتابَ، همُ الذين اصطفيتَهم، فمنهم ظالمٌ لنفسِه ومنهم مُقتصِد ومنهم سابقٌ بالخيرات، لا أجدُ أحداً منهم إلّا مرحوماً، فاجعلهُمْ أُمّتي، قال: هي أُمّةُ **محمّد،** قال: ربِّ إنّي أجدُ في الألواح أُمّةً مصاحفُهم في صدورهم، يلبَسُونَ الوانَ ثيابِ أهل الجنّة، يصُفُّون في صلاتِهم صفوفَ الملائكة، أصواتُهم في مساجدِهم كدَويِّ النحل، لا يدخلُ النارَ أحدٌ منهم إلّا *مَن يَرى الحسابَ مثلَ ما يرى الحجرَ من تحت البحر*[2]، فاجعلْهم أُمّتي، قال: هي أُمّةُ **محمّد.** فعجِبَ موسى منَ الخير الذي أعطاه اللهُ محمّداً وأُمّتَه، فقال: يا ليتني كنتُ من أصحاب محمّد، فأوحى اللهُ إليه ثلاثَ آياتٍ يسترضيه بهنّ: {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا

---

(١) في الدر المنثور: حمد الله.

(٢) كذا عبارة النسخة، وجاءت في الدر المنثور بأحسن منها وذات معنى، ونصها فيه: "من يرى من الحسنات مثل ما يرى الحجر من ورق الشجر". الدر المنثور ٥٥٨/٣.

بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٤٤- ١٤٥]، {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٥٩]، فرضي موسى كلَّ الرِّضا.

فصلٌ: في زجْرِ العلماءِ عن المَيْل إلى الدُّنيا والرُّكون إليها والتكسُّبِ بالعلم وطلبِ الجاهِ والمنزلة به وطلبِه

لذلك قال الرسُولُ صلى الله عليه وسلم: "العلماءُ وَرَثةُ الأنبياء ما لم يميلوا إلى الدُّنيا، فإذا مالوا إليها فقد خانوا اللهَ ورسُولَه" أخرجه النسائيُّ[١] بسندٍ مرفوع.

وقال صلى الله عليه وسلم: "شرُّ العلماءِ من يَغشى منازلَ الأُمراء، وخيرُ الأُمراء مَن يغشى منازلَ العلماء"، أخرجه ابنُ[٢] ماجة[٣].

---

(١) يتكون هذا الحديث من قطعتين، الأولى: قوله: "العلماءُ وَرَثةُ الأنبياء"، رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجة (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء، والقطعة الثانية منه: أخرجها ابن أبي حاتم في علل الحديث (١٩٠٦) من حديث أنس، ولم أهتدِ إليه في سنن النسائي باللفظ الذي ساقه المصنف رحمه الله.

(٢) في النسخة: أبو.

(٣) لفظه في ابن ماجة (٢٥٦): عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تعوذوا بالله من جب الحزن"، قالوا: يا رسول الله، وما جب الحزن؟ قال: "واد في جهنم، يتعوذ منه جهنم كل يوم أربع مئة مرة"، قالوا: يا رسول الله، من يدخله؟ قال: "أعد للقراء المرائين بأعمالهم، وإن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء".

رُويَ أنه كان معَ موسى عليه السلامُ رجلٌ من أصحابِه يأخُذ عليه العلمَ، ثم فَقَده زماناً، فجَعل الرجُلُ يطوفُ في قُرى بني إسرائيلَ وضواحيها، فيقول: قال موسى صَفيُّ الله كذا، وقال موسى كليمُ الله كذا، فيُعطَى على ذلك، حتى جَمع أموالاً كثيرةً، فبينما هو كذلك إذأصبح وقد مُسخ خنزيراً، فذهبوا به إلى موسى عليه السلامُ يقودونَه وفي عُنُقه حبل، فقالوا: أتعرفُ هذا يا موسى؟ قال: نعم، هو خنزير، فقالوا: ليس هو خنزيراً ولكنْ هو صاحبُكَ فلان، ففَزِع موسى عليه السلام، فقال للخنزير: أنت فلان؟ فأشار برأسِه أنْ: نعمْ، ولم يقدرْ على الكلام ودموعُه تنهملُ، فلبسَ موسى عليه السلامُ مُسوحًا وسجدَ لله، وسأله أن يُشفِّعَه فيه حتى يرُدَّه إنساناً كما كان، فأوحى اللهُ إليه أنْ يا موسى، لو سجدتَ حتى سقطتْ عيناك ورَفعتَ يديْكَ حتى تخلَّعتْ مَنكِباك ما شفَّعتُكَ فيه، فقال موسى: يا ربّ، إذا لم تُشفِّعْني فيه فأخبرني بالذنبِ الذي مَسَختَه من أجلِه خنزيراً، فأوحى اللهُ إليه: يا موسى، إنه أخَذ عليكَ العلمَ لغير وجهي ثم تكسَّب به بعدَ ما حصَّله، ولم يُرِدْ بذلك إرشادَ ضالّ ولا تعليمَ جاهل، فقال: أي ربِّ، هذا له خاصةً أو لكلِّ مَن فعلَ فعلَه؟ قال الله: بل لكلِّ من فعلَ فعلَه إلى يوم القيامة، فمن لم أمسخْ جسمَه ليَعتبِرَ به غيرُه مسختُ قلبَه، فجَمع موسى عليه السلامُ بني إسرائيلَ وأخبرهم بذنبِه وحذَّرهم من صنيعِه لئلا يصيبَهم مثلُ ما أصابه، فوَجِلتْ قلوبُهم،

فمنهم من ترهَّب ومنهم من لَزِم موسى ومنهم من آلى على نفسِه ألّا يُعلِّمَ أحداً، فأوحى اللهُ إلى موسى: أنْ قلْ لبني إسرائيل: بل تعلَّموا التوراةَ وعلِّموها ولكنْ ليكنْ ذلك لوجهي خالصاً، فإنكم إن فعلتُم كنتُم ربَّانيِّينَ فنفَعتُم وانتفعتُم، وإيّاكم والتكسُّبَ بالعلم فإنهُ يُقسِّي القلب ويُنسي الذنب ويُغضبُ الربّ ويوردُ مُرتكبَه مواردَ الهلاك.

فاستقام أمرُ بني إسرائيلَ فتعلَّموا وعَلَّموا لله حتى طال عليهمُ الأمَد فقسَتْ قلوبُهم فتكسَّبوا بالعلم وأخذوا الرُّشى على الأحكام وبدَّلوا وغيَّروا، فخالفتْهم أُمّةٌ منهم فأمَروا ونهَوْا، فتظاهرتْ عليهم سائرُ أسباطِهم، فسألوا اللهَ أن يُبعدَهم من بني إسرائيلَ حتى لا يَسمَعوا لهم خبراً ولا يقَعوا لهم على أثر، فَفَتَح اللهُ لهم سرباً فذهبوا فيه حتّى خَرجوا من وراءِ الصّين فهم على الحنيفيّة السَّمحةِ إلى آخر الدهر يستقبلونَ قبلتَنا. قال ابنُ جُرِيْج[١]: قال ابنُ عبّاس: ساروا في السِّرب سنةً ونصفاً. رواه الطبريّ[٢].

---

(١) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، أبو الوليد وأبو خالد (ت١٥٠ هـ): فقيه الحرم المكيّ. تاريخ بغداد ١٢/ ١٤٢، وتهذيب الكمال ١٨/ ٣٣٨، وتاريخ الإسلام ٣/ ٩١٩، والأعلام للزركلي ٤/ ١٦٠، وسواهم.

(٢) في تفسيره ١٠/٥٠٢.

وحكى البغّويُّ[1] عن الكَلْبيِّ[2] والضحّاك[3] والرَّبيع[4]، قالوا: هم بأقصى المشرق على نهرٍ يُجري الرملَ فيسمى نهرَ أردان[5] ليس لأحدٍ منهم مالٌ دونَ صاحبه، يُمطَرون باللَّيل ويُصحَوْنَ بالنهار.

وذُكر أنّ جبريلَ عليه السلامُ ذهب بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم ليلةَ أُسري به عليهم، فكلَّمهم جبريلُ فقال لهم: هل تعرفونَ مَن تُكلِّمون؟ قالوا: لا، قال: هذا محمدٌ النبيُّ الأُميُّ، فآمَنوا به وقالوا: يا رسولَ الله، إنّ موسى أوصى أنْ إذا أدرَك أحدٌ منكم محمّداً فليُقرئْهُ منّي السلام، فردَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عليهمُ

(١) في التفسير ٣/ ٢٩٠.

(٢) إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان، أبو ثور الكلبي (ت ٢٤٠هـ): الفقيه أحد الأعلام. تاريخ بغداد ٥٧٦/٦، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال ٢/ ٨٠، وتاريخ الإسلام ٥/ ٧٧٢.

(٣) الضحاك بن عثمان بن الضحاك بن عثمان الأسدي الحزامي المدني القرشي، أبو عثمان الكبير (ت١٨٠ هـ): علامة قريش بأخبار العرب، وأيامها وأشعارها، كان من علماء المدينة، وأشرافها. تهذيب الكمال ١٣/ ٢٧٢، وتاريخ الإسلام ٤/ ٩٠.

(٤) الربيع بن صبيح السعدي البصري، أبو بكر (ت١٦٠هـ): مولى بني سعد، ومن أعيان مشايخ البصرة، وهو أول من صنف بالبصرة. وكان عابدًا ورعًا، وفي روايته للحديث ضعف. تهذيب الكمال٩/ ٨٩، وتاريخ الإسلام ٤٧/٤ وغيرهما.

(٥) كذا في النسخة: "أردان" مجودة واضحة، وفي البغوي: "أوداف"، والله أعلم أيهما الصواب.

السلامَ وأقرأهُم عشْرَ سُوَر من القرآن[1]، وأمَرهم بالصّلاة والزكاة، وأمَرهم أن يُقيموا مكانَهم، فوجَدهم يُسبِتون فنهاهم عن السَّبت وعلَّمهم الجمُعة.

أمّا إسلامُهم على يديْ رسُول الله فقد طَعَن فيه أقوام، لكنْ لا يُسلَّمُ لهم ذلك، وقد رواه أربعةٌ من أئمّة الحديث، وهو من معجزاته وعلومِه صلى الله عليه وسلم الباطنة التي لا يُحاطُ بها، ولا يُدرِكُ أحدٌ غايتَها ولا يُطعَنُ فيه، كونَه لم يَرِدْ في الصِّحاح الستة؛ لأنّ الصِّحاحَ الستّةَ إنما يَعتبرون مشاهيرَ الأسانيد معَ أنهم لم يُحيطوا بجميع الأحاديث، كما قال ابنُ سُميع[2]، فالواجبُ التسليم لهُ كما وَرد، إذ ليس له تعلُّقٌ بالديانة، فيُبحثُ عن أصله، بل هو من جُملة الأحاديثِ الإسرائيليّة* القائل الرسُول صلى الله عليه وسلم فيها*[3]: "قُصُّوا عن بني إسرائيلَ ولا حَرَجَ فإنّها أُمّةُ العجائب"، أخرجه ابنُ ماجة[4].

---

(١) يروى جزء من هذا الأثر في خبر الهامة بن الهيم بن لاقيس بن إبليس لعنه الله. انظر: أسد الغابة، لابن الأثير ٤/٦٠٤. وأما نهي موسى عليه السلام لهم عن الإسبات ففي تفسير الطبري ٢/ ٦٠- ٦٣ وغيره.

(٢) ابن سميع كثير، ولم أتبين من هو منهم يقصد المصنف رحمه الله.

(٣) كذا العبارة ما بين النجمين في الأصل مضطربة أفسدها الناسخ.

(٤) لم أقف عليه في سنن ابن ماجة، وهو فيما هو أعلى منه، فقد أخرجه الشيخان قطعة من حديث عندهما، أما البخاري فرواه (٣٤٦١) عن عبد الله بن عمرو، وأما مسلم فرواه ٧٢- (٣٠٠٤) عن أبي سعيد الخدري.

وفي علماءِ السُّوء ضَرب اللهُ تعالى هذا المثَلَ وأنزل هذه الآيةَ: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [الأعراف: ١٧٥- ١٧٦]، ومعنى قولِه تعالى: {أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ} يعني: مال بكُلّيتِه إلى الدُّنيا واطمأنّ إليها ورضي بها، وأصلُه من الخلود، وهُو الدّوامُ والمقام، والأرضُ هنا عبارةٌ عن الدنيا؛ لأنّ الأرضَ عبارةٌ عن المَفاوز، وفيها المُدُن والضِّياعُ والمعادنُ والنباتُ، ومنها يُستخرَجُ ما يُعاشُ به في الدنيا، فالدنيا كلُّها تراب. {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} يعني: أنه أعرَض عن التمسُّك بما آتاه اللهُ من الآياتِ واتَّبع الهوى فخَسِر دُنياه وآخرتَه ووَقَع في هاويةِ الرَّدى والهلاك.

وهذه الآيةُ من أشدِّ الآياتِ على العلماءِ الذين يريدونَ بعلمِهم الدُّنيا وشَهَواتِ النفس ويتَّبعون الهوى؛ وذلك لأنّ اللهَ خصَّ هذا الرجلَ بآياته وحِكمته، وعلَّمه الاسمَ الأعظمَ وجعلَ دعاءه مُستجاباً، ثم إنه لمّا اتَّبع هواهُ ورَكَن إلى الدُّنيا ورضيَ بها عِوضاً عن الآخرة نَزَع منهُ ما كان أعطاه وانسلَخ من الدِّين فخَسِر الدُّنيا والآخرة، ومَن ذا الذي يسلمُ من الميل إلى الدُّنيا واتّباع الهوى إلّا مَن عَصَمه اللهُ بالورع وسدَّده بالتوفيق وثبَّته باليقين ونفَعَه بالعلم وبصَّره بعلوم نفسِه. عن كعبِ بن مالكٍ الأنصاريِّ، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه

وسلم: "ما ذئبان جائعانِ أُرسِلا في غَنَم بأفسدَ لها من حرصِ المرءِ على المالِ والشَّرف لدينِه"، أخرجه الترمذيُّ[1].

ثم ضَرب اللهُ مثلاً لهذا الرجُل الذي آتاه آياتِه فانسلخ منها واتَّبع هواهُ فقال تعالى: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ} [الأعراف: ١٧٦]، فضَرب له المثَلَ بأخسِّ الحيَوانات وهُو الكلبُ، وفي أخسِّ أحوالِه وهو اللَّهثُ؛ لأنه في حالة لهثِه لا يَنتفعُ بنفسِه ولا يَنتفعُ به غيرُه، فكذلك عالمُ السُّوء لا ينتفعُ بنفسِه حالةَ لهثِه لمُكالبته على الدُّنيا والشرف فيُباينُ الزُّهدَ والتقوى وإخلاصَ العمل لله ولا يَنتفعُ به غيرُه لسُوء حالِه الباطن؛ لأنّ كلَّ مقام يبرزُ وعليه حُلّةٌ من القلبِ الذي بَرَز منه، فإنّ العالِمَ إذا توصَّل بعلمه إلى طلبِ الدنيا فإنه يُظهرُ علومَه عندَ غير أهلِها ويُدلِعُ لسانَه في تقرير تلك العلوم وبيانِها، وذلك لأجل ما يحصُلُ عندَه من حرارة الحرصِ الشَّديد وشدّة العطش على الفوز بمطلوبِه من الدُّنيا، فكانت حالتُه شبيهةً بحالة الكلبِ الذي أدلعَ لسانَه من اللَّهث في غير حاجةٍ ولا ضرورة. ومعنى {إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ} أنه لا يَتركُ ما جُبل عليه من اللُّهاث سواءٌ حملتَ عليه فأهَجْتَهُ أو تركتَه فلم تُهجْهُ ولم تحملْ عليه فهُو لاهثٌ لا مَحالةَ، فكذلك فإنّ الحريصَ على الدُّنيا إنْ وعظتَه فهُو باقٍ على حرصِه لا يقبلُ الوعظَ ولا ينجَعُ فيه، وإنْ تركتَهُ ولم تعظْهُ فهو حريصٌ

(١) في سننه (٢٣٧٦).

أيضاً؛ لأنّ حرصَه على طلبِ الدُّنيا بعلمِه والأكل بدينِه صار طبيعةً له لازمةً، كما أنّ اللَّهثَ طبيعةٌ لازمةٌ للكلب.

وإنّما لم تنجعْ فيه الموعظةُ ولم يُجبْ داعيَ الله إلى الهدى لكونِه يرى نفسَه عالماً فيما يظهرُ له، وللكلاب أمثالُه، وهو في نفسِ الأمر جاهلٌ خبيث، قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ليس العلمُ بكثرة الرِّوايات، ولكنّ العلمَ نورٌ يقذفُه اللهُ في قلبِ من يشاءُ من عبادِه"، وقال صلى الله عليه وسلم: "اللهُمَّ إنّي أعوذُ بكَ من عالم اللسان جاهل القلب". أخرجهما مالكُ بن أنس رضي اللهُ عنه[١].

وهذا الآيةُ نَزَلتْ في أُميّةَ بنِ أبي الصَّلتِ الثقَفيّ[٢] [١]، وكان عالماً بالكتُبِ السالفة، فوَجَد نعتَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وقُربَ زمانِه، وكان يرجو

(١) وهم المصنف رحمه الله بهذا التقرير، فجعل الحديثين كليهما عن مالك بن أنس، وليس صوابًا، فإن الأول فقط عنه، أخرجه: ابن أبي حاتم في التفسير (١٧٩٨١)، وعنه السيوطي في الدر المنثور ٧/٢٠. ولكن الثاني من حديث عمر بن الخطاب، أخرجه: محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٦٨٣)، والفريابي في صفة النفاق وذم المنافقين (٢٦)، وابن كثير في مسند الفاروق ٢/ ٦٦٠.

(٢) أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، أبو عثمان، ويقال: أبو الحكم (ت٥هـ): شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف. قدم دمشق قبل الإسلام. وكان مطلعًا على الكتب القديمة، يلبس المسوح تعبدًا، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية. ورحل إلى البحرين فأقام ثماني سنين ظهر في أثنائها الإسلام، وعاد إلى الطائف، فسأل عن خبر محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلم فقيل له: يزعم أنه نبي، فخرج حتى قدم

أن يكونَه، فلمّا أُرسِل رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم حَسَده وتكبَّر عنِ اتّباعِه بعدَ شُهرته للعلم ورياستِه في العربِ والنصارى، وكان يُعطي على ذلك طُعمةً، فحرِص على ذلك وتكبَّر وعانَدَ للشّقاءِ السابق، فهي- وإن نزلتْ في أُميّةَ- عامةٌ في جميع مَن طلبَ بعلمِه مالاً أو شرفاً، إذْ لا يمنعُ خصوصُ السبب من عموم الحُكم وتناوُلِه لكلِّ مُماثل في الصِّفةِ الجامعة كما هو موجودٌ في أكثرِ نصُوص الكتُب والسُّنة وبيَّنه علماءُ الأُمّة.

وتشمُلُ الآيةُ الكريمة كلَّ مُعجَبٍ بعلمِه متكبِّر بفهمِه، إذِ العُجبُ والكِبرُ ليسا من صفاتِ العلماء، ولا من موجباتِ العلم ونتائجه، فيوجبُ وجودُهما في الرّجُل كونَه جاهلاً، إذِ العلمُ نورٌ من نور الله يوجبُ التواضعَ والإخباتَ

عليه بمكة وسمع منه آيات من القرآن، وانصرف عنه، فتبعته قريش تسأله عن رأيه فيه، فقال: أشهد أنه على الحق، قالوا: فهل تتبعه؟ فقال: حتى أنظر في أمره. وخرج إلى الشام. وهاجر رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى المدينة، وحدثت وقعة بدر، وعاد أمية من الشام يريد الإسلام، فعلم بمقتل أهل بدر وفيهم ابنا خالٍ له، فامتنع. وأقام في الطائف إلى أن مات. أخباره كثيرة، وشعره من الطبقة الأولى، وعلماء اللغة لا يحتجون به لورود ألفاظ فيه لا تعرفها العرب. وهو أول من جعل في أول الكتب: باسمك اللّهم". وانظر أيضًا: طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي (٣٥٥)، وتاريخ ابن معين برواية الدوري (١١١)، والاشتقاق، لابن دريد، ص ١٤٣، والمبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة، لابن جني، ص٢٣٠، وتاريخ دمشق، لابن عساكر٩/ ٢٥٥ (٨١١)، والأعلام، للزركلي ٢/ ٢٣.

(١) أمره مستفيض في التفاسير، انظر مثلًا: تفسير الطبري ١٣/ ٢٥٥، وسواه.

والانقيادَ للحقِّ لهُ أو عليه، حيث كان وعندَ مَن، بأنْ يدورَ معَه حيث دار ويسايرَه أينما سار ويرجعَ إليه كلَّما باينَه ويطلبَهُ أينما عاينَه، إذ الرجوعُ إليه فريضة، والعدولُ عنه بلوى عريضة، قال صلى الله عليه وسلم: "الحقُّ معَ عُمر، وعُمرُ معَ الحقِّ يدورُ معَه حيثُما دار"[1].

وإنّما مَنَع أُميّةَ- معَ علمِه ومعرفتِه برسُول الله صلى الله عليه وسلم- من الإسلام الكِبرُ والحِرصُ على الشَّرف ومُهاداةِ النَّصارى، فخشيَ أن يَسلُبَه ذلك منهُ بمتابعةِ رسُول الله صلى الله عليه وسلم، فسلبَه اللهُ ما هو أعظمُ من ذلك، وهو دينُه ودُنياه.

ومن حديثِ ابن أُميّةَ بن أبي الصَّلت[2]، عنِ ابن إسحاقَ قال: قال أبو سُفيانَ بنُ حرب: خرجتُ أنا وأُميّةُ بنُ أبي الصَّلتِ وآخَرُ سقط اسمُه من كتابي تجّارًا إلى الشام، قال أبو سُفيان: فكلَّما نَزل منزلاً أخرجَ أُميّةُ سِفْراً يقرأُهُ علينا، فكنا كذلك حتى نزلنا قريةً من قُرى النَّصارى، قال: فرأَوْهُ وعَرفوه وأهدَوْا لهُ، فذهبَ معَهم إلى بيعتِهم، ثم رَجَع في وسَط النهار، فطرح ثوبيْهِ وأخرج ثوبيْنِ أسوديْنِ فلبِسَهما

---

(1) المروي من كلام علي بن أبي طالب، لا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم: "إن عمارًا مع الحق والحق معه يدور عمار مع الحق أينما دار، وقاتل عمار في النار"، أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣/ ٢٦٢، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٣/ ٤٧٦.

(2) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء، لأبي الربيع الكلاعي ١/ ١٥٥.

ثم قال: يا أبا سُفيان، هل لكَ في عالِم من علماءِ النَّصارى إليه تناهَى علمُ الكتاب تسألُه عن ما بدا لك؟ قال: قلتُ: لا أَرَبَ لي فيه، والله لئنْ حدَّثني ما أُحِبُّ لا أثقُ به، ولئن حدَّثني ما أكرَهُ لأَوْجَلنَّ منه، قال: فذهب أُميّةُ فمَكث عنّا فلم يأتِنا إلا بعد هدأةٍ من الليل، فطَرَح ثوبيْهِ ثم انجدَل على فراشِه، فواللهِ ما نام ولا قام حتى أصبح، قال: فأصبح كئيباً حزيناً ساقطاً صَبوحُه على غَبوقِه[1] ما يُكلِّمُنا، ثم قال: ألا ترحلان؟ قلنا: وهل بكَ من رحيل؟ قال: نعم فارحَلا، فرحلنا، فسِرنا بذلك ليلتينِ من همِّي وبثِّي، ثم قال ليلةً: ألّا نتحدَّثُ يا أبا سُفيان؟ قلت: وهل بكَ من حديث؟ فوالله ما رأيتُ مثلَ الذي رجعتَ به من عندِ صاحبك، قال: أمَا إنّ ذلك [كان][2] شيئاً لستُ فيه، إنّما ذلك شيءٌ وَجِلتُ به من مُنقلَبي، قلت: وهل لكَ مُنقلَب؟ قال: إي والله لأمُوتَنَّ ولأُحاسَبنَّ، قلت: فهل أنت قائلٌ أمانِيَّ؟ قال: وعلى ماذا قلت: على أنك لا تُبعَثُ ولا تُحاسَب، فضحك، فقال: بلى واللهِ يا أبا سُفيان لتُبعَثَنَّ ولتُحاسبَنَّ وليَدخُلَنَّ فريقٌ في الجنة وفريقٌ في النار، في أيّتِهما أنتَ أخبَرك صاحبُك؟ قال: لا علمَ لصاحبي بذلك فيَّ ولا في نفسِه، فكنا في

(١) غبقت الرجل أغبقه بالضم، والغبوق: هو شرب العشيّ، وإلا فهو صبوح؛ لأنه شرب في وقت الصباح، ثم استعملا في الأكل، فسمي الغداء: صبوحًا، والعشاء: غبوقًا، وأصلها في الشرب. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، لشمس الدين الكرماني ١٠/ ١٠٥، والنهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (غبق).

(٢) إضافة لازمة لنصب الناسخ ما بعده.

ذلك ليلتَنا نتعجَّبُ منه، حتى قدِمْنا غُوطةَ دمشقَ، وإياها كنا نريدُ، فبِعنا متاعَنا وأقمْنا بذلك شهريْنِ، ثم ارتحلنا حتى نزلنا بتلك القريةِ من قُرى النَّصارى، فلمّا رأوْهُ جاؤوه فأهدَوْا له وذهبَ معهم إلى بيعتِهم، حتى جاءنا معَ نصفِ النهار فلبس ثوبيْه الأسوديْنِ فذهبَ ولم يدعُنا إليه ما دعانا أولَ مرّة، حتى جاءنا بعدَ هدأةٍ من الليل فطرح ثوبيْه ثم رَمَى بنفسِه على فراشِه، فوالله ما نام ولا قام فأصبح مبثوثاً حزيناً لا يكلِّمُنا ولا نُكلِّمُه، ثم قال لي: ألا ترحلانِ؟ قلت: بلى، إن شئتَ، قال: فارحَلا، فرحلنا، فسِرنا كذلك من بثِّه وحُزنِه لياليَ، ثم قال لي ليلةً: يا أبا سُفيان، هل لك في المسير وتُخلفُ هذا الغُلامَ يستأنسُ بأصحابنا ويستأنسونَ به؟ قلت: ما شئتَ، فقال: سِرْ، فسِرنا حتى برزْنا، قال: هيهِ يا صخرُ، قلت: ما لك؟ قال: هيه، عن عُتبةَ بن رَبيعةَ، أيجتنبُ المحارمَ والمظالم؟ قلت: إي والله، قال: ويصلُ الرَّحِم ويأمرُ بصلتِها؟ قلتُ: نعم، قال: فكريمُ الطرفيْنِ متوسِّطٌ في العشيرة؟ قلتُ: نعم، قال: هل تعلمُ قُرَشيًّا أشرفَ منه؟ قلت: لا والله، قال: ومُحُوجٌ هو؟ قلتُ: لا، بل ذو مال، قال: فكم أتى لهُ؟ قلتُ: هو ابنُ سبعينَ يصيرُ إليها، قال: السّنُّ والمالُ أزْرَيا به؟ قلت: لا والله، بل هما زاداه خيراً، قال: هو ذلك، هل لك في المبيت؟ قلتُ: هل لي فيه؟ قال: فاضطجْعنا حتى مرَّ الثِّقلُ، فسِرنا حتى نزلنا، فكنا بالمنزل وبِتنا ثم رحَلنا، فلمّا كان الليلُ قال: يا أبا سُفيان، قلتُ: لبَّيك، قال: هل لكَ في البارحة؟ قلت: بلى لي، قال: فسِرنا على ناقتينِ ناجِيتيْنِ، حتى إذا برزْنا قال: يا صخر، إيه عن عُتبة، قلت: إيه، عنه، قال: أيجتنبُ

المحارمَ والمظالمَ ويأمُر بصِلة الرَّحِم ويصلُها؟ قلت: نعم، قال: ومَحُوجٌ؟ قلت: مَحُوج، قال: تعلمُ قُرَشيًّا أسودَ منه؟ قلتُ: لا والله، وسأل عن سنِّه، كما سأل أولاً، فقلتُ لهُ كما قلتُ أولاً، فقال: إنّ السنَّ والشَّرفَ أَزْرَيا به؟ فقلتُ: لا والله، ثم قلتُ له: إنك قائلٌ شيئاً فقُلْه، قال: أتكْتُمُ عليّ حديثي حتى يأتيَ ما هو آتٍ؟ قلت: والله لا أذكُرُه، قال: الذي رأيتَ أصابني، فإني جئتُ هذا العالِمَ فسألتُه عن أشياءَ، ثم قلتُ له: أخبرني عن هذا النبيِّ الذي يُنتظَر؟ قال: هو رجُلٌ منَ العرب، قلت: قد علمت، فمن أيِّ العرب؟ قال: هو من أهل بيتٍ تحُجُّه العرب، قلتُ: فينا بيتٌ تحُجُّه العرب؟ قال: هم إخوانُكم من جيرانكم من قُريش، فأصابني- والله- شيءٌ ما أصابني مثلُه قطّ، وخَرج من يدي فوزُ الدنيا والآخرة، وكنتُ أرجو أن أكونَ أنا هو، فإذا كان ما كان فصِفْهُ لي، قال: هو شابٌّ حينَ دخل في الكهولة بدأ أمرُه، إنه يجتنبُ المحارمَ والمظالمَ ويصلُ الرَّحِم ويأمُر بصلتِها، وهو مَحُوج، ليس يُنازعُ شرفاً، كريمُ الطَّرفيْنِ متوسِّطٌ في العشيرة، وأكثرُ جنودِهِ من الملائكة، قال: قلتُ: ما آيةُ ذلك؟ قال: قد رَجَف في الشام منذُ هلَك عيسى عليه السلامُ ثمانونَ رجفةً كلُّها فيها مُصيبةٌ عامة، وبقيتْ رجفةٌ واحدةٌ يخرُجُ على إثرها، قال أبو سُفيان: قلت: وإنّ هذا لَهو الباطلُ، لئنْ بَعَث اللهُ رسُولاً لا يأخُذه إلّا شريفاً مُسِنًّا، قال: والذي يُحلَفُ به، إنّ هذا لهكذا يا أبا سُفيان، قال: هل لكَ في المبيت؟ فبتنا حتى مرَّ الثّقلُ، فسِرْنا حتى إذا كان بينَنا وبينَ مكةَ ليلتانِ أدركَنا الخبرُ من خلفِنا أنّ الشامَ بعدَكم قد أصابتْه رجفةٌ دمَّرت أهلَها وأصابتْهم في مصيبةٍ عظيمةٍ،

قال: كيف ترى يا أبا سُفيان؟ قلت: ما أرى صاحبَك إلّا صادقاً. وقدِمْنا مكةَ، فقضَّيتُ ما كان معي، ثم انطلقتُ حتى جئتُ أرضَ الحبشةِ تاجراً فمكثتُ بها خمسةَ أشهُر، ثم أقبلتُ حتى دخلتُ مكّة، فبينَما أنا في منزلي إذْ جاءني الناسُ يُسلِّمونَ عليّ، حتى جاءني في آخرِهم محمّدُ بنُ عبد الله ومعي هندٌ جالسةً تُلاعبُ صبيةً لها، فسلَّم عليّ ورحَّب بي وسألني عن سَفَري ومقدَمي، ثم انطلقَ، فقلتُ: إنّ هذا الفتى لَعجَبٌ، ما جاءني أحدٌ من قُريشٍ معي له بضاعةٌ إلّا سألني عنها وما بَلَغتْ، ووالله إنّ له معي لَبضاعةً ما هو بأغناهُم عنها، ثم ما سألني، فقالت: وما علمتَ بشأنه؟ قلتُ وقد فَزِعتُ: وما شأنُه؟ قالت: والله إنه يزعُم أنه رسُولُ الله، قال: فوَقَذَني[١] ذلك وذكَّرني قولَ النَّصْرانيّ، فوَجَمْتُ حتى قالت لي: ما لكَ؟ فانتبهْتُ وقلتُ: إنّ هذا والله هو الباطلُ، لَهو أعقلُ من أن يقولَ ذلك: قالت: بلى والله، إنه لَيقولُه ويُؤتي عليه، وإنّ له لَصحابةً معَهُ على أمرِه، قلت: هو والله باطلٌ، فخرجتُ، فبينما أنا أطوفُ إذْ لقيتُه، فقلتُ: إنّ بضاعتَك قد بَلَغتْ وكان فيها خير، فأرسِلْ إليها فخُذْها، ولستُ آخذاً فيها ما آخُذ من قومِك، قال: فإني لا آخُذُها حتى تأخُذَ منّي ما تأخُذُ من قومي، قلتُ: ما أنا بفاعل، قال: فوالله إذنْ لا آخُذَها، قلت: فأرسَلَ إليها فأخذتُ منها ما كنتُ آخذاً وبعثتُ إليه ببضاعته.

---

(١) أي: أحزنني وهمني وأضعفني، يقال: وقذتني كلمة سمعتها، ووقذه الغم والمرض، ووقيذ الجانح: محزون القلب، كأن الحزن قد كسره وضعفه. تاج العرس (وقذ).

ولم أنشَبْ أنْ خرجتُ تاجراً إلى اليمن، فقدِمتُ الطائفَ، فنزلنا على أُميّةَ فتغدَّيتُ معَه، ثم قلتُ: يا أبا عثمان، هل تذكرُ حديثَ النَّصْرانيّ؟ قال: أذكُرُه، فقلت: فقد كان، قال: ومن؟ قلتُ: محمدُ بنُ عبد الله بن عبدِ المطَّلب، ثم قصَصْتُ عليه خبرَ هند، فلمّا سمع ذلك تصبَّب عرقاً ثم قال: يا أبا سُفيان، لعله وإنّ صفتَه لَهِيَه[١]، ولئن ظهرَ وأنا حيٌّ لأُبلِيَنَّ اللهَ في نُصرتِه عُذراً.

ومضيتُ إلى اليمن، فلم أنشَبْ أن جاءني هناك استهلالُهُ، وأقبلتُ حتى قدِمتُ الطائفَ، فنزلنا على أُميّةَ بن أبي الصَّلتِ، فقلتُ: قد كان من أمرِ هذا الرجُل ما قد بَلَغك وسمعتَ، قال: قد كان، قلتُ: فأين أنت؟ قال: ما كنتُ لأُومنَ برسولٍ ليس من ثَقيف، قال أبو سُفيانَ: فأقبلتُ إلى مكّةَ، ووالله ما أنت منهُ ببعيدٍ، حتى جئتُ فوجدتُه هو وأصحابَهُ يُضرَبون ويُقهَرون، فجعلتُ أقولُ: فأين جُندُه منَ الملائكة؟ وأمّا أُميّةُ بنُ أبي الصَّلت فرجلٌ من ثَقيف لم يرضَ دينَ أهل الجاهليّة، ولا وفَّقه اللهُ [إلى][٢] السَّمحة الحنيفيّة، فكان كما رُوي عن عُروةَ بن الزُّبير، قال: سُئل رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عن أُميّةَ بن أبي الصَّلت، قال: "فأُوتيَ علماً فضيَّعَهُ".

---

(١) المراد: هي، ضمير الغائب المؤنث، أدخل عليه اللام المزحلقة، وختمه بهاء السكت، على نحو قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ} [القارعة: ١٠].

(٢) حرف الجر ضرورة لازمة.

وكما رُوي عن الحَسن وقَتادةَ، أنهما قالا- في قولِه تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا} [الأعراف: ١٧٥] الآيةَ-: إنهُ أُميّةُ بنُ أبي الصَّلت.

ورُوي عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه، أنّ أُميّةَ بنَ أبي الصَّلت كان سببَ موتِه الغمُّ من ظهور رسُول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فلمّا احتُضر جاءتْه أختُه، وكانتْ جَلْدةً حازمةً، فبينما هي عندَه إذ أُغميَ عليه، ثم أفاقَ فالتفتَ إلى أُختِه، فقال لها: إنه جَلس عندَ رأسي ملكانِ آنفًا، فقال أحدُهما لصاحبِه: أعلِمَ؟ قال: عَلِم، قال: أتزكّى؟ قال: ما تَزكّى، ثم أُغميَ عليه فمات، وكان ذلك سببَ إسلامِها، فأقبلتْ إلى رسُول الله وأخبرتْه بما سمعتْ.

وكان سببَ هلاكِه الكِبرُ والإعجابُ بالنفس والحرصُ على المال والشَّرف؛ لأنّ أركانَ الكُفر أربعة: الكِبرُ والإعجابُ بالنفس والتطيُّرُ والوقوفُ مع العادات، وأسبابُه: الحرصُ والجهلُ بأمر الله والاستعجالُ واتّباعُ الهوى والانهماكُ في الشّهَوات، رُوي عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يقولُ اللهُ تعالى: الكبرياءُ ردائي والعظَمةُ إزاري، فمن نازَعَني فيهما أدخلتُه ناري"(١)، ولذلك قال اللهُ تعالى بعدَ المثَل: {ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأعراف:

---

(١) رواه مسلم ١٣٦- (٢٦٢٠) عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته". وبلفظ المصنف: أبو داود في السنن (٤٠٩٠)، وغيره، من حديث أبي هريرة.

١٧٦] ولم يقلْ: أولئك القومُ الذين كذَّبوا، ليشمُلَ من تشبَّه بهم من علماءِ المسلمينَ في الانهماكِ في الشَّهَوات والحرص واتّباع الهوى والتكسُّبِ بالعلم وطلبِه للشرف.

قال اللهُ تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}، قال ابنُ عبّاس: يريد الذين يتجبَّرون على عبادِه ويحاربونَ أولياءَه، سأصرفُهم عن قَبول آياتي والتصديق بها حتى لا يؤمنوا بي، فعوقبوا بحرمانِ الهداية لعنادِهمُ الحقَّ. وقال سُفيانُ بنُ عُيَيْنة: سأمنعُهم فهمَ القرآن. وقيل: معناهُ: سأصرفُهم عن التفكُّر في خَلق السمواتِ والأرض وما فيهما من الآيات والعبر.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ لمذهبِ أهل السُّنّة على أنّ اللهَ تعالى يهدي من يشاءُ ويُضلُّ من يشاء ويصرفُ عن آياتِه وقَبُول الحقِّ من يشاء ويُوفِّقُ في التفكُّر لآياتِه وقبول الحقِّ من يشاء؛ لأنه قادرٌ على من يشاءُ {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣].

ومعنى {الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ} أنهم يَروْنَ أنهم أفضلُ الخَلق، وأنّ لهم من الحقِّ ما ليس لغيرِهم، والتكبُّرُ على هذه الصِّفة لا يكونُ إلّا لله عَّز وجلّ؛ لأنه هو الذي لهُ الفضلُ والقُدرةُ الذي ليس(١) لأحدٍ سواه، فالتكبُّرُ في حقِّ الله عزَّ وجلّ صفةُ

(١) كذا عبارته، والجادة التأنيث فيهما كما لا يخفى.

مدح، وفي حقِّ المخلوقِ صفةُ ذمّ؛ لأنه تكبَّر بما ليس لهُ ولا يستحقُّه. وقيل: التكبُّرُ: إظهارُ كِبْر النفس على غيرِها، فهو صفةُ ذمٍّ في حقِّ جميع العباد، وقولهُ: {يَتَكَبَّرُونَ}: من الكِبْر لا من التكبُّر، أي: يتفعَّلونَ التكبُّرَ ويروْنَ أنهم أفضلُ من غيرهم، فلذلك {يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} بل بالباطل.

{وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ} يعني: طريقَ الحقِّ والهُدى والسَّدادِ {لَا يَتَّخِذُوهُ} يعني: لا يختاروهُ لأنفُسِهم {سَبِيلًا} طريقاً يسلكونُها إلى الهداية، {وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ} يعني: طريقَ الضَّلال {يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأعراف: ١٤٦]: حالاً، ولو صَدقوا بها مقالاً، لأنّ أحوالَهم تُكذِّبُهم، ولسانُ الحال أصدقُ من لسانِ المقال، ولو أنّهم صَدَقوا حقيقةً لم ينهمكوا في الغَيِّ والضّلالةِ وارتكاب المعاصي والمُكابرة، على خلافِ نصِّ الكتابِ والسُّنة، فتشبَّهوا بالكافرينَ في أقوالِهم ولو خالفوهم في اعتقاداتهم، فيُخافُ عليهم سوءُ الخاتمة، كما رُوي أنّ ثلاثةً لا يُمتَّعونَ بالموتِ على الإيمان: مُدمِنُ الظُّلم لأهل الإيمان ومَن لا يشكرُ اللهَ على الإيمان ومَن لا يخافُ من سَلبِ الإيمان، وثلاثةً يُمتَّعونَ بالموتِ على الإيمان: مُدمنُ النَّفع لأهل الإيمان ومُكثرُ الشُّكر على الإيمان والخائفُ من سَلبِ الإيمان.

واعلمْ أنّ العلماءَ من حيثُ هم علماءُ على وِراثتيْنِ، فعلماءُ الحقِّ والسَّداد وَرَثةُ الأنبياء، وعلماءُ السُّوءِ والفساد وَرَثةُ إبليس وبلعام[1].

والعقلاءُ من حيثُ هم عقلاءُ على أربعةِ أصناف: ملائكةٌ وشياطينُ وإنسٌ وجانٌّ، فالملائكةُ هم: أولو الخير المحض أصلاً وجِبلّةً لا يعرفونَ غيره، والشياطينُ هم أهلُ الشرِّ ولا يَعرفونَ الخير، وأمّا الإنسُ والجنُّ فطولبوا بالعمل ووُعدوا بالجزاء فمَن أطاع اللهَ لَحِق بالملائكة ومَن عصَى اللهَ لَحِق بالشياطين.

وكان إبليسُ قبلَ اللَّعنةِ والطَّرد من أجلِّ الملائكة، وكان موكَّلاً باللوح المحفوظ لا يفتُرُ عن عبادةِ الله طَرْفةَ عين، فجرى القَدَرُ المحتومُ بما كان وما يكون، {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} [الأحزاب: ٣٨].

ولقد أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال لهُ: يا محمّد، قد قنِعتُ من أُمّتِك بثلاث، قال: وما ذلك يا لعين؟ قال: البخلُ ونسيانُ الذُّنوب والتهاونُ بالصَّلاة، ثم قال: يا محمد، إنّ لأهل النار خصالاً ولأهل الجنة خصالاً يُعرفُ بها هؤلاءِ وهؤلاء، فقال لهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: وما خصالُ أهل النار يا لعين؟ قال: الشِّركُ بالله والشكُّ في دين الله وتركُ الصّلاة، والغضبُ في غير الحقّ والحدّةُ

---

(١) هو: بلعام بن باعوراء. وقد نص ابن بشكوال أنه من الأسماء المبهمة وأن خبره لا يتأكد، قال في كتابه "غوامض الأسماء المبهمة" ٦٦٣/٢: "والله أعلم بالحقيقة في ذلك كله". وينظر خبره فيه وفي: تفسير مجاهد، ص ٣٤٦، وسواهما.

والبطشُ، والحماقة والعصيانُ والكذِب، والغيبةُ والنَّميمة، وشهادةُ الزُّور، وقطيعةُ الرَّحِم، وارتكابُ الفواحش، وقتلُ النفس، وشربُ الخمر، والزِّنى، وعقوقُ الوالديْن، فهذه من خصالِ أهل النار، والكِبرُ أشدُّ من الجميع، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: وما خصالُ أهل الجنةِ يا لعين؟ قال: العلمُ والحِلم، والسخاءُ، والوقارُ والسَّكينة، والزُّهدُ والعبادةُ والدِّيانة، وحُسنُ الخُلُق وبِرُّ الوالديْنِ والتقوى، والحياء، والمروءة، وطاعةُ الله تعالى، فهذه من خِصال أهل الجنّة، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: لقد أحصَيْتَ وعلِمتَ، فما لك لا تتوبُ فتدخُلَ الجنّة؟ قال: يا محمّد، اللهُ تعالى نَهى آدمَ عن أكل الشَّجرةِ وأراد منهُ ذلك، فزلَّت قدَمُهُ فأكَل من الشَّجرة، وأمَرني بسُجودٍ ولم يُرِدْه منّي، ولو أراده منّي لَسَجدتُ على رُغم أنفي، ألم تعلمْ يا محمّدُ أنّ اللهَ تعالى خَلَق الجنّةَ وخَلَق لها أهلاً وهمُ الأنبياءُ والأولياءُ والصّالحونَ والأتقياء، وخَلَق النارَ وخَلقَ لها أهلاً وهمُ الكافرونَ والشياطينُ والفَسَقةُ والعاصون، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} [هود: ١١٨]، {وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [النحل: ٩٣]، لا رادَّ لأمرِه ولا مُعقِّبَ لحُكمِه. يا محمّد، إنّي عبدتُ اللهَ في كلِّ سماءٍ ألفَ سنة وفي الأرَضِين مثلَ ذلك، وليس في الوجود موضعُ قَدَم إلّا وقد سجدتُ لله فيه، ثم إنّ اللهَ تعالى طَرَدني وأبعَدني منَ الرَّحمة وجَعلني شيطاناً رجيماً بسببِ ذنبٍ واحدٍ وهُو الكِبرُ كما سَبق في علمِه معَ سَعة رحمتِه، فسكتَ عنهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ولم يزِدْه شيئاً.

ورُوي عن محمّد بن واسِع[1] رحمه اللهُ أنه قال: تَمَثَّل لي إبليسُ في طريق المسجد، فقال: يا ابنَ واسع، كلَّما أردتُكَ وجَدتُ بيني وبينَك حجاباً، فما ذاك؟ فقال لهُ: إني كلَّما أصبحتُ وأمسيتُ قلتُ: اللّٰهمَّ إنك سلطتَ علينا الشيطانَ وجعلتَه عدوًّا من أعدائنا بصيراً بعيوبِنا مطَّلعاً عن عوَراتنا، يرانا هُو وقبيلُه من حيثُ لا نراهم، اللهُمَّ آيِسْهُ منا كما آيستَهُ من رحمتِك، وباعدْ بينَنا وبينَه كما باعدتَ بينَه وبيَن جنّتك وقنِّطْهُ منّا كما قنَّطتَه من عفوِك، إنك على كلِّ شيءٍ قدير.

ولقد لقيَهُ موسى عليه السلامُ في طريق مُناجاتِه فرَفَع يدَه ليضربَه بالعصا، فقال لهُ: يا موسى، إنّي لا أخشى العصا وإنما ذِكراً خفيًّا من قلبٍ صَفِيّ، فقال لهُ موسى: ما علامةُ الصفاء؟ قال: تركُ الحقدِ والحسَد، وحفظُ الذِّكَر والوداد، وانتظارُ القدَرِ بالمرصاد، فقال لهُ موسى عليه السلام: يا إبليس، لمَ لمْ تسجُدْ لآدم؟ فقال: يا موسى، من ادَّعى محبّةَ الله كيف يسجُد لسواه؟ أمَا إنّي لو فعلتُ لكنتُ مثلَك تطلبُ النظرَ إلى الله ثم تنظُرُ إلى الجبل، والله لو تركتَ النظرَ إلى المخلوق

---

(١) محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس بن عائذ بن خارجة بن زياد بن شمس الأزدي، أبو بكر العابد (ت١٢٣ هـ): فقيه ورع، من الزهاد، من أهل البصرة، عرض عليه قضاؤها فأبى. وهو من ثقات أهل الحديث. قال الأصمعي: لما صافّ قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة ينضنض بإصبعه نحو السماء، قال: تلك الإصبع أحب إليَّ من مئة ألف سيف! تهذيب الكمال في أسماء الرجال ٥٧٦/٢٦، و تاريخ الإسلام ٥٢٦/٣، والأعلام، للزركلي ١٣٣/٧.

لشاهدتَ الخالق، يا موسى، لم يكنْ في الملائكة أعلمُ بتوحيد الباري منّي، فلذلك غَصَّت في بحر التفريد، وتلبَّستْ على الخَلق بقيامي في فجر التوحيد، ومَن عَبَد اللهَ على التجريد لم يطلُبِ المزيد. يا موسى، إنّي مُحبٌّ، والمُحبُّ ذليل، ولا لهُ إلى غير محبوبِه من سبيل. يا موسى، أنا الذي قد عرفتُهُ في الأزل، وغيرُ متوقِّف على العِلل، إن خوَّفتَني من النار فإنّما خَلَقني من النار، والنارُ لا تخافُ النار، وله التقديرُ والاختيار. يا موسى، نوديتُ ألفَ مرّة بالسُّجود، وأنا أقول: لا لغيرك أعبُد، ونوديتَ أنت مرةً واحدة: انظُرْ إلى الجبل، فنظرتَ، فأين صحةُ دعوايَ من دعواك ومعرفتي بمولايَ ومعرفتِك بمولاك؟ فقال لهُ موسى: لا جَرَمَ أني مأجورٌ وأنت معاقبٌ محروم، قال: يا موسى، العقوبةُ أهوَنُ عندي من الكذب، فقال له موسى: أليس اللهُ قد غيَّر صورتَك وطَرَدك عن جنّتِه وآيَسَك من رحمتِه؟ فقال: يا موسى، إنما غيَّرتُ صورتي للتلبيس، اللهُ وأحوالُ القلب لا تزولُ ولا تَحُول، ومعرفتي بالله لم تتغيَّرْ، فقال موسى: يا إبليسُ، أتعبُدُ اللهَ الآنَ؟ قال: يا موسى، خدمتي الآنَ أصفى وعبادتي أخلى، كنتُ أعبُدُه لحظٍّ من الثواب، والآنَ أخدُمُه لهُ لا لي؛ لأني قد ألقيْتُ على الطمَع صخرةَ المنْع، فزالت عنّي رؤيةَ الضُّرِّ والنفع، فشتّانَ ما بينَ المقامَيْن. يا موسى، إنّي حُرِمتُ لصِدق سَجيَّتي، وقبُحتُ لئلّا تكون من غيِره مِدحتي، ومُنعتُ من الأغيار لغَيْرتي، وغُيِّبتُ عن الأبصار لهجرتي، وهُجِّرتُ لمُكاشفتِه، وكوشفتُ لوَصْلتي، ووُصِلتُ لقَطْعتي، وقُطِعتُ لمنع منيَّتي. يا موسى، كيف تسجدُ النارُ للطِّين، وهما ضِدّان في عالم التكوين؟ يا موسى، إنّي

في الخدمةِ أقدَم، وفي الفضل أعظم، وفي العالم أعلم، وفي العُمرِ أتمّ، اختبرني ربّي بالأمرِ بالسُّجود، ولم يُرِدْه منّي، فثبتُّ قدَمي طوعاً، واختبَر آدمَ بالنَّهي عن الشّجرة وأرادهُ منه فزلَّت قدماهُ كَرهاً، {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ} [هود: ١٢٣]. يا موسى، أتدري لِمَ سُمِّيتُ في الملائكة عَزازيل؟ لأني عزيلُ الله، والعُزلةُ لا تكونُ إلّا لأمر مخصوص لا يدريه إلّا خصُوصُ الخصوص. يا موسى، كنتُ في السّماءِ داعياً إلى الله بالمحاسن؛ لأنها من صيغةِ تلك الأماكن، وأنا اليومَ أدعو إلى الله بالقبائح؛ لأنها من صيغة ظُلمة الأرض، ولولاها ما استنار منَ الأنوار لائح. يا موسى، لولا المعاصي ما عرفتُ السيِّئات، ولولا السيّئات ما عرفتُ الحسَنات، ألم تعلمْ أنّ الأشياءَ لا تُعرَفُ إلّا بأضدادِها؟ وأنا لم أزلْ مُقدَّمًا في الرُّتبة، وهي من علاماتِ الغُربة، فكما أنه لم يكنْ في السماءِ مُطيعٌ إلّا وأنا إمامُه، فكذلك لم يكنْ في الأرض عاصٍ إلّا وأنا قُدامُه، ففصحاءُ القول عن بابِه خَرِسوا، وعُرفاءُ العقل في معارفِهم عَجَزوا، وغابوا عمّا دَرَسْوا. يا موسى، اسمعْ ما أقولُ لك، فإنّ لله تعالى حِكمةً وقُدرةً ومعلوماتٍ أزليّة، ولهُ ما وراءَ ذلك كلِّه، والله، لو علمتُ أنّ السُّجودَ يُنجيني لسَجَدت، لكنْ رأيتُ وراءَ ذلك نقطةَ الأمر دائرةً، وحيطةَ الإحاطة من وراءِ ذلك مُحيطة، والعلمُ وراءَ دائرة المعلوم، ودائرةُ العزِّ من وراء الجميع مستديرة، إن دخلتُ من باب المشيئة ابتُليتُ بالحِكمة، وإن وقفتُ معَ الحِكمة ابتُليتُ بالقُدرة، وإن قنَعتُ بالقُدرة أحاطتْ بيَ المعلوماتُ الأزَليّات، ووراءَ الجميع دائرةُ بحر النظر؛ لأنّ اللهَ واحدٌ أحد،

والتوحيدُ صفةُ الربِّ لا صفةُ العبد، فأين المفقودُ منَ الموجود، والعابدُ من المعبود؟

ولقد تعرَّض مرةً أخرى لسَهل بن عبد الله التُّستَريِّ[1] وهو يضحك، فقال لهُ سهلٌ: ممَّن ضحكُكَ واللهُ تعالى قد آيَسَك من رحمتِه؟ فقال لهُ: يا سهل، أنا شيء أم لستُ بشيء؟ قال لهُ: أنت شيء، فقال: إنّ اللهَ تعالى يقول: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}، قال لهُ سهلٌ: إنّ اللهَ تعالى يقول: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٥٦]، فأين أنت من التقوى؟ قال لهُ: يا سهل، التقوى من صفة الله أم من صفة العبد؟ قال: من صفة العبد، قال: والرحمةُ من صِفة الله تعالى، إنما قال: {فَسَأَكْتُبُهَا}، أي: فسأفرضُها على نفسي فرضاً لازماً للمتقين، وأمّا غيرُ المتَّقينَ فلم أكتُبْها لهم، وإنّما وَسِعتْهم من حيثُ لزومُ الصّفة للموصوف.

فصلٌ في أسماءِ الله تعالى

قال اللهُ تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠].

---

(١) سهل بن عبد الله بن يونس التستري، الإمام العارف، أبو محمد (ت ٢٩٠هـ): أحد أئمة الصوفية وعلمائهم المتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال. تاريخ الإسلام ٧٥٦/٦، والأعلام، للزركلي ١٤٣/٣. والتستري، قال السمعاني: "بالتاء المضمومة المنقوطة من فوق بنقطتين، وسكون السين المهملة، وفتح التاء المعجمة أيضًا بنقطتين من فوق، والراء المهملة، هذه النسبة إلى تستر: بلدة من كور الأهواز من بلاد خوزستان". الأنساب، للسمعاني (باب التاء والسين).

وَرَد في الخبر، أنّ اللهَ تعالى أنزل على بني آدمَ ألفاً من أسمائه: ثلاثُ مئةٍ منها في التوراة، وثلاثُ مئةٍ منها في الإنجيل، وثلاثُ مئةٍ في الزَّبور، وتسعٌ وتسعونَ في القرآن، وواحدٌ في صُحف إبراهيم، فاندرجتِ التسعُ مئةٍ في التسع والتسعينَ، واندرجتِ التسعُ والتسعونَ في الواحدِ اندارجَ النخلة في النَّواة.

فأولُ أسماء الله كلِّها في الكتُب المنزَّلة: **الله**، وفي حديثِ رسُول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ لله تسعةً وتسعينَ اسماً مئةً إلّا واحداً، من أحصاها دَخَل الجنّة"[1].

وهي: **اللهُ الرحمنُ الرحيمُ الملِكُ القُدُّوسُ السلامُ المؤمنُ المُهيمنُ العزيزُ الجبّارُ المُتكبِّرُ الخالقُ البارئُ المصوِّرُ الغفّارُ القهّارُ الوهّابُ الرزّاقُ الفتّاحُ العليمُ القابضُ الباسطُ الخافضُ الرافعُ المُعزُّ المُذِلُّ السّميعُ البسيطُ الحَكَمُ العَدْلُ اللطيفُ الخبيرُ الحليمُ العليمُ الغَفورُ الشَّكورُ العليُّ الكبيرُ الحفيظُ المُغيثُ الحَسِيبُ الجليلُ الكريمُ الرقيبُ المُجيبُ الواسعُ الحكيمُ الوَدودُ المَجيدُ الباعثُ الشهيدُ الحقُّ الوكيلُ القويُّ المتينُ الوَلِيُّ الحميدُ المَجيدُ المُحصي المُبدي المُعيدُ المُحيي المُميتُ الحيُّ القَيُّومُ الواحدُ الأحدُ الماجدُ الواجدُ الصَّمدُ القادرُ المُقتدِرُ المُقدِّمُ المؤخِّرُ الأولُ الآخرُ الظاهرُ الباطنُ الوالي المُتعالي البَرُّ التوّابُ المُنتقمُ العفُوُّ الرَّؤوفُ مالكُ المُلك ذو**

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة: البخاري (٢٧٣٦) و(٧٣٩٢)، ومسلم ٦- (٢٦٧٧).

الجلالِ والإكرام المُقسِطُ الجامعُ الوارثُ الغنيُّ المُغْني المُعطي الضارُّ النافعُ النُّورُ الهادي البديعُ الباقي الرَّشيدُ الصَّبورُ.

قال أهلُ العلم: إنما خصَّص رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بالتسعة والتسعينَ اسماً دونَ غيرِها لاشتمالها على جميع ما ذكر ونُخبتُها منها، وكونُها تُغني عن غيرها ولا يُغني عنها غيرُها، كما يقولُ القائل: إنّ للملِكِ تسعةً وتسعين فارساً لا يقاومُها أحدٌ إلّا غلبتْه، وللملِك غيرُهم كثير، وقد قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ما أصاب أحدَكم همٌّ ولا غمٌّ ولا حُزنٌ فقال: اللهُمّ إنّي عبدُك وابنُ عبدِك وابنُ أمَتِك، ناصيتي بيدِك، عدْلٌ فيّ حُكمُك، ماضٍ فيّ قضاؤك، أسالُك اللهُمَّ بكلِّ اسم هُو لكَ سَمَّيتَ به نفسَك أو أنزلتَه في كتابِك أو علَّمتَه أحداً من خلقِك أوِ استأثرتَ به في علم الغيبِ عندَك، أن تُصلِّيَ على سيّدِنا محمّد وعلى آلِه عدَدَ ما أحاط به علمُك، وأن تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي وشفاءَ صدري وجلاءَ حُزني وذهابَ همِّي وغمِّي، إنك على كلِّ شيءٍ قدير، إلّا أذهَبَ اللهُ همَّه وغمَّه وحُزنَه"(١).

ففي قولِه صلى الله عليه وسلم: "هو لكَ سَمَّيتَ به نفسَك وأنزلتَه في كتابِك أو علَّمتَه أحداً من خلقِك أوِ استأثرتَ به في علم الغيبِ عندَك" دليلٌ على أنّ أسماءَ اللهِ كثيرةٌ لا تُحصى، كالمُريد والمتكلِّم والموجودِ والمعبود والمُنعم والكافي

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مسنده (٣٢٩)، وأحمد (٣٧١٢)، وفي هذا الأخير مزيد تخريجات.

والبدرِ والرَّفيع وذي الطَّوْل وذي الفضْل وذي المعارج، وكثيرٍ مما وَرَد في القرآنِ والحديث، كلُّها ثابتةٌ لا محدودةٍ ولا مَحْصُوّة ولا مُتوقِّفة، بل محصُولُ هذا القولِ أنّ الأسماءَ الحُسنى والصِّفاتِ العُلى كلُّها لله، وكلُّ اسم دلَّ على مُسمّاهُ فهُو اسمٌ لهُ، وإن لم يدُلَّ على مسمّاهُ فليس باسم له، قال الإمامُ أبو حامد(١): اعلمْ أنّ جميعَ أسماءِ الله تعالى وصفاتِه منها ما يدُلُّ على ذاته المنزَّهة كاسمِه "الله" جلَّ وعلا وما يدُلُّ على اسم الذات معَ سَلبِ الضِّدّ، كالقُدُّوس والسّلام والغنيِّ، ومنها ما يرجعُ إلى

---

(١) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، من لم تر العيون مثله لسانًا وبيانًا ونطقًا وخاطرًا وذكرًا وطبعًا، زين الدّين (ت ٥٠٥هـ): فيلسوف، متصوف، فقيه شافعي لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، صاحب تصانيف له نحو مئتي مصنف. مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس بخراسان)، ورحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، ثم عاد إلى بلدته. نسبته إلى صناعة الغزل- عند من يقوله بتشديد الزاي- أو إلى غَزَالة= من قرى طوس- لمن قال بالتخفيف.

من كتبه: "إحياء علوم الدين"، و"تهافت الفلاسفة"، و"الاقتصاد في الاعتقاد"، و"محك النظر"، و"مقاصد الفلاسفة"، و"المضنون به على غير أهله" وفي نسبته إليه كلام، و"المنقذ من الضلال"، و"فضائح الباطنية" قسم منه- ويعرف بالمستظهري وبفضائح المعتزلة- و"التبر المسبوك في نصيحة الملوك" كتبه بالفارسية، و"المستصفى من علم الأصول"، و"الوجيز" في فروع الشافعية. ولطه عبد الباقي سرور كتاب: "الغزالي" في سيرته، ومثله ليوحنا قمير، ولجميل صليبا وكامل عياد، وأحمد فريد الرفاعيّ، ولمحمد رضا ولزكي مبارك: "الأخلاق عند الغزالي". المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور، ص ٧٦، ووفيات الأعيان، لابن خلكان ٤/٢١٦، وتاريخ الإسلام ١١/ ٦٢، والأعلام، للزركلي ٧/٢٢ وغيرها.

الذات معَ الإضافة، كالعليِّ والعليم والأوّل والآخِر والظاهرِ والباطن، ومنها ما يرجعُ إلى سَلبٍ وإضافة، كالمَلِك والعزيز، ومنها ما يرجعُ إلى القُدرة معَ إضافةٍ، كالقويِّ والمتينِ والقهّار والمُقتدِر، ومنها ما يرجعُ إلى الإرادة معَ إضافةٍ أو معَ فعل، كالرَّحمنِ والرَّؤوف والوَدود، ومنها ما يرجعُ إلى الدّلالة على الفعل معَ زيادةِ إضافةٍ، كالمجيدِ والكريم واللطيف، إلى غيرِ ذلك مما وَرَد في الرواياتِ المتَّفقة والمختلفة، ولذلك وجوبُ وجودِ اسم الله الأعظم، بل قالوا: كلُّ اسم يُستجابُ لك به فهو أعظمُ في حقِّك فكنْ على يقين أنّ أسماءَ الله تعالى لا تُحصى ومعانيها لا تُضبَطُ، واللهُ الموفِّقُ بفضله.

واعلمْ أنّ سببَ نزول قولِه تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} أنّ المشركينَ قالوا لرسُول الله صلى الله عليه وسلم: إنك تدعونا إلى إلهٍ واحد وتنهانا عن الاثنينِ والثلاثة، وأنت تذكُر أسماءً كثيرةً، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ ردًّا لقولِهم، ثم قال: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}، والإلحادُ: الميلُ على القصد، ومنه سُمِّيَ اللَّحدُ لحداً، والإلحادُ في الأسماء إمّا أن يكونَ في اللفظ أو في المعنى، وكلُّ ذلك ممنوعٌ شرعاً وعقلاً وقياساً.

واعلمْ أنه ما مِن حرفٍ إلّا وفي ضمِنه اسمٌ أو أسماء، فالأسماءُ في طيِّ الحروفِ، والصِّفاتُ في طيِّ الأسماء، والأفعالُ في طيِّ الصِّفات، والكائناتُ مُنبجِسةٌ من خلال ذلك، فما من دابّةٍ في الأرض ولا في السمواتِ ولا في البحار

إلّا وهي قائمةٌ بخدمة اسم من أسماءِ الله تعالى وبه قِوامُها وبقاؤها، وكذلك جميعُ الناميات والجَمادات وجميعُ الحُجُب والسُّرادقاتِ والحُور والوِلْدان، وجميع أشجارِ الجانّ.

ثم إنّ اللهَ تعالى مَزَج العلومَ بالأسماء، فطواها في الكتُبِ المنزَّلة، وطوى علومَ الكتُبِ المنزَّلة في الكتُب الأربعة، وطَوى علومَ الكتُب الأربعة فجَعَلها في الفُرقان، فجَعل علومَ القرآن في الفاتحة، وجَعل علومَ الفاتحة في البسملة، وجَعل علومَ البسملةِ في الباء، كما في قولِه صلى الله عليه وسلم: "....[1] القرآنِ فاتحة الكتاب، فمن قرأها فكأنما قرأ القرآنَ كلَّه، وكأنما قرأ الكتُبَ المنزَّلة كلَّها، ولم يُنزِّل اللهُ في التوراةِ ولا في الإنجيل ولا في الزَّبُورِ ولا في الفُرقان مثلَ فاتحةِ الكتاب، ولو وُضع القرآنُ في كِفّة وفاتحةُ الكتابِ في كِفّة لَرجَحتْ فاتحةُ الكتاب عليه سبعَ مرات. ذَكَر هذا الحديثَ ابنُ العرَبيّ في "أحكام القرآن"، وقال المطي[2]: لا تظُنَّ أنّ القرآنَ يفضلُ بعضُه بعضاً، وإنما يَفضُلُ بعضُه بعضاً بتضاعُف الحسَنات.

قال صلى الله عليه وسلم: "أُمُّ القرآن تعدِلُ ثُلُثي القرآن"(٣).

---

(١) فراغ بقدر كلمة واحدة اغتالها سوء التصوير فلم تظهر كلها أو جزء منها لنستبينها.

(٢) كذا في النسخة، ولعله: اللمطي، بلامين، ومنهم فضلاء كثيرون لم أعرف المتعين منهم بمقصود المصنف رحمه الله.

(٣) أخرجه عبد بن حُميد (٦٧٨) من حديث ابن عباس، وتكلم عليه العجلوني في كشف الخفاء (١٨١٦).

وقيل: إنّ في الفاتحة ألفَ خاصيّةٍ ظاهرة وألفَ خاصيّةٍ باطنة، ولها سبعةُ أسماءٍ: أُمُّ القرآن، والفاتحة، وسورةُ الحمد، والسَّبعُ المثاني، والمُغنية، والكافية، والشافية، قال الرسُولُ صلى الله عليه وسلم لأُبيٍّ بن كعب: "ألا أُخبرُك بسُورة لم يُنزِّلِ اللهُ مثلَها؟"، قال: بلى يا رسُولَ الله، قال: "كيف تقرأُ إذا افتتحتَ الصّلاة؟"، قال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فقال: "هي السَّبعُ المثاني التي أُعطِيتُ"[١].

وتُسمَّى الواقيةَ؛ لأنها تقي من شرِّ الأشرار وكيدِ الفُجّار وطوارقِ الليل والنهار. وقد قرأها بعضُ الصَّحابة في أُذُن مصروع فبرئ. وذُكر ذلك لرسُول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "هي الواقيةُ الشافية.

ورقَى بها أبو سعيدٍ الخُدْريُّ ملدوغًا فبرئ من وقتِه، فأعطاه كبشًا وتمرًا ودقيقًا، فمن أصحابِه مَن أكَل، ومنهم منِ امتنَع، حتى أتَوْا رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فسألوه، فقال لأبي سعيد: "بماذا رقَيْتَه؟"، قال: بأُمِّ القرآن يا رسُولَ الله، قال: "وما يُدريكَ أنها الشافية؟"، ثم قال صلى الله عليه وسلم: "هل بقي مما أعطاكم شيئًا؟"، قالوا: نعم، قال: "اضربوا لي معَكم بسَهْم"[٢].

---

(١) مرويّ في موطأ مالك، ط. الأعظمي (٧٧/٢٧٥)، وفضائل القرآن، للقاسم بن سلام، ص ٢٢٠، ومسند أحمد (٨٦٨٢)، وفضائل القرآن، لابن الضريس (١٤٦)، والسنن الكبرى للنسائي (٩٨٨) و (١١١٤١)، والصغرى (٩١٤) وغيرها.

(٢) رواه البخاري (٢٢٧٦) و (٥٧٤٩)، ومسلم ٦٦- (٢٢٠١).

وتُسمَّى الصلاةَ، لقول رسُول الله صلى الله عليه وسلم حاكيًا عن الله تعالى: "قَسَمتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدي"[1]، الحديثَ.

وقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ما من قارئٍ يقرأُها إلى آخرِها إلّا قالتِ الملائكةُ: آمينَ"[2]. ومعنى آمينَ: استجبْ لنا واسمعْ دعاءنا يا الله.

وقد قال أهلُ العلم: إنه ما لازَمَ أحدٌ قراءتَها مئةَ مرّة إلّا لم يُصبْهُ مكروهٌ أبداً، جُرِّب ذلك فصحَّ، وأنشدوا:

إذا ما كنتَ مُلتمسًا لرزقٍ ... ونُجح القصدِ من عبدٍ وحُرِّ
وتظفرُ بالذي ترجو سريعًا ... وتأمَنُ من مخالفةٍ وغدرِ
وسَترًا لا تغيِّرُهُ الليالي ... بحادثةٍ من النُّقصانِ تجري
وتوفيقٍ وإفراج ورِفقٍ ... وأمنِ نكايةٍ من كلِّ شرِّ
ومن عُسْرٍ وفقرٍ وانقطاعٍ ... ومن بطشٍ لذي نَهْيٍ وأمرِ
ففاتحةُ الكتابِ فإنّ فيها ... لَما ترجوهُ سرًّا أيَّ سرِّ
فلازِمْ درسَها في كلِّ يومٍ ... إلى التسعينَ تُتبعُها بعشرِ
وكنتَ مُبجَّلًا في كلِّ وقتٍ ... وعشتَ مُنعَّمًا في طيبِ عُمْرِ

(١) رواه مسلم ٣٨- (٣٩٥) ومسلم ٤٠- (٣٩٥)، عن أبي هريرة، وهو من أفراده.

(٢) ليس باللفظ الذي ساقه المصنف رحمه الله، وفي الصحيحين، من حديث أبي هريرة: البخاري (٧٨٠) و(٧٨١) و(٧٨٢) و(٧٩٦) و(٤٤٧٥)، ومسلم ٧٢- (٤١٠): "إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه" واللفظ له.

أمّا البسملةُ فقد اختلف العلماءُ قديمًا وحديثًا في كونِها من الفاتحة أو من كلِّ سُورة، أو هي آيةٌ مستقلّةٌ بنفسِها لا منَ الفاتحة ولا من غيرِها[1]، فمَن قال: هي من الفاتحة أوجَب قراءتَها معَ الفاتحةِ في الصّلاة، وعليه الشافعيّةُ ومَن وافَقَهم من المالكيّة كسُحنونٍ وأصحابِه، ومن قال: إنها ليستْ من الفاتحة كَرِه قراءتَها في الفريضة، وعليه المالكيّةُ.

ومعناها: أبدأُ باسم الله تيمُّنًا وتبرُّكًا أو قصدًا وتوفيقًا واستعانةً.

وبالجُملة، فاعلمْ أنّ السرَّ لله في الباء، لكنّ الضمائرَ تختلفُ عند النطقِ بها بحسَب المقاصدِ والنيّات، وقد قيل: إنّ الباءَ تأنيثُ الألف وشُفعة، فمن فَهِم سرَّ الباء فهمَ سرَّ وضع الكائنات، لأنها تشيرُ لأثر قُدرة الصانع البديع، وإنما قامت فوُجِدت به لا بنفسِها.

ومن حرف الباءِ اتَّصل المدَدُ بالوحي للرسُل، وحَدَتِ الشرائعُ للعقول، فالألفُ بمثابة آدم، والباءُ بمثابةِ حوّاء، وما بقيَ منَ الحروف فمنها تولَّدت ومنها ظهرت وفي متضمَّنِها أثَّرتْ، فالألفُ: يشيرُ أبدًا إلى الأحَديّة التي هي: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [آل عمران: ١٨]، والباءُ: للتثنيةِ التي هي سرُّ "كنتُ كَنْزًا لم يُعرفْ"[2].

---

(١) طالع وجوه هذا الاختلاف وتفاصيله، في الموسوعة الفقهية الكويتية ٨/٨٣ وما بعدها.

(٢) المقاصد الحسنة، للسخاوي (٨٣٨)، وكشف الخفاء (٢٠١٦) وغيرهما.

فمدَدُ الألفِ غايتُه المَحْوُ والتعطيل، ومددُ الباءِ يتّصلُ بالصَّحوِ والتنزيل، الألفُ: جذبٌ، والباءُ: سلوك، والألفُ: رَتْق، والباءُ: فتق، قال اللهُ العظيم: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا} [الأنبياء: ٣٠]، فجعلَ حرفَ الباءِ نصبَ القِبلة، وأخَذ العهدَ به يومَ السَّبت بربِّكم، وألزَم به الثوابَ والعقاب.

فثِقْ بحرفِ الباء في ذكْرِك، وجُلْ في معناه بفكرِك متيقِّنًا أنه أولُ ما خَطَّ القلمُ على صفحةِ اللوح: بسم الله الرَّحمنِ الرَّحيم: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} [طه: ١٤]، فدلَّتِ البسْملةُ على السُّلوك، وما بعدَها على الوصُول.

قال أهلُ العلم: لمّا خَلَق اللهُ القلمَ قال لهُ: اكتبْ، قال: أي ربِّ، ما أكتب؟ قال: اكتبْ فضْلَ بسم الله الرَّحمن الرحيم، فكتب عشَرةَ آلافِ سنةٍ ثم وَقَف، فأمَره أن يكتبَ، فكتب عشَرةَ آلافِ سنةٍ أخرى ثم وَقَف، فأمَره أن يكتبَ، فقال: يا ربّ، وإلى متى؟ قال: لو كتبتَ أبدَ الأبدِ ما بَلغتَ من فضل بسم الله الرَّحمن الرَّحيم إلّا ما يبلُغ المَخيطَ من البحر إذا غُمسَ فيه.

وقال عثمانُ بن عفّانَ رضي الله عنه: سألتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم، فقال لي: "ما بينَ اسم الله الأعظم وبينَ بسم الله الرحمن

الرحيم إلّا ما بينَ سَوادِ العين وبياضِها، وليس بينَ الآدميِّينَ والشياطين إلّا بسم الله الرَّحمن الرحيم، ولولا هي أهلكوهم عن آخرِهم"[١].

وقيل: إنّ ذنوبَ العبد تأتيهِ من أربع جهات: ليلِه ونهاره، وسرِّه وعلانيتِه، فجَعل اللهُ في بسم الله الرحمن الرحيم أربعَ كلمات، فهي ترفعُ عن قائلها ذنوبَهُ كلَّها.

وإنّ اللهَ تعالى جَعل في بسم الله الرحمن الرحيم تسعةَ عشَرَ حرفًا على عدَد زبانيَة العذاب، كما في قوله تعالى: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} [المدثر: ٣٠]، فلمّا أنزلَ اللهُ بسم الله الرحمن الرحيم قالتْ زبانيَةُ العذاب: من قال هذه الكلماتِ أَمِن من العذاب.

وكان الناسُ قبلَ نزولِها يفتتحونَ بالكتابة: باسمِكَ اللهُمَّ[٢]، فلمّا نزلتِ البسْملةُ أمَر رسولُ الله الناسَ أن يكتبوها في أوائل السُّور والكتُبِ كلِّها.

ورُوي أنّ اللهَ تعالى أكرم بها ثلاثةً من الأنبياء، أولُهم: نوحٌ عليه السلامُ، لمّا استوتْ به السفينةُ على الماء أوحى اللهُ إليه أنْ قلْ: {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا}

---

(١) أخرج قطعة منه العقيلي في الضعفاء الكبير٢/ ١٦٢، عن ابن عباس عن عثمان، به، وقال: "لا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به".

(٢) ينظر مثلًا: حديث المسور ومروان في البخاري (٢٧٣١)، وأنس في مسلم ٩٣- (١٧٨٤).

[هود: ٤١]، الثاني: سُليمانُ عليه السلام، وكان بها قِوامُ مُلكِه، كما في قولِه تعالى: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [النمل: ٣٠]، الثالثُ: محمّدٌ صلى الله عليه وسلم، فإنها لمّا نزلتْ عليه سُمعت مدّةً في جميع جبال الدنيا ورَنَّ إبليسُ، رُويَ أنه ما رَنَّ إلّا أربعَ رَنّات: رنَّ حين تيبَ على آدم، وحين أُنزلتِ التوراةُ على موسى، وحين أُنزِلت البسْملةُ على محمّد صلى الله عليه وسلم، وحين أُنزل قولُه تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣].

وأولُ ما أنزل اللهُ عليه: مُضمَّنُها، وهو قولُه تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} [العلق: ١]، فجَمع لهُ في كلمةٍ واحدة البدايةَ والنهاية، فالاسمُ المأمورُ به هو اسمُ الجلالة، والظاهرُ هو اسمُ الدالِّ على الرُّبوبيّة، فجَمع لهُ بينَ تجلِّي الرَّحمة وتجلِّي العظَمة، وبينَ البدايةِ والنِّهاية، ليدُلَّ ذلك على فخامةِ قدرِه، وأنه أُعطيَ ما لا يُعطى شيءٌ قبلُ، فنالَ بها نوحٌ عليه السلامُ المشيَ على الماء، ونال بها سُليمانُ عليه السلامُ الطيرانَ في الهواء، كما قال تعالى: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} [ص: ٣٦]، ونال بها محمدٌ صلى الله عليه وسلم {قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [النجم: ٩]، وقيل: إنه عليه السلامُ نال بها ثلاثةَ أشياءَ: الظهورَ على الأعداء، والأمنَ من الغُرم، والبرَكةَ في الذُّريّةِ وبقيَ ذلك في عَقِبه، فمن قالها وأكثر من

ذكرِها ظَهر على عدوِّه إبليسَ ونجّاهُ اللهُ من سَكَراتِ الموت وأعلى درجتَه في الجنّة. ونال بها سليمانُ مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدِه وتسخيرَ الجنّ وإسالةَ عيْنِ القِطْر، ونال بها محمّدٌ صلى الله عليه وسلم ثلاثةَ أشياءَ: مقامَ المحبة ورفعَ الذِّكر وكونَ الملائكة جُندًا من جنودِه.

وعن عبد الله بن عُمرَ رضي الله عنهما، أنه قال: "من كانت له حاجةٌ عندَ الله فليصُم الأربعاءَ والخميسَ والجمُعة، فإذا تاب يومَ الجمُعة اغتسَل للجمُعة وتصدَّق بصَدَقةٍ قَلَّتْ أو كثُرتْ، ثم يأتي الجامعَ فيُصلِّي أربعَ ركَعات، ثم يصلِّي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ما شاء أنْ يُصلِّي، ثم يقولُ: اللهُمَّ إنّي أسالُكَ يا ربِّ، ببسم الله الرَّحمن الرحيم، الذي عَنَتْ له الوجوهُ وخَضَعتْ له الأصواتُ ووَجِلت القلوبُ من خشيتِه، أن تُصلّيَ على سيّدِنا محمدٍ وعلى آلِه، وأن تُعطيَني كذا وكذا، وتُسمِّي حاجتَك، فإنها تُقضَى لا مَحالةَ، وإلّا فأعدْ حتى يقضيَ اللهُ حاجتَك". قال عبدُ الله بنُ عُمر: فلا تُعلِّموها السُّفهاءَ لئلّا يدعوا بها في غيرِ ما يُرضي الله فيستجابَ لهم.

وقيل: إنّ أولَ ما أنزَل اللهُ: "بسم الله الرَّحمن الرحيم" على آدمَ، ثم رُفعت، ثم أُنزِلت على نُوح ثم رُفعت، ثم على إبراهيمَ في المَنْجَنيق ثم رُفعت، ثم أُنزلت على موسى عندَ إلقاءِ العصا ثم رُفعت، ثم أُنزِلت على سُليمانَ وهو ساجدٌ فردَّ اللهُ

مُلكَه عليه ثم رُفعت، ثم أُنزِلت على عيسى عليه السلامُ وهو في المَهد ففُتِق بها لسانُه حتى قال: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} [مريم: ٣٠] الآيةَ، وكان لا يذكُرُ منها شيئًا، حتى أوحى اللهُ إليه: يا ابنَ مَريم، الزَمْ ذكرَها ليلَكَ ونهارَك، وإقبالَكَ وإدبارَك، وجميعَ حركاتِك وسكَناتِك، فإنه من جاء يومَ القيامةِ وفي صحيفتِه ثمانِ مئةِ بسم الله الرَّحمن الرحيم وهو موقِنٌ برُبوبيّتي بَسَطتُ عليه رحمتي وأُفسحُ له في قبرِه مدَّ بصرِه وأملأُه عليه بالرَّحمة والنُّور حتى أبعثَهُ ووجهُه يتلألأُ بالنُّور فأُحاسبَه حسابًا يسيرًا وأُثقلَ ميزانَه وأُعطيَه النُّورَ التامَّ على الصِّراط حتى يدخُلَ الجنّةَ، وآمُرُ مُناديًا يُنادي عليه في عَرَصاتِ القيامة بالسَّعادة والمغفرة، فقال عيسى: يا ربِّ، هذا لي خاصةً أم للناس عامّة؟ قال: هو لكَ ولكلِّ مَن أخَذ بأخْذِكَ إلى يوم القيامة.

ولمّا أُنزِلت عليه صلى الله عليه وسلم سُئل عنها فقال: "من قالها مُوقنًا بقلبِه سبَّحت معه الجبالُ وكلُّ شيءٍ سَمِعه"(١).

قال صلى الله عليه وسلم: "إذا قال العبدُ: بسم الله الرحمن الرحيم، قالتِ الملائكة: لبَّيْكَ فلانُ وسَعديْك، اللّهمَّ ربِّ أدخلْهُ الجنّةَ وزَحْزِحْهُ عن النار"(٢).

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ١/ ٢٦، وعزاه إلى أبي نعيم في "الحلية" والديلمي في "الفردوس".

(٢) لم أقف عليه.

قال صلى الله عليه وسلم: "يُبعثُ أقوامٌ من أُمتي يومَ القيامة وهم يقولون: بسم الله الرَّحمن الرحيم، ترجَحُ بذلك حسَناتُهم على سيئاتِهم، فتقولُ الأُمم: ما أرجحَ حسناتِ أُمّةِ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم، فيقالُ لهم: إنما ذلك لثلاثةِ أسماءٍ من أسماءِ الله العظام جَعلوها في ابتداءِ أقوالهم وأفعالِهم، فلو وُضِعت السمواتُ في كِفّة وتلك الأسماءُ في كِفّة لَرجَحتِ الأسماء، وهي: بسم الله الرَّحمن الرحيم"[1].

قال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: إنّ التوراةَ كانت في زمن موسى عليه السلام مشروحةً في أربعينَ وَقْرًا، فلو أذِن لي رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في البسْملة لَشرحتُها على ثمانينَ وَقْرًا.

وهذا القدرُ كافٍ معَ التوثيق، وفضلُها أكثرُ من أن يُحصى، ومن أراد أن ينظرَ العجَبَ العجائبَ فلْينظرْ إلى "الكهفُ والرَّقيم في معنى بسم الله الرَّحمن الرحيم" لمحمّد ابن العربيِّ الحاتمي[2].

(١) كذلك.

(٢) عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي (ت٧٩٧هـ)، وطبعته دار الكتب العلمية، بتحقيق الأستاذ عاصم الكيالي، ٢٠٠٣م.

فصلٌ: في فضل العلم والعلماء، وأنه يُرادُ للعمل لا للرِّواية وفضلِ الرِّحلة إليه وإنفاق المال على تحصيلِه وحبِّ أهله وفضل سَماعِه

قال صلى الله عليه وسلم: "إنّما بُعِثتُ مُعلِّمًا[١] ولم أُبعَثْ تاجرًا، فتعلَّموا العلمَ وعلِّموهُ لوجهِ الله تكونوا ربّانيِّين". وقال صلى الله عليه وسلم: "بينَ العالِم والشهيد فضلُ سبع درجات، وبينَ العالِم والنبيِّ فضلُ درجتيْن"[٢].

رُوي أنّ العلماءَ يومَ القيامة توضَعُ لهم منابرُ من ذهبٍ عليها قِبابٌ من فضّة[٣].

وعن أبي ذرٍّ وأبي هريرةَ رضى الله عنهما، قالا: "لَبابٌ يتعلَّمُه الرجُل من العلم أحبُّ إليه من ألفِ ركعةٍ تطوُّعًا"[٤].

---

(١) إلى هنا أخرجه ابن ماجة في سننه (٢٢٩)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وباقي المتن لا يعرف.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في موجبات الجنة، لابن الفاخر (١١٦)، وانظر بلا بد: العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لابن الجوزي (١٤٤).

(٤) أخرجه عنهما عدة، منهم: البزار في مسنده (٨٥٧٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١١٥). وأخرجه ابن ماجة في سننه (٢١٩) وغيره، عن أبي ذر.

قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إذا جاء الموتُ لطالبِ العلم وهو على هذه الحالة مات شهيدًا"، رواه البزّارُ والطبرانيُّ في "الأوسط"[(١)].

وعن أبي ذرّ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "يا أبا ذرّ، لأنْ تغدوَ فتتعلَّمَ آيةً من كتاب الله خيرٌ لك من أن تصلِّيَ مئةَ ركعة، ولأنْ تغدوَ فتتعلَّمَ بابًا من العلم خيرٌ لكَ من أن تُصلِّيَ ألفَ ركعة"[(٢)].

وعن ابن مسعودٍ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من تعلَّم بابًا منَ العلم ليُعلِّمَ الناس أُعطيَ ثوابَ سبعينَ صِدِّيقًا"، رواه أبو منصور الدَّيْلميُّ في "مسند الفردَوْس"[(٣)]، وقال المنذريّ[(٤)]: وفي سندِه نَكارة.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إذا مات ابنُ آدمَ انقطَع عملُه إلّا من ثلاث: صَدَقةٍ جارية، وعلم يُنتفَعُ به، ووَلَدٍ صالح يدعو له"، رواه مسلمٌ[(٥)] وغيرُه، ولفظُ ابن ماجة[(٦)]: "وعلم يُعمَلُ به من بعدِه".

---

(١) أما البزار فرواه في مسنده: البحر الزخار (٨٥٧٤)،، وانظر لزومًا: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٥٠٨).

(٢) مضى تخريجه في سنن ابن ماجة.

(٣) هذه الكلمة من كلام المنذري في العزو الآتي.

(٤) في الترغيب والترهيب (١١٨).

(٥) في صحيحه ١٤- (١٦٣١)، وهو من أفراده.

(٦) في سننه (٢٤١)، من حديث أبي قتادة.

وعن ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "علماءُ هذه الأُمّة رجُلان: رجلٌ آتاه اللهُ علمًا فبَذَلَه للناس ولم يأخذْ عليه طمعًا ولم يشترِ به شيئًا، فذلك تستغفرُ له دوابُّ البرِّ وحِيتانُ البحرِ والطيرُ في جوِّ السماء، ورجلٌ آتاه اللهُ علمًا فبَخِل به عن عبادِ الله وأخَذ عليه طمَعًا، فذلك يُلجَمُ يومَ القيامة بلِجام من النارِ ويُنادَى عليه أنْ هذا الذي آتاهُ اللهُ علمًا فبَخِل به عن عباد الله وأخَذ عليه طمعًا واشترى به ثمنًا، فلا يزالُ كذلك حتى يَفرُغَ من الحساب ثم يؤمَر به فيُلقى في النار"، رواه الطبرانيُّ في "الأوسط"[١]، وفي سندِه عبدُ الله بن خِراش[٢] ثقةُ[٣] ابنِ حِبّان.

وروى ابنُ ماجةَ[٤] بسندِه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من علَّم علمًا عملَ به لا ينقُصُ من أجر العامل".

---

(١) الحديث (٧١٨٧).

(٢) كذا عبارته.

(٣) خالف ابن حبان في توثيقه أئمة الجرح والتعديل، فقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٥١١): "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبد الله بن خراش: ضعفه البخاري وأبو زرعة وأبو حاتم وابن عدي، ووثقه ابن حبان". وقال ابن عدي في موضع ترجمة عبد الله هذا من الكامل في ضعفاء الرجال ٥/ ٣٤٧: "حدثنا البخاري، قال: عبد الله بن خراش عن العوام بن حوشب: منكر الحديث.." ثم قال: "ولعبد الله بن خراش عن العوام من الحديث غير ما ذكرت، ولا أعلم أنه يروي عن غير العوام أحاديث، وعامة ما يرويه غير محفوظ".

(٤) في السنن (٢٤٠).

وعن أبي أمامةَ رضي الله عنه، قال: ذُكِر لرسُول الله صلى الله عليه وسلم رجلان، أحدُهما عالِم والآخرُ عابد، فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "فضلُ العالم على العابِد كفضْلي على أدناكم"، ثم قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ وملائكتَهُ وأهلَ السمواتِ والارض حتى النَّملةَ في جُحرِها وحتى الحوتَ لَيُصَلُّونَ على مُعلِّم الناس الخيرَ"، رواه الترمذيُّ(١) وقال: حديث حَسَنٌ صحيح(٢).

وعن ثعلبةَ بن الحَكَم الصحابيِّ رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ للعلماء: إنّي لم أجعلْ علمي وحُكمي فيكم إلّا وأنا أريدُ أن أغفرَ لكم على ما كان منكم ولا أُبالي"، رواه الطبرانيُّ في "الكبير"(٣).

ورُوي عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يَبعثُ اللهُ العبادَ يومَ القيامة، ثم يَميزُ العلماءَ فيقول: يا معشَرَ العلماء، إني لم أَضَعْ علمي فيكم لأُعذِّبَكم، اذهبوا فقد غفرتُ لكم"، رواه الطبرانيُّ في "الكبير"(٤).

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥).

(٢) تمام قوله في الحديث: "هذا حديث حسن صحيح غريب".

(٣) المعجم الكبير، للطبراني ٢/ ٨٤ (١٣٨١).

(٤) كذا قال، ولم أجده في "كبير" الطبراني بل في "الأوسط" حسب (٤٢٦٤)، وهو في مسند الروياني (٥٤٢).

ورُوي عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "يُبعثُ العالِمُ والعابدُ يومَ القيامة فيقالُ للعابد: ادخُل الجنّةَ، ويقالُ للعالِمِ: اثبُتْ حتى تَشفعَ للناس بما أحسَنت أدبَهم"، رواه البغويُّ[١] وغيرُه.

قال أبو هريرةَ رضي الله عنه: لَأنْ أجلسَ ليلةً فأفقهَ أحبُّ إليَّ من أن أُحييَ ليلةً إلى الصّباح.

وعن قَبِيصةَ بن المُخارق رضي الله عنه، قال: أتيْتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: "يا قَبِيصة، ما جاء بك؟"، قلتُ: كبِرَ سِنّي ورَقَّ عظمي فأتيتُكَ لتُعلِّمَني ما ينفعُني اللهُ به، قال: "يا قَبِيصة، ما مررت بحَجَر ولا شجر ولا مَدَرٍ إلّا استغفرَ لك، يا قَبِيصة، إذا صلَّيتَ الصبحَ فقل ثلاثًا: سبحانَ الله العظيم وبحمدِه، تُعافى[٢] من العمى والجُذام والفالج، يا قَبِيصة، قل: اللّٰهمَّ إني أسألُكَ مما عندَكَ فاقضِ عني من فضلِك وانشُرْ عليَّ من رحمتِك وأنزلْ عليَّ من بركاتِك". رواه أحمد[٣]، وفي سندِه راوٍ لم يُسَمَّ[٤].

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ٣٢٧، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧١٧).

(٢) كذا في النسخة غير مجزوم، وهو خطأ.

(٣) في المسند (٢٠٦٠٢).

(٤) يعني: الراوي عن قبيصة، وعبارة إبهامه فيه: "حدثني رجل من أهل البصرة، عن قبيصة...".

وعن أبي أُمامةَ رضي الله عنه، عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَن غدا إلى المسجد لا يريدُ إلّا أن يتعلَّمَ خيرًا أو يُعلِّمَهُ فإنّ له كأجرِ حاجّ تامٍّ حجُّه"، رواه الطبرانيُّ في "الكبير"[1].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَن جاء مسجدي هذا لم يأتِه إلّا لخيرٍ يتعلّمُه أو يُعلِّمُه فهُو بمنزلةِ المجاهد في سبيل الله، ومَن جاء لغيرِ ذلك فهُو بمنزلةِ الرجُل ينظرُ إلى متاع غيرِه"[2].

وعن عليٍّ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما تنعَّل عبدٌ قطُّ ولا تخفَّف ولا لبِسَ ثوبًا في طلبِ علم إلّا غَفَر اللهُ ذنوبَه حتى يخطو عتبةَ دارِه"، رواه الطبرانيُّ في "الأوسط"[3].

وعن أبي الدرداءِ[4] رضي الله عنه، أنه قال: [سمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ][5]: "العلماءُ وَرَثةُ الأنبياء، إنّ الأنبياءَ لم يُورِثوا دينارًا ولا درهمًا

(١) المعجم الكبير، للطبراني ٨/ ٩٤ حديث (٧٤٧٣).

(٢) رواه ابن ماجة (٢٢٧).

(٣) الحديث (٥٧٢٢)، وفيه: "انتعل" بدل: "تنعل".

(٤) في النسخة: أبي هريرة، خطأ صوابه ما في مصادر التخريج الآتية عند المصنف رحمه الله.

(٥) زيادة لازمة أخلت بها النسخة وطرحها ناسخها فاستدركناها من مصادر التخريج؛ لأن الحديث مرفوع من طريق أبي الدرداء غير موقوف.

ولكنّهم أورثوا العلمَ، فمن أَخَذه أَخَذ بحظِّه، وموتُ العالم مصيبةٌ لا تُجبَر، وثلمةٌ لا تُسَدُّ، وهم نجمٌ طُمس، ولَموتُ قبيلةٍ خيرٌ من موتِ عالم"، رواه أبو داودَ والترمذيُّ وابنُ ماجة وابنُ حنبل(١).

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: "نضَّر اللهُ امرَأً سمعَ منا شيئًا فبلَّغه كما سمعه، فرُبَّ مُبلّغ أوعى من سامع"، رواه أبو داودَ والترمذيّ(٢)، وفي رواية: "نضَّر اللهُ امرَأً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وبلَّغها من لم يسمعْها، فرُبَّ حاملِ فقه لا فقهَ له، ورُبَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقهُ منه"، الحديثَ، رواه الطبرانيُّ في "الأوسط"(٣).

---

(١) لهذا الحديث نصان، الأول مختصر ينتهي عند قوله صلى الله عليه وسلم: "أخذ بحظه"، أخرجه الأربعة على ما ذكره المصنف هنا: أحمد في المسند (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجة (٢٢٣)، وقد أورد البخاري بعضه في "صحيحه" في كتاب العلم ضمن عنوان "باب العلم قبل القول والعمل"، فقال: "وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر..."، والثاني بتمامه، وأخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (١٤٩) وغيره.

(٢) هو عند الترمذي (٢٦٥٧) دون أبي داود من حديث ابن مسعود، ومن حديث زيد بن ثابت عند: أبي داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦) و(٢٦٥٨)، وتمامه فيه: "ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم".

(٣) الحديث (٥١٧٩) عن ابن مسعود، وهو فيه برقم (٩٤٤٤) عن أنس. ولأحمد بن محمد بن حكيم المديني الأصفهاني المشهور بابن ممّك (ت٣٣٣هـ)، جزء استوعب فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "نضر الله امرأ سمع مقالتي فأداها"، بتحقيق الأستاذ بدر بن عبد الله البدر.

ورُوي عن ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "اللهُمَّ ارحمْ خُلفائي"، قالوا: يا رسُولَ الله، ومَن خُلفاؤك؟ قال: "الذين يأتونَ من بعدي يروونَ أحاديثي ويعلِّمونها الناسَ"، رواه الطبرانيُّ في "الأوسط"[١].

وعن سَمُرةَ بن جُنْدُبٍ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ما تَصَدَّق الناسُ بصدَقةٍ مثلِ علم يُنشَر"، رواه الطبرانيُّ[٢] وغيرُه.

وعن أنسٍ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ألا أخبرُكم عن الأجوَد؟ الأجوَدُ الله، لا جُودَ إلّا جودُ الله، وأنا أجودُ وَلَدِ آدم، وأجودُكم من بعدي رجلٌ عِلِم علمًا فنشَره، يُبعَثُ يومَ القيامة آيةً وحدَه، ورجلٌ جاد بنفسِه لله حتى يُقتَلَ"، رواه أبو يَعلى والبيهقي[٣].

وعنه قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ما من رجُل يَنعَشُ بلسانِهِ[٤] حقًّا يُعمَلُ به من بعدِه إلّا جَرى له أجرُه إلى يوم القيامة، ثم وَفّاهُ اللهُ ثوابَه". رواه أحمدُ[١] بإسنادٍ فيه نظر[٢] لكنّ الأحوالَ تعضُدُه.

---

(١) الحديث (٥٨٤٦)، قال الهيثمي في المجمع (٥٢٢): "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: أحمد بن عيسى الهاشمي، قال الدارقطني [الضعفاء والمتروكون، له (٥٢)]: كذاب".

(٢) في المعجم الكبير ٧/ ٢٣١ (٦٩٦٤).

(٣) أبو يعلى الموصلي في مسنده (٢٧٩٠)- وقال محققه الأستاذ حسين سليم أسد: "إسناده مسلسل بالضعفاء"- والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٦٧).

(٤) في المسند: "لسانه" مرفوعًا على أنه فاعل.

وعن أبي أُمامةَ رضي اللهُ عنه، قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: "أربعةٌ تجري عليهم أجورُهم بعدَ الموت: رجلٌ مات مُرابطًا في سبيل الله، ورجلٌ علَّم علمًا فأجرُه يجري عليه ما عُمل به، ورجلٌ أجرى صدقةً فأجرُها له ما جَرَت، ورجلٌ خَلَف ولدًا صالحًا يدعو له"(٣).

وعن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "مَثَلُ الذي يتعلَّمُ العلمَ ثم لا يُحدِّثُ به كمَثل الذي يكنِزُ الكَنْزَ ثم لا يُنفقُ منه"، رواهُ الطَّبراني(٤).

ورَوى الترمذيُّ(٥)، عن قيس بن كَثير، قال: قدِم رجلٌ من المدينة على أبي الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه وهُو بدمشق، فقال: ما أقدَمَك يا أخي؟ قال: حديثٌ بَلَغني

---

(١) في مسنده (١٣٨٠٣). وقوله: "ينعش لسانه حقًّا"، في "القاموس المحيط": "نعشه الله، كمنعه: رفعه، كأنعشه ونعَّشه"، أي: بالتشديد، فاللفظ يحتمل ثلاثة أوجه. القاموس المحيط، للفيروزآبادي (نعش).

(٢) بل إسناده حسن، كما في التعليقة عليه في المسند من محققيه الفاضلين الأجلين، والله أعلم.

(٣) رواه أحمد (٢٢٢٤٧) و (٢٢٣١٨) بإسنادين كلاهما صحيح لغيره.

(٤) في المعجم الأوسط (٦٨٩)، وعنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢٠٣).

(٥) في السنن (٢٦٨٢)، وتمامه فيه: "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر".

أنك تُحدِّثُه عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم، قال: أما جئتَ لحاجة؟ قال: لا، قال: أما جئتَ لتجارة؟ قال: لا، ما جئتُ إلّا في طلبِ هذا الحديث، قال: فإنّي سمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَن سَلَك طريقًا يطلبُ بها علمًا سَلَك اللهُ به طريقًا إلى الجنة".

وعن مِسعَرِ بن كِدَام[١]، [عن عَطيّةَ][٢]، عن ابنِ عُمرَ رضي اللهُ عنهما، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان يومُ القيامة وُضِعتْ منابرُ من ذهبٍ عليها قبابٌ من فضّةٍ مُرصَّعةٍ بالدُّرِّ والياقوتِ والزَّبرْجَد جِلالُها السُّندُسُ والإستبرق، ثم يُجاءُ بالعلماء فيُجلَسونَ عليها، ثم ينادي منادِ الرحمن: أين مَن حَمَل إلى أُمّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم علمًا يريدُ به وجهَ الله تعالى؟ أجلِسوهُم على هذه المنابر وقولوا لهم: لا خوفٌ عليكم في هذا اليوم حتى تدخلوا الجنّة"[٣].

وعن أنسٍ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن أدَّى الفريضةَ وعلَّم الناسَ الخيرَ كان فضلُه على المجتهدِ العابد كفضلي على المؤمنِ العابدِ بسبعينَ درجةً"، أخرجَه أبو عُمرَ[٤] بسنده.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٢٥٥، وقال: "غريب من حديث مسعر".

(٢) ما بين معكوفين زيادة لازمة للسند أخل الناسخ بها وطرحها. وعطية هو: العوفي.

(٣) زاد الناسخ عقب هذا الحديث في النسخة عبارة: "رواه الترمذي"، وهو خطأ عجيب وزيادة مستشنعة.

(٤) تحرفت الكنية عند الناسخ: أبا عمرو، وهو يعني: ابن عبد البر أبا عمر، أخرجه في جامع بيان العلم وفضله (٩٣).

عن عَمْرِو بن قَيْس المُلائيّ[1]، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "فضلُ العلم خيرٌ من فضل العبادة، ومَلاكُ الدِّين: الوَرَع"[2].

وعن جابرٍ[3] رضي اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "نِعمَتِ العَطيّة ونِعمَتِ الهديّة كلمةُ حِكمةٍ تسمعُها فتنطوي عليها ثم تحملُها إلى أخ لكَ مسلم تُعلِّمُها إياه، تعدِلُ عبادةَ سنة"[4].

وعن عبد الله بن مسعودٍ[5] رضي اللهُ عنه، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنكم أصبحتُم في زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه قليلٍ خطباؤه، قليلٍ سائلوه كثيرٍ مُعطُوه، والعملُ فيه خيرٌ من العلم، وسيأتي على الناس زمانٌ قليلٌ فقهاؤه كثيرٌ خُطَباؤه، قليلٌ مُعطُوه كثيرٌ سائلوهُ، العلمُ فيه خيرٌ منَ العمل"[6].

---

(١) بعده في النسخة: "وعن أنس"، وهو خطأ عجيب.

(٢) يروى هذا الحديث عن جمع، فهو في "الزهد" لوكيع (٢٢٢): عن عمرو بن قيس الملائي، وفي "الزهد" لهناد ٢/ ٤٦٥: عن الحسن وابن سيرين، وفي"المعجم الأوسط" للطبراني ٤/ ١٩٦: عن حذيفة بن اليمان، وفي "ترتيب الأمالي الخميسية" للشجري ١/ ٧٩: عن ابن عمر.

(٣) كذا في النسخة، وهو خطأ، إذ إنه من حديث ابن عباس لا جابر، أخرجه الطبراني في الكبير ١٢/ ٤٣ (١٢٤٢١) وغيره.

(٤) عقبه في النسخة: "أخرجَه البيهقي"، وليس صوابًا.

(٥) كذا في النسخة، والذي في مصدر التخريج: المعجم الكبير، للطبراني ٣/ ١٩٧ (٣١١١) أن راويه هو: حزام بن حكيم بن حزام، عن أبيه.

(٦) بعده في النسخة: "رواه مالكٌ في الموطأ"، وهو تعقيب عجيب من الناسخ، وقد ذكرنا مصدره آنفًا.

وعن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "لكلِّ شيءٍ عماد، وعمادُ الدِّين الفقه"[١].

وعن عُمرَ بن الخطابِ رضي اللهُ عنه، قال: "موتُ ألفِ عابد قائم الليل والنهار أهونُ من موتِ العاقلِ البصير بحلال الله وحرامِه"، أخرجه أبو عُمرَ[٢] بسندِه.

وعن أبي هريرةَ[٣] رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: "بينَ العالِم والعابد مئةُ درجة، بينَ كلِّ درجتيْنِ حُضْرَ الجوادِ المُضمَّر سبعينَ سنة"[٤].

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول ١/ ١٣٥، والآجري في أخلاق العلماء، ص ٢٣، والطبراني في المعجم الأوسط (٦١٦٦)، والدارقطني في السنن (٣٠٨٥)، وسواهم.

(٢) تحرفت الكنية عند الناسخ: أبا عمرو، وهو يعني: ابن عبد البر أبا عمر، أخرجه في جامع بيان العلم وفضله (١٢٦).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٣٦٥، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٢٩). وقوله: "حُضر الجواد المضمَّر"، قال ابن الأثير: "الجواد: الفرس الرائع، وحُضْره: عَدْوه، وتضمير الفرس: تمرينه وتدمينه على الجري والسِّباق، وقيل: هو أن يشدَّ عليه سرجه ويجلَّل بالأجلّة، ويحرك حتى يعرق، فيذهب رَهَله، ويقوى لحمه ويخفَّ". جامع الأصول، لابن الأثير ١٠/ ٥٠١.

(٤) بعده في النسخة: "أخرجه الثوريُّ بسنده. وعن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه"، وفيه اضطراب واضح، آثرنا ألا نثبته لئلا يرتبك القارئ.

الثوريُّ بسندِه، قال: "ما من عملٍ أفضلُ من طلبِ العلم إنْ صحَّتْ فيه النيّة"، أخرجه البيهقي[1].

وعن أبي بَكْرةَ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: "اُغْدُ عالمًا أو متعلِّمًا أو مُستمعًا أو مُحبًّا ولا تكنِ الخامسةَ فتهلِكْ". قال: الخامسةُ التي فيها الهلاك: *مُعاداةُ العلماء وبُغضُهم، ومَن لم يُحبَّهم فقد أبغَضَهم أو قارَب بُغضَهم، وفيه الهلاك*[2]، أخرجه البيهقي[3].

وعن مُعاذِ بن جَبَل رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "تَعلَّموا العلمَ، فإنّ تعلُّمَه لله خَشية وطلبَهُ عبادة ومُذاكرتَهُ تسبيحٌ والبحثَ عنه جهاد، وتعليمَه لمَن لا يَعلَمُه صدَقةٌ وبذْلَهُ لأهلِه قُربة؛ لأنه مَعالمُ الحلال والحرام، ومنارُ سَبيل أهل الجنة، وهُو الأنيسُ في الوَحْشة والصاحبُ في الغُربة والمُحدِّثُ في الخلوة، والدليلُ على السَّراءِ والضَّرّاء والسلاحُ على الأعداء والزَّينُ عند الأخِلّاء، يَرفعُ به أقوامًا فيجعلُهم في الخيرِ قادةً وأئمّة تُقتصُّ آثارُهم ويُقتدَى بأفعالهم ويُنتهَى إلى رأيهم وترغَبُ الملائكةُ في خُلّتِهم وبأجنحتِها تمَسُّهم، يستغفرُ لهم كلُّ رَطْب ويابس، وحيتانُ البحر وهوامُّه، وسِباعُ البرِّ وأنعامُه؛ لأنّ العلمَ حياةُ القلوب بينَ الجهل ومصباحُ الأبصار منَ الظلم، يَبلُغ العبدُ بالعلم منازلَ

(١) أخرج هذا الأثر لسفيان الثوري ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١١٩)، ويعضده رواية البغوي له في شرح السنة ١/ ٢٧٩، والله أعلم.

(٢) ما بين نجمين ألحقه أحدهم بخط آخر مخالف لخط الناسخ، ألحقه في الحاشية.

(٣) في شعب الإيمان (١٧٠٩).

الأخيار والدرجاتِ العُلى في الدُّنيا والآخرة، والفكرُ فيه يعدِلُ الصيامَ، ومدارستُه تعدِلُ القيامَ، به توصَلُ الأرحام، وبه يُعرَفُ الحلالُ من الحرام، وهُو إمامُ العمل والعملُ تابعُه، يُلهَمُه السُّعداء ويُحرَمُه الأشقياء". وهو حديثٌ مرفوعٌ رواه جميعُ الأئمة[(١)].

وعن الحسن، قال: كان الرجلُ إذا طلَبَ العلمَ لم يلبَثْ أن يُرى ذلك في تخشُّعِه وبصَره ولسانِه ويدِه وصلاتِه وزُهدِه، وإنْ كان الرجلُ لَيصيبُ البابَ من أبوابِ العلم فيعملُ به فيكونُ خيرًا له من الدنيا وما فيها لو كانتْ لهُ فجَعلها في الآخرة. أخرجه أبو عُمرَ[(٢)] بسندِه.

وعن أبي أُمَامةَ رضي اللهُ عنه[(٣)]، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "أيُّما ناشئٍ نشأ في طلبِ العلم والعبادة حتى كبِر وهُو على ذلك كتَبَ اللهُ له أجرَ سبعينَ صِدِّيقًا".

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢٦٨)، وأخرج المنذري قطعة منه في الترغيب والترهيب (١٠٧) واستغرب رفعه فقال: "رواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم من رواية موسى بن محمد بن عطاء القرشي، قال: حدثنا عبد الرحيم بن زيد العمي، عن أبيه، عن الحسن، عنه، وقال: هو حديث حسن ولكن ليس له إسناد قوي، وقد رويناه من طرق شتى موقوفًا. كذا قال رحمه الله، ورفعه غريب جدا والله أعلم".

(٢) في جامع بيان العلم وفضله (٣١٥) من طريق ابن المبارك، وهو عنده في الزهد والرقائق (٢٩).

(٣) كما في المعجم الكبير للطبراني ٨/ ١٢٩ (٧٥٩٠). وقال الهيثمي: "فيه يوسف بن عطية، وهو متروك الحديث". مجمع الزوائد (٥٠٦).

ورَوى الميانشيُّ القرشيُّ[1]، من حديثِ أنس رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إذا كان يومُ القيامة جاء أصحابُ الحديث بأيديهمُ المحابر، فيأمُرُ اللهُ تعالى جبريلَ أن يأتيَهم فيسألَهم: من هم؟ فيأتيهم فيسألُهم، فيقولون[2]: نحن أصحابُ الحديث، فيقولُ اللهُ تعالى لهم: ادخُلوا الجنّة، طال ما كنتم تُصَلُّونَ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم"، رواه القرطبيُّ في "تذكرتِه" [3].

وعن ابن عُمرَ رضي اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إذا كان يومُ القيامة وُضِعتْ منابرُ من نُور عليها قِبابٌ من نور، ثم ينادي منادٍ: أين الفقهاءُ وأين الأئمةُ وأين المؤذِّنون؟ اجلِسوا على هذه، فلا رَوْعٌ عليكم ولا حُزن، حتى يفرُغَ اللهُ فيما بينَه وبينَ العباد منَ الحساب"، رواهُ الطبرانيُّ[4].

ورُويَ في بعضِ الأخبار، أنّ العلماءَ إذا استَوَوْا على الصِّراطِ صارتْ وجوهُهم كالشَّمس الضاحية وأنوارُهم بين أيديهم، وبيدِ كلِّ واحدٍ منهم لواءٌ من

---

(١) سماه القرطبي مصدر التخريج في غير موضع من كتابه وسمى كتابه الذي ينقل منه، فقال: "أبو حفص عمر بن عبد المجيد القرشي، في كتاب الاختيار في الملح من الأخبار والآثار". التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ص ٩١٢ وغيرها. قلت: وله ترجمة في: تاريخ الإسلام ١٢/ ٧٣٦، والأعلام للزركلي ٥/ ٥٣ وسواهما.

(٢) في النسخة: فيقول.

(٣) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ص ٨٢٨.

(٤) في المعجم الكبير ١٢/ ٤٣٣ (١٣٥٨٤)، ولكن بلفظ مختلف في بعض مواضع.

نُور الجنّة يضيءُ لهم مسيرةَ خمس مئة عام، وتحتَ لواءِ العالِم كلُّ منِ اقتدَى به وعلَّمه وكلُّ مَن أحبَّه في اللهِ تعالى، وينادي منادٍ: هؤلاءِ أحبّاءُ الله، هؤلاء أولياءُ الله الذين هم خُلفاءُ الأنبياء، الذين علَّموا عبادَ الله، هؤلاءِ دعَوْا إلى الله، هؤلاءِ أئمّةُ الهدى، فإذا دَنَوْا منَ الصِّراط وُضِع على رأس كلِّ واحدٍ منهم تاجٌ من نُورِ الجنّة لو وُضِع ذلك التاجُ في السَّماءِ السابعة العُليا لَبلغَ نورُه إلى الأرض السابعةِ السُّفلى، ويُكسَى كلُّ واحدٍ منهم حُلّةً من حُلل الجنة لو نُشِرتْ تلك الحُلّةُ بين السَّماءِ والأرض لغطَّى[1] نورُها نورَ الشمس ولَمات الخلائقُ شوقًا إلى رؤيتها ولَامتلأتِ الأرضُ والسماءُ برائحة المسك، وتُنزلُ على رأس كلِّ واحدٍ منهم عِمامةٌ تقيهِ من شَرَر جهنَّم ومن حرِّ الشمس"[2]. أخرجه ابنُ عباس[3].

كما يشهدُ له قولُه تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [الإسراء: ٧١].

ومن حديث أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال[4]: "إنّ حَمَلةَ القرآن يُحشَرون يومَ القيامة على كُثْبانٍ من مِسك وأنوارُ وجوهِهم تُغشي الأبصار، فإذا بَلَغوا الصِّراطَ تلقَّتْهمُ الملائكةُ الذين وُكِّلوا بحَمَلة القرآن، فيأخُذونَ بأيديهم وتوضَعُ التِّيجانُ على رؤوسِهم والحُلَلُ على أجسادِهم، وتُقرَّبُ

---

(١) أي: لغلب.

(٢) الأثر في بستان الواعظين ورياض السامعين، لابن الجوزي، ص ٧٢ غير مسند.

(٣) كذا في النسخة، مع أن الخبر غير مسند.

(٤) كذا جاء في النسخة، مع أن الخبر غير مسند.

إليهم خيلٌ من نُور الجنة عليها سُروجُ المسكِ الإذفَر لُجُمُها من اللؤلؤ والياقوت، فيركبونها، فتطيرُ بهم على الصّراط ويجوزُ في شفاعة كلِّ واحدٍ منهم مئةُ ألفٍ ممّنِ استوجَب النار، ومنادٍ ينادي: هؤلاءِ أحبّاءُ الله، هؤلاءِ أولياءُ الله الذين قرَأوا كتابَ الله وعَمِلوا به، لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، هم أحبّاءُ الله، مَن أحبَّهم في الدنيا أحبَّه اللهُ اليوم"(١). أخرجه البيهقيُّ من طريق أبي أُمامة(٢).

ومن حديث أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "خِيارُ أُمتي علماؤها، وخيارُ علمائها رُحماؤها، أمّا وإنّ اللهَ تعالى يغفرُ للعالم أربعين ذنبًا قبلَ أن يغفرَ للجاهل ذنبًا واحدًا، إلا وإنّ العالمَ الرحيمَ يومَ القيامة يجيءُ وإنّ نورَه قد أضاء يمشي فيه بينَ المشرق والمغرب كما يضيءُ الكوكبُ الدُّرِّي"(٣).

ويشمُل جميعَ ما قيل قولُه تعالى: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩].

---

(١) الأثر في البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة الفاسي ٤/ ٥٤٠ غير مسند.

(٢) كذا في النسخة، مع أن الخبر غير مسند.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٨٨ وسواه.

فهرس محتويات

الجزء الأول

فهرس محتويات الجزء الأول

الجرعة الصافية والنفحة الكافية

الجزء الثاني

صفحة عنوان الناشر

الجرعة الصافية والنفحة الكافية

لمجدد عصره وفريد دهره الشيخُ الأستاذ المربّي أبو زينِ العابدينَ

المختارُ بنُ أحمدَ بن أبي بكر الكُنْتيُّ

الجـــزء الثاني

تحقيق

الأستاذ/ محمد ولد الشيخ

بسم الله الرحمن الرحيم

فصلٌ: في ترتيل القرآن والتقرُّبِ به إلى الله

رَوى أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ما تقرَّب المتقرِّبونَ إلى الله تعالى بأحبَّ إليه من كلامِه؛ لأنه حبلُه المتين ونورُه المُستبين وسبيلُه المستقيم والذِّكرُ الحكيم، مَن طلَبَ الهُدى من غيرِه ضلَّ ومَن طلَب التقرُّبَ إلى الله بسواهُ زلَّ، ومَن طلَب التعزُّزَ من غيرِ ما جاء به ذلّ، فهُو الذي لم تنتهِ الجنُّ حتى سمعتْه {فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ}" [الجن: ١ - ٢]. أخرجه الترمذيُّ[١] والبيهقيُّ[٢] والنَّسائيُّ بأسانيدَ كلُّها صِحاح[٣].

فينبغي للتالي أن يستحضرَ في ذهنِه عن تلاوتِه أنه المَعنيُّ بكلِّ خطابٍ فيه.

قال الغزاليُّ[٤] رحمه الله: ينبغي لقارئِ القرآن أن يُردِّدَ الآيةَ التي هو محتاجٌ إلى التفكُّر فيها المرّةَ بعدَ المرّة ولو ليلةً كاملة فقراءةُ آيةٍ بتدبُّرٍ وفَهْم خيرٌ من خَتم

(١) من حديث الحارث بن عبد الله الهمداني الأعور في سننه (٢٩٠٦).

(٢) في شعب الإيمان (١٩٣٥).

(٣) قال الترمذي عقبه: "هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال".

(٤) إحياء علوم الدين ٤/ ٤٣١.

بدون تدبُّرٍ وفَهْم، فإنّ تحتَ كلِّ كلمة منه أسراراً لا تنحصرُ ولا يوقَفُ عليها إلّا بتدقيق الفكر عن صفاءِ القلبِ والصِّدق في المعاملة.

وكذلك حُكمُ أحاديثِ الرسُول صلى الله عليه وسلم الواردةِ عنه صلى الله عليه وسلم؛ لأنه قد أوتيَ جوامعَ الكلم، فكلُّ كلمةٍ من كلماتِه بحرٌ من بحور الحِكمة، فإذا تأمَّله العالِمُ المُحقِّقُ حقَّ التأمُّل لم تنقطعْ عنه أمدادُه طولَ عُمُرِه. وإنِ اعتبرنا شرحَ آحادِ الآيات والأخبارَ لطال الميدان، ولَضاق عن نشرِ ذلك الأوان، ولكنْ تأمَّلْ قولَه صلى الله عليه وسلم: "إنّ رُوحَ القُدُس نفَثُ في رَوْعي أحبِبْ من أحببْتَ فإنك مُفارقُه، وعشْ ما شئتَ فإنك ميّت، واعملْ ما شئتَ فإنك مَجْزيٌّ به"[1]، فإنّ هذه الكلماتِ جامعةٌ لحُكم الأوّلينَ والآخِرين، وهي كافيةٌ للمتأمِّلين، فلو وقَفوا لمُطالعة معانيها وغَلَبَتْ على قلوبِهم أنوارُ اليقين لَاستغرقتْهم ولَحالتْ بينَه وبين الالتفاتِ إلى الدُّنيا بالكُليّة. وقال النوويُّ رضي اللهُ عنه: اعلمْ أنّ القرآنَ آكَدُ الأذكار وأفضلُها، فينبغي المداومةُ عليها ليلاً ونهاراً، ويحصُلُ له أصلُ القراءة بالآية القليلة، إذْ ليس المطلوبَ الإكثارُ بالقراءة سَرْداً وهَذْرَمةً، وإنما المطلوبُ القراءةُ بالتفكُّر والتدبُّر والخُشوع والخضوع.

---

(١) تخريج أحاديث الإحياء، للزين العراقي (١).

ونَقَل الباجيُّ[1] في "سَنن الصّالحين"[2]، عن محمد بن كعبٍ القُرظيِّ قال: لَأن أقرَأَ في ليلةٍ حتى أصبح بـ{إِذَا زُلْزِلَتِ} و{الْقَارِعَةُ} لا أزيدُ عليهما وأتردَّدُ فيهما أحبُّ إليَّ من أن أنثُرَ القرآنَ نثراً.

ونحوُه عن مجاهدٍ وغيرِه.

وعن ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، قال: ركعتانِ مُقتصِدتان في تفكُّر خيرٌ من قيام ليلةٍ والقلبُ ساه.

قال ابنُ أبي جَمْرَةَ رحمه الله: المُرغَّبُ فيه التدبُّر في القراءة ولو قلَّتْ، وهو خيرٌ من كثرة القراءة بلا تدبُّر.

وقال القُشَيْريُّ[3] في "رسالتِه": مَن أقرأَ القرآنَ في سبع فذلك حسَن، والتفهُّمُ معَ قلّة القراءة أفضلُ، رُويَ أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يقرأْهُ في أقلّ من

(١) أبو الوليد، سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي الباجي من باجة الأندلس (ت٤٧٤هـ): إمام الأندلس، فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث، ومتكلم أديب شاعر، وصاحب تصانيف. قلائد العقيان، للفتح بن خاقان، ص ١٨٧، وترتيب المدارك وتقريب المسالك، لأبي الفضل اليحصبي ٨/ ١١٧، ومعجم الأدباء، لياقوت (٥٦٤)، وإكمال الإكمال لابن نقطة (٥٥٥)، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٣٦٥، والأعلام للزركلي ٣/ ١٢٥ وسواها.

(٢) سنن الصالحين وسنن العابدين، تحقيق: إبراهيم باجس، دار ابن حزم ببيروت، ١٢٤٢هـ .

(٣) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشير بن كعب، الإمام أبو القاسم، زين الإسلام (ت٤٦٥هـ): شيخ خراسان في عصره زهدًا وعلمًا بالدين،

ثلاث[1]. واختلف اختيارُ السَّلفِ والخَلَف في الهذِّ والترتيل، فمن رأى الهذَّ أرادَ: لاستكثارِ الأجر وحَوْز الحَسَنات بعدَد الحروفِ والكلمات، ومَن رأى الترتيلَ ذهبَ إلى تفهُّم معانيه والوقوفِ عندَ حدودِه وتدبُّر آياتِه وتحسين تلاوتِه كما أمَر اللهُ سبحانه نبيَّه صلى الله عليه وسلم فقال: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل: ٤]، وهو اختيارُ الأكثر، ولا اختلافَ أنّ الهذَّ المؤدِّي إلى لَفِّ كلماتِه وتركِ إقامة حروفِه غيرُ مُستحسَن ولا جائز، فمَن أجاز الهذَّ فإنّما هو لمن لم يكنْ حظُّه غيرَ مجرَّد التلاوة، وأمّا مَن فَتَح اللهُ سبحانه عليه بعلمِه وتلاه بالتفكُّرِ والاعتبار وتفهُّم معانيه واستثارة حِكَمِه فلا مِريةَ أنّ تلاوةَ هذا على مُكْث وإن قلَّ ما يتلوه أفضلُ من خِتماتِ غيرِه.

وفي "موطّأِ مالك"[2]، عن يحيى بن سعيد، قال: كنتُ أنا ومحمدُ بن يحيى بن حبّانَ جالسيْن، فدعا محمدٌ رجلاً فقال: أخبِرْني بالذي سمعتَ من أبيك، فقال الرجل: أخبَرَني أبي أنه أتى زيدَ بنَ ثابت فقال لهُ: كيف تَرى في قراءةِ القرآن في

وكان ثقة، حسن الموعظة مليح الإشارة قاصًّا، عارفًا بالأصول على مذهب الأشعري، والفروع على مذهب الشافعي. تاريخ بغداد ١٢/ ٣٦٦، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٢١٧، والأعلام للزركلي ٤/ ٥٧ وسواها.

(١) يأتي الكلام عليه قريبًا.

(٢) موطأ مالك، رواية أبي مصعب الزهري (٢٤١).

سبع؟ قال زيدٌ: حَسَن، ولَأنْ أقرأَ في نصفِ شهر أو عشرينَ أحبُّ إليّ، واسألْني: لمَ ذلك؟ قال: فإني أسألُك، قال زيد: لكيْ أتدبَّرَه وأقفَ عليه.

ولمّا ذَكَر ابنُ رُشد حديثَ "الموطأ" هذا في "البيان والتحصيل"[1]، قال: وإنّما رأى زيدُ بنُ ثابت قراءةَ القرآن في نصفِ شهرٍ أو عشرينَ يوماً أحبَّ إليه من قراءته في سَبْع وإن كان للقارئ بكلِّ حرفٍ عشْرُ حَسَنات فبالألفِ من {الْحَمْدُ} عشْرُ حسَنات وباللام عشْرٌ وبالحاءِ عشْرٌ إلى آخرِ الحروف؛ لأنّ الحسَنةَ تُضاعَفُ إلى سبعِ مئة، فرجا أن تكثُرَ حسَناتُه إذا قرأ القرآنَ في نصفِ شهرٍ أكثرَ من حسَناتِه إذا قرأه في سَبْع لتضعيفِ الحسَناتِ لهُ في قراءتِه من تدبُّره.

وهُو كما قال؛ لأنّ تحسينَ العمل مطلوب، قال مولانا: ليبلوكم عملاً ولم يقُلْ ربُّكم: أكثرُ عملًا، قاله غيرُ واحدٍ من العلماء.

وقد روى الترمذيُّ[2] وغيرُه، عن عبد الله بن عمرٍو رضي اللهُ عنهما، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "لم يفقَهْ مَن قرأ القرآنَ في أقلَّ من ثلاث"، قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

---

(١) البيان والتحصيل، لابن رشد ١٧/ ٤٩٨.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٤٩)، وابن ماجة (١٣٤٧)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وفي صحيح صحيح مسلم ١٨٢- (١١٥٩)، من حديث

قال الغزاليّ[1]: اعلمْ أنّ للقرآنِ عاداتٍ مختلفةً في الخَتم، وأوْلى ما يُرجَعُ إليه في التقديرات قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقد قال[2]: "مَن قرأَ القرآنَ في أقلَّ من ثلاثٍ لم يفقَهْه"؛ لأنّ الزيادةَ عليه تمنعُ الترتيل، وهو مُستحبٌّ لأنّ المقصودَ من القراءة التفكُّرُ، والترتيلُ مُعينٌ عليه، ولذلك نعتَتْ أمُّ سَلَمَةَ رضي اللهُ عنها قراءةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فإذا هي تنعَتُ قراءةً مُفسَّرةً حرفاً حرفاً، والترتيلُ مستحَبٌّ في حقِّ الأعجميِّ الذي لا يَفهم؛ لأنّ ذلك أقربُ إلى التوقير والاحترام وأشدُّ تأثيراً في القلبِ منَ الهَذْرمةِ والاستعجال.

وقد كرهتْ جماعةٌ الخَتمَ في ليلةٍ واحدة يوم وليلة، ومن كتابِ ابن المبارك في "رقائقِه"[3]: قال إسماعيلُ، عن أبي المتوكِّل الناجيّ، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قام ليلةً بمئةٍ من القرآن يُكرِّرُها على نفسِه حتى أصبح.

ونَقَل عِيَاضٌ[4]، عن أبي إسحاقَ الجِبْنِيانيِّ[1]، أنه بقي في آيةٍ سنةً لم يتجاوزْها، وهي قولُه تعالى: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} [الصافات: ٢٤].

عبد الله بن عمرو بن العاص أيضًا، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بأشياء كان من جملتها قوله له: "فاقرأه في كل سبع، ولا تزد على ذلك"، الحديث..

(١) في الإحياء ١/ ٢٧٥ وما بعدها.

(٢) كذا.

(٣) الزهد والرقائق لابن المبارك (١٠٤).

(٤) في "المدارك"، كما في تفسير الثعالبي ٥/ ٢٦.

وروى ابنُ المبارك في "رقائقِه"[2] بسنده، أنّ تَميماً الداريَّ رضي الله عنه بات ليلةً إلى الصباح يركعُ ويسجُد ويُكرِّرُ هذه الآيَةَ: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الجاثية: ٢١]- الآيَةَ- وهُو يبكي.

وإنّي أُحبُّ أن أحُضَّك على خمس: الاستماع لتُدركَ به رُتبةَ الفهم عن الله عزَّ وجلَّ في كلِّ ما دعاك إليه، فإنه تعالى وَعَدَ في كتابِه، وهو لا يُخلفُ الميعاد، أنّ من استمع كما يحبُّ اللهُ تعالى ويرضى كان له فيما يسمَعُ عظةٌ وذكرى لمن كان له قلبٌ شهيد[3]، قال مجاهدٌ: الشاهدُ: القلبُ[4]، لا يُحدِّثُ نفسَه بشيءٍ سوى ما يسمَعُه

(١) تحرفت هذه النسبة في النسخة: الجياني، والتصويب من مصادر ترجمته والخبر الذي نقله المصنف عنه فيها. وهو: إبراهيم بن أحمد بن علي بن مسلم البكري الجِبْنِياني: أحد أئمة المسلمين، وأبدال أولياء الله الصالحين، مجمع على فضله وورعه، ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٦/ ٢٢٢، وتاريخ الإسلام ٨/ ٨٠٨، وتوضيح المشتبه، لابن ناصر الدين ٣/ ٢٣٠، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمخلوف (٢٦٠). والجِبْنِياني، قال في "التوضيح": "نسبة إلى: جِبْنِيَانة، بكسر الجيم ثم موحدة ساكنة ثم نون مكسورة تليها مثناة تحت ثم ألف ثم نون مفتوحة ثم هاء: من بلاد المغرب".

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك (٩٤).

(٣) يعني قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧].

(٤) تفسيره ١/ ٦١٥.

من عجائبِ القرآن ودلائلِه القاهرة وحِكَمِه الباهرة إلّا كان له في ذلك ذكرى كما قال عزَّ وجلَّ: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥].

وقال سبحانه: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل: ٤]، والترتيلُ عبارةٌ عن التمهُّل والتفريق بينَ الحروف ليجدَ الفكرُ فُسحةً إلى النظر وتفهُّم المعاني، وبذلك يرِقُّ القلب ويفيضُ عليه النورُ والرحمة، قال اللهُ تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٤]، وفي الصَّحيح[١] أنّ قراءةَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم كانت بيِّنةً مترسِّلةً لو شاء أحدٌ أن يعُدَّ حروفَها لَعدَّها؛ لأنّ مَن قرأهُ بالتفهُّم كان ذلك أوقرَ وأقرَّ، وأجلَّ وأهيبَ في النفس، وكذلك في السَّماع، وليتنبَّهَ بذلك على حِكَمِه وعجائبِه ويقفَ على دقائق علومِه، وربّما دعاهُ ما يَمُرُّ به من ترغيبٍ وترهيب إلى الزيادةِ في خشوعِه والإقبال على طاعتِه والانتقال عن معصيتِه والتجديدِ لتوبته، قال ابنُ رُشْد: مَن قرأ القرآنَ من غير تفهُّم فمَثَلُه كمَثَل الحمار يحملُ أسفاراً. وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "إذا قام أحدُكم من اللّيل فليجهَرْ بقراءتِه، فإنّ الملائكةَ وعُمّارَ الدار يستمعونَ إلى قراءتِه ويُصلُّونَ بصلاتِه"[٢].

---

(١) في صفة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم انظر: البخاري (٤٢٨١) وعقب (٤٨٣٤)، ومسلم ٢٣٧- (٧٩٤) عن عبد الله بن مغفل المزني، ثم: البخاري (٥٠٤٥)، و(٥٠٤٦)، عن أنس.

(٢) أخرجه البزار في مسنده (٢٦٥٥)، وتكلم عليه الزين العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١).

ومنَ الآدابِ المطلوبة: تحسينُ القراءة بترديد الصّوتِ من غير تطريبٍ ولا تمطيطٍ مُفْرِط يُغيِّرُ النَّظْم، فإنّ ذلك سُنّة، قال صلى الله عليه وسلم: "زَيِّنوا القرآنَ بأصواتِكم"(١)، وقال صلى الله عليه وسلم: "ما أذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصَّوت يتغنَّى بالقرآن يجهرُ بهِ"، أخرجَه البخاريُّ ومسلم(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: "ليس منّا مَن لا يتغنَّى بالقرآن"(٣)، يريدُ الترنُّمَ وترديدَ الألحان. وهذا التأويلُ أقربُ عندَ أهل اللّغة من تأويل من تأوَّلهُ بالاستغناء.

قال محمدُ بن كعب: مَن بَلَغَه القرآنُ فكأنّما كلَّمه اللهُ عزَّ وجلّ، قال اللهُ تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: ١٩]، وإذا كان ذلك كذلك فلا ينبغي للمؤمن المحقِّق أن يتَّخذَ دراستَه عملاً بل يقرأُه كما يقرأُ العبدُ كتابَ مولاهُ الذي كتَبَهُ إليه ليتأمَّلَه ويعملَ بمُقتضاه، ولذلك قال بعضُ المحقِّقين: هذا القرآنُ رسائلُ أتتْنا من قِبَل ربِّنا سبحانه بعهودِه نتدبَّرُها في الصَّلوات ونقفُ عليها في الخَلَوات ونتعبَّدُها في الطاعات بالسُّنَن المتَّبَعات، ومهما تمَّت معرفةُ العبد كانتِ الخشيةُ أغلبَ الأحوال على قلبِه.

---

(١) عن البراء بن عازب، وهو في مسند الطيالسي (٧٧٤)، وفضائل القرآن للقاسم بن سلام، ص ١٦٠، ومسند ابن الجعد (٢٠٧٧)، و مسند أحمد (١٨٤٩٤) وغيره، وفيه مزيد تفصيل وتخريج.

(٢) انظر: الجمع بين الصحيحين، للحميدي ٣/ ٦١ (٢٢٤٢) ففيه تفصيل مغنٍ.

(٣) رواه البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة.

ومن كتابِ "الصَّفوة"[١] للجوزيّ، قال: كانت قراءةُ الفُضَيل حزينةً شجِيّةً مترسِّلةً كأنه يُخاطبُ إنساناً وإذا مرَّ بآيةٍ فيها ذكرُ الجنة يردِّدُها ويسأَلُ، وكان يُلقَى له حصيرٌ باللّيل في مسجدِه فيُصلّي من أول الليل ساعةً حتى تغلِبَه عيناهُ فيُلقي نفسَه على الحصير فينامُ قليلاً ثم يقومُ، فإذا غَلَبَهُ النومُ نام، ثم يقومُ، هكذا حتى يُصبح.

ولمّا ذكر ابنُ أبي جَمْرةَ[٢] رحمه اللهُ قَصصَ القرآن قال: قال علماؤنا: إن كانتِ القصّةُ تدُلُّ على عمل خير فقد طَلَب منك [فعلَه][٣] بالضِّمن، وإن كانت تدُلُّ على تركِ شرّ فقد طَلَب منكَ تركَهُ بالضِّمنِ أيضاً، ولذلك قالت عائشةُ رضي اللهُ عنها في صفتِه صلى الله عليه وسلم: "كان خُلُقُه القرآن"[٤]، أي: كان يمشي في جميع شأنِه على ما دَلَّ عليه القرآنُ وعلى أسلوبِه.

---

(١) صفة الصفوة (٢١٨).

(٢) لعله- والله أعلم- عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، أبو محمد (ت٦٩٥هـ): من العلماء بالحديث، مالكي. أصله من الأندلس، ووفاته بمصر. ذكره الزركلي في الأعلام ٤/٨٩ ولم أر غيره يذكره.

(٣) زيادة مقتضاة أخلت بها النسخة.

(٤) أخرجه القاسم بن سلام في فضائل القرآن، ص ١١٢، وأحمد (٢٤٦٠١) و(٢٥٣٠٢) و(٢٥٨١٢)، وفيه مزيد تخاريج.

ومن كتابِ "البيان عن تلاوة القرآن" لأبي عُمرَ بن عبد البَرّ، وعن إبراهيمَ التَّيْميِّ، قال: قال عبدُ الله[1]: مَن قرأ القرآنَ كان له بكلِّ حرفٍ زوجةٌ من الحُور العِين.

وسُئل أبو هريرةَ رضي الله عنه: أيُّ الناس أرفعُ درجةً في الجنّة؟ قال: حَمَلةُ القرآن، يُجاءُ بحامل القرآن فيقالُ له: اقرأْ وارقَ فإنّ لك بكلِّ آيةٍ درجةً في الجنّة، فتنتهي الآياتُ عندَ أعلى درجةٍ من درجاتِ الجنّة. أخرجه البيهقيُّ وابنُ ماجةَ بإسناد مرفوع.

وعن حبيبٍ، عن يزيدَ بن رافع، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَن قرأ مئتيْ آيةٍ في ليلة فقد أدَّى حقَّ القرآن، ومَن قرأ ثلاثَ مئة آيةٍ فكأنما أنفقَ قِنطاراً في سبيل الله، ومن قرأ ألفَ آيةٍ في ليلة ضحِك اللهُ إليه، ومن خَتَم القرآنَ صلَّى عليه سبعونَ ألفَ مَلَك وأصاب كلُّ قريبٍ منهُ خيراً كثيراً"، أخرجه إبراهيمُ بن إسحاقَ في كتاب "النصائح".

و"إنّ البيتَ الذي يُقرأُ فيه القرآنُ لَنورٌ يتراءاهُ أهلُ السَّموات ويعرفونَهُ، فإذا مات فَقَدوا ذلك النُّورَ فيَسألون عنهُ فإذا قيل لهم: قد مات، ترحَّموا عليه ودعَوْا له بخير، فتُشيِّعُه الملائكةُ من السماءِ إلى السماءِ حتى تُصلِّيَ على رُوحِه في الأرواح ثم

---

(١) يروى هذا الأثر عن عمر لا عبد الله ابنه، أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦١٦)، وسواه.

تستقبلُ الملائكةُ الحافظيْنِ اللذيْنِ كانا معَهُ فيُعزُّونَهما، ثم تستغفرُ له الملائكةُ إلى يوم القيامة"، أخرجه ابنُ ماجةَ والترمذيُّ(١).

وما مِن رجُل تعلَّم كتابَ الله تعالى ثم صلَّى ساعةً من اللّيل إلّا أوصَتْ به تلك الساعةُ الليلةَ المُقبلةَ إنِ انتبَه لساعتِه وأن تكونَ عليه خفيفةً. رواهُ صاحبُ كتاب "الترغيبِ والترهيب".

وما مِن ليلةٍ يقومُها المؤمنُ إلّا سَجَدتْ لله تحتَ العرش ودعَتْ لهُ وأثنَتْ عليه بين يدَي الله وأُجيبتْ واكتسبت نوراً وبهاءً.

رُويَ أنّ رجلاً من سَلَف هذه الأُمّة كان له مِحرابٌ يُصلِّي فيه من الليل، فغلبتْه عيناهُ ليلةً فنام، فلم يستيقظْ حتى السَّحَر، فبينما هو نائمٌ إذْ رأى سبعَ جَوارٍ ستٌّ منهنَّ كأنهنَّ البدورُ السافرة لم يرَ مثلَهنَّ حُسناً وجمالاً وقدّاً واعتدالاً عليهنّ من جميع الحَلي والحُلَل، مُتضمِّخاتٍ بالمِسك وأنواع الطِّيب، وإذا السابعةُ سوداءُ شَوْهاءُ قَرعاءُ مُنتنةُ الرائحة عاريةٌ عن الحُلَل قد شَوَّه اللهُ خِلقتَها، وقال لها: ما لكِ يا جاريةُ قد شَوَّه اللهُ خَلقَكِ بينَ صَواحباتِك؟ فقالت لهُ: أنا ليلتُك هذه التي نمتَ فيها، ثم أنشأتْ تقولُ:

اضرَعْ إلى الله في ردِّي إلى حالي ... فأنت شوَّهتَ شكلي بين أشكالي
لا ترْقُدنَّ الليالي ما حييتَ فإنْ ... نمتَ الليالي فهنَّ الدهرَ أمثالي

---

(١) أخرج البزار في مسنده (٢٦٥٥) نحوه من حديث معاذ بن جبل.

وقد أردتَ بخيرٍ إذْ وُعِظتَ بنا   أبشِرْ فأنتَ منَ المولى على بالِ

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، أنه قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "خيرُكم مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّمهُ لوجهِ الله"، أخرجه النَّسائيّ[1]. وعنهُ أيضاً، قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "خيرُكم الحالُّ المُرتحِل"، قلنا: وما الحالُّ المُرتحِلُ يا رسُولَ الله؟ قال: "الذي كلّما خَتَم القرآنَ ابتَدأهُ"، أخرجه السُّيوطيُّ في "الجامع"[2].

ومن حديثِ أنسٍ، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لو كان هذا القرآنُ في إهابٍ لَمَا احترق، فكيف إذا كان في صدرِ رجُل مؤمنٍ؟ اقرأوا إن شئتُم: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}" [العنكبوت: ٤٩]، أخرجهُ النَّسائيُّ)[3] وغيرُه.

---

(١) في السنن الكبرى (٧٩٨٣) وفي فضائل القرآن، له (٦٢) أيضًا، وهو في البخاري (٥٠٢٧) و(٥٠٢٨)، كلاهما من حديث عثمان بن عفان، وليس عندهما قوله: "لوجه الله".

(٢) الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (٣٣٢)، وهو في سنن الترمذي (٢٩٤٨) وقال فيه: "هذا حديث غريب، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه، وإسناده ليس بالقوي".

(٣) أخرج نحوه أحمد مسند أحمد ط الرسالة (١٧٣٦٥) عن عقبة بن عامر.

ومن حديث أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن حفِظَ القرآنَ عن ظهرِ قلبٍ *ثم تخشى بشيءٍ*[١] من سُنّتي فقد أوتي النُّبوةَ إلّا أنه لا يوحَى إليه"، أخرجه الطبرانيُّ في "الأوسط"[٢].

ومن حديثِ معاذِ بن جَبَل رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "حاملُ القرآن هو حاملُ لواءِ الإسلام"، وفي رواية: "مَن حَمَل القرآنَ فقد حَمَل لواءَ الإسلام"، أخرجَهُ الطبرانيُّ في "الأوسط"[٣].

فصل: في إثم مَن تعلَّم القرآنَ ولم يعملْ بهِ، ومَن نَسِيَهُ بعدَما حفِظَه

قال صلى اللهُ عليه وسلم: "أسعدُ الناس بهذا القرآن منِ امتثل أوامرَهُ واجتنبَ نواهيَه ووقَفَ عندَ حدودِهِ ولو لم يحفظْ منهُ سُورةً، وأشقى الناس بالقرآن مَن أقام حروفَه وضيَّع حدودَه"، أخرجهُ ابنُ ماجةَ من حديث أبي هريرةَ[٤] رضي اللهُ عنه.

ومن حديثِ حُذَيْفةَ بن اليَمان رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنه سيأتي من بعدِكم أقوامٌ يَحقِرُ أحدُكم صَلاتَه إلى صلاتِهم وصيامَهُ

---

(١) كذا هذه العبارة ما بين نجمين في النسخة الأصل.

(٢) في "المعجم الكبير" للطبراني ١٣/ ٦٤٩ (١٤٥٧٥) نحوه، عن عبد الله بن عمرو لا أبي هريرة.

(٣) من كلام الفضيل بنحوه في حلية الأولياء ٨/ ٩٢.

(٤) انظر: فضائل القرآن للقاسم بن سلام، ص ١٢٧.

إلى صيامِهم، يقرأونَ القرآنَ لا يُجاوزُ حناجرَهم يُقيمونَ حروفَه كما يُقيمُ أحدُكم القدحَ، ويُضيعونَ حدودَه، تتجارى بهمُ الأهواءُ كما يَتجارى الكلبُ بصاحبِه، يمرُقونَ من الدِّين كما يَمرُقُ السَّهمُ منَ الرَّمِيّة"، أخرجهُ النَّسائيُّ وابنُ ماجةَ والتّرمذيُّ[1] وغيرُهم، وهو حديثٌ مرفوع.

ومن حديثِ البراءِ بن عازب، قال: قال رسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم: "لا ينبغي لحامل القرآن أن يلهُوَ معَ مَن يلهو، ولا أن يجهَلَ معَ مَن يجهَل، فإذا فَعل قال لهُ القرآنُ: ويلَك! أمَا تستحيي منّي تلهو معَ اللاهِين وتجهَلُ معَ الجاهلينَ وأنا بيْنَ ظَهرانيْكَ؟"، رواه الترمذيّ وغيرُه.

ومن حديثِ عليٍّ رضي اللهُ عنه: "القرآنُ لرجُليْن، فهو لأحدهما شافعٌ مُشفَّع، وعلى الآخَر ماحلٌ مُصدَّق، فالذي أقام حدودَهُ فسَهِر ليلَه وصام نهارَه وانتهى عندَ ما نَهاهُ عنهُ وامتثل أوامرَه وزهَّدَهُ في الدُّنيا ورغَّبه في الآخِرة وأورَثَهُ خَشيةَ الله والحياءَ منه، فإذا بُعِث من قبرِه لقيَهُ القرآنُ على أحسنِ صورة، فيقولُ لهُ: أتعرفُني؟ فيقولُ له: لا، فيقولُ له: إن كنتَ لا تعرفُني فأنا أعرفُك فلطالما أسهَرتُك ولطالما أظمَأتُكَ ولطالما كففْتُك عن شَهَواتِ نفسِك، فاليومَ أُكرِمُك

---

(١) أما ابن ماجة فأخرجه في سننه (١٦٩)، عن أبي سعيد، وأما الترمذي والنسائي فلم يخرجاه، وهو في الصحيحين: البخاري ومسلم، وانظر: الجمع بين الصحيحين، للحميدي ٢/ ٤١٩ (١٧٣٦).

كما أكرمتَني في دار الدنيا، فيشفعُ له عندَ الله، فإذا شَفَع له يقول: يا ربّ، توِّجْهُ بتاج الكرامة، فيُتوَّجُ بتاج الكرامة، ثم يقول: يا ربِّ، رَدِّهِ برداءِ العزّ، فيُرَدِّيهِ برداءِ العزِّ، ثم يقولُ: يا ربِّ، اكسُهُ حُلّةَ الكرامة، فيكسوهُ حُلّةً تضيءُ ما بينَ المشرقِ والمغرب، ثم يقول: يا ربِّ، احملْهُ، فيؤتى بفَرش منَ الياقوت وسَرجُها ولجامُها من الذّهبِ الخالص فيَركبُها، فيُشيِّعُه القرآنُ في سبعينَ ألفاً منَ الملائكة حتى يُدخلَهُ منزلَه فيُهنِّئُه ثم ينصرفُ، وأمّا الثاني فإذا خَرَج من قبره لقِيَه القرآنُ ومعهُ قبائحُ أعمالِه، فيقول: يا ربِّ، هذا فلان، فيُسمِّيهِ بأبغضِ الأسماءِ إليه، بئسَ العبدُ هو، فلطالما أهانَني وضيَّع أوامري واقتحم ما نهيْتُهُ عنه، لا يحتشمُني ولا يُوقِّرُني، يجهَلُ معَ الجاهلين ويلهو معَ اللاهِين، قد جَعَلني وراءَ ظهرِه نَسْياً مَنْسِيّاً، فوكِّلْني به لأُهينَهُ اليومَ كما أهانني، فيقولُ اللهُ تعالى: قد وكَّلتُكَ عليه فشأنَكَ به، فيأمُرُ به فيُجعلُ على رأسِه تاجَ الخِزي والنَّدامة، فإذا جُعل على رأسِه أُمِر لهُ بسِربالٍ من قَطِران فيكسُوهُ إياه، ثم ينادي عليه ألَا إنّ فلاناً شقيَ شقاوةً لا سعادةَ بعدَها، وإنّ اللهّ قد أهانهُ اليومَ كما أهان كتابَه في دار الدُّنيا، فيأخُذ القرآنُ بناصيتِه فيقودُه إلى النار وقدِ احتَوشَتْهُ زَبانيَةُ العذاب يأخُذونَ بناصيتِه تارَةً فيسحبونَه على قفاه ويأخُذون بقدميْهِ تارَةً فيسحبونَه على وجهِهِ حتى يُلقوه في النار. أخرجه البيهقيُّ بسندٍ مرفوع.

ورُويَ أنّ القرآنَ إمّا أن يكونَ يومَ القيامة شافعاً مُشفَّعاً أو ماحلاً مُصدَّقاً[١]، وهو إمّا حُجّةٌ لكَ أو[٢] حُجّةٌ عليك"، رواه البخاريُّ[٣] في "الجامع الكبير" بسنَدٍ مشهور.

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ البقرةَ وآلَ عمرانَ تأتيانِ يومَ القيامة وكأنّهما غَمامتان أو غَيابتان تُجادلانِ عن قارئهما يومَ القيامة"، وفي رواية: "عن صاحبِهما". رواه الشيخانِ[٤] وغيرُهما.

ومن حديثِ أبي هريرةَ، أنّ رسُولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم قال: "السَّجدةُ وسُورةُ المُلك تُجادلانِ الفُتّانَ، فتجلسُ إحداهما عندَ رجليْه والأُخرى عند رأسِه، كلما أتَوْهُ يقولانِ: لا سبيلَ إليه، حتى إذا يئسوا انصَرفوا وتركوهُ"، أخرجه السُّيوطيُّ[٥] وغيرُه، وهو حديثٌ مشهور.

---

(١) انظر تفصيلًا نافعًا في هذا اللفظ وروايتيه ورواتها في تخريج أحاديث الكشاف، للزيلعي (٦٤٩).

(٢) في النسخة: "أم"، ولا تسوغ.

(٣) بل هو في مسلم ١ - (٢٢٣)، عن أبي مالك الأشعري.

(٤) هو في مسلم وحده أيضًا ٢٥٢ - (٨٠٤) عن أبي أمامة الباهلي، و٢٥٣ - (٨٠٥) عن النواس بن سمعان الكلابي، وانظر: الجمع بين الصحيحين ٣/ ٤٦٤ (٣٠٠٦).

(٥) في مصنف عبد الرزاق (٦٠٢٩) أثر من كلام عطاء، بنحوه.

ومن حديثِ أبي ذرٍّ رضي اللهُ عنه، أنّ حاملَ القرآن إذا اضطجَع في قبره وانصَرف أصحابُه أقبل عليه الفُتّانُ فيَستوحشُ ويُظلمُ عليه قبرُه، فيأتيهِ القرآنُ في أتمِّ صُورةٍ وأحسنِ زِيّ، فيُدفعُ في القبرِ بضَبْعيْهِ حتى يتجافى عنه مدُّ بصَرِه، ويضيءُ عليه قبرُه حتى يمتلىءَ نوراً، ثم يقولُ لهُ: أتعرفُني؟ فيقولُ: لا، إلّا أنك مباركُ الطَّلعةِ، فيقولُ، أنا كتابُ الله الذي كنتَ تقومُ بي في الدَّياجِر، وكنتُ أُظمِئُك في الهواجر، فإنه لا خوفٌ عليك، وإنّ الفُتّانَ أتَوْكَ فاثبُتْ على ما كنتَ عليه ثبَّتَكَ الله، ثم يُلقّنُه حُجَّتَه ثم يقولُ له: لا يَهُولَنَّك ما ترى من أمرِ الملكيْنِ فإنّي معَك واللهُ مُعينٌ لك، فيأتيهِ المَلَكانِ وقدِ اطمئنَّ واستأنَسَ وذهبَ عنهُ الدَّهَشُ، فإذا أقاما[1] عليه يقولُ أحدُهما لصاحبِه: ما أرَبُنا إليه وقد لُقِّنَ حُجّتَه؟ فيسألانِه برِفق فيُجيبُهما فيقولانِ لهُ: نمْ صالحاً، فقد علمنا أنك موفَّق، فيَفرُشانِ لهُ في قبرِه وينشُران عليه نَثراً من رَيْحان الجنّة، ويفتحانِ لهُ باباً إلى الجنّةِ فيقولانِ لهُ: هذا مقامُك حتى يبعثَك اللهُ إليه، فيمتلئُ قبرُه عليه خُضْرةً ورياحينَ، وذلك قولُه صلى الله عليه وسلم: "القبرُ إمّا روضةٌ من رياض الجنّة أو حُفرةٌ من حُفَر النار"، رواه صاحبُ "شرح الصُّدور في أخبار الموتى والقبور"[2].

---

(١) كذا.

(٢) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (١) وعزاه إلى "جامع الترمذي"، وهو فيه (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد، وقال: "هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه".

وإذا كان غيرَ عاملٍ بالقرآن فأولُ مَن يأتيه مَلَكٌ يقالُ له: رُومان، فيطأُ على قبرِه فيُهيرُهُ[١] عليه، ثم يضُمُّه القبرُ ضمّةً تختلفُ منها أضلاعُه، فتقولُ لهُ الأرض: كنتُ أُبغِضُك وأنت على ظهري فكيف إذا صرتَ إلى بطني؟ فيُدركُه الدَّهَشُ، ثم يتموَّجُ به القبرُ كما تتموَّجُ اللُّجّةُ براكبِها، ثم يأتيه القرآنُ فيُوبِّخُه ويقول: لو قمتَ بأمرِه أياماً قلائلَ لثبَّتُّكَ اليومَ، ولكن سترى ما يُفعَلُ بك، فيأتيه عملُهُ السُّوءُ في أقبح صُورة، فيزدادُ قبرُه عليه ظُلمةً إلى ظُلمتِه وضيقاً إلى ضيقِه وغَمّاً إلى غمِّه وهَوْلاً إلى هَوْلِه، فيبغتُه المَلَكانِ وهو كذلك فيُتَعتِعانِه ويُتلتِلانِه ويسألانِه بعُنف وهما بأفظع صورة، أصواتُهما كالرَّعدِ القاصف وأنفاسُهما كالريح العاصف، يَجُرّانِ شعورَهما ويَخرقانِ الأرضَ بأنيابِهما، أبصارُهما كالشمس حين يبدو حاجبُها، فيتلجْلَجُ، فلا يستطيعُ جواباً، فيضربانِه بمِرزَبةٍ تتبدَّدُ أعضاؤه ويبلُغُ منها ستينَ قامةً في الأرض، فيصيحُ صَيْحةً يسمعُها كلُّ شيء غيرُ الثَّقلَيْن، ولو سمِعوها ما طابَ لهم عيشٌ بعدَها أبداً، ولا يزالانِ يُعذِّبانِه أربعينَ صباحاً، كلما رَفَعوا المِرزَبةَ عاد كما كان، حتى إذا انتهتِ الأربعونَ يوماً فَرَشُوهُ من النار وسَمَلوا عينيْهِ بها وسَمَروا فقراتِ ظهرِه بمساميرَ من حديدِ النار، ثم يفتحانِ له باباً إلى الجنّة، ثم يقولانِ لهُ: هذا مقامُك لو ثبَّتك اللهُ، ثم يُغلقانِه ويفتحانِ له باباً إلى النار فيقولانِ: هذا مصيرُك حتى يبعثَكَ اللهُ إليه، فيجدُ من نَتَنِها وسمومِها، ثم يوكِّلانِ شجاعاً

---

(١) كذا.

أسودَ ينهَشُه في قبرِه ويُفزعُه حتى يُبعَث، فإذا بُعث أتاه القرآنُ كما مَرّ. أخرجهُ أئمةُ الصِّحاح بأسانيدَ جَمّةٍ ورواياتٍ يزيدُ بعضُها على بعض[١].

روى الترمذيُّ[٢]، عن أنسٍ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "عُرِضتْ عليَّ أجورُ أُمّتي، حتى القَذاةُ يُخرجُها الرجُلُ من المسجد، وعُرِضتْ عليَّ ذنوبُ أُمّتي فلم أرَ ذنباً اكبرَ من سُورة منَ القرآنِ أو[٣] آيةٍ أوتِيَها رجلٌ ثم نَسِيَها"، قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرُفه إلّا من هذا الوجه.

ورَوى أبو بكرٍ بنُ أبي شيْبَةَ وابنُ حبيب، عن طلْق بن حبيب قال: من تعلَّم القرآنَ ثم نسِيَه من غيرِ عُذرٍ حُطَّ بكلِّ آيةٍ درجة.

ورُويَ عن عِكرمةَ ومُجاهد، أنهما قالا: إذا عُلِّم الإنسانُ القرآنَ ثم تَرَكَه، أتاه نورٌ يومَ القيامة فيقولُ: لو حفظتَني لَبلغْتُ بك المنزلَ، ولكنك قصَّرتَ فقصَّرتُ بك.

ومن جامع سُفيانَ بن عُيَيْنَةَ، قال: وعن عبد الكريم، عن بعض أصحابِه، قال: مَن نَسِيَ سُورةً من القرآن لقيَ اللهَ يومَ القيامة بعدَدِ آيِها خطايا. وقال

---

(١) مسند أحمد (١٤٧٢٢) من حديث جابر، وغيره من دواوين السنة، وانظر: شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للسيوطي(٦).

(٢) سنن الترمذي (٢٩١٦).

(٣) في النسخة: "أم".

سُفيان: من تعلَّم سُورةً ثم نَسِيَها فقد أجرَم. ورَوى ابنُ صَخْر، بسندِه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "من تعلَّم القرآنَ ثم نَسِيَهُ لقيَ اللهَ أجذمَ ليس على وجهِه لحمٌ". ورَوى ابنُ حَبيب، عن عَمْرِو بن رُوَيْم، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ اللهَ سبحانَه يُدخلُ العبدَ الجنّةَ فتَلقاهُ السُّورةُ من القرآن قد كان أعقَبَها ونَسِيَها، فتقولُ له: هل تعرفُني؟ فيقولُ: لا، فتقولُ: أنا سُورةُ كذا وكذا، أمَا والله لو حافظتَ عليَّ لَبلَّغتُك تلك الدرجةَ، فتشيرُ إلى درجةٍ هي أعلى من درجتِه. وروى ابنُ صَخر، عن أنسٍ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ألَا مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّمه فعلَّق مُصحفاً في منزلِه ولم يتعاهدْهُ ولم ينظُرْ فيه جاء يومَ القيامة متعلِّقاً به، يقولُ: يا ربَّ العالمين، عبدُك هذا اتَّخذني مهجوراً فاقضِ بيني وبينَه"[1]. ورُوى ابنُ أبي شيْبةَ[2]، عن أبي الدَّرداء رضي اللهُ عنه، عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "من تعلَّم القرآنَ ثم نَسِيَه لقيَ اللهَ يومَ القيامة مغلولاً فتُسلَّطُ عليه بكلِّ آية عقاربُ وحَيّاتٌ توكَلُ به يَلدَغْنَه ويَلسَعنَهُ حتى يُقضى بينَ الناس".

---

(١) تخريج أحاديث الكشاف (٨٩٦).

(٢) مسند ابن أبي شيبة (٨٢٣) عن سعد بن عبادة لا أبي الدرداء.

ورُوي عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "مَن قرأَ القرآنَ ولم يعملْ به لقيَ اللهَ يومَ القيامة أعمى، فيقولُ: {رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى}"(١) [طه: ١٢٥ - ١٢٦].

وعن حُذيفةَ رضي اللهُ تعالى عنه قال: اقرأوا القرآنَ بحُزنٍ ولا تَجفُوا عنه، وتعاضَدوهُ ورتِّلوهُ ترتيلاً.

وروى ابنُ حَبيب، عن سعيدِ بن أبي هلال، أنّ عُمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه كان يدعو أبا موسى الأشعريَّ في المسجدِ، فيقولُ له: يا أبا موسى ذكِّرْنا ربَّنا، فيقرأُ لهم بصوتٍ حزين.

قال عبدُ الملك بنُ حَبيب: كان عطاءٌ لا يأتيه أحدٌ من المدينةِ والعراق يُحسنُ القراءةَ بالصَّوتِ الحزين إلّا أمَرَه أن يقرأَ عندَه.

ورَوى أبو ذرٍّ الهَرَويُّ، عن عبدِ الله بن السائب، قال: قدِمتُ على سعدِ بن أبي وقّاص رضي اللهُ عنه بعدَما كُفَّ بصرُه، فانتَسَبني فانتَسبتُ له، فقال: مرحباً بكَ يا ابنَ أخي، بَلَغني أنك حَسَنُ الصَّوتِ بالقرآن، وقد سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: "إنّ القرآنَ نَزلَ بحُزن، فإذا قرأتُموهُ فابكُوا، فإنْ لم تبكُوا فتباكَوْا، ومَن لم يتَغنَّ بالقرآن فليس منّا"(٢).

---

(١) مسند الحارث (٢٠٥).

(٢) مسند سعد بن أبي وقاص، للدورقي (١٢٨) و(١٢٩).

ورَوى أبو عُمَرَ ابنُ عبد البَرِّ، عن صالح بن أحمدَ، عن أبيه، قال: قلتُ لهُ: قولُه صلى الله عليه وسلم: "زَيِّنوا القرآنَ بأصواتِكم"(١)، ما معناه؟ قال: معناهُ الترتيلُ والتحزين.

قال أبو عُمرَ ابنُ عبدِ البَرّ: رُوِّينا عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم بأسانيدِ الشيوخ، أنه افتَتح أُمَّ القرآن، فلمّا بَلَغَ {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة: ٣] ردَّدها أكثرَ من عشرينَ مرّةً ثم قال: "قد خاب عبدٌ لا نصيبَ لهُ في رحمة الله"، ثم افتتح: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ} [الزمر: ٥٣] إلى آخر السُّورة، فاشتدَّ بكاءُ القوم وارتفعَ تسبيحُهم، فلمّا فَرَغ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قام رجلٌ من الأنصار فقال: أشكو إلى الله ورسُولِه جُمودَ عيني وقساوةَ قلبي، بكى القومُ ولم أبكِ، فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ البُكاءَ عندَ القرآن رحمة، فإذا وَجَد ذلك أحدُكم فلْيغتنم الدُّعاء"، فقال الأنصاريُّ: يا رسُولَ الله، ادعُ اللهَ أن يخشعَ قلبي عندَ تلاوة القرآن، فدعا له رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم.

وقال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم: "الماهرُ بالقرآن معَ السَّفَرةِ الكرام البرَرة، فزيِّنوا بالقرآن أصواتَكم"(١).

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود (١٤٦٨)، وابن ماجة (١٣٤٢)، ولم أقف على موضع كلام ابن عبد البر في شيء من كتبه التي بين يدي.

وفي "صحيح مسلم"[٢]، عن أبي موسى رضي اللهُ عنه قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لو رأيتُني وأنا أسمعُ قراءتَكَ البارحةَ، لقد أوتيتَ مِزماراً من مزاميرِ آل داود"، فقلتُ: لو علمتُ أنك تسمعُه يا رسُولَ الله لَحَبَّرْتُه لكَ تحبيراً. معناهُ: أنه كان يقوَى على أحسنَ ممَّا سمِعَه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم منهُ من طِيب النّغَمة وحُسن الترتيل والتحزين والألحان الشَّجِيّة التي تأخُذ بمجامع القلوبِ والآذان.

ورَوى ابنُ وَهْب، عن مالك، عن محمد بن المُنْكَدِر، أنّ اللهَ تعالى يقولُ يومَ القيامة: "أين الذين يُنزِّهونَ أنفُسَهم وأسماعَهم عن اللَّهو ومزاميرِ الشيطان؟ أدخِلوهم أرضَ المِسك، ثم يقولُ تعالى للملائكة: أسمِعوهم ثنائي وحمدي، وأخبِروهم أنْ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون"[٣].

فصلٌ: في تعظيم أسماءِ الله تعالى
وما وَرَد في ذلك منَ الثوابِ الجزيل والثناءِ الجميل

---

(١) هذا عنوان باب عند البخاري قبل الحديث (٧٥٤٤)، وأوله هو صدر حديث عند مسلم مسلم ٢٤٤- (٧٩٨)، عن عائشة.

(٢) مسلم ٢٣٦- (٧٩٣)، وهو في البخاري (٥٠٤٨).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٣/ ١٥١.

ورُويَ أنّ أحمدَ بنَ حَنْبلٍ رضي اللهُ عنه بينَما هو يمشي في بعض القُرى، إذْ مَرَّ بقِرطاسٍ قدْرَ الأُنمُلةِ أو الدِّرهم، فتأمَّلَه، فإذا فيه اسمٌ من أسماءِ الله تعالى، فاستعظم ذلك، فقال: بطاقةٌ فيها اسمٌ من أسماءِ الله يطأُها الناسُ بأخفافِهم وأقدامِهم؟ فأخَذَها فطيَّبَها ثم ابتلَعها، ففَتَح اللهُ عليه العلومَ واصطفاهُ حتى بَلَغَ في قومِه أعلى مقاماتِ الأولياء، رُويَ أنه رأى اللهَ تعالى في نومِه تسعاً وتسعينَ مرّةً، ونوديَ في بعضِها: يا أحمد، أتدري لمَ عظَّمتُ قدْرَك ورفعتُ ذكرَك؟ قال: لا يا ربّ، فقال لهُ: أتذكُرُ يومَ رفعتَ البطاقةَ من قارعةِ الطريق وعظُم موقعُ ذلك منك فرفعتَها ثم طيَّبتَها وابتلعتَها؟ فرفعتُ ذكرَك كما رفعتَ اسمي.

ورَوى ابنُ صخر، عن أنسٍ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "مَن رَفَع قِرطاساً منَ الأرض فيه بسم الله الرَّحمن الرَّحيم إجلالاً لاسم الله تعالى أن يُداسَ، كُتِب عندَ الله من القانتين وخُفِّف عن والديْه ولو كانا مشركيْنِ"، أخرجه الغافقيُّ في كتابه "رَوْض الرَّياحين".

ورَوى ابنُ حَبيب، بسندٍ يرفعُه إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ما مِن كتابٍ فيه بسم الله الرَّحمن الرَّحيم مُلقًى في بُقعةٍ من الأرض إلّا بَعَث اللهُ إليه مَن يرفَعُهُ وأدخَلَهُ الجنّةَ وخَفَّف عن والديْهِ العذابَ".

ومن كتابِ "الفائق"، قال: رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَن رَفَع كتاباً منَ الأرض فيه اسمٌ من أسماءِ الله تعالى رَفَع اللهُ اسمَه في عِليِّين".

وحَكَى منصورُ بنُ عمّار، أنه وَجَد رُقعةً في الطريق مكتوباً فيها بسم اللهِ الرَّحمن الرَّحيم، فأخَذَها فلم يجدْ لها موضعاً فأكَلَها، فرأى في النَّوم قائلاً يقولُ له: قد فَتَح اللهُ عليكَ بابَ الحِكمة لاحترامِكَ لتلك الرُّقعة، فكان بعدَ ذلك يتعلَّمُ بالحِكمة.

ورَوى ابنُ صَخْر، عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "مَن كَتَب بسم اللهِ الرَّحمن الرَّحيم ولم يُتمَّ الهاءَ والميم استغفَر لهُ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ ما دام ذلك الكتابُ".

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ما مِن كتابٍ مُلقًى بمَضيَعةٍ منَ الأرض فيه اسمٌ من أسماءِ الله تعالى إلّا بَعَث اللهُ إليه ملائكةً يَحُفُّونَه بأجنحتِهم حتى يبعثَ اللهُ إليه وليّاً من أوليائه فيرفعُه منَ الأرض.

وهذه الأحاديثُ حِسَان، إلّا أنّ في أسانيدِها ضعفاً، وذلك لا يقدَحُ في فضائل الأعمال والترغيبِ والترهيب؛ لأنّ للعلماءِ تسامحاً في العمل ما لم تكنْ موضوعةً فلا يُلتفَتُ إليها.

وقد صحَّ عنهُ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَن كَذَب عليَّ مُتعمِّداً فلْيتبوَّأْ مقعدَه منَ النار"(١)، أعوذُ بالله منَ الافتراءِ على الله ورسُولِه، فإنه من أكبرِ الكبائر وأعظم الخَطَر، معَ أنّ فضلَ الله تعالى لا يُحيطُ به العقولُ.

رَوى البزّارُ، عن أنسٍ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إذا وَضَعتَ جنبَكَ على الفراش وقرأتَ فاتحةَ الكتابِ و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} فقد أمِنتَ من كلِّ شيءٍ سوى الموت".

ومن ذلكَ: ما رواهُ الغافِقيُّ(٢) بسندِه المسلسَل، عن أبي بكرٍ بن محمد بن عبد الرَّحمن الأزْديِّ، عن القاضي أبي عليٍّ الصَّدَفيِّ، كلُّ واحدٍ منهم يُقسمُ باللهِ الذي لا إلهَ إلّا هو، يرفعُه أبو عليٍّ مسلسَلاً إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم عن جِبريلَ، عن اللَّوح، عن القلم، يُقسمُ بالله الذي لا إلهَ إلّا ه،و لقد أمَرَني ربِّي أن أكتبَ في اللَّوح المحفوظِ أنه قال: "بعزَّتي أقسمتُ، لا يقرأُ عبدٌ من عبيدي بعدَ صلاة الصُّبح

(١) هذا حديث متواتر رواه الشيخان عن غير واحد من الصحابة: متفقين ومنفردين، انظر: الجمع بين الصحيحين، للحميدي الجمع بين الصحيحين: ١/ ١٨٤ (١٧٧)، و٥٧٨ (٩٦٣)، ٢/ ٤٦٣ (١٧٩٨)، و٤٦٣ (١٧٩٨)، ٣/ ١٦٤ (٢٣٨٦)، و٤١٨ وما بعدها (٢٩١٥)، و٤٤٠ (٢٩٤٨).

(٢) عيسى بن دينار بن واقد الغافقي، أبو عبد الله، أحد علماء الأندلس المشهورين. المعلم بفوائد مسلم، للمازري ١/ ٥٤٧.

السَّبعَ المثانيَ سبعَ مرّاتٍ لا يُحدِّثُ نفسَه بشيءٍ من الدُّنيا إلّا شهدتُ لهُ على نفسي أنْ لا أُعذِّبَه بالنار".

وقال الغافقيُّ: ولقد أخرجَ أبو المُطرِّف الشَّعبيُّ المالَقيُّ في بعض تواليفِه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا قرأَ المؤمنُ آيةَ الكُرسيِّ وجَعل ثوابَها لأهل القبورِ أدخَلَ اللهُ تعالى في كلِّ قبرٍ من قبورِ المسلمينَ بينَ المشرقِ والمغربِ أربعينَ نُوراً، ووَسَّع عليهم مضاجعَهم، وأعطى اللهُ القارئَ من الأنوارِ مثلَ ذلك، ورَفَع لهُ بكلِّ ميّتٍ درجةً، وكَتَب لهُ بكلِّ ميِّت عشْرَ حَسَنات، ويَخلُقُ له بكلِّ حرفٍ مَلَكاً يُسبِّحُ له إلى يوم القيامة".

وأخرج الغافقيُّ في كتاب "رَوْض الرَّياحين" أنه وقَف على أسانيدَ جَمّةً في خواصِّ آياتٍ من القرآن، وأنه مَن قرأهُنَّ عندَ الصّباح وعندَ المساء لم يَضُرَّه في ذلك اليوم ولا في تلك الليلة سَبُعٌ ضاري ولا لصٌّ طاري ويُوقَى في نفسِه ومالِه وأهلِه حتى يُمسيَ أو حتى يُصبِحَ.

عن محمدِ بن سِيرين، قال: نزلنا بنهرِ تِيري(١)، فأتانا أهلُ ذلك المنزل فقالوا: ارتحِلوا فإنهُ لم ينزلْ بهذا المنزل أحدٌ إلا أُخِذ متاعُه، فرحل أصحابي وتخلَّفتُ للحديث الذي حدَّثني به ابنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَن قرأ ثلاثينَ آيةً لم يضُرَّهُ في تلك الليلة سبُعٌ ضاري ولا لصٌّ

(١) بلد من نواحي الأهواز. معجم البلدان (نهر تيري).

طاري، وعوفيَ في نفسِه وأهلِه ومالِه حتى يُصبحَ". فلما أمسَيْنا لم أنمْ حتى رأيتُهم جاءوا أكثرَ من ثلاثينَ مرّةً وقدِ اختَرطوا سيوفَهم، فما يَصِلُونَ إليّ، فلمّا أصبحتُ دخلتُ، فلقيَني الشيخُ منهم على فرسٍ ذَنُوب مُنتكبًا قوسًا عربيّةً، فقال: يا هذا، أإنسيٌّ أنت أم جِنّيّ؟ قلتُ: بل من بني آدم، قال: فما بالُك؟ فلقد أتيناك في هذه الليلة أكثرَ من سبعينَ مرّةً كلُّ ذلك يُحالُ بينَنا وبينَك بسُور من حديد، قلت: حديثٌ حدَّثنيهُ ابنُ عُمر، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "من قرأ في ليلةٍ ثلاثينَ آيةً لم يَضُرَّهُ سَبُعٌ ضاري ولا لصٌّ طاري ويُوقَى في نفسِه وأهلِه ومالِه حتى يُصبح"، قال: فنزل عن فرسِه وكسَر قوسَه وأعطى اللهَ عزَّ وجلَّ عهداً أنْ لا يعود(١).

والثلاثونُ آيةً هي: من أول سُورة البقرة إلى قوله: المفلحون {الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: ٥]، وآيةُ الكُرسيّ، وآيتانِ بعدَها إلى قولِه: {خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٥٧]، وثلاثُ آياتٍ من آخرِها: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ١/ ٧٠، نقلًا من تاريخ ابن النجار (ت٦٤٣هـ).

وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٨٤ - ٢٨٦]، وثلاثُ آياتٍ منَ الأعراف: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٤ - ٥٦]، وآخرُ سُورةِ الإسراء: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: ١١٠، ١١١]، وعشْرُ آياتٍ من أولِ {وَالصَّافَّاتِ}، إلى قوله: {لَازِبٍ} [الصافات: ١١]، وآيتانِ من {الرَّحْمَنُ}: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ} [الرحمن: ٣٣ - ٣٥]، ومن آخرِ سُورة {الْحَشْرِ}: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللَّهُ

الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر: ٢١ - ٢٤]، وآيتانِ من {قُلْ أُوحِيَ}: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا} [الجن: ١ - ٣].

وذكر ابنُ صَخْر، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "مَن قرأ الآيتينِ آيةَ الكُرسيِّ و {حم} إلى قوله: {إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [غافر: ٣] حين يُمسي حُفِظ بهما حتى يُصبح، ومَن قرأهما صُبحاً حُفِظ بهما حتى يُمسيَ"، وقد أخرج الترمذيُّ(١) وغيرُه هذا الحديثَ.

وممّا يُشبهُ هذه الروايةَ: ما حكاهُ عِياضٌ في "المدارك"، في ترجمة عيسى بن مسكين(٢)، عمن رافق عيسى في طريق الحجّ، قال: خرجتُ ليلةً من الرُّفقةِ لقضاءِ حاجةِ الإنسان، ثم عُدتُّ إلى الرُّفقة، فإذا عليها سُورٌ منعني من الوصُول إليها

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٧٩).

(٢) هو: عيسى بن مسكين بن منصور بن جريج الإفريقي (ت٣٠٠هـ): عالم إفريقية وشيخها، والخبر في ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض ٤/ ٣٣١، وفيه ترجمة حسنة له، وفي سواه أيضًا.

حتى أصبحتُ وضُرِب الطَّبل، فذكرتُ ذلك لعيسى، فقال: ما أبِيتُ ليلةً حتى أدورَ على الرُّفقة وأقول: اللهُمَّ احرُسْنا بعينِك التي لا تنام واكنُفْنا بكَنَفِك الذي لا يُرام، اللهُمّ إنّي أستودِعُك ديني ونفسي ووَلَدي ومالي إنه لا تخيبُ ودائعُكَ يا أرحمَ الراحمين.

وقال الغافقيُّ: مَن قرأ حين يُصبحُ وحين يُمسي: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة: ١٢٨ - ١٢٩] أَمِن في ذلك اليوم وتلك الليلةِ من الغَرَق والحَرَق والهمِّ والقتل.

وعن ابن وَضّاح: مَن قال: توكَّلتُ على الحيِّ الذي لا يموت، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: ١١١].

حديثٌ صحيحٌ مُخَرَّجٌ في الصِّحاح: كان كلما أصابَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم همٌّ أو حزَبَه أمرٌ أتاهُ جبريلُ فقال: قلْ يا محمد: توكَّلتُ على الحيِّ الذي لا يموتُ، الى آخرِها. وهُو مجرَّبٌ للهمِّ والحُزنِ والفقرِ والسُّقْم.

ومن كتابِ "الاستسلام إلى مشيئةِ الملِك العلّام"، قال: رُوِيَ أنّ رجُلاً كان بينَه وبينَ آخرَ عداوة، فخافَهُ خوفاً شديداً وهمَّه بطشُه، ثم تصبَّر وألجَأ إلى الله عزَّ وجلّ، فرأى في منامِه قائلاً يقولُ له: اقرأْ في كلِّ ركعتَي الفجر {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: ١] إلى آخرِها، قال: فقرأتُها، فما مضَتْ إلّا أشهرٌ قلائلُ حتى أهلَك اللهُ ذلك العدُوَّ.

وقال التنوخيُّ رحمه الله: وقَعتْ بيني وبينَ رجُل مُعاداةٌ وهُو ذو قُدرة عليَّ، فاستَتَرْتُ منهُ وجعلتُ دأبي قراءةَ هذه السُّورة في الثانيةِ من ركعتَي الفجر وفي الأولى بـ{أَلَمْ نَشْرَحْ} لخبرٍ فيها، فبعدَ شهرٍ كَفاني اللهُ ذلك العدُوَّ وأهلَكَهُ من غيرِ سعيي في ذلك.

وفي "الجواهرِ الحِسان في تفسيرِ القرآن" للإمام الثَّعالبيّ، قال: قد بُلِّغتُ عن غيرِ واحدٍ من الصّالحينَ وأرباب القلوبِ أنّ مَن قرَأَ في ركعتَي الفجر بـ{أَلَمْ} و {أَلَمْ} قَصُرتْ يدُ كلِّ عدُوٍّ عنهُ ولم يجعلِ اللهُ لهم إليه سبيلاً.

وعن محمدِ بن عُمارةَ الأَسَديِّ، بسندِه، عن رَوْح بن الحارثِ بن حَنَش الصَّنْعانيِّ، عن أبيهِ عن جدِّه، أنه قال لبَنِيهِ: يا بَنِيَّ، إذا دَهَمَكم أو أَكْربَكُم أمرٌ فلا يَبيتَنَّ أحدُكم إلّا وهُو طاهرٌ وعلى فراشٍ طاهر، ولا تَبيتنَّ معَهُ امرأة، ثم لْيقرأْ {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} ثم لْيقُل: اللهُمَّ اجعلْ لي من أمري فرَجاً ومَخرجاً، فإنه يأتيهِ آتٍ في أولِ ليلةٍ أو في الخامسةِ أو في السابعةِ فيقولُ: المَخرَجُ ممّا أنتَ فيه كذا وكذا، قال أُنَيْس- وهو أحدُ رُواتِه-: أصابني وجعٌ لم أدرِ كيف آتي لهُ، فقلتُ ذلك فأتاني آتيانِ فجلسَ أحدُهما عندَ رأسي والآخَرُ عند رجلي، ثم قال أحدُهما للآخَر: جُسَّه، فلمَسَ جسَدي كلَّهُ حتى انتهى إلى موضع

من رأسي فقال: احتجِمْ هاهنا ولا تحلِقْ، ثم التفتَ أحدُهما أو كلاهما فقالا: كيف ولو ضمَمْتَ إليها {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ}؟ ففعلتُ فبَرَأتُ، فما حدَّثتُ بها أحداً إلّا وَجَد فيها الشفاءَ بإذن الله عزَّ وجلّ. وذَكَر غيرُه أنه يقرأُهما سبعاً سبعاً.

وقال التَّميميُّ: من التبَس عليه أمرٌ ولم يدرِ عاقبتَه فأراد معرفةَ ذلك فلْيُصَلِّ العشاءَ ثم يَضطجعْ على جنبِه الأيمن مُستقبِلَ القِبلة ويقرأْ سُورةَ {وَاللَّيْلِ} {وَالضُّحَى} و{أَلَمْ نَشْرَحْ}، فإنه يأتيه أولَ ليلةٍ أو في الثانيةِ أو في الثالثةِ من يقولُ لهُ: المَخرجُ ممّا أنت فيه كذا وكذا. رواه الغافقيُّ في كتاب "روْض الرَّياحين"، وفيه أيضاً: من قرأ {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ} بعدَ الزَّوال وقبلَ صلاةِ الظُّهر عُوفيَ من كلِّ سُقم وبلاءٍ ينزلُ من السّماءِ إلى الأرضِ حتى يُصبح.

ورُويَ أنه ما اشتكى أحدٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم شكوى في دينٍ ولا دُنيا إلّا قال لمن يشتكي إليه: اقرأ {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ} يأتِكَ الفرَج.

وذُكر عن بعض العلماءِ أنّ بعضَ الأولياء قال له: ألا أُخبرُك باسم الله الأعظم؟ قال: بلى، قال: اقرأِ الفاتحةَ والإخلاصَ وآيةَ الكُرسيِّ وسُورةَ القدْر، ثم استقبِل القِبلةَ، ثم ادْعُ بما شئتَ. ورُوي أنهُ: مَن أخَذ بناصيةِ وَلَدِه أو زوجتِه أو ابنتِه أو واحدٍ من قرابتِه فقرأ عليه سُورةَ القَدر، رأى فيه ما يحبُّ.

وفي "روض الرّياحين": إذا لُدغ أحدٌ فليقلْ هذه الآيةَ {أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: ٨]، فإنه يُعافى بإذن الله تعالى.

وفي كتاب "فردَوْس الحِكمة"[1]، قال: آيةٌ في كتابِ الله تعالى مَن قرأها أَمِن من الهَوامّ، وهي: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٦].

وفي كتاب "الترمذي"[2]، عن شدّاد بن أوْسٍ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: "ما مِن مسلم يأخُذ مضجَعَه فيقرأُ سورةً من كتاب الله عزَّ وجلّ إلّا وَكَل اللهُ به مَلَكاً، فلا يقرَبُه شيءٌ حتى يَهُبَّ من نومِه متى هبَّ".

ومن كتاب "الدعاء" لأبي محمدٍ عبد الرحمن الرّازي، وكتاب "فضائل القرآن" لأبي الحَسَن عليِّ بن صَخْر الأزْديِّ، وابن السُّنِّيّ[3]، عن الضحّاكِ، عن ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "أمانٌ لأُمّتي من الغَرَق إذا رَكِبوا البحرَ- أو قال: السُّفُن- أن يقولَ: بسم الله الملِك الحقّ، {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: ٦٧]، {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}" [هود: ٤١].

---

(١) لعلي بن رَبَن الطبري (ت٢٤٧هـ). الأعلام ٤/٢٨٨.

(٢) سنن الترمذي (٣٤٠٧).

(٣) في عمل اليوم والليلة (٥٠٠).

ومن "الحدائق المحمَّديّة": يُوفِّقُ اللهُ إليها من أراد نجاتَه، وهي: حسبيَ اللهُ من كلِّ شيء، اللهُ يغلِبُ كلَّ شيء، ولا يقفُ لأمرِ الله شيء، ولا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله العليِّ العظيم. قال بعضُ الفُضلاء: وإن نُقِشتْ في أحجارٍ أربعة وجُعلت في أركان البيت أو الدار فإنها أمانٌ من كلِّ شيء.

وعن ابنِ وَضّاح[1]: تُكتبُ هذه الآيةُ وتُجعلُ في البضائع: توكَّلتُ على الحيِّ الذي لا يموت، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: ١١١].

وفي كتاب "رَوْض الرَّياحين": روى أبو الوليد محمدُ بن خِيَرةَ الفقيهُ القُرطُبيُّ[2] حديثاً رَفَعهُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "مَن أراد أن يَستشفيَ من ضعفِ بصرِه أو رَمَدٍ أصابهُ فليتأمَّل الهلالَ أولَ ليلة، فإنْ غُمَّ عليه تأمَّلهُ في الليلةِ الثانية، فإنْ غُمَّ عليه تأمَّلَهُ في الثالثة، فإذا رآهُ مَسَح على عينيْه، وليقرأْ أُمَّ القرآن عشْرَ مراتٍ يُبسملُ في أولها ويؤمِّنُ في آخرِها، ثم يقرأُ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} ثلاثاً، وليقلْ: شفاءٌ من كلِّ داء، يا أرحمَ الراحمين، وليقلْ: يا ربّ، سبعَ مرات: يقوَ بصرُهُ بإذنِ الله تعالى".

---

(١) تكررت هذه الفقرة قبل قليل عن ابن وضاح.

(٢) له ترجمة في إكمال الإكمال لابن نقطة (٢٧٥٩) وغيره.

وعن البراءِ رحمه اللهُ تعالى، عن الليثِ بن سعد، أنه قال: رأيتُ عُقبةَ بنَ نافع ضَريراً، ثم رأيتُه بعدَ ذلك بصيراً، فقلتُ له: بمَ ردَّ اللهُ عليكَ بصرَك؟ فقال لي: أُتيتُ في المنام فقيل لي: قلْ: يا قريبُ يا مجيب، يا سميعَ الدُّعاء، يا لطيفُ بما يشاء، رُدَّ عليّ بصَري، فقلتُها فرَدَّ اللهُ عليَّ بصَري.

ومن كتابِ جعفرٍ الصادق رضي اللهُ عنه، قال: مَن أدمَنَ قراءةَ {الْمُزَّمِّلُ} رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حتى يسألَهُ عمّا يريدُ، وكذلك سورةُ الكوثر، وخاصيّتُها أنه مَن قرأها في ليلةٍ ألفَ مرة وصلَّى على النبيِّ ألفَ مرة ثم نام: رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رؤيةً لا مِرْيةَ فيها، رواه التميميُّ وغيرُه.

وهذه الخواصُّ من أسرار الله المكنونةِ التي لا يعلمُها إلّا مَن خصَّه اللهُ بمعرفتها، فيستعملُها بنيّةٍ صادقة سالماً من الشكّ وسوء الاعتقاد؛ لأنّ من حسُنتْ نيّتُه أدرك ما ذَكَر فيها، قال اللهُ تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: ٨٢].

فصلٌ: في الزَّجْر عن المِراءِ والجِدال

والفرقُ بينَ المِراءِ والجدال هو أنّ المراءَ حقيقتُه: الاستكشافُ عن عورةِ جهل مَن يُنسَبُ إلى العلم على وجه الاستفتاءِ أو التعلُّم، وهو على العكس، والجدالُ: المُغالبةُ بالعلم على وجهٍ لا يرتضيهِ اللهُ ورسُولُه، وهو مأخوذٌ منَ الجدل، يقال: جَدَلَهُ: إذا ضربهُ بالأرض.

قال الشافعيُّ رضي اللهُ عنه: إذا رأيتَ الرجُلَ يُجادلُ فاستدِلَّ بذلك على أنه رجُلُ سُوء.

وقال أحمدُ بن حَنْبل رضي اللهُ عنه: إذا رأيتَ من يُنسَبُ إلى العلم وهمُّه المراءُ والجدال فاستدِلَّ بذلك على خرابِ باطنِه.

وقال ابنُ القاسم[١]: لمّا ظَهَر الفسادُ في الأُمّة واختلف آراؤها ومذاهبُها قلتُ لمالكٍ رضي الله عنه: إذا كان الحقُّ معي أفأُجادلُ عليه حتى أُظهرَه؟ قال: لا، قل الحقَّ، فإن قُبِل منك وإلّا فاصمُتْ. ولما جاءهُ حفصٌ الفردُ[٢] ليُناظرَه قال لهُ: يا مالك، إنّي جئتُ لأُناظرَك، قال: وما تريدُ من ذلك؟ قال: إن غلبتُكَ اتَّبعتَني، وإنْ غلبتَني اتَّبعتُك، قال: وإن جاء ثالثٌ فغَلَبَنا؟ قال: اتَّبعناهُ، قال: وإذا جاء رابعٌ فغَلَبَنا؟ قال حفصٌ: اتَّبعناهُ، قال: يا هذا، إنك تريدُ أن تكونَ كلَّ يوم على دينٍ

(١) أحمد بن أبي بكر واسمه القاسم بن الحارث بن زرارة، أبو مصعب الزهري المدني (ت ٢٤٢ هـ): قاضي المدينة، لزم مالكًا وتفقه عليه، وسمع منه "الموطأ". التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، للباجي (٢٦)، وترتيب المدارك وتقريب المسالك ٣/ ٣٤٧، وتهذيب الكمال ١/ ٢٧٨، وتاريخ الإسلام ٥/ ١٠٧٤ وسواها.

(٢) المبتدع المشهور، من أئمة المعطلة الجبرية، ناظر الشافعي بمصر. لم أقف له على ترجمة، لكن له ذكرًا عارضًا في: المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء ٢/ ٢٦، و تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، لابن حجر ٣/ ١٠٧٤، وتفسير القاسمي٣/ ١٦٦، وتاج العروس (فرد)- وفي بعضها طرف من هذا الخبر- وسواها.

جديدٍ حتى تلقى اللهَ ولا دينَ لك، أمّا أنا فعلى بيِّنةٍ من ربِّي وبصيرةٍ من دِيني لم يلتبِسْ عليّ الأمرُ حتى أُجادلَ على ظهورِه، لم يأتِنا بعدَ النبيِّ نبيٌّ ولا بعدَ الكتابِ كتابٌ فيلتبسَ الأمرُ علينا، أخذْنا دينَنا عن أصحابِ رسُول الله صلى الله عليه وسلم فاقتفَيْنا آثارَهم فيه حذوَ القَدَم بالقَدَم وهم أخَذوهُ عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم فاقتفَوْا أثرَه فيه حذوَ القَدَم بالقَدَم لم يشكُّوا ولم يرتابوا تلَقَّوْا(1) منهُ غضًّا طريًّا لم يُشَبْ بغيره: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣- ٤]، ثم امتنَّ عليه وعليهم بقولِه {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]، ثم ثُرتَ أنت وأصحابُك لا بارَك اللهُ فيكم، فاشتغلتُم بنقضِ الدِّين بعدَ كمالِه وبإخفاءِ الحقِّ بعدَ ظهورِه وبإطفاءِ نورِ الله بعدَ وضوحِه وبتشكيكِ الأُمّة في دينِها بعدَ يقينِها، {وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة: ٣٢] مثلُكَ أنت وأصحابِك فاخْسَأْ صاغراً.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما أضلَّ اللهُ قوماً بعدَ هُدًى أتاهم إلّا وأوتُوا الجِدال"، أخرجه ابنُ ماجةَ والبيهقيُّ بسند صحيح(2).

---

(1) كذا في النسخة، ولو قال: تلقوه، كان أليق.

(2) رواه ابن ماجة (٤٨)، و البيهقي في شعب الإيمان(٨٤٣٨)، من حديث أبي أمامة. ورواه الترمذي أيضًا (٣٢٥٣)، وقال عقبه: "هذا حديث حسن صحيح إنما نعرفه من حديث حجاج بن دينار، وحجاج ثقة مقارب الحديث، وأبو غالب اسمه: حزور".

وقال السُّيوطيُّ رضي الله عنه في "جامعِه": قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والمُتنَطِّعينَ من أُمّتي"، قالوا: يا رسُولَ الله، وما المُتَنطِّعون؟ قال: "شِرارُ الناس يَجمعونَ شدائدَ المسائل يَغُمُّونَ بها خَلقَ الله"، أخرجه النَّسائيُّ(١).

قال العَلْقميُّ: حقيقةُ المُتنطِّع هُو أن يتكلَّفَ الرَّجُلُ إلى علمِه علمَ ما لا يعلَمُ، وذلك معنى قولِه تعالى: {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: ٨٦].

ورَوى الطَّبريُّ(٢) عن أبي جعفرٍ، أنه قال: لا تُجالسوا أهلَ الخُصومات، فإنهمُ الذين يخوضونَ في آياتِ الله، يعني: قولَه تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} [الأنعام: ٦٨] الآيةَ.

فينبغي للمؤمنِ أن يَمتثِلَ حُكمَ هذه الآيةِ معَ المُلحِدينَ وأهل الجِدال والخوضِ في الباطل.

وعن أبي أُمامَةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن تَرَكَ المِراءَ وهو مُبطِلٌ بُني لهُ بيتٌ في رَبَضِ الجنّة، ومن تَرَكهُ وهو مُحِقٌّ بُني له بيتٌ في وَسَطِها، ومَن حَسُن خُلقُه بُني لهُ في أعلاها"، رواهُ أبو داود والترمذيُّ-

---

(١) لم أقف عليه في سنن النسائي ولا في "جامع" السيوطي، وفي مسلم، من حديث ابن مسعود ٧- (٢٦٧٠)، قوله صلى الله عليه وسلم: "هلك المتنطعون".

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٣١٤.

واللفظُ لهُ- وابنُ ماجةَ والبيهقيُّ، وقال الترمذيُّ: حديثٌ حَسَن[1]. ورواهُ الطَّبرانيُّ في "الأوسَط"[2] من حديثِ ابن عُمرَ رضي الله عنهما، ولفظُه: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنّة لَمن تَرَكَ المِراءَ وهُو مُحِقٌّ، وببيتٍ وسَطَ الجنّة لَمن تَرَك الكذبَ وهو مازح، وببيتٍ في أعلى الجنّة لَمن حَسُنتْ سَريرتُه". قال المُنذِريُّ[3]: رَبَضُ الجنّة- بفتح الراءِ والباءِ الموحدة وبالضّادِ المعجمة-: هو ما حولَها، وأراد بالبيتِ ها هنا: القصرَ.

ورُوي عن أبي الدَّرداءِ وأبي أُمامةَ وواثلةَ بن الأسقَع وأنسِ بن مالك رضي اللهُ عنهم، قالوا: خَرج علينا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ونحن نَتَمارى في شيءٍ من أمرِ الدِّين، فغَضِبَ علينا غضَباً شديداً لم يغضَبْ مثلَه، ثم انتَهَرَنا فقال: "مهلاً يا أُمّةَ محمد، إنّما هلَكَ مَن كان قبلَكم بهذا، ذَروا المِراءَ لقلّة خيرِه- كرَّرها ثلاثاً- فإنّ المؤمنَ لا يُماري، ذَروا المِراءَ فإنّ المُماريَ قد تمَّت خسارتُه، ذَروا المِراءَ فكفَى بالرجُلِ إثماً أنْ لا يزالَ مُمارِياً، ذَروا المِراءَ فإنّ المُماريَ لا أشفَعُ له يومَ القيامة، ذَروا المِراءَ فإنّي زعيمٌ لثلاثةٍ بثلاثةٍ في الجنّة: في رَبَضِها ووَسِطِها وأعلاها

---

(1) رواه أبو داود (٤٨٠٠)، والترمذي (٢١١١) وابن ماجة (٥١)، والبيهقي في السنن الكبرى للبيهقي (٢١٧٠٨).

(2) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، عن ابن عمر (٨٧٨)، وفيه برقم (٤٦٩٣)، وفي المعجم الكبير أيضًا (٧٤٨٨)، عن أبي أمامة أيضًا.

(3) في الترغيب والترهيب، للمنذري عقب الحديث (٢٣٠).

لَمَن تَرَكَ المِراءَ وهُو صادق، ذَروا المِراءَ فإنّ أولَ ما نَهاني عنه ربِّي بعدَ عبادةِ الأوثانِ المِراءُ"[١]، الحديثَ.

قال: وعن مُعاذ بن جَبَل رضي اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَض الجنّةِ، وبيتٍ في وَسَط الجنّة، وبيتٍ في أعلى الجنّة لَمَن تَرَكَ المِراءَ وإن كان مُحِقّاً، وتَرَكَ الكذبَ وإن كان مازحاً، وحَسُن خُلُقُه"، رواهُ البزّارُ[٢] والطَّبرانيُّ في معاجِمِهم الثلاثة[٣].

ورواهُ أبو داوودَ[٤]، عن أبي أُمامةَ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَض الجنّة لَمَن تَرَكَ المِراءَ وإن كان مُحِقّاً، وبيتٍ في وَسَط الجنّة لَمَن تَرَكَ الكذبَ وإن كان مازحاً، وبيتٍ في أعلى الجنّة لَمَن حَسُن خُلُقه".

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي اللهُ عنه، قال: كُنّا جلوساً عندَ بابِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم نتذاكرُ يَنزِعُ هذا بآيةٍ ويَنزِعُ هذا بآية، فخَرج علينا رسُولُ الله صلى

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٥٢ (٧٦٥٩).

(٢) في مسنده (٦٦٢٦)، عن أنس لا معاذ.

(٣) في المعجم الصغير (٨٠٥)، والأوسط (٥٣٢٨)، والكبير ٢٠/ ١١٠ (٢١٧).

(٤) سبق قبل قليل.

الله عليه وسلم وكأنّما تبَدَّى في وجهِه حبُّ الرُّمان، فقال: "يا هؤلاء، أبهذا بُعثتُم أم بهذا أُمِرتُم؟ لا ترجِعوا بعدي كُفّاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعض"(١).

قال المُنذِريُّ(٢): وعن مجاهد، عن ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، قال: لا تُمارِ حليماً ولا سفيهاً، فإنّ الحليمَ يَقليك والسَّفيهَ يُؤذيك، واذكُرْ أخاك إذا تغيَّب عنك بما تحبُّ أن يذكُرَك به، وعفِّه بما تحبُّ أن يُعفِّيَكَ منه، واعملْ عملَ رجُل يَرى أنه مُجازًى بالإحسانِ مأخوذٌ بالإجرام. رواه ابنُ أبي الدُّنيا موقوفاً.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمنُ العبدُ الإيمانَ كلَّه حتى يَترُكَ الكذبَ في المِزاح والمِراء وإن كان صادقاً"(٣).

وفي زَبُور داودَ: أنْ يا داود، مُرْ بني إسرائيلَ بترْكِ المِراءِ على الخطأِ والصَّواب والحقِّ والباطل، فإنّما هَلَك الرُّهبانُ والقِسِّيسُونَ بتنافُسِهم في العلم، فمَن طلبَ العلمَ لوجهي فذاك، ومَن طلبَهُ لغيري دُحِي به في النار، يومَ القيامة أوفِّيكُم أعمالَكم ولا تُظلمون.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١١)، والطبراني في المعجم الأوسط (٨٤٧٠) وفي المعجم الكبير ٦/ ٣٧ (٥٤٤٢)، وعنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢٣٣).

(٢) في الترغيب والترهيب (٤٣٥٦).

(٣) نقله المصنف من الترغيب والترهيب للمنذري (٤٤٥٢)، وهو في مسند أحمد (٨٦٣٠) و (٨٧٦٦)، وفيه مزيد تخريج.

قال عزُّ الدِّين بنُ عبد السلام: لا يجوزُ الجدَلُ والمُناظرةُ إلّا لإظهار الحقِّ ونُصرتِه ليُعرَفَ فيُعملَ به، فمَن جادَل لذالك فقد أطاع، ومَن جادَلَ لغَرَضٍ آخَرَ فقد عصَى وخاب، ولا خيرَ فيمَن يتحيَّلُ لنُصرة مذهبِه معَ بُعد أدلّتِه عن الصَّواب.

ولمّا تكلَّم ابنُ أبي جَمْرَةَ رضي اللهُ عنه- على قولِه صلى الله عليه وسلم: "ولكلِّ امرئٍ ما نَوى"- قال: لا نيّةَ للناسي والمُخطئ، ثم قال رحمه الله: وفي هذا إشارةٌ إلى تفضيل طريقةِ السُّلوك؛ لأنهم يُنَمُّونَ أعمالَهم بحُسْن نيّاتِهم، ومَثَلُ ذلك: شخصانِ تباحثا في مسألةٍ فِقهيّةٍ نيّةُ أحدِهما بيانُ حُكم الله تعالى وطلبُ الصّوابِ إيماناً واحتساباً ولا يُغالي أينما ظَهَر الحقُّ على لسانِه أو على لسانِ صاحبِه، فهذا قد رُفِع عملَه بحُسن نيّتِه فيكونُ من جُملة الرَّبّانيِّينَ الذين هم وَرَثةُ الأنبياءِ عليهمُ الصَّلاةُ [والسّلام]. والآخَرُ نيّتُه المباهاةُ والفخرُ والظُّهورُ على أخيه؛ لينتسبَ إلى العلماءِ الفُضَلاء، فهذا قد باءَ بأبخسِ الأحوال؛ لأنه قد أوبَقَ نفسَه وأحبَطَ عملَه وعِلمَه وإنْ ظَهَر على أخيه وارتفَعت منزلتُه في الدنيا الفانية، لأنه أولُ مَن تُسعَّرُ به النارُ يومَ القيامة، وبهذا يجبُ على المشايخ زَجْرُ تلاميذِهم عن الدُّخول في مثل هذه الخسائس برَفْع الهمّة والاشتغال بما يعنيهم ويُقرِّبُهم إلى مولاهم عزَّ وجلَّ مِن طلب العلم لوجهِه والعمل به بعدَ تحصيلِه على الوجه الذي كان عليه السَّلَفُ من ترْكِ المِراءِ والجِدال والتشنيع والبَطَرِ به والأشَر، فيحسَبونَ أنهم مُهتدون وهم ضالُّونَ مُضِلُّون.

وكان مالكٌ رضي الله عنه إذا فَهِم منَ السائل التعنيتَ لم يُجِبْهُ وأعرَضَ عنه، دفْعاً للمِراءِ والجِدال وإعراضاً عن الجاهلين، وكان رضي اللهُ عنه يقولُ: مِن فقهِ الرجُل إذا سُئل عمّا لا يعلَمُ أن يقول: لا أعلم.

رُويَ أنّ رجُلاً منَ الخوارج دَخَل على ابن عُمرَ رضي اللهُ عنهما فسَألَهُ عن مسألةٍ وهُو يطوفُ بالكعبة، فقال: له لا عِلمَ لي بها، فقال لهُ الخارجيُّ: يَقبُحُ بمثلِك أن يُسأَلَ عن مِثل هذا فلا يُجيب، فقال: ألا أُنبئُكَ بأقبحَ منه؟ قال: بلى إن شئتَ، قال: أقبحُ منه إنِ افتَرى على الله ورسُولِه الكذبَ، ولقد سمعتُ أبي يقولُ: يوشكُ أن تكثُرَ المسألةُ وتكثُرَ الأحداث، فإمّا أن يَعجِزَ أحدُكم وإمّا أن يكونَ مُنافقاً، فمن أدرَكَ منكم ذلك الزّمانَ فلْيعجِزْ ولا يكنْ منافقاً.

ورُويَ أنّ عُمرَ بنَ عبد العزيز رضي الله عنه دَخَل عليه رجُلٌ يسألُه عن القَدَر، فقال لهُ: يا هذا، إنّ اللهَ لا يسألُكم يومَ القيامة عمّا قضَى وقدَّر، وإنما يسألُكم عمّا نَهَى وأمَر، فامتثِلوا أمرَه واجتنِبوا نَهْيَه واسكُنوا تحتَ قهرِ قضائه وقَدَرِه واستسلِموا لأمرِه تنجَحوا وتفهَموا، فإنّ السؤالَ عن مِثل هذا بِدعة، والسكوتُ عنه حِكمة، فلا يَلفِتَنَّكم الشيطانُ عن دينِكم فتهلِكوا كما هَلَك مَن كان قبلَكم، فإنّ التفتيشَ عن مِثل هذا لا يُثمِرُ علماً بل يُثيرُ جهلاً وغمّاً، فكفى بكتابِ الله هادياً وبرسُوله داعياً، فما بعدَ الهُدى إلّا الضَّلال، فاهتدوا بهُدى الله ودعُوا بُنَيّاتِ الطُّرُق فإنّها تُفضي إلى النار، قال اللهُ تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣]، فإنّ اللهَ قد أوضَح السَّبيل وبيَّن الدَّليل إذْ أنزَلَ عليكُم كتاباً حكيماً {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} [فصلت: ٤٢]، فمَن تمسَّك به هُدي، ومَن زاغَ عنهُ ضَلَّ ضلالاً مبيناً، فنحنُ على ذلك النَّهج القَويم والصِّراط المستقيم وأنتم على قوارع تلك السُّبل تدعونَنا إليه، فلسنا بالمُتَّبِعين سُبُلَكم ولا بالمُستمعينَ لقولِكم، فإنْ رجَعتُم إلينا نصَحْناكم وعلى السَّبيل القويم دَلَلْناكُم، وإلّا فلنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم. فتابَ الخارجيُّ ورَجَع إلى أصحابِه فأتى بهم إلى عُمرَ بن عبد العزيز فتابوا أيضاً على يديْه.

فصلٌ: فيما يُرجَى من رحمةِ الله وفضلِه

رُويَ أنّ اللهَ تعالى يقولُ في بعض كُتُبِه المُنزلة: يا عبادي، لم أخلُقْكُم لأربحَ عليكم وإنما خلقتُكم لتربَحوا عليّ[1].

فيجبُ على العبدِ النظرُ إلى نقمةِ الله وعذابِه حتى يُزعجَهُ الخوفُ والخَشية، فإذا خافَ على نفسِه القُنوطَ وَجَب إليه النظرُ أيضًا إلى سَعة رحمةِ الله وفضلِه ليَحصُلَ على الرجاء والطُّمأْنينة، قال بعضُ الحكماء: جُزئيَّتَيْنِ[2] وكُلِّيتيْنِ فاجعَلْهما

(١) تفسير القشيري (لطائف الإشارات) ٢/ ٦٤.

(٢) كذا بالنصب، مفعول قوله الآتي: "فاجعلهما".

جَناحَيْكَ وطريقيْكَ إلى الله تنجُ، فالكُلِّيّتان: القُنوطُ والاغترار، والجُزئيّتان: الخوفُ والرَّجاء.

فينبغي استحضارُ الرّجاءِ عندَ مُقدِّماتِ الموت ليلقَى اللهَ وهُو يُحسنُ الظنَّ به؛ لأنّ اللهَ تعالى أكرمُ مِن أن يُخيِّبَ ظنَّ عبدِه به وهُو يُعالجُ سكَراتِ الموت ويُعاينُ أسبابَ الفَوت، ولذلك ينبغي لجُلساءِ المريض أو المُحتضَر أن يُحدِّثوه بأحاديثِ الرّحمةِ والرّجاءِ ليموتَ وهُو يُحسنُ الظنَّ بالله تعالى، قال أبو بكرٍ بنُ سُليمانَ الصوَّافُ: دَخَلنا على مالكِ بن أنسٍ في الغَشْيةِ التي قُبِض فيها، فقلنا: يا أبا عبدِ الله، كيف تَجدُك؟ فقال: لا أدري ما أقولُ لكم، إلّا أنكم تُعاينونَ من عفوِ الله تعالى ما لم يكنْ لكم بحساب، ثم ما بَرِح حتى أغمَضْناهُ رحمه الله.

ومن ذلك: ما رواهُ أبو نُعَيْم في "الحِلية"[١]، عن مِسعَر بن كِدام، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إنّ اللهَ سبحانَه بَعَثني بالحقّ، لَيَرَيَنَّ الناسُ يومَ القيامةِ من رحمةِ اللهِ سبحانه شيئًا لم يَخطُرْ على قلبِ مَلَكٍ مُقرَّب ولا نبيٍّ مُرسَل ولا عبدٍ صالح". وهذا حديثٌ عظيم، وناهيكَ من حديثٍ يرويهِ مِسعَرٌ صحةً وحُسنًا، وقد أثنى سفيانُ الثوريُّ وسفيانُ بنُ عُيَينةَ وشُعبةُ بن الحجَّاج، وغيرُهم من أكابر العلماء، على مِسعَر، وتوفي مسعر في حياة سفيان الثوري. قال عليُّ بن المَديني: قال يحيى بنُ سَعيدٍ القطّان: ما رأيتُ أثبتَ من مِسعَر. وقال شُعبة: كنّا

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٧/ ٢٥٣.

نُسمّي مِسعرًا المُصحَف. وقال سفيانُ الثَّوري: كنّا إذا اختلفْنا في شيءٍ أتيْنا مِسعَرًا فسألْناهُ. وقال سُفيان: قيلَ للأعمش: مِسعَرٌ، أيُشَكُّ في حديثِه؟ فقال: شكُّ مِسعَر كيقينِ غيره. وقال أبو حَيّان حاتمٌ الرزّاز: شكُّ مِسعرٍ أحبُ إليّ من يقينِ غيره. وقال أبو داود: كلٌّ قد وَهِم في حديثِه غيرَ مِسعر.

وقال ابنُ عُيَيْنة: سمعتُ مِسعرًا يقولُ: التدليسُ دناءة.

قال الغزاليُّ[1] رحمه الله: في الخبر: "لَيَغفِرَنّ اللهُ تعالى يومَ القيامة مغفرةً ما خَطَرت على قلبِ أحد، حتى إنّ إبليسَ لَيتطاولُ رجاءَ أن تُصيبَه"، وفي الخبر: "إنّ لله تعالى مئةَ رحمة أرسَل منها واحدةً إلى الدُّنيا وأمسَكَ عندَه تسعًا وتسعين، فإذا كان يومُ القيامة ضَمَّ الواحدةَ إلى التّسع والتسعينَ فأكمَلَها مئةً لعبادِه المؤمنين، ولا نصيبَ لكافرٍ في الرّحمةِ يومَ القيامة؛ لأنّ اللهَ قدَّم لهم نصيبَهم في الدُّنيا صحةً في أبدانِهم وسَعةً في أرزاقِهم وملكًا وجبروتًا، لأنّ الدُّنيا سِجنُ المؤمن وجنّةُ الكافر. رُوي أنّ اللهَ تعالى أوحَى إلى الدُّنيا أنْ تشَدَّدي وتكدَّري وتضيَّقي على أحبّائي حتى يُحبّوا لقائي، وتطيَّبي وتوسَّعي وتزيَّني لأعدائي حتى يكرَهوا لقائي، فإنّي جعلتُكِ سجنًا لأوليائي وجنّةً لأعدائي.

(١) في الإحياء ٤/ ١٥١.

ورَوى مسلمٌ[١] والبخاريُّ[٢]، واللفظُ لمُسلم[٣]، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "جَعل اللهُ الرّحمةَ مئةَ جُزء، فأمسَكَ عندَه تسعةً وتسعينَ وأنزلَ في الأرضِ جزءًا واحدًا، فمِن ذلك الجزءِ يتراحمُ الخلائق، حتى ترفعُ الدابةُ حافرَها عن ولدِها خشيةَ أن تصيبَه". ولمسلم من طريقٍ أخرى[٤]: "كلُّ رحمةٍ منها طِباقَ ما بينَ السَّماءِ والأرض، فإذا كان يومُ القيامة كمَّلها بهذه"، وفي بعضِ الروايات: "فإذا كان يومُ القيامة جُمعتِ الواحدةُ إلى التسعةِ والتسعينَ فكمُلْنَ مئةَ رحمة[٥]، [٦]حتى إنّ إبليسَ لَيتطاولُ إليها رجاءَ أن يصيبَ منها شيئًا". ولفظُ البخاري[٧]، قال: "إنّ لله تعالى مئةَ رحمةٍ أنزَلَ منها رحمةً واحدةً بينَ الجنِّ والإنسِ والبهائم والهوامِّ، فبها يتَعاطفونَ وبها يتَرَاحَمون وبها تعطفُ الوَحشُ على ولديها، وأخَّر تسعًا وتسعينَ رحمةً يرحمُ بها عبادَه يومَ القيامة".

---

(١) مسلم ٢٠- (٢٧٥٣) من طريق سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي، به.

(٢) البخاري (٦٠٠٠) من طريق سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، به.

(٣) بل هو لفظ البخاري.

(٤) مسلم ٢١- (٢٧٥٣) من طريق داود بن أبي هند، عن أبي عثمان، عن سلمان، به.

(٥) لم أقف على هذه القطعة من المتن.

(٦) من هنا إلى آخر الحديث في الزهد والرقائق لابن المبارك (١٣٦٣) والزهد لهناد (١٨٦)، والمعجم الكبير، للطبراني ١٠/ ٢١٥ (١٠٥١٣)، ثلاثتهم عن الحارث بن سويد. وأخرجه ابن الأعرابي، المعجم (١٩٠٧) عن أنس.

(٧) بل لفظ مسلم في صحيحه ١٩- (٢٧٥٢) عن عطاء، عن أبي هريرة، به.

قال ابنُ عطاء الله في "لطائفِ المنن": قال الشيخُ أبو العبّاس المُرْسي: طالعتُ مقامَ الرحمة فإذا قائلٌ يقولُ لي: والله لَيكونَنَّ غدًا من رحمةِ الله ما ينالُ منه ابنُ أبي الطواجن، وكان ابنُ أبي الطواجن هو الذي قتلَ الغلابيَّ الشيخَ عبدَ السلام بن مُشَيش شيخَ الشيخ أبي الحَسَن الشاذليِّ رحمه الله.

قال أبو نُعيم في "الحِلية"[1]: رَوى مِسعَرُ بنُ كِدام، عن عَطيةَ، قال: كنتُ معَ عبدِ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما جالسًا، فقال له رجُل: يا أبا عبدِ الرحمن، لَوددتُ أني رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال له ابنُ عُمر: ما كنتَ تصنعُ إذنْ؟ قال: كنتُ أومنُ به وأقبِّلُ بينَ عينيْه، فقال له ابنُ عمر: أفلا أُبشِّرُك؟ قال: بلى يا أبا عبدِ الرحمن، قال: سمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما اختلط حبِّي بقلبِ عبدٍ فأحبَّني إلّا حرَّم اللهُ جَسَدَه على النار"، الحديثَ.

قال الغزاليُّ رحمَه اللهُ في كتاب "الرجاء": اعلمْ أنّ العملَ على الرَّجاءِ أعلى منهُ على الخوف؛ لأنّ الرجاءَ يَستجلبُ الحبَّ، ولا مقامَ أعلى من الحب، واعتُبر ذلك في عبدَيْن لمالكٍ واحد، أحدُهما يخدُمُه على الخوف والآخَرُ يخدُمُه على المحبّة، فالذي يخدُمه على الخوفِ إذا أمِن أو تغيَّب استراح وترَكَ العمل، والذي يخدُمه على الرجاءِ والمحبّة لا راحةَ له ولا غيْبة، لسُكون الحبِّ في قلبِه، فصارتْ لذّتُه وقرّةُ عيْنِه في ذلك العمل وفي تلك الكُلَفِ الشاقّةِ على غيرِه؛ لأنه لا يعملُ على

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٧/ ٢٥٥.

حظِّه من سيّده، بل يعملُ على حظِّ سيِّدِه منه، فلا تزالُ أعمالُه تتزايد ما تزايدتْ أحوالُه، ولذّاتُه وقرّةُ عينِه تتزايدُ بتزايُد أحوالِه حتى يستغرقَهُ الحبُّ واللَّذّة فيكونَ غيبًا في غيب، قال اللهُ تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً} [السجدة: ١٧].

وحالُ الرّجاءِ يُطلَبُ بشيئيْنِ، أحدُهما: الاعتبار، والآخرُ: استقراءُ الآياتِ والأخبار، أمّا الاعتبارُ فهو أن يتأمَّلَ الإنسانُ جميعَ ما أنعَم اللهُ به على عبادِه مِن جميع أنواع النَّعيم ولُطفِه بعبادِه في الدُّنيا وعجائبِ حِكمتِه التي أبدَعَها في خلقِه الإنسانَ حتى أعدَّ لهُ في الدُّنيا كلَّ ما هو ضروريٌّ له مدةَ وجودِه وما هو محتاجٌ إليه وما هُو زينةٌ له، كتقويس الحاجبيْن واختلافِ ألوان العينيْنِ وحُمرة الشَّفتيْن، حتى أنه لم يرضَ سبحانه أن تفوتَهمُ الزوائدُ والمزايا في الزينةِ الدُّنيويّة، فكيف يرضى سبحانَه أن يَسوقَهم بعدَما مَنَّ عليهم بالإسلام والمعرفة إلى الهلاكِ المؤبَّد في العذابِ المُسرمَد؟

وإذا كان أكثرَ أحوال الخَلق في الدُّنيا السلامةُ، كذلك يُرجى أن يكونَ أكثرَ أحوال المؤمنينَ في القيامة النَّجاةُ {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا[١]} [الفتح: ٢٣]؛ لأنّ مُدبِّرَ الدُّنيا والآخرة واحد، وهو سبحانه غفورٌ رحيمٌ لطيفٌ بعبادِه مُتعطِّفٌ عليهم.

---

(١) أخل الناسخ بالآية الكريمة فكتب: "سنة الله فلا تجدوا لسنة الله تبديلًا".

قال الغزاليُّ رحمه الله: وأمّا استقراءُ الآياتِ والأخبارِ الواردةِ في الرَّجاءِ خارجٌ عن الحَصْر، ثم سَردَ الآياتِ والأحاديثَ في متنِ كتابِه المُسمَّى بـ"العلوم الفاخرة" فانظُرْهُ، فقد تركناهُ طلبًا للاختصار، إذْ لا يمكنُ جلبُه في هذه العُجالة، وقد أتيتُ بها مبسوطةً في كتابِنا المُسمَّى بـ"نزهة الحاوي وبُغية الراوي" فلْيطالَعْ.

قال أبو موسى الأشعريُّ رضي اللهُ عنه: سمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: "أُمّتي أُمّةٌ مرحومة لا عقابَ عليها في الآخرة، عُجِّل عليها عقابُها في الدُّنيا بالزلازلِ والفتن"[١]، الحديثَ.

ورُوي عن بعضِ الأبدال أنه قال: رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ليلةَ الأربعاء الثالثةَ عشْرةَ من جُمادى الأولى عامَ أربعةٍ وستّينَ وثمانِ مئةٍ وهو يُثني على عبدِ الرحمن الثعالبيِّ خيرًا، ويقول: لم يتَّبعْ رائدي أو رُويْدي إلا عبدُ الرحمن، فأعدتُ عليه الكلامَ فأعاد الجوابَ بهذه اللفظةِ، وفهمتُ من كلامِه في ذلك الوقتِ أنه قال: لم يتَّبعْ سُنّتي ولا أثرَ ما أنا عليه إلّا عبدُ الرحمن، حتى ظننتُ أنه قد فاق[٢] الناسَ كلَّهم ممّا رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يُثني عليه، ثم جَعل يُثني عليّ لكثرةِ صلاتي عليه صلى اللهُ عليه وسلم، فقلتُ: يا رسولَ الله، نحن لا نخافُ منَ الموت وإنَما نخافُ ممّا بعدَ الموت، إذْ لا ندري ما نصيرُ إليه، فقال صلى

---

(١) سنن أبي داود (٤٢٧٨) مع مزيد تخريج.

(٢) في النسخة: أفاق.

الله عليه وسلم: أنتم معي في الجنّة، فقلتُ: يا رسُولَ الله، إنّ أُمّتَك أُمّةٌ مرحومة لا عذابَ عليها في الآخرة، فتبسَّم وانبسَط معي وقرَّبني إليه، وجَعل يُثني على العلم ويحُضُّ عليه ويُرغِّبُ فيه صلى اللهُ عليه وسلم وعلى آلِه، قال صلى الله عليه وسلم: "ما مِن عبدٍ مؤمن تخرُج من عينيْهِ دموعٌ وإن كانت مثلَ رأس الذُّباب من خَشيةِ الله تعالى، ثم تُصيبُ شيئًا من وجهِه إلّا حرَّمه اللهُ تعالى على النار"، أخرجه الترمذيُّ[1] وغيره.

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "الحُمَّى من فَيْح جهنّم، وهو حظُّ كلِّ مؤمنٍ من النار"، رواه النَّسائيُّ وغيره.

وفي تفسيرِ النَّوويّ ما نصُّه، عندَ قولِه تعالى: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَه} [التحريم: ٨] أنّ اللهَ تعالى أوحَى إلى نبيِّه صلى الله عليه وسلم: إني أجعلُ حساب أمتك إليك، فقال: لا يا رب، أنت خيرٌ لهم مني، قال: إذنْ لا أُخزيَك فيهم. وفي روايةٍ أخرى، عن أنسٍ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم سأل ربَّه في ذنوبِ أُمّتِه، فقال: يا ربّ، اجعَلْ حسابَهم إليَّ لئلّا يَطَّلعَ على مساوئهم غيري، فأوحَى اللهُ تعالى إليه: هم أُمّتُك وهم عبادي، وأنا أرحمُ بهم منك، لا أجعلُ حسابَهم إلى غيري كي لا تنظرَ إلى مساوئهم أنتَ ولا غيرُك، قال

(١) بل هو مروي في ابن ماجة (٤١٩٧).

صلى اللهُ عليه وسلم: "حياتي خيرٌ لكم، وموتي خيرٌ لكم، أمّا حياتي فأسُنُّ لكمُ السُّننَ وأُشرِّعُ لكم الشرائع، وأمّا موتي فإنّ أعمالَكم تُعرَضُ عليّ، فما رأيتُ منها حسنًا شكرتُ اللهَ عليه، وما رأيتُ منها قبيحًا استغفرتُ اللهَ لكم وسألتُه التوبةَ عليكم"[1].

ومن حديثِ أنسٍ الطويل، أنّ أعرابيًّا قال: يا رسُولَ الله، مَن يلي حسابَ الخَلْق؟ فقال: "اللهُ تبارك وتعالى"، فقال: هو بنفسِه؟ قال: "نعم"، فتبسَّم الأعرابيُّ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم: "ممَّ ضحكتَ يا أعرابيّ؟"، فقال: إنّ الكريمَ إذا قَدَر عفا وإذا حاسَب سامَح، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم: "صَدَق الأعرابيّ، ألا ولا كريمَ أكرمُ من الله، هو أكرمُ الأكرمين"، ثم قال: "فقُه الأعرابيّ"[2].

ومن حديثِ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم أنه قال: "ما خَلَق اللهُ شيئًا إلّا جَعل له ما يغلِبُه، وجَعل رحمتَه تغلِبُ غضبَه"[3].

---

(١) ينظر إحياء علوم الدين ٤/ ١٤٨.

(٢) الإحياء ٤/ ١٤٩.

(٣) أخرجه معمر بن راشد في الجامع الملحق بمصنف عبد الرزاق (٢١٠١٧)، والحاكم في المستدرك (٧٦٣٣)، وهو عند الغزالي في الإحياء ٤/ ١٥٠.

وفي الخبرِ المشهور: "إنّ اللهَ سبحانه كَتَب على نفسِه قبلَ أن يخلُقَ الخلقَ أنّ رحمتي سَبَقتْ غضَبي "(١).

ونقل أبو نُعيم في "حِليتِه"(٢)، عن وَهْب بن مُنبِّه، أنه قال: في الزَّبُور: يا داود، هل تدري مَن أسبقُ الناس مرورًا على الصِّراط؟ الذين يَرضَوْنَ بحُكمي وألسنتُهم رَهَبًا مِن ذكري، هل تدري أيُّ المؤمنينَ أحبُّ إلى أن أُطيلَ حياتَه؟ الذي [إذا](٣) قال: لا إلهَ إلا اللهُ اقشعرّ جلده، فإنّي أكرهُ لذلك المؤمنِ الموتَ كما يكرهُه الوالدُ لولدِه، ولا بدَّ منه، إنّي أريدُ أن أَسُرَّهُ في دارٍ سوى هذه، فإنّ نعيمَه فيها بلاءٌ ورخاؤه فيها شدّة، فيها عدُوٌّ لا يَأْلوهم خَبالًا يجري منهم مَجرى الدم، فمِن أجل ذلك عجَّلتُ أوليائي إلى الجنّة، لولا ذلك ما أمتُّ آدمَ ولا أحدًا من ولدِه المؤمنين حتى يُنفَخَ في الصُّور. إنّي أعلمُ ما تقولُ في نفسِك يا داود، تقولُ: أقطعتَ عنهم عبادتَك، أمَا تعلمُ يا داودُ أنّي أثيبُ المؤمنَ على عثرةٍ يعثرُها، فكيف لا أثيبُه على غُصَص الموتِ وسكراتِه وهو أعظمُ المصائب؟ وإنّما أحبِسُه طولَ ما أحبسُه بينَ طِباق الأرض أُعظمُ لهُ الأجرَ وأُجري عليه أحسنَ ما كان يعملُه إلى يوم القيامة.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٢٢) و (٧٤٥٣) و(٧٥٥٤).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٤/ ٤٦.

(٣) زيادة مقتضاة.

ومن هذا المعنى: ما حكاهُ ابنُ أبي جَمْرةَ رحمه اللهُ تعالى- وقد جاء عنه صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم في قوله: "يا مَن أظهر الجميلَ وسَتَر القبيحَ"[1]- أن اللهَ عزّ وجلَّ خَلَق تحتَ العرش تماثيلَ على صِفة كلِّ شخص من بني آدمَ، فإذا تحرَّك المؤمنُ بطاعةٍ تحرَّك ذلك التمثالُ بمثلِها فأبصَرتْهُ الملائكةُ فاستغفرتْ له ودعتْ، وإن كان بمخالفةٍ أو مكروه سَتَر اللهُ عزَّ وجلَّ ذلك التمثالَ عن الملائكة فلا يرونَهُ حين يتحرَّكُ بالمعصية، فسبحانَ من هذا حِلمُه بعدَ علمِه.

ومن كتاب ابن أبي جَمْرة، قال: قال رسُولُ الله صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم: "مَن أصبح وأمسى لا ينوي ظلمًا لأحدٍ غُفر له ما جَناه".

ومن حديثِ ربيع بن خِراش، عن أخيه، وكان من خيارِ التابعينَ، وهو ممَّن تكلَّم بعدَ الموت، قال: لمّا مات أخي سُجِّي بثوبِه وألقيْناهُ على نعشِه، فكُشِف الثوبُ عن وجهِه واستوى قاعدًا، فقال: إني لقيتُ ربّي عزَّ وجلَّ فحيّاني برُوح ورَيْحان وهو عنّي غيرُ غضبان، وإنّي رأيتُ الأمرَ أصغرَ مما تظنُّون، فلا تفتروا أنّ محمدًا صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم ينتظرُني هو وأصحابُه حتى أرجعَ إليهم، رواه السُّهَيليُّ وابنُ القطّان.

ومن حديثِ عُمرَ بن الخطاب رضي اللهُ عنه، قال: قَدِم سَبْيٌ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم، فإذا امرأةٌ قد تحَلَّب ثدياها تسعى كلّما وَجَدتْ صبيًّا في السَّبْي

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٩٠).

أخذتْه فألصقَتْهُ ببطنِها فأرضعتْه، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم: "أترَوْن هذه طارحةً ولدَها في النار؟" قلنا: لا، وهي تقدِرُ ألّا تطرحَه، فقال: "للّهُ أرحمُ بعبادِه من هذه بولدِها"، أخرجه البخاريُّ ومسلم بسنديهما(١).

ومن حديثِ عبد الله بن عَمْرِو بن العاص رضي اللهُ عنهما، أنّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم تلا قولَ اللهَ عزّ وجل: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [إبراهيم: ٣٦] وقولَ عيسى عليه السلام: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨]، فرَفَع يديْه ثم قال: "اللهُمَّ أُمّتي" وبكَى، فقال اللهُ عزَّ وجلّ: يا جبريل، اذهبْ إلى محمد- وربُّك أعلم- فسألَه: ما يُبكيك؟ فأتاه جبريلُ عليه السلام فسألهُ فأخبَرهُ رسُولُ الله، فأتاه جبريلُ بما قال وهو أعلمُ فقال اللهُ عزَّ وجلّ: يا جِبريل، اذهبْ إلى محمدٍ فقلْ له: إنّا سنُرضيكَ في أُمّتِك ولا نسوؤُك. هذا لفظُ مسلم، رَواه النَّسائيُّ أيضًا(٢).

ومن حديثِ عَتْبانَ بن مالكٍ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: " لا يشهدُ أحدٌ أنه لا إلهَ إلا الله وأنّي رسُولُ الله فيدخلُ النار أو تطعَمُه

(١) في الصحيحين: البخاري (٥٩٩٩) واللفظ له، ومسلم ٢٢- (٢٧٥٤)، وقول المصنف هنا: "بسنديهما" ليس بمفيد لأن السند عندهما واحد، وانظر: الجمع بين الصحيحين، لابن فتوح الحميدي ١/ ١١٦ حديث (٣٩).

(٢) مسلم ٣٤٦- (٢٠٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٠٥).

النار"، قال أنسُ بنُ مالك: فأعجبَني هذا الحديثُ فقلتُ لابني: اكتُبْهُ، فكتَبَه. رواه مسلم(١).

ومن حديثِ عبد الله بن عَمْرِو بن العاص رضي اللهُ عنهما، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ يستخلصُ رجُلًا من أُمّتي على رؤوس الخلائق يومَ القيامة فينشُرُ له تسعةً وتسعين سِجِلًا كلُّ سِجِلٍّ مثلَ مدِّ البصر، ثم يقول: أتُنكرُ من هذا شيئًا، أظلَمَك كَتَبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربّ، فيقول: ألكَ عُذر؟ فيقول: لا يا ربّ، فيقولُ الله: بلى، لكَ عندَنا حَسَنةٌ ولا ظُلمَ عليكَ اليوم، فيُخرجُ بطاقةً فيها أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله وأنّ محمدًا عبدُه ورسُولُه، فيقول: احضُرْ وزنَك، فيقول: يا ربّ، ما هذه البطاقةُ معَ هذه السِّجِلات؟ قال: فإنك لا تُظلم، قال: فتوضعُ السِّجِلاتُ في كِفّة والبطاقةُ في كِفّة، فطاشَت السِّجِلّاتُ وثقُلتِ البطاقة، ولا يَثقلُ معَ اسم الله شيءٌ". رواه الترمذيُّ وابنُ ماجةَ والحاكمُ وابنُ حِبّان، قال الحاكم: صحيحٌ على شرطِ مسلم(٢).

---

(١) بل قد رواه الشيخان، وهو أول حديث ابتدأ به الحميدي باب المتفق عليه عن عتبان بن مالك، انظر: الجمع بين الصحيحين ١/ ٤٣٢ (٦٩٩).

(٢) الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجة (٤٣٠٠)، والحاكم في المستدرك ٦/١ (٤٠٥)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٥م).

ومن حديثِ سالم، عن أبيه رضي اللهُ عنهما، قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "تَبلى الذُّنوبُ عن أُمّتي كما تَبلى الأبدان، حتى يُخرَجون من قبورِهم وما لأحدٍ منهم ذنب".

وبهذا السَّند، عن عبدِ الرزّاق[1]، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: "أُمّتي أُمّةٌ مرحومة، يُدخَلون القبورَ بذنوبِهم ويُخرَجون منها بلا ذنب"، فقيل: بمَ يا رسُولَ الله؟ فقال: "بطُول البِلى واستغفار الحيِّ للميت".

ورَوى القُرطبيُّ في "التذكرة"[2]، أنه إذا خَفَّت حسَناتُ المؤمن أخرجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بطاقةً كالأُنمُلة فيُلقيها في كِفّة الميزان اليُمنى التي فيها حسَناتُه فترجَحُ الحسنات، فيقولُ ذلك العبدُ المؤمنُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: بأبي أنتَ وأُمّي ما أحسَنَ وجهَك وما أحسَنَ خَلْقَك، فمن أنت؟ فيقول: أنا نبيُّك وهذه صلواتُك التي كنتَ تصلِّي عليَّ قد وفَّيتُك إياها أحوجَ ما كنتَ إليها"، [قال][3]: رواه القُشيريُّ في "تفسيره".

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) هو في التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ص ٧١٨، وفي تفسير القرطبي أيضًا تفسير القرطبي ٧/ ١٦٧.

(٣) زيادة لازمة.

ومن كتابِ أبي بكرٍ ابن الخطيبِ بسندِه[1]، عن أنس، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: "مَن قال: لا إلهَ إلا الله بَطَلَتْ[2] ما في صحيفتِه منَ السّيِّئات حتى يعودَ إلى مثلِها".

وحدَّث بسندِه[3]، عن ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ليس على أهل لا إلهَ إلّا الله وَحْشةٌ في قبورِهم كأنّي أنظر إليهم إذا انفَلقتِ الأرضُ عليهم يقولون: لا إلهَ إلا الله".

وحدَّث بسندِه[4]، عن محمدٍ المَوْصِليِّ قال: رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النّوم فقلتُ: يا رسُولَ الله، إنّ يحيى بنَ الحِمّانيِّ حدَّثني، عن عبدِ الرحمن بن زَيْد بن أسلمَ، عن أبيه، عن ابن عُمرَ رضي الله عنهما، عنكَ صلى اللهُ عليك، أنك قلتَ: ليس على أهل لا إلهَ إلّا اللهُ وَحشةٌ في قبورِهم ولا في نشورِهم، وكأنّي بأهل لا إلهَ إلّا الله ينفُضونَ الترابَ عن رؤوسِهم ويقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [فاطر: ٣٤]، فقال: صَدَق ابنُ الحِمّانيّ.

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٦١٧.

(٢) كذا في النسخة، وفي تاريخ بغداد: "طلست"، والطلس: المحو. الفائق في غريب الحديث (طلس).

(٣) تاريخ بغداد ٣/ ٢٣٨.

(٤) تاريخ بغداد ٢/ ٨٢.

وفي بعض الروايات، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان في بعض أسفارِه، فمرَّ بامرأةٍ تخبِزُ ومعَها صَبيٌّ لها، فقالت: يا رسُولَ الله، بَلَغَني أنك تقولُ: إنّ اللهَ سبحانه أرحمُ بعبادِه منَ الوالدة بولدِها، أفهو كما قيل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "نعم"، فقالت: إنّ الأُمَّ لَتتَّقي ولدَها بهذا التَّنُّور، فبكَى رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال: "إنّ اللهَ تعالى لا يُعذّبُ إلّا مَن أبَى أن يقول: لا إلهَ إلّا الله".

ورَوى أبو نعُيم[1]، عن مالكِ بن دينارٍ رضي الله عنه، عن أنسٍ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "أخبَرني جِبريلُ عليه السلام، عن الله عزَّ وجلّ، قال: وعزَّتي وجلالي ووَحدانيّتي وفاقةِ خَلْقي إليّ واستوائي على عرشي وارتفاع مكاني، إني لَأستحيي مِن عبدي وأَمَتي يَشيبانِ في الإسلام أنْ أُعذّبَهما"، ورأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم يبكي عند ذلك، فقلتُ: ما يُبكيكَ يا نبيَّ الله؟ قال: "بكيْتُ لمن يَستحيي اللهُ عزَّ وجلّ منه ولا يستحيي منَ الله عزّ وجلّ".

وذكر أبو نُعيم في "حِليتِه"[2]، أنّ رجُلًا سأل وَهْبَ بن مُنبِّه فقال له: حدِّثني رحِمك اللهُ عن زَبور داود، فقال: وَجدتُ في آخِره ثلاثينَ سطرًا: يا داود، اسمَعْ منّي والحقَّ أقول، مَن لقيَني وهو يُحبُّني أدخلتُه الجنةَ. يا داود، اسمَعْ منّي والحقَّ

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٢/ ٣٨٦.

(٢) حلية الأولياء ٤/ ٤٦.

أقول، مَن لقيَني وهُو يخافُ عذابي لم أُعذِّبْه. يا داود، اسمَعْ منّي والحقَّ أقول، مَن لقيَني وهُو مُستحيٍ من معاصيهِ أنسَيتُ حافظَيْهِ ذنوبَه ولم أسألْهُ عنها. يا داود، اسمَعْ منّي والحقَّ أقول، لو أنّ عبدًا من عبادي عَمِل حشوَ الدنيا ذنوبًا ثم نَدِم حَلْبَ شاة واستغفرَني مرّةً واحدة فعلِمتُ من قلبِه أنه لا يعودُ إليها إلّا ألقيتُها عنه أسرعَ من هبوطِ المطر منَ السَّماء إلى الأرض. يا داود، اسمَعْ منّي والحقَّ أقول، لو أنّ عبدًا أتاني بحسنةٍ واحدة حكَّمتُه في جنَّتي، قال: يا ربّ، من أجل ذلك لا يَحِلُّ لمن عرفَك أن يقطعَ رجاءهُ منك؟ فقال داود: يا ربِّ، وما تلك الحسنةُ؟ قال: تفريجُ كربِ المكروبين، ولو بتمرة".

ورَوى مسلمٌ[١]، عن أبي بَرّةَ، أنه حدَّث عُمرُ بنُ عبد العزيز، عن أبي موسى رضي اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يموتُ رجُلٌ مسلمٌ إلّا أدخلَ اللهُ مكانَه النارَ يهوديًّا أو نصرانيًّا"، الحديثَ.

ومن حديثِ جابرٍ رضي اللهُ عنه، قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ: "مَن لقيَ اللهَ لا يُشركُ به شيئًا دَخَل الجنّة، ومَن لقيَهُ يُشركُ به دَخَل النار"، أخرجه مسلمٌ في صحيحه[٢].

---

(١) صحيح مسلم ٥٠- (٢٧٦٧).

(٢) صحيح مسلم ١٥٢- (٩٣).

وعن أبي ذرٍّ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "أتاني جبريلُ عليه السلامُ فبشَّرني أنه مَن ماتَ من أُمّتِك لا يُشركُ بالله دَخَل الجنّة، قلتُ: وإنْ زَنَى وإنْ سَرق؟ قال: وإنْ زنَى وإن سَرق"، أخرجه مسلمٌ أيضًا[١].

ومن طريق أبي ذرٍّ، أنه قال: جلستُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقال: "ما مِن عبدٍ قال: لا إلهَ إلّا الله، ثم مات على ذلك، دَخَل الجنّةَ"، قلتُ: وإنْ زنَى وإن سَرَق؟ قال: "وإنْ زنَى وإنْ سَرَق" ثلاثًا، ثم قال في الرابعة: "على رغم أنفِ أبي ذرّ"، قال: فخَرج أبو ذرٍّ يقول: رَغِم أنفُ أبي ذرّ[٢].

ورواه البخاريُّ أيضًا[٣] عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أتاني آتٍ من ربّي فأخبَرني- أو قال: بشَّرني- أنه مَن مات من أُمّتي لا يشركُ بالله شيئًا دَخَل الجنةَ".

وعن محمدِ بن واسع، عن ابنِ سيرينَ، عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "تَحَرُمُ النارُ على كلِّ هيِّنٍ ليّن سهلٍ قريب"، أخرجه أبو نُعيم في "حليتِه"[٤].

---

(١) صحيح مسلم ١٥٣ و٣٢- (٩٤).

(٢) رواه مسلم ١٥٤ - (٩٤)، واللفظ له، وهو في البخاري (٥٨٢٧).

(٣) البخاري (١٢٣٧)، وهو من أفراده.

(٤) حلية الأولياء ٢/ ٣٥٦.

ومن حديثِ أنسٍ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَن صلَّى في اليوم اثنتَيْ عشْرةَ ركعةً حرَّم اللهُ عزّ وجلَّ لحمَه على النار"، رواه أبو نُعيم أيضًا في "الحلية"[١].

ومن حديثِ ابن مسعودٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم، أنه قال: "سمعتُ مُناديًا يُنادي كلَّما حانتْ صَلاةٌ من الخمسِ فيقول: يا بَني آدم، قوموا فأطفئوا عنكم ما أوقَدتُم على أنفُسِكم، فيقومونَ فيتطهَّرونَ فتسقُطُ خطاياهم من أعيُنِهم، فيُصَلُّون، فيُغفَرُ لهم ما بينَهما، فإنْ حَضَرتِ العصرُ فمِثلُ ذلك، وإذا حَضَرتِ المغربُ فمِثل ذلك، وإذا حَضَرتِ العتَمةُ فمِثل ذلك، فينامونُ وقد غُفر لهم"، ثم قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "فمُدلِجٌ في الخير ومُدلِجٌ في الشرّ".

وآياتُ القرآن وأحاديثُ الرَّجاءِ كثيرة، وهذا القدْرُ في هذا المختصَر كافٍ، وقصَدْنا من جمْعِها أن يُذكَّرَ بها المحتضَرُ لعلّه يموتُ وهُو مُحسِنُ الظنِّ بالله تعالى، وقد قال عبدُ الحقّ: أمّا حُسنُ الظنِّ بالله عزَّ وجلَّ فواجبٌ يتأكَّدُ وجوبُه عند مُعاينة أسبابِ الموت، وينبغي ترجيحُ الخوفِ عليه حالةَ الصِّحةِ والأمن، ليكونَ مُزعجًا لهُ منَ الاستكثار منَ الأعمالِ الصّالحة والكفِّ عن المساوئ وقبائح

(١) حلية الأولياء ٣/ ١٠٦.

الأعمال، وقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحيْهما[1]، عن جابرٍ رضي الله عنه، قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قبلَ وفاتِه بثلاثةِ أيام يقول: "لا يَموتَنَّ أحدُكم إلّا وهو يُحسنُ الظنَّ بالله تعالى"، وفي رواية: "إلّا وهو حَسَنُ الظنِّ بالله".

وقد رَوى البخاريُّ ومسلمٌ، والترمذيُّ والنَّسائيُّ وابنُ ماجةَ[2]، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: أنا عندَ ظنِّ عبْدي بي، وأنا معَه إذا ذَكَرني"، الحديثَ.

وقال القُرطبيُّ: حُسنُ الظنِّ بالله ثمنُ الجنّة.

ورُوي عن ابنِ عُمر رضي اللهُ عنهما، أنه قال: عَمودُ الدينِ وغايةُ مجدِه وذِروةُ سَنامِه: حُسنُ الظنِّ بالله، فمَن مات منكم وهو يُحسنُ الظنَّ بالله تعالى دَخل الجنةَ مُدِلًّا.

وقال ابنُ مسعود: واللهِ الذي لا إلهَ غيرُه، لا يُحسنُ أحدٌ الظنَّ بالله إلّا أعطاهُ اللهُ ظنَّه، وذلك أنّ الخيرَ بيدِه.

---

(١) هو من أفراد مسلم: ٨١ و٨٢- (٢٨٧٧).

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥) و (٧٥٠٥)، ومسلم ١ و٢ و١٩- (٢٦٧٥)، والترمذي (٢٣٨٨) و(٣٦٠٣)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٦٨٣)، وابن ماجة (٣٨٢٢).

وقال ابنُ المبارك: أخبرنا سفيانُ، أنّ ابنَ عباس رضي اللهُ عنهما قال: إذا رأيتُم الموتَ بالرَّجُل فبشِّروه ليلقَى ربَّه وهُو يُحسِنُ الظنَّ به، وإذا كان صحيحًا فخوِّفوه.

وحدَّث ابنُ أبي الدُّنيا بسندِه، عن المُعتمر بن سُليمان، قال: قال لي أبي حينَ حضرته الوفاةُ: يا مُعتمر، حدِّثني بالرَّخِص، لعلّي ألقى اللهَ وأنا أُحسِنُ الظنَّ به.

وحدَّث بسندِه، عن حَسَن، عن إبراهيمَ، قال: كانوا يستحبُّون أن يُلقَّن العبدُ محاسنَ عملِه عند الموت.

ولما احتُضر عَمرُو بن العاص[1] رضي الله عنه اشتدَّ خوفُه وتزايَد كربُه، فجلسَ عند رأسِه ابنُه عبدُ الله، فقال له: هوِّنْ عليك يا أبتِ، فإنك أسلمتَ طائعًا وهاجرتَ متطوِّعًا وصاحبتَ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ناصحًا وجاهدتَ المشركينَ حتى ظَهَر أمرُ الله وهم كارهون، فإنْ ألحَمتَ بشيءٍ زمنَ الفتنة فإنّي

---

(١) يروي الحافظ ابن حجر في الإصابة نحو هذا الخبر مرتين في ترجمة صحابيين من كتابه ليس منهما عمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين: مرة في ترجمة شيبان النّخعين وأنه خرج في جيش على حمار له في زمن عمر، فوقع الحمار ميتًا، فدعاه أصحابه ليحملوه ومتاعه، فامتنع فقام فتوضّأ ثم قام عند رأسه، فقال: اللَّهمّ إني أسلمت لك طائعًا، وهاجرت مختارًا في سبيلك ابتغاء مرضاتك، وإنّ حماري كان يعينني ويكفيني عن النّاس، فقوّني به وأحيه لي، ولا تجعل لأحد عليّ منّة غيرك، فنقض الحمار رأسه، وقام فشدّ عليه ولحق بأصحابه. انتهى. والمرة الثانية: في ترجمة نباتة بن يزيد النخعي، بنحو قصة الأول. الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٣١٤ (٤٠١١) و٦/ ٣٨٦ (٨٨٧٣).

أظُنُّ أنّ اللهَ يغفرُ لك بصُحبة رسُول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه بلغني عنه أنهُ قال: "إنّ أصحابي سيكبُونَ من بعدي كبْوةً يغفرُها اللهُ لهم بصُحبة[1]، فسُرِّي عن عَمرٍو ثم قال: جزاكَ اللهُ عني خيرًا يا ولدي، وَجَدتُني وقد كنتُ أقنُطُ فأخَذتَ بضَبْعي، ثم قال له: يا أبتِ، سمعتُك تقول: عجبًا لامرئٍ يأتيه الموتُ وهو في غفلةٍ كيف لا يخبرُ أصحابَه بشأنها، فقال له: يا بُنيّ، إنّ الموتَ لَأمرٌ عظيم، وسأخبرُكَ عنها بشيءٍ لا يُخبرُكَ به أحدٌ من بعدي، كأنّ جبالَ الدُّنيا كلَّها قد وُضِعت عليّ، وكأنّي أتنفَّسُ من سَمِّ الخياط، فلو أستطيعُ صياحًا لصِحت، ولو أستطيعُ فرارًا لَفَررت، وكأنّ في كلِّ عِرق من عروق جسمي كُلوباً من نارٍ تجذِبُ رُوحي، وكأنّ أحشائي تقطَّعُ، والموتُ أهونُ من جميع ما ذكَرتُ، ولو لم يكنْ إلّا الموتُ لَهان الأمرُ عليّ، فإنما هو صبرُ فِراق ثم يَنقضي، وإنما أخافُ هولَ المطلَع وعذاباً لا ينقطع وخِزياً لا ينفَد، ولكنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له. وخرجتْ روحُه.

ومرِض أعرابيٌّ فقيل له: إنك تموت، قال: فإذا مِتُّ فأين يُذهَبُ بي؟ فقالوا: إلى الله سبحانه، فقال: وما أكرهُ أن يُذهبَ بي إلى مَن لم أرَ خيراً قطُّ إلّا من يدِه.

ورأى الأستاذُ أبو سهل الصُّعلوكيُّ أبا سهلٍ الزجّاجَ في المنام، وكان يقولُ بوعيدِ الأبد، فقال له: كيف حالُك؟ قال لهُ: وجدْنا الأمرَ أسهلَ ممّا توهَّمنا.

---

(١) كذا.

ورأى بعضُهم أبا سهل الصُّعلوكيَّ في المنام على هيئةٍ حسَنةٍ، فقال له: يا أستاذُ، بمَ نلتَ هذا؟ قال: بحُسن ظنِّي بربّي.

وحُكيَ أنّ أبا العبّاس بنَ شُرَيْح رأى في مرضِ موتِه كأنّ القيامةَ قد قامتْ وإذا الجبارُ سبحانه يقول: أين العلماء؟ فجاؤوا، ثم قال: ماذا عملتُم فيما عُلِّمتُم؟ قالوا: يا ربّ، قصَّرْنا وأسأْنا، قال: فأعاد السؤالُ كأنه لم يرضَ الجوابَ وأراد جواباً آخرَ، فقلتُ: أمّا أنا فليس في صحيفتي الشِّرك، وإنك واعدتَنا أنك تغفرُ ما دونَ ذلك وأنك لا تُخلفُ الميعاد، قال: اذهبوا، فلقد غفرتُ لكم. ولم يعِشْ بعدَ ذلك إلّا ثلاثَ ليال.

ومن حديثِ أنسٍ رضي اللهُ عنه، قال: أردَفَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم معاذَ بنَ جَبَل، قال: فقال: "يا معاذُ بنَ جَبل"، قال: لبَّيْكَ يا رسُولَ الله وسَعْديْك، قال: "يا معاذُ بنَ جَبل"، قال: لبَّيْكَ يا رسُولَ الله وسَعْديْك، قال: "يا معاذُ"، قال: لبَّيْكَ يا رسُولَ الله وسَعْديْك، ثلاثاً، قال: "ما مِن عبدٍ يشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله وأنّ محمداً عبدُه ورسُولُه إلّا حرَّمه اللهُ على النار"، قال: يا رسُولَ الله، ألا أُخبرُ به الناسَ فيستبشِروا؟ قال: "إذنْ يتَّكلوا"، فأخبَرَ به معاذٌ عندَ موتِه تأثُّماً. أخرجه الشيخان(١).

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم ٥٣- (٣٢).

ومن حديثِ أبي هريرةَ، عن معاذِ بن جَبل رضي اللهُ عنه، قال: كنتُ أردَفُ[١] النبيَّ صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينَه إلّا مؤخرةُ الرَّحْل، فقال: "يا معاذُ بنَ جَبل"، قال: قلتُ: لبَّيْكَ يا رسُولَ الله وسَعْدَيْك، ثم سارَ ساعةً ثم قال: "يا معاذُ بنَ جَبل"، قلت: لبَّيْكَ يا رسُولَ الله وسَعْديْك، ثم سارَ ساعةً ثم قال: "يا معاذُ بنَ جَبل"، قلت: لبَّيْكَ يا رسُولَ الله وسَعْدَيْك، قال: "هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟"، قلتُ: اللهُ ورسُولُه أعلم، قال: "فإنّ حقَّ الله على العباد أن يعبُدوهُ ولا يُشركوا به شيئاً"، ثم سارَ ساعةً ثم قال: "يا معاذُ بنَ جَبل"، قلت: لبَّيْكَ يا رسُولَ الله وسَعْديْك، قال: "هل تدري ما حقُّ العبادِ على الله إذا فَعَلوا ذلك؟"، قلتُ: اللهُ ورسُولُه أعلم، قال: "ألّا يُعذِّبَهم". رواه مسلمٌ في صحيحِه[٢].

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: أعطاني النبيُّ صلى الله عليه وسلم نَعليْهِ فقال: "اذهبْ بنعلَيَّ هاتيْنِ، فمن لقِيتَ وراءَ هذا الحائطِ شهِد أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ مُستيقناً بها قلبُه فبشِّرْهُ بالجنّة". أخرجه مسلمٌ أيضاً[٣].

ومن حديثِ ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، أن النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال: "أخبرني جِبريلُ عليه السلامُ أنّ لا إلهَ إلّا الله أنيسُ المسلم عندَ موتِه وفي قبرِه

---

(١) ردفه، كسمعه، أو: نصره، الوجهان، وردفه وأردفه. تاج العروس (ردف).

(٢) بل متفق عليه للشيخين، انظر: الجمع بين الصحيحين ١/ ٣٩٧ (٦٣٩).

(٣) مسلم ٥٢- (٣١).

وحين يَخرُجُ من قبرِه. يا محمد، لو تراهم حين يُخرَجونَ من قبورِهم يَنفُضونَ الترابَ عن رؤوسِهم هذا يقولُ: لا إلهَ إلّا الله والحمدُ لله فيبيَضُّ وجهُه، وهذا يُنادي: يا حسرتي على ما فرَّطتُ في جَنْب الله، فيسودُّ وجهُه"، أخرجه القُرطبيُّ في "تذكرتِه".

ومن حديثِ عبدِ الله بن مسعود رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ألا أُخبرُكم بمن يحرمُ على النار أو بمَن تحرمُ عليه النار؟ على كلِّ قريبٍ هيّنٍ سهل"، أخرجه الترمذيُّ في الغُرباء[١].

ومن حديثِ مالكِ بن أنس، عن نافع، عن ابنِ عُمرَ رضي اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "مَن قضى لأخيه حاجةً كنتُ واقفاً عندَ ميزانِه، فإنْ رَجَح وإلّا شفعتُ"[٢]. قال القُرطبيُّ[٣]: قال الحَسَن: يقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامة: جُوزوا على الصِّراط بعَفْوِي، وادخُلوا الجنّةَ برحمتي، واقتسِموها بأعمالِكم.

---

(١) الترمذي (٢٤٨٨)، وقال: "هذا حديث حسن غريب".

(٢) حلية الأولياء ٦/ ٣٥٣.

(٣) في التذكرة، ص٧٩٤.

ويُروى أنّ رسُول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "يُنادي مُنادٍ من تحتِ العرش يومَ القيامة: أنْ يا أُمّةَ محمد، أمّا ما كان لي قبلكم فقد وهبتُه لكم وبقَيِتِ التَّبِعاتُ فيما بينكم، فتواهبوها وادخُلوا الجنّةَ برحمتي"، أخرجه الترمذيّ(١).

ومن حديثِ جابر بن عبد الله رضي اللهُ عنهما، أنه قال: مَن زادتْ حَسَناتُهُ على سيِّئاتِه يومَ القيامة فذلك الذي يُحاسَبُ حساباً يسيراً ثم يُدخَلُ الجنّة، وإنّما شفاعةُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم لمَن أوْبَقَ نفسَه وأثقلَ ظهرَه. أخرجه ابنُ ماجة(٢).

ومن حديثِ أبي الجَوزاءِ، أنه قال لجُلسائه: لو أنّ ناساً من فُقهائكم وأغنيائكم انطَلَقوا إلى رجُل فقيهٍ غنيٍّ فسألوه كُوزاً من ماء، أكان يعطيه إياهم؟ قالوا: يا أبا الجوزاء، ومَن ذا يمنَعُ كوزاً من ماء؟ قال أبو الجوزاء: والله، لَـهُ تعالى أجودُ بجنّتِه من ذلك الرجُل بذلك الكُوز من الماء. رواه أبو نُعيم في "حليتِه"(٣).

ومن حديثِ عائشةَ رضي اللهُ عنها، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "مَن بلغ ثمانينَ لم يُعرَضْ ولم يُحاسَبْ وقيل لهُ: ادخُل(٤) الجنّةَ". أخرجه أبو نُعيم في "الحِلية"(١).

---

(١) هو في "الإحياء" ٣/ ١٨٢ ولم يعزه الإمام الغزالي إلى الترمذي.

(٢) هو في "الإحياء" ٤/ ٥٤٥ ولم يعزه الإمام الغزالي إليه.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ٧٩.

(٤) في النسخة: "ادخلوا".

ومن حديث أنسٍ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ما مِن مسلم يموتُ فيشهدُ له أربعةٌ أنه من أهل الخير إلّا قال اللهُ تعالى: قد قبِلتُ قولَكم- أو قال: شهادتَكم- وغفرتُ له ما لا تعلمون". أخرجه أبو نُعيم أيضاً[٢].

وقال سهلُ بن عبد الله: ليس لَمن يقولُ: لا إلهَ إلّا الله ثوابٌ إلّا النظرُ في وجهِ الله تعالى، والجنّةُ ثوابُ الأعمال.

فصـــلٌ

ومن السُّنّة المأثورة: تلقينُ المولود والميِّت، كما في حديثِ عليٍّ رضي الله عنه، [أنه قال][٣]: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن وُلد له مولودٌ فأذَّن في أُذُنِه اليُمنى وأقام في اليُسرى لم تَضُرَّه أُمُّ الصِّبيان"[٤].

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢١٥.

(٢) لم أقف عليه عنده.

(٣) زيادة لازمة.

(٤) وهو الصرع الذي يعرض مع حمّى حادّة، وقيل: هو ضرب من الصرع يخص بهذا الاسم عند عروضه للصبيان، وربما سمي ريح الصبيان أو أم الشياطين أو فزع الصبيان، وربما يسمّى الصرع مطلقًا أم الصبيان، لكثرة ما يعتريهم. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (بتصرف)، للتهانوي ١/ ٢٦٧.

ويُسَنُّ التأذينُ- كما ذكَره صاحبُ "تُحفة الودود بأحكام المولود"[1]-: قال: ينبغي أن يكونَ أولَ ما يقرَعُ سمْعَ المولود كلماتُ الله المُتضمِّنةُ لكبريائه وعظَمته، والشهادةُ التي هي أولُ ما يَدخُلُ بها في دائرة الإسلام، فيكونُ ذلك كالتلقين له بشِعار الدِّين عندَ دخولِه في الدُّنيا، كما يُلقَّنُ كلمةَ التوحيد عندَ خروجِه منها، معَ زيادةِ فائدةٍ أخرى وهي طردُ الشّيطان عنه وخروجُه من صدرِه بسَماع كلماتِ الأذان عندما يَرومُ الإلمامَ به ومقارنتَه له بالمحبّةِ التي قدَّرها اللهُ تعالى وشاءها، فسَمِع الشيطانُ ما يُضعفُ كيدَه ويَغيظُه ويُبكيه، لعلمِه أنه قد لقِنَ حُجّتَه عندَ أول علوقِه به.

وكذلك ينبغي الاحتماءُ له من نَزْغة الشّيطان وغِوايتِه عند مَظِنّة التخلُّق، كما جاء عنهُ صلى الله عليه وسلم بروايات جَمّة، أنه صلى الله عليه وسلم قال: "مَن قال منكم عندَ جماع زوجتِه: بسم الله، اللهُمَّ جنِّبْنا الشيطانَ وجنِّبِ الشيطانَ ما[2] رزقتَنا فقُدِّر بينَهما مولودٌ لم يَضُرَّه الشيطانُ"، رواه أبو داودَ والترمذيُّ والنَّسائيُّ[3]، وكما يدُلُّ عليه قولُه تعالى: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى

(١) تحفة المودود بأحكام المولود، لابن قيم الجوزية، ص ٣١.

(٢) في النسخة هنا وفي الموضع الآتي: "مما"، خطأ ظاهر، والتصويب من مصادر التخريج عقبه.

(٣) كذا قال، وهو في الصحيحين أولًا، ينظر: صحيح البخاري (١٤١) و(٣٢٧١) و(٦٣٨٨) و(٧٣٩٦)، ومسلم ١١٦- (١٤٣٤). وأخرجه أبو داود (٢١٦١)، والترمذي (١٠٩٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٠٢٤) و(١٠٠٢٨).

شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ} [البقرة: ٢٢٣] بأنْ تقولوا عندَ الجِماع: بسم الله، اللهُمَّ جنِّبْنا الشيطانَ وجنِّبِ الشيطانَ ما رزقتَنا.

ومن حديثِ البزّارِ والبيهقيِّ يرفعانِه عن[١] أبي هريرة، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ منكم مُخْلَطين"، قالوا: وما المُخْلَطونَ يا رسُولَ الله؟ قال: "مَن له أبَوان: أبٌ من الجنِّ وأبٌ منَ الإنس"، قلنا: كيفَ ذلك يا رسُولَ الله؟ قال: *"إذا أتى الرجُلُ زوجتَه فلم يُسمِّ اللهَ انطَوى الشيطانُ على إحليلِه فجامَعَ معَه فكان له أبوانِ: أبٌ من الجنِّ وأبٍ من الإنس"*[٢].

وأمّا تلقينُ الموتى هذه الشهادةَ فإنها سُنّةٌ مؤْثَرةٌ عمِل بها المسلمون ليكونَ آخرَ كلامِه: لا إلهَ إلا الله، فإذا قالها مرةً واحدةً فلا تُعادُ عليه لئلّا يضجَر، فإن تكلَّم بكلام ثلاثاً أعيدُ عليه.

ورَوى مسلمٌ[٣]، عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ وأبي هريرةَ رضي اللهُ تعالى عنهما، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "لقِّنوا موتاكم لا إلهَ إلّا الله". قال القُرطُبيّ[٤]:

---

(١) في النسخة: إلى، ولا يصح، كما لا يخفى.

(٢) ما بين نجمين مخرج في تفسير الطبري ٢٢/ ٢٤٨ وغيره، من كلام مجاهد، ولم أجده مرفوعًا في شيء من مظان الحديث النبوي.

(٣) مسلم ١- (٩١٦).

(٤) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ص١٧٧.

وذكر ابنُ أبي الدنيا، عن عثمانَ بن عفّان رضي اللهُ عنه، أنه قال: "إذا احتُضر الميتُ فلقِّنوهُ لا إلهَ إلّا الله، فإنه ما مِن عبدٍ يُختَمُ لهُ بها إلّا كانت زادَه إلى الجنة".

وقال عُمرُ بنُ الخطاب رضي اللهُ عنه: احضُروا موتاكم ولقِّنوهُم، فإنهم يَرَوْنَ ما لا تَرَوْن[١].

ورَوى أبو نُعيم[٢]، عن واثلةَ بن الأسقَع رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "احضُروا موتاكم ولقِّنوهم لا إلهَ إلّا الله، وبشِّروهم بالجنّةِ، فإنّ الحليمَ من الرّجال يتحيَّرُ عند ذلك المصرَع، وإنّ الشيطانَ أقربُ ما يكونُ منَ ابن آدم حينَئذٍ"، الحديثَ.

ومن حديثِ معاذِ بن جَبل رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "مَن كان آخرَ كلامه لا إلهَ إلّا الله، دَخل الجنّة"، أخرجه أبو داودَ والحاكمُ في "المستدرَك"[٣].

ومن حديثِ نافع، قال: قلتُ لعبدِ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما: ما أكثرُ ما سمعتَ من رسُول الله صلى الله عليه وسلم في الرُّخصة؟ قال: سمعتُ رسُولَ

---

(١) المرجع السابق.

(٢) في حلية الأولياء ٥/ ١٨٦.

(٣) رواه أبو داود (٣١١٦)، والحاكم (١٢٩٩) و(١٨٤٢).

الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إني لَأرجو أن لا يموتَ أحدٌ شهِدَ أنْ لا إلهَ إلّا الله مُخلصاً من قلبِه فيُعذِّبَه الله"، أخرجه ابنُ الخطيب بسنده(١).

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "حضَر ملَكُ الموت عليه السلامُ رجلاً، فنظَر في عُضو من أعضائه فلم يجدْ حَسَنةً، ثم شقَّ عن قلبِه فلم يجدْ فيه شيئاً، ثم فكَّ عن لَحيَيْه فوَجَد طرفَ لسانِه لاصقاً بحنكِه يقولُ: لا إلهَ إلّا الله، فقال: وَجَبتْ لك الجنّةُ بقولِكَ كلمةَ الإخلاص"(٢).

فصلٌ: فيما يخافُ من سُوءِ الخاتمة

قال اللهُ تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: ١١٠]، ولمّا نزلتْ هذه الآيةُ وَجَدت الصّحابةُ بها وَجْداً شديداً، فقالوا: يا رسولَ الله، أنخافُ من سَلبِ الإيمان بعدَما خالطَتْ بشاشتُه قلوَبنا واطمأنَّت إليه أنفسُنا؟ قال: "نعمْ، إنّ قلوبَ العباد بينَ إصبعيْنِ من أصابع الله يُقلِّبُها ظَهراً لبطن"، فلم يُر باكياً مثلَ ذلك اليوم، فغطَّى أصحابُ رسُول الله صلى الله عليه وسلم وجوهَهم بحراماتِهم وجَعلوا يبكُونَ ولهم حنينٌ بالبكاء، فقال لهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أكثروا من قول: اللهُمَّ يا

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ١٤٦.

(٢) مروي في الدعاء، للطبراني (١٤٧٣) وفي سواه.

مُثبِّتَ القلوب ثبِّتْ قلوبَنا على دينِك"[1]. فلم يهدأوا ولم يطمئنُّوا حتى أنزلَ اللهُ تعالى قولَه: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧].

ومن حديثِ عائشةَ رضي اللهُ عنها، قالت: كنتُ كثيراً ما أسمعُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهُمَّ يا مُثبِّتَ القلوب ثبِّتْ قلبي على دينِك"، فقالت له رضي اللهُ عنها: ما لي كثيراً ما أسمعُك تدعو بهذا الدعاء؟ فقال لها: "يا عائشة، الأمورُ بخواتمِها، ولا ينبغي لأحدٍ أن يأمَنَ سُوءَ الخاتمة بعدَ إبليسَ، فإنّ قلوبَ العباد بيدِ الله لم يُملِّكْهم شيئاً من أمرِها، فاستعيذي بالله من سُوءِ الخاتمة، فإنّ ذلك من أهمِّ الأمور وأخوفُ ما يُخافُ على العباد"، أخرجه الترمذيُّ وأبو داودَ بسندَيْهما[2].

ورُويَ أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لقيَ جبريلَ وهو باكٍ وقد صار كالحِلْسِ البالي من شدَّة تضاؤلِه، فقال له: "ما هذا الحزنُ والبكاءُ والتضاؤلُ يا جِبريلُ بعدَما أمَّنك اللهُ وأثنى عليك؟"، فقال لهُ: يا محمد، إنّ عِلمَ الله واسعٌ ومَكْرُه مَخُوف، وإنّي أخافُ سُوءَ القضاء وسُقوطَ القَدَر كما فُعل بإبليسَ، فإنه كان من

---

(١) بعضه في سنن ابن ماجة (١٩٩)، والسنن الكبرى للنسائي (٧٦٩١)، وغيرهما، من حديث النواس بن سمعان.

(٢) أخرج نحوه الترمذي (٣٥٢٢) عن أم سلمة، ثم قال: "وفي الباب عن عائشة، والنواس بن سمعان، وأنس، وجابر، وعبد الله بن عمرو، ونعيم بن حماد. وهذا حديث حسن".

أعبَدِ الملائكة وأخوَفِهم منَ الله والمقدَّمَ عليهم فأسقَط اللهُ قدَرَه حتى صار أشرَّ المخلوقاتِ طريداً رَجيماً ملعوناً، فبكى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: "اللهُمَّ إنّي أعوذُ بكَ من سُقوط القدَر وسُوءِ القضاء وعُضال الدّاء وشَماتةِ الأعداء وخيْبةِ الرَّجاء"، أخرجه النَّسائيُّ وغيرُه.

ورُويَ أنّ أبا بكرٍ رضي الله عنه كان أَسِيفاً، فسمعَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يوماً يقولُ: "آخِرُ من يَدخُل الجنّةَ رجلٌ يقالُ له: هَنّاد"، فقال: يا ليتني كنتُ هَنّاداً، فقيل له في ذلك، فقال: إذا مِتُّ على الإسلام فلا أُبالي بما فعلتُ بعدَها، فإنّ كلَّ مُنقطع قليل، وإنما أخافُ سُوءَ الخاتمة فأَخلُدُ في النار.

ورُويَ أنه رأى يوماً شجرةً تُعضَد، فقال: ليتَني كنتُ شجرةً تُعضَدُ كلَّ يوم ولم أكنْ إنساناً.

انظُروا إلى خوفِ أبي بكرٍ رضي اللهُ عنه منَ الخاتمة بعدَما بشَّره رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بالجنّة، وبعدَ ثناءِ الله عليه بقولِه: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ} [الزمر: ٣٣]، الآيةَ. فكيف لا يخافُها المُتَلوِّنُ بالمعاصي الغريقُ في بحر الشهَوات والغَفَلاتِ(١) الظانُّ أنّ اللهَ إنّما خَلَقَه سُدًى؟

---

(١) في النسخة: والغافلات.

وكان حاتمٌ الأصمُّ[1] رضي الله عنه لا يزالُ حزيناً باكياً، وكان مصيبتُه بين يديْه، فقيل لهُ يوماً: ما يسُرُّك يا حاتم؟ فقال: لا يسُرُّني شيءٌ إلّا أنْ لا أُخلَقَ، فإني إذا نجَوتُ رأيتُ منَ الأهوال ما يُشيبُ الطفلَ الصَّغير، وإنْ لم أنجُ فالخِزيُ والهوانُ بينَ يدَي الله أشدُّ من عذابِ النار ولو أنه كافٍ.

وكان عثمانُ رضي اللهُ عنه تُذكَرُ النارُ عندَه فلا يبالي، فإذا ذُكر الموتُ أخَذَه العويلُ والزَّويل، فقيل لهُ في ذلك فقال: إنّما أخشى سُوءَ الخاتِمَة وإنّما هو عندَ الموت، فمن نُجِّي عندَ الموت فما بعدَه أهونُ منه، ومَن أوْبَقَ عندَ الموت فما بعدَه أشدُّ منه، فأسألوا اللهَ حُسنَ الخاتمة، فإنّ المرءَ يموتُ على ما عاشَ عليه ويُبعَثُ على ما ماتَ عليه.

وأوّلُ من ارتدَّ وماتَ على سُوءِ الخاتمةِ من أصحابِ الأنبياء: قارونُ، وكان أعلمَ بني إسرائيلَ بعدَ موسى وهارون، وأقرأَهم للتوراة وأجملَهم وأغناهم، وكان حسَنَ الصّوتِ، فبغَى وطغَى، وكان أولّ طُغيانِه وعِصيانه أنّ اللهَ تعالى أوحى إلى موسى أن يأمُرَ قومَه أن يُعلِّقوا في أرْدِيتِهم خيوطاً أربعة، في كلِّ طَرَف خيطٌ أخضرُ كلون السّماء يذكُرون إذا نَظَروا إليها لونَ السّماء فيَعلمونَ أني مُنزِلٌ منها

(١) حاتم بن عنوان، أَبو عبد الرحمن، الأصم البلخي (ت٢٣٧هـ): كانَ أحد من عرف بالزهد والتقلل، ناطقًا بالحكمة، مشتهرًا بالورع والتقشف، وله كلام عجب مدون في الزهد والوعظ والحكم، وكان يقال له: لقمان هذه الأمة، زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل. تاريخ بغداد ٩/ ١٤٩، وتاريخ الإسلام ٥/ ٨٠١، والأعلام للزركلي ٢/ ١٥٢.

كلامي، فقال موسى: يا ربّ، أفلا أمرتَهم أنْ يجعلوا أردِيتَهم كلَّها خضراءَ[١] فإنّ بني إسرائيلَ يستصغرونَ هذه الخيوط، فقال لهُ ربُّه: يا موسى، إنّ الصغيرَ من أمري ليس بصغيرٍ، فإذا لم يطيعوني في الأمرِ الصَّغيرِ لم يُطيعوني في الأمرِ الكبيرِ، فدعاهُم موسى وقال: إنّ اللهَ يأمُرُكم أن تُعلِّقوا في أرديتِكم خيوطاً خُضْراً كلون السَّماء لكي تذكُروا ربَّكم إذا رأيتُموها، ففعلتْ بنو إسرائيلَ ما أَمَرَهم به موسى، واستكبَرَ قارونُ وقال: إنما يفعلُ هذا الأربابُ لعبيدِهم لكي يتميَّزوا عن غيرِهم، وكان هذا بدءَ عصيانِه وبغيِه، فلمّا قَطَع موسى ببني إسرائيلَ البحرَ جُعِلتِ الحَبْريّةُ لهارونَ، وهي رياسةُ المذبَح، فكان بنو إسرائيلَ يأتونَ بقُربانِهم إلى هارونَ فيضعُه على المذبَح فتُنزلُ ناراً من السَّماء فيأكلُه، فوَجَد قارونُ من ذلك في نفسِه، فأتى موسى فقال لهُ: يا موسى، لكَ الرياسةُ ولهارونَ الحَبْرةُ ولسنا في شيءٍ من ذلك وأنا أقرأُ التوراةَ، لا صبرَ لي على ذلك، فقال موسى: ما أنا جعلتُها لهارون بل اللهُ جَعَلَها لهُ، فقال له قارون: والله لا أُصدِّقُكَ حتى تُرِيَني بيانَه، فجمع موسى رؤساءَ بني إسرائيلَ فقال: هاتوا عِصِيَّكم، فحَرَقَها وألقاها في قُبّتِه التي يتعبَّدُ فيها وجعلوا يحرُسونَ عِصِيَّهم حتى أصبحوا، فأصبحتْ عصا هارونَ قدِ اهتزَّ لها ورقٌ أخضر، وكانت من شجرِ اللَّوز، فقال موسى: يا قارون، ترى هذا؟ فقال لهُ قارونُ: والله ما هذا بأعجبَ ممّا تصنعُ من السِّحر، فاعتزل قارونُ موسى بأتباعِهِ،

(١) الجادة: خُضْر؛ لأنه جمع: خضراء والموصوف مجموع، وسوف تأتي الكلمة على الصواب بعد قليل.

وجَعل موسى يُداريه للقرابة التي بينَهما وهُو يؤذيه في كلِّ وقت ولا يزيدُه إلّا عُتُوّاً وتجبُّراً وعداوةً لموسى، حتى بنى داراً وجَعل لها باباً من الذهب، وضَرب على جُدرانِها صفائحَ الذهب، وكان الملأُ من بني إسرائيلَ يَغدُونَ إليه ويروحونَ إليه، فيُطعمُهمُ الطعامَ ويُحدِّثونَه ويُضاحكونَه. قال ابنُ عباس: فلمّا نزلتِ الزَّكاةُ على موسى أتاه قارونُ فصالَحَه على أنَّ كلَّ ألفِ دينار عنها دينارٌ، أو على كلِّ ألفِ درهم عنها درهمٌ، وعلى كلِّ ألفِ شاةٍ عنها شاةٌ، وكذلك سائرُ الأشياء. ثم رَجَع إلى بيتِه، فوَجَده شيئاً كثيراً، فلم تسمحْ نفسُه بذلك، فجَمع بني إسرائيلَ وقال لهم: إنّ موسى قد أمَرَكم بكلِّ شيء فأطَعْتُموهُ، وهو يريدُ أن يأخُذَ أموالَكم، فقالوا: أنت كبيرُنا، فمُرْنا بما شئتَ، فقال: آمُرُكم أن تجيئوا فلانةَ البغيَّ فيُجعلُ[1] لها جَعلاً على أن تقذِفَ موسى بنفسِها، فإذا فعلتْ ذلك خَرَج عليه بنو إسرائيلَ ورَفَضوه، فدَعَوْها، فجَعل لها قارونُ ألفَ دينار وألفَ درهم على أن تقذفَ موسى بنفسِها غداً إذا حَضَر بنو إسرائيل، فلمّا كان منَ الغدِ جَمع قارونُ بني إسرائيلَ ثم أتَى موسى فقال لهُ: إنّ بني إسرائيلَ ينتظرونَ خروجَك فتأمُرُهم وتنهاهم، فخَرج إليهم موسى وهم في بَراح من الأرض، فقام فيهم خطيباً، فقال: يا بني إسرائيل، مَن سَرَق قطعْنا يدَه، ومنِ افترى جلَدْناه ثمانينَ، ومَن زَنَى وليست له امرأةٌ جلدْناهُ مئةً، ومَن زَنَى وله امرأةٌ رَجَمْناهُ حتى يموت، قال قارونُ: وإن كنتَ أنت؟ قال: وإن كنتُ أنا، قال: فإنّ بني إسرائيلَ يزعُمون أنك فَجَرتَ

(١) كذا في النسخة، والجادة أن يقول: فتجعلوا.

بفلانةَ البَغِيِّ، فلمّا جاءت قال لها موسى: يا فلانة، أنا فعلتُ بكِ ما قال هؤلاء؟ وعَظَّم عليها وسألَها بالذي فَلَق البحرَ لبني إسرائيل وأنزلَ التوراةَ على موسى إلّا صدقْتِ، فتَداركَها اللهُ بالتوفيق، فقالتْ في نفسِها: أُحدِثُ توبةً أفضلُ من أن أُوذيَ رسولَ الله، فقالت: لا والله ولكنّ قارونَ جَعل لي جَعْلًا على أن أقذِفَك بنفسي، فخَرَّ موسى ساجدًا يبكي ويقول: اللهُمَّ إن كنتُ رسُولَك فاغضَبْ لي، فأوحَى اللهُ إليه إنّي أمرتُ الأرضَ أن تُطيعَك فمُرْها بما شئت، فقال موسى: يا بني إسرائيل، إنّ اللهَ بَعَثني إلى فرعونَ، فمَن كان معَه فلْيلبَثْ مكانَه، ومَن كان معي فلْيعتزلْ، واعتَزَلوا فلم يبقَ معَ قارونَ إلّا رجُلان، ثم قال موسى: يا أرضُ خُذيهم، فأخَذَتْهم الأرضُ بأقدامِهم، وقيل: كان على سريرِه وفَرِشه، فأخَذَتْه الأرضُ حتى غيَّبَتْ سريرَه، ثم قال: يا أرضُ خُذيهم، فأخَذتْهم إلى الرُّكَب، ثم قال: يا أرضُ خُذيهم، فأخذَتْهمُ الأوساط، ثم قال: يا أرضُ خُذيهم، فأخَذتْهم إلى الأعناق، وصاحباهُ في كلِّ ذلك يتضرَّعانِ إلى موسى، وقارونُ يُناشدُه بالله والرَّحِم حتى قيل: إنه ناشَدَهُ سبعينَ مرَّةً وموسى في كلِّ ذلك لا يلتفتُ إليه لشدّة غَضَبِه، ثم قال: يا أرضُ خُذيهم، فانطبقتْ عليهم، فأوحى اللهُ أنْ يا موسى، ما أغلظَ قلبَك! استغاث بك سبعينَ مرّةً فلم تُغِثْهُ، أمَا وعزّتي وجلالي، لوِ استغاث بي مرّةً لَأغثتُه، وفي الآثار أنّ اللهَ قال: لا جَرَمَ، لا أجعلُ الأرضَ بعدَك طَوْعاً لأحد، قال قَتادة: خُسِفَ به، فهو يتَلَجْلجُ في الأرض كلَّ يوم قامةَ رجُل لا يبلُغ قعرَها إلى يوم القيامة. وأصبح بنو إسرائيلَ يتحدَّثون فيما بينَهم أنّ موسى إنّما دعا

على قارونَ ليَستبدَّ بدارِه وكنوزِه وأموالِه، فدعا اللهَ أن يُخسَفَ بدارِه وكنوزِه وأموالِه الأرض، فذلك قولُه تعالى: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ} [القصص: ٨١].

وممّن مات على سُوء الخاتمةِ والعياذُ بالله بعدَ طُول العبادةِ والتمكين من الرَّهبانيّة: بَرْصِيصا. ورُويَ عن عطاءٍ وغيره، عن ابنِ عبّاس رضي اللهُ عنهما، قال: كان راهبٌ في الفطرةِ يقالُ له: بَرصِيصا، تَعبَّد في صَوْمعةٍ له سبعينَ سنةً لم يعصِ اللهَ فيها طرْفةَ عَيْن، وقد أعيا فيه إبليسَ الحيلُ فلم يقدِرْ منه على شيء، فجَمع ذاتَ يوم مَرَدةَ الشياطين فقال: ألا أحدٌ منكم يكفيني أمرَ بَرصِيصا؟ فقال الأبيضُ- وهو صاحبُ الأنبياء، وهو الذي تصَدَّى للنبيِّ صلى الله عليه وسلم وجاءه في صُورة جِبريلَ ليُوسوِسَ إليه على وجْهِ الوحي، فلحقه جبريلُ عليه السلامُ فدَفَعهُ إلى أقصى أرض الهند- فقال الأبيضُ لإبليس: أنا أكفيك أمرَه. فتَزيّا بزِيِّ الرُّهبان وحَلَق وسَطَ رأسِه فأتى صومعةَ بَرصِيصا فناداهُ فلم يُجبْهُ، وكان لا ينفتلُ عن صلاتِه إلّا في كل عشَرة أيام، ولا يُفطرُ إلّا في كلِّ عشَرة أيام مرةً، فلمّا رأى الأبيضُ أنه لا يجيبُه أقبَلَ على العبادة في أصل الصَّومعة، فلمّا انفتلَ بَرصِيصا من صلاته اطَّلع من صومعته، فرأى الأبيضَ قائمًا يُصلّي في هيئةٍ حسَنةٍ من هيئة الرُّهبان، فلمّا رأى ذلك من حاله نَدِم في نفسِه حين لم يُجبْهُ، فقال له: إنك حين ناديتَني وكنتُ مُشتغلاً عنك، فما حاجتُك؟ قال الأبيضُ: حاجتي أنّي أُحبُّ أن أكونَ معك فأتأدَّبَ بأدبِك، وأقتبسَ من علمِك، ونجتمعَ على العبادة، فتدعوَ لي

وأدعوَ لك، قال بَرصِيصا: إنّي لَفي شُغُل عنك، فإن كنتَ مؤمنًا فإنّ اللهَ سيجعلُ لك في ما للمسلمينَ نصيبًا إنِ استجاب لي. ثم أقبلَ على صلاتِه وتَرَكَ الأبيضَ، [وأقْبَلَ الأبيضُ][1] يُصلِّي فلم يلتفتْ إليه بَرصِيصا أربعينَ يومًا، فلما انفتلَ بعدَها رآه قائمًا يُصلّي، فلما رأى بَرصِيصا شدّةَ عبادةِ الأبيضِ قال لهُ: ما حاجتُك؟ قال: حاجتي أنْ تأذنَ لي فأرتفعَ إليك، فأذِن لهُ، فارتفع إليه في صَومعتِه، فأقام حولًا يتعبَّدُ لا ينفتلُ إلّا في كلِّ أربعينَ يومًا مرةً وربما مدَّ إلى الثمانين. فلمّا رأى بَرصِيصا اجتهادَه تقاصَرتْ إليه نفسُه وأعجَبه شأنُ الأبيض، فلما حال الحَولُ قال الأبيضُ لبَرصِيصا: إنّي منطلق، فإنّ لي صاحبًا غيرَكَ، ظننتُ أنك أشدُّ اجتهادًا ممّا رأيتُ، كان يبلُغُنا عنك غيرُ الذي عاينتُ، فدخل بذلك على بَرصِيصا أمرٌ شديدٌ فكرِهَ مفارقتَه لِما رأى من شدّةِ اجتهاده، فلمّا ودَّعه الأبيضُ قال له: إنّ عندي دَعَواتٍ أُعلِّمُكَها تدعو بهنّ، فإنهنّ خيرٌ لك ممّا أنت فيه، يشفي اللهُ بهنَّ السَّقيم ويُعافي بهنَّ المُبتلى والمجنون، قال بَرصِيصا: أنا أكرهُ هذه المنزلةَ؛ لأنّ لي في نفسي شُغُلا، وإني أخافُ إنْ أُعلِّم الناسَ شَغَلوني عن عبادتي، فلم يزلْ به الأبيضُ حتى علَّمه، وانطلق حتى أتى إبليسَ فقال لهُ: قد- والله- أهلكتَ الرجُلَ. قال: فانطلق الأبيضُ فتعرَّض لرجُل فخَنقهُ ثم جاء في صُورة رجُل مُتطبِّب، فقال لأهلِه: إنّ بصاحبِكم جنونًا، أفأُعالجُه؟ قالوا: نعم، فعالجَه فلم يبرَأْ، فقال لهم: إني لم أقْوَ على جِنِّيّتِه ولكنْ سأُرشدُكم إلى مَن يدعو اللهَ فيعافيه، انْطلِقوا إلى بَرصِيصا فإنّ عندَه

---

(١) إضافة لازمة لا يستقيم النص من دونها أخلت بها النسخة وأسعف بها مصدر تخريج الخبر.

الاسمَ الذي إذا دعا به أُجيب. فانطلَقوا إليه، فسألوهُ ذلك فدعا بتلك الكلماتِ فذهبَ عنهُ الشيطان، فكان الأبيضُ يفعلُ ذلك بالناس ويُرشدُهم إلى بَرصِيصا فيدعو لهم فيُعافَوْنَ. فانطلق الأبيضُ فتعرَّض لجاريةٍ من بناتِ ملوكِ بني إسرائيل، ولها ثلاثةُ إخوة، وكان أبوهم هو الملِكَ، فلمّا مات استخلفَ أخاه، فكان عمُّ الجارية ملِكَ بني إسرائيل. فخَنقها[1] وعذَّبها، ثم جاء إليهم كما كان يأتي الناسَ في صُورةِ مُتطبِّب، فقال لهم: أفأُعالجُها؟ قالوا: نعم، فقال: إنّ الذي عَرَض لها ماردٌ لا يُطاق ولكنْ سأُرشدُكم إلى مَن تثقونَ به تدَعُونَها عندَه، فإذا جاء شيطانُها دعا لها، فإذا عَلِمتُم أنها قد عوفيتْ تَرُدُّونَها وهي صحيحة، قالوا: مَن هو؟ قال: بَرصِيصا، قالوا: وكيف لنا أن يُجيبَنا إلى هذا وهو أعظمُ شأنًا من ذلك؟ قال: انْطلِقوا فابْنُوا صَومعةً إلى جنبِ صومعتِه حتى تُشرِفَ عليه، فإنْ قبِلَها وإلّا فدَعُوها[2] في صَوْمعتِها وقولوا لهُ: هذه أمانةٌ عندَك فاحتسبْ أمانتَكَ. قال: فانطلقوا فسألوهُ ذلك فأبَى عليهم، فبَنَوْا صومعةً على ما أمَرَهمُ الأبيض، ثم انطلقوا فوَضَعوا الجاريةَ في صَومعتِها وقالوا لهُ: يا بَرصِيصا، هذه أختُنا أمانةٌ عندَكَ فاحتسِبْ أمانتَك. ثم انصَرفوا، فلمّا انفتلَ بَرصِيصا مِن صلاتِه عايَنَ الجاريةَ وما هي عليه منَ الجمال، فوَقَعتْ في قلبِه ودَخَل عليه أمرٌ عظيم، فجاءها الشيطانُ فخَنَقها، فدعا بَرصِيصا بتلك الدَّعَواتِ فذهبَ الشيطانُ عنها، ثم أقبلَ بَرصِيصا

(١) أي: الأبيض عليه لعنة الله.

(٢) في مصدر التخريج: فضعوها.

على صلاتِه، فجاءها الشيطانُ فخَنَقَها، فكانتْ تكشفُ عن نفسِها وتتعرَّضُ لبَرصِيصا، فجاءه الشيطانُ فقال لهُ: ويْحَك! واقِعْها، فإنك لا تجدُ مثلَها وستتوبُ بعدَ ذلكَ وتُدركُ ما تريدُ منَ الأمر، فلم يزلْ به حتى واقَعَها، فلم يزلْ يأتيها حتى حَمَلتْ وظَهَر حَمْلُها، فقال لهُ الشيطان: ويْحَكَ يا بَرصِيصا قد افتُضِحت، فهل لكَ أن تقتُلَها وتتوب؟ فإنْ سألوك فقلْ: ذهبَ بها شيطانُها فلم أقْوَ عليه، فقَتَلها، ثم انطلَقَ بها إلى جانبِ الجبل، فجاءهُ الشيطانُ وهو يدفُنُها في الليل فأخَذ بطَرَف إزارِها فبقي خارجًا من التّراب. ثم رَجَع بَرصِيصا إلى صَومعتِه وأقبلَ على صلاتِه، إذ جاء إخوتُها يتعاهدونَ أُختَهم- وكانوا يجيئونَ في بعض الأيام يسألونَ عنها ويوصُونَهُ بها- فقالوا: يا بَرصِيصا ما فَعَلتْ أختُنا؟ قال: قد جاء شيطانُها فذهبَ بها ولم أُطِقْهُ، فصدَّقوهُ وانصَرفوا، فلمّا أمسَوا وهم مكروبونَ جاء الشيطانُ إلى أكبرِهم في منامِه فقال له: ويْحَك، إنّ بَرصِيصا فَعَل بأُختِك كذا وكذا وإنه دَفَنها في موضع كذا، فقال: هذا حُلُمٌ وهُو من عمل الشيطان، بَرصِيصا أجَلُّ من ذلك، فتتابَع عليه ثلاثَ ليال فلم يكترثْ، فانطلَق إلى الأخ الأوسَطِ مثلَ ذلك، فقال للأوسَطِ مثلَ ما قال للأكبر، ولم يُخبرْ به أحدًا، فانطلق إلى أصغرِهم بمثل ذلك، فقال الأصغرُ لأخوَيْه: والله، لقد رأيتُ كذا وكذا، فقال الأوسَط: أنا واللهِ لقد رأيتُ مثلَه، [فقال الأكبرُ: أنا والله قد رأيتُ مثلَه][1]، فانطلَقوا إلى بَرصِيصا

(١) العبارة ما بين معكوفين أسقطها ناسخ الأصل واستدركناها من مصدر التخريج، وهي لزوم السياق.

فقالوا: يا بَرصِيصا، ما فَعَلتْ أُختُنا؟ فقال: أليس قد أعلمتُكم بحالِها؟ فكأنّكمُ اتَّهمتُموني؟ فقالوا: لا واللهِ لا نتَّهمُك، واستحيَوْا منهُ وانصرَفوا، فجاءهمُ الشيطانُ فقال لهم: ويْحَكم! إنها مدفونةٌ في موضع كذا، وإنّ طرَفَ إزارِها خارجٌ من التراب. فانطلَقوا، فرأَوْا أُختَهم على ما رأَوْهُ في النَّوم، فمشَوْا في مَواليهم وغِلمانهم معَهمُ الفؤوسُ والمساحي فهَدَموا صَومعةَ بَرصِيصا وأنزَلوهُ منها واكتنَفوه، ثم انطلَقوا به إلى المَلِك، فأقرَّ على نفسِه، وذلك أنّ الشيطانَ وَسْوَس لهُ فقال: تقتُلُها ثم تُكابرُ يجتمعُ عليك أمران: قتلٌ ومُكابرة، اعترِفْ، فلمّا اعترفَ أمَر الملِكُ بقتلِه وصلبِه على خشَبة، فلمّا صُلب أتاه الأبيضُ فقال: يا بَرصِيصا، أتعرفُني؟ قال: لا، قال: أنا صاحبُكَ الذي علَّمتُك الدّعواتِ فاستُجيبَ لك، ويْحَك، أما اتَّقيتَ اللهَ في أمانةٍ خُنتَ أهلَها، فبها زعمتَ أنك أعبدُ بني إسرائيل، أما[1] استحَيْتَ؟ فلم يزلْ يعيِّرُه ويُعنِّفُه حتى قال في آخِر ذلك: ألم يكفِكَ ما صنعتَ حتى أقررتَ على نفسِك فافتُضحتَ وفضحتَ أشباهَكَ من الناس؟ فإنْ مِتَّ على هذه الحالة لن يفلحَ أحدٌ من نُظرائك بعدَك، قال: فكيف أصنع؟ قال: تطيعُني في خَصلةٍ واحدة حتى أُخلِّصَك ممّا أنت فيه فآخُذُ بأعِنَّتِهم وأُخرجُك من مكانك، قال: وما هي؟ قال: تسجدُ لي، قال: أفعَلُ، فسجدَ له، قال: يا بَرصِيصا، هذا الذي أردتُ منكَ، صارت عاقبةُ أمرِك إلى أنْ كفرتَ بربِّك، وذلك معنى قولِه تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي

(١) في النسخة: لما.

أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ* فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [الحشر: ١٦- ١٧][(١)].

وممّن مات على سُوءِ الخاتمة بعدَ كونه حَواريًّا زمنَ عيسى عليه السلام: رجلٌ من الحواريِّين. رُويَ أنّ حوارِيِّيهِ اجتمعوا عليه ليلةَ أجمَع بنو إسرائيلَ على صلبِه، فأوصاهم ثم قال لهم: إنّ واحدًا منكم يرتدُّ قبلَ الصُّبح فيدلُّ عليَّ بني إسرائيل، فلمّا ذهبتْ فحمةُ العِشاء اكتنفتْ بنو إسرائيلَ الدار، فأوقَع اللهُ تعالى الرُّعبَ في قلب ذلك الرجُل، فأيقَن أنهم هالكونَ إن لم يدُلُّوا بني لإسرائيلَ على عيسى، فخَرج إليهم وقد ارتدَّ وفارق الإسلامَ، فلمّا خَرَج عليهم أخذوه فقالوا: أنت من أصحابِ عيسى؟ قال: نعم، كنتُ من أصحابه لكنْ فارقتُ دينَه وخرجتُ إليكم لأدُلَّكم عليه إنْ جعلتم لي جَعلًا، فجعلوا له جَعلًا وذَهبوا معه، فلمّا وَصَلوا إلى البيت الذي فيه عيسى عليه السلامُ قال لهم: أمهِلوني حتى أضبِطَه ثم أدعوكم، فوَجَد جبريلَ قد فَرَج السقفَ ورَفَع عيسى عليه السلامُ إلى السماء، فجعل اللهُ عليه شِبهَ عيسى فدَخَلوا عليه فأخَذوه وصَلَبوه وهُو يصيحُ ويقول: ويلَكم! أنا صاحبُكم، إنّ عيسى قد رُفع إلى السماء، فلم يُصدِّقوهُ حتى أتَوْا على نفسِه، فلمّا مات اختلفوا في أمرِه، فقال بعضُهم: أمّا الصورةُ فصورةُ عيسى فأين صاحبُنا؟ فلم يزالوا في مِريةٍ من أمرِه إلى يومِنا هذا.

(١) تفسير الخازن، المسمى: لباب التأويل في معاني التنزيل ٤/ ٢٧٥.

وممن ارتدَّ زمنَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم: الرَّجّالُ[١] بنُ عُنْفُوة[٢] وله صحبة[٣]، وكان من أعبَدِ أصحاب رسُول الله صلى الله عليه وسلم فيما يَرى الناسُ وأقرأَهم، وكانوا يثقونَ به، فمرَّ به رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو هريرةَ وأبو ذر فقال: "إنّ واحدًا من الثلاثة في النار"[٤]، فلمّا ادَّعَى مُسَيْلِمةُ الكذابُ النُّبوّةَ ارتحل إليه من المدينة فصدَّقه، فكان سببَ فتنة من افتُتن من بني حَنيفة ... [٥] صحابيّ يقرأ كثيرًا من القرآن، وكان يُرى عليه من الخشوع والعبادة أمرٌ عظيم، وفي ذلك يقول ثمامةُ بنُ أُثال[٦] رضي الله عنه:

---

(١) كشداد. تاج العروس (رجل)، وقد تحرف الاسم في النسخة: الدجال.

(٢) وقيل: عفوة. الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢/ ٥٥١.

(٣) نقرأ في خبر رجّال هذا، واسمه نهار، قول ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" ٣/ ٥١٩: "قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد بني حنيفة، وكانوا بضعة عشر رجلًا، فأسلموا، سمعت أبي يقول ذلك". وقال الدارقطني في المؤتلف والمختلف ٢/ ١٠٦٣: "كان نهار الرَّجَّال بن عنفوة قد هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقرأ القرآن وفقه في الدين، فبعثه النبي صلى الله عليه وسلم معلمًا لأهل اليمامة، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة، شهد له أنه سمع محمدًا صلى الله عليه وسلم يقول: قد أشرك معه في الرسالة، فصدقوه واستجابوا له". وللرجّال هذا ترجمة في كتب الصحابة.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) فراغ بقدر كلمة لم أتبينها أخفاها التصوير.

(٦) كذا، وفي الإصابة أنها لمخضرم اسمه: حنيف بن عمير اليشكري. وثمامة بن أثال- بضم الهمزة وبعدها ثاء مثلثة وبعد الألف لام- بن النعمان بن مسلمة بن عُبَيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة

يا سعادَ[1] الفؤاد بنتَ أُثالِ ... طال ليلي بفتنة الرّجّالِ[3]
إنها يا سعادُ من حدثِ الدَّهـ ... ـرِ عليكم كفتنةِ الدجّالِ
أهلك القومَ مُحكَمُ بنُ طُفَيلٍ[2] ... ورجالٌ ليسوا لنا برجالِ
غرَّهم أمرُهم مُسَيْلِمةَ اليو ... مَ فلم يرجِعوا لأُخرى الليالي
إنّ ديني دينُ النبيِّ وفي القو ... م رجالٌ على الهدى أمثالي
لا يساوي الذي يقولُ من الأمـ ... ـر قِبالًا وما احتَذَى من قِبالِ[4]
قلتُ للنفس إذْ تَعاظَمَها الأمـ ... ـرُ وساءت مقالةُ القوالِ
ربما تجزَعُ النفوسُ من الأمـ ... ـر له فُرجةٌ كحَلِّ العقالِ

بن الدؤل بن حنيفة بن لجيم الحنفي، أبو أمامة اليماميّ: سيد أهل اليمامة، ترجمته في معرفة الصحابة لأبي نعيم ١/ ٥٠٦، ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ١/ ٢١٣، وأسد الغابة (٦١٩)، ووفيات الأعيان ٣/ ٢٦، والإصابة في تمييز الصحابة (٩٦٣) و(٢٠٢١ ز)، وغيرها.

(١) في بعض مصادر: "سواد".

(٢) وهو القائل لبني حنيفة في اليمامة: يا بني حنيفة، ادخلوا الحديقة فإني سأمنع أدباركم، فقاتل دونهم ساعة وقتل. وفي "أسد الغابة" أن الذي قتله: عبد الرحمن بن أبي بكر شقيق عائشة. أسد الغابة ٣/ ٣٦٣، وتاريخ الإسلام ٢/ ٢٧.

(٣) في النسخة: الدجال، بالدال المهملة، والتصويب من مصادر الخبر.

(٤) القبال، بكسر القاف: ما يشد فيه الشسع، أو: هو الزمام الذي يكون بين الإصبع الوسطى والتي تليها. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري ١٣/ ٨٦.

فماتَ معَ مُسَيْلِمةَ كافرًا[1] على رِدّته.

ومنهم: ابنُ جَحْش[2]، وكانت تحتَه أمُّ حَبيبةَ بنتُ أبي سفيان، فأسلم قديمًا وهاجَر معَ عثمانَ وجعفرٍ والزُّبَيْر إلى الحبشةِ فارتدَّ هناك، فصار يقولُ للصّحابة: يا أصحابَ محمد بصُرْنا وصَأْصَأْتُم[3].

---

(١) ينظر الخبر مع الأبيات في: كتاب الردة، للواقدي، ص ١٠٩، والبدء والتاريخ، للمطهر المقدسي ٥/ ١٦٣.

(٢) وهو: عبيد الله بن جحش بن رئاب الأسدي، وكان من خبره أنه تزوج أم حبيبة، أم المؤمنين بنت أَبي سفيان الأموية واسمها رملة، وكانت أسلمت قديماً وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله الهجرة الثانية، فولدت له حبيبة، وبها كانت تكنى، وهي ربيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت في حجره، وتنصر عبيد الله وتثبتت هي على الإسلام ومعها ابنتها حبيبة بنت عبيد الله بن جحش، وبانت منه، وهلك بأرض الحبشة، وقدمتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتزوجها صلى الله عليه وسلم، وأصدقها النجاشي أربع مئة دينار. تهذيب الكمال في أسماء الرجال ١/ ٢٠٢، وتاريخ الإسلام ٢/ ٤٤٧ وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٢٠، والوافي بالوفيات ١١/ ٢٣١، والروضة الفيحاء في أعلام النساء، لياسين الخطيب العمري، ص٥٠، وسواها.

(٣) قوله : "بصرنا وصأصأتم"، في المصادر: "فقَّحنا وصأصأتم"، قال أبو عبيد: "في حديث عبيد الله بن جحش حين تنصر بالحبشة فلقيه بعض الصحابة فكلمه في ذلك فقال عبيد الله: إنا فقحنا وصأصأتم، قال أبو عمرو وأبو زيد والفراء أو بعضهم: يقال: قد فقح الجرو: إذا فتح عينيه. وقال غيرهم في قوله: صأصأتم: يقال: صأصأ الجرو: إذا لم يفتح عينيه في أوان فتحه.

وفي بعض الكُتُب: أنّ رجلًا من أُسارى المسلمينَ أخَذَه بعضُ بطارقةِ النّصارى، وكان كثيرَ القراءة للقرآن حتى صار البِطريقُ يَفهَمُ كثيرًا منه، وكان له صاحبٌ على مثل رأيه، فسَمع يومًا الأسيرَ يقول: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦]، فقال لصاحبِه: اسمَعْ إلى حُسن دواعي هذا الكتاب ما أحسنَها، ثم سمعَهُ يومًا يقرأ: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠]، فقال: هذه أحسنُ من الأولى، فبينما الأسيرُ واقفٌ عليهما وهما يتغدَّيانِ إذْ غُصَّ البطريقُ غَصّةً شديدة، فسأل اللهَ في نفسِه فقال: اللّهمَّ إنْ كانت دواعي هذا الكتابِ صادقةً فافجُرْ لي ماءً من هذه الصَّخرة حتى أُسيغَ بها غُصّتي، فانفجرَ الماءُ بقُدرة مَن يقول للأمرِ إذا أراده: {كُنْ فَيَكُونُ} [البقرة: ١١٧]، فرغِب في الإسلام ورغِبَ الأسيرُ في الكفر، فنهاهُ فلم ينْتهِ، فماتَ الأسيرُ كافرًا وماتَ البِطريقُ على الإسلام.

ومن ذلك: ما رُوي عن ابن بطوا[١] وكان قد يَبَّسَ دماغُه أمعاءه من خوفِ سُوء الخاتمة، فكان كلمّا سَجَد سُمعتْ له صَلصلةٌ، وكان كلمّا رَفَع سُمعتْ له

فأراد عبيد الله: أني أبصرت ديني ولم تبصروا دينكم". غريب الحديث للقاسم بن سلام ٤/ ٤٨٦- ٤٨٧.

(١) كذا، ولعله يقصد: بقاء بن بطو، أو: بطور، كما في حاشية تاريخ إربل، لابن المستوفي، بتحقيق: الصقار ٢/ ٤٩، قال: وهو من أعيان العراق، وكان عبد القادر الكيلاني يثني عليه، كان يسكن

صَلصلةٌ، فسأله بعضُ أصحابِه عن ذلك فقال لهُ: أمرٌ عجيب! كنت آخُذُ عن الشَّيخ الفلانيِّ فلازمتُه مدةً طويلة، وكان ينظرُ في اللَّوح المحفوظ، فلمّا بلغتُ ما بلغت انتفعتُ به وصِرتُ أنظُرُ في اللَّوح المحفوظِ أيضًا، فرأيتُ شَقاوةَ الشيخ مكتوبةً فيه، ففَزِعتُ وهالَني ذلك، فأتيْتُ الشيخَ وأنا أرعُد، فصَعَّد النظرَ فيَّ وصوَّبَه ثم قال: لعلك يا بُنيَّ نظرتَ في اللوح المحفوظ؟ قلتُ: نعم، قال: ولعلكَ رأيتَ شقاوتي مكتوبةً فيه؟ قلت: نعم، قال: ذلك قضاءٌ سابق وأمرٌ محتوم، فإنْ كنتَ نظرتَ إليه اليومَ فإنّي نظرتُ إليه منذُ أربعينَ سنة، وإنّي ميِّت- بعدَ سبعةِ أيام- على النَّصرانية، وإذا مِتُّ فاحمِلْني إلى قريةِ كذا فإنكَ تجدُ قومًا من النَّصارى يحمِلون[1] رجلًا، فادفَعْني إليهم وخُذْ صاحبَهم، فما كنتَ فاعلًا بي لو مِتُّ على ما كنتُ عليه فافعلْهُ به، فإنّ أعمالي لهُ وأعمالَه لي، فمات بعدَ سبعة أيام فحَضَره ابنُ بطوا، فإذا هو يتكلَّمُ بالرُّوميّة وقدِ اسوَدَّ وجهُه وعظُمتْ شفتاهُ، قال ابن بطوا: فلمّا رأيتُ ذلك يبِسَ دماغي في جُمجُمتي من هوْلِ ما رأيت، فجعلناهُ على سريرِه وحمَلْناهُ إلى القريةِ التي ذَكَر، فلمّا وافيناها إذا قومٌ من النَّصارى يحمِلونَ رجلًا منهم على سرير، فقالوا: هلُمَّ إلى صاحبِنا وأعطُونا صاحبَكم، فقلت لهم: لا نفعلُ حتى تُخبِرونا بأمرِ صاحبِكم، فقالوا لنا: إنه كان من عُظمائنا وشَمّاستِنا، وكنا نستسقي به

نهر الملك، وتنسب إليه أقوال في الزهد والمعرفة والطاعة، وانتهت إليه تربية المريدين. وانظر أيضًا: الكواكب الدرية ٢/ ٨١، وبهجة الأسرار، ص ١٥٩.

(١) في النسخة: يحمل، خطأ، ويأتي صوابًا بعد قليل.

إذ قُحِطنا، قد انتهى إليه علمُ النصرانية، فلما احتُضر أشرقَ وجهُه نورًا وجَعَل يتكلّمُ بالعربيّة ويتلو كتابَكمُ الذي أُنزل عليكم ويشهدُ لله بالوَحْدانيّة ولمحمد بالرسالة، ثم قال لنا: إذا أنا مِتُّ فاجعلوني عى سريري واحملوني إلى قريةِ كذا- لهذه القرية- فإنكم تُوافونَ عندَها قومًا من المسلمين يحملونَ رجلًا على سرير، فهُو صاحبُكم، فما تريدونَ أن تفعلوا بي إذا مِتُّ على مِلَّتِكم فافعلوهُ به، فدَفَعناهُ إليهم وأخَذْنا صاحبَهم ورَجَعْنا به إلى قريتِنا فتوليّتُه، فلمّا أزلتُ عن وجهِه الثوبَ إذا وجهُه قد لبِس نورًا وبهاءً، وإذا هو كهيئة المُتبسِّم، فغسَّلناهُ وكفنّاه وصلَّينا عليه، فلمّا وضعناهُ على شَفِيرِ قبرِه إذْ هو يفوحُ مسكًا، فواريناهُ وسنَّمْنا قبرَه ثم انصرفْنا. فذهبتُ إلى بغدادَ فإذا الجُنيديُّ قد ظَهَر بها فلازمتُه.

ومن ذلك: ما رُوي أنه بينما الجُنَيديُّ رضي اللهُ عنه يدعو الناسَ إلى الله ويَعِظُهم إذْ مرَّ به فقيهٌ، فقال له: يا هذا، إنّ الذي تقولُ يَعرفُه كلُّ أحدٍ فاترُكِ الناسَ من شرِّك، فالتفتَ إليه الجُنَيدُ رضي الله عنه فقال له: يا هذا، إنّي أشُمُّ رائحةَ الكفر مِن فيك، فلم يكُ إلّا زُمَينٌ حتى سافَرَ إلى بلادِ الرُّوم فتنصَّر هناك، فسافر بعضُ مَن كان يعرفُه فوَجَده في مرضِ الموت وعليه مُسُوحًا(١) وهو في أسوإ حال، فوقفَ عليه فقال له: ألستَ فلانًا؟ قال: كنتُ أُسمَّى ذلك الاسمَ حيث كنتُ مسلمًا، فقال: وما اسمُك اليومَ؟ قال: نَسطورُ، قال له: أبقيَ معك شيءٌ من العلوم

(١) كذا، والجادة: الرفع.

التي كانت معك؟ قال: لا، إلا آيةٌ واحدة، قال له: وما هي؟ قال: {وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ} [الحج: ١٨]، قال: قلتُ له: كيف رَضِيتَ بالكُفر بعدَ الإسلام؟ قال: أبدلتُ أُمّةً بأمّة ونبيًّا بنبيٍّ وكتابًا بكتاب، قال: قلتُ له: أبدلتَ كتابًا مُحكَمًا بكتابٍ منسوخ قد بُدِّل أكثرُه، وخيرَ أُمّة أُخرِجتْ للناس بشرِّ أُمّةٍ على وجه الأرض، وأبدلتَ عيسى بمحمد وهُو من أُمّتِه وأتباعِه، ولو كان نبيًّا كريمًا. ثم التفتَ عني وجَعل يخورُ كما يخورُ الثور، فمضيتُ وتركتُه، ومات من يومِه كافرًا.

وبلغني عن بعض الصّالحين أنّ رجلًا من صُلَحاءِ زُرَارةَ[١] يقالُ له: سيّد عبد الله الزُّراري، وكان رجلًا صالحًا معتزلًا في كهف، فبينَما أهلُ البلدة جُلوسٌ إذْ أقبلَ عليهم وهو يصيحُ ويقول: أيُّها الناس، إني رأيتُ الله، فاجتمع عليه الناسُ، فبعضٌ يقول: جُنّ، وبعضٌ يقول: احرقوه بالنار، وبعضٌ يقول: ارجُموه بالحجارة، وبعضٌ يقول: اقتلوه، فبَلَغَ خبرُه رجلًا صالحًا وكان في خَلوتِه، فلمّا دنا منهُ قال له: إليَّ أيها الرجُل، فأقْبَلَ إليه، فقال له: كيف رأيتَ الله؟ قال له: الكيفيّةُ مفقودة والرؤيةُ موجودة، انعكسَ بصَري في بصيرتي فصرتُ كلّي بصيرةً فرأيتُه لا فوقَ ولا تحت ولا يمينًا ولا شمالًا ولا أمامَ ولا خلْف، انعَدم الزَّوال وبقيَ مَن لا يزال، فأصاب الشيخَ الثانيَ حالٌ فألقى كساءَهُ وجَعل يَنْزو ويقول: أيُّها الناس، إنه رأى اللهَ حقًّا، فلما رأوُا الشيخَ الثانيَ كفُّوا عنه وأرسَلوا إلى قاضي البلد فأقْبَلَ

(١) قرية من قرى الكوفة. معجم ما استعجم، للبكري ٢/ ٦٩٥.

ومعَه أصحابُه حتى وَقَف على الرجُل الصّالح، فقالوا له: إنّ هذا يزعُم أنه رأى الله، فقال: إنه كاذب، إنّ اللهَ لا يُرى في الدنيا، فقال له: يا هذا، إنّ الأولياءَ لا دُنيا لهم ولا آخرة، ألستَ تقرأُ {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٨]؟ بيني وبينَك الخاتمة، فإن مِتَّ على ملّةِ الإسلام فأنا كاذب، وإن متَّ على الكفرِ علمتَ أنت وغيرُك أنّي صادق، ولو قدرتُ على الكتمان لَكتمتُ ولكنْ سكِرتُ فبُحت. فلمّا حضَرت القاضيَ الوفاةُ أرَسل إلى ابنَيْه، وكانا فقيهيْن، فدَخلا عليه فقال لهما: ناوِلاني ذلك المصحف، فناولاهُ إياه يظُنّانِ أنه يتبرَّكُ به، فأخَذَه وألقاهُ في التراب، ثم قال لهما: أُشهدُكما أني بريءٌ منه وممّا جاء به وممّن أنزَلَه وممّن أُنزل عليه، وإنّي على مِلّة النَّصْرانية، فبُهِتا وطاشتْ عقولُهما وخرُسا من شدّة الدَّهَش، فبينما هما كذلك إذا قَضَى، فنظرا إلى وجهِه فإذا هو قد تغيَّر واسودَّ، فقال الأكبرُ منهما للأصغر: إنّ أبانا قد مات على الكُفر، فإنْ سَتَرْنا عليه افتُضحنا في الآخرة، وإن أظهرْنا أمرَه افتُضحنا في الدُّنيا، وفُضوحُ الدنيا خيرٌ من فضوح الآخرة والغِشِّ في الدِّين وعدم النُّصح لأهل الإسلام، فذَهَبا من حينِهما إلى الشيخ فسُقِطا بين يديْه وقَبَّلا رجليْهِ وقالا له: إنّ أبانا قد ماتَ على الكفر، فقال لهم: لو كتمتُم عليه لَما مات أحدٌ منكم إلّا على الكُفر إلى يوم القيامة، وأمّا إذا فضَحتُماهُ ونصَحتُما الإسلامَ فلا يزالُ القضاءُ فيكم إلى يوم القيامة، فكان الأمرُ كذلك، وهم قضاةُ زُرارةَ إلى يومِنا هذا.

ويشهدُ لهذا ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحيْهما[١]، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ الرجلَ لَيعملُ بعمل أهل الجنّة حتى ما يكونُ بينَه وبينَ الجنة إلّا قَدْرُ ذراع فيسبِقُ عليه كتابُه فيعملُ بعمل أهل النار فيصيرُ من أهل النار، وإنّ الرجُلَ لَيعملُ بعمل أهل النار حتى ما يكونُ بينَه وبينَها إلّا قدرُ ذراع فيسبِقُ عليه كتابُه فيعملُ بعمل أهل الجنّة فيصيرُ من أهل الجنة".

فبان من هذا أنّ الرجالَ أربعةٌ: رجلٌ يعملُ بعمل أهل الجنّة فيموتُ على ذلك العمل فيُبعثُ على ما مات عليه، ورجلٌ يعملُ بعمل أهل النار فيموتُ عليه ويُبعثُ عليه، ورجلٌ يعملُ بعمل أهل الجنّة ويُخْتَمُ له بعمل أهل النار فيموتُ عليه ويُبعَثُ عليه، ورجلٌ يعملُ في حياته بعمل أهل النار ويُختم لهُ بعمل أهل الجنّة فيموتُ عليه ويُبعَثُ من أهل الجنة.

وفي "الجامع الصغير"[٢] ما نصُّه: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أحبَّ اللهُ عبدًا عَسَّلَه"، قالوا: وما عَسَّلهُ يا رسُولَ الله؟ قال: "يَختِمُ له بعمل

---

(١) البخاري (٣٣٣٢) و(٦٥٩٤) و(٧٤٥٤)، مسلم ١ - (٢٦٤٣).

(٢) في الجامع الصغير وزيادته (٣٠٧)، عن أبي عنبة الخولاني، وهو عند الطبراني في مسند الشاميين للطبراني (٨٣٩).

صالح قبلَ موتِه فيموتُ عليه" أخرجه البيهقيُّ[1] والطبرانيُّ[2] والترمذيُّ[3] وابن ماجة[4].

بابٌ: في الزَّجر عن عقوق الوالديْنِ وقطيعة الرَّحِم وأنهما من مُوجِبات سُوءِ الخاتمة والعياذُ بالله

كما يشهدُ لذلك ما رواه ابنُ عباس، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "ليس بينَ عاقٍّ والديْهِ وبينَ النار إلّا الموت، وليس بينَهُ وبينَ إبليسَ إلّا فضلُ دَرَكة"، أخرجه النسائي[5].

وروى صاحبُ "العلوم الفاخرة"[6] أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما أتعَبَني أحدٌ من أهل الكبائر من أُمّتي ما أتعَبَني العاقُّ لوالدَيْه، وإنّي لَأسمُع

(١) في شعب الإيمان (٤٣٥٣).

(٢) في المعجم الأوسط (٣٢٩٨) عن عمرو بن الحمق، و(٤٦٥٦) عن عائشة، وفي المعجم الكبير ٨/ ١١٠ (٧٥٢٢) و(٧٧٢٥) عن أبي أمامة.

(٣) في السنن (٢١٤٢)، عن أنس.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) أخرج نحوه في السنن الكبرى (٤٨٩٦) و(٤٨٩٧) عن عبد الله بن عمرو.

(٦) العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة، للثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجزائري المالكي أبي زيد (ت ٨٧٦هـ)، ولم أتحصل عليه.

صُراخَهم من تحت ضربِ العذاب فأرحمُهم ويتألَّمُ قلبي لِما هم فيه، فأخِرُّ تحتَ العرش لأشفعَ لهم، فيقولُ اللهُ تعالى: يا محمدُ ارفَعْ رأسَك، فإنّي لا أُخرِجُ العاقِّينَ من النارِ إلّا برضا والدِيهم عليهم، فأرجِعُ إلى منزلي فأنساهُم، ثم أسمعُ بعدَ ذلك صُراخَهم تحتَ ضربِ العقوبةِ بأشدَّ ممّا سمعتُ أولّ ما مَضَى وأسجُد تحتَ العرش، فيقولُ اللهُ لي: يا محمد، ارفَعْ رأسَك فإنكَ لا تسألُني شيئًا إلّا أعطيْتُكَهُ إلّا الشفاعَةَ في أصحاب العقوق، فإنّي لستُ بمُخرِجِهم من النار إلّا برضا آبائهم وأُمّهاتِهم وسَماحِهم حقوقَهم أعلمُ ذلك من نيّاتِهم، فأرجعُ إلى مكاني فأنساهُم ما شاء الله، ثم أسمعُ صراخَهم وعويلَهم وبكاءهم فأقول: يا ربِّ مُرْ مالكًا يفتحْ لي بابَ جهنّمَ حتى أنظرَ عذابَهم، فإني أسمعُ صُراخَهم قد عظُم واشتدّ، فيقولُ اللهُ سبحانه: إنّي قد أمرتُه بذلك، فامْضِ إلى مالكٍ، فأمضي إليه فيفتحُ لي، فإذا رجالٌ ونساءٌ معلَّقونَ في جُذوع من نار، والزَّبانيَةُ تضربُهم بمقامعَ من حديدٍ على رؤوسِهم ويُضرَبونَ بِسِياطٍ من نار على ظهورِهم ويَطعنونَهم بحِراب من نار في بطونِهم وعقاربُ وحيّاتٌ تحتَ أرجُلِهم تلدَغُهم، فأبكي رحمةً لهم، ثم أرجعُ فأسجُد تحتَ العرش، فيقولُ اللهُ عزَّ وجل: ليس لهم خروجٌ إلّا برضا والدِيهم، فأقولُ: يا ربّ، فأين والدِوهم؟ فيقول: إنهم في منازلِهم من الجنّةِ ومنهم مَن هُو على الأعراف ومنهم مَن هو في جنّاتِ الفِردَوْس، فأقول: إلهي وسيّدي، عرِّفْني بكلِّ مَن له ولدٌ في النار، فيُعرِّفُني اللهُ إياهم، فأمشي إليهم فأقولُ لهم: لو رأيتُم أبناءكم وقد أكَلَتِ النارُ لحومَهم وقَطَّع الزَّقُّومُ والضَّريعُ أمعاءهم وقد انتُخِشت

عظامُهم واسودّت ألوانُهم، وقد وكِّلت بهم زبَانيَةٌ يسومونَهم سُوءَ العذاب قد نُزعت الرحمةُ من قلوبِهم، وقد أحزنَ قلبي بكاؤهم وصراخُهم، فيذكرونَ لي إساءتَهم إليهم في دار الدنيا ويقولون: دَعْهم يا رسُولَ الله في العذاب، فربّما شتَموننا وأهانُونا وكسَروا قلوبَنا، يلبَسون ونحن عُراة ويشبَعون ونحن جِياع ويؤْثرونَ نساءهم على أُمّهاتِهم، فأقولُ لهم: إنّ الدُّنيا قد مَضَت بما فيها فاسمَحوا لهم كرامةً لي مكانَ ما مشيتُ إليكم، فيقولُ اللهُ تعالى: لا تُتعبْ نفسَك يا محمد، فإنّي لا أُخرِجُ بَنيهم من النار إلّا برضًا منهم، أعرِفُ ذلك من قلوبِهم؛ لأنّي أعلمُ بسرائرِهم منهم، فأقول: يا ربّ، مُرْهم فلْيذهَبوا معي إلى النارِ حتى يرَوْا من عذابِ بَنيهم ما قد رأيتُ وعايَنتُ لعلَّهم يَرحمونَهم، فيأمُرُهمُ اللهُ تعالى فيمشونَ معي إلى جهنَّم، فيفتحُ مالكٌ بابَها عليهم، فإذا رأوْا بَنيهِم وما هم فيه من أليم العذاب بَكَوْا وقالوا: لو علِمنا أنّ العذابَ بَلَغ بهم ما رأينا لَرحِمناهم ولَسألْنا اللهَ أن يرفعَ عنهم، فاشفَعْ فيهم يا رسُولَ الله لعلّ اللهَ تعالى يُشفِّعُك فيهم، فيقولُ اللهُ تعالى: إنّي لا أُخرِجُهم منها إلّا بشفاعِتكم، وما غَضِبتُ عليهم إلّا لغضَبِكم، فيقولون: إنّا نُشهدُك ونُشهدُ نبيَّك المباركَ المَكينَ عندَك أنّا قد رَضِينا عنهم وسامحناهُم بجميع ما لنا قِبَلَهم من حقّ، فأكرِمْنا وأقِرَّ أعيُنَنا بخروجِهم من النار، فيأمُرُ اللهُ تعالى مالكًا أن يُخرِجَهم منَ النار فيُخرجُهم وقد صاروا فحمًا، فيُجري اللهُ تعالى عليهمُ الماءَ من نَهَرِ الحيَوان، حتى إذا أتمَّ خلقَهم ونَضْرتَهم أمَرَهم

فأُدخِلوا الجنة"، ثم التفتَ إلى أصحابِه فقال: "اللهَ اللهَ في صلاتِكم ووالدِيكم وما ملكتْ أيمانُكم". أخرجه ابنُ ماجة في الترغيبِ والترهيب(١).

وعن أبي هريرةَ، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "رأيتُ ليلةَ أُسرِيَ بي رجالًا ونساءً معلَّقينَ في جذوع من نار، فقلتُ لمالك: ما جرائرُ هؤلاء الأشقياء؟ قال: كانوا يشتُمونَ آباءهم وأُمّهاتِهم، فأمَرَني اللهُ تعالى أن أُعلِّقَهم في جذوع من نار وأن أُخرجَ ألسنتَهم من نقرةِ رؤوسِهم بكلاليبَ من نار"(٢).

ومن عظيم حقِّ الأبَويْنِ أنْ أوصَى اللهُ بهما في مُحكَم تنزيلِه في عدّة مواضع، ومنها: قولُه تعالى: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٣- ٢٤] ومَن تأمَّل هذه الآيةَ الشريفةَ ظَهر له بديهةً ما اشتملتْ عليه من فنون الآداب والتحمُّل والإحسان إليهم والتواضُع بين أيديهم وخَفْض الجناح والدعاءِ لهم ممّا لا مزيدَ عليه، إذْ لو عَلِم اللهُ في القول ما هو دونَ "أُفّ"(٣) لأَمَرَهم بتركِه، ولمَا قال: {فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ} وأمرُه بتركِه نفيًا

---

(١) كذا عبارته، ولعله يريد رواية الإمام المنذري هذا الأثر وإسناده إياه إلى ابن ماجة في سننه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) قال الإمام السمعاني في تفسيره ٣/ ٢٣٢: "وفيه ست لغات: أُفًّا وأُفٌّ وأُفٍّ، الثلاثة بالتنوين، وأُفَّ وأُفُّ وأُفِّ بغير التنوين، وحقيقته: كلمة تقال عند الضجر من الشيء واستثقاله، وقيل: الأف: بأدنى ما يتبرم به، فمعنى الآية: لا يتبرم بهما، ولا يستثقل معالجة أذاهما".

لجميع أنواع الاستقذار عندَ موجبِ الاستقذار، كحملِه الأذى من تحتِهما لأنّهما كانا يحملانِه من تحتِه وهُو صبيٌّ صغيرٌ لا يَملِكُ لنفسِه ضُرًّا ولا نفعًا ولا جلبًا ولا دفعًا من غير تقدُّم نفع منهُ إليهما ولم يستقذراهُ، فهو جديرٌ بأنْ لا يَستقذرَ ذلك منهما بعدَ إحسانهما إليه الإحسانَ الذي لا يَقدُرُ قدرَهُ إلّا اللهُ تعالى.

وبالجملة، فإنّ اللهَ كلَّف الإنسانَ في حقِّ والديْه بخمسةِ أشياء، أولُها: نفيُ الاستقذار رأسًا بقولِه: {فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ}، وأصلُ هذه الكلمة أنه إذا سَقَط عليك رمادٌ نَفَختَ فيه فقلتَ: أُفّ لتُزيلَه، ثم إنهم توسَّعوا فيه عندَ كلِّ مكروهٍ ومستقذَر، الثاني: تركُ انتهارِهما عندَما يُقابلانِه بما يكرَهُه من قولٍ أو فعل، الثالثُ: خطابُه لهما بالجميل من القول كيا أبَتاه ويا أُمّاهُ ويا سيّداه، فلْتخاطبْهما خطابَ العبد الذَّليل للسيِّد الجليل، الرابع: خفضُ الجناح لهما بأنْ لا يَرفَعَ صوتَه عندَهما ولا يمشي أمامَهما وأن يتبعَ مَحابَّهما ما لم يجرِ إلى معصيةٍ، مُصاحبًا لذلك بالوُدِّ والرحمةِ والتبجيل وحُسن الخدمة، الخامس: الدُّعاءُ لهما بالرحمةِ حيث كانا مسلمَيْنِ والصَّدقةِ لهما بعدَ الموت.

ومن عظيم قدْرِهما أنّ اللهَ تعالى شَفَع أمرَه بعبادتِه وتوحيدِه بِبِرِّهما لعُظم اعتنائه بأمرِهما، إذْ قال: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: ٢٣]، وعن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: جاء رجلٌ إلى رسُول الله صلى اللهُ عليه وسلم فقال: يا رسُولَ الله، مَن أحقُّ الناس بحُسن صُحبتي؟ قال:

"أُمُّك ثم أُمُّك ثم أُمُّك ثم أبوك، ثم أدناكَ فأدناك"، أخرجه مسلم[١]. وعنه، قال: سمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "رَغِم أنفُه رَغِم أنفُه"، قيل: من يا رسُولَ الله؟ قال: "مَن أدركَ والديْه عندَ الكِبَرِ أو أحدَهما ولم يدخُل الجنّة"، أخرجه مسلم[٢]. وعنه أيضًا، قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لن يُجازيَ ولدٌ والدَه إلّا أن يجدَهُ مملوكًا فيشتريه فيُعتقُه"[٣].

وعن عبد الله بن عَمْرِو بن العاص، قال: جاء رجلٌ إلى رسُول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذَنَه في الجهاد، فقال: "أحيٌّ والداك؟"، قال: نعم، قال: "ألهما ولدٌ غيرُك يَمونُهما؟"، قال: لا، قال: "ففيهما فجاهِدْ"، أخرجه البيهقي[٤]. وعنه، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "رضا الله في رضا الوالديْن، وسُخْطُه في سُخطِهما"، أخرجه الترمذيُّ[٥] مرفوعًا[٦].

---

(١) بل هو عند الشيخين: البخاري (٥٩٧١)، و مسلم ١ – (٢٥٤٨).

(٢) مسلم ١٠ – (٢٥٥١).

(٣) رواه مسلم ٢٥ – (١٥١٠).

(٤) الحديث مروي في الصحيحين: البخاري (٣٠٠٤)- ومن طريقه: البيهقي في السنن الصغير (٢٧٥٨)- و(٥٩٧٢)، ومسلم ٥ – (٢٥٤٩).

(٥) في السنن (١٨٩٩).

(٦) قال الإمام الترمذي عقبه، وجاء بسنده موقوفًا: "حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، نحوه، ولم يرفعه، وهذا أصح. وهكذا روى أصحاب شعبة، عن شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن

وعن أبي الدَّرداء، قال: سمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الوالدُ وَسَطُ أبوابِ الجنّة، فإنْ شئتَ فأضِعْ ذلك أو احفَظْه"، أخرجه الترمذيُّ[1] وقال: حديثٌ صحيح.

وعن عبدِ الله بن مسعود، قال: سألتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: "الصلاة"، قلت: ثم أي؟ قال: "برُّ الوالديْن"، قلت: ثم أي؟ قال: "الجهادُ في سبيل الله"، أخرجه مسلمٌ[2] وغيرُه.

ثم قال تعالى تأكيدًا وحثًّا على اعتقادِ ذلك: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ} من برِّ الوالديْنِ واعتقادِ ما يجبُ لهما منَ الإجلال والإعظام أو عقوقِهما {إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ} أبرارًا مُطيعينَ قاصدينَ الصَّلاحَ والبرَّ بعدَ تقصيرٍ كان منكم في القيام بما ألزَمَكُم اللهُ من حقِّ الوالديْن وغيرِهما أو ما فَرَط منكم في حال الغضَبِ وحَرَجِ الصَّدر ممّا لا يخلو منهُ البشرُ ممّا يقتضي أذاهم، إنْ تُبتُم إلى الله واستغفرتُم بما فَرَط منكم عندَ ثَوَران الغضَب: {فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا} [الإسراء: ٢٥].

عمرو، موقوفًا، ولا نعلم أحدًا رفعه غير خالد بن الحارث عن شعبة، وخالدُ بن الحارث ثقة مأمون، سمعت محمد بن المثنى يقول: ما رأيت بالبصرة مثل خالد بن الحارث، ولا بالكوفة مثل عبد الله بن إدريس".

(١) في السنن (١٩٠٠).

(٢) رواه الشيخان: البخاري (٥٢٧) و(٢٧٨٢) و(٥٩٧٠)، ومسلم ١٣٧- (٨٥).

ثم إنه تعالى أوصَى بعدَ برِّ الوالديْن بالقَرابة أنْ يؤتَوْا حقَّهم من صِلة الرَّحِم والمودّة والزيارة، وحُسن المعاشرة والأُلْفة على السرّاء والضَّرّاء، والمُعاضدة، والدُّعاءِ إلى الله، وإرشادِهم، وزَجْر سُفهائم وتبجيل عُلمائهم وأهل الطاعة منهم، وهجرانِ المُجاهِر بالكبائر، ومواساة فقيرِهم بحسَبِ وُسعِه وحالِهم، والغضِّ عن مساوئهم، قال اللهُ تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء: ٢٦- ٢٧].

وحقيقةُ التبذير: وضعُ الشيءِ في غير محلِّه وإن قلَّ، قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "آفةُ الكرَم السَّرَف، وآفةُ الشَّرَف الصَّلَف[١]، وصلاحُ الدِّين الوَرَع، وفسادُه الطَّمع"[٢]، بل الإسرافُ: الغُلُوُّ في كلِّ شيءٍ ولو في حقّ، لقولِه تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٧].

---

(١) إلى هنا متن الحديث، وقد أشبع الكلام فيه الإمام العجلوني في: كشف الخفاء (١٣)، وفي طرقه جميعًا.

(٢) هاتان الكلمتان ليستا من متن الحديث، بل أثر من كلام الحسن بن يسار، كما نص على ذلك أبو طالب في قوت القلوب ١/ ٣٢٧، قال: "لما دخل عليّ رضي الله عنه البصرة واستقام له الأمر، دخل جامعها فجعل يخرج القصّاص ويقول: القصص بدعة، فانتهى إلى حلقة شاب يتكلم على جماعة فاستمع إليه فأعجبه كلامه، فقال: يا فتى، أسألك عن شيئين، فإن خرجت منهما تركتك تتكلم على الناس وإلا أخرجتك كما أخرجت أصحابك، فقال: سل يا أمير المؤمنين،

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما عالَ منِ اقتَصَد"(١)، وفي المثل: كلْ قَضْماً تأكلْ خضماً وكلْ خَضْماً تأكلْ قَضْماً(٢). وقال صلى الله عليه وسلم: "الاقتصادُ نصفُ العيش، والسؤالُ نصفُ العلم، والطَّهورُ نصفُ الدِّين"(٣).

ولمّا أدَّب تعالى رسُولَه صلى الله عليه وسلم فحسَّن تأديبَه كان ممّا أنزل عليه: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} [الإسراء: ٢٩]، فأمَرَه تعالى بما يخالفُ طبعَه وجِبِلَّتَه لِيَسْتنَّ به خواصُّ أُمّتِه، فلمّا سألوهُ صلى الله عليه وسلم عن كيفيّة الطعام وكَمِّه والمرغَّبِ فيه منهُ سكتَ حتى أنزَلَ اللهُ عليه: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} [البقرة: ٢١٩] أي: الفضل.

فإن قلتَ: فما وجهُ الجمع بينَ هذه الآيةِ الكريمة وبينَ قوله صلى الله عليه وسلم لعائشةَ: "يا عائشة، أنفقي ولا تنتظري الفضلَ فإنه الأفضل"(١)، وقولِه

فقال: أخبرني ما صلاح الدين وما فساده؟ قال: صلاحه الورع وفساده الطمع، قال: صدقت، تكلم، فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس. يقال: إن هذا الشاب هو إمامنا في هذا العلم وهو إمام الأئمة الحسن بن يسار مولى الأنصار البصري".

(١) أخرجه أحمد (٤٢٦٩) عن عبد الله بن مسعود، وفيه تمام تخاريج.

(٢) كذا ساقه المؤلف رحمه الله، وفي أمثال الميداني: مجمع الأمثال (٤٠٤٥): "من يأكل خضماً لا يأكل قضماً، ومن لا يأكل قضماً يأكل خضماً".

(٣) بنحوه في الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، للسيوطي (٥٠٥٥) عن ابن عمر، وعزاه إلى الطبراني في مكارم الأخلاق.

تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: ٨]؟ فالجمعُ بينَهما: أنّ حديثَ عائشةَ وَرَد حينَ كانتِ المواساةُ والإيثارُ واجبَيْن، وذلك صَدْرًا من هجرةِ رسُول الله صلى الله عليه وسلم، فلمّا فُتِحتْ قُرَيْظةُ والنَّضيرُ نُسِخ ذلك بقولِه: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}، وقيل: ليس الشأنُ فيمن عَرَف العطاءَ فأعطَى ولا فيمَن عَرَف المنْعَ فمَنَع، إنّما الشأنُ فيمَن عَرَف محلَّ العطاءِ فأعطَى وعَرَف محلَّ المَنْع فمَنَع.

فصلٌ: في دواءِ عِلَل القلوب

فالقلوبُ- من حيثُ هي قلوبٌ- على أربع طبقات، فالسُّفلى: قلوبٌ تَستدلُّ بالأكوان على المكوِّن، والوسطى: قلوبٌ تستدلُّ به على الأكوان، والعليا: قلوبٌ تستدلُّ به عليه.

والواصلونَ قد فَنُوا فيه عنه، فقلوبُهم لا شرقيّةُ الأنوار ولا غربيّةُ الأغيار، بل هي جَوْفيّةُ التنوير[٢] قُدسيّةُ التكوير رُوحانيّةُ التقدير، سَماويّةُ الإسراء أرضيّةُ الارتواء، مَلَكيّةُ التوكيل إنْسيّةُ التنزيل، وارثةُ الحبيبِ والخليل ومحلُّ نظرِ المِلكِ الجليل، برَمْز قولِه: "إنّ اللهَ لا ينظرُ إلى صُوَرِكم وأعمالِكم، وإنّما ينظُرُ إلى قلوبِكم

(١) بنحوه عند أبي نعيم في الحلية ٧/ ١٣٩، وفي الصحيحين أنه عن أسماء، انظر: الجمع بين الصحيحين ٤/ ٢٧٠ (٣٥١٧).

(٢) هذه هي الطبقة الرابعة بحسب تصنيف المؤلف رحمه الله.

وأحوالِكم"(١)، فالأحوالُ: ثيابٌ تُلبَسُ كما قيل: من أسرَّ سريرةً أُلبِس رداءها، وفي طيِّ قولِه لرسُولِه: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر: ٤] معنًى زائدٌ على طهارة الخَبَث، وهُو أن يطهِّرَ أحوالَ قلبِه بمياهِ غيبِه منَ الإخلاص والتسليم، ولسانَه من الكذبِ والبُهتان والغَيبة والنَّميمة والنُّطقِ بما لا يعنيه، وفمَه بالمضمَضة والسِّواك، وظاهرَ بدنِه بالخِتان والتقليم وقصِّ الشارب ونتفِ الإبطِ والاستنجاءِ والاستجمار والتضمُّخ، والتعبُّدِ لله بالوضوء والغُسل أداءً لشُكر ما أنعَم اللهُ به عليه منَ الاستعانة بها في أمر دينِه ودُنياه، معَ إمتاعِه إياه بها في سوى ذلك، وكذلك يجبُ عليه تطهيرُ كلِّ جارحةٍ ممّا هي مُهيَّأةٌ له بما لا يُحمَدُ شرعًا ولا عادةً ممّا لا يرتضيه اللهُ حقيقةً، قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ يحبُّ معاليَ الأمور وأشرافَها، ويُبغِضُ سَفسافَها"(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: "الدُّنيا رواية، فلْيُحسِنْ أحدُكم روايتَه"(٣) ثم يُزيِّنْها بالأعمال الصالحة من خشوع وذكرٍ وصلاة وصيام وأمرٍ بمعروفٍ ونهي عن مُنكرٍ، وتعليم جاهل وإرشادِ ضالٍّ وزَجْر مُضِلٍّ، وإعانة أخ في الله، وفضيحةِ مُبتدع وشَتْم مجاهر ليَكُفَّ وتأديبه إنْ أبَى وجهادِه إن تعيَّن وثَنْيِه نفيًا للنفاق، وأداءِ حجٍّ إذا وَجَب والتطوُّع به إن تيسَّر، ومباشرة إخراج

(١) رواه مسلم ٣٤- (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٩٤٠) عن سهل بن سعد الساعدي، و(٦٩٠٦) عن جابر، وفي المعجم الكبير (٢٨٩٤)، وغير ذلك.

(٣) لم أقف عليه.

واجبِ الزكاة إنْ أمكَن أو استنابةِ من تَثقُ بدينِه وعلمِه، وتوَقِّي الربا والفسادِ في المعاملات، ومراعاةِ المواريثِ والشهادات وحقوق الوالديْنِ والقرابات والرَّفيق والزَّوجات والجيرانِ والحيَوانات، والوفاءِ بالعهودِ والأمانات، والاهتمام بأمرِ الأُضْحية والذَّكاة والتحفُّظ من الأيْمان والنُّذُر، معَ الوقوف على الحدود والوفاءِ بالعقود، وإكرام الضَّيف، والرِّفق بابن السبيل، والتعطُّف على اليتيم والمسكينِ والنَّزيل، والحِلم على الجاهل ومُداراة العدوِّ المُطاول والإغضاءِ عن المُقاول، وتركِ المِراء والجِدال وتجنُّبِ مُجالسة أهل الضَّلال ومُخالطة الأرذال والمفتونِ بحبِّ الجاهِ والمال، وتتخيَّرُ لقُوتِك أحلَّ الحلال، فإنّ مَن أكل الحلالَ أطاع اللهَ أحبَّ أم كره، ومَن أكلَ الحرامَ عصى [اللهَ][1] أحبَّ أم كره.

فعُلم ممّا تقدَّم أنّ أعمالَ القلوب مُنحصرةٌ في التحلِّي بالمحمود منَ الأوصاف والتخلِّي عن المذموم منها، والترقِّي في مقاماتِ الكمال، والتوقِّي من فضُول المُنازَلات عن سَنِيِّ الحالات، ومراغبةِ الله في جميع اللحظات.

واعلمْ أنّ صلاحَ القلوب لا يمكنُ بدون خمسةِ أشياء: الإدمانِ على قراءة كتابِ الله بالتدبُّر، وخلاءِ البطن، وقيام الليل، والتضرُّع عندَ السَّحَر، ومجالسةِ الصّالحين، وشرطُ الجميع: تصحيحُ اللُّقمة بأكل الحلال المحض؛ لأنّ أكلَه ينوِّرُ القلبَ ويُصلحُه، فتزكو بذلك الجوارحُ فتندُرُ المفاسدُ وتكثُرُ المصالح، وأكلُ

(١) إضافة لازمة يتطلبها السياق والضرورة النحوية.

الشُّبُهات يُصدِّيهِ ويُظلِمُه ويُقسِّيه، وقد قيل: إذا صُمتَ فانظرْ على أيِّ طعام تفطرُ، فإنّ الرجلَ لَيأكلُ الأكلةَ فينغلُّ قلبُه كالأديم فلا ينتفعُ به أبدًا. وفي "منهاج العابدين" للغزالي(١): الطعامُ بذْرُ الأعمال: إنْ دَخَل حلالًا خَرَج حلالًا وإنْ دَخَل حرامًا خَرَج حرامًا، وإنْ دَخَل شُبهةً خَرَج شُبهة، يعني بخروجه: خروجَه على الجوارح تمرةً أو جمرةً أو صَبْرة.

وقال بعضُهم: استَسقيتُ جُنديًّا فسقاني شربةً عادت قساوتُها على قلبي أربعين صباحًا.

ويقال: إنه يُخافُ على آكل الحرام والشُّبهة أن لا يُقبَلَ له عملٌ ولا يُسمعَ له دعاء، ألا تسمعُ قولَه تعالى: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧]؟

وآكلُ الحرام والمُسترسِلُ في الشُّبُهات ليس بمُتَّقٍ، ويَعضُدُ ذلك قولُه صلى الله عليه وسلم: "يا أيُّها الناس، إنّ اللهَ طيِّبٌ ولا يقبَلُ إلا طيّبًا، وإنّ اللهَ تعالى أمَرَ المؤمنين بما أمَرَ به المُرسَلين فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: ١٧٢] وقال تعالى للرُّسُل: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا} [المؤمنون: ٥١]- فجَعل أكلَ الطيِّبات شرطًا في السببِ الباعث إليها، وهي استنارةُ القلب واستقامةُ الجوارح، وهما لا يَتِمّانِ ولا يستقيمانِ إلا بغذاءٍ صالح طيِّبٍ سالمٍ منَ الحرام والشُّبهةِ وخِلافِ الأَوْلى- ثم أتْبَعَ ذلك بقولِه

(١) لم أظفر بنسخة منه.

صلى الله عليه وسلم: "الرجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ أشعثَ أغبَرَ، يقولُ: يا ربِّ، يا ربّ، ومطعمُه حرام، ومَشربُه حرام، وقد غُذِي بالحرام، فأنَّى يُستجابُ له؟"(١). ولمّا شربَ أبو بكرٍ رضي الله عنه جَرعةً من لبنٍ فأجْهدَهُ ذلك حتى تقيَّأها، فقيل له: أكلُّ هذا من جَرعةِ لبن؟ فقال: والله لو لم تخرجْ إلّا بنفسي لَأخرجتُها، سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كلُّ لحم نَبَت من سُحتٍ فالنارُ أَوْلى به"، أخرجه البيهقيُّ مرفوعًا(٢).

فبانَ من هذا: الاعتناءُ بأمرِ القُوت أعظمُ ما ينبغي أن يُحافِظَ عليه طالبُ صلاح القلب ويُسني الأحوال دونَ الصَّلاح، نسألُ اللهَ التوفيقَ والعِصمة وصلاحَ القلب والعمل في الحال والمآل، إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

واعلمْ أنّ العالِمَ لا يَخرجُ من ظُلمةِ التبلُّدِ والتقليد ما لم يُميِّزْ بينَ أصُول الحلال والحرام من قولِه صلى الله عليه وسلم: "الحلالُ بيِّن والحرامُ بيِّن وبينَهما أمورٌ مُشْتبهات مَن تَرَكَها فقد تبرَّأَ لعِرضِه ودينِه، ومَن أَخَذ بها كان كالراتع حولَ الحمى يوشكُ أن يُواقعَه"(٣)، وهذا أحدُ الأحاديثِ الأربعة التي عليها مدارُ الإسلام كما صحَّ عن جماعةٍ من العلماء أنّ مدارَ الإسلام على أربعةِ أحاديث:

---

(١) رواه في مسلم ٦٥- (١٠١٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) ونحوه في حلية الأولياء ١/ ٣١.

(٣) رواه البخاري (٥٢) و(٢٠٥١)، ومسلم ١٠٧- (١٥٩٩) و١٠٨- (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

حديثُ "الأعمالُ بالنيات"، وحديثُ "الحرامُ[1] بيِّن والحلالُ بيِّن"، وحديثُ "ازهَدْ في الدُّنيا يُحِبَّك الله"، وحديثُ "من حُسن إسلام المرءِ تركُهُ ما لا َيعنيه"، وقد نَظَمَها الشيخُ أبو الحسن طاهر بن مفوَّز[2]، فقال:

عمدةُ الدين عندنا كلماتٌ   أربعٌ من كلام خيرِ البريَّهْ
اتقِ الشُّبُهاتِ، وازهدْ، ودعْ ما   ليس يعنيكَ، واعمَلَنْ بنيّهْ

وزيد: "مَن أحدَث في أمرِنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ"، فيصيرُ- بهذا الاعتبار- هذا الأخيرُ خُمسَ الإسلام.

فأصولُ الحلال: الطَّيِّبُ والمصلحةُ وورودُ الأدبِ من الشارع، فيتناولُ الطَّيِّبُ: الحَبَّ والأبَّ والثمارَ والفواكهَ إلّا ما نُقِل عن أصلِه بصَنعةٍ تنقُلُه إلى الخَبَث، سواءٌ كان ممّا وَرَد النصُّ بتحريمِه- كالخمرِ والميسِر- أو لم يرِدِ النصُّ

---

(١) كذا معكوسًا في النسخة.

(٢) طاهر بن مفوز بن أحمد بن مفوز المعافري الشاطبي، أبو الحسن (ت٤٨٤هـ): إمام حافظ ناقد مجود، تلميذ أبي عمر بن عبد البر كهلًا وخصيصه وصاحبه، وهو الذي صلى عليه. وكان من أهل العلم والذكاء، عني بالحديث أتم عناية، وشهر بحفظه وإتقانه ومعرفته، وكان حسن الخط، جيد الضبط، مع الفضل والصلاح، والورع والانقباض والوقار. وفيات الأعيان ٧/ ٧١، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٥٣١، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٨٨، والمعين في طبقات المحدثين، ص ١٤٠، وسواها.

بتحريمِهِ لكنّه شاركَ الخمرَ في صفةٍ من صفاتِهِ كالمُسْكر من حشيشةٍ أو حشحاش أو بلدور، أو كان مُفسدًا كالسَّيكُران والبثيمي، أو مُرقدًا. فالمُسْكرُ: ما غيَّبَ العقلَ دون الحواسّ معَ نشأةِ فرح، والمُفسِد: ما غيَّب العقلَ دونَ الحواسِّ لا معَ فَرَح، والمُرقِد: ما غيَّب العقلَ والحواسَّ معًا.

وأمّا مَن جوَّز منَ المتأخِّرينَ تناولَ الحشيشة فقد كذَبَ لمُخالفته النصَّ وخرقِهِ الإجماعَ بغير دليل شرعيّ، قال صلى اللهُ عليه وسلم: "كلُّ ما أسكر كثيرُه فقليلُه حرام"[1]، وانعقَدَ على ذلك إجماعُ السَّلَفِ الصالح، فماذا يريدُ المُتنطِّعُ منَ القول برأيه الآفِل، الخارج من قلبِهِ الغافل، إلّا الضلالَ والإضلال، وموافقةَ أهل الأهوال، من السِّفْلة والأُمراء على أغراضِهِمُ الفاسدة، طلبًا لجَذوةٍ من الزُّكام ونفحةً من الآثام اقتَحَمها من الخِطام كما قيل؟

وهل أفسدَ الدينَ إلّا الملوكُ ... وأحبارُ سَوءٍ ورهبانُها

فباعوا النفوسَ ولم يربحوا ... ولم تغلُ في البيع أثمانُها

وقد رتع القومُ في جيفةٍ ... يَبينُ لذي اللُّبِّ إنتانُها

(١) رواه ابن ماجة: (٣٣٩٢) وأحمد (٥٦٤٨) عن عبد الله بن عمر، وابن ماجة (٣٣٩٣) وأحمد (١٤٧٠٣) عن جابر، وابن ماجة (٣٣٩٤) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ثم أحمد وحده: (٦٥٥٨) و(٦٦٧٤) عن عبد الله بن عمرو، و(١٢٠٩٩) عن أنس.

والعلّةُ إنّما تزولُ بزوال معلولِها زوالًا أصليًّا كتخمير الخمر بحيثُ إذا بُلَّ لا يعودُ إليه الإسكارُ وإلّا بقيَ على حُرمتِه كما لو خُلِّل، بخلافِ أكل ما قليلُه مُسكر؛ لأنّ العلّةَ متعلِّقةٌ حينئذٍ بأجزائه باقيةٌ على حالِها، فالحُكمُ باقٍ معَ بقائها بحيثُ أَكَلَ ما لا يبلُغُ حدَّ الإسكار، وكذلك أكلُ ما كثيرُه يُسكر.

ويُحمَلُ على هذا النقل الزَّرعُ النابتُ من النَّجاسةِ أو فيها؛ لأنه باستحالتِه رَجَع إلى أصله، وكذلك المِسْك، فإنه انتقل من نجاسةِ الدم لانتقالِه لأنواع الطيِّب بمشاركته إياها في صفةِ الذَّكاء، كما انتقل البولُ والغائطُ من أصل الإباحة إلى التحريم لموافقتِهما للميْتة في صفةِ الخَبَث، وكذلك الدِّيدانُ، فإنها تُحمَلُ على أصلها، فما كان أصلُه منها طيِّبًا فهو طيِّبٌ كدُود المُذَكَّى والبقول والثّمار، وما كان أصلُه خبيثًا فحُكمُه حُكمُ أصلِه كدُود الدُّبُر والميْتة والجَرح والعَذِرة، إلّا أنه يَحرُم أكلُ الدّودِ الطيّبِ الأصل إلّا معَ أصله؛ لأنّ النفوسَ الشريفة تستقذرُه، فهو داخلٌ في حدِّ الحرام كالفأرِ والخُنفُساء والذُّباب والأوزاغ والضَّفادع.

ومن الطيِّبات: الماءُ ما لم يردْ نهيٌ من الشارع عن بعضه، كآبار ثَمُود وبئرِ ذَروان[1] والمعَطَّلة وبئرِ برهوت، وماءُ البحر المِلْح طاهرٌ غيرُ طيِّب، لكون مائه مِلحًا أُجاجًا، قال صلى الله عليه وسلم: "البحرُ الطيِّبُ ميْتتُه الطاهرُ ماؤه"[2].

أمّا قولُ أبي محمدٍ رحمهُ الله في "رسالتِه"[3]: وماءُ البحر طيِّبٌ طاهرٌ مطهِّر، فلعلّهُ قَصَد بذلك طِيبَ أصله وأنه ليس بخبيثٍ أصلًا ولا حلالًا، إذِ الطيِّبُ يُطلَقُ على أصليْن: ما استطابَهُ الشَّرع ولو لم يستطِعْه الطبع كالصَّبْر والحِنّاءِ للتداوي، فيكونُ ماءُ البحر داخلًا في ذلك الطيِّب خارجًا عن الطيِّبات الطَّبَعيّة لانتقالِه عن أصلِه بما خالَطَه من المُلوحة والزُّعاقةِ[4] البالغة في الإفراط إلى حدِّ السُّمِّيّة، فيكونُ حُكمُ شربِه حُكمَ تحسِّي السُّم، فمنه سُمُّ ساعة ومنه سُمُّ شهرٍ ومنه سُمُّ سنة، فما أُمِن ضررُهُ منه فطيِّبٌ شرعًا لا طبعًا، وما بَلَغ حدَّ الضَّرر فليس بطيِّبٍ شرعًا ولا طبعًا لإفضائه إلى التلف، وهذا المعنى هو الذي اعتبرهُ الشارعُ

---

(١) كذا في النسخة، واعترض عليه الخطابي فقال: "قال الأصمعي: بئر ذي أَروان معروفة، وهي التي دفن فيها عقد السحر للنبي صلى الله عليه وسلم، وبعضهم يقول: ذروان، وهو غلط". إصلاح غلط المحدثين، ص٣٩.

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ويأتي بعد قليل.

(٣) الرسالة، لأبي محمد القيرواني، ص ١٢.

(٤) الزعاقة: المرارة. العين (زعق).

صلى الله عليه وسلم بقوله: "الطَّهورُ ماؤه الطيِّبُ ميْتتُهُ"[1]، قال اللهُ تعالى في الطيب طبعًا وشرعًا: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} [الأعراف: ٣٢]، وقال في الطيِّباتِ شرعًا: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف: ١٥٧].

واختُلف في قولِه تعالى: { كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا} [البقرة: ١٦٨] مُستدِلِّينَ على ذلك بقولِه تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} [الحج: ٣٠] أي: الذي هو الأوثان، وخالَفَهم السَّوادُ الأعظمُ من أهل السُّنة، قالوا: هي للتبعيض لا للجِنس، وعلى أنها للجِنس فإنه عمومٌ مخصَّصٌ بقولِه تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: ٣١]، يعني: في الطيِّبات، فحرُمَ أكلُ الخنزير معَ أنّ لحمَه أطيبُ اللحم، ولحومُ الخيل لغُلوِّ شأنها أو لأنّ أكلَها ذريعةٌ إلى فنائها، فيكونُ ذلك مُنافيًا لقولِه تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال: ٦٠]، والشِّبَع الزَّنجي[2]، والدَّمُ معَ استطابته طبعًا، وما فوقَ أربع حرائرَ دفعًا للإسراف ولئلّا يُضعفَهُ ذلك عن العدل بينَهنَّ في الكُسوة والنفقة والمبيت، والجمعُ بينَ الأُختيْنِ مخافةَ الشَّنَآن وقطيعة الرحم، وبينَ

---

(١) رواه مالك في موطأه بتحقيق الأعظمي (٦٠/ ٢١) ومن طريقه أخرجه: أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، وابن ماجة (٣٨٦) و(٣٢٤٦)، والنسائي في الكبرى (٥٨) و(٤٨٤٣).

(٢) كذا عبارته.

المرأة وخالتِها وبينَ المرأة وعمَّتِها مراعاةً لحقِّ الأُبُوّة والأُمُوّة[١]، ونكاحُ الأَمَة مراعاةً لحقِّ الولد وفرارًا منَ استرقاق المسلم ما لم يعارضْهُ عارضٌ أشدُّ منهُ وهو خوفُ العَنّة لعدم طولِه على التسَرِّي، أو نكاحُ الحرائر بخلافِ الأَمَةِ الكتابيّة- فلا يحلُّ له نكاحُها بحالٍ رعايةً لجانبِ الإسلام وغيرةً للشارع أن يكونَ للكافرينَ على المؤمنين سبيل، فكيف يُباحُ للمسلم أن يتسبَّبَ لاسترقاق المشركين بَنِيهِ لشهوةٍ فانية؟ فلا يُختبرُ حينئذٍ سدَّ الذرائع لارتكابِنا أخفَّ الضَّررَيْن، وهو إبقاؤه خائفًا العَنّةَ دونَ استرقاق المشركين بَنِيهِ لِما في ذلك منَ انتهاكِ حُرمة الإسلام، أو لعلّه يتَداوى بالصيام أو يستفيدُ ما يَقدِرُ به على عفافِه بتسَرٍّ أو نكاح أو يَصبِر- ولُبسُ الذهبِ والوَرِق والحرير لذكورِ الأُمّة بلا ضرَرٍ فادح، أمّا الحريرُ فيُباحُ منه ما غَلَب عليه، وكالخَيْطِ الرَّقيق في الثوبِ والرِّمَم والحَبل إذا لم يبلغْ غِلَظُه خمسةَ أصابع، ويُكرَهُ كراهةَ تنزيه معَ التساوي وكراهةَ تحريم إنْ غَلَب هو.

ويَحرُمُ على المرأة ما أدَّى إلى السَّرَف، كالسَّرير والإناءِ والنَّعل.

وكذلك التنافسُ في الشهوات؛ لأنه لم يكنْ من شأنِ المسلمينَ ولا من سُنّة رسُول ربِّ العالمين، وقد قال: "مَن رغِبَ عن سُنّتي فليس مني"[٢]، وكان الصحابةُ رضوانُ الله عليهم يُشدّدونَ النَّكيرَ على المُتساهل بالسُّنّة والفضيلة

(١) كذا.

(٢) متفق عليه: البخاري (٥٠٦٣) و مسلم ٥- (١٤٠١).

والمُنهمكِ في الشَّهوات، كما يشدِّدونَ النكيرَ على مُضيِّع فرضٍ من فروض الله تعالى سدًّا للذرائع، وكان صلى الله عليه وسلم يمنعُ نساءهُ وبناتِه رضوانُ الله عليهنَّ من التنعُّم والانهماكِ في التزيُّن والتنافُس في الشَّهَوات، حتى أظهَرَ الكراهةَ والغضَبَ لابنتِه فاطمةَ لمّا قَدِم من بعض غَزَواته، وكان من عادتِه إذا قَدِمَ من سَفَر أن يبدأَ بالسلام عليها ثم يجلسَ عندَها هُنَيَّةً ثم يُثنيَ بدخول مسجدِه فيجلسُ فيه ما شاء الله أن يجلسَ ثم ينصرفَ إلى بيوتِ أزواجِه، فوَجَدها مَقْدَمَهُ من تبوكَ وقدِ اتَّخذت سِوارَيْنِ من وَرِق وقلادةً، فلمّا رأى ذلك كرِهَهُ، وكان إذا كرهَ شيئًا ظَهَر ذلك في وجهِه، فانصرفَ إلى مسجدِه ولم يجلسْ عندَها كعادتِه، فعلمتْ أنّ ذلك من أجل ما اتَّخذت من التحلِّي بعدَه، فبعثتْ بذلك له فتصدَّق به على أهل الصُّفّة. وقد قدمتُ هذه القصّةَ بتمامها في معرض رغبتِه عن الدُّنيا واحتقارِه لها.

فإذا تقرَّر هذا فالحلالُ على قسميْن: بيِّنٌ فَرَغ الشارعُ منه بنصِّ كتابه، وغيرُ بيِّن، والبيِّنُ: ما نصَّ اللهُ تعالى على تحليله، كقولِه: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} [المائدة: ٥] الآيةَ، {وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ} [النساء: ٢٤]، و: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا} [الأنعام: ١٤٥] الآيةَ، وقولِه: {وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ} [النور: ٦١]، ثم بيَّن الرُّخصةَ بقولِه: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} [البقرة: ١٧٣]، وقولِه: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ

جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا} [النور: ٦١]، وقولِه: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ} [النور: ٦١]، وقولِه: {أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ} [النور: ٣١]، وقولِه: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا} [النساء: ٤٣]، وكآيةِ الجوارح وإحلال الفِطر في شهر رمضانَ للمسافر غيرِ الباغي والعادي والمريض، بإبدال تلك الأيام بعِدّةٍ من أيام أُخَرَ، وإطعام المُفرِّطِ في قضاءِ رمضانَ حتى دَخَل عليه رمضانٌ[1] آخَرُ، وكالمُرضِع والحامل، وسقوطِه عن العاجز، وإباحةِ الجَمْع ليلةَ المَطَر والظُّلمة، والجمْع السُّنّيِّ والصُّوري، وجمْع المريض والمُرتحِل عندَ الزَّوال حيث جدَّ السيرَ، إلى غير ذلك.

فهذا وأمثالُه لا نظرَ لأحدٍ فيه ولا رأي، وما نصَّ اللهُ تعالى على تحريمِه فهو الحرام، أليس مثلَ قولِه تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} [النساء: ٢٣] إلى آخرِ الآية، {وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا} [المائدة: ٩٦]، وتحريمُ الفواحش ما ظَهَر منها وما بَطَن، وكلُّها جَعَل اللهُ فيه حدًّا أو عقوبةً أو وَعَد عليه بالعذاب، كأكل أموال اليتامى ظلمًا وأموال الناس بالباطل؟

وقدِ اختلف المحقِّقونَ في الحلال والحرام أيُّهما الأصلُ، فذهبت طائفةٌ إلى أنّ الحرامَ هو الأصل، مُستدِلِّينَ بقوله تعالى: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} [المائدة: ٥]

---

(١) بالتنوين مصروفًا لزوال العلمية بالتنكير، كما لا يخفى.

وأنها كانت قبلَ الإحلال حرامًا، ولذلك لا يحِلُّ لأحدٍ أن يُقدِمَ على أمرٍ حتى يعلمَ حُكمَ الله فيه، فلو كان الأصلُ الإباحةَ لم يُحجَرْ إلّا بعدَ النهي عنه، فلمّا كان الأصلُ التحريمَ مُنِع الإقدامُ على الأمور حتى يُعلَمَ حُكمُ الله فيها.

وذهب الأكثرونَ من أئمّة الجَرح والتعديل إلى أنّ الحلالَ هو الأصل، مُستدِلِّينَ بقولِه تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ} [آل عمران: ٩٣]، وقولِه تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا} [المائدة: ١٠١]، فهذه الآيةُ نصٌّ صريحٌ في أنّ جميعَ ما لم ينُصَّ الشارعُ على حُرمتِه ولم يدُلَ دليلٌ قاطعٌ على تحريمِه فهو داخلٌ في حيِّز العفوِ الذي هو نوعٌ من أنواع الحِلِّيّة، وهو أيضًا صريحٌ في كون الحلال أصلًا لا يُنكرهُ إلّا غليظُ الطَّبع بعيدُ النّفع، وليس مِن جميع ما ذَكَروا أظهرَ في الدِّلالة على كون الحلالِ هو الأصلَ [من][1] قولِه تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [البقرة: ٢٩] ثم بعدَ ذلك حرَّم ما شاء وأبقى ما شاءَ على أصل الحِلِّيّةِ السابقة.

ومنَ الدَّليل من غير نصِّ الكتابِ على أن الحلالَ هو الأصلُ والحرامَ فرعٌ منه: تحليلُه المُحرَّمَ بلا نصٍّ حيث تعيَّنَتْ منفعتُه لو كان لا يُتوصَّلُ إلى المصلحة إلّا به، كإباحةِ الانتفاع بإهابِ الميْتة بعدَ الدَّبغ من غيرِ ضرَر وإباحةِ أكلِها للمضطرِّ،

---

(١) حرف الجر زيادة لازمة.

وإباحةِ الكذِب لإرهابِ العدوِّ وإصلاح ذاتِ البَيْن، وربّما وَجَب لدفع كبيرةٍ كقتل نفسِ مسلم أو أخذِ مالِه، بل يجبُ عليه اليمينُ إنْ دَعَوْا إليه إنْ لم يتَأتَّ تخليصُه إلّا به وإنْ لزِمتِ الكفّارة؛ لأنّ الشرائعَ تُراعي المصالح، ألا ترى أنّ من أُكرِهَ على الكُفر بالقتل ساغَ له النُّطقُ بكلمةِ الكُفر من غيرِ اعتقاد؟ قال اللهُ تعالى في إباحة ذلك: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} [النحل: ١٠٦]، وعن سَلمانَ رضي اللهُ عنه، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن أشياءَ فقال: "الحلالُ ما أحلّ اللهُ في كتابِه، والحرامُ ما حرَّمهُ في كتابِه، وما سَكَت عنه فهو ممّا قد عَفَا عنهُ فلا نتكلَّفُ السؤالَ عنه"، وعن أبي ثعلبةَ الخُشنيِّ، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ اللهَ تعالى فَرَض فرائضَ فلا تُضيِّعوها، وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وحرَّم أشياءَ فلا تَقرَبوها، وتَرَكَ أشياءَ من غيرِ نسيان فلا تبحثوا عنها"، أخرجَهما النَّوويُّ في "جامع الأصول"(١).

وهذا هو الحقُّ الذي لا غُبارَ عليه لنصِّ الكتابِ والسُّنّة وإجماع مَن يُعتَدُّ به من صُلَحاءِ الأُمّة، فكلُّ ما لم يُنَصَّ على تحريمِه فهو حلال.

---

(١) ليس للإمام النووي كتاب اسمه "جامع الأصول" فيما أعلم، بل لابن الأثير لا النووي، ولعل المصنف رحمه الله قصد "جامع" السيوطي، ومهما يكن فالحديثان في الأول منهما: جامع الأصول (٣٠٦٩) و(٥٥٤٢) و(٨١٣٤) ثم (٣٠٧٠)، وفي الثاني: الجامع الصغير وزيادته (٣٥٢٠) ثم (٥٥٠٦).

وهذا من حيثُ الإجمالُ، وأمّا من حيث التفصيلُ فقد قال الشّيخُ الأنبوري[1]: إنّما يحرُمُ الشيءُ لمعنًى في عينِه، أو خَلَل في وجهِ اكتسابِه، ومعنى قولِنا: في عينِه، أنّ الشَّرعَ إنّما مَنَعَهُ لمفْسَدةٍ فيه أو مضَرّةٍ للعبادِ إمّا مُنكشِفة للخَلْق كالسُّمّ والسُّكْر أو غيرِ مُنكِشفة بلِ استأثَر اللهُ بعلمِها، كعلّة مَنْع الرِّبا وحُرمة ما ذَكّاهُ المَجُوسيّ.

القسمُ الأولُ: ما مُنِع لصفةٍ عيْنيّة فيُبيَّنُ بتقسيم وتفصيل، وهُو أنّ جميعَ ما يَنتفعُ به الخلقُ لا يعدو ثلاثةَ أقسام: مَعدِنٌ ونباتٌ وحيَوان، فأمّا المعادنُ: فجميعُ ما يَخرجُ منها حلالٌ إلّا أن يكونَ ضارًّا فيقتصرُ التحريمُ على حالةِ الضرر، بل الاختصاصُ للمعادن بذلك، إذْ لو ضرَّ الخبزُ لَحَرُم في حالةِ كونِه ضارًّا. وأمّا النباتُ فلا يَحرُمُ منه إلّا ما يُزيلُ الحياةَ كالزَّقُّوم، أو العقل كالخمر والبِنْج، وجنسُ المُسكر كلُّه حرامٌ، قليلُه وكثيرُه، خلافًا لأبي حنيفةَ ومن قال بقولِه في حِلِّ القليل مما يُسكرُ كثيرُه[2]. وأمّا الحيَوانُ فينقسم إلى: مأكولٍ وغيرِه، فالذي لا يؤكلُ قد يكونُ مُحرَّمًا بالنصِّ كالخنزير، وقد يكونُ مكروهًا كالخيل وسِباع الوَحْش وما لم يُذبَحْ ذبحًا شرعيًّا فهو ميْتة، ولا عبرةَ بقول مُحلِّل الحُمُر الإنْسيّة والبغال لضَعْفِ دليلِه وشُهرة الحديثِ الدالِّ على تحريمِها، لأمر رسُول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) كذا، ويتكرر عنده، ولم أعرفه.

(٢) انظر في هذا: المبسوط للسرخسي ٢٤/ ١٦ وما بعدها.

بإراقةِ القدورِ وهي تغلي معَ حاجة الناسِ إليها[1]، وقولِه تعالى: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} [النحل: ٨] ولم يَجعلْ فيها ذكاةً مُعتبرة، والأنعامُ لمّا ذَكَرها امتنَّ علينا بما جَعل فيها منَ المنافع، فقال تعالى: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [النحل: ٥] وقال: {وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} [المؤمنون: ٢٢]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ[2]} [يس: ٧١ - ٧٣]. ولو كان في الخيل والبغالِ والحميرِ غيرُ ما ذَكَر لنا منَ الرُّكوبِ والزِّينة لامتَنَّ به علينا ولَنبَّهَنا على الشكرِ لهُ على ذلك، ولقد أَخَّر تعالى الخيلَ في معرِض الامتنان بالنِّعَم والمنافع وقدَّمهُنَّ في ذكرِ الشَّهَوات والخُيَلاء، فقال: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ} [آل عمران: ١٤] وخَلَقَهنَّ أيضًا لإرهابِ العدُوِّ، فقال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال: ٦٠] الآيةَ.

ولا تحِلُّ الذَّكاةُ منَ الحيَوانات إلّا ما أَذِن الشارعُ في ذَكاتِه منَ الأنعام والطَّيْر ووَحْش الفَلاة لغيرِ المُحرِم، حيث كانتِ الذَّكاةُ شرعيّةً، ولا تحِلُّ دماءٌ إلّا ما أدَّى التحرُّزُ منهُ إلى حَرَج كدم العروق واللّحم بعدَ الذَّكاة، والمشهورُ في السُّوَيْداء ودَم

(١) بنحوه في مسند أحمد (١٤٤٦٣) وفيه زيادة تخريج.

(٢) تحرفت هذه الكلمة في النسخة: يشركون.

الجَوْف الحِلِّيّة كالكبِد والطُّحال والنَّجاسات كلِّها، ولا يحِلُّ الاقتياتُ بها ولا استعمالُها دواءً، ويَفسُد الطعامُ المائعُ بسقوطِ قليل النَّجاسة كجامدٍ بنَجِس مائع أو مُتحلِّل وإلّا أُلقِيتْ وما حولَها، ولا يُراقُ لحُرمتِه، ولْيُعطَ لمثل الكلبِ والهرِّ والداجنِ ويُعلَفْ للدوابِّ إن لم تكنْ فيه عينُ النجاسة، وإن تغيَّر ماءُ البئر بالدماءِ ولا مندوحةَ شُربَ إنْ خيف التّلفُ بعدَ استعمال الجَهد في طلبِ الاتّقاء من حفرٍ ونَزْح وغيرِه، وإن غَلَبَتْ عليه الترابُ[١] ولم تُمكنْ إماطتُها طُرِح.

القسمُ الثاني: ما مُنع من جهةِ خَلَل في وضع اليدِ عليه، فنقولُ: أخذُ المال إمّا أن يكونَ باختيارِ المُكلَّفِ أو بغير اختيارِه، كالإرث، والذي باختياره إمّا أن يكونَ بغير مِلْك، كالأشياءِ المباحة التي لم يَسبِقْ إليها مِلكٌ، والتي تؤخَذُ من مالكٍ إمّا أن تؤخَذَ كُرْهًا أو تراضيًا، والمأخوذُ قهرًا إمّا أن يكونَ لسقوط عِصمةِ المالك، كالغنائم والاستحقاق للأخْذ كالزَّكاة والنَّفقات الواجبة منَ الممتنع، والمأخوذُ تراضيًا إمّا أن يكونَ بعِوَض كالبيع والصَّداق، وإمّا أن يكونَ بغير عِوَض كالهِبَة والصَّدقة.

(١) كذا، عامل التراب معاملة الأرض في التأنيث.

فجميعُ هذه الأقسام يصحُّ استنادُ المِلْك إليها ويَحِلُّ لمالكِها الانتفاعُ بها إذا رُوعيتْ شروطُ الشرع[1] في تحصيلِها، فهي حلالٌ مطلقًا، ولا تَطرُّقَ للوَرَع المطلوبِ في شيءٍ منها إذا تحقَّقتِ الحِلِّيّة.

فإنْ تخلَّفت الشروطُ وفَسَدت العقودُ وأمكنَ الردُّ على المالك ولم يصحَّ تقريرُ المِلك لتواضُع اليد: حَرُم عليه التصرُّفُ، وامتنَع على غيرِه إذا كان حالُه كحال الأول، وهل يكونُ ورودُ العَقد الصَّحيح على العقد الفاسدِ مُبْقيًا للردِّ موجبًا لصحةِ المِلك الأول والثاني؟ فيه نظَرٌ، مثالُ ذلك: ما إذا اشترى ثمرةً قبل بُدوِّ صلاحِها ثم باعَها بعدَ الزَّهْو، فقد حَكَم مالكٌ رحمه الله[2] بصحةِ البيع الثاني لتمام المِلك للمشتري الأول، وقال: إنّ البيعَ الصَّحيحَ يُفيِّتُ البيعَ الفاسدَ، ومعناهُ أن لا يكونَ للبائع الأول إلّا الثمن، بخلافِ ما إذا بقيَ البيعُ الأولُ على حالِه فإنه يتعيَّنُ ردُّه، والانتفاعُ به حرام، والإقدامُ على بيعِها لمشتريها شراءٌ فاسد، لا يجوزُ اشتراؤها لمن عَلِم بفسادِ عَقدِها، وعدمُ تغيُّرِها معصية[3]، ولكنْ إنْ وَقَع تمَّ البيعُ وصحَّ المِلكُ للبائع والمشتري، قال النوويُّ في "شرحِه للأربعين"[4]: وقد تردَّد الأصحابُ: هل نفسُ ورودِ البيع الصحيح على الفاسد يُفوِّتُ أو لا بدَّ في

---

(١) بعده في النسخة: الشرط، وهو تكرار.

(٢) انظر: المدونة ٣/ ١٨٨.

(٣) كذا.

(٤) كذا قال رحمه الله.

التفويتِ من قبض المشتري الأول؟ وأخَذ ذلك من مسألةِ بيع الثمار قبلَ بدُوِّ صلاحِها إذا باعَها المشتري بعدَ زَهْوِها وقبلَ قبضِها، وقد قال مالكٌ: إنّ البيعَ الثانيَ يُفيِّتُه، وإنْ كان القبضُ فيها مُفيِّتًا، وقال آخرونَ: بل هي مقبوضة؛ لأنّ الجُزافَ بمجرَّد التخلية يكونُ مقبوضًا، والصحيحُ الأول، وإنما تكونُ التّخليةُ قبضًا في البيع الصحيح، وأمّا الفاسدُ فلا، وذلك أنّ الثمرةَ لو هَلَكت والبيعُ فاسدٌ لكانت منَ البائع. واعتذر آخرونَ على هذا وقالوا: ضمانُ الثّمار من بابِ وَضْع الجوائح، وأُجيبَ عنه بأنه: لو كان كذلك لاختصَّ بإجاحةِ الكثيرِ والسَّقطِ فيما تسقُطُ فيه الجوائح بعدَ اليسير، ولَما استرسَل عمومُ الضّمان على الأقدار من غيرِ اعتبارِ مقدار، وعلى جميع الأحوال دلَّ على أنه ضمانُ المِلك من وضْع الجوائح. انتهى.

ولا يكونُ العقدُ الثاني مُفوِّتًا للمال المغصوبِ عندَ الجميع، فهذا بيانُ ما نُهيَ عنه بسببِ الالتباس، وحاصلُه راجعٌ إلى اختلال الأسبابِ المملِّكة، أو كون الأعيانِ لا تَقبلُ المِلكَ والانتفاع.

القسمُ الثالث: الشُّبهة، وحقيقةُ الشُّبهة: ما تجاذبتْه أدلّةُ الحِلِّ والتحريم، كالموقوذةِ والمُتَرَدِّيةِ والنَّطيحةِ وما أكَلَ السَّبُع، فقد جيءَ بهذه الأشياءِ في نَسَق المحرَّمات، والعطفُ يقتضي التسويةَ بينَ العَطيفِ والمعطوفِ عليه، فلمّا قال اللهُ تعالى: {إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ} [المائدة: ٣] وَقَعتِ الشُّبهة، واحتاجتِ المسألةُ إلى النظر في

كوْنِ الاستثناءِ متَّصلًا أو منفصلًا، فالشافعيُّ لم يجعلْ في المسائل شُبهةً مراعاةً منهُ للاستئناف واعتبارِ الأصل الاستثناءَ، وهُو كونُه متصلًا، وحَمْلًا للنصِّ على ما كانتْ عليه الجاهليّةُ من أكل هذه الأشياءِ دونَ ذكاة؛ لأنهم جَعلوا تلك الأشياءَ ذكاةً لها، فبيَّن اللهُ أنها لا تحلُّ بذلك إذا ماتتْ بتلك الأشياء، فيَرى إباحةَ ما أُدرِكتْ ذَكاتُه ولو برَمَق أو كانت عينُه تَطرِف أو ذَنَبُه يتحرَّك، مُستدِلًّا بقول ابن عبّاس: إذا طَرَفتْ بعينِها أو رَكَضتْ برِجلِها أو تحرَّكت فاذبَحْ، أخرجَهُ البيهقيُّ مرفوعًا[1].

وأمّا مالكٌ فإنه لم يجعلْ فيها ذكاةً إذا بَلَغتْ من ذلك مبلغًا لا تعيشُ معَهُ ولو كانت تسعى، فجَعلَ الاستثناءَ منفصلًا، أيْ: {إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ} من غيرِها، واحتجَّ لتحريمِها بالعطفِ أيضًا بأنها إذا بَلَغتْ هذا المبلغَ فحُكمُها حُكمُ الميْتِ لعَدَم إعمال الذَّكاةِ فيها، فإنْ كان الاتصالُ في الاستثناءِ أصلًا فإنّ الاستواءَ في النسَق أصلٌ مُفضٍ في حيِّز الميْتةِ إلّا برافع مُعتبَر وهُو ثبوتُ الحياة بعدَ هذه الأسباب.

فإنْ قلتَ: ما الحِكمةُ في عَدَم تبيين الله الشُّبهةَ لرسُولِه وهُو عالمٌ بحقيقتِها؟ قلتُ- واللهُ أعلم-: إنّ الحكمةَ في ذلك أن يمتحنَ اللهُ عبادَه بشدّةِ حرصِهم على اجتنابِ الحَوْم حولَ ما نُهوا عنه وتخيَّلوا فيه مخايلَ النَّهي ممّا تميلُ إليه طباعُهم وتهواه أنفسُهم فيُعَدُّوا بذلك أتقياءَ أبرياءَ ورِعِين، أو تساهلِهم بالاسترسال في

---

(١) لم أجده، وبنحوه في مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٨٦٣٤)، عن علي.

ارتكابِ الشَّهوات وتتبُّع الرُّخَص طلبًا للتأويلاتِ حتى يَقَعوا في الشّبُهات فيخلعوا عن وجوهِهم جلبابَ الحياء بارتكابِ التُّرَّهات فتزلَّ بهم القَدَمُ- وهم لا يعلمون- إلى ارتكابِ المحرَّمات فيَخرجونَ من الوَرَع إلى ارتكاب المَنْهيّات، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "مَن وَقَع في الشُّبُهاتِ فقد وَقَع في الحرام"(١)، وذلك من وجهيْن، أحدُهما: أنهُ إذا لم يتّقِ اللهَ وتجرَّأ على الشُّبُهات أفْضَتْ به إلى المحرَّماتِ بطريقِ اعتيادِ الجُرأة والتساهُل في أمرِها، فيحملُه ذلك على الجُرأة على الحرام أكثرَ، كما لبعض المحقِّقين أنّ الصغيرةَ تجرُّ إلى الكبيرة، والكبيرةُ تجرُّ إلى الكفر.

الوجهُ الثالث: أنهُ إذا تساهَلَ بارتكابِ الشُّبُهات قَسَا قلبُه، وإذا قَسَا قلبُه أظلَمَ سرُّه، وإذا أظلَم سرُّه تمكَّن الهوى من رُمّتِه فقادَهُ إلى ارتكابِ المحرَّمات، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "المعاصي تزيدُ الكُفرَ"(٢)، وذلك معنى قولِه تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤].

فتنقسمُ الشُّبُهاتُ بهذا الاعتبار إلى أربعةِ أقسام، الأول: الشكُّ في المحلِّل والمحرِّم، وذلك إمّا أن يتعادلا او يغلِبَ أحدُهما، فإنْ تعادلا في الحُكم السابق

---

(١) قطعة من حديث "إن الحلال بيِّن..."، المتفق عليه، عن النعمان بن بشير: البخاري (٥٢)، ومسلم ١٠٧- (١٥٩٩)، وقوله: "وقع في الحرام" من زيادات مسلم.

(٢) هو في تفسير ابن عرفة ٤/ ١٨٠، من غير سند.

فيُستصحَبُ ولا يُترَكُ بالشك، فإنْ غَلَب أحدُ الاحتمالَيْنِ لصدورِه على دِلالةٍ معتبَرة في العيبِ فإنّ الحُكمَ للغالب، كما أنّ مَن رَمَى صيدًا فجَرَحهُ ثم وَقَع في ماءٍ فيُلفَى ميّتًا ولا يُدرَى أنه مات من الرَّمية أو منَ الغرق، فهذا حرام؛ لأنّ الأصلَ التحريمُ إلّا إذا مات بطريقٍ معتبر، فلا يزالُ الأصلُ بالشكِّ كما في الأحداثِ والنجاسات، وكذلك إذا أرسَل كلبَه وشاركَهُ فيه غيرُه فإنه لا يأكلُه، إذْ يَحتملُ أنّ الكلبَ الثانيَ هو الذي قتلَهُ.

القسمُ الثاني: أن يَعرِفَ الحلَّ ويشكَّ في التحريم، فالأصلُ الحِلّ، كما إذا طار طائرٌ وقال أحدُ رجُليْن: امرأتُه طالقٌ إنْ لم يكنْ غرابًا، وقال الآخرُ: امرأتُه طالقٌ إن كان غرابًا، والتبَسَ أمرُ الطائر: فلا يُقضَى بالطلاق على واحدٍ منهما. وليس ذلك كاختلاطِ ميْتةٍ بمُذَكّاة، فإنّ المخاطبَ في هذه المسألةِ واحد، وفي التي قبلَها شخصان.

ونظيرُ الميْتةِ والمُذَكّاة أن تكونَ له زوجتانِ فيقولَ: إنْ كان غرابًا فزينبُ طالقٌ وإن لم يكنْ غرابًا فحفصةُ، فلا يجوزُ له وطءُ واحدةٍ منهما حتى ينكشفَ الأمر، إذْ إحداهما محرَّمةٌ عليه ولم يتعيَّن، ولا اجتهادَ في هذه المسألة، إذْ لا علامةَ، فإنْ وطِئَ واحدةً منهما صار عاصيًا، إذْ لا يحِلُّ وطءُ واحدةٍ منهما، وتخصيصُ واحدةٍ منهما هجومٌ على الشرع بغير دليل، وذلك حرامٌ ومجازفةٌ ما لم يتبيَّنْ وجهُ الحُكم بنفي أو إثبات فتَحِلَّ التي أُحِلَّت برفع الشُّبهة وتحرُمَ المحرَّمةُ، وإلّا تأبّد تحريمُها.

القسمُ الثالث: ما أصلُه التحريمُ لكنْ طرأَ عليه ما أوجَب حِلِّيّتَه بظنٍّ غالب، فهذا يُنظَرُ فيه: فإنْ أُسنِد الظنُّ إلى سببٍ مُعتبَر شرعاً فهو حلالٌ، والالتفاتُ إلى احتمال بعدَ ثبوتِ السَّبب، مثالُهُ: أن يَرميَ صيداً ولا يقصِّرَ في طلبِه فيجدَه ميتاً وفيه أثرُ رميتِه، فهذا حلالٌ مطلقاً لكنْ بشرطِ أنْ لا يبيتَ، ومُقتضى القياسِ إباحتُه وإنْ بات، ولكنّ الظاهرَ من المذهبِ حُرمتُه، لورودِ الأثرِ والدَّليل على وجوبِ التمسُّك بالعلامةِ الظاهرة المُعيَّنة المُغلِّبة للظنِّ أنّ مَن جُرح ومات وَجَب القَوَدُ على الجارح وإنْ أمكن أن يموتَ من غير جِراحات، وذلك لظهور السَّبب.

القسمُ الرابع: أن يكونَ الحِلُّ معلوماً ولكنْ غَلَبَ على الظنِّ طَرَآنُ محرِّم بسببٍ معتبَر في غَلَبة الظنّ، فيُرجَّحُ الاستصحابُ ويُقضَى بالتحريم، إذِ الاستصحابُ ضعيفٌ فلا يبقى له حُكمٌ معَ غَلَبة الظنّ، كما إذا غَلَب على الظنِّ نجاسةُ إناء لعلامةٍ متعيِّنة، فلا يجوزُ التوضُّؤُ به ولا الشُّربُ فيه بعَيْن الشيء، وأمّا غَلَبةُ الظنِّ الناشئةُ عن الكثرة فهل تنقُلُ عن حُكم الأصل لمجرَّد ميْل النفْس إلى الانتقال أو لا تنقُلُ حتى يكمُلَ السّببُ؟ ويُحتَجُّ بأنه لو شَهِد ذوا عَدْل بأنّ لزيدٍ عندَ عَمْرٍو مالاً لَظنَّنا صِدقَه فلا ننقُلُ مِلكَهُ بسببِ مَظِنّتِنا صِدقَ العدل، بل يبقى على الأصل حتى يُعضَدَ الشاهدُ العَدْلُ بمثلِه أو بيمينٍ معَ ادّعائه للأشبَه فيَثبُتَ الناقلُ ويبقى الأصلُ، ولا يلتفتُ إلى مُطلَق غَلَبة الظنّ. وقال قائلون: الغالبُ مقدَّم، واستدَلُّوا بأمرَيْن، أحدُهما: أنّا إذا تعذَّر علينا أن نَعلمَ الاستحقاقَ مثلاً بمال عَمْرو وكانتِ المسألةُ ممّا يُكتفَى فيه بالمَظِنّة: فيُعتبَرُ حينَئذٍ غَلَبةُ الظنّ، مثالُه: إذا كان أحدُهما كُلِّياً

والآخرُ جُزئيّاً، فأمّا الكُلّيُّ المقسومُ فإمّا كُلّيٌّ يُنسبُ إلى جُزئيّاته وشرطُه صدقُ اسم المقسوم على الأقسام، أو كان بالنسبة إلى أجزائه فشرطُه أنْ لا يوجدَ إلّا بجُملةِ الأجزاء، وذلك أنّا ظَنَنّا استحقاقَه لهُ أو براءتَهُ منه بعدَ تقدُّم عِمارةِ ذِمّتِه، فلا وجهَ لتعطيل الحُكْم وقد ظُنَّ ثبوتُه والتمسُّكُ بالأصل، حيثُ لا يتطرَّقُ الشكُّ في الحال وإن عَرِيَ عن عارضٍ ولكنْ سِيرَ إليه عندَ احتمال التعيين للضّرورة، إذْ لا يستطيعُ أحدٌ إقامةَ الدليل على أنّ الشيءَ مِلكُه في الحال ولا على أنّ الزَّوجةَ باقيةٌ في عصمتِه حالةَ النِّزاع، فاستُصحِبَ الأصلُ عندَ الشكِّ لهذه الضرورة وليس كذلك إذا ظُنَّ الانتقالُ عنه فلا يُتمسَّكُ به.

وأمّا الجُزئيُّ فلا يُكتفَى فيه بمجرَّد الظنِّ ولا بالعلامة غيرِ العيْنيّة، وإنّما المُعتبَرُ فيه الأصل، بخلافِ الحُكم العامّ، كالتردُّد بين طروءِ العيْن وقِدَمِه، فإنّ القولَ فيه للبائع مراعاةً لأصل السَّلامة ما لم يطرأْ ناقلٌ مُعتبَرٌ كشَهادةٍ تامّة أو عادة قاضية، ولا تُعتبَرُ في هذه المسألة العدالةُ ولا تعاضُدُ الناقلِين، إذْ لا ضرَرَ يُلجئُ إلى التمسُّكِ بالأصل لارتجاع كلٍّ منهما ما خَرج من يدِه كعيوبِ الفرج في حقِّ الزَّوجيْن، فإنه لا بدَّ من البحثِ عن علامةِ ذلك حتى يتحقَّقَ الاحتمالُ لمحرِّضٍ من أحدِهما ولقوّة الضَّرَر وإدخال الحَرَج على أحدِ الزَّوجيْن.

ومن الشَّبَهِ أيضاً: ما ظَهَر في أواخرِ القرن التاسع منَ استعمال التُّوتن التي تُسمّيها العامةُ طَبْغ[١] أو بطاب[٢]، فإنّها من الأمورِ التي تجاذَبتْها أدلّةُ الحِلِّ والتحريم، وذلك أعدلُ المذاهبِ فيما لم يرِدِ النصُّ بتحليلِه ولا بتحريمِه منَ البِدَع الطارئة التي ابتلى اللهُ بها أواخرَ هذه الأُمّة لـمّا كثُرتِ الأهواء وعَمَّ البلاء وقَلَّ الدَّواء، فقال كلٌّ بما يبلُغُه اجتهادُه، إذْ بابُ الاجتهاد غيرُ مسدود وقولُ العدْلِ العالِم فيما لم يرِدِ النصُّ الصَّريحُ بخلافِه غيرُ مردود.

والأورَعُ: تحريمُها[٣] لأنّ الشيءَ إذا تعارَض فيه أصلانِ مُبيحٌ ومُحرِّم اعتُبر جانبُ السّلامة لأنّ درءَ المفاسدِ أوْلى من جلبِ المصالح كما في الخمرِ والميسِر؛ لأنّ اللهَ تعالى يقولُ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة: ٢١٩]، وهذه الآيةُ نَزَلتْ في عُمرَ بن الخطاب ومُعاذِ بن جَبَل وجماعةٍ من الأنصار أتَوْا رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسُولَ الله، أفتِنا في الخمرِ والميسِر فإنّهما مَذهَبةٌ للعقل مَسلَبةٌ للمال، فأنزَل اللهُ تعالى هذه الآيةَ[٤].

---

(١) كذا في النسخة، والجادة: النصب، كما لا يخفى.

(٢) كذا في النسخة، فيكون عطفًا غير صحيح، الأول مفعول التسمية صريح والثاني مجرور بالباء.

(٣) التأنيث على معنى: النبتة.

(٤) تاريخ المدينة لابن شبة ٣/ ٨٦٣، وأحكام القرآن، للجهضمي، ص١٢٥، وسواهما.

وجملةُ القول في تحريم الخمرِ والميسِر: أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ أنزل في الخمر أربعَ آيات: نزَلَ بمكةَ {وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} [النحل: ٦٧]، فكان المسلمونَ يشربونَها صدْراً من الإسلام(١).

حتى نزَلَت بالمدينة- في جوابِ عُمرَ ومعاذٍ-: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} الآيةَ، فترَكَها قومٌ لقولِه: {إِثْمٌ كَبِيرٌ} وشربَها قومٌ لقولِه: {وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}.

ثم إنّ عبدَ الرَّحمن بنَ عوْفٍ صَنَع طعاماً ودَعَا إليه ناساً من أصحابِ رسُول الله صلى الله عليه وسلم فأطعَمَهم وسَقاهمُ الخمرَ وحَضَرتْ صلاةُ المغرب، وقدَّموا أحدَهم ليُصلِّيَ بهم: فقال: "قلْ يا أيُّها الكافرونَ أَعبُدُ ما تَعبُدونَ" فحَذفَ حرفَ "لا" إلى آخرِ السُّورة، فأنزل اللهُ عزّ وجلّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [النساء: ٤٣]، فحرَّم اللهُ شربَها أوقاتَ الصَّلاة، فكان الرجلُ يشربُها بعدَ صلاةِ العشاء فيُصبحُ وقد زال سُكرُه فيُصلِّي الصُّبحَ، ويشربُها بعدَ صلاةِ الصُّبح فيصحو عندَ صلاة الظُّهر(٢).

ثم إنّ عِتبانَ بنَ مالك اتَّخذ صَنيعاً فدَعا رجُلاً(٣) من المسلمينَ فيهم سعدُ بنُ أبي وقّاص، فكان قد شَوى لهم رأسَ بعير فأكلوا، وشربوا الخمرَ حتى أَخَذتْ

(١) ينظر: تفسير الطبري ٣/ ٦٨٣.

(٢) تفسير الطبري ٧/ ٤٦، وسواه.

(٣) كذا في النسخة، وصوابها: "رهطًا" من غير شك.

منهم، فافتَخَروا عندَ ذلك وانتَسَبوا وتناشَدوا الأشعارَ، فأنشد سعدٌ قصيدةً فيها فخرُ قومِه وهَجَوُا الأنصارَ، فأخَذَ رجلٌ من الأنصار لحيَ البعير فضرب بها رأسَ سعد فشجَّهُ موضَّحةً[١]، فانطلقَ سعدٌ إلى رسُول الله صلى الله عليه وسلم فشكا إليه الأنصاريَّ، فقال عُمر: اللهُمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بياناً شافياً[٢].

ويُروى أنّ حمزةَ بنَ عبدِ المُطَّلب شربَ الخمرَ يوماً وخَرج، فلقي رجل من الأنصار بيدِه ناضحٌ له والأنصاريُّ يتمثَّلُ ببيتيْنِ[٣] لكعب بن مالك يمدحُ قومَه، وهما:

جمعنا معَ الإيواءِ نَصْراً وهجرةً   فلم يُرَ حيٌّ مثلُنا في المعاشرِ
فأحياؤنا مِن خير أحياءِ مَن مضَى   وأمواتُنا مِن خيرِ أهل المقابرِ

فقال حمزةُ: أؤلئك المهاجرون، وقال الأنصاريُّ: بل نحن، فتنازَعا فجرَّد حمزةُ سيفَهُ فشَدَّ على الأنصاريِّ، فهَرَب الأنصاريُّ وتَرَك ناضحَهُ فقطَعهُ حمزةُ، فاستعدَى الأنصاريُّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم على حمزةَ فغرَّم له ناقتَه فقال

(١) الشجة الموضحة: هي التي بلغت العظم فأوضحت عنه، تكون مثلًا بحجر أو عصًا، وقد سلسل الزبيدي ضربات الرأس أو الدماغ عشرة مرتبة: قاشرة ثم حارصة ثم باضعة ثم دامية ثم متلاحمة ثم سِمحاق ثم موضحة ثم هاشمة ثم منقِّلة ثم آمة ثم دامغة، ولمزيد فائدة انظر: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل ٦/ ٢٥٤، وتاج العروس (دمغ).

(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ١٤٣.

(٣) في النسخة: بيتين، وما هنا من مصدر تخريج الخبر.

عُمر: اللهُمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بياناً شافياً، فأنزل اللهُ الآيةَ التي في المائدةِ إلى قولِه: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [المائدة: ٩١]، فقال عُمر: انتَهيْنا يا ربّ[١].

والحِكمةُ في وقوع التحريم على هذا الترتيبِ هو أنّ اللهَ تعالى قد عَلِم أنّ القومَ قد أُولِعوا بشُرب الخمر، وكان انتفاعُهم به كثيراً، فعَلِم أنه لو مَنَعَهم من الخمرِ دَفعةً واحدةً لَشقَّ ذلك عليهم، فلا جَرَم استعملَ هذا التدريجَ وهذا الرِّفقَ عنايةً بهم وشفَقةً عليهم، قال أنسٌ[٢]: حُرِّمتِ الخمرُ ولم يكنْ للعربِ يومَئذٍ عيشٌ أعجبُ منها، وما حُرِّم شيءٌ أشدُّ انتزاعاً من قلوبِهم منها.

فبانَ من هذا أنّ للعُشبة المسمّاةَ بطابٍ تشارُكَ الميسِر في إتلافِ المال بغيرِ فائدةٍ ولا عائدة، ومعلومٌ أنّ إضاعةَ المال حرام، وكلُّ ما جرَّ إلى الحرام فهو حرامٌ، وأنها تشغَلُ عن ذكرِ الله، وكلُّ ما يشغَلُ عن ذكرِ الله فهو مذمومٌ حيثُ شَغَل عن مندوبٍ إليه، حرامٌ حيثُ شَغَل عن واجب. وقد ذَكر لي كثيرٌ من مُتعاطيها أنها تجُرُّ صاحبَها إلى الكذبِ عليها والأيمان الكاذبةِ من أجلِها، ولا خلافَ في حُرمةِ ما جَرَّ إلى مثل هذا، أو أنها تُسقطُ مروءةَ الرَّجُل الشريف فيسألُها اللئام، ومعلومٌ أنّ

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٥٠٣١) والمجتبى (٥٥٤٠)، وسواهم، من حديث أبي ميسرة: عمرو بن شرحبيل الهمداني.

(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ١٤٣.

المسألةَ حرامٌ لِما لهُ بالٌ فكيف بما ليس له بال؟ قال صلى الله عليه وسلم: "لا تحِلُّ المسألةُ إلّا لثلاثة: لذي دَيْن مُجْحِف أو فقرٍ مُتلِف أو غُرْم مُعنِف"[١].

ولا نزيدُ على ما حدَّ به صاحبُ "البحر المُحيطِ"[٢] الميسِرَ بأنْ وَصَفَه إذْ قال: حقيقةُ الميسِر: ما يسَّرَكَ لهواك وشَغَلَك عن موْلاك وصرفتَ فيه دُنياك ولم يقُمْ به بُنياك.

فهذه الصّفاتُ- أعزَّك الله- قد جَمَعتْها هذه العُشبة، وقد تثبُتُ الحُرمةُ بصفةٍ من هذه الصِّفات فضْلًا عن جميعِها. وقال بعضُ مُتعاطيها: إنّ المولَعَ بها يأخُذ كأسَها من يدِ الأمَةِ والعبد والمَجُوسيِّ الذي يَستقذرُ ذو المروءة الشُّربَ من إناءٍ شربَ فيه فيَجعلُ قضيبَه في فيه قبْلَ مسح ريقِه فضلاً عن غسلِه، ومعلومٌ أنه لا ينبغي شربُ سُؤر النّصرانيِّ فكيف بمُخالطةِ ريقِه ريقَ مَجُوسيّ؟ وقد عاهَدَ اللهَ عاصمٌ[٣] رضي اللهُ عنه أن لا يمَسَّ مُشركاً ولا يمسَّه مُشركٌ ففَعَل في حياتِه فعَصَمَه اللهُ بعدَ موتِه؟ والمؤمنُ نزيهُ النفس طيِّبُ الشِّيم رفيعُ الهمّةِ عن مثل هذه

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، لكن بنحوه في السنن الكبرى للنسائي (٢٣٨٣)، من حديث قبيصة.

(٢) لم أقف عليه عند أبي حيان في تفسيره "البحر المحيط" مع طول المطالعة، لكن له كلامًا حريًّا بالمطالعة في الميسر فانظره.

(٣) هو: عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، الصحابي الجليل المغدور، وخبره في البخاري (٣٠٤٥) و(٣٩٨٩) و(٤٠٨٦)، من حديث أبي هريرة، وهو من أفراده.

القذَراتِ التي لم تدعُ إليها ضرورة، وقد قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ يُحبُّ معاليَ الأمور وأشرافَها ويُبغضُ سَفْسافَها"(١).

واحتجَّ المُحلِّلونَ لها بأنها عُشبةٌ من جُملة الأبِّ الذي قال اللهُ في إباحتِه: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [عبس: ٣١- ٣٢]، ولم تتَّصفْ بصفةٍ من الصِّفاتِ الثلاثِ اللواتي يَنقُلْنَ الأعشابَ عن أصل الحِلِّ إلى فَرْعيّة التحريم من إفسادٍ أو إسكارٍ أو إرقاد، وزَعَم المُتصرِّفُ لها أنّ لها منافعَ كثيرةً طيِّبةً وأنها تُفرِّجُ الهمومَ عن متعاطيها حالةَ تحسِّيها.

وأعدلُ المذهبِ القولُ بكونها شُبهةً كما قدَّمتُه آنفاً، وأشنعُها وأبعدُها من الصَّوابِ والسَّداد القولُ بتكفير شاربِها ومُحلِّلِها لخَرْقِه الإجماعَ، إذْ لوِ اعتبرنا بالقول بالحُرمة بجامِع العلّةِ التي بينَها وبينَ الميسِر لم تبلُغْ حدَّ التكفير، لإجماع أهل السُّنة على أنّ المسلمَ لا يكفُرُ بارتكاب كبيرةٍ ولا بتحليل ما لم تُعلَمْ حرمتُه من الدِّين ضرورة، فإذا اقتَضَت الضرورةُ التمسُّكَ بالأصل دونَ القلب فعَلْنا ذلك، بدليل كتابِ الله تعالى، وعمل الماضينَ من الصَّحابةِ والتابعين، أمّا الكتابُ فقولُه تعالى: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ} [المائدة: ٥]، ولا خفاءَ أنّ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٨٩٤) من حديث حسين بن علي، والأوسط (٢٩٤٠) عن سهل بن سعد.

أهلَ الكتابِ لا يتوقَّوْنَ النجاساتِ ولا يَعتبرونَ في التطهير الماءَ المُطلَق، فأطعِمتُهم لا تنفكُّ عن ذلك، ولكنْ يلزمُ منَ اجتنابِها حَرَجٌ وضَرَر فيُتمسَّكُ بالأصل لأجْل ذلك، وأمّا الإثمُ فقد نُقل عن أصحابِ رسُول الله صلى الله عليه وسلم القُدوةِ والأُسوة، أنهم كانوا يخوضونَ في طين المطر ويُصلُّونَ ولا يَغسِلونَه[١]، وكذلك ما نُقل عن مالكٍ[٢] أنهم كانوا يُصلُّونَ فيما نَسَجَهُ أهلُ الذِّمَة، وليس كذلك الصلاةُ فيما لبِسوهُ لقلّةِ الحاجة إلى ذلك، وكذلك سُؤْرُ النَّصرانيِّ من الماءِ دونَ الطعام، واعتُلَّ بخفّةِ أمر الماء، ولو كان لا تُرى عليه النجاسةُ لَمَا كُرِهتْ فضلتُه من الماء، ولولا التفاتُ الشارع إلى الحاجة لَما أباح سُؤرَه من الطعام، وكذلك الدَّجاجةُ إذا شربتْ من ماءٍ أُريقَ، وإن شرِبتْ من لبنٍ أو أكلتْ من طعام لم يُكرَهْ ولم يُظَنَّ تركُهُ وَرَعاً إلّا إذا رُئيتِ النجاسةُ على فيها وقتَ الاستعمال فيفسُدُ المائعُ ويُطرَحُ ما حلَّ فيها فقطْ من غيرِه.

---

(١) كما في مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٩٨) عن عبد الله بن الزبير، وهو من صنيع علي بن أبي طالب أيضًا كما في "المدونة" ١/ ١٢٧، وقال ابن القطان في "الإقناع في مسائل الإجماع" ١/ ١١١: "وهو قول عوام أهل العلم".

(٢) الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف، لأبي بكر النيسابوري ٢/ ١٧٤، والتنبيه على مبادئ التوجيه، لأبي الطاهر التنوخي١/ ٣٢٣.

ولا تُعتبرُ الخيالاتُ في مباني الأحكام الشَّرعيّة عندَما يتخلَّطُ الحلالُ بالحرام، بل لا بدَّ من التنبيهِ على الأدلّة وإدراكِ افتراق المسائل ومعرفةِ حِكمةِ التشريعات في كلِّ أصل، وهذا لا يَقدِرُ عليه إلّا سماسرةُ العلماء.

ولْيعلم الموفَّقُ أنّ أصحابَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم هم أعلمُ خلقِ الله تعالى بالشَّريعة وأشدُّهم وَرَعاً، وما كانوا يُضيِّقونَ كلَّ هذا التضييق ولا يبنُون أمورَهم على الأوهام، وقد قال عَمْرُو بنُ العاص لصاحبِ الحوض: أترِدُ حوضَكَ السِّباع؟ فقال عُمرُ بنُ الخطاب رضي اللهُ عنهُ: لا تُخبِرْنا يا صاحبَ الحوضِ فإنّا نَرِدُ على السِّباع وتَرِدُ علينا السِّباع[1]. وقال في حديثٍ آخَرَ: إنه احتلَم، فأقْبَلَ ينظُر إلى ثوبِه ويغسِلُ ما رآه، فقال له عَمْرو: قد أصبحتُ وعندي ثياب، فقال: واهاً لك يا ابنَ العاص، فإن كنتَ تجدُ ثوباً أفكلُّ الناس يجدونَ ثوباً؟ والله لو فعلتَها لَكانت سُنّة، ولكنْ أغسلُ ما رأيتُ وانضَحْ ما لم أرَه. ولم يَرَ عُمرُ التورُّعَ عن ثوبٍ أمكن أن يُصادفَ النّجاسةَ وأنّ النَّضحَ كافٍ في ذلك.

---

(١) هو في موطأ مالك (طبعة الأعظمي، الحديث: ٦٢)، والطهور، للقاسم بن سلام، ص ٢٨٣، وجامع الأصول ٧/ ٦٨، عن يحيى بن عبد الرحمن. ورواه أيضاً- بمعناه-: ابن ماجة (٥١٩)، عن أبي سعيد الخدري، أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الحياض التي بين مكة والمدينة، تردها السباع والكلاب والحمر، وعن الطهارة منها، فقال: "لها ما حملت في بطونها، ولنا ما غبر طهور".

أو يَظُنُّ غيرُه من المُوَسوِسينَ حيث يقولُ: الصَّلاةُ في ثوبٍ لم تُصادفْهُ النجاسةُ جنايةٌ أوْلى من الصَّلاة في ثوبٍ شُكَّ فيه، فيكونُ- بزعمِه- أورَعَ من عُمر، وذلك عيْنُ الجهل وغايةُ الضَّلال.

وكذلك لو تورَّع إنسانٌ من شرب لبَن شرِبتْ منه دجاجةٌ أو هرّةٌ، وكان مُقلِّداً لمالك، فإنه قد أخطأ، فإنّ مالكاً لم يرَ به بأساً.

فلا يجوزُ بناءُ[1] الأحكام على شيءٍ من هذه الخيالاتِ التي لا تقتضيها أدلّةُ الحقِّ والحقيقة، ولا وجهَ للتورُّع عن مثل هذا لِما يجُرُّ إليه من الغُلوِّ والتعمُّق في دِين الله والرَّغبةِ عن سبيل المؤمنين، وإنما يُستعمَلُ الوَرَعُ في مثل تركِ المَوقوذَةِ وأخواتِها والبُنِّ والقهوة وشُرب الدُّخَان وسِباع الطير وكلِّ ذي مِخْلَبٍ منَ السِّباع وعن المناهي، لخبرِ: "كلُّ لَهْوٍ باطلٌ إلا لعبَ الرّجُل بسهمِه ومُداعبتَه زوجتَه أو على[2] فرسِه، فإنه من الحقّ"، أخرجه النَّسائيُّ وغيرُه[3].

---

(١) عبارة النسخة: فلا يجوز لا بناء حكم الأحكام...، وهي غريبة، وغير خاف فسادها، وكتب أحدهم إزاءَها في الحاشية: "لعله: بناء"، يعني بلا "لا".

(٢) كذا في النسخة.

(٣) لم أقف عليه عند النسائي، وهو في سنن سعيد بن منصور (٢٤٥١) عن يحيى بن أبي كثير و(٢٤٥٤) عن جابر بن زيد، وعنون له البخاري في: كتاب الاستئذان، باب: "كل لهو باطل إذا شغله عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك". قلت: وعبارة "تعال أقامرك" -وهي سبب ما أشكل على المصنف رحمه الله فظن العبارة من حديثه أعلاه، وظن الحديثين حديثًا

وأمّا المياسرُ فليس اجتنابُها من بابِ الوَرَع بل من بابِ التَّقوى، إذْ حدُّ الوَرَع: تَرْكُ ما لا بَئسَ به مخافةَ أن تقعَ فيما فيه بأس، وهُو الذي يقتضي عدمَ التوسِعة على النفس بل أخذَها بالأشدِّ كما يدُلُّ عليه قولُه صلى الله عليه وسلم: "اتَّبِعْ ولا تبتدعْ[1]، انزِعْ ولا تتَّسعْ، واتَّضِعْ ولا ترتفعْ"، فهذه الكلماتُ الثلاثُ من جوامع كَلِمِه صلى الله عليه وسلم، إذ لو تتبَّعتُ معانيَهنَّ لجئتُ بمُجلَّدات، إذْ قولُه: "اتَّبعْ ولا تبتدعْ" مشتملٌ على كلِّ ما جاء به الكتابُ والسُّنةُ وما جاء عن الخُلفاءِ الراشِدين- كما يدُلُّ عليه قولُه صلى الله عليه وسلم: "عليكُم بسُنّتي وسُنّة الخلفاءِ الراشدينَ من بعدي، عَضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإنّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النار"[2]، أي: صاحبُها في النار- ومشتملٌ على نصفِ الإسلام لاشتمالِه على

واحدًا مبدوءًا بكل لهو باطل، وعزاه توهمًا إلى النسائي- ليست قطعة من هذا الخبر الذي ساقه المصنف، بل هي من حديث آخر للنسائي في الكبرى، وهو فيها، غير أنه متفق عليه! ومتنه: "من حلف منكم، فقال: باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدق". الجمع بين الصحيحين ٣/ ٩٢ (٢٢٧٧)، والنسائي في الكبرى (٤٦٩٨) عن أبي هريرة.

(١) إلى ها هنا أخرجه الدارمي في سننه (١٤١)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١٥٧)، وابن أبي زمنين في أصول السنة (١٢)، والبغوي في شرح السنة ١/ ٢١٤.

(٢) هو في مسند أحمد (١٧١٤٤) عن العرباض، وفيه زيادات طرق وتخاريج وفوائد.

رُبع العبادات ورُبع المعاملات، وقولُه: "اتَّضعْ ولا ترتفعْ"، مشتملٌ على رُبع الأخلاقِ الكريمةِ والمُناصفات، وقولُه: "انزِعْ ولا تتَّسعْ" مشتملٌ على رُبع الزُّهد والاجتناباتِ والتوَقِّيات.

فبانَ من هذا أنّ اجتنابَ المياسِر وما في معناها إنّما هو من بابِ اجتنابِ ما نَهَى اللهُ عنه، وذلك عينُ التّقوى، قال اللهُ تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء: ٣١]، يعني: الأعمالَ الصالحات، وقيل: بمجرَّد الاجتناب، وهو ظاهرُ النَّصّ، فاجتنابُ الشيءِ: المُباعَدةُ عنه وترْكُه جانباً، والكبيرةُ: ما كبُر وعظُم من الذّنوب وعظُمت عقوبتُه.

ومن ذلك: ما رُوي عن أبي بَكْرةَ، قال: كنّا عندَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ألا أُنبئُكم بأكبرِ الكبائر؟" ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسُولَ الله، قال: "الإشراكُ بالله وعقوقُ الوالديْن، ألَا وشهادُة الزُّور وقولُ الزُّور"- وكان مُتّكئاً فجَلَس- فما زال يُكرِّرُها حتى قُلنا: ليتَه سَكَت. أخرجهُ[١] في الصحيحين[٢].

---

(١) كذا، والجادة: أخرجاه.

(٢) الجمع بين الصحيحين ١/ ٣٦٤ (٥٨١).

وأخرج البيهقيُّ[١]، عن أنسِ بن مالك، قال: ذُكِر [عندَ][٢] رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم [الكبائرُ][٣] فقال: "الشِّركُ بالله وعقوقُ الوالديْن وقتلُ النَّفس"، وقال: "ألَا أُنبئُكم بأكبرِ الكبائر؟[٤] قولُ الزُّور"، أو قال: "شهادةُ الزُّور".

وعن أبي هريرةَ، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "اجتنِبوا السَّبعَ المُوبِقات"، قيل: يا رسولَ الله، وما هي؟ قال: "الشِّركُ بالله والسَّحرُ وقتلُ النفْسِ التي حرَّم اللهُ وأكلُ مالِ اليتيم والرِّبا والتولِّي يومَ الزَّحفِ وقذْفُ المُحصَناتِ الغافلاتِ المؤمنات"[٥].

ومن حديثِ ابنِ مسعود، قال: سألتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الذُّنوبِ أعظمُ عندَ الله؟ قال: "أن تجعلَ له نِدًّا وهُو خَلَقَك"، قلتُ: إنّ ذلك

---

(١) في شعب الإيمان ١/ ٢٦٥ عند الكلام على الحديث (٢٨٤)، وأخرجه في السنن الكبرى (٢٠٨٨٠)، ثم قال في الأول: "أخرجاه في الصحيح من حديث شعبة"، قلت: أخرجه البخاري: (٢٦٥٣) و(٥٩٧٧) و(٦٨٧١)، ومسلم ١٤٤- (٨٨).

(٢) الظرف سقط في النسخة، واستدركناه من مصدري التخريج.

(٣) نائب الفاعل سقط في النسخة أيضًا، واستدركناه من مصدري التخريج.

(٥) متفق عليه، الجمع بين الصحيحين ٣/ ١١١ (٢٣١٠).

لَعظيم، ثم أيّ؟ قال: "أن تقتُلَ ولدَكَ مخافةَ أن يَطعَمَ معَك"، قلتُ: ثم أيّ؟ قال: أن تُزانيَ حَليلةَ جارِك". أخرجه البيهقيُّ[1].

وعن عبدِ الله بن عَمْرِو بن العاص، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "الكبائرُ: الإشراكُ بالله وعقوقُ الوالديْن وقتلُ النَّفس واليمينُ الغَمُوس"[2] يعني: التي يَقتطعُ بها مالَ امرئٍ مسلم بيمينٍ وهو فيها كاذب.

وعنهُ أيضاً، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ من الكبائر شَتْمَ الرجُل والديْه"، قالوا: هل يشتُم الرجلُ والديْه؟ قال: "نعم، يسُبُّ أبا الرجُل وأُمَّه فيسُبُّ أباه وأُمَّه"[3].

وقال عبدُ الله بنُ مسعود: أكبرُ الكبائر الإشراكُ بالله والأمنُ مِن مكر الله والقنوطُ من رحمةِ الله.

وعن سعيدِ بن جُبَير، أنّ رجُلاً سأل ابنَ عباسٍ عن الكبائر: أسبعٌ هي؟ قال: إلى السبعِ مئةِ أقرب. وفي رواية: إلى السبعينَ أقرب، إلّا أنه لا كبيرةَ معَ الاستغفار ولا صغيرةَ مع الإصرار.

وقال: كلُّ شيءٍ عُصيَ اللهُ به فهو كبيرة.

---

(١) متفق عليه، الجمع بين الصحيحين ١/ ٢٢٥ (٢٦٤).

(٢) متفق عليه: الجمع بين الصحيحين ٣/ ٤٣٩ (٢٩٤٦).

(٣) متفق عليه: الجمع بين الصحيحين ٣/ ٤٣١ (٢٩٣١).

كما قيل: لا تنظرْ إلى عُظْم الجريرة ولكن انظُرْ إلى عُظْم مَن عصَيتَ.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إياكم ومُحقَّراتِ الذُّنوب، فإنّ مَثَلَهم كمَثَل قوم نَزَلوا منزلاً، فاحتَطَبَ هذا عُوداً واحتطبَ هذا عُوداً، حتى إذا جَمَعوا حطباً أوقَدوا ناراً فصَلُوا واصْطَلَوْا"، قال: "فمن عَمِلَ شيئاً منها فلْيستغفرِ الله، فإنّ اللهَ لا يُخلِّدُ في النار من هذه الأُمّة إلّا مُبَدِّلاً لدينِه أو جاحداً فريضةً أو مُكذِّباً بقَدَر"[1].

وقال عليٌّ رضي الله عنه: كلُّ ذنبٍ خَتَمه اللهُ بنارٍ أو غَضَب أو لعنةٍ أو عذابٍ فهُو كبيرةٌ.

وقال سفيانُ الثوريُّ: الكبائرُ: المظالمُ فيما بينَ الناس، والصغائرُ: ما كان بينَكَ وبينَ الله تعالى؛ لأنّ اللهَ كريمٌ يعفو ويغفر. واحتَجَّ لذلك بما رُويَ عن أنسِ بن مالك، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "يُنادي مُنادٍ من بَطْنان العرشِ يومَ القيامة: يا أُمّةَ محمد، إنّ اللهَ قد عَفَا عنكم فيما بينكم وبينَهُ من الذُّنوب، فتواهَبوا المظالمَ فيما بينكم وادخُلوا الجنّةَ برحمتي".

وقال مالكُ بن ملول: الكبائرُ ذنوبُ أهل البِدَع، والسَّيِّئاتُ: ذنوبُ أهل السُّنّة.

وقيل: الكبائرُ: ما عَمِلَهُ صاحبُه عِناداً، كمعصيةِ إبليس، والسيّئاتُ: ما اجْترَحَهُ على وجهِ التشهّي والتأويل كخطيئةِ آدمَ عليه السلام.

---

(1) روى طائفة منه أحمد (٣٨١٨)، وغيره، وفيه تخريج واف.

وقيل: الكبائرُ: ذنوبُ العَمْد، والسيِّئاتُ: ذنوبُ الخطأ.

وقيل: الكبائر: ما نَهَى اللهُ عنه بالنصّ، والسيِّئات: مقدِّماتُها وتوابعُها.

فيشتملُ ذلك جميعَ أنواع المياسِر، كالنَّرْد والشِّطْرَنج وشُربِ الدُّخَان وحَسْو القهوةِ بما لا يَجلِبُه إلا مجرَّدُ الهوى والشَّهوةِ ممّا يُتوصَّلُ بتعاطيه إلى الذُّنوب والغفلةِ المُؤدِّيَيْن إلى ترْكِ ذكرِ الله والتوغُّل في الملاهي التي ليستْ من شِيَم المتَّقينَ لِمناهي الله، فيُمحَى اسمُه من ديوانِ الأتقياءِ فضلاً عنِ الأولياءِ وخاصّةً الأصفياءَ.

فإنِ احتَجَّ مُحتجٌّ أنّ العُشبةَ ليست من المُسكِرات، فقد صَدَق، ولكنْ لا يقدِرُ على إخراجِها من المُفَتِّرات، كما رُويَ عن أُمِّ سَلَمةَ، أنها قالت: نَهَى رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عن كلِّ[1] مُسكِرْ ومُفَتِّر"[2]، والمُفتِّر: كلُّ شيءٍ أحمَى الجَسَدَ حتى صار فيه فُتورٌ وضَعفٌ وانكسار، فهذا صريحٌ في تحريم العُشبةِ المذكورة، وإن كان ما يقولُ بعضُ مُتعاطيها أنها تُفرِّجُ الهمَّ وضِيقَ النفْس فتلك صفةٌ جامعةٌ بينَها وبينَ الخمر زائدةٌ على ما تجُرُّ إليه منَ الآثام وتُيسِّرُ له من البِطالاتِ والملاهي، وفي القرآنِ منافعُ الخمر كونُه يُزيلُ الهمَّ ويُحدِثُ الفَرَحَ والسُّرورَ والطَّرب، فلقد جمعتْها معها العلّةُ إلّا أنها دونَه في وجوبِ الحدِّ وعُظْم الجُرم ووجوبِ النَّهي

---

(١) في النسخة: "عن أكل كل"، وزيادة الأكل خطأ محض.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٨٦) وأحمد (٢٦٦٣٤) وفيهما تخاريج وافية.

وتشارُكِ الميسِر في تسبُّب الآثام عنها، كإضاعةِ المال والشُّغُل عن ذكرِ الله والكذِب والمسألةِ إلى غير ذلك.

والميسِرُ: كلُّ شيءٍ فيه خطرٌ، حتى لعبُ الصِّبيانِ بالكِعاب. رواه ابنُ سيرينَ ومجاهدٌ وعطاء.

وأمّا النَّردُ فيحرُمُ اللعِبُ به، سواءٌ كان بخَطَر أو بغيرِ خَطر، ويدُلُّ على تحريمِه ما رُويَ عن بُرَيْدَةَ، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَن لعِبَ بالنَّرد فكأنما وَضَع يدَه في دم خِنزير"، أخرجه مسلم[1].

ومن حديث أبي موسى، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن لعِبَ بنَرْد أو شِطرَنْج[2] فقد عصى اللهَ ورسُولَه"، أخرجه أبو داود[1].

---

(١) مسلم ١٠- (٢٢٦٠)، وفيه: "بالنردشير".

(٢) قال الزرقاني: "(الشطرنج) بكسر الشين وفتحها مع الأعجام والاهمال أربع لغات حكاها ابن مالك، فالإعجام من المشاطرة وكأن كل لاعب له شطر من القطع، والإهمال من تسطير الرقعة بيوتًا عند التبعية". ثم قال: "وتعقب ذلك ابن بري بأن الأسماء العجمية لا تشتق من الأسماء العربية وبأنها خماسية، واشتقاقها من الشطر يوجب أنها ثلاثية فيكون النون والجيم زائدتين وهذا بين الفساد". وقال القاري: "الشطرنج، بكسر أوله: معرب: شش رنج، أي: ست محن، وقيل بفتحها، وهو معرب شطرنج، أي: ساحل التعب، ولا يفتح أوله: لعبة معروفة، والسين لغة فيه". شرح الزرقاني على الموطأ ٤/ ٥٦٦، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للقاري ٧/ ٢٨٥٨.

عن عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه، قال: النَّردُ والشِّطرَنجُ من الميسِر، ويحرُمُ اللَّعِبُ بهما كان ذلك برَهْنٍ أو بغيرِ رَهْن. لورودِ النصِّ بتحريمِها.

وأخرج الثعالبيُّ في "تفسيرِه"[٢] عندَ قولِه تعالى: { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ} الآيةَ، قال بإسنادِه: قال صلى الله عليه وسلم: "مُضيِّعونَ الصَّلَوات متَّبِعونَ الشَّهَوات، آكلونَ القَهَوات"، وفي رواية: "شاربونَ القَهَوات" {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} [مريم: ٥٩].

وممّا لا خلافَ فيه كونُها مُسقِطةً لعدالةِ مُتَعاطيها.

ولو مشَيْنا على القول بإباحتِها لَنُفيَ كونُها رَذيلةً، والرَّذيلةُ: ما دَلَّ على سُقوطِ همّةٍ مُتناوَلةٍ من سَفاسفِ المُباح كالأكل في السُّوق وكشفِ الرأس في الملأِ والشُّرب في فم الوعاءِ والأكل في مثل القِدْر والمِرجَل بلا عُذر، قال ابنُ عاصم[٣] في مُسقِطاتِ العدالة:

وما أُبيحَ وهْو في الأعيانِ يَقدحُ في مروءةِ الإنسانِ

---

(١) سنن أبي داود (٤٩٣٨)، وهو في سنن ابن ماجة (٣٧٦٢)، من دون قوله: "أو شطرنج" فيهما.

(٢) لم أجده فيه.

(٣) تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام، ص ٢٣، لابن عاصم الغرناطي، وفيه موضع "الأعيان": "العيان".

ومعلومٌ أنّ ارتضاعَ الدُّخَان من عُود أشدُّ قُبحاً عند ذوي البصائر منَ ارتضاع اللبَنِ من طَبْيَيْ[1] شاةٍ أو أخلافِ ناقة، فهذا حملتْه شجاعتُه على مبادرةِ القوّة قبلَ استعمال أداتِه منَ الحَلْب والشُّرب فيما أُعِدَّ لذلك، وهذا حملتْه شدّةُ الشَّرط والتشهّي والعَبَثِ على ارتضاع دُخَان مُنْتن لا يَقُوتُ فيزيلَ جوعاً ولا يُشرَبُ فيزيلَ ظَمأً وليس بدواءٍ فيُستعملَ على قَدْر الحاجةِ إليه وليس بطِيبٍ فيُجعَلَ في الثياب والمَفارق، بل تَترُكُ مُتعاطيَها أنتَنَ من كلِّ مُنْتن وهُو لا يشعُر حتى قيلَ: إنّ شاربَها إذا مات يَخرُج من مَنخَريْه صديدٌ أسودُ مُنتِنُ الرائحة.

وأنت إذا نوَّر اللهُ بصيرتَك وتأمَّلتَ حقيقةَ الأمر ظَهَر لك بديهةً أنّ طابَ والجُورَ والقهوةَ من مُستحوِذاتِ الشّيطان على رِعاءِ الناس، أمَا ترى أنّ اللهَ تعالى أمَر المؤمنينَ بتنظيفِ أفواهِهم من الأثمارِ الطاهرةِ الطيِّبة بالاستياكِ والتخليل والمضمضةِ فقال الشيطانُ للذين استَحوَذ عليهم: لا تفعلوا بل لوِّثوها بأكل الجُور وشُرب الدُّخَان حتى تُصيِّروها كأفواهِ العلوج، ففَعَلوا ولم يبلُغْهم قولُ رسولِهم الناصح لهم الرَّحيم بهم: نظِّفوا أفواهَكم بالتخليلِ والتسويكِ والمضمضةِ فإنها مجالسُ الملائكة وطُرُق القرآن، وقال صلى الله عليه وسلم:

---

(١) مثنى الطبي، بالكسر والضم، وهو: الحلمات، أو حلمتا الضرع التي فيها اللبن. تاج العروس (طبي).

"نظِّفوا أكنافَكم ولا تتشبَّهوا باليهود"[1]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ نظيفٌ يحبُّ النظافة، جميلٌ يحبُّ الجمال، طيِّبٌ يحبُّ الطِّيب"[2] ثم أمَرَهم بتنظيفِ مناخِرهم، فلم يكتفِ الشيطانُ منهم بتلويثِ أفواهِهم حتى أمَرَهم بتلويثِ مناخِرهم ليُخالفوا أمرَ ربِّهم ونبيِّهم ويَتِمَّ ما أراده من تخبيثِ هاتيْنِ الجارحتَيْنِ اللَّتيْنِ هما أشرفُ الجوارح بعدَ القلب؛ لأنَ خُبثَهما واصلٌ إلى القلبِ والدِّماغ اللذيْنِ هما محَلُّ العقل والإدراك، فأمَرَ الشَّرعُ بالاستنشاقِ والاستنثارِ تنظيفاً لهما ممّا عسى أن يكونَ بهما من لَوثِ الموادِّ النازلة من الخياشيم، فأمَرَهم إبليسُ بتلطيخِهما بما هو أشدُّ من ذلك وهِي النَّفخةُ الخبيثة، فيَستقذِرُ مَنخَريْه وما يَخرُجُ منهما كلُّ من له نفْسٌ زكيّةٌ باقيةٌ على فطرةِ الحقّ، اللهُمّ إلّا أن تكونَ بخياشيمِه علّةٌ مثلَ الخُشَام[3]، فإنه قد وَرَد في ذلك نصُّ الشارع، قال صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالبرزجانُوس[4] فإنه شفاءٌ للخُشام"[5]، والبرزجانوس: هو الذي تُسمّيه العامّةُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٩٩)، عن سعد بن أبي وقاص، وقال: "هذا حديث غريب، وخالد بن إلياس يضعف".

(٢) الكرم والجود، للبرجلاني (١٢)، وانظر: سنن الترمذي أيضًا (٢٧٩٩)، والمقاصد الحسنة (٣٠٢).

(٣) الأخشم: الذي لا يجد ريح الشيء، وهو الخشام. النهاية، لابن الأثير (خشم).

(٤) سماه أبو نعيمفي مصدره الآتي: المرزنجوش.

(٥) الطب النبوي، لأبي نعيم الأصفهاني (٢٨٦).

السُّنْبُل، والخُشَامُ: داءٌ يصيبُ في الغَنْقى[1]، وهو مُنتهى الخياشيم يسيلُ منه المَنخَران قَيْحاً وصَديداً مُنتِناً، وقد أصابني فعالجتُهُ بذلك فشُفي ولله الحمد. وإنْ لم يجِدْه وتخيَّلَ في النَّفخة المذكورةِ نفعاً لهُ فلا بأسَ أن يستعملَها تداوياً؛ لأنها ظاهرةُ اللَّمس، وإنما المكروهُ استعمالُها تشهِّياً وعبَثاً فيُكلِّفُ نفسَه مُؤْنةً زائدةً على مُؤْنةِ الدُّنيا والآخرة، كما رُويَ[2] أنّ المؤمنَ ينبغي لهُ أن يقسِمَ زمانَه على أربعةِ أقسام: ساعةٌ يخلو فيها بربِّه، وساعةٌ يشتغلُ فيها بعمل صالح لمَعادِه، وساعةٌ يشتغلُ فيها بمَرَمّةٍ لمَعاشِه، وساعةٌ يشتغلُ فيها بمصالحَ لا بدَّ لهُ منها من أمرِ العامّة إن كان من الخواصِّ وإلّا اشتغلَ بمصالح عيالِه. وليس الاشتغالُ بالمياسِر وما في معناها بداخلٍ في قسمةٍ من هذه الأقسام الأربعة، جَعَلنا اللهُ تعالى وإياكم من مُشتري نفسِه مُعتقِها ولا جَعَلَنا اللهُ وإياكم من مُهلِكها: مُوبقِها، كما قال صلى الله عليه وسلم: "كلٌّ يُصبحُ فمُشْترٍ نفسَه مُعتقُها أو مُهلكُها[3] مُوبقُها"[4].

فينبغي للمؤمن أن يزُمَّ نفسَه بزمام الحقِّ والحقيقة ولا يترُكَها سَبَهْللاً تسترسلُ في الشَّهَواتِ استرسالَ البهائم، كما قيل: لا يدخلُ الجنّةَ ولا يَهواها إلّا مَن كفَّ نفسَهُ عن هواها، إذِ الاسترسالُ في الشَّهَوات يُطفئُ شُعاعَ البصيرة ويُقسِّي القلبَ

(١) الضبط من النسخة، ولم أهتد إلى هذه اللفظة في المعاجم.

(٢) في حكمة آل داود، كما في شعب الإيمان، للبيهقي (٤٦٧٧).

(٣) هذه اللفظة ليست من متن الحديث، بل هي شرح للموبق، فليعلم.

(٤) رواه مسلم ١ - (٢٢٣).

ويحُطُّ: من أعالي الدرجات إلى أسافلِ الدَّرَكات، قال الصادقُ المصدوقُ صلى الله عليه وسلم: "الكيِّسُ مَن دان نفسَه وعمل لِما بعدَ الموت، والأحمقُ منِ أتْبعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله الأماني"(١). انتهى.

ولْيزِنِ المسلمُ أعمالَه وأحوالَهُ بقِسْطاسِ كتابِ الله تعالى، ولْينظُرْ في أمرِه بعينَي العلم والتقوى لا بعينَي الجهل والهوى، هل في كِفّةِ الحقِّ والتقوى أم في كِفّةِ الباطل والهوى؟ فإنّ اللهَ تعالى يقولُ: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٤٠- ٤١] فهذه كِفّةُ الحقِّ والتقوى، والأُخرى: كِفّةُ الباطل والهوى، وهي قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٣٧- ٣٩].

فإنْ وَجَّه نفسَهُ في كِفّة الحقِّ والتقوى فلْيشكُرِ اللهَ في العلانيَة والنَّجوى ويسألْهُ الثبوتَ على الصِّراط المستقيم والمنهاج القويم، ولْيُجهِدْ نفسَهُ على الزّيادة من أفعال الخَيرات في جميع الحالات، فإنّ مَن لم يكنْ في زيادةٍ من دينِه فهُو في نُقصان، ومَن كان في نُقصان فالموتُ خيرٌ له من الحياة، كما رُويَ: أنّ مَن كان غدُهُ خيراً من أمْسِه فهُو فائز، ومنِ استوى يومُه وغدُه فهو مَغبون، ومن كان يومُه خيراً من غدِه فهُو هالك.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وقال: "هذا حديث حسن"، وابن ماجة (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس.

وإنْ وَجَد نفسَه في كِفّةِ الباطل والهوى فلْيَبْكِ بكاءَ الثَّكلى، ولْيكنْ في تحرُّقِه كالحبّةِ في المِقْلى، ولْيبتهلْ إلى العليِّ الأعلى أن يُنقذَه من رِبقاتِ الفتنةِ والبلاء لعلّهُ ينظُرُ إليه بعين الرَّحمة فيُخرَجُ مِن سجن البليّة إلى فسيح ساحةِ العَطيّة، فباهِلْهُ للتوبةِ النَّصُوح فإنهُ الربُّ السَّموح الذي لا يتعاظمُ عليه فَرج.

ومنَ الشُّبهةِ: ما في أيدي العُمّال المضروبِ على أيديهم، فإنّ للعلماءِ في ذلك مذاهبَ كلُّها حسنة. قال سُحنون[١]: من قَبِل الجوائزَ من العمّال المضروبِ على أيديهم سَقَطتْ شهادتُه، ومن كانت منهُ الفتنةُ والزَّلّةُ فغيرُ مردودِ الشهادة؛ لأنّ الأمرَ الخفيفَ من الزَّلّةِ والفتنةِ لا يَضُرُّ في العدالة، بخلافِ المُدمنِ على الأخْذ منهم. وأمّا جوائزُ الخلفاء فجائزةٌ لا شكَّ فيها لاجتماع السَّلَف على الأخْذِ منهم ممّن يُرضى منهم وممّن لا يُرضى، وما يظلم فيه قليلٌ من كثير.

وقال ابنُ رُشد[٢]: الأخذُ من العمّال سائغٌ لا جَرحةَ فيه، اللهُمّ إلّا أن يكوَنوا جُباةً فقط، وهم الذينَ إنّما جُعلوا على قَبْض الأموال وتحصيلِها دونَ وَضْعِها في مَواضعِها باجتهادِهم، وأمّا الأُمراءُ الذين فَوَّض إليهمُ الخليفةُ أو خليفتُه قَبْضَ الأموال وصَرفَها في وجوهِها باجتهادهم كالحَجّاج وشِبهِه من أُمراءِ البلاد

---

(١) انظر: البيان والتحصيل، لابن رشد ١٠/ ١٢٣، و انظر بلا بد: التاج والإكليل لمختصر خليل، للمواق المالكي ٨/ ١٩٨، فالمصنف رحمه الله منه ينقل.

(٢) في البيان والتحصيل ١٠/ ١٢٣ وما بعدها.

المُفوَّض إليهم فجوائزُهم كجوائز الخلفاء، وأمّا القُضاةُ والحُكّامُ والأجنادُ فلهم أَخْذُ أرزاقِهم من العمّال المضروبِ على أيديهم. وإن كان المَجْبيُّ حلالاً ولكنْ لم يَعدِلْ في قسمتِه فالأكثرُ على جواز أَخْذِ الجوائز منهم، وإنْ كرِهَه بعضُهم. وإنِ اجتمع المَجْبيُّ من حلال أو حرام فالأكثرُ على كراهةِ الأَخْذِ منهم، ومنهم من أجازه. وإن كان المَجْبيُّ حراماً فمنهم مَن حرَّم أخذَ الجائزة والرِّزق على عُمّال الأعمال منه، ورُوي كهذا عن مالك، ومنهم من أجازَه، ومنهم مَن كرِهَه. انتهى كلامُ ابنِ رُشد.

والذي نَقَل(١) ابنُ أبي زيد في "نوادرِه" وابنُ يونُسَ في "جامعِه" أنّ مَن بيدِه مالٌ حرام فاشترَى بهِ داراً أو ثوباً من غيرِ أن يُكرِهَ على البيع أحداً: فلا بأسَ أن تُشترَى تلك الدارُ أو الثوبُ منَ الذي اشتراهُ بالمال الحرام، كما أنه يَجُوزُ أن يُشفَعَ في الشِّقْص المشترَى بمال حرام، ويبقى النظرُ في قَبول هِبةِ هذا المشتري بالمال الحرام، ومعَ كونِ مشتريه مُستغرِقَ الذِّمّة: فقد مَنَع ابنُ القاسم ذلك؛ لأنّ مَن أحاط الدَّينُ بمالِه لا تجوزُ هبتُهُ ولا صدقتُه، وأجاز ابنُ رشدٍ قَبولَ هبتِه كما أجازَ ذلك محمدُ بن سُحنون وابنُ حَبيب وقالهُ ابنُ حَبيب، وكذلك هؤلاءِ العُمّالُ ما اشترَوْهُ في الأسواق فأهدَوْهُ لرجُل: طابَ للمَهدَى لهُ.

---

(١) تجد هذه الأقوال التي سردها المصنف رحمه الله تعالى في: التاج والإكليل لمختصر خليل، للمواق المالكي ٨/ ١٩٨، فمنه هو ينقل.

وقال ابنُ رُشد[1]: وجهُ هذا كلُّهُ أنّ الحرامَ ترتَّب بذمّة البائع أو المُهدي، فهُو المأخوذُ به والمسؤولُ عنه.

وفي "المُدوَّنة"[2]: فمَن أودعْتَهُ دنانيرَ فابتاع بها سلعةً: فليس لك أخذُها، إنما لكَ أخذُ دنانيرِك.

وفيها[3]: إنْ غَصَبَ دراهمَ فاشترى بها شِقْصاً: كانت فيه الشُّفعةُ للشفيع؛ لأنها إذا استحقَّت يُخرِجُ مثلَها ولم ينتقضِ البيع، [و][4]انظُر: ابنَ بَطّال من فإنه نَقَل عن الطَّبريِّ أنه: مَن كان من المسلمينَ بيدِه مالٌ لا يَدري مِن حرام اكتُسِب أم من حلال، فإنه لا يجوزُ قبولُه إلّا بعدَ علمِه بحِلِّيّةِ عيْنِه. وبنحوِ هذا أَخَذَت الأئمّةُ عن الصَّحابةِ والتابعين.

ومَن كرِهَهُ فإنّما رَكِبَ في ذلك في طريق الوَرَع وتجنُّبِ الشُّبهُات؛ لأنّ الحرامَ لا يكونُ إلّا بيِّناً غيرَ مُشكل، وبنحوِ هذا قال أبو عُمرَ في "تمهيدِه"، [و][5]انظُرْ حديثَ سَمُرةَ.

---

(١) مسائل أبي الوليد ابن رشد ١/ ٥٦٠.

(٢) المدونة ٣/ ١٤، ولكن العبارة التي ساقها المصنف رحمه الله أخذها من التهذيب في اختصار المدونة: المسألة (٢٥٠٧).

(٣) التاج والإكليل لمختصر خليل ٧/ ٤٠١، عن ابن القاسم.

(٤) الواو زيادة لازمة من المصدر السابق الذي ينقل المصنف رحمه الله عنه.

(٥) كذلك.

وقال سُفيانُ: جوائزُ السُّلطان أحبُّ إليَّ من صِلةِ الإخوان؛ لأنهم لا يَمُنُّون والإخوانُ يَمُنُّون، وكانت هدايا المختارِ تأتي ابنَ عُمرَ وابنَ عبّاس *فيَقبَلانِها معَ ما هُو عليه من الجَوْرِ والشَّطط*(١).

وقال الحَسَن: لا يرُدُّ عطاياهم إلّا أحمقُ أو مُراءٍ، وهذا [فيما](٢) لا يَعلمُ فيه الحرامَ بعينِه. انتهى. من "التمهيد".

قال ابنُ بَطّال: وسُئل النَّخَعيُّ عن الرَّجُل يَرِثُ الميراثَ منه الحلالُ والحرام، قال: لا يَحرُمُ عليه إلّا الحرامُ بعينِه. وفي طُرِرِ ابن عات(٣): مَن عمِل للسُّلطان فظَلَم الناسَ أو كان قاهراً غاصباً أو قاطعَ السَّبيل(٤) أو سارقاً أو فاجراً ثم عمل بالرِّبا ثم مَرِض وأراد أن يتخلَّصَ ممّا نالَ من ذلك كلِّه على أن يُوصيَ بجميع مالِه للمساكينِ وقال: إنّي أخذتُ من أموال الناس أكثرَ من جميع مالي ولا أعلمُ أصحابَه وأريدُ أن أُوصيَ بجميع مالي: لم يكنْ لهُ ذلك، إلّا أن يُمضيَهُ الوَرَثةُ، وإلّا مَضى الثُّلُثُ فقط، وينبغي له أن يفعلَ ذلك في صحّتِه.

(١) هذه العبارة ما بين نجمين تتمة توضيحية من المصنف رحمه الله.

(٢) شبه الجملة إضافة لازمة استدركناها من المصدر السابق الذي ينقل المؤلف منه.

(٣) واسمه: هارون بن أحمد بن جعفر بن عات، أبو محمد النفزي الشاطبي (ت٥٨٢ هـ): قاض، من فقهاء المالكية، وكتابه: "الطرر على الوثائق المجموعة" لابن فتّوح. المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، لأبي الحسن النباهي، ص ١١٦، والأعلام، للزركلي ٨/ ٥٩.

(٤) كذا في النسخة، والجادة: سبيل، عطف نكرة على نكرة.

ومَن وَجَد في المشترَى من المَغْنَم قُبّةَ خُيوطٍ فاشتراها بدرهم، فوجد فيها صليباً من ذهَبٍ فيه سبعون ديناراً: ففي سماع أشهَب أنه لا شيءَ عليه، إذْ لا قُدرةَ لهُ على تعريفِه ولا معرفة مُستحِقِّه. وفي سماع عيسى بن القاسم: أنّ مُستغرِقَ الذِّمّة بالأموال يُعامَلُ فيما بيدِه بالقيم ولا يُقبَلُ منهُ على وجه العطيّة، بل مَن تمكَّن من شيءٍ ممّا بعدَه وَجَب عليه ضمانُهُ للمساكين، وقد سُئل عن حبسٍ أو وديعةٍ لبعض أصحابِ السُّلطان فقال لسائلِه: إنْ رَدَدتَّها فتصدَّقْ بمثلِها للمساكينِ إن لم تعرفْ أربابَها، وإلّا فمكِّنْها لأربابِها أو قيمتَها إن رَدَدتَّها إليه.

وقد استَشكلتُ مسألةً اطلعتُ عليها في كتاب "المَوَّاق"[١] قبلَ هنا، ونصُّها: إنْ جنَى هذا المُستغرِقُ على دابّة رجُل فقَتَلها أو على ثوبٍ فأفسدَهُ: لَما ساغ للمَجنيِّ عليه أن يُغرِمَه شيئاً بها؛ لأنه يَدخلُ بذلك على أهلِ تِباعتِه نقصٌ.

وليس كذلك عندي؛ لأنه لا يكونُ أسوأَ حالاً من المُفلِس، فإنه يعطي الجِنايات ويُنفقُ على عيالِه ويُخلِّصُ ديونَه ما لم يقمْ عليه الغُرماءُ فيُفلِسُونَه، وإنّما يُحجَرُ عليه في تبرُّعاتِه فقط، وهذا غيرُ مُنقادٍ إلى أحكام الشَّرع فصار ما في ذمّتِه كالمأيوس منهُ. ولو كان تجارةً فيما يتعلَّقُ بمالِه لَكان حُكمُها حُكمَ مُبايعتِه.

---

(١) هو: محمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرناطي، أبو عبد الله المواق: الفقيه المالكي وعالم غرناطة وإمامها وصالحها في وقته، صاحب "التاج والإكليل لمختصر خليل"، والنص فيه ٨/ ١٩٩.

وعُرِف عياضٌ بعبدِ الجبّار المشهورِ بالوَرَع وقد دَفَع إليه جُنْديٌّ فرسَه فرَكِبه فنَظَر إليه أصحابُه فقال: ما لكم؟ أمَا فقهٌ زاد أو وَرَعٌ نَقَص؟ قال بعضهم: ولعلّه تصدَّق بقدرِ انتفاعِه به.

ورُوي عن ابن مُجاهد[١] أنه زار الجُبَيرَ[٢] بالزهراءِ وأكَلَ معَه ولم يكنْ له مالٌ إلّا من قِبَل السُّلطان، فقيل لهُ في ذلك، فقال: لو أمسكتُ عن طعامِه لَكان ذلك جفاءً عليه، وقد قوَّمتُ ما أكلْتُ واجتمعتُ[٣] على الصَّدقةِ به وثوابُ ذلك لمالكِه، ورأيتَ هذا أفضلَ من الشُّهرة والإمساكِ عن طعامِه.

وليس من ذلك الرُّشَى، بل هي حرامٌ بالكتابِ والسُّنّةِ والاجماع.

أمّا الكتابُ فقولُه تعالى توبيخاً لليهودِ والمرادُ تعليمُ المسلمين: {سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ} [المائدة: ٤٢] وسُمِّي السحتُ سُحتاً لأنه يَستأصلُ دِينَ المُرتشي، قال اللهُ تعالى: {فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ} [طه: ٦١]، والسُّحتُ: كلُّ حرام تَحملُ عليه شدّةُ الشَّرط، وهُو ما يرجعُ إلى الحرام الخَسيس الذي لا تكونُ لأخْذِه مروءة، ويكونُ في أخْذِه عارٌ بحيثُ يُخفيهِ مُتناولُه لا مَحالةَ، ومعلومٌ أنّ حالَ الرَّشوة كذلك، ولذلك حُرِّمت على الحُكّام.

---

(١) بعده في التاج والإكليل ٨/ ١٩٩: البيري.

(٢) في التاج والإكليل: الجبيري.

(٣) في التاج والإكليل: وأجمعت.

وأمّا السُّنّةُ فقولُه صلى الله عليه وسلم: "لَعَنَ اللهُ الراشيّ والمُرتشيَ" في الحُكم، وذلك إذا رَشوتَهُ ليُحقَّ لك باطلاً أو يُبطلَ حقّاً كما أخرجَهُ الترمذيُّ وأبو داودَ عن عبد الله بن عَمْرِو بن العاص[1].

قال ابنُ مسعود: الرَّشوةُ في كلِّ شيءٍ، فمَن شَفَع شفاعةً ليؤدِّي بها حقاً أو يدفعَ بها ظلماً فأُهدِيَ إليه فقَبِل فقد أسحَت، فقيل لهُ: يا أبا عبدِ الرَّحمن، ما كنّا نَرى ذلك إلّا في الأخْذ على الحُكم؟ فقال: الأخذُ على الحُكم كُفر، قال اللهُ تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: ٤٤].

وقد رُوِّينا في الشَّفاعةِ حديثاً مشهوراً عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم[2]، قال: "إذا أتاك أخوكَ لتشفعَ له فأتاكَ بهديّةٍ فرُدَّها إليه، وإن أخذتَها فقد أتيْتَ باباً عظيماً من أبوابِ السُّحت، اقرأوا إن شئتُم قولَه تعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا}" [النساء: ٨٥].

---

(١) لفظ الحديث: "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي"، أخرجه أبو داود (٣٥٨٠)، والترمذي (١٣٨٦)، وأخرجه ابن ماجة (٢٣١٣) بلفظ: "لعنة الله على الراشي والمرتشي".

(٢) لم أقف على هذا الحديث المشهور بحسب تصريح المصنف رحمه الله، وفي سنن أبي داود (٣٥٩٧) وغيره، من حديث ابن عمر: "مَن حَالت شفَاعَتُهُ دون حَدٍّ من حُدودِ الله، فقد ضادَّ الله،..." الحديث.

وكان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول: "اشفَعوا تؤجَروا، ويقضي اللهُ على لسان نبيِّه ما يشاء"(١).

فصـلٌ

ومنَ الشُّبهة ما يُهدي المُستفتي للمُفتي إذا كان ينشَطُ للفتوى أُهدِيَ له أم لا، وأمّا إذا كان لا ينشَطُ إلّا إذا أُهدِي لهُ فإنه لا ينبغي له حينَئذٍ قَبُولُها ما لو كان فيما يرجعُ إلى الخِصام إلّا إذا كان المُستفتي مُغَفَّلاً يَعلَمُ ذلك من حالِه كلُّ أحد: فلا بأسَ للمفتي أن يُلقِّنَه حُجّتَه، كما لا يُكرَهُ لهُ أن يُلقِّنَ لامرأةٍ حُجَّتَها؛ لأنّ اللهَ وَصَفهُنَّ بعَدَم إفصاحِهنّ بحُجَجِهنَّ فقال: {أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} [الزخرف: ١٨].

ومن ذلك: انقطاعُ الرَّعيّة إلى العلماءِ والمتعلِّقينَ بالسلطان لدفْع الظُّلم عنهم فيها دونَهم.

ومن ذلك: ما يُهدَى إلى الفقيه رجاءَ العونِ على الخصومة، وكذلك إذا تَنازَع عندَه خصمانِ فأهدَيا إليه جميعاً أو أحدُهما رجاءَ العون على حُجّتِه: إنْ كان ممَّن يُسمَعُ منه فلا يحِلُّ لهُ أن يأخُذَ منهما ولا من أحدِهما شيئاً على ذلك.

(١) رواه البخاري (١٤٣٢)، من حديث أبي بردة عن أبيه.

وكذلك أخذُ الأُمراءِ الرِّشوةَ على توليةِ القُضاة، ولا سيَّما إنْ كان لا يَصلُحُ لذلك، كما لا يحِلُّ لهم أخذُ الهَدِيّةِ على ذلك؛ لأنه عكسُ ما كان عليه السَّلفُ من فِرارهم من القضاءِ وإكراهِهم عليه رغبةً عنه وحرصاً على إنقاذِ مُهَجِهم من النار، إذ قلَّما وَلِي أحدٌ القضاءَ فسَلِم من الزَّيغ والظلم والرُّكونِ إلى أهل الظلم، قال صلى الله عليه وسلم: "إذا عَدَل القاضي وَكَّل اللهُ به مَلَكاً يسدِّدُه، وإذا جار وَكَّل اللهُ به شيطاناً يُغويهِ"، أخرجه البيهقيُّ وأبو داود[١].

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ما مِن قاضٍ إلّا ويُبعَثُ يومَ القيامة ويدُه مغلولةٌ إلى عُنُقِه، فإنْ فكَّه عدلُه نَجا وإلّا انخَسَف به الجِسرُ في نار جهنَّم"، أخرجه الترمذيُّ وأبو داود[٢]. وعنه أيضاً: قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "يَرى القاضي العدْلُ يومَ القيامة منَ الأهوال والزِّلزال والمسألةِ ما يوَدُّ أنه لم يقضِ بينَ اثنيْنِ في ثمرةٍ"، أخرجه النسائيُّ[٣]. وقال صلى الله عليه وسلم: "منِ اتَّخذَ قاضياً فقد ذُبح بغيرِ سِكِّين[٤]، وما مِن قاضٍ ينظرُ إلى وجوهِ الناس إلّا وبُعثَ يومَ القيامة مطموسَ الوجْه مُوَلِّياً

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٧٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٧٤٦) من حديث أنس، وغيرهما.

(٢) كذا قال، وليس فيهما ولا في أحدهما.

(٣)هو في حسن السلوك الحافظ دولة الملوك، لابن الموصلي (٢٣٨)، عن عائشة لا أبي هريرة.

(٤) إلى هنا رواه أبو داود (٣٥٧١) و(٣٥٧٢)، والترمذي (١٣٢٥)- وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه- وابن ماجة (٢٣٠٨).

على دُبُرِه، وما مِن [قاضٍ][1] أخَذَ رِشوةً عليه إلّا طُوِّقَها شُجاعاً أقرعَ، ويُحشَرُ وبجوفِه أزيزٌ وصوتٌ كلهيبِ النار يُفزِعُ أهلَ الحشر"، أخرجه الطبرانيُّ في الترغيبِ والترهيب[2]. وإنِ استَحلَّها فهُو كافرٌ ومُخلَّدٌ كما مرَّ عن ابن مسعود.

وكذلك ما يُعطى الشهودُ عندَ أداءِ شهاداتِهم وعلى أن يُزوِّروها، أو لِيشهَدوا بزُورٍ، أو على كتمانِها، أو لِيرجِعوا عنها ولو بعدَ أدائها، وإنّما يحِلُّ للقاضي والشهودِ الإرزاقُ من بيتِ المال باجتهادِ الإمام.

وإن كان في البلدِ خليفةٌ وإن لم يكنْ بها خليفةٌ، وكانت بها جماعةٌ صالحةٌ على الحقّ، فتجبُ عليهم توليةُ قاضٍ على أنفُسِهم، فيَجمعونَ له كلَّ عام ما يقومُ بمُؤْنتِه ممّا هو دونَ الإسرافِ وفوقَ التقتير، ولا يُترَكُ الناسُ سُدًى يعدو بعضُهم على بعض وإلّا وَجَب على كلِّ مَن عندَه علمٌ أن يقضيَ بينَ الناس مجّاناً[3]، وهو الأصلُ الذي كان عليه السَّلَفُ، وأمّا ما يؤخَذُ من الخصميْنِ فمُنكَرٌ بَواح وحرامٌ صُراح، حتى أنّ بعضَ قضاةِ الوقت جَعَلهُ العُشْرَ ممّا يختصمانِ فيه زَيْغاً وإلحاداً أو بِدعةً وفساداً، لا يحتشمونَ من ذلك ولا يُنكرونَهُ، لنَزْعِهم جِلبابَ الحياءِ عن وجوههم.

---

(١) إضافة لازمة من دونها يختل النقل، مع أننا لم نقف على هذا الأثر.

٣ عقد المواق المالكي في التاج والإكليل ٨/ ٨٧ بابًا في آداب القضاء، ونص على شروط في القاضي منها أن يكون غنيًّا، والعلة في ذلك ظاهرة معروفة.

فصلٌ: في السِّعايةِ وما يؤخَذُ عليها

رُويَ أنّ صاحبَ السِّعايةِ والدَّيُّوثَ لا يشُمّانِ رائحةَ الجنّة وهي تُشَمُّ من مسيرةِ خمسِ مئةِ عام[١]، وفي رواية: "مَن سَعى إلى ذي سُلطانٍ بعورة مسلم فعليه مثلُ عذابِ الأُمّة، وعليه لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين"، أخرجه صاحبُ "الترغيبِ والترهيب"[٢] بسندٍ واهٍ غيرَ أنّ الأصُولَ تعضُدُه.

وما يأخُذُه صاحبُ السِّعاية على السعايةِ أخبثُ من رِشْوة الحُكّام، وهو ضامنٌ على المختار والمرتضَى، كمن دلَّ لصاً على عورةِ قوم، وكمَن أتلفَ بشهادةٍ كاذبةٍ أو قضَى بباطل عَمْداً فيما لا يُشبَه، أو كمتعمِّدٍ بلا عُذر أو غاصبٍ فيما أتلفَ أو تسبَّب لهُ، كضمانِه الكِراءَ لطلبِه، بخلافِ السارقِ فإنّما عليه القطعُ وما باشَرَه حيثُ أخَذَهُ من حِرزِه، وإلّا فلا قَطْع وضَمِن، وأمّا اللصُوصُ المنفصلونَ المختلَفُ في كُفرِهم وإيمانِهم الذين لا يَبغُونَ على مسلم- كالبَرْبَر وبني صُنَان- فليستْ لأموالهم حُرمة وإنّما فَيْءٌ يجبُ على آخذِه بذْلُ جُلِّه أو كلِّه أو بعضِه على

(١) أما الديوث، ففي: جامع معمر بن راشد (٢٠٤٣٧) عن رجل من قريش، ومسند أبي داود الطيالسي (٦٧٧) عن عمار، ومساوئ الأخلاق للخرائطي (٤١٠) عن الحارث، وسواهم. وفي إحياء علوم الدين ٣/ ١٥٥، أن الذين لا يسكنون الجنة ثمانية، منهم: الديوث والنمّام، وهو القتات، أو صاحب السعاية بحسب المصنف رحمه الله، وفيه حديث حذيفة الصحيح المروي في: البخاري (٦٠٥٦) ومسلم ١٦٩ و١٧٠- (١٠٥).

قدرِ اجتهادِه وفاقتِه، فإذا عَثَر على مال مسلم بعينِه وَجَب تخليصُه وتمكينُه لأربابِه إنْ قَدَر على ذلك دونَ تباعةٍ ولا كبيرِ مُؤْنة، وإلّا كان له منهُ ما يُقابلُ تلك المُؤْنةَ- كان التخليصُ بإذنِه أو بغيرِ إذنِه- لأنه أوصلَ إليه بذلك نفعاً.

ولا ينبغي لمن لهُ اعتناءٌ بإصلاح قلبِه وتزكيةِ عملِه اتّخاذُ مثل هذه السَّفاسف قُوتاً، بل إنْ كان ولا بدَّ أَخْذه فلْيَجعلْهُ في عامةِ مصالحِه من قضاءِ دَيْن وصلةٍ ورَدٍّ لسائل وغيرِ ذلك من وجوه البرّ.

فصلٌ: في الضِّيافة وأنواعِها

قال الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم: "مَن كان يؤمنُ بالله وباليوم الآخِر فلْيُكرِمْ ضيفَه- وهو المسافر المنقطع[١]، سواءٌ كان المُضيفُ بدويّاً أو قَرَويّاً حيث افتقرَ الضَّيفُ إلى الصِّلة- وجائزتُه يومٌ وليلة"[٢]. والضيافةُ ثلاثةٌ، وتُكرَهُ إقامتُه بعدَها.

وينبغي إيثارُ المُكلَّفينَ دون الصِّبية، فيُمنَعُ إيثارُ الضَّيفِ فيما يحتاجونَ إليه من واجبِ نفقتِه لتقديمِه، كما قيل بسُنّيّتِه أو ندبِه على ما انعقَد الإجماعُ على وجوبِه. وأمّا إقرارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طلحةَ ومدحُ الله لهُ بقولِه:

---

(١) هذا تفسير بديع، سوف يأتي توضيحه عنده بعد قليل، والانتصار منه لاعتبار الضيف محصورًا بالسفر فقط.

(٢) رواه البخاري (٦٠١٩) و(٦١٣٥) و(٦٤٧٦)، ومسلم ١٤- (٤٨).

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: ٩] فيَحتمِلُ أنه مخصَّصٌ بذلك الزّمانُ، حيث كانتِ الضّيافةُ واجبةَ الإيثار مندوباً إليها، لخصوصِ الإسلام بالمدينة وانضواءِ المُهاجرينَ إليها ليس معَهم إلّا سيوفُهم قد رَمَتْهمُ العربُ عن قوسٍ واحدة، فلمّا فُتِحت الأقاليمُ وامتدَّ الإسلام وأطمأنَّ أهلُه، وقَدَر الفقيرُ على التكسُّب والغنيُّ على التسبُّب، خفَّ أمرُ الضَّيف وسَقط إيثارُه على مثل الصبيِّ والرَّقيق والزَّوجة والوالدِ الواجبةِ نفقتُه، حيثُ لم تطِبْ أنفسُهم بالإيثار.

وفي بعض الآثار أنّ الضَّيفَ على خمسةِ أقسام: ضيفُ الله، وضيفُ رسُولِه، وضيفُ الدُّنيا، وضيفُ نفسِه، وضيفُ الشيطان.

فضيفُ الله: التقيُّ العالِم، وضيفُ رسولِه: الفقيرُ وطالبُ العلم، وضيفُ الدنيا: صاحبُ الدِّين الغنيُّ الذي يُرجَى فضلُه، وضيفُ نفسِه: السلطان، وضيفُ الشيطان: الظالمُ وصاحبُ المزمار.

وأولُ مَن سنَّ الضيافةَ: إبراهيمُ عليه السلام، وكان لا يأكلُ إلّا معَ ضيفٍ أو مِسكين، ويَلِي خدمةَ الضَّيف بنفسِه، ويأتي الأضيافَ معَ طعامِه، وكان يبدأُ بالسَّلام ثُمّ الطعام ثمّ الكلام، رُويَ أنه استضافَهُ مُشرِك، فحَرَمَه لأجْل شِركِه، فلمّا انصرف المشركُ جاءه جبريلُ عليه السلامُ فقال له: يا إبراهيم، إنّ ربَّك يُقرِئُكَ السَّلامَ ويقولُ لك: لِمَ حَرَمتَ عبدي؟ فقال: لأنه عدوُّك، فقال تعالى: ليست لهُ قُدرةٌ على عداوتي، ثم قال لجبريلَ: قلْ لهُ: أنتَ خلقتَهُ أم أنا؟ قال: بل

أنت يا ربِّ، فقال لجبريل: قلْ لهُ: أأنت رزقتَه أم أنا؟ فقال: بل أنت يا ربِّ، فقال لهُ: قلْ له: أهو كافرٌ بكَ أم بي؟ قال: بكَ يا ربِّ، فقال لهُ: قلْ لهُ: أهو خَلَق الكفرَ في نفسِه أم أنا؟ فقال: بل أنت يا ربِّ، فقال: هو عبدي، إمّا أن أخذُلَه بالكُفر فأجعلَه غذاءً لناري وإمّا أن أكرمَهُ بالإيمان برحمتي فأجعلَهُ في بُحبوحةِ جنَّتي، فتَبِعَهُ إبراهيمُ فأدركه ولقلبِه رَجيفٌ من الخوف، فجَعَل يتلطَّفُ به على أن يَرجعَ معَهُ فيُطعمَه، فقال: يا إبراهيمُ، إنّ لك لَشأناً! حرمتَني البارحةَ وجئتَ تتلطَّفُ بيّ اليومَ لأرجعَ معَكُ على أن تُطعمَني؟ فقال لهُ: إنّ ربِّي عاتَبَني فيك، فقال الرجُل: نِعْمَ الربُّ ربُّكَ إذْ يعاتبُ حبيبَه في عدوِّه، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله وأنك عبدُه ورسولُه، فرجعَ معَ إبراهيمَ عليه السلامُ إلى بيتِه ولازَمَهُ فكان من خواصِّ أصحابِه حتى مات معَه.

وليست كرامةُ الضَّيف في الطعام، إنما كرامتُه البِشرُ والترحيبُ وإكرامُ مثواهُ والقيامُ على دوابِّه وعلفُهنَّ وسَقيُهنَّ، قال حاتم:

وإنّي لَعبدُ الضَّيفِ ما دام نازلاً ... ولا شيمةٌ لي غيرُها تُشبهُ العبدا

يُروَى أنّ أربعةً من الخِدمة لا يتولّاها بنفِسه إلّا كريم: خِدمةُ الضَّيف، وخدمةُ الشَّيخ، وخدمةُ الوالد، وخِدمةُ الفرَس.

رُويَ أنّ رجُلاً استضافَ عبدَ الملك بنَ مروان، وكان خالياً معَه في عِلِّيّةٍ لهُ، فبينما هما كذلك إذْ طُفِئ المصباحُ، فقام الرجلُ ليُصلحَه إجلالاً للخليفة، فمَنَعه

عبدُ الملكِ من ذلكَ فأصلَحَهُ بنفسِه، فلمّا جَلَس إليه قال لهُ: يا هذا، ليس من شأنِ الأشراف استخدامُ الأضياف.

قال الشاعر:

سأُكرمُ ضيفي قبلَ إنزالِ رحلِهِ   فيُخصبُ عندي والمكانُ جديبُ

فورِث ذلك عنهُ الأنبياءُ من بعدِه والعربُ من بَنيه، فكانوا أخصَّ الناس بذلك.

فصلٌ: في حقِّ الجار وحُسن الجِوار ورعايةِ ابن السَّبيل والصاحبِ بالجَنْب

قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ما زال جبريلُ يوصِيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيُورِّثُه"(١)، و"ليس بمؤمنٍ من لا يأمَنُ جارُه بوائقَه"، أخرجه مسلمٌ(٢) وغيرُه. وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تَحقِرنَّ جارةٌ لجارتها ولو فرسنَ شاة"، أخرجهُ النَّسائيُّ(٣) وغيرُه. وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا تواصَل الجيرانُ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٥) ومسلم ١٤١- (٢٦٢٥) عن ابن عمر، ورواه البخاري (٦٠١٤) من حديث عائشة.

(٢) مسلم ٧٣- (٤٦).

(٣) بل رواه البخاري (٢٥٦٦) و(٦٠١٧)، ومسلم ٩٠- (١٠٣٠) عن أبي هريرة.

كثُر خيرُ بيوتِهم ونَزَلتْ عليهمُ الرَّحمة"، أخرجه الطبرانيُّ في "الكبير"[١]. وقال صلى الله عليه وسلم: "الجيرانُ أربعةٌ: جارٌ له ثلاثةُ حقوق، وهو الجارُ المسلمُ ذو القُربى، ثم الجارُ المسلمُ الجَنْبُ الغريبُ الدار، ثم الجارُ المسلمُ البعيدُ الدار، ثم الجارُ الذِّمّيُّ الغريبُ الدار، ثم الجارُ الذِّمّيُّ البعيدُ الدار. أمّا الجارُ المسلمُ ذو القُربى فلهُ ثلاثةُ حقوق: حقُّ الجار وحقُّ الإسلام وحقُّ القَرابة، وللجارِ المسلم الجَنْبِ: حقُّ الجِوار وحقُّ الإسلام وحقُّ قُربِ الدار، وللجارِ الذِّمِّيِّ حقّان: حقُّ الجوارِ وحقُّ قُربِ الدار، وللجارِ الذِّمِّيِّ البعيدِ الدار حقٌّ واحدٌ وهُو حقُّ الجِوار، فإنِ استوَوا فالأقربُ باباً، وأربعونَ داراً جارٌ، ومَن يبلُغُه النداء[٢].

ومن وصايا النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم لمُعاذ بن جَبَل لمّا وجَّهه إلى اليمن، قال له: "يا معاذ، لا تشبَعْ وجارُك جائع"، أخرجه الترمذيُّ[٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا طَبخ أحدُكمُ اللحمَ فلْيُكثرْ ماءهُ ليتفضَّلَ على جيرانِه بفضلِ مَرَقِه ولا يؤذيَهم بقُتَار قِدرِه، فإنْ فَعل فلْيجعلْ لهم نصيباً منه"، أخرجهُ البيهقيُّ، وفي رواية: "إذا أَعطَيْتَ بَنِيكَ من الفواكه ما ليس عندَ جيرانك

(٢) ينظر: مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا (٣٤١)، والمنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها، للخرائطي، ص ٥٩.

فلا تترُكْهم يخرُجون إلى بَنيهم لئلّا يرَوْا ذلك فيَغيظَهم وإلّا فناوِلْهم منها على قَدْر طاقتك"(2).

وقيل لرسُول الله صلى الله عليه وسلم: منِ المُحسن؟ فقال: "من أثنى عليه جيرانُه بالإحسان فهُو المُحسن، ومن ذَكَروه بالإساءةِ فهُو المُسيء"، أخرجه الطبرانيُّ في "الأوسط"(١).

فصلٌ: في حقِّ الصاحبِ بالجَنْب، وهُو الرَّفيقُ في السَّفر

ومنَ الواجبِ عليك من حقِّه: أن تَحوطَه ومالَه كما تَحُوطُ نفسَك ومالَك، وتعينَهُ بفضل زادِك وظهرِك، وتُسايرَهُ على قَدْر سيرِه وتقيمَ له إذا احتاج إلى ذلك، وتُعينَهُ على طلبِ ضالتِه، وتُباسطَهُ عند القبض بما يقوِّي رجاءه ويزيلُ غمَّه، وتُريَهُ البِشْرَ كما تُريهِ لضيفِك النازل بك. ولْتغُضَّ الطَّرفَ عن عيوبِه وعثَراتِه كما يجبُ عليك ذلك في حقِّ جارِك، بل في حقِّ كلَّ مسلم، غيرَ مُكابرٍ ولا مُزيلٍ جِلبابَ الحياء عن وجهِه، وإلا: وَجَب تبيينُ مَثالبِه ليُتَّقى ويَجتنبَ غيرُه مثلَ صَنيعتِه، وليس ذلك من باب الغِيبةِ وإنما هو من بابِ النَّصيحة، إلّا أن يقصدَ بذلك التفكُّهُ بلحمِه لعداوةٍ أو غَرَض من الأغراض فيَحرُم.

(١) لم أقف عليه.

فصلٌ: في دواءِ اللِّسان وحِميتِه

قيل: "لسانُكَ أسَدُك، إنْ أطلقتَهُ أكَلَك، وإن حبستَهُ سَلِمتَ من شرِّه"، فدواؤهُ ذكرُ الله، وحِميتُه: بالصَّمت.

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِر فلْيقلْ خيراً أو لِيصمِتْ"، أخرجه ابنُ ماجةَ[1] وغيرُه.

وفي صُحُفِ إبراهيمَ عليه السلامُ: مَن عدَّ كلامَهُ من عملِه قلَّ كلامُه إلّا بذكر الله.

فينبغي للمؤمن أن يحافظَ على لسانِه؛ لأنه تَرجُمانُ القلب، الذي هو بيتُ الربّ، وإذا أراد أن يتكلَّمَ فلْيتفكَّرْ قبلَ كلامِه، فإن عَلم وتحقَّق أنّ ما يتكلَّمُ به خيرٌ لا تترتَّبُ عليه مفسَدة ولا يجُرُّ إلى محرَّم أو مكروهٍ فلْيتكلَّمْ، وإنْ كان على خلافِ ذلك فالسُّنّةُ السُّكوتُ؛ لأنّ الكلامَ المباحَ ربَّما أدَّى إلى الكلام المحرَّم أو المكروه، وقد قال تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨]، وظاهرُ الآيةِ: أنّ المَلَكيْنِ يكتُبان المباحَ، وإن كان قد قيل: إنّهما لا يكتبانِ إلّا ما فيه ثوابٌ أو عقاب.

---

(١) ليس الشأن شأن ابن ماجة في هذا الحديث الذي أخرجه الشيخان، ينظر: الجمع بين الصحيحين ٣/ ٦٦ (٢٢٤٧).

وفي صُحُف إبراهيمَ عليه السلام: وعلى العاقل أن يكونَ بصيراً بزمانِه، مُقبِلاً على شانِه، حافظاً للسانِه.

ورُويَ[1] أنّ رجُلاً وَقَف على لُقمانَ الحكيم وهُو في حلْقةٍ عظيمة، فقال لهُ: ألستَ عبدَ بني الحَسْحاس[2]؟ فقال: بلى، فقال: بأيِّ عملٍ بَلغْتَ ما أرى؟ قال: بقَدَر اللهِ تعالى وصِدقِ الحديثِ وترْكِ ما لا يعنيني وفضول الكلام ممّا لا يعني.

وفي الحديث: "ألا أُنبئُكم بأمريْنِ خفيفيْنِ لم يُلْقَ اللهُ بمثلِهما؟ الصَّمتُ وحُسنُ الخُلُق"، أخرجه الترمذيُّ[3].

وفي الحِكم: إنّما جُعل لك لسانٌ واحد وأذُنانِ لتسمعَ أكثرَ ممّا تقول.

ورُويَ أنّ رجُلاً سأل مالكاً رحمهُ الله في مرضِه الذي مات منه، فقال: أوصِني، فقال: إن شئتَ جمَعْتُ لكَ علمَ العلماء وحِكمَ الحُكماء وطبَّ الأطبّاءِ في ثلاثِ كلماتٍ: أمّا علمُ العلماءِ: فإذا سُئلتَ عمّا لا تعلمُ فقلْ: لا أعلم، وأمّا حِكمُ الحُكماء فإذا كنتَ جليسَ قوم فكنْ أسكتَهم، فإنْ أصابوا كنتَ من جُملتِهم وإن أخطأوا سلِمتَ من خطإهم، وأمّا طبُّ الأطبّاء فإذا أكلتَ طعاماً فارفعْ يدَكَ منه ونفسُك تشتهيه ولا تُتمَّ على الشِّبَع فإنه لا يألَمُ جسمُك ما لم يكنْ مرضُ موتِك.

---

(١) أخرجه أبو طاهر السلفي في أحاديثه عن جعفر السراج (٣٤)، وغيره عنه.

(٢) في مصدر التخريج: "أنت لقمان بن عبد الحسحاس؟".

(٣) بنحوه عند المنذري في الترغيب والترهيب للمنذري (٤٣٤٩).

وفي الحِكَم: لو كان الكلامُ من فضّة لَكان السُّكوتُ من عسجَد، وأنشدوا:

إذا ما اضُطررتَ إلى كلْمةٍ فدَعْها وبابَ السكوتِ اقصِدِ
فلو كان نطقُكَ من فضةٍ لكان سكوتُك من عسجدِ

وقال غيرُه:

مِتْ بداءِ الصَّمتِ خيرٌ لكَ من داء الكلامِ
إنّما السالمُ من ألـ ـجَمَ فاه بلِجامِ

وقال بعضُ الأولياء:

أمَّن يريدُ منازلَ الأبدالِ من غيرِ قصدٍ منهُ للأعمالِ
لا تطمَعَنْ فيها فلستَ منَ اهلِها ما لم تُزاحِمْهم على الأحوالِ
بيتُ الولايةِ قَسَّمت أركانَهُ ساداتُنا فيه من الأبدالِ
ما بينَ جوع واعتزالٍ دائمٍ والصمتُ والسَّهرُ النَّزيهُ العالِ

وبالجملة، فالأوْلى باللّسان التقليلُ من الكلام ما استطاع ما لم تتعلَّقْ به مصلحةٌ دينيّةٌ أو دُنْويّةٌ[١] أذِن الشارعُ في استعمالِها، وخصوصاً بعدَ العِشاء خشيةَ أن يُفضيَ به ذلك إلى النوم عن وِردِه من صلاةِ الليل أو عن التقليس بالصُّبح أو يَختِمَ بما لا ينبعي أن تُختتَمَ به اليقَظةُ.

---

(١) كذا نسبها إلى الدنيا، ولعله خطأ من الناسخ لأنه سوف يأتي منسوبًا على الجادة بعد قليل.

وإنّ النَّومَ موتٌ واليَقَظةُ حياة، واستُثني من ذلك أربعةُ أنواع: تعلُّمُ العلم وتعليمُه، والكلامُ معَ العروس ليلةَ الزَّفاف، والضَّيفُ والمسافرُ، وما تدعو إليه الحاجةُ من ضرورةِ الإنسان، قال صلى الله عليه وسلم لمُعاذ: "أمسِكْ عليكَ لسانَك"، فقال: فهل يسألُنا اللهُ عمّا نقولُ بألسنتِنا؟ قال: "وهل يكُبُّ الناسَ على مَناخِرهم في النار إلّا حصائدُ ألسنتِهم؟"(١).

واعلمْ أنّ لربِّك على لسانِكَ فرائضَ كما له مثلُ ذلك على الجوارح الظاهرة، وهي النُّطق بمعتقَدِ القلب منَ التصديق بالشَّهادتيْنِ وجميع الكمالاتِ الواجبةِ لله والأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المُنكر، وإرشادِ الضالّ، وتعلُّم الواجبِ عليك وتعليمِه لمن يجبُ عليك القيامُ عليه، والدعوةِ إلى الله وإلى واجبِ دينِه بعدَ الفراغ من واجبِ العَيْن عليك وعلى من يجبُ عليك القيامُ عليهم، وأداءِ الشهادة لله، وتنبيهِ الغافل وتعليم الجاهل، والزَّجرِ عن العلوم الباطلةِ التي لا تُقرِّبُ إلى الله تعالى.

وكما أنّ اللهَ تعالى أوجَبَ على اللسان فرائضَ، كذلك حرَّم عليه أموراً من القبائح التي لا يمكنُ تحصيلُها إلّا به، مثلَ: الغيبةِ بأنواعِها إلّا ما كان منها بمعنى النُّصح والتعريفِ والاستفتاء، وكذلك النَّميمةُ والسُّخْرِيةُ، والأيْمانُ الفاجرةُ، والطلاقُ والعتقُ، والكذبُ والبُهتانُ وذكرُ الفروج بالأسماءِ المُستقبَحةِ، والغناءُ

(١) مسند أحمد (٢٢٠١٦)، وفيه طرقه وتخاريجه.

والمجنُ والتشبيبُ والهجاءُ والشَّتمُ والسَّبُّ والقذفُ والطَّعنُ في الأنساب والخوضُ في باطل الكلام.

وكلُّ ما لا ينبغي النُّطقُ به فسماعُه محظور، قال الشاعر:

وسمْعَكَ صُنْ عن سَماع القبيحِ كصوْنِ اللسان عن النُّطقِ بهْ
فإنك عندَ سَماع القبيحِ شـريكٌ لقائلِـهِ فانتبِـهْ

فاستماعُ الواجب واجب، واستماعُ المندوبِ مندوب، واستماعُ الحرام حرام، قال اللهُ تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٤]. ويَحرُم سماعُ كلام الأجنبيَّةِ للَذّةٍ، ولها التعلُّمُ من أتقياءِ الرِّجال من وراءِ حجاب، وإن قَدَرتْ على استعمال ما يُغيِّرُ نغمَها وفصاحةَ مَنطِقِها بحيثُ يُفهَمُ كلامُها من غير استطابةٍ: فَعَلتْ، ولها أن تُعلِّمَ الرجالَ حيث كانت مُتَجالّةً[١]، كأنِ[٢] احتيجَ إلى شابةٍ في فَرْض العيْن ولكنْ من وراءِ حجاب، كما كانت تفعلُ عائشةُ رضي اللهُ عنها، قال صلى الله عليه وسلم: "رحم اللهُ نساءَ الأنصار، كُنَّ لا يَمنَعُهنَّ الحياءُ من أن يتفقَّهْنَ في دين الله"[٣].

---

(١) أي: لا تُشتهَى ولا يُلتذّ بكلامها. المدخل لابن الحاج ٣/ ٢٨٨.

(٢) كذا عبارته.

(٣) أخرجه القرطبي في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٣٧٣.

ويَحْرُمُ استراقُ السَّمع، قال صلى الله عليه وسلم: "منِ استمعَ إلى حديثِ قوم بغير إذْنِهم صُبَّ في أُذُنِه الآنُكُ يومَ القيامة"(١).

ومن محرَّماتِ اللسان: النِّياحةُ كسماعِها.

وأمّا البصرُ فدواؤه: النظرُ إلى المصحفِ وإلى عجائبِ صُنع الله تعالى على وجهِ العبرة والفكرة، وإلى وجهِ العالم، وليقلْ كلَّما أصبح وأمسَى: اللهُمَّ متِّعْني بسَمْعي وبَصَري وقوَّتي ما أحييْتَني واجعلْها الوارثَ منّي.

والاكتحالُ بالإثْمِد، لا سيَّما عندَ النَّوم، بيدِه اليُمنى ثلاثاً ثم باليسرى مرتيْن كما كان صلى الله عليه وسلم يفعل، ولْيَحْتَمِ من النظرِ إلى الفروج ولو فرجَ نفسِه، وكذلك الفَضَلاتُ وكلُّ مُستقذَر، وإلى الأجنبيّة، ومالِ غيرِه ولو شورةَ بيتِه(٢)، قال اللهُ تعالى: {غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا} [الأحزاب: ٥٣]، كما رُوي أنه مَن ضيَّق على نفسِه في البصَر وَسَّع اللهُ عليه في البصيرة، ومن وسَّع على نفسِه في البصَر ضيَّق اللهُ عليه في البصيرة، وقال صلى الله عليه وسلم: "عينانِ لا تَرَيانِ النارَ إلّا تَحِلّةَ القَسَم: عينٌ غضَّتْ عن محارم الله

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري (٧٠٤٢).

(٢) الشورة، بالضم: الهيئة، والحسن والجمال، كأنه من الشور، بالفتح، وهو عرض الشيء وإظهاره. تاج العروس، (بتصرف: شور).

وعينٌ حَرَسَتْ في سبيل الله"(١)، وقال صلى الله عليه وسلم: "غُبارانِ لا يجتمعانِ في مَنخِريْ مسلم: غبارٌ في سبيل الله، ودخانُ جهنَّم "(٢).

واعلمْ أنّ اللهَ تعالى رَكَّب في نوع الإنسانِ سبعَ جوارح وجعلَ للنارِ سبعةَ أبواب، فكلَّما حَفِظَ جارحةً أغلق اللهُ عنه باباً من أبوابِ جهنَّم وفتح له باباً من أبوابِ الجنّة، حتى إذا حَفِظها كلَّها أغلقَ اللهُ عنه أبوابَ جهنَّم كلَّها وفَتَح له أبوابَ الجِنان كلَّها، وتحصَّل لهُ حينَئذٍ الاستقامةُ وتيسَّر لليُسرى، قال اللهُ تعالى: {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [الحجر: ٤٤].

قال السُّدّيُّ: أبوابُ النار طِباقٌ إلى أسفل الدَّرَكات، وأبوابُ الجنّةِ ولاءٌ، ثم يرتقي الفائزونَ بعدَ دخولِها في الدَّرجات على قدرِ الأعمال.

قال عليُّ بنُ أبي طالب: تدرون كيف أبوابُ النار؟ فقال بيديْهِ هكذا ووضَع إحداهما على الأخرى، ثم قال: هي سبعةُ أبوابٍ بعضُها فوقَ بعض.

قال ابنُ جُرَيْج: النارُ سبعُ دَرَكات، أوّلُها: جهنَّم، ثم لَظَى، ثم الحُطَمة، ثم السَّعيرُ، ثم الجحيم، ثم سَقَرُ، ثم الهاوية، لكلِّ دَرَكةٍ قومٌ يسكنونَها.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٣٩) عن ابن عباس، دون قوله: "إلا تحلة القسم". وقال الترمذي عقبه: "وفي الباب عن عثمان، وأبي ريحانة. وحديث ابن عباس حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن رزيق".

(٢) لم أقف عليه.

والسببُ في ذلك تفاوتُهم في الشِّركِ والمعاصي، ولذلك اختلفتْ مَراتبُهم في العذاب، فأهلُ الدَّرْكة الأولى: أهلُ الكبائر من الموحِّدين، يُعذَّبونَ فيها بقدرِ ذُنوبِهم ثم يُخرَجون، وفي الثانية: النصارى، وفي الثالثة: اليهودُ، وفي الرابعة: الصابئونَ، وفي الخامسة: المَجُوسُ، وفي السادسة: الوَثَنيُّون، وفي السابعة: المنافقون، وذلك قولُه تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء: ١٤٥].

ومن حديثِ ابن عُمر، عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "لجهنَّمَ سبعةُ أبواب، باب منها لِمَن سلَّ السَّيفَ على أُمّتي"، أخرجه الترمذيُّ(١).

فإذا تقرَّر هذا تبيَّن لك أنّ الجنةَ ثمانيةُ أبوابٍ كبارٍ يُتوصَّلُ منها إلى أبوابٍ كثيرةٍ كما في الصحيحيْن(٢)، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ذَكَر أبوابَ الجنة، فقال: "مِن أُمّتي من يُدعَى من بابِ الصلاة، ومنهم مَن يُدعَى من بابِ الصِّيام"، فقال له أبو بكر: هل من أُمّتِك من يُدعَى من جميع أبوابِ الجنةِ يا رسُولَ الله؟ قال: "نعم، وأنت منهم".

وفي حديثِ أبي هريرةَ عند الشَّيخيْنِ مرفوعاً: "مَن أنفَقَ زوجيْنِ في سَبيل الله دُعِي من أبوابِ الجنّة: يا عبدَ الله، هذا خير، فمن كان من أهل الصَّلاة دُعِي من

(١) في السنن (٣١٢٣)، ثم قال: "هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول".

(٢) الجمع بين الصحيحين ٣/ ٨٨ (٢٢٧١).

باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهادِ دُعي من بابِ الجهاد، ومن كان من أهل الصَّدقة دُعِي من بابّ الصَّدقة، ومن كان أهل الصِّيام دُعِي من بابِ الرَّيّان"[1].

ورَوى التِّرمذيُّ[2]، من حديثِ عُمرَ بن الخطابِ مرفوعاً: "ما منكم من أحدٍ يتوضَّأُ فيُسبغُ الوضوءَ ثم يقول: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه إلّا فُتِحت له أبوابُ الجنّة الثمانية".

قال القُرطُبيُّ[3]: وظاهرُ الأحاديثِ يدُلُّ على أنّ أبوابَ الجنة أكثرُ من ثمانية. قال: وانتهى عددُها إلى ثلاثةَ عشَرَ باباً.

ورُوى ابنُ أبي شَيْبةَ[4]، من حديثِ أبي هريرةَ، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أتاني جِبريلُ فأخَذ بيدي فأراني بابَ الجنّةِ الذي تُدخَلُ منه أُمّتي"، فقال أبو بكر: وَدِدتُ أنّي معَك حتى أنظرَ إليه، فقال: "أمَا إنك يا أبا بكر أولُ من يَدخُلُه من أُمّتي".

فقد دلَّ هذا الحديثُ أنّ لهذه الأُمّة باباً مختصًّا بها دونَ سائر الأُمم.

---

(١) نفسه.

(٢) هو في مسلم ١٧ - (٢٣٤) لا الترمذي، عن عقبة بن عامر لا عمر بن الخطاب.

(٣) لم أهتد إلى كلمة القرطبي في "تذكرته"، وبنحوها عنه في نزهة المجالس ومنتخب النفائس، للصفوري.

(٤) سنن أبي داود (٤٦٥٢).

وروى الترمذيُّ(١)، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَدخُل من بابِ الرَّحمة، وهو بابُ التوبة، ويُسمَّى أيضاً: بابَ محمّد.

واعلمْ، نوَّر اللهُ سرِّي وسرَّك، أنّ اسمَ الجنّة يتناولُ جميعَ الجِنان، ثم يختصُّ كلُّ نوع منها باسم يَخصُّه، فأشرفُها- بعدَ حضْرة القُدُس-: جنّةُ الفِردَوْس؛ لأنّ اللهَ اصطفاها لنفسِه وخصَّها بقُربِ عرشِهِ وغَرَسَها بيدِه، فهي سيّدةُ الجِنان ومحَلُّ نظر الرَّحمن، واللهُ يختارُ من كلِّ نوع أعلاه وأفضلَهُ كما اختار من الملائكةِ جبريلَ ومنَ الرُّسُل محمداً صلى الله عليه وسلم، {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} [القصص: ٦٨].

وفي "الطبرانيِّ"(٢) من حديثِ أبي الدَّرداء، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ينزِلُ اللهُ تعالى في آخرِ ثلاثِ ساعات بقِينَ من اللَّيل، فينظرُ في الساعةِ الأولى في الكتابِ الذي لا ينظرُ فيه غيرُه، فيمحو ما يشاءُ ويُثبِتُ، ثم ينظرُ في الثانيةِ في جنّة عَدْن، وهي مسكَنُ رسُولِه الذي لا يسكنُ معَه فيه غيرُه إلّا النبيُّونَ والصِّدِّيقونُ والشُّهداء، وفيه ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعتْ ولا خَطَر على قلبِ بشَر، ثم يَهبِطُ آخرَ ساعةٍ من اللَّيل، ثم يقولُ: ألا مستغفرٌ يستغفرُني فأغفرَ له؟ ألا سائلٌ يسألُني فأُعطيَه؟ ألا داع يدعوني فأستجيبَ له؟ حتى يطلُعَ الفجر".

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) المعجم الأوسط (٨٦٣٥).

وفي حديثٍ أنه رأى جنّةَ عَدْنٍ ومنازلَ المسلمين منها، ورأى منزلَهُ فوقَ منازلِهم.

ورَوى أبو الشَّيخ، عن شَمِر بن عطيّةَ، قال: خَلَق اللهُ جنّةَ الفِردَوْس بيدِه، فهو يفتحُها كلَّ يوم خمسَ مرّاتٍ فيقول: ازدادي طيباً لأوليائي. فتأمَّلْ هذه العنايةَ، كيف جَعل الجنةَ التي خَلَقها بيدِه لمَن خَلَقهُ بيدِه وشرَّفه وميَّزهُ بذلك عن غيرِه، قال الرسُولُ صلى الله عليه وسلم: "خَلَق اللهُ ثلاثةَ أشياءَ بيدِه: خَلَق آدمَ بيدِه، وكَتَب التَّوراةَ بيدِه، وغَرَس جنةّ الفِردَوس بيدِه، ثم قال: وعزَّتي وجلالي، لا يدخلُكِ مُدمِنُ خمرٍ ولا الدَّيُّوثُ"، أخرجه الدارميُّ[1] عن عبدِ الله بن الحارث.

وعن ابنِ عُمرَ: خَلَق اللهُ أربعةَ أشياءَ بيدِه: العرشَ والقلمَ وعَدْنَ وآدمَ، ثم قال لسائر الخَلْق: كنْ، فكان.

وعن مَيْسَرةَ، قال: إنّ اللهَ لم يمَسَّ شيئاً من خلقِه بيدِه غيرَ ثلاث: خَلَق آدمَ بيدِه، وكَتَب التوراةَ بيدِه، وغَرَسَ جنةَ عَدْنٍ بيدِه.

فجنّةُ عَدْن أعلى الجِنان وسيّدتُها، وهي قَصَبةُ الجنةِ وفيها الكَثيبُ الذي تقعُ فيه الرُّؤيةُ، وعليها تدورُ ثمانيةُ أسوارٍ بينَ كلِّ سُورَيْن جنة، فالتي تلي جنّةَ عَدْنٍ منَ الجِنان: جنّةُ الفِردَوس، وأصلُه البُستان، وهِي أوسطُ الجِنانِ التي دونَ جنّةِ عَدْنٍ

---

(١) وهو في مصادر كثيرة غيره وأقدم منه، فهو في الزهد والرقائق لابن المبارك (١٤٥٨) باختصار، وفي الجنة لابن أبي الدنيا (٣٩) بتمامه.

وأفضلُها، ثم جنّةُ الخُلد، ثم جنةُ النَّعيم، ثم جنةُ المَأْوى، وهي التي يَأوي إليها جبريلُ والملائكة، ثم دارُ السَّلام، ثم دارُ المَقامة، وزاد البيهقيُّ[1] جنةً ثامنةً وهي: دارُ القرار.

وقد قسَّم بعضُ المُحقِّقينَ الجِنانَ بالنِّسبةِ إلى الداخلينَ فيها ثلاثةَ أقسام: جنةُ اختصاصٍ إلهيّ، وهي التي يدخلُها الأطفالُ الذين لم يبلُغوا الحُلُم، ومن أهلِها أهلُ الفَتَرات وأصحابُ الأعراف، قال اللهُ تعالى: {لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [الأعراف: ٤٦]، الجنةُ الثانية: جنةُ ميراثٍ ينالُها كلُّ مَن دَخَل الجنةَ من المؤمنين، وهي الأماكنُ التي كانت مُعِينةً لأهل النار لو دَخَلوها، الجنةُ الثالثة: جنةُ الأعمال، وهي التي ينزلُ الناسُ فيها بأعمالِهم، فمَن كان أفضلَ من غيرِه في وجوهِ المعاملات كان أفضلَ منه في وجوه التفضيل والتفضيلات، فيكونُ لهُ من الجنّة أكثرُ، فما مِن عَمَل منَ الأعمال إلّا ولهُ جنّةٌ تخُصُّه فيقعُ التفاضُلُ فيها بينَ أربابِها بحسَب ما تقتضيهِ أحوالُهم، وسواءٌ كان الفاضلُ دون المفضولِ أم لا، غيرَ أنه فضَّلَهُ في ذلك المقام بهذه الحالة كما يدُلُّ عليه قولُه صلى الله عليه وسلم لبلال : "لمَ سبَقْتَني إلى الجنّة؟" الحديثَ، فعُلم أنها كانت جنةً مخصُوصة؛ لأنه ما من فريضةٍ ولا نافلة ولا فعل خيرٍ ولا تَرْك محرَّم إلّا وله جنةٌ مخصُوصةٌ ونعيمٌ خاصٌّ ينالُه مَن دَخَلَها.

---

(١) قد تناول البيهقي في كتاب "البعث والنشور" (ص: ١٥٨) عدد الجنان، غير أن لم يذكر دار القرار.

وقد يَجمعُ الواحدُ من الناس في الزَّمان الواحدِ من وجوهِ الخيرات ما يَفضُلُ به غيرَه ممّن لم يُحصِّلْ مثلَ ذلك وإن كان أفضلَ مقاماً وأشرفَ منزلةً عندَ الله، فقد تبيَّن أنّ نَيْلَ المنازل والدَّرَجات في الجِنان إنما يكونُ بالأعمال، وقال اللهُ تعالى: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الزخرف: ٧٢]. ولا منافاةَ بين هذه الآيةِ الشريفة والأثر الصَّحيح الواردِ عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم، بل الآيةُ لفظٌ عامٌّ مخصَّصٌ بالحديث الذي هو قولُه: "لن يدخلَ الجنةَ أحدٌ بعملِه"، قالوا: ولا أنت يا رسُولَ الله؟ قال: "ولا أنا، إلّا أن يتغمَّدَنيَ اللهُ برحمتِه"(١)، وقال بيدِه فوقَ رأسِه.

فالمعنى أنّ الدُّخولَ لا تستوجبُه الأعمالُ ولا تقتضيهِ لذاتها، بل الدُّخولُ لا يَقدُرُ قَدْرَه(٢)... قولُ العليِّ الأعلى: "قلْ تُسمَعْ وسَلْ تُعطَ واشفَعْ تُشفَّعْ"(٣)، حيث تجلَّى باسمِه المُنتقم في اليوم العظيم.

فأعيُنُ الجميع إليه طامحة، وهِمَمُ(١) أُولي العزم إلى طلعتِه لامحة، ونفوسُ المقرَّبينَ له بالتقدُّم سامحة، حتى أتاهم مُشهِراً بالنُّجح مستقرًّا في بُحبوحةِ الفتح،

---

(١) أخرجه أحمد (٩٨٣١) عن أبي هريرة، وفي الباب عن أبي سعيد وجابر عنده.

(٢) يلاحظ أن السياق بعد هذه الكلمة غير متصل وفيه اضطراب، ولعله يرجع إلى ورقة موضعها الصحيح هنا لكنها فقدت، فاقتضى الأمر إشارة وتنويهًا.

(٣) قطعة من حديث الشفاعة المشهور المروي في الصحيحين عن أنس: البخاري (٧٤٤٠) و(٧٥١٠)، ومسلم ٣٢٦- (١٩٣).

فزالتْ بطلعتِه الميمونةِ عن الجَمْع الغموم، وانفرجتْ بواسع شفاعتِه الهموم، فأفصَحَ بسيادتِه المُصدِّقُ والمُفنِّد، وشهِد برياستِه الكافرُ والموحِّد، وانقاد لطاعتِه المُسدَّدُ والمسدِّد، وذلَّ لعزّتِه المُسوَّدُ والمسوِّد، فدخلتِ الأنبياءُ والرُّسُلُ تحتَ لوائه، وأذعنتْ لَمَنْعِه وعطائه، إذْ ليس الخبرُ كالعِيَان، وليس التخمينُ كالبُرهان، وليس التلويحُ كالبيان، فصارتِ الأنبياءُ وأُممُها من جُملة أُمّتِه، إذْ عمَّ الجميعَ بسَوابق نعمتِه، فتحقَّق الجميعُ مُحمَّديَّتَه، وشاهَدَ الكلُّ أحمديَّتَه، فأفصح بالثناءِ عليه الناطقُ والصامت، وأعلَنَ بمحبَّتِه المُغبِطُ والشامت، فتمحضَّت لهُ العُبوديّةُ التي خُيِّر بينَها وبينَ المُلك، ولذلك انخَرَط الجميعُ في السِّلك، إذْ قد أنقَذَهمُ اللهُ من أسبابِ الهُلْك، فحصلتْ لأُمّتِه المختصَّةِ به قُرَّةُ العين بحصُول القُربِ ونفْي البَيْن، إذِ افتقرتِ الرُّسُلُ لشهادتِهم، لثبوتِ عدالتِهم، وهذا- وأبيك- الشَّرفُ الباذِخ والعزُّ الشامخ، الذي يُسمَحُ- في تحصيلِه- بالمُهَج والتِّلاد، ويُستطابُ- في طلبِ تحصيلِه- لعقُ الصَّبرِ وامتطاءُ شوكِ القَتاد، ويُستلَذُّ لوُجدانِه احتراقُ الأمعاءِ وقطعُ الأكباد، فكيف وقد يحصُلُ معَ التيسير ورَفْع الحَرَج لم تُدرَجْ معَ ذلك الأرَج؟ قال اللهُ تعالى تقويةً للرَّجاء بنيل الفَرَج: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨].

---

(١) تحرفت في النسخة: وهم.

فهذه كلمةٌ لا يَقدُرُ قَدْرَ مُنَّتِه علينا بها إلّا مَن له ما بينَ أيدينا وما خلفَنا، ولو اتَّخَذْنا يومَ نزولِها عيداً ما أدَّيْنا شُكرَها.

فشَمِّرْ أيُّها الأخُ الشكور ولا يَغُرَّنَّكَ بالله الغَرُور، فإنّ الأمرَ خطير والعُمرَ قصير والناقدَ بَصير، ولا تُلهِيَنَّك الأماني، فإنّ جميعَ ما تراهُ فاني، ولا يفتنَنَّكَ عيشٌ يَبيد وعُمرٌ لا ينقُصُ ولا يزيد، مَشُوبٌ بالهموم والأحزان ومُعاناةِ الأقران، والعُدْم والخراب ومُفارقةِ الأحباب، والأمراضِ والهَرَم وخوفِ الفَناءِ والعَدَم، عن نعيم مُخلَّد وعزٍّ مؤبَّد وعيشٍ غيرِ مُنكَّد ورجاءٍ غيرِ مُنفَّد، في جوارِ ربٍّ رحيم ونبيٍّ كريم وسرورٍ مُقيم، ونظرةٍ وحُبُور وجنةٍ وقصُور ومِسكٍ وكافور وبهجةٍ وبِلُّور، وحُورٍ ووِلدان وخيراتٍ حِسَان وأمنٍ وأمان ومُلكٍ وسُلطان ودُرٍّ ومَرجان وياقوتٍ وعِقْيان وسرورٍ وتيجان، وماءٍ يطَّرِد وطيورٍ تُغرِّد بأوتارٍ تُردِّد على اغصانِ طَلْح منضُود في ظلٍّ ممدود وعيشٍ غيرِ مكدود، ونَخْلٍ ورُمّان وحَصْباءِ دُرٍّ وبُلقان ونباتِ غُرُنْفلٍ وزَعفَران، ورَفْرَفٍ وإسْتبرَق، وماءٍ دِهاق، وزَنْجَبِيل وتسنيم وسَلسَبيل وتسنيم، وقطوفٍ دانية وأزواج غانية، وسُندُسٍ وحرير، وحِلْيةٍ وتعزير، وخمرٍ وخَمير، ورَشْح يَفُوق وشبابٍ يَرُوق، ولَبَنٍ وعُسُول وأُمنِيةٍ وسُول، لا تَبلَى ثيابُهم ولا يَفنَى شبابُهم ولا يكدَرُ شرابُهم ولا ينفَدُ ثوابُهم، تُرابُهُمُ التِّبرُ النَّفيس وأنفاسُهمُ التسبيحُ والتقديس، وُجوهُهم أنقى من الزُّجاج وأنورُ من السِّراج الوَهَّاج، بل هيَ أبهَى وأنور، وأجملُ من الشمسِ في رَوْنَق الصَّحوِ والقمر.

فإذا حقَّقتَ هذا فاعلمْ أنّ أعظمَ نعيم الجنّة وأكملَه التمتُّعُ بالنظر إلى وجهِه الكريم ومرافقةِ الرَّسُول عليه أفضلُ الصلاة والتسليم، معَ قُرَّةِ العيْن بالقُربِ منَ الله، والفوزِ بكرامةِ الرِّضوان التي هي أكبرُ من الجِنان وما فيها، كما قال تعالى: {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ} [التوبة: ٧٢].

ولا مِرْيةَ أنّ الأمرَ أجلُّ مما يَخطُر ببال ويُدرَكُ بخيال، ولا سيَّما عندِ فوز المُحبِّين في رَوْضةِ الأُنس في حضرةِ القُدس، بمَعيّةِ محبوبِهم الذي هو غايةُ مطلوبِهم، فأيُّ نعيم وأيُّ لَذّةٍ وأيُّ قُرَّة عين وأيُّ فوزٍ يُداني تلك المَعيّةَ ولَذَّتَها وقُرَّةَ العيْنِ بها، وهل فوقَ قُرّةِ العيْن بمعيّةِ الله تعالى ورسولِه نعيم؟ فلا شيءَ- واللهِ- أجلُّ ولا أكملُ ولا أجمل، ولا أحلى ولا أعلى، من حضرةٍ يجتمعُ فيها المُحِبُّ بأحبابِه في مشاهدِ الإكرام، حيث يتجلَّى لهم حبيبُهم ومعبودُهم ألا لهُ الحقُّ جلَّ جلالُه باسمِه الجميل اللطيف، فيتَّفقُ عليهم نورٌ يَسْري في ذواتِهم فيُبهَتُون من جمالِ الله، فتُشرقُ ذواتُهم بنورِ ذلك الجمال الأقدَس بحضرةِ الرسُول الأرْأَس، ويقولُ لهمُ الحقُّ جلَّ جلالُه: السلامُ عليكم عبادي، ومرحباً بكُم أهلَ وِدادي، أنتمُ المؤمنون الآمنون لا خوفٌ عليكُمُ اليومَ ولا أنتم تحزَنون، أنتم أوليائي وأحبّائي وجيراني، إنني أنا اللهُ الجَوادُ الغَنيّ، وهذه داري قد أُسكِنتُكُموها وجنَّتي قد أبَحْتُكُموها، وهذه يدي مبسوطةٌ ممتدَّةٌ عليكم، وأنا ربُّكم أنظُر إليكم لا أصرفُ بَصَري عنكم، أنا لكم جليسٌ وأنيس، فارفَعوا إليّ حوائجَكم، فيقولون: يا ربَّنا، حاجتُنا إليكُ النظرُ إلى وجهِكَ الكريم والرِّضا عنّا، فيقولُ لهم

جلَّ جلالُه: هذا وجهي فانظروا إليه وأَبشِروا فإنّي عنكم راضٍ، ثم يرفَعُ الحجابَ ويتَجلَّى لهم، فيَخِرُّونُ سُجَّداً، فيقولُ لهم: ارفَعوا رؤوسَكم فليس هذا موضعَ سُجودٍ ولا موضع تكليف، إنما هو موضعُ تشريفٍ وتعريف، يا عبادي، ما دَعَوْتُكم إلّا لتتمتَّعوا بمُشاهدتي، يا عبادي، قد رَضِيتُ عنكُم فلا أسخَطُ عليكم أبداً، فما أحلاها من كلمة، وما ألذَّها من بُشْرى، فعندها يقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [فاطر: ٣٤- ٣٥].

وهذا يدُلُّ على أنّ جميعَ العبادات تزولُ في الجنّة إلّا عبادةَ الشُّكر والحمدِ والتسبيح والتهليل(١)، والذي يدُلُّ عليه الحديثُ الصَّحيحُ(٢) أنهم يُلهَمونَ التسبيحَ والتحميدَ كما يُلهَمُونَ النَّفَسَ، يعني: أنّ تسبيحَهم وتحميدَهم يجري معَ الأنفاس، فليس عن تكليفٍ وإلزام، وإنما هو بتيسيرٍ وإلهام، ووجْهُ التشبيهِ أنّ تنفُّسَ الإنسان لا بدَّ لهُ منهُ ولا كُلْفةَ ولا مَشَقّةَ في فعلِه، بل هو غايةُ ما يُتلذَّذُ به، فكذلك يكونُ ذكرُ الله على ألسنةِ أهل الجنّة، وسرُّ ذلك أنّ قلوبَهم قد تنوَّرتْ بمعرفتِه وأبصارَهم قد تمتَّعتْ برؤيتِه وقد غمرتْهم سَوابغُ نِعَمِه وامتلأتْ أفئدتُهم بمحبّتِه، فألسنتُهم مُلازمةٌ لذكرِه.

---

(١) هذا تقرير بديع آخر من المصنف رحمه الله.

(٢) مسلم ١٨ و١٩- (٢٨٣٥)، عن جابر.

وقد أخبَر تعالى عن شأنِهم في ذلك بقولِه: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [الزمر: ٧٤]، قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "منِ اشتاقَ إلى الجنّة سارَعَ إلى الخيرات، ومَن أشْفقَ منَ النّار لَهَا عن الشَّهَوات، ومَن ترقَّب الموتَ هانتْ عليه المصائب"، أخرجه البيهقيُّ(١).

ورُوي عن عِمرانَ بن حُصَيْن رضي اللهُ عنه أنه بقيَ ثلاثينَ سنةً على فراشِه مريضاً وهُو مستجابُ الدَّعوة، فقيل له: ادْعُ لنفسِك، فقال: كلّا، حبّي(٢) إليه حبَّبَهُ إليّ.

ورُوي أنّ رجلًا قال لأحمدَ بن حنبل: عِظْني، فقال لهُ: إنْ كانت الجنّةُ حقاً فالراحةُ لماذا؟ وإن كانت النارُ حقاً فالمعصيةُ لماذا؟ وإن كان الحسابُ حقاً فالجَمْعُ لماذا؟ وإن كان سؤالُ مُنكَر ونكيرٍ حقاً فالأُنسُ لماذا؟ وإن كانت الدُّنيا فانيةً فالطُّمأْنينةُ إليها لماذا؟ وإن كان اللهُ تكفَّل برزقِك فاهتمامُك لماذا؟ وإن كان الرزقُ مقسوماً فالحرصُ لماذا؟ وإنْ كان الخُلفُ منَ الله حقًّا فالبخلُ لماذا؟ وإن كان كلُّ شيءٍ بفَضْل الله فالحُزنُ لماذا؟

---

(١) في شعب الإيمان (١٠٦١٨).

(٢) في النسخة: حبه، ولا يسوغ.

وقال بعضُ السَّلف: كيف تأسَى على مفقودٍ لا يُرُدُّه إليك الفَوْت، أم كيف تفرحُ بمولودٍ لا يترُكُهُ بيديْكَ الموت؟

وقال صلى الله عليه وسلم: "الإيمانُ بالقَدَر يُذهبُ الهمَّ والحَزَن"، أخرجهُ الدارِميُّ[١] موصولاً.

وقال صلى الله عليه وسلم: "الويلُ ثم الويلُ لَمَن تَرَك عيالَهُ بخيرٍ وقَدِم على الله بشَرّ"، من كتابِ "الترغيبِ والترهيب"[٢].

فصلٌ: في فضل صنائع المعروفِ وفوزِ أهل المعروف

قال صلى الله عليه وسلم: "أهلُ المعروف في الدُّنيا هم أهلُ المعروف في الآخرة"، وقال: "صنائعُ المعروفِ تقي مَصارعَ السُّوء"، أخرجهُ البيهقيُّ[٣].

ومن حديثِ ابن عبّاس، أنّ المعروفَ يأتي يومَ القيامةِ أهلَهُ في الدُّنيا فيُغفَرُ لهم بهِ وتبقى حسَناتُهم فيُعطُونها لمن زادتْ سيِّئاتُهم على حسَناتِهم.

ومن المعروفِ: إقالةُ العَثَرات وذي الصَّفقةِ النادم، حُكيَ عن بعض السَّلَف أنه اشترى عسلاً بثلاثينَ ألفَ درهم، فلمّا كان بعدَ الغدِ ضوعفَ ثمنُه بربح ثلاثينَ ألفاً أُخرى، فسمِعَ بذلك البائعُ فنَدِم على بيعِه وتحسَّر، فقال له بعضُ إخوانِه:

---

(١) نحوه في الجامع الصغير وزيادته (٥١١٣).

(٢) نحوه في مسند الشهاب، للقضاعي (٣١٤) من حديث ابن عمر.

(٣) في شعب الإيمان (٨٠٦١) والمتنان قطعتان من حديث طويل فيها عن أنس.

أتحبُّ أن يرجعَ إليك عسَلُكَ ولا يفوتَك ربحُه؟ بَكِّرْ غدًا وصَلِّ معَ الشّيخ في المسجد، فإذا فَرَغ فقلْ لهُ: ندمتُ على بيعي العسلَ أمسِ، ففَعَل ذلك، فلمّا فَرَغ الشّيخُ من صَلاتِه قال لهُ: ندمتُ على بيع العسل أمسِ، فقال لغلامِه: قمْ فأعطِهِ جميعَ عسَلِه، فقال بعضُ الحاضرين: قد صار ربحُه ضِعفَيْ ما اشتريتَهُ به، أترُدُّه عليه؟ قال: نعم، إليكَ عنّي، بَلَغَني عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أقال نادماً بيعتَه أقال اللهُ عثرتَه يومَ القيامة"(١)، أفلا أشتري عثرتي يومَ القيامة بثلاثينَ ألفَ درهم؟

ورُويَ أنّ المعروفَ يأتي صاحبَهُ عندَما يُدخَلُ في قبرِه فيؤنسُه وينوِّرُ قبرَه بنُور طلعتِه، فيقولُ له: من أنت؟ فيقول: أوَما تعرفُني؟ فيقولُ: لا، إلّا أنك ميمونُ الطَّلعة مُبارَكُ النَّقيبة، فيقولُ لهُ: أنا المعروفُ الذي كنتَ تصنعُ، جئتُك لأُزيلَ كَرْبتَك وأُلقِّنَك حُجَّتَك وأكونَ لك أنيساً في وَحشتِكَ وغُربتِك، فأبشِرْ بخير، فإنّ مثلَك لا يخافُ ولا يحزن، فلطالما فرَّجْتَ في كَرْب المكروبين وغمِّ المغمومين، وإنّ اللهِ لا يُضِيعُ أجرَ من أحسَنَ عمَلاً.

ومنَ المعروف: إدخالُ السُّرورِ على المسلم، وعن جعفرِ بن محمد، عن أبيه عن جدِّه، عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ما مِن مؤمنٍ يُدخِلُ على مؤمنٍ سروراً إلّا خَلَقَ اللهُ تعالى من ذلك السُّرورِ مَلَكاً يَعبُدُ اللهَ تعالى وثوابُ

(١) هو في صحيح ابن حبان (٥٠٢٩)، وفيه تمام تخريج.

عبادتِه لذلك المؤمن، فإذا مات وصار في لَحْدِه أتاهُ فقال لهُ: أوَما تعرفُني؟ فيقولُ: لا، من أنت؟ فيقولُ: أنا السُّرورُ الذي أدخلتَني على فُلان، فأنا اليومَ أنيسُ وَحدتِك أُلقِّنُكَ حُجَّتَك وأُثبِّتُكَ بالقول الثابت وأُشهِدُك مشاهدَ يوم القيامة وأشفَعُ لكَ وأُريكَ منزلَكَ في الجنّة"(١).

وعن طلحةَ بنِ عبد الله رضي اللهُ عنه، أنه خَرَج ليلةً فرأى عُمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه وقد دَخَل بيتاً ثم بيتاً آخرَ، فلمّا أصبحَ طلحةُ ذَهَب إلى ذلك البيت فإذا عجوزٌ عمياءُ مُقْعَدةٌ، فقال لها: ما بالُ هذا الرجُل يأتيكِ؟ فقالت لهُ: يتعاهدُني بما يُصلحُني ويُخرجُ الأذى عنّي.

ورُوي أنه رضي الله عنه إذا كان وَهْنٌ من اللَّيل غيَّر هيئتَه، فيطوفُ في أزِقّةِ المدينة وشوارعِها ليُطالعَ أحوالَ الناس، فبينما هو يطوفُ ليلةً إذْ سَمعَ صِبْيةً يتضاغَوْنَ(٢)، فقَصَد ذلك البيتَ فقَرَع البابَ على أهل البيتِ ففَتَحوا لهُ، فلمّا دَخل إذا هي أرملةٌ ولها أيتامٌ صغار، وإذا هي تُعلِّلُهم بماءٍ قد جعلتْه على التَّفَثاتِ وأوقَدتْ(٣) تحتَه ناراً، فكلَّما بَكَوْا تقولُ لهم: الآنَ ينضَجُ طعامُكم فيسكتون، فإذا طال عليهم ذلك بَكَوْا، فنظر عُمر، فإذا الماءُ ولا شيءَ فيه، فقال عُمر: يا أَمَةَ الله، ما بالُ الصِّبيانِ يتَضاغَوْن؟ فقالت لهُ: ليس بهم إلّا الجوع، فقال لها: هلّا أخبرْتِ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في اصطناع المعروف (١٧٥)، وعنه المنذري في الترغيب والترهيب (٣٩٨٦).

(٢) أي: يصوتون باكين من الجوع.

(٣) في النسخة: وأوقد.

عُمرَ أو بعثتِ إليهِ؟ لعله يبعثُ إليك بطعام لهؤلاء الأيتام، فقالت لهُ: إنّ كُلَفَ الخليفة لَكثيرةٌ ولا أُحبُّ أن أشُقَّ عليه، فانصَرف مُسرِعاً، حتّى إذا أتَى بيتَه أمَرَ مولًى له أن يحملَ على ظهرِه غِرارةَ[1] دقيق، فقال لهُ مولاهُ: أنا أوْلى بحملِها يا أميرَ المؤمنينَ منك، فقال لهُ: واللهِ لا يحملُها غيري، أنا المسؤولُ عنها يومَ القيامةِ لا أنت، ثم تأبَّط عُكَّةَ[2] سَمْن، فذهبَ بذلك حتى أتى الأيتامَ، فجَعل الدقيقَ في البُرْمةِ[3] بيدِه حتى نَضِج، قال مولاهُ: ولقد رأيتُه ينفُخ النارَ تحتَ البُرْمة والدُّخَانُ يَخرُج من خلال لحيتِه- وكان كثَّ اللِّحية- فلمّا نَضِج الطعامُ آدمَهُ ودعَا الصِّبْيَةَ فأكلوا حتى شَبِعوا، ثم أمَرَني أن آتيَهُ بماء بارد فسقاهُم حتى رَوُوا، ثم جَعل يمشي على يديْهِ ورجليْه ويُحرِّكُ لحيتَه لكي يُضحِكَ الصِّبيةَ، حتى ضَحِكوا، فلمّا ضَحِكوا انصَرف، فقال لهُ مولاهُ: لمَ فعلتَ هذا يا أميرَ المؤمنين؟ قال لهُ: أتيتُهم وهم يَبكُونَ فأردتُ أن لا أنصرفَ عنهم إلّا وهم يضحكون. ولم يزلْ من يومئذٍ يتعاهدُهم بما يُصلحُهم حتى مات رحمه الله.

ومن فوائدِ صنائع المعروف: ما رُويَ عن محمدِ بن حِميَر- وكان من صُلَحاءِ هذه الأُمّةِ مُحسِناً مولَعاً بصنائع المعروف- وقدِ ابتلاهُ اللهُ بالقَبْض، وكان يُفرجُ

---

(١) الغرارة بالكسر: وعاء يتخذ للتبن وغيره.

(٢) الضبط من النسخة، والعكة: بضم المهملة وتشديد الكاف: إناء صغير يوضع فيه السمن أو العسل.

(٣) هي: القدر مطلقًا، وإن كانت في الأصل المتخذة من الحجارة، وفي البخاري (٥٢٧٩): "ألم أرَ البرمة فيها لحم؟".

ذلك عنه بالاصطيادِ والقَنص، فبينما هو راجعٌ من قَنْصِه إذا هو بحيّةٍ تخاطبُه وقد نَهَشتْ أخا رجُل، فقالت: يا محمدُ بنَ حِمْيَر، إنّي قدِ استجَرتُ بكَ من عدوٍّ يطلُبُني، فقال لها: دونَكِ فادخُلي في كُمِّي، فقالت له: ذلك لا يُغني عنّي شيئاً، فقال لها: إذنْ فادخُلي في جيْبي، فقالتْ لهُ: أيضاً وجيبُك لا يُغني عنّي شيئاً، فقال لها: وما تريدين؟ قالت لهُ: لا يُنجيني من عدوِّي إلّا أن تفتحَ فاكَ فأنسابَ فيه حتى أدخُلَ في جوفِك، فإذا انصَرف عدوِّي آذَنْتَني فخَرَجتُ، فقال لها: كيف ذلك ولستُ آمنُكَ على نفسي؟ فأعطتْهُ العهودَ والمواثيق، ثم قالت لهُ: كيف تخافُني على نفسِك وقد أنجيتَني من عدوِّي وأدخلتَني في بطنِك؟ فلمّا أَخَذَ مواثيقَها فَغَر لها فاهُ فانسابتْ في بطنِه، فلما جاء عدوُّها قال: يا محمدُ بنَ حِمْيَر، أين عدوِّي؟ قال: لم أرَ لكَ عدوًّا، فقال لهُ: وأين الحيّةُ التي لَدَغتْ أخي فإنّي قفَّيتُ أثرَها حتى أتتْكَ فلم أرَ لها أثراً بعدَ ذلك، فقال لهُ: دونَكَ ففتِّشْني، ففتَّشَهُ فلم يرَ شيئاً فانصَرفَ، فلمّا انصَرف قال لها: اخرُجي، فإنّ عدوَّكِ قدِ انصَرف، فأخرَجتْ رأسَها حتى عَلِمتْ أنه قدِ انصَرف ثم وَلَّت فرَجَعتْ أدراجَها فقالت لهُ: اختَرْ يا محمدُ بنَ حِمْيَر بين ثلاث: إمّا أنّ لدْغَكَ في قلبِك أو في كبِدِك أو في كُلْيَتيْكَ، فقال لها: ليس على هذا عاهدتِني وقد أحسنتُ إليكِ وأنجيتُكِ من عدوِّك، فقالتْ لهُ: يا محمدُ بنَ حِمْيَر، العداوةُ القديمة لا تُزيلُها الصَّداقةُ الحادثة، أوَما بَلَغك يا محمدُ بنَ حِمْيَر ما كان بينَ جدِّكَ آدمَ وجدَّتي الحيّة؟ فقال لها: إن كنتِ ولا بدَّ فاعلةً فأمهليني حتى أُصلِّيَ ركعتيْن وأُمهِّدَ لنفسي مكاناً أموتُ فيه، قالت لهُ: فإذَنِ افعلْ إن شئتَ،

فصلَّى ركعتيْن، ثم قال: يا أرحمَ الراحمين، ثلاثاً، فما أتمَّ الثالثةَ حتى وَقَف عليه فارسٌ عليه ثيابٌ خُضْرٌ وبيدِه ثلاثُ وَرَقات يَقطُرْنَ ماءً، فناوَلَهُ واحدةً فأمَرَه بابتلاعِها، فلمّا ابتَلَعَها تَقطَّعتِ الحيّةُ في بطنِه، ثم ناوَلَهُ الثانيةَ فابتلَعَها فخَرَجتْ من بطنِه مُقطَّعةً، ثم ناوَلَهُ الثالثةَ فأذهبتْ عنه ما كان يجدُه من ألم اضطرابِها وتقطُّعِها في بطنِه، ثم قال لهُ: أتعرفُني يا محمد؟ قال: لا، قال لهُ: أنا المعروفُ، لمّا قلتَ: يا أرحمَ الراحمينَ كنتُ في السماءِ السابعة، فلما قلتَها ثانيةً أتيتُ السماءَ الدُّنيا، فلمّا قُلتَها ثالثةً أتيتُك، فلا تزهَدْ في صنائع المعروف فإنها وإن ضاعتْ عندَ الخَلق لم تضِع عندَ الخالق.

فصلٌ: في جُمَل من الحِكَم الربّانيّة

منها: ما رُوي عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابِه: "لا تُجالسوا كلَّ عالم إلّا عالماً يدعوكم من خمسةٍ إلى خمسة: من الشكِّ إلى اليقين، ومن الرِّياءِ إلى الإخلاص، ومن الرَّغبةِ إلى الزُّهد، ومن الكِبر إلى التواضُع، ومن العداوةِ إلى النَّصيحة"، أخرجه الترمذيُّ(١).

ورُويَ أنّ آدمَ عليه السلامُ أوصَى وَلَده شِيثَ وأمَرَه أن يُوصيَ بذلك بَنيهِ، فقال لهُ: لا تطمئنَّ إلى الدُّنيا الفانية، فإنّي اطمأننْتَ إلى الجنةِ الباقيةِ فلم يَرضَ بذلك منّي ربِّي فأخرَجَني منها، الثانية: لا تعملوا برأي نسائكم فإنّي عمِلتُ برأي

(١) لم أقف عليه عنده بلفظه أو معناه.

حوّاءَ فأكلتُ من الشَّجرة فنَدِمتُ، الثالثة: كلُّ عمل فانظروا عاقبتَه، فإنّي لو نظرتُ إلى عاقبةِ الأمر ما أصابني الذي ترَوْن، الرابعة: عليكم بمَشُورة الأخيار، فلو أنّي استشَرتُ الملائكةَ ما أصابَني الذي أصابَني، الخامسة: إذا اضطَرَبتْ قلوبُكم من شيءٍ فارجُوها، فإنّي لمّا هَمَمتُ بالأكل من الشَّجرة اضطَرَب قلبي فلم أرجُهُ بل أكلتُ فنَدِمتُ.

وكان السَّلفُ يَخشَوْنَ عُلماءَ السُّوء وخُطباءَ الفتنة وجُهلاءَ المُتصوِّفة، أمّا علماءُ السُّوءِ فإنّ الجاهلَ يغترُّ بأفعالِهمُ القبيحةِ ظناً منهُ أنهم لم يفعلوها إلّا عن علم لاغترارِهم بتمويهِهم وزُخرُفِ قولِهم، كما قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّي أخوَفُ على أُمّتي من عالِمِ السُّوءِ منّي عليها من الدَّجال"، أخرجه ابنُ ماجةَ[1]، وقال: "يأتي من بعدِكم أقوامٌ تبرُزُ الفتنةُ من عالِمِهم وإليه تَؤُولُ، وإنّ أهلَ النار لَيتأذَّوْنَ في النار من نتَنِ بطونِهم لكثرةِ أكلِهمُ السُّحتَ، هم أولُ من تُسجَّرُ به نارُ جهنم"، رواه السُّيوطيّ[2].

وأمّا جَهَلةُ المُتصوِّفة فإنهم يَغُرُّونَ العامّةَ بتنسُّكِهم وتقشُّفِهم فيسألونَهم فيُفتونَهم بغير علم حياءً من أن يُنسَبوا إلى الجهل، فيُضِلُّوا ويَضِلُّوا، وربَّما ادَّعى بعضُهمُ العلمَ اللَّدُنِّيَّ الشَّيطانيّ، فيكونُ أشدَّ على الأُمّة من إبليسَ لتلبيسِه

(١) لم أقف عليه في سنن ابن ماجة، ولكن بنحوه في مسند أحمد (٢١٢٩٦) من حديث أبي ذر.

(٢) لم أجده عند السيوطي.

وتدليسِه، وربَّما استَهوَتْهُ الشياطينُ بإخبارِهم إياه بأمورِ العامّة فيخبرونَهم بذلك فينسُبونَهم إلى الاطّلاع على الغيبِ والولاية، وربما أتتْهم شياطينُهم على صُوَرِ الآباءِ الذين مَضَوْا ويُرسلُونَ معهم بالإمارة التي يعرفُها الأبناء، ويستدرجونَهم بذلك فيها دونَهم، ويُقبِلونَ عليهم، فيأكلونَ أموالَ الناس بالباطل، وتُفسدُ عليهمُ الشَّياطينُ كلَّ ما كانوا فيه، ولا يرضَوْنَ منهم بدون فسادِ رأسِمالِهم، وهو الإيمانُ.

وأمّا الصُّوفيّةُ المحقِّقونَ العالِمونَ العامِلون فهم صفوةُ الله من خَلقِه، ووَرَثةُ أنبيائه، بهم يُرفَعُ البلاء، وبهم تَنزَّلُ الرَّحمة، وفيهم قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن ربِّه: "مَن آذَى لي وَلِيًّا فقدِ استحلَّ محارمي"(١).

رُوي عن بعضِ الصّالحينَ أنه قال للخَضِر: هل رأيتَ وليًّا لله أرفعَ منك درجةً؟ قال: نعم، دَخَلتُ مسجدَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم ورأيتُ عبدَ الرزّاق وحولَهُ جماعةٌ يسمعونَ الحديث، وإذا فقيرٌ في زاويةِ المسجدِ جالسٌ وحدَهُ وقد وَضَع رأسَه على رُكبتيْه، فانطلقتُ إليه فوَكَزْتُه برِجلي فقلتُ: أيُّها الشابُّ، أمَا ترى الجماعةَ يأخُذونَ الحديثَ من عبدِ الرزّاق؟ فلم يرفَعْ رأسَه إليَّ ولم يكترثْ، ولكنْ قال: هناكَ مَن يسمعُ من عبدِ الرزّاق، وهنا من يسمعُ من الرزّاق لا من عبدِه، قال الخَضِر: قلتُ له: إن كان ما تقولُ حقًّا فمَن أنا؟ فرَفَع رأسَه إليَّ وقال:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء (٤٥) وغيره، عن عائشة.

إن كانتِ الفِراسةُ حقًّا فأنت الخَضِر، فعلمتُ أنّ لله أولياءَ لا أعرفُهم لعُلوِّ مرتبتِهم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "لكلِّ شيءٍ مفتاح، ومفتاحُ الجنةِ حُبُّ المساكين، وإنّ فُقراءَ المهاجرينَ لَيدخُلونَ الجنةَ قبلَ الأغنياءِ بخمسِ مئةِ عام ويتبوَّأونَ منها حيث يشاؤون، وإنّ في الجنّة لَقُبّةً من ياقوتٍ حمراءَ يَنظُرُ إليها أهلُ الجنة كما ينظرونَ[1] أهلُ الدُّنيا إلى الكوكبِ الدُّرِّيِّ في السماء، ألّا يَدخلُها إلّا نبيٌّ فقيرٌ أو صِدِّيقٌ فقيرٌ أو شهيدٌ فقير، فإنّ الفقرَ مشَقّةٌ في الدُّنيا مسَرّةٌ في الآخِرة، ولكلِّ نبيٍّ حِرفة، وحرفتي شيئانِ مَن أحبَّهما فقد أحبَّني ومَن أبغَضَهما فقد أبغَضَني: الفقرُ وحُبُّ المساكين"، أخرجه البيهقيُّ بسندٍ ضعيف.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنّ في الجنّة منازلَ لا تُنالُ بالأعمال، ليستْ لها علاقةٌ من فوقِها ولا عمادٌ من تحتِها"، فقيل: يا رسُولَ الله، فكيف يدخلُها أهلُها؟ قال: "يدخُلونَ مثلَ الطَّير"، قيل: فمن أهلُ تلك المنازل؟ قال: "أهلُ البلايا والهموم والأمراض"، أخرجه ابنُ ماجةَ[2].

وعن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ ملوكَ أهل الجنّةِ كلُّ أشعثَ أغبرَ إذا استأذنوا في الدُّنيا لم يؤذَنْ لهم وإن خَطَبوا

---

(١) كذا تعبيره.

(٢) بنحوه، عن أنس، في النهاية في الفتن والملاحم، لابن كثير ٢/ ٢٨٦، وسواه.

النساءَ لم يُنكَحوا، وإذا قالوا لم يُنصَتْ لقولِهم، لو قُسِم نورُهم بينَ أهل الأرض لَوَسِعَهم"(١).

ورُويَ عن أبي محمدٍ الحَريريِّ أنه قال: دَخَل علينا الرِّباطَ شابٌّ أصفرُ اللون أشعثُ الشَّعر حاسرُ الرأس حافي القدمَيْن، فجدَّد الوُضوءَ وصلَّى ثم جَلَس ووَضَعَ رأسَه إلى المغرب، فلمّا صلَّى معَنا المغربَ جَلَس كذلك، وإذا رسولُ المَلِكِ يستدعينا في دعوة، فقمتُ إلى الشابِّ فقلتُ له: هل لكَ أن تُرافقَنا إلى دارِ الخليفة؟ فرَفَع رأسَه وقال: ليس لي قلبٌ إلى دار الخليفة ولكنّي أشتهي عَصِيدةً حارّةً، فطَرَحْتُ قولَه حيثُ لم يُوافقِ الجماعةَ والتمسَ شهوةً، وقلتُ في نفسي: هذا حديثُ عهدٍ بالطريقةِ لم يتأدَّبْ بعدُ، فتركتُهُ ومضَيْتُ إلى دارِ الخليفةِ فأكَلْنا وتفرَّقْنا بآخرِ الليل، فلمّا دَخَلتُ الرِّباطَ إذا الشابُّ على تلك الحالة، فجلستُ على السَّجّادة، فغلبتْني عينايَ، فإذا جماعةٌ وإذا قائلٌ يقول: هذا رسولُ الله والأنبياءُ كلُّهم، فدَنَوتُ منهُ وسلَّمتُ عليه فتولَّى عنّي بوجهِه، فكرَّرتُ ذلك وهو يُعرِضُ عنّي ولا يُجيب، فخِفتُ من ذلك، فقلتُ: يا رسُولَ الله، ما ذنبي حتى تُعرِضَ عنّي؟ فقال: فقيرٌ من أُمّتي اشتهى عندَك شهوةً فتهاوَنتَ به، فاستيقظتُ مرعوباً وقُمتُ نحوَ الفقيرِ فلم أرَهُ، وسمعتُ صوتَ الباب فخَرجتُ في طلبِه وإذا هو قد خَرَج، فناديتُه: يا فتى، اصبِرْ حتى نُحضِرَ شهوتَكَ التي طلبتَ، فالتفتَ إليّ وقال:

---

(١) لم أقف عليه.

إذا اشتهى عليك فقيرٌ شهوةً فلا توصِلْها إليه حتى يَستشفعَ إليك بمئةِ ألفٍ وأربعةٍ وعشرينَ ألفَ نبيّ، لا حاجةَ لي إليها، فتركني ومضَى.

وقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "بُدَلاءُ أُمّتي أربعون: اثنانِ وعشرونَ بالشام وثمانيةَ عَشَرَ بالعراق، كلَّما مات واحدٌ أبدَلَ اللهُ مكانَه آخَرَ، فإذا جاء الأمرُ قُبِضوا".

وعن الجُنَيْدِ رضي اللهُ عنه، قال: كنتُ في المسجد، فإذا رجلٌ دَخَل علينا وصلَّى ركعتيْنِ، ثم امتَدَّ ناحيةً وأشارَ إليَّ وقال: يا أبا القاسم، قد حان وقتُ لقاءِ الله ولقاءِ الأحباب، فإذا أخذتَ في أمري وفَرَغتَ منّي فسيَدخلُ عليك شابٌّ مُغَنٍّ فادفعْ إليه رِكوةً وسَجّادةً وعصًا ومِرفَعتي، فقلتُ: إلى مُغَنٍّ! كيف يكونُ ذلك؟ قال: إنه قد بَلَغ رُتبةَ القوم برحمةِ الله تعالى. قال الجُنَيْدُ: فلمّا قضَى الرجلُ نَحْبَهُ وفرَغْنا من مُواراتِه إذا نحنُ بشابٍّ بصْريٍّ قد دَخَل علينا وسلَّم، فقال: أين الأمانةُ يا أبا القاسم؟ فقلتُ: وكيف ذلك؟ أخبِرْنا بحالِك، فقال: كنتُ في صَرْبةِ[1] بني فلان، فهَتَف بي هاتفٌ أنْ قمْ إلى الجُنَيْدِ وسَلْهُ ما عندَهُ وهُو كيتَ وكيتَ قد جُعلتْ في موضع فلانٍ الفُلانيِّ من الأبدال، قال الجُنَيدُ: فدفعتُ إليه ذلك، فنَزَعَ عنهُ ثيابَه واغتسَل ولبِسَ المُرقَّعةَ وخَرج على وجهِه نحوَ بلاد الشام.

وفي مثلِه يقولُ الشاعر:

---

(١) كذا في النسخة، والأصل فيها: الحلبة من لبن الشاة وشبهها. تاج العروس (صرب).

أحقُّ الناس بالآمانِ عبدٌ   خفيفُ الحاذِ مسكَنُه القفارُ
لهُ بالليل حظٌّ من صلاةٍ   ومن صوم إذا طَلَع النهارُ
وقوتُ النفسِ يأتي في كفافٍ   وكان لهُ على ذاك اصطبارُ
وفيه عفّةٌ وبه خمولٌ   إليهِ بالأصابع لا يشارُ
وقلَّ الباكياتُ عليهِ لمّا   قضَى نَحْباً وليس له يسارُ
فذلك قد نجَا من كلِّ شرٍّ   ولم تمَسَسْهُ يومَ البعثِ نارُ

وعن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أحبَّ اللهُ عبداً نَصَب في قلبِه نائحةً من الحُزن، وإذا أبغَضَ اللهُ عبداً جَعَل في قلبِه مِزماراً من الضَّحِك، وإنّ اللهَ تعالى يحبُّ كلَّ قلبٍ حزين"، أخرجه الدارميُّ[١].

وقال صلى الله عليه وسلم في حديثٍ قُدُسيٍّ يرويهِ عن ربِّه، أنه قال: "إنّ لي سُروريْنِ وحُزنيْنِ لا أجمَعُهما على عبدٍ أبداً: مَن أحزنتُه في الدُّنيا فرَّحتُه في الآخرة، ومَن فرَّحتُه في الدُّنيا أحزنتُه في الآخرة"[٢].

وكان بعضُ المشايخ إذا سافرَ عندَه مُريدٌ يقولُ له: كلَّما رأيتَ محزوناً فأقرئْهُ مني السلام، وكان بعضُ أوليائه كلَّما غرَبتِ الشمسُ يقولُ لها: أيَّتُها الشمسُ

---

(١) لم أقف على هذا المتن إلا قوله: "إن الله يحب كل قلب حزين"، فإنه مخرج في الهم والحزن، لابن أبي الدنيا (٢) من حديث أبي الدرداء.

(٢) لم أقف عليه.

المنيرة، هل طلعتِ اليومَ على ذي قلبٍ محزون؟ هل أشرقتِ على عَرَصةٍ فيها محزون؟ فيبكي بكاءً شديداً، فلمّا مات رآه أبو جعفرٍ الحدّادُ في منامِه وهُو يسحبُ أذيالَهُ في روضةٍ من رياض الجنّة ويُقَهقِهُ ويقولُ: أبدَلَني اللهُ من خوفي أمناً ومن حُزني فرحاً.

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "اضمنوا لي ستًّا أضمنْ لكمُ الجنّة: اصدُقوا إذا حدَّثتُم، وأوفُوا إذا وَعدتُم، وأدُّوا الأمانةَ إذا اؤتمنتُم، وغُضُّوا أبصارَكم واحفَظوا فروجَكم، وكُفُّوا أيديَكم"، أخرجهُ النسائيُّ وغيرُه.

رُويَ عن شقيقٍ البَلْخيِّ رضي الله عنه، أنه كان يوماً يُعاتبُ نفسَه ويوصيها فيقول: يا شقيق، لا تعصِ اللهَ إلّا على حَسَبِ ما تطيقُه من عذابِه، واعملْ لآخرتِك على قَدْرِ حوائجِكَ إليه، وطالبْهُ بالرزقِ على قدْرِ مَقامِك في الدُّنيا، واعملْ لدارٍ لا نفادَ لها، واترُكِ العملَ لدارٍ لا بقاءَ لأحدٍ فيها، وعُدَّ نفسَك من جُملةِ الموتى.

وقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أشرفُ أهل الجنة رجلٌ دَعَتْهُ نفسُه إلى معصيةِ أوامرَ من أمورِ الدُّنيا فعاقَبَها عليه بالجوع والعُري، فإنّ ذلك يقالُ لهُ

يومَ القيامة: تمنَّ على الله ما شئتَ"، رواهُ صاحبُ كتابِ "الترغيبِ والترهيب"[1].

يُروَى أنّ رجلاً من الصالحينَ وَقَعتْ عينُه على أجنبيّة، فآلى على نفسِه أن لا يشربَ ماءً بارداً ما عاش، فقيل لهُ في ذلك فقال: إنّي أريدُ أن أُنغِّصَ على نفسي دُنياها كما نَغَّصتْ عليَّ ديني، فلم يزلْ دأْبُه ذلك حتى لقيَ اللهَ تعالى. أخرجهُ أبو أُمامةَ الباهليُّ.

وعن ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، أنه قال: أوحَى اللهُ تعالى إلى رسولِه صلى الله عليه وسلم: إني أوجَبْتُ عليكَ مُداراةَ الناس كما أوجبْتُ عليك الصَّلاةَ والزَّكاةَ والصَّومَ والجهادَ والحجَّ، فنزلَ قولُه تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩]، فقال جبريل: جئتُكَ بمكارم الأخلاق من ربِّك، فاعفُ عمَّن ظَلَمَك، وأعطِ مَن حَرَمَك، وصِلْ مَن قَطَعَك، وأحسِنْ إلى من أساء إليك.

وقد نَظَم بعضُهم على المعنى وقال:

خُذِ العفوَ وأمُرْ بعُرفٍ كما ... أُمِرتَ وأعرضْ عن الجاهلينْ
ولنْ بالكلام لكلِّ الأنامِ ... فمُستحسَنٌ لذوي الجاهلينْ

---

(١) لم أقف عليه عند المنذري.

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ أدَّبني فحسَّن[1] تأديبي، ثم أرسَلني إلى الناس كافّةً"[2].

وسُئلتْ عائشةُ رضي اللهُ عنها عن أخلاقِه فقالت- وهي أعلمُ الناس به-: كان خُلُقُه القرآن[3]، أي: يتأدَّبُ بآدابِ الله التي أدَّبه بها في كتابِه، فلا يغضبُ لنفسِه إلّا أنْ تُنتهَكَ حُرُماتُ الله، ولذلك لا يقومُ شيءٌ لغضبِه لتولِّي اللهِ نُصرتَه، كما قال تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ} [آل عمران: ١٦٠]، فلما تمَّم ذلك مَدَحه بما لم يَمدَحْ به أحداً من خلقِه فقال: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، فوسِع الكونيْنِ بأخلاقِه، كما عمَّهم بإنفاقِه، لكونِ شجرة طُوبَى في منزلِه، وأنهارِ الماء تتفجَّرُ من دارِه، فأهلُ الجنّة كلُّهم عيالُه في الماء والحُلَل، ويشاركونَهُ في اللبَنِ والخمورِ والعسل، وعينُ التسنيم تتفتَّقُ من العرشِ في منزلِه صلى الله عليه وسلم، فتكونُ بُحيْرةً ثم تكونُ جداولَ بعدَ ذلك إلى بيوتِ الأنبياءِ والمقرَّبين، فيمزُجونَ بها أشربَتَهم لشَرَفِها وبهجتِها وبركةِ مجراها، قال اللهُ تعالى: {وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} [المطففين: ٢٧- ٢٨] صِرْفاً ويَمزُجُ بها أشربتَهم سائرُ المؤمنين، وإنما سُمِّيتْ تسنيماً لأنها تأتيهم من العلوِّ لتفجيرِها من

---

(١) كذا بالتضعيف.

(٢) المقاصد الحسنة (٤٥)، وأسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، ص ٣٥، وغيرهما.

(٣) هو في مسند أحمد (٢٤٦٠١) وفيه زيادة طرق وتخريج.

العرش ثُمّ من منزل رسُول الله صلى الله عليه وسلم في عِلِيِّين، واسمُها مشتقٌّ من سَنام البعير؛ لأنه أعلاه، وإنما سُمِّي عليِّون عليِّينَ لأنه أعلى الجِنان، ومنزلُ رسُول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى عليِّين، واسمُهُ: الوسيلةُ، وعندَه كَثيبُ الرُّؤية، ولا يرونَهُ إلّا في مثل الأعيادِ والجُمَع، فيزورونَ ربَّهم في حضرة القُدُس على نجائبَ من نُورٍ تطيرُ بهم.

ولا مزيدَ في صفةِ الجنّةِ ونعيمِها على ما وَصَفَه اللهُ في كتابِه العزيز إذْ يقولُ لنبيِّه الكريم: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا} [الإنسان: ٢٠].

ومنهُ: أنّ الملائكةَ الذين يأتونَهم بالتُّحَف من الله والهدايا لا يَدخُلونَ عليهم إلّا بعدَ الاستئذانِ والإذن.

وقولُه: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧].

وقولُه: {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} [الإنسان: ٢٢].

وقولُه صلى الله عليه وسلم: "إنّ أدنى أهل الجنّة لَمن يجلسُ على أريكتِه وسريرِه فينظرُ إلى مُلكِه في الجنّةِ مسيرةَ ألفِ سنة، وإنّ أقصاها وأدناها عندَه بمنزلةٍ واحدة في التمكُّن منَ النظرِ والمُناولة، اقرأوا إنْ شئتُم قولَه تعالى: {لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} [الواقعة: ٣٣]، يعني: لا مقطوعةٌ بالأثمان ولا ممنوعةٌ ببُعدِ المسافةِ والمساحة فما طالَكَ بأعلاها درجةً.

قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ قدَّم الدُّنيا لعبادِه وجَعَل لهم فيها مِثْلاً من النَّعيم ليستدِلُّوا بهِ على نعيم الجنّةِ ليرغَبوا في طلبِه، وجَعَل لهُم فيها مِثْلًا من العذابِ ليستدِلُّوا بهِ على عذابِ النار فيخافوها فيجتنبوا بسببِ ذلك ما نَهَى اللهُ تعالى عنه، ثم حَفَّ جنَّتَهُ بالمكارهِ ونارَه بالشَّهَوات، فلولا أنّ النارَ حُفَّتْ بالشَّهَواتِ لم يقُل الناسُ كلُّهم: الله، ولولا أن الجنةَ حُفَّتْ بالمكارهِ لَما خالَفَ أحدٌ أمرَ الله"، أخرجه الطبرانيُّ في "الكبير"[(١)].

فلمّا كان ما حُفَّتْ به الجنّةُ وما حُفَّتْ به النارُ مُقتضيَيْنِ لارتكابِ المخالفات، لا جَرَمَ كان دخولُ الجنّةِ واستحقاقُها والتوفيقُ للطاعات بمَحْض فضل الله تعالى، وقال صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ جَمَع في الجنّة جميعَ الخيرات، فلا شيءَ من نعيم الدُّنيا يُماثِلُ نعيمَ الجنّة، ألا تَرَوْنَ إلى حَنْظلِكم هذا، فإنه في الجنةِ أحلى من الشَّهد، ولا شيءَ من عذابِ الدُّنيا يُماثِلُ عذابَ الآخرة، فلو أنّ مَرزُبةً من مَرازِبِ زَبانيَةِ النار وُضِعتْ على جبالِ الدنيا جميعاً لأذابتْها، ولو أنّ قطرةً من زَقُّوم جهنَّم قَطَرتْ على مياهِ الدُّنيا لأمَرَّتْها ولَعطَّلتِ الانتفاعَ بها، قال اللهُ تعالى: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا} [المزمل: ١٢- ١٣].

فإذا كانتِ الجبالُ الشوامخُ لا تقومُ لعذابِ الله، فكيف بإنسانٍ ضعيفٍ يُقمَعُ بتلك المقامع، طعامُهُ الزَّقُّوم وشرابُه الحميمُ والغِسْلِينُ ولباسُه الزِّفتُ والقَطِران؟

---

(١) لم أقف عليه في "كبير الطبراني".

قال اللهُ تعالى: {سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} [إبراهيم: ٥٠]، وقال: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا} [الحج: ٢٢] ضرباً بتلك المقامع، قعرُها بعيد وماؤها صَديد وترابُها حَديد وحرُّها شديد. سُئل رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عما تقولُ النارُ في أزيزِها، فقال: "إنها تستعيذُ بالله من حرِّ جهنَّم"، فقالوا: إنها لَكافيةٌ، فقال صلى الله عليه وسلم: "إنّ جهنَّمَ لَتضعُفُ على نارِكم هذه سبعينَ ضعفاً كلُّ ضعفٍ مِثلُ حرِّها، ولولا أنّ اللهَ أغمسَها في عينِ الجنّةِ ثلاثَ مرات ما انتفعتُم بها".

يُروى أنه إذا كان يومُ القيامة أمَرَ اللهُ تعالى مالكاً أن يُبرزَ جهنَّمَ من سجنِها، فيُرسلُ إليها الرِّيحَ العقيم فتُسعِّرُها، ويُلقي فيها حجاراتِ الكبريتِ فتزيدُ التهاباً، وينفجرُ عليها البحرُ المسجورُ فيصيرُ ناراً، ثم يُرسلُ تلك الرِّيحَ على جبالِ الدُّنيا فتَقلَعُها من أماكنِها ثم تُسيِّرُها، فترجُفُ الأرضُ لزوال أوتادِها حتى تصيرَ الجبالُ كَثِيباً مَهِيلاً، ثم يَمُدُّها مدَّ الأَديم فتُخرجُ أثقالَها، ثم يَدُقُّها وجبالَها دَكّةً واحدةً فتصيرُ الجبالُ- لانعدامِها وخلوِّ أماكنِها منها- سراباً؛ لأنه لا حقيقةَ له، إذْ يُرى بالعينِ كأنه بحرٌ زاخرٌ حتى إذا أتَى الرائي موضعَه الذي كان يراهُ فيه وجدَهُ عَدَماً مَحْضاً، فيصيحُ إسرافيلُ، فتزدادُ الأرضُ زَلزلةً إلى زَلزلتِها التي كانت قبلَ الصَّيحةِ والنَّفخ في الصُّور، فيصيرُ الناسُ على ظهرِها بعدَ البعثِ كالفَراشِ المبثوثِ لكثرتِهم وعَدَم اهتدائهم ودَهَشِهم، فبينما هم كذلك إذا النجومُ قدِ انكَدَرت فتساقَطتْ في النار بعدَما تشقَّقتِ السماءُ بالغَمام، فنَزَلتْ ملائكةُ السماء صُفوفاً

صفاً بعدَ صفّ، فأحاطتْ بالجنِّ والإنس إلى مُنتهَى أقطارِ الأرض، فحينئذٍ ينادي مُنادٍ: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} [الرحمن: ٣٣]، فذلك أولُ نداءٍ بعدَ النَّفخ في الصُّور يقرَعُ آذانَ العالَم، ثم يساقونَ إلى المَحشَر تَسوقُهمُ الملائكةُ والنار، قال اللهُ تعالى: {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} [ق: ٢١]: سائقٌ يَسوقُها إلى المحشَر وشهيدٌ يشهدُ عليها، فبينما هم كذلك إذْ تلقَّتْهم ملائكةُ الرَّحمةِ وملائكةُ العذاب، أمّا ملائكةُ الرَّحمة فتلقَى المُحسنينَ بالنجائبِ والحُلَل، فيُركَبونَ النجائبَ ويُلبَسونَ الحُلَلَ، وتلك النجائبُ من ثوابِ أعمالِهم، فتقولُ لهم: اركبوا، فلطالما ركِبناكُم في دارِ الدُّنيا، وأمّا ملائكةُ العذابِ فيتلقَّوْنَ المجرمينَ بسيِّئاتِ أعمالِهم على أقبح صُورةٍ رُؤيتْ، فيقولونَ لهم: احملوا ما كنتم تعملون، وذلك قولُه: {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [الأنعام: ٣١].

قال قَتادةُ والسُّدّيُّ(١): إذا خَرَج المؤمنُ من قبرِه استقبَلَه عمَلُه في أحسن صُورةٍ وأطيبِها ريحاً، فيقولُ: هل تعرفُني؟ فيقولُ: لا، فيقولُ: أنا عملُك الصّالح، اركبْني، فلطالما ركبتُك، وذلك قولُه تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} [مريم: ٨٥] وقد يعني: رُكْباناً، وأمّا الكافرُ فيستقبلُه عملُهُ في أقبح صُورة وأنتنِها ريحاً، فيقول: هل تعرفُني؟ فيقول: لا، فيقولُ: أنا عملُكَ الخبيث، طالما ركبتَني في

---

(١) انظر مثلًا: تفسير الرازي ١٢/ ٥١٤.

الدُّنيا، فأنا اليومَ أركبُك، وذلك معنى قولِه تعالى: {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ} [الأنعام: ٣١].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامة على ثلاثِ طرائق: راغبينَ، وراهبين، واثنان على بعير وثلاثةٌ على بعير وأربعةٌ على بعير وعشَرةٌ على بعير، وتُحشَرُ معَهم النارُ تَقِيلُ معَهم حيث قالوا وتَبِيتُ معهم حيث باتوا وتُصبحُ معَهم حيث أصبحوا وتُمسي معَهم حيث أمسَوْا "(١).

وعنه أيضاً، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامة ثلاثةَ أصناف: صنفٌ مُشاة، وصِنفٌ رُكْبان، وصنفٌ على وجوهِهم"، قالوا: يا رسُولَ الله، كيف يمشُونَ على وجوهِهم؟ قال: "الذي أمشاهم على أقدامِهم قادرٌ أن يُمشيَهم على وجوهِهم، إنّما يتَّقُون بوجوهِهم كلَّ حَدَبٍ وشوك"، أخرجه الترمذيُّ مرفوعاً(٢).

بابٌ في أهوال يوم القيامة
وكيف تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسَّمواتُ

(١) رواه البخاري (٦٥٢٢).

(٢) في سننه (٣١٤٢)، وهو في مسند أحمد (٨٦٤٧) وفيه تخريج حسن، والحدب، بالتحريك: الغليظ المرتفع من الأرض.

وكيف يأخُذ اللهُ الأرضَ بيدِه وكيفيّةِ الصَّعْق

فلا تزالُ الملائكةُ والنارُ تسُوقُ الإنسَ والجنَّ من مشارقِ الأرض ومغاربِها وجوْفِها وقِبلتِها، حتى إذا اجتمعوا ببيتِ المقدِس كُشِطَتِ الأرضُ من تحتِ أقدامِهم فيُصعَقون فلا يُفيقونَ إلّا وهم بالساهرة، وهي التي تُبدَّلُ من هذه الأرضِ يومَ القيامة، قال اللهُ تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم: ٤٨]، وذلك حين يأخُذُها بيمينِه ويُقلِّبُها كما يُقلِّبُ أحدُكم الغَرَضَ، ثم يقول: أنا الملِكُ الأكبر، أين ملوكُ الدُّنيا الذين كانوا يُبارزوني بالمعاصي؟ قال اللهُ تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر: ٦٧].

وقال تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ}. ذَكَر المفسِّرونَ في معنى هذا التبديل قولين، أحدُهما: أنه تُبدَّلُ صفةُ الأرض والسمواتِ لا ذواتُهما، فأمّا تبديلُ الأرض فهُو أن تُدَكَّ جبالُها وتستويَ وِهادُها وأوديتُها وتذهبَ أشجارُها وجميعُ ما عليها من عِمارةٍ وغيرِها حتى لا يبقى على وجهِها شيءٌ إلّا ذَهَب واضمَحلَّ فيُمَدُّ مدَّ الأديم.

وأمّا تبديلُ السماءِ فبانتشارِ كواكبها وانطماس شمسِها وقمَرِها فيُكوَّران، وبكونِها تارَة كالدِّهان وتارَةً كالمُهْل، وبهذا القول قال جماعةٌ من العلماء. ويدُلُّ على صحتِه ما رُوي عن سَهل بن سَعد، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه

وسلم: "يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامة على أرضٍ بيضاءَ عَفْراءَ كقرصة النقى ليس فيها عَلَمٌ لأحد"، أخرجاه في الصَّحيحيْن(١).

قوله: "ليسَ فيها عَلَمٌ لأحد"، يعني: ليس فيها علامةٌ لأحدٍ لتبديلِ(٢) طينتِها وزوالِ جبالها وجميع بنائها ولا يبقى فيها أثرٌ يُستدَلُّ به.

والقولُ الثاني هو: تبديلُ ذواتِ الأرض والسماء، وهذا قولُ جماعةٍ من العلماء، ثم اختلفوا في معنى هذا التبديل، فقال ابنُ مسعود: تُبدَّلُ هذه الأرضُ بأرضٍ كالفضّةِ بيضاءَ نقيّةٍ لم يُسفَكْ بها دمٌ ولم تُعمَلْ عليها خطيئة. وقال عليُّ بنُ أبي طالب: تُبدَّلُ هذه الأرضُ بأرضٍ من فضّة والسماءُ بسماءٍ من ذَهَب. وقال أُبيُّ بنُ كعب: التبديلُ أن تكونُ الأرضُ نيراناً والسماءُ جِناناً. وقال أبو هريرةَ وسعيدُ بن جُبَير ومحمدُ بن كعبٍ القُرَظيُّ: تُبدَّلُ الأرضُ خُبزةً بيضاءَ يأكُلُ المؤمنُ من تحتِ قدميْه.

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "تكونُ الأرضُ يومَ القيامة خُبزةً واحدةً يتكفَّأُها الجبّارُ بيدِه كما يتكفَّأُ أحدُكم خُبزتَه في السُّفرة نُزُلاً لأهل الجنة"، أخرجهُ في الصَّحيحيْنِ(٣) بزيادةٍ فيه، وقولُه: "يتكفَّأُها"،

---

(١) انظر: الجمع بين الصحيحين ١/ ٥٥٢ (٩١١).

(٢) كذا، والجادة: تبدل.

(٣) البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم ٣٠- (٢٧٩٢).

باهمز، أي: يُميلُها من يدٍ إلى يدٍ حتى تجتمعَ وتستويَ؛ لأنها ليستْ مُنبسِطةً كالرُّقَاقة، وقد حقَّقنا الكلامَ في معنى اليدِ في حقِّ الله تعالى وتأويلِها معَ القطْع باستحالةِ الجارحة، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١].

ومعنى الحديثِ: أنّ اللهَ تعالى يجعلُ الأرضَ كالظُّلمة أو كالرَّغيفِ العظيم تكونُ نُزُلاً لأهل الجنّة، {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٨٤].

فإنْ قلتَ: إنْ فُسِّر التبديلُ بما ذُكر فكيف يمكنُ الجمعُ بينَه وبينَ قولِه تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} [الزلزلة: ٤]، وهُو أن تُحدِّثَ بكلِّ الأعمال عليها؟ قلتُ: وجهُ الجميع[١] بينَ الآيتيْنِ أنّ الأرضَ تُبَدَّلُ أولاً صفتُها معَ بقاءِ ذواتِها كما تقدَّم، فيومَئذٍ تحدِّثُ أخبارَها، ثم بعدَ ذلك تُبدَّلُ تبديلاً ثانياً، وهُو أنْ تُبدَّلَ ذاتُها بغيرِها كما تقدَّم أيضاً.

ويدُلُّ على صحةِ هذا التأويل ما رُويَ عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: سألتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم عن قولِه تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ}، فأين يكونُ الناسُ حينئذٍ؟ قال: "على الصِّراط"، أخرجه مسلم[٢].

---

(١) كذا في النسخة والجادة: الجمع.

(٢) مسلم ٢٩- (٢٧٩١).

ورَوى ثوبانُ، أنّ حَبْراً من اليهود سألَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: أين يكونُ الناسُ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض؟ قال: "هم في الظُّلمة دونَ الجَسْر"، ذَكَرَه البَغَويُّ بغيرِ سند[1].

ففي هذينِ الحديثيْنِ أنَّ تبدُّلَ الأرض ثانيَ مرّة يكونُ بعدَ الحساب، وهو المتجِّهُ، إذْ هو الجامعُ بينَ تأويل الآيتيْنِ: قولِه تعالى: {وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ} [إبراهيم: ٤٩]، يعني: مشدودينَ بعضُهم إلى بعض، يقالُ: أقرَنْتُ الشيءَ بالشيء: إذا شددتَهُ معَه في وَثاقٍ واحد، {فِي الْأَصْفَادِ} [إبراهيم: ٤٩] يعني: في القيودِ والأغلال، قال ابنُ عباس: يُقرَنُ كلُّ كافر معَ شيطانِه في سِلسِلة. قال ابنُ زيدك تُقرَنُ أيديهم وأرجُلُهم إلى رقابِهم بالأصفاد، وهي القيودُ.

{سَرَابِيلُهُمْ}، يعني: قميصُهم[2] واحدُها: سِربال، وقيل: السِّربالُ: كلُّ ما لُبس، {مِنْ قَطِرَانٍ}، والقَطِرانُ: دُهنٌ يَتحلَّبُ من شجرِ الأبهَر والعَرعَر والنَّبُّوت[3] والسَّلَم[4] والمَيْس وغيرِ ذلك كالزِّفت، تُدهَنُ به الإبلُ إذا أَجرَبتْ،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) كذا في النسخة والجادة: قمصهم.

(٣) كتنور، قال الزبيدي: الفرع النابت من الشجر، ويطلق على العصا المستوية، لغة مصرية. تاج العروس (نبت).

(٤) وهو: شجر العضاه، الواحدة سلمة، مثل: قصب وقصبة، والأرض التي تنبته تسمى: ذاتَ أسلام. المصباح المنير، وتاج العروس (سلم).

وهو الهِنَاء. قال الزَّجَّاج: وإنما جُعل لهم القَطِرانُ سَرابيلَ لأنه يُبالِغُ في اشتعال الجلود، ولو أراد الله المبالغةَ في إحراقِهم لغيرِ ذلك لَقَدَر ولكنه حذَّرهم بما يعرفون.

وقَرأ عِكرِمةُ ويعقوبُ: "مِن قَطْرٍ آنٍ"[1]، على كلمتيْنِ مُنوَّنتَيْن، فالقَطْرُ: النُّحاسُ المُذاب، والآني: الذي انتهى حرُّه، قال اللهُ تعالى: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [الرحمن: ٤٤].

{وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} [إبراهيم: ٥٠]، يعني: تعلوها وتُجلِّلُها.

{لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ}، يعني: من خيرٍ وشرّ، ومن أجل ذلك خَلَق الجنةَ والنارَ والدنيا والآخرةَ والجنَّ والإنسَ، {إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ} [إبراهيم: ٥١] يعني: إذا حاسَبَ عبادَه في الآخرة، فيُحاسبُ الجميعَ في لحظةٍ وكلُّ إنسانٍ يحسَبُ أنّ اللهَ لم يُحاسبْ غيرَه، وهو تعالى قد حاسَبَ الجميعَ في لحظة.

ثم افتَتَحَ تعالى، فذَكر برنامَجَ كتابِه، وهو قولُه: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ}، يعني: القرآنَ؛ لأنّ فيه عِلمَ كلِّ شيء، لا سيما أمرُ السَّاعة، إذِ النبيُّ المرسَلُ إليه والمُنزَّلُ عليه يقالُ لهُ: نبيُّ الساعة، ولذلك أوتيَ من علمِها ما لم يؤتَ نبيٌّ قبلَه. {وَلِيُنْذَرُوا بِهِ} فيَفِرُّوا ممّا يستوجبُ هذا العذابَ الأليم والخِزْيَ العظيم والمكانَ المُقيم،

---

(١) تفسير الثعلبي ٥/ ٣٢٩.

الآخذَ في مَواعظِه بمجامع القلوبِ المُنْبِئةَ أخبارُه بمُحذِّرات الغيوب. {وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} ويَستدِلُّوا بهذه الآياتِ العظام والأهوالِ الجِسام التي لا يَقدِرُ عليها غيرُه ولا يعلمُ حقيقةَ علمِها سواه على وَحْدانيّتِه تعالى، {وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [إبراهيم: ٥٢] يعني: ولِيتَّعظَ بهذا القرآن وما فيه منَ المواعظ أربابُ العقولِ السَّليمة والأفهام المستقيمةِ الصحيحةِ الإدراك السالمةِ منَ الارتباك، قال صلى الله عليه وسلم: "من لم يتَّعظْ بالقرآن فإنه لو رأى حجراً يسعى لم يتَّعظْ، ولو رأى إنساً مرسَلاً لَما انتفعَ به، قال اللهُ تعالى: {لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: ١٩]، يعني: أنّ اللهَ تعالى يشهدُ لي بالنبوءة؛ لأنه أوحيَ إليّ هذا القرآنُ، وهو أعظمُ معجزةٍ؛ لأنكم أنتمُ البُلغاءُ الفُصَحاءُ وقد عَجَزتُم عن معارضتِه، فكان مُعجزاً، وإذا كان مُعجِزاً كان نزولُه عليّ شهادةً من الله أني رسُولُه، وهو المرادُ بقولِه: {لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}، يعني: أُوحيَ إليَّ هذا القرآنُ لأُخوِّفَكم به وأُحذِّرَكم مخالفةَ أمرِه، {وَمَنْ بَلَغَ}، يعني: وأُنذرَ مَن بَلَغَه القرآنُ من بعدِه منَ العربِ والعجَم إلى يوم القيامة، فكلُّ مَن بَلَغَه القرآنُ وسمعَه فالنبيُّ نذيرٌ له، قال محمدُ بن كعبٍ القُرَظيُّ: مَن بَلَغَه القرآنُ فكأنما رأى النبيَّ وكلَّمه.

فإذا وَقَع الناسُ في الظُّلمةِ التي دونَ الجِسر وتشقَّقتِ السماءُ بالغمام، فحينئذٍ يُنزِلُ اللهُ على الأنبياءِ والمؤمنين أنوارَهم فيسيرونَ فيها، وكذلك المنافقونَ من هذه الأُمّة، فإذا تمَّ الموقفُ ودُعيَ إلى المرور على الصِّراطِ انطَمَست أنوارُ المنافقين.

فكلُّ نبيٍّ ومؤمنٍ من هذه الأُمّة لهُ نوران: نورٌ يسعى عن يمينِه ونورٌ بين يديْه، وأمّا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيخرجُ من تحتِ كلِّ شعرةٍ من شعرِه نورٌ على حِدة، يراه المشاهدُ له عِياناً، قال اللهُ تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} [الحديد: ١٢]، وقيل: أراد جميعَ الجوانب فعبَّر بالبعض عن الكلّ، وذلك دليلُهم إلى الجنّة. وقال قَتادةُ: ذُكر لنا أنّ نبيَّنا صلى الله عليه وسلم قال: "من المؤمنينَ مَن يضيءُ نورُه من المدينةِ إلى عَدَن ودونَ ذلك، حتى أنّ من المؤمنينَ مَن لا يضيءُ نورُه إلا موضعَ قدميْه". وقال عبدُ الله بنُ مسعود: يؤتَوْنَ نورَهم على قَدرِ أعمالِهم، فمنهم مَن يؤتَى نورَه كالنَّخلة، ومنهم من يؤتَى نورَه كالرجُل القائم، وأدناهم نوراً مَن نورُه على إبهاميْهِ يُطفئُ مرةً ويتَّقدُ مرَّة.

وقيلَ في معنى الآية: {يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}، أي: يُعطَوْن كتُبَهم {وَبِأَيْمَانِهِمْ}، وتقولُ لهمُ الملائكة: {بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا} [الحديد: ١٢- ١٣] أي: انتظرونا نقتبسْ من نورِكم، أي: نستضئْ من نورِكم، قيل: تغشَى الناسَ ظلمةٌ شديدةٌ يومَ القيامة، فيعطي اللهُ المؤمنين نوراً على قدرِ أعمالِهم فيمشُون به على الصِّراط، ويُعطي المنافقينَ أيضاً نوراً خديعةً لهم فبينَما هم يمشونَ إذْ بعث اللهُ ناراً وظُلمةً فأطفَأتْ نورَ المنافقين، فذلك قولُه تعالى: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا} [التحريم: ٨] مخافةَ أن يُسلَبَ نورُهم كما سُلب نورُ المنافقين، وقال(١): بل يستضيئونَ بنورِ المؤمنين ولا يُعطَوْنَ النورَ، فإذا سَبَقهم المؤمنونَ بقُوا في الظُّلمةِ وقالوا للمؤمنين: {انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ}، قال ابنُ عبّاس: يقولُ لهم المؤمنون- وقيل: الملائكة-: {ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ} من حيث جئتُم، وقيل: ارجِعوا إلى الدُّنيا فاعمَلوا فيها أعمالاً يجعلُها اللهُ لكم نوراً، وقيل: لا نورَ لكم عندَه فارجِعوا وراءَكم {فَالْتَمِسُوا نُورًا}، ولا سبيلَ لكم إلى الاقتباسِ من نورِنا، فيرجِعون في طلبِ النور فلا يجدونَ شيئاً فينصرفونَ إليهم ليَلقَوْهُم، فيُميَّزُ بينَهم وبينَ المؤمنينَ بسُور، وهو حائطٌ بينَ الجنّةِ والنار، لذلك السُّور بابٌ {بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ}- وهي الجنة- {وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد: ١٣] وهو النار.

واعلمْ أنّ الموقفَ مُشتملٌ على الوَزْنِ والحسابِ والشُّربِ من حوضِ الرسُول صلى الله عليه وسلم كما يدُلُّ على ذلك جميعُ الأخبار، وفيه زَفَراتُ النار ودنوُّ الشمسِ قامةَ رجُل من رؤوسِ الناس وقد تضاعفَ وَهَجُها، وذلك قبلَ كسوفِها، وجمعِها معَ القمر، وسقوطِهما في البحرِ، واستحالتِه ناراً، وفيه الصُّعُقُ والغُرُقُ في العَرَق، وإحاطةُ النار، ومجيءُ الربِّ والكشفُ عن ساقٍ والدعوةُ إلى السُّجود، ومجيءُ ملائكةِ السماواتِ السَّبع، ملائكةُ كلِّ سماءٍ صفٌّ، ثم قيامُ الرُّوح صفًّا

(١) كذا في النسخة، ولعله أراد: قيل، بالبناء للمفعول لكن سبق قلمه.

والملائكةِ كلِّها صفًّا، والنداءُ منَ الله لآدمَ بأنْ أخرِجْ من ذُرِّيَّتِك بعثَ النار، وقولُه: كم هم؟ وقولُ البارئِ لهم: من كلِّ ألفٍ تسعُ مئةٍ وتسعٌ وتسعونَ إلى النار وواحدٌ إلى الجنة، وذلك حينَ {يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} [المزمل: ١٧] من الهولِ والفزَع {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [الحج: ٢]، وحينَ {تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا} [الحج: ٢]، وحينَ {لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات: ٣٥- ٣٦]، وحينَ تكونُ {الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ} [غافر: ١٨]، وحينَ تكونُ أفئدةُ أهل الموقفِ هواءً، وحينَ {تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ} [النازعات: ٦- ٧]، وحينَ {يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} [عبس: ٣٤ - ٣٦]، وحينَ {يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ} [المعارج: ١١ - ١٤]، وحينَ {يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} [النبأ: ٤٠]، وحينَ {يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: ٤٢]، وحينَ يقولُ المجرمونَ: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنعام: ٢٧]، وحينَ يقولونَ: يا ليتَنا {نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} [الأعراف: ٥٣]، وحين {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ} [الرحمن: ٤١]، وحينَ يقولُ: {انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ} [المرسلات: ٣٠- ٣١]، وحين {يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا

لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} [الفرقان: ٢٧]، وحينَ {لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٣٩]، قيل: لا يُسألونَ عن ذنوبِهم لتُعلَمَ من جهتِهم؛ لأنّ اللهَ تعالى عَلِمَها فهُو أعلمُ بها منهم وكتبتْها عليهمُ الحَفَظة، كما رُويَ ذلك عن ابن عبّاس، وعنه أيضاً- في الجمع بين هذه الآيةِ وبين قولِه تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُون} [الحجر: ٩٢، ٩٣] قال: لا يَسألُهم هل عملتُم كذا وكذا؟ لأنه أعلمُ بذلك منهم، ولكنْ يسألُهم: لِمَ عملتُم كذا وكذا؟ وإنهم لا يُسألون بسؤال شفَقةٍ ورحمة، وإنما يُسألونَ سؤالَ توبيخ وتقريع وتبكيت.

ثم اعلمْ أنّ الناسَ في الموقفِ على ثلاثةِ أقسام: الأُممُ الجاحدةُ يُسألونَ عن تبليغ الرسُول فيقولونَ: {مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ} [المائدة: ١٩]، فيقولُ اللهُ تعالى لأنبيائهم: إنّ أُممَكُم هذه قد أنكرت إبلاغَكم فهل لكُم عليهم من شهود؟ فيقولون: نعم، أحمدُ وأُمّتُه، فيقولُ اللهُ تعالى: إيتوا بهم، فيجيئونَ فيشهدُ لهم بتبليغ الرسالة، فيتْلُونَ عليهم في كتابِ الله ما قال نوحٌ وما قيل له، وما قال هودٌ وما قيل له، وما قال صالحٌ وما قيل لهُ، وما قال إبراهيمث عليه السلامُ وما قيل لهُ، وما قال موسى عليه السلامُ وما قيل لهُ، وما قال إلياسُ وما قيل لهُ، وما قال الْيَسَعُ وما قيل لهُ، وما قال داودُ وما قيل لهُ، وما قال عيسى عليه السلامُ وما قيل لهُ وتزكيتُه وتبرئتُه من قول النصارى أنه قال لهم: {اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [المائدة: ١١٦]، فإذا أتَوْا على أخبارِ جميع الأُمَم وأنبيائها جيءَ لكلِّ أُمّةٍ بما كانت تعبدُ، فيُؤمرونَ باتّباعِه وملائكةُ العذاب يسوقونَهم حتى يستقرُّونَ في

أماكِنِهم المُعَدّةِ لهم من دَرَكات النار، فإذا لم يبقَ إلّا اليهودُ والنصارى ممَّن غيَّر وبدَّل سلَّط اللهُ عليهمُ العطَشَ، فيَسْتسْقونَ فيُظهِرُ اللهُ لهم النارَ وكأنها ماءٌ، حتى إذا جاءوها وَجَدوا ذلك سَراباً فتأخُذهمُ النارُ، فلا يبقى في المَحشَر إلّا هذه الأُمّةُ مؤمنُها ومنافقُها، فيتجلَّى اللهُ عليهم، فيسجُدُ المؤمنُ المخلِصُ، وتكونُ ظهورُ المنافقينَ كالصَّياصي، كلَّما أرادوا أن يسجُدوا وَقَعوا على ظهورِهم، فحينئذٍ يؤمَرونَ بالمرور على الصِّراط والأنبياءُ والصِّدِّيقونَ على حافَتِه ودعاؤهم: "اللهُمَّ سلِّمْ سلِّمْ"[1]، فمنهم من يمُرُّ كطَرْفة العَيْن، ومنهم من يمُرُّ كالبرقِ الخاطف، ومنهم من يمُرُّ كالرِّيح العاصف، ومنهم من يمُرُّ كجِياد الخيل، ومنهم من يمُرُّ كالرجُل الذي يَعدو، ومنهم من يمُرُّ يسعى، ومنهم من يمُرُّ يَحْبو، ومنهم من يُسحَبُ على وجهِه، ومنهم من ينخرقُ به الصِّراط فتأخُذُه النار، ومنهم من يزلِقُ فتأخُذُه النار، ومنهم من تأخُذُه كلاليبُ الصِّراط فتُلقيهِ فيها، ومنهم من يأخُذُه عَنَقٌ من النارِ قبلَ الوصُول إلى الصِّراط، ومنهم من تأخُذه من خلال المحشَر فهي أعرفُ بأصحابها من الوالدة بولَدِها: فناجٍ مخدوشٌ وناجٍ مكدوش.

ومنهم أصحابُ العقَباتِ التسع، أولُها: عقَبَةُ التوحيد، يُسألون فيها عن التوحيد، فمَن أتَى[2] به نَجا ومَن لم يأتِ[1] به انحَرفَ به الصِّراطُ فيَهوِي في النار

---

(١) انظر: الجمع بين الصحيحين ٢/ ٤٣٧ (١٧٥٤: حديث أبي سعيد) و٣/٤٧ و ١٦٤ (٢٢٢٧ و٢٣٨٨: حديثي أبي هريرة).

(٢) في النسخة: أوتي، والجادة ما أثبتناه.

على أُمِّ رأسِه. ثم عقَبَةُ الصَّلاة، فمن أتَى بها نجا ومَن لم يأتِ بها أخَذَتْهُ زبانيَةُ العذاب وتضربُه بمَرازبِ الحديد على تضييع صلاةِ الصبح منَ الصُّبح إلى الظهر، وعلى تضييع الظهر منَ الظهرِ إلى العصر، وعلى العصرِ منَ العصرِ إلى المغرب، وعلى المغربِ منَ المغربِ إلى العشاء، وعلى العشاءِ منَ العشاءِ إلى الصُّبح، ثم يؤمونَ به صَعوداً، وهو جبلٌ على متن جهنَّم، فلا يزالون يُرهقونه صَعُوداً والهَوِيُّ منه حتى تنفُذَ عقوبتُه. العقَبةُ الثالثة: عَقَبةُ الزَّكاة، فيُحبَسُون فيها حتى يُسألونَ(٢) عن الزَّكاة، فمن أتَى بها نَجَا، ومن لم يأتِ بها مَثُلَ له مالُه شُجاعاً فيأخُذ بمِنخَريْه، وفي رواية: بلَهزَمتِه، حتى يَكُبَّه على وجهِه في النار. الرابعة: عقبةُ الصِّيام، فيُحبَسُونَ عليها حتى يُسأل عن الصيام، فمَن أتَى به نَجا، ومَن لم يأتِ به انخرقَ به الصِّراطُ فيُعذَّبُ في نارِ جهنَّم بالعطش والجوع حتى تنفُذَ عقوبتُه فيكونُ الحميمُ شرابَه والضَّريعُ والزَّقُّومُ طعامَه. العقَبةُ الخامسة: عَقَبةُ الحجِّ، فيُحبَسونَ عندَها حتى يُسألَ عن الحجِّ، فمن أتَى به نَجا، ومَن لم يأتِ به انخرقَ به الصِّراطُ، فيُعذَّبُ بالطَّوافِ بينَ النار وبينَ الحميم كما في قولِه تعالى: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [الرحمن: ٤٤]. العقبةُ السادسةُ: عقَبةُ الدِّماء، فيُحبَسونَ حتى يُسألونَ عن الدِّماء، فمن لم يُصِبْ دماً حراماً نَجا، ومَن أصابهُ انحَرفَ به الصِّراطُ واحتَوشَتْهُ زَبانيَةُ العذابِ بالتهويل والطَّعن والضَّربِ واللَّعن، ويُنادَى به على رؤوسِ

---

(١) في النسخة: يؤت، والجادة ما أثبتناه.

(٢) في النسخة: أوتي، كالمرة الأولى، والجادة ما أثبتناه.

الأشهاد أنّ اللهَ قد غَضِب عليه ولَعَنَهُ وأعدَّ له عذاباً عظيماً، وكذلك كلُّ مَن شَقيَ فإنه يُنادَى به على رؤوسِ الأشهاد: ألَا إنّ فلاناً قد شَقيَ بشقاوةٍ لا سعادةَ بعدَها، فلَهذا النداءُ أشدُّ عليهم من عذابِ النار، وكلَّما سَعِد سعيدٌ يُنادَى به: ألّا إنّ فلاناً سَعِد سعادةً لا شقاوةَ بعدَها، فلَذلك النداءُ أشهَى إلى قلبِه من التلذُّذِ بنعيم الجنة. العقَبةُ السابعةُ: عقُبةُ بِرِّ الوالديْنِ، فيُحبَسونَ عليها حتى يسألونَ عن بِرِّ الوالديْنِ وصِلةِ الأقارب، فمن أتَى بهما نُجا ومَن لم يأتِ بهما انخَرق به الصِّراطُ فيَهوي في جهنَّمَ سبعينَ خريفاً فتَحتوِشُه حيّاتُ النار وعقاربُها، في طول كلِّ حيّةٍ من تلك الحيّات مسيرةُ سبعينَ سنةً لا يردُّ ألَمَ إحداهنَّ مئةُ خريف، وعقاربُها مثلُ البِغال الدُّهم لكلِّ واحدةٍ منهنَّ سبعون شوكةً على كلِّ شوكةٍ مدةٌ من السُّم. العقبةُ الثامنة: عقَبةُ الرِّبا والحرام، فمن سلِم منهما نَجا ومَن أصاب شيئاً منهما انحَرفَ به الصِّراط، فتكونُ بطنُه كالبيتِ العظيم، ثم تندلقُ أمعاؤه فيدورُ بها في النار كما يدورُ الحمارُ حول الرَّحى، فيجتمعُ عليه أهلُ النار فيقولونَ لهُ: ويلَك! فما رأينا من المعذَّبينَ مثلَك، فيقولُ القُضاة: كنا لا نتوقَّى أخْذَ الرِّشا ولا نتَّقي اللهَ في أخذِها ولا نخشَى، ويقول الشُّفعاء: كنا نأخُذُ الهديّةَ على الشَّفاعةِ ولذلك أُخِذنا بهذه الفاقرة، ويقول التُّجّار: كنّا لا نجتنبُ أكلَ الرّبا، فلذلك صارت أعمالُنا كالهَباء، وإنّ أهلَ النار لَيتأذَّوْنَ من نتَنِ بطون هؤلاءِ معَ ما هم فيه من الهمِّ والعذاب.

وقيل: بل العقَباتُ سبعٌ: عقَباتُ القواعدِ الخمس، وعقَبةُ الدماء، وعقَبةُ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، والأولُ أصحُّ وأكثرُ رُواةً.

وأمّا الظَّلَمةُ وأعوانُهم فقدِ اختطفتْهم ألسِنةُ النار معَ منِ اختَطَفتْ من المحشَر، كما أخرجهُ البيهقيُّ بسندٍ موصول(١)، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ اللهَ يُرسلُ عَنَقاً من النار فتَلتقطُ الظَّلَمةَ وأعوانَ الظَّلَمةِ من خلال المحشَر"(٢)، ثم يستوونَ على متن الصِّراط، فحينئذٍ يأمُرُ اللهُ الشُّفعاءَ فيشفعونَ في غير أربعةِ أصناف: مُضيِّعو الصلاة ومانعو الزَّكاة ومُكثِرو الخَوْض في الباطل والمكذِّبونَ بأمورِ القيامة، وذلك معنى قولِه تعالى: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: ٤٢- ٤٨]، فحينئذٍ يتجلَّى اللهُ على النار فيقولُ: {هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} [ق: ٣٠]، فيضع عليها قَدَمَهُ فتقولُ: قطٍّ قطٍّ، فلا تطلبُ بعد ذلك مزيداً.

ثم اعلمْ أنّ الناسَ يُعرَضونَ على الله ثلاثَ عَرْضات: اثنتانِ معاذيرُ وجدلٌ، وفي الثالثةِ توضَعُ الصحائفُ في الأيْمان والشمائل، كما أخرجه أبو هريرة، وقال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "يُعرَضُ الناسُ يومَ القيامة ثلاثَ عَرْضات،

(١) لم أقف عليه.

(٢) إلى ها هنا بنحوه في مسند الحارث (٧٧٧) وغيره.

أمّا عرْضتانِ فجدالٌ ومعاذير، وأمّا الثالثةُ فعندَها تطيرُ الصُّحفُ في الأيدي فآخِذٌ بيمينِه وآخِذٌ بشمالِه"، أخرجهُ الترمذيُّ(١).

ويدُلُّ لهُ قولُه تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ} [الحاقة: ١٩ - ٢٥] قيل: تُلوى يدُه اليسرى خلفَ ظهرِه ثم يُعطَى كتابَه بها، وقيل: تُدخَلُ يدُه اليسرى من صدرِه حتى تُخرَجَ من ظهرِه ويُرَدُّ وجهُه على دبُرِه ويُطمَسُ أنفُه ثم يأخذُ كتابَه بشمالِه وراءَ ظهرِه، فحينئذٍ يقولُ: {يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ}، وذلك لـمّا رأى من مقدِّماتِ نَكالِه من إخراج يدِه من ظهرِه وطمْسِ وجهِه وردِّه إلى دُبُرِه معَ ما رأى في صحيفتِه من سيّئاتِ أعمالِه وما حَصَل له من الخجل والافتضاح، فيتمنَّى حينئذٍ الموتَ أو لو أنّ موتتَهُ الأُولى التي وقعتْ عليه في الدُّنيا {كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} [الحاقة: ٢٧] عليه: بأنْ لم يُبعَثْ، فصارت أحبَّ إليه من كلِّ شيءٍ بعدَ أن كانت في الدُّنيا أبغضَ إليه من كلِّ شيءٍ بعدَ أن كانت في الدُّنيا أبغضَ إليه من كلِّ شيء، ثم يتأسَّفُ على ما فاتهُ في دار الدُّنيا منَ الانتفاع بمالِه وقوّتِه، فيقول: {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ} [الحاقة: ٢٨- ٢٩] أي: حُجَّتي التي كنتُ أحتجُّ بها في دارِ الدنيا، وذلك لِما شهِدتْ عليه جوارحُهُ

(١) سنن الترمذي (٢٤٢٥).

بسيِّئاتِ أعمالِه، فيقولُ اللهُ تبارك وتعالى لملائكةِ العذاب: {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ} [الحاقة: ٣٠]، أي: اجمَعوا يدَهُ إلى عُنُقِه، { ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ} [الحاقة: ٣١] أي: أدخِلوهُ معظمَ النار؛ لأنه كان يتعاظمُ بمالِه وقوَّتِه على المساكين في الدنيا، {ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ} وهِي حِلَقٌ مُنتظَمةٌ كلُّ حلقةٍ منها في حلقة، {ذَرْعُهَا}، أي: مقدارُها، والذَّرْعُ: التقديرُ بالذراع من اليدِ وغيرِها، {سَبْعُونَ ذِرَاعًا}، قال ابنُ عبّاس: بذراع المَلِك. وقال نوفَلٌ البَكّاليُّ: سبعون ذراعاً كلُّ ذراع سبعونَ باعاً كلُّ باع أبعدُ ممّا بينَك وبينَ مكّةَ، وكان في رحبة الكوفة. وقال سفيان: كلُّ ذراع سبعونَ ذراعاً. وقال الحَسَن: الله أعلمُ أيُّ ذراع هو.

وعن عبدِ الله بن عَمْرِو بن العاصِ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لو أنّ رَضْراضةً مثلَ هذه- وأشار إلى مثل الجُمجُمة- أُرسِلتْ من السماءِ إلى الأرض، وهي مسيرةُ خمسِ مئةِ عام، لَبَلغتِ الأرضَ قبلَ الليل، ولو أُرسِلتْ من رأسِ سلسلةٍ من سلاسل العذاب لَسارت أربعينَ خريفاً الليلَ والنهارَ قبلَ أن تبلُغَ قعرَها أو أصلَها"، أخرجه التّرمذيُّ وقال: حديثٌ حَسَن(١)، الرَّضْراضُ: الحَصباءُ الصِّغار.

وقال كعبٌ: لو جُمع حديدُ الدُّنيا ما وَزَن حلقةً منها.

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٨٨).

قولُه تعالى: {فَاسْلُكُوهُ} [الحاقة: ٣٢]، أي: أدخِلوهُ فيها. قال ابنُ عبّاس: تُدخَلُ في دُبُرِه وتُخرَجُ من مَنخِرِه. وقيل: تُدخَلُ في فيه وتخرجُ من دُبُرِه.

{إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ} [الحاقة: ٣٣]، أي: لا يُصدِّقُ بوَحدانيّتِه وعظَمتِه، {وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الحاقة: ٣٤]، أي: لا يحُثُّ نفسَه على إطعام المسكين ولا يأمُرُ أهلَه بذلك. وفيه دليلٌ على تعظيم الجُرم في حِرمان المساكين؛ لأنّ اللهَ تعالى عَطَفَهُ على الكفر وجَعله قرينَهُ[١]، قال الحَسَن: أدركتُ أقواماً يَعزُمونَ على أهليهم أنْ لا يرُدُّوا سائلاً. وعن بعضِهم أنه كان يأمُرُ أهلَه بتكثير المَرَق لأجْل المساكين ويقولُ: خلَعْنا نصفَ السِّلسلةِ بالأيْمان فلا نخلعُ النصفَ الثانيَ بالإطعام.

{فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ} [الحاقة: ٣٥]، أي: ليس له في الآخرة قريبٌ ينفعُه ويشفَعُ لهُ، {وَلَا طَعَامٌ} يَطعَمُه {إِلَّا} إذا كان الطعامُ {مِنْ غِسْلِينٍ} [الحاقة: ٣٦]، يعني: صديدَ أهل النار، وهو مأخوذٌ من الغَسل[٢]؛ لأنه غُسالاتُ جراحاتِهم وقروحِهم، وقيل: هو شجرٌ يأكلُه أهلُ النار كالزَّقُّوم[٣]، {لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ} [الحاقة: ٣٧]: بالكفرِ وكبائر الذُّنوب.

---

(١) هذا استنباط بديع آخر للمصنف رحمه الله.

(٢) تفسير السمرقندي (بحر العلوم) ٣/ ٤٩١، وتفسير الثعلبي ١٠/ ٣٢.

(٣) تفسير الثعلبي ١٠/ ٣٢.

ثم إنّ الأنبياءَ والمؤمنينَ إذا جاوَزوا الصِّراطَ جَعل بعضُهم يَسألُ بعضاً عن ورودِ النار، فيقولُ لهم الأنبياءُ والعلماء: مَرَرتُم عليها وهي خامدة، وقيل: إنهم يجاوزونَها وقد نَدِيتْ أثوابُهم إذْ صارت مثلَ البَرَدِ والثلج، فتقولُ للمؤمن: جُزْ يا مؤمن، فقد أطفأ نورُكَ لَهَبي، ولا يمكنُ الوفاقُ بينَ الآيتيْنِ الشَّريفتيْنِ إلّا بهذا التأويل، وهما قولُه تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا} [مريم: ٧١]، وقولُهُ تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ} [الأنبياء: ١٠٢].

بابٌ في الميزانِ والوَزْن ووجوبِ الإيمانِ بهما واجتماع أهل السُّنة والجماعةِ على حقيقتِهما

قال اللهُ تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: ٤٧]، أي: لأهوالِ يوم القيامة أو لأهل القيامة، فالمعتزلةُ ومَن وافَقَهم مجتمعونَ على أنه لا وزنَ ولا ميزان، وإنّما هو عبارةٌ عن العدل والقِسطِ بينَهم في الأعمال، فمن أحاطت حسناتُه بسيّئاتِه فاز ونجا والعكسُ للعكس. والصَّحيحُ الذي عليه أئمةُ السَّلفِ أنّ اللهَ سبحانَه يضَعُ الموازينَ الحقيقيّةَ ويزِنُ بها أعمالَ العباد. وقال الحَسَن: هو ميزانٌ له كِفَّتان ولسانٌ.

رُويَ أنّ داودَ عليه السلامُ سأل ربَّه أن يُريَهُ الميزان، فأراهُ إياهُ، فإذا كلُّ كِفّة كما بينَ المشرقِ والمغرب، فلما رآهُ غُشِيَ عليه، ورُويَ أنّ كِفّةَ الحَسَناتِ من نورٍ ساطع، وكِفّةَ السيئاتِ من ظُلمةٍ مثلُ أكَمة، إحداهما عن يمينِ العرش، وهي كِفّةُ الحسَنات، والأخرى عن شمالِه، وهي كِفّةُ السيّئات، ولمّا أفاق داودُ عليه السلامُ قال: يا ربِّ، مَن ذا الذي يَقدِرُ أن يملأَ كِفّةَ الحسَنات؟ قال: يا داود، إني إذا رَضِيتُ عن عبدي ملأتُها بثمرةٍ واحدة.

فعلى هذا نفَى غُواةُ المعتزلةِ وضُلّالُ المتكلِّمينَ الذين لا ذوقَ لهم ولا نورَ وزنَ الأعمال على أنها أعراضٌ، وعلى مذهبِ أهل السُّنةِ والجماعة ففي ذلك طريقان، إحداهما: توزنُ صحائفُ الأعمال فتوضعُ صحائفُ الحَسَناتِ في كِفّة وصحائفُ السيِّئات في كِفّة، والثانيةُ: أنْ تُجعَلَ في كِفّة الحسَنات جواهرُ بيضٌ مُشرِقة، وفي كِفّة السيّئات جواهرُ سُودٌ مُظلمة.

فإنْ قلتَ: كيف يوفَّقُ بين قولِه تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: ٤٧] وقولِه: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: ١٠٥]؟ فالموافقةُ بينَهما: أنّ هذه الأخيرةَ في حقِّ الكافرين، وليست أعمالُ توزَنُ معَ الكُفر؛ لأنه مُحبِطٌ لحسَناتِهم، والمعدومُ شرعاً كالمعدوم حِسًّا، وقد جُوزوا بحسَناتهم في الدنيا قوةً وأموالاً ولم يبقَ لهم إلا السيّئاتُ والكُفرُ فلا وزْنَ عليهم ولا حساب.

ثم قال: {فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا}، أي: لا تُبخَسُ نفسٌ مؤمنةٌ ممّا لها وما عليها من خيرٍ وشرٍّ شيئاً {وَإِنْ كَانَ} الشيءُ {مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا} وأراد بالحبّةِ من الخَرْدَل: أدنَى ما يُطلَقُ عليه اسمُ الوجود، ومعنى {أَتَيْنَا بِهَا}: أحضَرْناها لتُجازَى بها، عن عبدِ الله بن عَمْرو بن العاص، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ اللهَ تعالى يُخلِّصُ[1] رجُلاً من أُمّتي يومَ القيامة فينشُرُ له تسعةً وتسعينَ[2] سِجِلًّا كلُّ سِجِلٍّ مدَّ البصَر، ثم يقولُ: أتذكُرُ من هذا شيئاً؟ أظَلَمتْك حَفَظتي الكاتبون؟ فيقول: لا يا ربّ، فيقول: ألكَ عُذْر؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقولُ اللهُ تعالى: بلى إنّ لكَ عندَنا حَسَنةً، وإنه لا ظُلْمَ عليكَ اليوم، فتخرج له بطاقةٌ فيها: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وأنّ محمداً رسُولُ الله، فيقولُ: احضُرْ وزْنَك، فيقولُ: يا ربِّ، ما تُغني هذه البطاقةُ معَ هذه السِّجِلّا؟ت فيقولُ له: إنك لا تُظلَم، فتوضَعُ السِّجِلّاتُ في كِفّةٍ والبطاقةُ في كِفّة، فطاشتِ السِّجِلّاتُ وثَقُلتِ البطاقة، ولا يثقُلُ معَ اسم الله شيء"، أخرجهُ التّرمذيّ[3]، وقد قدَّمتُه في بابِ ما يُرجَى من رحمةِ الله دليلٌ على سَعةِ رحمتِه وإبعادِ القُنوط وجئتُ به هنا ثانيةً دفعاً لمذاهبِ المعتزلة وأهل الكلام وبياناً لصحّةِ مذهبِ أهل السُّنّةِ والجماعة.

---

(١) في روايات: يستخص.

(٢) في النسخة: وتسعون.

(٣) الترمذي (٢٦٣٩)، وهو في مسند أحمد (٦٩٩٤) وفيه تخاريج.

ثم قال اللهُ تعالى: {وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧]، قال ابنُ عبّاس: كفى بنا عالِمينَ حافظين؛ لأنّ مَن حَسَب شيئاً فقد عَلِمَه وحَفِظَه. والغرضُ منه التحذير، فإنّ المُحاسِبَ إذا كان في العلم بحيثُ لا يمكنُ أن يشتبهَ عليه شيءٌ وفي القدرة بحيث لا يُعجزُه شيءٌ فحقيقٌ بالعاقل أن يأخذَ نفسَهُ بأشدِّ الخوفِ منه.

يُروَى عن الشِّبليِّ أنه رُئِيَ في المنام بعدَ موتِه، فقيل لهُ: ما فَعَل اللهُ بك؟ فقال: حاسَبونا فدَقَّقوا ثم مَنُّوا فأعتَقوا، وكذلك كلُّ مالكٍ بمَماليكهِ يَرفُقُ(١).

ومن عظيم قُدرتِه تعالى: أنه يُحاسِبُ ويزنُ في أقلَّ من طَرفةِ عَيْن أكثرَ من ألفِ ألف وكلُّ يظُنُّ أنه لم يُحاسَبْ إلّا هو، ودليلُ ذلك أنّ عَزْرائيلَ عليه السلامُ يقبضُ أرواحَ العالَمَ كلِّه فيقبضُ في ساعةٍ واحدة ما لا يُحصِي عددَهُ إلّا الله، وهو مخلوقٌ عاجز، ولولا أنّ اللهَ أقدَرَه على ذلك وأمدَّه بقدرتِه لَما قَدَر على قبض رُوح ذُباب(٢)، فما ظنُّك بالخالقِ القادر الذي سمَّى نفسَهُ بأسرع الحاسبين(٣)؟

أخرَجَ البيهقيُّ(٤)، من طريق أبي أُمامةَ، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "يُجمَعُ الناسُ في صعيدٍ واحد، فما مِن رجلٍ أمَّ قوماً على هُدًى أو دعاهم إلى

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/ ٥٦٣، والإحياء ٤/ ٥٠٩.

(٢) كذا، بالجمع.

(٣) وهو قوله تعالى: {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [الأنعام: ٦٢].

(٤) لم أقف عليه.

الرَّشَدِ فأطاعوهُ إلّا أمَرَ اللهُ ملائكةَ الرَّحمة أن يدْعُوهُ إليه بأحبِّ أسمائه عليه، حتى إذا قام بينَ يدَي الله تعالى قال: مرحباً بك، فإنّ لك عندي كلَّ ما يسُرُّك، فنِعمَ العملُ عملُك، كنتَ تدعو(١) خَلقي وتُرشدُهم إلى ما يُرضيني عنهم، فيأمُر ملائكتَهُ أن يُتوِّجوهُ بتاج الكرامة ويَكسُوهُ من حُلَل العزِّ، ثم يأمُرُ له بلواءٍ من نُور ويُجزلُ له في العطاء، ثم يقولُ لهُ: بشِّرْ أتباعَك لكلٍّ منهم مثلُ الذي لك، فينصرفُ إليهم، فإذا رأَوْهُ مُقبِلاً قالوا: اللهُمَّ باركْ لنا في هذا المُقبِل، فإنْ دَنا منهم قال لهُم: أبشِروا ببِشارة الله، فإنه يقولُ لكم: إنّ لكلِّ واحدٍ منكم مثلَ ما لي، فيقولونَ لهُ: وجهُكَ مَن بشَّر بخيرٍ ودعا إليه، وإن كان إمامَ ضَلالةٍ بَعَث ملائكةَ العذاب فأخَذوا بناصيتِه يقودونَهُ، حتى إذا أقاموهُ بينَ يدَي الله تعالى قال اللهُ لهُ: سُحقاً لكَ وبُعداً! كنتَ تدعو الناسَ إلى الضَّلال وما يُسخطُني عليهم، فقد سَخِط عليكَ وعليهم، فيقولُ لملائكةِ العذاب: توِّجوهُ بتاج اللّعنةِ وسِربالِ الخِزي وائتُوه بلواءِ الغضَب، فيأتوه(٢) بلواءٍ أسودَ مُظلِم مُنتِنِ الرائحة، فيأخذوهُ، فينقلبُ إلى أصحابِه وقدِ اسوَدَّ وجهُه كالقار، ثم يقالُ له: بشِّرْ أتباعَك أنّ لكلِّ واحدٍ منهم من الخِزي والهَوان والعذاب مثلَ الذي لك، فينصرفُ إليهم، فإذا رأَوْهُ قالوا: اللهُمّ لا تباركْ لنا في القادم إلينا، حتى إذا دَنا منهم أثنَوْا عليه شرًّا، ثم يقولُ لهم: سحقاً لكم

---

(١) بعده في النسخة: "إلى"، وهو سبق قلم.

(٢) كذا في النسخة في هذا الفعل والأفعال الآتية بعده والفصيح فيها جميعاً ثبوت النون غير أن المصنف رحمه الله يقولها على مذهبه في التساهل والانتقال إلى العامية أحياناً.

وتَعْساً، فإنّ اللهَ يُبشِّرُكم أنّ لكلِّ واحدٍ منكم منَ الخِزي والهَوان مثلَ الذي أوتيتُهُ، وذلك معنى قولِه تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [الإسراء: ٧١].

ثم إذا خَلصوا من أهوال المحشَرِ والصِّراط شربوا كلُّهم من حوض النبيِّ صلى الله عليه وسلم الثاني الذي بينَ الجنّةِ والصِّراط، فتشربُ منه أُمّتُه وغيرُها من الأُمم، إذْ حِياضُ الرُّسُل قد خَلَّفوها في المَحشر، إذ ليس لهم إلّا حوضٌ، ورسُولُ الله صلى الله عليه وسلم له حوضان: حوضٌ قبلَ الصِّراطِ لا يشربُ منهُ إلّا أُمّتُه ويُذادُ عنه مَن بدَّل وغيَّر من أُمّتِه. والثاني: لا يُذادُ عنه أحدٌ؛ لأنّ الصِّراطَ لا يُجاوزوهُ[1] إلّا الناجونَ من سائرِ الأُمَم، فتصيرُ الأُمَمُ وأنبياؤها حينئذٍ أضيافَه، إذِ الكلُّ في الحقيقة أُمّتُه، كما يشهدُ لذلك حديثُ ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان يومُ القيامة جَمَع اللهُ الخلائقَ في صعيدٍ واحدٍ يَنفُذُهمُ البصَر ويَبلُغُهمُ الصَّوتُ فيحاسبُهم، فإذا فَرَغوا نادى منادٍ من قِبَل الله سبحانَه أنْ: يا آدمُ، ضُمَّ التائبينَ إليك، ويا نوحُ ضُمَّ الشاكرينَ إليك، ويا إبراهيمُ ضُمَّ الأسخِياءَ إليك، ويا إسماعيلُ ضُمَّ الصادقين إليك، ويا يعقوب ضُمَّ أصحابَ البلاءِ إليك، ويا داودُ ضُمَّ القُرّاءَ إليك، ويا سليمان ضُمَّ أهلَ العدل إليك، ويا موسى ضُمَّ المخلصينَ إليك، ويا هارون، ضُمَّ الخيار إليك، ويا زكريا ضُمَّ المُحبِّينَ إليك، ويا يحيى ضُمَّ الزاهدينَ إليك، ويا عيسى ضُمَّ السائحينَ

---

(١) كذلك.

إليك، ثم يُنادي مُنادٍ: يا معشرَ الأنبياءِ ومَن معَهم، ادخُلوا تحتَ لواءِ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم، ثم يُنادي مُنادٍ مِن قِبَل الله تعالى: أنْ يا محمّدُ ضُمَّ العارفينَ إليك، يا أبا بكر ضُمَّ المتَّقينَ إليك، يا عُمرُ ضُمَّ الآمِرينَ بالمعروفِ والناهينَ عن المُنكرِ إليك، يا عثمان ضُمَّ الصابرينَ إليك، يا عليُّ ضُمَّ المجاهدينَ إليك، ويا سِبطَيْ أحمد ضُمَّا الشُّهداءَ إليكما، ويا أصحابَ محمدٍ ضُمُّوا الصالحينَ إليكم، فيبقى العُصاةُ من أُمّتي وقوفًا، فإذا أبصَروا الأفواجَ قد مَضَتْ والمواكبُ قد صارتْ ضَجُّوا بالبكاءِ فقالوا: يا ويلَنا! قد مَضَتْ مراكبُ الفائزينَ وبقينا بعدَهم حَيارَى مُنقطِعين، فما لنا من شافعينَ ولا صديقٍ حَميم، فينظرُ اللهُ إليهم بعين رحمتِه فيُناديهم: أنا رحيمُ مَن لا رحيمَ له، وحميمُ مَن لا حَميمَ له، أنا جابرُ المُنكسِرين، أنا أنيسُ المُستوحِشين، ثم يَعقِدُ لهم لواءً مكتوباً عليه أُمّةٌ مُذنبة وربٌّ غَفور"، أخرجهُ البيهقيُّ في "الضُّعفاء"(١).

فحينئذٍ يتذكَّرُ كلُّ حَميم حميمَهُ، وكلُّ خليل خليلَهُ، وكلُّ عَشِير عشيرتَه، وكلُّ مُقرَّبٍ قومَه، فيؤذَنُ لهم في الشَّفاعة، فتشفعُ الملائكةُ ثم الرُّسُلُ ثم النبيُّون ثم الصِّدِّيقون ثم الشُّهداءُ ثم الصالحونَ ثم سائرُ المؤمنينَ على قَدْر درجاتِهم، فمنهم مَن يشفعُ في جميع معارفِه، ومنهم مَن يشفعُ في جميع مَن أحسَن إليه، حتى يمُرَّ الرجُلُ بالرجل فيقولُ له: يا فلان، أما تذكُر يومَ أعطيتُكَ الماءَ لوضوئك؟ فيقول:

---

(١) ينظر: كشف الخفاء (٥٩٣).

ذلك أنت؟ فيقولُ: نعم، فيشفعُ له لذلك، ومنهم مَن يشفعُ فيمَن قدِ استوجبَ النارَ من قومِه، ومنهم من يشفعُ في أهل بيتِه، ومنهم من يشفعُ في خليلِه، والوالدُ لأولادِه إلى سبعة، والولدُ في آبائه إلى سبعة.

قال اللهُ تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور: ٢١]، قال عليٌّ كرَّم الله وجهَه في معنى الآية: ألحقْنا بهم أبناءهمُ الكبارَ بإيمانِهم بأنفسِهم والصِّغارَ بإيمان آبائهم؛ لأنّ الولدَ الصغيرَ يُحكَمُ بإيمانِه تبَعاً لأحدِ الأبويْن. قال ابنُ عبّاس: يُلحقُ اللهُ بالمؤمنين من الأبناءِ درجاتِ الآباء وإن يبلُغوا ذلك بأعمالِهم تكرِمةً لآبائهم لتقَرَّ بذلك أعيُنُهم، وفي روايةٍ أخرى عنهُ أنّ معنى الآية {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ} يعني: البالغينَ {بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ} ذُرِّيّاتِهمُ الصِّغارَ الذين لم يبلُغوا الإيمان بإيمانِ آبائهم.

أخبرَ اللهُ تعالى أنه يجمعُ لعبِده المؤمن ذُرّيّتَهُ في الجنّة كما كان يُحبُّ في الدُّنيا أن يُجمَعوا عليه، فيُدخلُهم اللهُ الجنّةَ بفضلِه ويُلحقُهم بدرجتِه من غير أن ينقُصَ الآباءَ من أعمالهم شيئاً، وذلك قولُه تعالى: {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}، يعني: ما نقَصنا الآباءَ من أعمالِهم شيئاً.

عن ابن عبّاس، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ تعالى يرفعُ ذُرّيّةَ المؤمن في درجتِه وإن كانوا دونَه في العمَل لتقَرَّ بهم عينُه"، [و] قال

رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ المؤمنين وأولادَهم في الجنّة، وإنّ المشركينَ وأولادَهم في النار". أخرجَ هذيْنِ الحديثيْن البَغَويُّ بإسناد الثعالبيّ(١).

حتى إذا انتهتْ شفاعةُ الشافعينَ أخَذ اللهُ بيدِه ممَّن لم يعملْ عملاً صالحاً فقلَّدهم أطواقاً من نُور ثم أدخَلَهمُ الجنّة، فيُميَّزون بينَ أهل الجنة بتلك الأطواق، فيقول: هؤلاءِ عُتَقاءُ الرَّحمن.

ثم إنّ جميعَ الشُّفعاء يذهبونَ بالمُشفَّع(٢) فيهم، حتى إذا أتَوْا عينَ الرَّحمة شربوا واغتَسلوا منها فتزدادُ نضْرتُهم ويَتِمُّ سرورُهم وبهجتُهُم، فحينئذٍ يُنشئُ اللهُ أهلَ الجنة إنشاءً، فيكونونَ على طُول آدمَ عليه السلامُ وسنِّ عيسى وحُسن يوسُف وخُلُق محمدٍ صلى الله عليه وسلم ولُغتِه، وتصيرُ العجائزُ أبكاراً والشيوخُ شُبّاناً، ثم يمُرُّون على عينٍ على بابِ الجنّة فيشربونَ منها، فينزعُ اللهُ ما في قلوبِهم من غِلّ. قال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنهُ: إذا سَبَقوا إلى الجنة فانتهَوْا إليها وَجَدوا عند بابِها شجرةً تخرُج من تحتها عينان، فيغتسلُ المؤمنُ من إحداهما فيُشرقُ ظاهرُه نُوراً، ويشربُ من الأخرى فيَطهُرُ باطنُه من كلِّ غِلٍّ وحقدٍ وحسَدٍ وغيرِ ذلك من لوازم البشريّة، وذلك قوله تعالى: {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان: ٢١].

---

(١) طالع: تفسير عبد الرزاق ٣/ ٢٤٥ (٣٠٠٩) وعلل الحديث، لابن أبي حاتم ٤/ ٦٢١ (١٦٨٣)، ومسند أحمد (١١٣١)، الأخير عن علي، وإسناده ضعيف.

(٢) في النسخة: بالمشفعين فيهم، فإن لم تكن لحنًا من الناسخ كان مجراها على عامية كلام المؤلف رحمه الله.

{حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧٣].

فإنْ قلتَ: لمَ قال في أهل النار: {فُتِحَتْ} [الزمر: ٧١] من غير واوٍ وهنا زادَ حرفَ الواو، فما الفرقُ؟ قلتُ: فيه وجوه، أحدُها: أنها زائدة، والثاني: أنها واوُ الحال معناهُ: وفتحت أبوابُها، قالوا: ولبيان أنها كانت مُفتَّحةً قبلَ مجيئهم إليها، وحُذِفتِ الواوُ في الآيةِ الأولى لبيانِ أنّ أبوابَ جهنَّم كانت مُغلقةً قبلَ مجيءِ الأشقياءِ إليها.

ووجهُ الحِكمة في ذلك أنّ أهلَ الجنة إذا جاءوها ووَجَدوا أبوابَها مُفتَّحةً حَصَل لهمُ السُّرورُ والفرحُ بذلك، وأهلُ النار إذا رأوْها مُغلقةً قبلَ مجيئهم ثم فُتِحت عندَ مجيئهم كان نوعَ ذُلٍّ وهوان.

ورُوِيَ أنهم يُحبَسونَ عندَ بابِ الجنّة حتى يُقتَصَّ لبعضِهم من بعض ويُنصفَ اللهُ بعضَهم من بعض، فإذا فَحَصُوا قال لهم رضوانُ خازنُ الجِنان: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمر: ٧٣].

إلّا أنّ الشُّهداءَ والسبعينَ ألفاً الذين يَدخلونَ الجنّةَ بغير حساب، وهمُ الذين "لا يَرقُونَ ولا يَستَرْقُون وعلى ربِّهم يتوكَّلون"(١)- ورَوى أبو هريرةَ، عن رسُول

(١) مسلم ٣٧١- (٢١٨) عن عمران بن حصين.

الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "معَ كلِّ واحدٍ من السبعينَ ألفاً سبعونَ ألفاً وفقراءُ المهاجرين"[١]- فيجدونَهم قد سبقُوهم إلى الجنّة بمقدار خمسِ مئة عام.

فإنْ قلتَ: يُفهَمُ من هذا أنهم يدخلونَ قبلَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقد ثَبَت عنهُ في الصِّحاح[٢] أنه أولُ من يَقرَعُ بابَ الجنّة فتستقبلُه امرأةٌ سَفْعاءُ الخدَّيْن فيقولُ لها: "كيف سبقتِني إلى الجنةِ يا أَمَةَ الله؟"، فتقولُ لهُ: إنّي امرأةٌ حَبَستُ نفسي على أيتام لي تركتُ شهوتي من أجلِهم وحَبَستُ نفسي عليهمُ ابتغاءَ مَرْضاةِ الله وشفَقةً عليهم، فيُحتمَلُ أنه صلى الله عليه وسلم يقرَعُ بابَ الجنّة حتى يَدخُلَ هؤلاء ثم يرجعُ إلى السَّوادِ الأعظم لكي يشفعَ الشفاعةَ الخاصَّةَ والعامّة؛ لأنّ اللهَ حرَّم الجنّةَ على الأنبياء حتى يَدخلَها، وعلى الأُمم حتى تدخلُها أُمّته، رواه الشيخانِ[٣] وغيرُهما.

ثم يدخُلُ السَّوادُ الأعظم والجَمُّ الغفيرُ من أُمّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فيتبوَّأونَ منها حيث يشاؤون.

ولكلِّ واحدٍ منهم جنّةٌ تخُصُّه يتبَوَّأُ منها حيث يشاء، لسَعتِها.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) مسلم ٣٣١- (١٩٦).

(٣) كذا قرر المصنف رحمه الله، وقطع بصحة ذلك ابن القيم في كتاب "الروح"، ص ٤٤، ولم أقف عند الشيخين على متن بهذا اللفظ الذي قرراه.

ثم يسكنُ سائرُ الأُمَم فيما فَضَل عنهم، وكلٌّ له من قُرّة العينِ والنَّعيم ما لا يُظَنُّ أنّ فوقَه مزيد، إلّا أّن الفاضلَ يرى ما فَضَل به والمفضولُ لا يرى أنّ أحداً أفضلُ منه فيما أوتيَهُ من النَّعيم فلَأحدُهم أهدى إلى منزلِه من الجنّة من أحدِكم إلى منزلِه في الدُّنيا حين يَنشُدونَ دخولَ الجنّةِ والحُورُ والوِلدانُ على الغُرفِ يرتقبونَ دخولَ أولياءِ الله وقد أعلَقَهم الشَّوق والتَّوق رغبةً في لقائهم، فيُسبَقُ مِن أفضلِهنَّ فتُعانقُه قدْرَ سنةٍ وقد سار بها سريرُها وأريكتُها في تلك الخَيْمةِ المقصورة بها أكثرَ من ميل للقائه، وهي من دُرّةٍ مُجَوَّفة يُرى ظاهرُها من باطنِها وباطنُها من ظاهرِها وسَعتُها سبعون في سبعينَ وارتفاعُها مثلُ ذلك، ثم تُرسَلُ إليه الأُخرى وتقولُ له: وأين نصيبي يا حبيبي منك، فقد طال شوقي إليك؟ فيأتيها في أسرعَ مِن طَرْفةِ عيْن، وكلَّما جامَعَ واحدةً منهُنَّ عادتْ إليها بَكارتُها.

فهم بينَ نعيم مُقيم وزيادة، ونظرٍ إلى الكريم وزيارة، وكلّما حان وقتُ صلاةٍ من الخمس أتتْهم ملائكةُ الرَّحمن بالتُّحَف والهدايا التي إنّما قال لها اللهُ: كوني فكانت، وهي أشرفُ وأفضلُ من جميع ما في الجنّة من النَّعيم، وبكلِّ ما زاد منَ الصَّلواتِ على الفرائض زيدَ لهُ من التُّحَفِ والهدايا بحَسَبِها، والملائكةُ حافُّونَ من حول العَرْش يُسبِّحونَ بحمدِ ربِّهم تسبيحَ تلذُّذ وتشريف لا تسبيحَ تعبُّدٍ وتكليف.

وأمّا أهلُ النار فيأتونَها مُغلَّقةً أبوابُها، فتفتحُها الزَّبانيَة، فيأخُذُهم لهَبُها ونتَنُها، فيهُمُّون بالوقوفِ فتدفعُهمُ الزَّبانيَةُ بمقامعَ من حديد، قال صلى الله عليه وسلم: "فوالذي نفسُ محمدٍ بيدِه، إنّ الواحدةَ من تلك المقامع لَتُلقي في النار في دَفْعةٍ واحدة أكثرَ من ربيعةَ ومُضَر"[١]. فإذا ضَجُّوا قالتْ لهم خَزَنتُها: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} ومن جنسِكم {يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} وذلك على وجهِ التوبيخ والتبكيت {قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الزمر: ٧١]- وهي قولُه تعالى: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: ١١٩]- {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمر: ٧٢].

ثم ذَكَرهمُ اللهُ عندَ دخولِ النار بما هو أشدُّ ممّا تقدَّم، وهو قولُه تعالى لهم: {ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} من أهل مِلَّتِها في الدِّين لا في النَّسَب. قال السُّدّيُّ: كلَّما دَخَلت طائفةٌ من أهل ملّةِ النار لَعَنوا أصحابَهم على ذلك الدِّين، فيلعَنُ المشركونَ المشركين واليهودُ اليهودَ والنَّصارى النَّصارى والصابئون الصابئينَ والمَجُوسُ المجوس، وتلعنُ الآخرةُ الأُولى، {حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا}، يعني: تلاحقوا واجتمَعوا في النارِ جميعاً وأدرك بعضُهم بعضاً واستقرُّوا، {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ

---

(١) لم أقف عليه.

{لِأُولَاهُمْ}، قال ابنُ عباس: يعني آخرَ كلِّ أُمةٍ لأُولاها، وقال السُّدّيُّ: {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ } الذين كانوا في آخرِ الزمان {لِأُولَاهُمْ} الذين شَرَعوا لهم ذلك الدِّينَ، وقال مقاتلٌ: يعني: {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ } دخولاً النارَ، وهمُ الأتباع {لِأُولَاهُمْ} دخولاً وهمُ القادةُ؛ لأنّ القادةَ يدخلونَ النارَ أولاً: {رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا} وزَيَّنوا لنا طاعةَ الشَّيطان، وقيل: إنّما قالت[1] المتأخِّرونَ ذلك لأنّهم كانوا يعتقدونَ تعظيمَ المتقدِّمينَ من أسلافِهم، فسَلَكوا سبيلَهم في الضَّلالةِ واتَّبعوا طريقَهم فيما كانوا عليه من الكُفر، فلمّا كان يومُ القيامة وتبيَّن لهم ما كانوا عليه {رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا}؛ لأنّا اتَّبعنا سبيلَهم، {فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ} أي: أضعِفْ عليهمُ العذاب.

قال أبو عُبَيدةَ: الضِّعفُ هو مِثلُ الشيءِ مرّةً واحدة.

وقال الزُّهْريُّ: الذي قالهُ أبو عُبَيدة هو ما يستعملُه الناسُ في مجازِ كلامِهم، وأمّا كتابُ الله فهو عربيٌّ مُبين، ويرُدُّ تفسيرَه إلى وَضْع كلام العرب، والضِّعفُ في كلامِهم: ما زاد وليس بمقصورٍ على مِثْلَيْن، وجائزٌ في كلام العرب: هذا ضِعفُه، أي: مِثلاهُ وثلاثةُ أمثالِه؛ لأنّ الضِّعفَ في الأصل: زيادةٌ غيرُ مقصورة، وأَوْلى الأشياءِ بهِ أن يُجعَلَ عشَرةَ أمثالِه، فأقلُّ الضِّعف محصورٌ وهو المِثْل، وأكثرُه غيرُ محصور.

---

(١) كذا في النسخة، وهو من فساد النساخ.

وقال الزَّجّاجُ في تفسيرِ هذه الآية: {فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا} أي: مضاعفاً؛ لأنّ الضِّعفَ في كلام العربِ على ضربيْن، أحدُهما: المِثل، والآخرُ: أن يكونَ في معنى تضعيفِ الشيء، أي: زيادتُه دونَ حَصْر.

{قَالَ} اللهُ مُجيباً لهم على وجهِ التبكيتِ والتنكيل: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ}: لأُولاكُم ضعفٌ ولأُخْراكُم ضعف، معناهُ: للتابع والمتبوع ضِعفٌ؛ لأنهم دَخلوا في الكُفر جميعاً، {وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٨] ما أَعَدَّ اللهُ لكلِّ فريق من العذاب. وقُرئ بالياء، ومعناهُ: ولكنْ لا يَعلَمُ كلُّ فريقٍ ما أَعَدَّ اللهُ للفريق الآخَرِ منَ العذاب.

{وَقَالَتْ أُولَاهُمْ} في الكُفر، وهمُ القادةُ {لِأُخْرَاهُمْ} وهمُ الأتباعُ {فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ}؛ لأنكم ضَلَلْتُم كما ضَلَلْنا وكفرتُم كما كفرنا. وقيل في معنى الآية: وقالتْ كلُّ أُمّةٍ سَلَفتْ في الدُّنيا لأُخراها التي جاءتْ من بعدِها فسَلَكتْ سبيلَ مَن مضَى قبلَها: {فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ} وقد عَلِمتُم ما حلَّ بنا من عقوبةِ الله بسببِ كُفرِنا ومعصيتِنا إياه، وجاءتكم بذلك الرُّسُلُ والنُّذُر، فما رَجَعتُم عن ضلالتِكم وكُفرِكم وما اتَّعظتُم بما وَقَع بنا من قِبَلِكم فكففتُم عن الكُفر والمعاصي {فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} [الأعراف: ٣٩].

ثم قال: {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ} أي: فراشٌ من نارِ جهنَّم، {وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} وهو: ما يغشاهم ويحيطُ بهم من لَهَبِها وأليم عذابِها، {وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ٤١]: نكافئُ ونُثيبُ المشركينَ الذين وَضَعُوا العبادةَ في غير مَوضِعِها.

ومن هذا النمطِ قولُه تعالى: {هَذَا} أي: الأمرُ الذي ذكرْناهُ {وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ} أي: المُجاوِزينَ الحدودَ {لَشَرَّ مَآبٍ} [ص: ٥٥]، أي: مرجِع يرجِعونَ إليه، ثم بيَّنه تعالى فقال: {جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا}: يدخُلونَها، ثم وَصَفَها تأكيداً وتهويلاً، فقال: {فَبِئْسَ الْمِهَادُ} [ص: ٥٦]، بِئسَ: فعلٌ جامدٌ مأخوذٌ من البُؤس، وهو كلُّ ما يُحزِنُ ويُشوِّهُ البَدَن. {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ} [ص: ٥٧]، أي: هذا حميمٌ، وهو الماءُ الحارُّ، والغَسّاقُ: الزَّمهَريرُ يَحرقُهم ببَرْدِه كما تَحرقُهمُ النارُ بحَرِّها، أو: ما يسيلُ من القَيْح والصَّديد من فروج الزُّناة، أو عينٌ في جهنَّم، {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [ص: ٥٨] أي: وعذابٌ آخَرُ غيرُ ما ذُكِر لا تبلُغُ كُنهَه العبارة، إذْ ليس في الدُّنيا ما يدُلُّ عليه، أصنافٌ لا تُحَدُّ، منها: السُّمُّ يتَحسَّوْنَهُ، والآنُكُ والصَّبر والرّصاصُ المُذاب.

ثم تقولُ الزَّبانيَةُ لقادةِ أهل النار إذا دَخَلوها: {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ} مُكرَهونَ على الولوج لضربِ الزَّبانيةِ إيّاهم بالمقامع حتى يقتحمُوها بأنفُسِهم خوفاً منَ المقامع، قالتِ القادةُ: {لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ} [ص: ٥٩]، أي: دَخَلوها كما صَلَيْناها نحنُ، {قَالُوا} أي: الأتباعُ للقادة {بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا} [ص: ٦٠] أي: سنَنتُم لنا الكُفرَ والضَّلالَ حتى اتَّبعناكُم فيما

استوجَبْنا بسببِهِ النارَ وبدُعائكم إيانا إليه، {فَبِئْسَ الْقَرَارُ} [ص: ٦٠]، وإنما كرَّرهُ[١] للتهويل.

{قَالُوا} يعني: الأتباعَ {رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا} أي: سَنَّهُ وشَرَعَهُ لنا {فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ} [ص: ٦١] أي: أضعِفْ عليه العذابَ في النار، قال ابنُ مسعود: بأنْ تُسلَّطَ عليه عقاربُ وحيّات.

{وَقَالُوا}- يعني: كفّارَ قُريش وصَناديدَها وهم في النار-: {مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ} [ص: ٦٢] يَعنُونَ بذلك نَفَراً من المؤمنين، مثلَ: صُهَيْبٍ وبلال وعمّارٍ وخَبّابٍ وسلمانَ، وإنما سَمَّوْهم أشراراً لفقرِهم وسُوءِ حالِهم في الدنيا {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ} [ص: ٦٣]، فلمَ لم يدخلوا معَنا أهم خيرٌ منّا كما كانوا يزعُمونَ في دار الدُّنيا أم دَخَلوها مثلَنا فزاغتْ عنهم أبصارُنا لِما نجدُ فيه من الدَّهَشِ والعذاب؟ فتجيبُهم زبانيَةُ العذاب فيقولونَ: أولئك ملوكُ الجنّة، إنّهم في النَّعيم المُقيم معَ النبيِّ الكريم، فيزيدُهم ذلك غَمًّا إلى غمِّهم.

ومن ذلك قولُهُ تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا} عُظماءَ في الدّنيا {يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا} يعني: أصحابَ الأعرافِ، لهؤلاءِ الذين عَرَفوهم في النار: {مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأعراف: ٤٨] أي: وما

---

(١) يعني: بئس.

أغنى عنكُم تكبُّرُكم عن الإيمانِ شيئاً. قال الكَلْبيُّ: ينادونَهم وهم على السُّور: يا وليدُ يا أبا جهل يا عُتبةُ يا شَيْبة، ثم ينظرونَ إلى الجنّةِ فيَرَوْنَ فيها الفقراءَ والضُّعفاءَ ممَّن كانوا يستهزئونَ به، فيقولُ لهم أصحابُ الأعراف: {أَهَؤُلَاءِ} الضُّعَفاء {الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ} في دارِ الدُّنيا قد دَخَلوا الجنّةَ برحمةِ الله فهُم فيها يتنعَّمونَ ملوكاً على الأسِرّة تَغشاهمُ الملائكةُ بالهدايا والتُّحَف من عندِ الله تعالى، فلَذلك أشدُّ عليهم غمًّا من دخول النار. ثم يقولُ اللهُ تعالى لأصحابِ الأعراف: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ} بفَضْلي ورحمتي {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} [الأعراف: ٤٩].

انتهت مُخاصَمةُ أهل النار فيما بينَهم وفيما بينَ أهل الأعراف، ثم استأنَف الكلامَ على أهل النار بعدَ المُكثِ فيها وطُول الخلودِ بقولِه تعالى حكايةً عنهم: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} [إبراهيم: ٢١].

أخرج البيهقيُّ في مُسندِه(١)، عن رسُول الله صلى الله عليه وسلم، [قال](٢): "إنّ أهلَ النار يبكونَ الدّمعَ حتى ينفَد، ثم يبكونَ الدَّمَ حتى ينفَد، ثم يبكونَ القَيْحَ والصَّديدَ، حتى أنه لو أُجْرِيتِ السُّفُنُ فيما يَفيضُ من عيونِهم لجَرت".

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) زيادة مستحسنة على طريقة الرواة.

وقال مُقاتل[1]: يقولُ أهلُ النار: تعالَوْا نجزَعْ، فيَجزَعونَ خمسَ مئةِ عام فلا ينفَعُهمُ الجَزَعُ، ويقولون: تعالَوْا نصبِرْ، فيصبِرونَ خمسَ مئةِ عام فلا ينفعُهم الصَّبر، فعندَ ذلك يقولون: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا} الآيةَ.

وقال محمدُ بن كعبٍ القُرظيُّ[2]: بَلَغني أنّ أهلَ النار يستغيثونَ بالخَزَنة، كما قال اللهُ تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٩]، فترُدُّ الخَزَنةُ عليهم: {أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى}، فتقولُ لهم الخَزَنةُ: {فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [غافر: ٥٠]. فإذا يَئسوا {نَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}، فلا يُجيبُهم ثمانينَ سنةً كلُّ يوم منها كألفِ سنةٍ مما تعُدُّون، ثم يُجيبُهم بقولِه: {إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [الزخرف: ٧٧].

فصلٌ: في تخاصُم إبليسَ وحِزبِه في النار، وتبرِّي بعضِهم من بعض

رُوي أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم إذا فُرغَ من الحسابِ وامتاز المُجرمون، خَطَب الجميعَ، فأثنَى على ربِّه بما هو أهلُه وذَكَر فضلَ الأنبياءِ والمؤمنين، ثم يُثْني على نفسِه بما أسدَى إلى الجميع منَ الشَّفاعةِ العامّةِ والخاصّةِ واللِّواءِ المحمود

(١) في تفسيره ٢/ ٤٠٣.

(٢) صفة النار، لابن أبي الدنيا (٢٥١).

والمقام المشهود وما أزال اللهُ به عنهُم منَ الكَرْب والغمِّ والدَّهَش، فيُثْنُونَ عليه ويحمَدونَه ويُقِرُّونَ بفضلِه وشَرَفِه عليهم.

فإذا رأى الأشقياءُ ذلك والمجرمونَ اجتَمعوا على إبليسَ فقالوا لهُ: إنك رأسُنا وقائدُنا كما أنّ محمداً رأسُ السُّعَداء وقائدُهم، فهلُمَّ فانفَعْنا بشيءٍ كما نَفَع محمدٌ أتباعَهُ وأشياعَه، واخطُبْنا كما خَطَبَهم، فإنّ هذا يومٌ عظيم وخَطْبٌ جَسيم.

فبيَّن اللهُ تعالى قولَه لهم في كتابِه العزيز وكيف أفحَمَهم ثم أسلَمَهم ليَعتبرَ مُعتبر وليتذكَّرَ مُدَّكر، فقال تعالى حكايةً عنه: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ} بدخول أهل الجنّةِ الجنّةَ وأهل النارِ النارَ فأخَذ أهلُ النار يوبِّخونَه ويلومونَهُ ويُقرِّعونَه رجاءَ أن يكونَ عندَه غَناءٌ عنهم، فقال مُجيباً لهم: {إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ} فيه إضمارٌ تقديرُه: وصَدَقَ وعدَهُ، {وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ} يعني: الوعدَ أو: القولَ، حيث قلتُ لكم: لا جنّةٌ ولا نار، ولا بعثٌ بعدَ الموت ولا عقابٌ على جَريرةٍ، ومنَّيْتُكم أمانيَ كاذبةً بدخول الجنةِ من غير عمل، اتّكالًا على فضل الله ووُسْع رحمتِه، تمويهًا واستدراجًا، {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} أي: من ولايةٍ وقهر، ولم آتِكُم بحُجّةٍ فيما وعدتُكم به وزيَّنتُ لكم {إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ} لكنْ دعوتُكم دعاءَ العدوِّ لعدُوِّه، فلا تمنعُكم عداوتي السابقة من إجابةِ دعوتي لكمُ اللاحقة لغفلتِكم وذُهولِكم وسخافةِ عقولِكم وخُبثِ نفوسِكم، {فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} معَ ذلك وقد أنذَركم ربُّكم بجميع ما هنالك، {فَلَا تَلُومُونِي} فإنّما أنا عدوٌّ مُكابِر

ومُغوٍ مُعانِد ومتحسِّسٌ رائد، إن وجدتُ الفرصةَ اقتَحَمتْ، وإن طُرِدتُ انهَزَمتْ، {وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ} الغاويةَ المُستحوِذةَ الهاوية، فإنه ما كان منّي إلّا الدُّعاءُ وإلقاءُ الوَسْوَسةِ والإغواء، والله يفعلُ ما يريدُ ويحكُمُ ما يشاء، وقد سمعتُم دلائلَ الله إذْ جاءتكم رُسُلُه بالبيِّنات، وكان منَ الواجبِ عليكم أنْ لا تلتفتوا عليَّ ولا تسمَعوا، فلمّا رجَّحتُم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللَّومُ بكم أوْلى بسببِ إجابتي من غيرِ حُجّةٍ ولا دليل {مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ} أي: بمُغيثِكم ولا مُنقذِكم معَ التمكُّن ومَلَكتِكم لأنها بُغيتي ومطلوبي ومُنْيتي {وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} إذا قد شاركتُموني في الخِزي والهَوان واللّعنةِ والحرمان، {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ}، وهذا دليلٌ على كُفر القَدَريّةِ القائلينَ: إنّ اللهَ يَخلُقُ الخيرَ، والشياطينَ تَخلُقُ الشرَّ، وجَعْلِكم إيّايَ شريكاً له في عبادتِه، وتبرَّأتُ من ذلك، {إِنَّ الظَّالِمِينَ} أي: الضارِّينَ لأنفُسِهم بارتكابِ الشِّركِ والمعاصي، الذين تَركوا طاعةَ ربِّهِمُ الرَّحيم بهم الناصحِ لهم المُسْدي لهم جميعَ النِّعم، واتَّبعوا أمري، واستَحوَذْتُ عليهم بتمويهي وغَدري {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم: ٢٢].

فصلٌ: في تعظيم أمرِ القيامة وبيانِ أسمائها وأهوالِها

فهي: الطامّةُ الكبرى، والصاخّةُ، والقيامةُ، والساعةُ، والمُذهِلة، والحاقّةُ، والقارعةُ، إلى غير ذلك، قال اللهُ تعالى: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود: ١٠٣]، فجَمَع فيه الأوَّلونَ والآخِرونَ للحساب، والوقوف بينَ

يدَيْ ربِّ الأرباب، ويشهدُ له أهلُ السَّماءِ والأرض، والصّافُّونَ والحافُّونَ والعالَمُون، {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ} [هود: ١٠٤]، أي: إلّا إلى وقتٍ محدود، وذلك الوقتُ لا يعلمُه أحدٌ إلّا الله.

وحين يأتي ذلك اليومُ {لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ} [هود: ١٠٥] لشدّةِ الهول والدَّهَش والهيْبة، فلا يتكلَّمُ أحدٌ فيه إلّا بإذنِ اللهُ له في التكلُّم.

فإنْ قلتَ: كيف وجْهُ الجمع بينَ هذه الآية وبينَ قولِه: {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا} [النحل: ١١١] وبينَ قولِهِ إخباراً عن مُحاجّةِ الكُفّار بقولِهم: {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]، والأحاديثُ أيضاً تدُلُّ على الكلام في ذلك اليوم؟ قلتُ: يومُ القيامةِ يومٌ طويل وله أحوالٌ مختلفةٌ وفيه أهوالٌ عظيمة، ففي بعضِ الأحوال لا يَقدِرُون على الكلام لشدّةِ الهول وبلوغ القلوب الحناجرَ وكونِها هواءً، وفي بعض الأحوال يُؤذَنُ لهم في الكلام فيتكلَّمون، وفي بعضِها تُخفَّفُ عنهم تلك الأهوالُ فيُحاجُّونَ ويُجادِلونَ ويُنكِرون.

{فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [هود: ١٠٥]، وحقيقةُ السَّعادة: مُعاونةُ الأمورِ الإلٰهيّةِ للإنسان ومساعدتُها لهُ على فعل الخيرِ والصَّلاح وتيسيرُه لها. ثم السعادةُ على ضَرْبيْن: سعادةٌ دُنيَويّة، وسعادةٌ أُخْرَويّة، وهي السعادةُ العُظمى؛ لأنّ نهايتَها الجنّةُ وما هو أكبرُ منها. وكذلك الشَّقاوةُ على ضَرْبيْن: شقاوةٌ دُنْيَويّة، وشقاوةٌ أُخْرَويّة، وهي الشقاوةُ القُصوى؛ لأنّ نهايتَها النارُ وما هو أخطر.

فالشَّقيُّ من سبقتْ له الشَّقاوةُ في الأزَل، والسَّعيدُ من سَبقت له السعادةُ في الأزَل.

أخرجَ البيهقيُّ[١] من حديثِ عليٍّ بن أبي طالب، قال: كنّا في جِنازةٍ في بَقيع الغَرْقَد، فأتانا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فقَعَد وقَعَدْنا حولَهُ ومعَه مِخصَرةٌ، فنكَّس وجَعل يَنكُتُ بمِخصَرتِه، فقال: "ما منكم من أحدٍ إلّا وقد كُتِب مقعَدُه من الجنّةِ ومقعَدُه من النار" فقالوا: يا رسُولَ الله، أفلا نتَّكلُ على كُتُبِنا ونَدَعُ[٢] العملَ؟ فقال: "اعملوا، فكلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلق له، أمّا مَن كان من أهل السعادة فسنُيَسِّرُه لعمل أهل السعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاوةِ فسنُيَسِّرُهُ لعمل أهل الشقاوة"، ثم قرأ {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٥- ٦] الآيةَ.

ثم فسَّر أحوالَهما بقولِه: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [هود: ١٠٦]، الزَّفيرُ: ترديدُ الصَّوتِ في الصَّدر، والشهيقُ: إخراجُه من الصَّدر. {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ} قال الضَّحّاكُ: ما دامتِ السَّمواتُ والجنّةُ والنارُ وأرضُهما، إذْ لا بدَّ لأهل الجنّةِ والنار من سماءٍ تُظلُّهم وأرضٍ تُقِلُّهم، فكلُّ ما علاك وأظلَّك فهو سماء، وكلُّ ما يستقرُّ عليه قدمُك فهو أرض.

---

(١) رواه الشيخان: البخاري (١٣٦٢) و(٤٩٤٨)، ومسلم ٦- (٢٦٤٧).

(٢) وندعو، جريًا على لسان العامة.

وقال أهلُ المعاني: هذا عبارةٌ عن التأبيدِ كما في عادةِ العرب، فإنهم يقولونَ: لا أتيكَ ما دامتِ السَّمواتُ وما اختَلف الليلُ والنهار.

فقولُهُ تعالى: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} اختَلَف السَّلَفُ في معنى هذيْنِ الاستثناءيْن، فقال ابنُ عبّاس والضَّحّاك: الاستثناءُ الأوّلُ الذي في أهل الشَّقاء: يَرجِعُ إلى قوم من المؤمنينَ يُدخلُهم النارَ بذنوبٍ اقتَرفوها، ثم يُخرجُهم منها، فيكونُ استثناءً من غيرِ الجنس؛ لأنّ الذين أُخرجوا من النار سُعداءُ على الحقيقة، استثناهمُ اللهُ تعالى منَ الأشقياء.

ويدُلُّ على صحةِ هذا التأويل ما رُويَ عن جابر، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ يُخرجُ أقواماً من أهل النار بالشَّفاعة"- وفي رواية: "إنّ اللهَ يُخرجُ ناساً من النار"- فيُدخلهمُ الجنّةَ"، أخرجَهُ البخاريُّ ومسلم[١].

وعن أنس، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "يَخرُجُ من النار قومٌ بعدَ ما مسَّهم منها سَفْع، فيُدخَلونَ الجنّةَ، فيُسمِّيهم أهلُ الجنّة الجَهَنَّمِيِّين"، وفي رواية: "لَيُصيبَنَّ أقواماً سَفْعٌ من النار بذنوبٍ أصابوها عقوبةً، ثم يُدخلُهم اللهُ الجنّةَ بفضل رحمتِه، فيقالُ لهم: الجَهَنَّميُّون"[٢].

---

(١) البخاري (٦٥٥٨)، ومسلم ٣١٨- (١٩١)، وتمامه : "كأنهم الثعارير" قال جابر: ما الثعارير؟ قال "الضغابيس ...".

(٢) رواه البخاري (٦٥٥٩) و(٧٤٥٠).

وعن عِمرانَ بن حُصَيْن، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "يَخرُج قومٌ من النارِ بشفاعةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم فيَدخُلونَ الجنّةَ فيُسمَّوْنَ الجَهَنميِّين"[١].

وأمّا الاستثناءُ الثاني المذكورُ من أهل السعادة فيرجعُ إلى مدّةِ لُبثِ هؤلاء في النار قبلَ دخولِهمُ الجنَّةَ، فعلى هذا القول يكونُ معنى الآية: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} أن يُخرجَهم منها فيُدخلَهمُ الجنّةَ، {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هود: ١٠٧ - ١٠٨] أن يُدخلَهُ النارَ أو لا فيُخرجَهُ منها فيُدخلَه الجنّةَ.

فحاصلُ هذا القولِ أنّ الاستثناءَيْنِ يرجِعُ كلٌّ منهما إلى قوم مخصوصينَ في الحقيقة: سُعَداءَ أصابوا ذنوباً استوجَب لها عقوبةٌ يسيرةٌ في النار ثم يَخرجونَ منها فيدخُلونَ الجنّة؛ لأنّ إجماعَ الأُمّة قد انعَقد على أنّ مَن دَخَل الجنّةَ لا يُخرَجُ منها أبداً معتمدينَ على قولِه تعالى: {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر: ٤٨]، فهذا التأويلُ هو الصَّحيحُ الذي عليه جماهيرُ السَّلفِ من الصَّحابةِ والتابعين ومنِ اقتفى أثرَهم من جميع العلماءِ المحقِّقين. وقيل: إنّ الاستثناءيْنِ يرجعانِ إلى الفريقيْنِ: السُّعداءِ والأشقياء، والمعنيُّ بذلك مدّةُ تعميرِهم في الدُّنيا واحتباسِهم في البَرزَخ، وهو ما بينَ الموتِ والبعث، ومدّةُ وقوفِهم للحساب، ثم يُدخَلُ أهلُ الجنّة الجنةَ وأهلُ النارِ النار، فيكون المعنى: خالدينَ في الجنّةِ والنار إلّا هذا المقدارَ. وقيل: {إِلَّا مَا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٦٦).

شَاءَ رَبُّكَ} ممّا استثناهُ من هذا المقدار. وقيل: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} ممّا استثناهُ من الزيادةِ، فيكونُ المعنى: خالدِينَ فيها ما دامتِ السَّمواتُ والأرضُ سوى ما شاء ربُّكَ من الزيادةِ على ذلك، فهو كقولِك: لفلانٍ عليّ ألفٌ إلّا ألفيْنِ: أي: اللتين تقدَّمتا، وقيل: "إلّا" بمعنى الواو، وقد شاء ربُّك خلودَ هؤلاءِ في النار وهؤلاءِ في الجنّة، فهو كقولِه تعالى: {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا} [البقرة: ١٥٠] أي: ولا الذين ظلموا. وقيل: معناهُ: ولو شاء ربُّك لَأخرَجَهم عنها ولكنهُ لا يشاءُ لأنهُ حَكَم لهم بالخُلودِ فيها.

وقال الفراء[١]: هو استثناءٌ استثناهُ اللهُ ولا يفعلُه، كقولِه: واللهِ لَأضرِبنَّكَ إلّا إن أرى غيرَ ذلك وعزمَك أن تضربَه.

فهذه الأقوالُ في معنى الاستثناءِ ترجعُ إلى الفريقيْن، والصَّحيحُ هو التأويلُ الأول، ويدُلُّ عليه قولُه في آخرِ الآية: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هود: ١٠٧]، يعني: من إخراجِ مَن أراد منَ النار وإدخالِهمُ الجنّة.

فهذا على الإجمالِ في حال الفريقيْن، وأمّا على التفصيل فقولُه: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} في جانبِ الأشقياءِ يرجِعُ إلى الزَّفيرِ والشَّهيق، وتقديرُه: أن يُعيدَ حصُولَ الزَّفيرِ والشَّهيق معَ الخلود؛ لأنّ الأشقياءَ إذا دَخَلوا في الاستثناءِ وَجَب أن يحصُلَ هذا المجموعُ، والاستثناءُ في جانبِ السُّعداء يكونُ بمعنى الزيادة يعني: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} من الزِّيادةِ لهم من النَّعيم بعدَ الخلود.

---

(١) كما في تفسير البغوي ٤/ ٢٠١، وللإمام الطبري وجهة نظر أخرى في هذه المسألة اعتمادًا على رأي قتادة والضحاك، ينظر: تفسير الطبري ١٥/ ٤٨٤- ٤٨٥.

وقيل: إنّ الاستثناءَ الأولَ في جانب الأشقياءِ معناه: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} من إخراجهم من النارِ إلى البَرْد والزَّمْهَرير، وفي جانبِ السُّعداءِ معناهُ {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} أن يُرفعَ بعضُهم إلى منازلَ أعلى من منازل الجِنانِ ودرجاتِها.

ويدُلُّ على خلودِ أهل الجنّةِ في الجنة قولُه تعالى في جانبِ السُّعداء: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: ١٠٨] يعني: غيرَ مقطوع، وكلُّ ما ليس بمقطوع فهُو دائمٌ مستمرٌّ، قال ابنُ زيد[١]: أخبرَنا اللهُ بما يشاءُ لأهل الجنّة فقال: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}، ولم يُخبِرْنا بما يشاءُ لأهل النار.

رُوِيَ عن ابن مسعودٍ[٢] أنه قال: لَيأتيَنَّ على جهنَّمَ زمانٌ ليس فيها أحدٌ، وذلك بعدَما يلبَثون فيها أحقاباً. وعن أبي هريرةَ نحوُه[٣].

وهذا إن صحَّ عن ابن مسعودٍ وأبي هريرةَ فمحمولٌ- عندَ أهل السُّنة- على إخلاءِ أماكنِ المؤمنينَ الذين استوجَبوا النارَ من النار بعدَ إخراجِهم منها؛ لأنه ثَبَت بالدَّليل القاطع إخراجُ جميع الموحِّدينَ وخلودُ الكفّار فيها، أو يكونُ محمولاً

(١) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب (ت ١٨٢هـ)، وله ترجمة في تهذيب الكمال ١٧/ ١١٤، وتاريخ الإسلام ٤/ ٩٠٤ وسواه، وقوله هذا في تفسير الطبري الموضع السابق، وغيره.

(٢) فتح القدير، للشوكاني ٢/ ٥٢٧.

(٣) كما في الدر المنثور للسيوطي ٤/ ٤٧٨.

على إخراج الكفّار من حرِّ النار إلى برْدِ الزَّمهَريرِ ليزدادوا عذاباً فوقَ العذابِ الأوّل، واللهُ أعلمُ بحقائق الأمور.

ووَرَد أنّ جهنَّمَ خاصّةً تخلو من سُكّانِها، وهم أهلُ الكبائر من أُمّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ثم تخبو حتى يَنبُتَ في موضعِها شجرُ الجَرْجير. أخرجه ابنُ ماجة في الضعفاء(١).

ثم اعلمْ أنّ في القيامة محَلاًّ خارجاً عن الجنّةِ والنار سَكَت اللهُ عنه في هذه الآية، ثم بيَّنهُ في آية أخرى، وهو قولُهُ تعالى: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ} [الأعراف: ٤٦]، يعني: بينَ الجنّةِ والنار، وهو المذكورُ في قولِه تعالى: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد: ١٣].

قال مُجاهدٌ٢: الأعرافُ: حجابٌ بينَ الجنّةِ والنار. وقال السُّدّي٣: الأعرافُ: سُورٌ بينَ الجنّةِ والنار. وقال ابنُ عبّاس٤: الأعرافُ: جبالٌ بينَ الجنّةِ والنار يُشفَى منهما على كلٍّ من الدارَيْنِ، وساكنُهم يجدُ ريحَ الجنّة ونسيمَها ويَخلُصُ إليه ريحُ النار ووَهَجُها.

---

(١) لا أعلم لابن ماجة كتابًا في الضعفاء، وعلى العموم فإني لم أقف على هذا الخبر.

(٢) تفسير مجاهد، ص ٣٣٧.

(٣) في تفسير القرآن من الجامع لابن وهب ٢/ ٤٤، وتفسير الطبري ١٢/ ٤٥١ وغيرهما مستفيضًا أنه من كلام ابن عباس.

(٤) نسبة هذا القول إلى سعيد بن جبير، كما في فتح القدير ٢/ ٢٣٨، وغيره.

ثم قال تعالى: {وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ}، الأعرافُ: جمعُ عُرْف، وهو: كلُّ ما ارتفعَ من الأرض، ومنه: عُرفُ الدِّيك لارتفاعِه على ما سواه من جسدِه، سُمِّي بذلك لأنه بسببِ ذلك صار عُرِفَ وأُبِينَ مِن ما انخفض. وقيل: إنما سُمِّي بذلك لأنّ أهلَه يَعرِفونَ أهلَ الجنّة وأهلَ النار. وقيل: الأعرافُ: مقامٌ بينَ الجنّةِ والنار يجلسُ عليه أقوامٌ استوتْ حسَناتُهم وسيّئاتُهم فأقيموا هنالك حتى يقضيَ اللهُ فيهم ما شاء، فهم لا من أهل الجنةِ ولا من أهل النار لكنّ اللهَ يُدخلُهمُ الجنّةَ بفضلِه.

فإذا نَظَروا إلى أهل الجنّة قالوا: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، فذلك قولُه تعالى: {لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [الأعراف: ٤٦]، فكان [عدمُ][١] الطمع دُخولاً.

قال ابنُ عبّاس: فلا يزالون بذلك المكانِ، حتى إذا أراد اللهُ أن يُعافيَهم انطلق بهم إلى نهَرٍ يقالُ لهُ: الحيَوانُ[٢]، حافَتاهُ غصباتُ[٣] الذهبِ مُكلَّلاً باللؤلؤِ ترابُهُ المِسك، فألقُوا فيه حتى تصحَّ ألوانُهم وتبدو في نحورِهم شامةٌ بيضاءُ يُعرَفونَ بها، فيُذهَبُ بهم حتى يوقَفوا بين يدَي الرَّحمنِ عزَّ وجلّ، فيقولُ لهم: تمَنَّوْا ما شئتُم،

---

(١) زيادة لازمة أسقطها الناسخ والسياق يتطلبها.

(٢) نهر منصوص عليه في الصحاح من حديث أبي سعيد وأبي هريرة، وإن خالف اسمه فيها وأنه نهر واحد أو أنهار، وأنه نهر أو ماء من غير نهر، ولكنه هذا، ينظر: البخاري (٨٠٦) و(٦٥٦٠) و(٧٤٣٧) و(٧٤٣٩)، و مسلم ٢٩٩- (١٨٢) و٣٠٢- (١٨٣) و٣٠٦ و٣٠٧- (١٨٥).

(٣) كذا كتبها الناسخ واضحة مجودة، وفي الطبري ١٠/ ٢١٥: قضب، جمع قضيب.

فيتمنَّوْا[١]، حتى إذا انقَطعت أُمنيتُهم قال: لكمُ الذي تمنَّيتُم ومثلُه سبعينَ ضعفاً، فيُدخَلونَ الجنّةَ وفي نحورِهم الشامةُ البيضاءُ يُعرَفونَ بها، فيُسَمَّونَ مساكينَ أهل الجنةِ من أجلِها. ذكره ابنُ جريرٍ في "تفسيره"[٢].

وقال شُرَحْبيلُ بن سَعد: ومن أهل الأعرافِ قومٌ قد خَرَجوا للغَزْوِ بغير إذنِ آبائهم، رواه الطبريُّ[٣] بسندِه إلى يحيى بن شِبل مولى بني هاشم، عن محمدِ بن عبد الرحمن، عن أبيه، قال: سُئل رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عن أهل الأعراف، فقال: "هم أُناسٌ قُتلوا في سبيل الله وهم عُصاةٌ لآبائهم، فمَنَعَهم قتلُهم في سبيل الله منَ النار، ومَنَعتْهم معصيةُ آبائهم من دخول الجنة"، زاد في روايةٍ أخرى: "أنهم آخرُ من يدخُل الجنّة وأنهم أدنى أهل الجنة في الدَّرجات ولو دَخَلوها برحمةِ الله".

وقال مجاهد[٤]: أصحابُ الأعراف قومٌ صالحونَ عُلماء. فعلى هذا القول إنّما يكونُ لُبثُهم على الأعراف على سبيل التنزُّه، أو ليعلَمَ غيرُهم شرَفَهم وفضلَهم. وقيل: إنهم أنبياءُ، حكاه ابنُ الأنبوريّ، وإنّما أجلَسَهمُ اللهُ على ذلك المكان الرفيع

---

(١) الجادة: فيتمنون، بثبوت النون كما هو معروف.

(٢) مضى تخريجه قبل قليل.

(٣) في تفسير الطبري ١٠/ ٢١٨ و٢١٩، وهو في تفسير مجاهد، ص ٣٣٧، من طريق عبد الرحمن أيضًا.

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٤٥٨، وتمام عبارته: "قوم صالحون فقهاء علماء".

تنزيهًا لهم عن سائرِ أهل الجنة، وإظهاراً لفضلِهم وعُلوِّ مرتبتِهم، وليكونوا مُشرِفينَ على أهل الجنّةِ والنار، ومطَّلعينَ على أحوالِهم ومقادير ثوابِ أهل الجنة وعذابِ أهل النار.

فباعتبارِ هذه الأقوال يكونونَ أفضلَ أهلِ الجنةِ، واللهُ أعلمُ بأسرار كتابِه.

وقال ابنُ عبّاس: لمّا أُذِن لأهل الأعرافِ في دخول الجنّة طمِع أهلُ النار في الفَرَج، فيقولون: ربَّنا إنه كان لنا إخوانٌ في الجنّة، فائذَنْ لنا حتى نراهم فنُكلِّمَهم، فيأذَنُ لهم، فينظرونَ إلى قراباتِهم من أهل الجنّةِ وما هم فيه من النَّعيم، فيعرفونَهم، فينظرُ أهلُ الجنّةِ إلى قراباتِهم من أهل النار فلا يعرفونَهم لسَوادِ وجوهِهم وطمسِها، فينادي أصحابُ النار أصحابَ الجنّة بأسمائهم، ينادي الرجلُ أباه وأخاه فيقول: يا فلان، قدِ احترقتُ فأفِضْ عليَّ من الماء، فيقالُ لهم: أجيبُوهم، فيقولون: {إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [الأعراف: ٥٠]، وذلك معنى قولِهِ تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} [الأعراف: ٥٠]، ومعنى الآية: أنّ أهلَ النار يستغيثونَ بأهل الجنةِ إذا استقرُّوا فيها ونَزَلَ بهمُ البلاءُ من الاحتراقِ وشدّةِ العَطَش والتهابِ الجوع عقوبةً من اللهِ على الكافرين والمعاصي في الأيام الخالية.

ويؤخَذُ من هذه الآيةِ أنّ صَدَقةَ الماء أفضلُ من جميع الصَّدَقات[1]، كما رُوي عن ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، أنه سُئل: أيُّ الصَّدقة أفضل؟ قال: سقيُ الماء، فقالوا له: من أين ذلك؟ قال: من كتابِ الله، اقرأوا إن شئتم قولَهُ تعالى حكايةً عن أهل النار: {أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} [الأعراف: ٥٠]، وإنّما قدَّم الماءَ لفضلِه على غيرِه.

ورُويَ أنّ أولَ نداءٍ في الجنة والنار نداءُ المؤمنينَ المشركين، وذلك أولَ ما يستقرُّ أهلُ الجنّةِ في الجنة وأهلُ النار في النار، فيقومونَ على الغُرَفِ فيقولون: يا أهلَ النار، إنّا وجَدْنا ما وعَدَنا ربُّنا من الثوابِ على التصديق بما جاءتْ به الرُّسُلُ من: التوحيدِ والشرائع والإيمانِ بالغيب حقًّا، فهل وجَدتُم ما وَعَدَكم ربُّكم منَ العذابِ والخِزي والنَّكال لمَن كذَّب وأبَى حقًّا؟ والنداءُ على وجهِ التبكيتِ والإقرار بفضل الله، فيقولون: نعم، فيؤذِّنُ إسرافيلُ عليه السلامُ بينَ الفريقيْنِ أنْ لعنةُ اللهِ على الكافرين، وذلك قولُهُ تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا} [الأعراف: ٤٤] الآيةَ.

فصلٌ: في كونِ أُمّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم هم سُكّانَ الطبقةِ العُليا التي تُسمَّى بجهنَّمَ يسكُنُها العُصاةُ منَ الموحِّدين، وكيف تأخُذُهم ومدّةِ لُبثِهم فيها

---

(١) هذا استنباط بديع آخر للمصنف رحمه الله.

ورُوي عن ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، أنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "تبقَى بعدَ شفاعةِ الشافعينَ أقوامٌ من أُمّتي حَبَسَهم القرآن، وهم آخِرُ من يدخُل النارَ"(١)، وإذا رآهم مالكٌ وأعوانُه لم تُطمَسْ وجوهُهم ولم يُمسَخوا قِردةً وخنازيرَ، قال لهم: ويلكم! مَن أنتم؟ فإني لم أرَ أُمّةً من الأشقياءِ مثلَكم وجوهاً ولا مثلَكم ألواناً؟ فيقولون: نحن أُمّةُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فإذا أحاطتْ بهمُ النارُ رَفَعوا أصواتَهم بالشهادتيْنِ، فتتباعدُ النارُ عنهم أربعينَ خريفاً، فيأمرُها مالكٌ بأخذِهم، فتقولُ لهُ: يا مالكُ، إني أستحيي من الله أن آكُلَ مَن يوحِّدُه ويُقرُّ برسالةِ رسولِه، فيقولُ لها: إنه قد أمَرَهم في دار الدُّنيا فعَصَوْهُ ولم يُطيعوهُ فاستوجَبوا بذلك غضَبَه، فإن كنتِ سامعةً مُطيعةً فخُذيهم واقتصِّي لربِّكِ منهم وأنفِذي فيهم غضَبَه وسَطوتَهُ، وإلا عذَّبكِ عذاباً لم يعذِّبْهُ أحداً من خلقِه، فترجُف وترعَدُ خوفاً من عذابِ الله وأليم عقابِه، فتقولُ لهُ: يا مالك، إن كنتَ تريدُ أن آخُذَهم فاسألِ اللهَ أن يُنسيَهم كلمةَ الشهادة، فيسألُ اللهَ مالكٌ أن يُنسيَهم كلمةَ الشهادةِ فيُنسيَهمُ اللهُ إيّاها، فتأخُذُهم النارُ حينئذٍ، ثم يُوحي اللهُ إلى مالكٍ أنْ قلْ لناري: لا تحرقي وجوهَ أُمّةِ محمد، فإنه طالما سَجَدوا لي بها، ولا مواضعَ السُّجودِ من أعضائهم، ولا تُفضي إلى قلوبِهم فإنهم طالما أحبُّوني واعتقَدوا

(١) إلى ها هنا في النهاية في الفتن والملاحم، لابن كثير ٢/ ٢٥٨، وتفسير الماتريدي ١/ ١٤٢، غير مسند إلى ابن عباس عن رسول الله، بل هو من تقريراتها.

وَحدانيَّتي وعظمتي، ولا إلى ألسِنتِهم فإنّهم طالما مَجَّدوني بها وتلَوْا كتابي آناءَ اللّيل وأطرافَ النهار، ولا إلى أمعائهم فإنّهم طالما جاعوا وعَطِشوا مِن مخافتي. فيفعلُ مالكٌ ما أمَرَه اللهُ به، وتمتثلُ النارُ ما أمَرَها بِهِ مالك، فتُطبقُ عليهم ويبقَوْنَ فيها مُدةً مَديدةً، حتى إذا أرادَ اللهُ بهم خيراً أَمَرَ الخَزَنةَ أن يُزيلوا الحِجابَ فيما بينَهم وبينَ أهل الدَّرَكاتِ من المشركينَ واليهودِ والنَّصارى، فيُعَيِّرونَهم فيقولون: أوَلستُم بالموحِّدين، أوَلستُم بالمُصلِّين، أوَلستُم بالصائمين، أوَلستُم بالمُزَكِّين، أوَلستُم بالذين كانوا يقاتلونَ في دارِ الدُّنيا على التوحيد، فما أغنَى عنكم توحيدُكم وصَلاتُكم نحن وإيّاكم في العذابِ مُشتركون، وفي غَمَراتِ النار مُتجاورون، فيَغارُ اللهُ عليهم لتوبيخ الكَفَرةِ لهم فيأمُر جبريلَ عليه السلامُ فيقولُ له: يا جبريل، اذهبْ إلى الجهنَّميِّينَ من أُمّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم وانظرْ إلى ما هُم فيه من العذاب الأليم وائْتني بنبإهم وما قالوا لكَ، فيأتيهم جبريلُ عليه السلام، فيأمُرُ مالكًا أن يُزيلَ الطبقةَ، فيقولُ له: ما تريدُ يا جبريلُ من هؤلاءِ الأشقياء؟ فيقولُ له: يا مالك، أنا أعلمُ بهم منك، أولئك من أُمّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم وهم سُعداء، إلّا أنّ اللهَ انتقَم منهم لسيّئاتٍ اقتَرفُوها في دارِ الدنيا. ويظهَرُ لهم عليه السلام، فإذا رأتْهُ النارُ خَمَدت ووَجَد العُصاةُ من أُمّةِ محمد نسيماً بارداً يأتيهم من قِبَلِه، فيُسلِّمُ عليهم، فيقولونَ له: وعليك السلام، مَن أنت؟ فواللهِ ما رأينا مثلَكَ منذُ دخَلْنا النار، فيقولُ لهم: ومن أنتم؟ فيقولونَ له: نحن الموحِّدون، فيقولُ لهم: وأُمّةُ مَن أنتم؟ فيقولونَ له: إنّا قد نَسِينا اسمَ نبيِّنا من طُول ما عُذِّبنا

وشُغِلنا، فيقولُ لهم: أتعرِفونَ المَلَكَ الذي كان يأتيهِ بالوحي؟ فيقولونَ لهُ: كنا نعرفُه كما نعرفُ اسمَ نبيِّنا لكنْ نسيناهم، فيقولُ لهم: أنا جبريل، وحبيبي وصاحبي نبيُّكم محمدٌ صلى الله عليه وسلم، فيَضِجُّونَ بالبكاء ويرفعونَ أصواتَهم بالشّهادتيْن، فتنكشطُ النارُ عنهم، فيقولونَ له: إذا أتيْتَ نبيَّنا محمداً صلى الله عليه وسلم فسلِّمْ عليه وقلْ لهُ: كيف طابَ لكَ نعيمُ الجنّة ومساكينُ أُمّتِك بين إطباقِ جهنِّم قد أكَلَتْ لحومَهم ومزَّقتْ جلودَهم وصيَّرتْ عظامَهم حِمَماً وهم فيها لا يَموتونَ ولا يَحيَوْن، طعامُهمُ الزَّقُّومُ وشَرابُهمُ الحَميم وفاكهتُهمُ الضَّريع ولباسُهمُ القَطِران، تَسومُهمُ الزَّبانيَةُ بالذُّلِّ والهوان، تَضرِبُهم بمقامعَ من حديد وتُجرِّعُهم ماءً صَديد[1]، لا يَرحمونَ بكاءَهم ولا يُجيبونَ دعاءهم، فقد قَطَّع الغِسْلينُ أمعاءهم، يَدعُونَ بالويْل والثُّبور، وجهنَّمُ من فوقِهم ومن تحتِهم تَفُور. فيرجعُ جبريلُ عليه السلامُ وهو يبكي لِما رأى من حالِهم، حتى يَسجُدوا بينَ يدَي اللهِ تعالى فيسألُه- وهو أعلمُ- فيقولُ لهُ: ما حالُ أولئك المساكين؟ فيقولُ لهُ: يا ربِّ، قد أكَلَتِ النارُ لحومَهم، وقطَّعت جلودَهم، وقدِ اسوَدَّت ألوانُهم وتغيَّرت أكوانُهم، وأنت أعلمُ بأحوالِهم، فيقولُ لهُ: هل بَعَثوا معَكَ برسالةٍ إلى نبيِّهم، فيقولُ له: نعم يا ربِّ، فيقولُ له: بلِّغْ رسالتَهم، فيذهبُ إليه مُبادراً، فيجدُه صلى الله عليه وسلم في أعلى عِلِّيِّينَ في خيمةٍ من ياقوتةٍ حمراءَ يُرى ظاهرُها من باطنِها وباطنُها من ظاهرِها، في سَعَتِها ألفُ فرسخ، فيُسلِّمُ على رسُول الله صلى الله عليه

---

(١) كذا، رعاية منه للمزاوجة.

وسلم فيقولُ له: يا محمد، إنّ أُمّتَك المساكينَ الذين في قعرِ جهنَّم يُقرءونَك السلامَ ويقولونَ لك: كيف طابَ لك نعيمُ الجنّة ونحن بين إطباقِ جهنَّم قد أكَلتْ لحومَنا ومزَّقت جلودَنا وقطَّع الزَّقُّومُ أمعاءنا؟ فيخِرُّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عندَ سَماع قولِ جبريلَ مَغْشِيًّا عليه، حتى إذا أفاق قال لهُ: يا جبريل، لقد كدَّرتَ عليَّ نعمتي وخَرَقتَ فؤادي بذكرِك أحوالَ أُمّتي المساكينِ الجهَنَّميِّين، فهلمَّ فلْنذهبْ إلى ساق العرشِ ولْنطلُبْ من الله شفاعةً لأولئكَ المساكين، فإنه لا يطيبُ لي عيشٌ ولا يقَرُّ لي قرارٌ ما لم أشفعْ فيهم[1]. فيركَبونَ على خُيول من نُور سُروجُهم منَ الذّهبِ الإبريز، فتطيرُ بهم إلى ساق العرش وهُو في كَبْكبةٍ من النبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصالحين، حتى يسجدُ تحتَ ساق العرش فيشفَعُ فيهم فيُشفَّع، فينطلقونَ كذلك إلى النار، فإذا أشفَوْا عليها خَمَدت حتى تصيرَ كأنّها بَرَدَتْ، فيُخرجُهم صلى الله عليه وسلم، حتى إذا أتَى بهم نَهَراً يقالُ لهُ: الحَيَوانُ أَمَرَهم بالمقام ثَمَّ فأُجرِيَ عليهم، فينبُتون كما تنبُتُ الحبةُ في حَمِيل السَّيل، فإذا تمَّ خَلْقُهم ونضَرتْ ألوانُهم وزكَتْ روائحُهم أدخَلَهمُ الجنّةَ، فلا يبقى في النار مَن في قلبِه مثقالُ حبّةٍ من إيمان- وفي رواية: من خير- فإذا رأى المشركونَ ما فَعَل اللهُ بالمؤمنين وما أكرَمَهم به من النَّجاةِ من النار والدُّخولِ في الجنّة، طَمِعوا في رحمةِ الله، فيقولون: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ} [المؤمنون: ١٠٧]، أي:

---

(١) في هذا الأثر مبالغة تدل على وضعه وأنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} [البقرة: ١١٩].

فإنْ عُدْنا إلى ما تكرَهُ فإنَّا ظالمُون، {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون: ١٠٨] أي: ابعَدوا فيها، كما يقالُ للكلبِ إذا طُرِدَ: اخسَأْ، {وَلَا تُكَلِّمُونِ} في رفع العذاب، فإنِّي لا أرفعُه عنكُم، فعندَ ذلك ييأسُ المشركونَ من الفَرَج. قال الحَسن: هو آخرُ كلام يتكلَّمُ به أهلُ النار ثم لا يتكلَّمونَ بعدَ ذلك، ما هو إلّا الزَّفيرُ والشَّهيقُ وعُواءٌ كعُواءِ الكلابِ لا يفهمونَ ولا يُبصرون.

ورُوِيَ عن عبدِ الله بن عُمر(١)، أنّ أهلَ النار يَدعُونَ مالكاً خازنَ النار أربعينَ عاماً {لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} فلا يُجيبُهم، ثم إذا أجابَهم يقول: {إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [الزخرف: ٧٧]، ثم ينادُونَ ربَّهم {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ}، فيَدعُهم مثلَ عُمُر الدُّنيا مرَّتيْن، ثم يرُدُّ عليهم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون: ١٠٨] فما ينبِسُ القومُ بعدَ ذلك بكلمةٍ إنْ كان إلّا الزَّفيرُ والشَّهيق. رواهُ الطّبَرانيُّ في "الكبير"(٢).

ورُوِيَ أنه إذا قال لهُم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} انقطع رجاؤهم وأقْبَلَ بعضُهم ينبِحُ في وجهِ بعض، وانطبقت عليهمُ النِّيران وتراكمتْ عليهمُ الظُّلُمات وانخَسَفت بهمُ الدَّرَكات مسيرةَ أربعين خريفاً لهيْبَةِ التجلِّي والخطاب.

---

(١) كذا في النسخة، وفي المصادر: عبد الله بن عمرو.

(٢) لم أقف عليه في "كبير" الطبراني، وأخرجه أبو الليث نصر السمرقندي في تنبيه الغافلين (٥٥)، وبنحوه في تفسير يحيى بن سلام ١/ ٣٤٧، عن قتادة لا ابن عمرو.

ورَوى ابنُ عبّاس أنّ ثلاثةَ أشياءَ في النار أشدُّ من النار: النَّتنُ والظُّلمةُ وغضَبُ الجبّار.

بابٌ: في كيفيّةِ تنوُّع العذابِ والأهوال والنَّكال على المشركينَ وأهل الكبائر الضُّلّال من جميع أجناسِ المجرمينَ، على قَدْرِ تنوُّعاتِ خبائثِ الأعمال

ثم اعلمْ أنّ اللهَ تعالى أجْمَل في بيانِ عذابِ أهل النار، وفصَّل وبيَّن ما لكلِّ صنفٍ من المشركين وأهل الكبائرِ من المُجرمينَ من العذابِ الأليم والخِزي المقيم، فعمَّ أنواعَ الكَفَرةِ بقولِه: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا} [النساء: ٥٦]، أي: نَشويهم بها، وإنّما سُمِّي الشَّيُّ شَيًّا لأنه يزيلُ الشَّوى، وهو الجلدُ، قال اللهُ تعالى: {نَزَّاعَةً لِلشَّوَى} [المعارج: ١٦]، وقال: {لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ} [المدثر: ٢٩] من حالِهم فيها أنهم كلّما {نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ} أي: احترَقَتْ {بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا} [النساء: ٥٦]، أي: غيرَ الجلودِ المحترقة؛ لأنّ العذابَ يتنوَّعُ عليهم بتنوُّع الجلود، كما أنّ لَذّةَ الطعام تتنوَّعُ بتنوُّع المطاعم والمشارب.

رُوِيَ أنّ هذه الآيةَ قُرِئتْ عندَ عُمرَ بن الخطاب رضي اللهُ عنه، فقال للقارئ: أعِدْها، فأعادَها، وكان معاذٌ معَه، فقال: عندي تفسيرُها: تُبدَّلُ في كلِّ ساعةٍ مئةً، فقال: هكذا سمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول(١).

وقال ابنُ عبّاس: يُبَدَّلونَ جلوداً بِيضاً كأمثال القراطيس(٢).

وقال الحسَنُ: تأكُلُهمُ النارُ في كلِّ يوم تسعينَ ألفَ مرَّة.

وأخرج البيهقيُّ، عن أبي أُمامَةَ- يرفعُه-: "ما بين مَنكِبي الكافرِ في النار مسيرةُ ثلاثةِ أيام للراكبِ المسرع"(٣).

وفي "صحيح مسلم"(٤): "ضِرسُ الكافر- أو قال: نابُ الكافر- في النار مثلُ أُحُدٍ في غِلَظِ جلدِه [مسيرةُ](٥) ثلاث"(٦).

فإن قلتَ: كيف تعذَّبُ جلودٌ لم تَعصِ؟ فالجوابُ: أنه يُعادُ الجلدُ الأولُ بعينِه، وإنما قال: {جُلُودًا غَيْرَهَا} لتبدُّل صفتِها، كما تقولُ: صُغتُ من خاتَمي خاتَماً غيرَه،

---

(١) تخريج أحاديث الكشاف، للزيلعي (٣٣٦).

(٢) في تفسير الطبري ٧/ ١٦٣، عن ابن عمر.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة: البخاري (٦٥٥١) ومسلم ٤٥- (٢٨٥٢)، وهو كذلك عند البيهقي في البعث والنشور (٥٦٣) و(٥٦٤)، فتبين أن ذكر أبي أمامة وهم والله أعلم.

(٤) مسلم ٤٤- (٢٨٥١) عن أبي هريرة.

(٥) سقطت هذه الكلمة من النسخة واستدركناها من مسلم.

(٦) بياض في النسخة بقدر كلمة واحدة.

فالثاني هو الأولُ غيرَ أنّ الصِّياغةَ بَدَّلتِ الصِّفة. وقيل: إنّ العذابَ للجملةِ الحسّاسة، وهي النفسُ التي عَصَت، وإن كان ذلك كذلك فغيرُ مستحيل أن يُجدِّدَ اللهُ لتلك النفوس الخبيثةِ من الجلود في كلِّ ساعةٍ ما لا يُحصَى لتحترقَ ويصلَ الألمُ إلى تلك النفوس، كلَّما تكرَّر التبديلُ يتكرَّرُ الألمُ لتكرارِه، كما قال تعالى: {فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} [النبأ: ٣٠]، وقال: {لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} [النساء: ٥٦]، والذَّوقُ هنا بمعنى الإحساس.

ثم إنه تعالى ذَكَر ما يقعُ للكافر والمسلم معاً بقولِه: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ} [الواقعة: ٤١- ٤٣]، فالسَّمومُ: ريحٌ حارّةٌ تهبُّ عليهم من الدَّرَكاتِ هي أشدُّ عليهم من لهَبِ النار، والحميمُ: ماءُ الغَضَب، وهو الذي تناهَى حرُّه ونَتَنُهُ وخُبثُه، واليَحمومُ هو: الدُّخانُ إذا اشتدَّ سوادُه وقَتَرُه، وكلُّ شيءٍ في النار ومنَ النار فإنهُ أسود. وقيل: هو اسمٌ لنوع من عذابِ الله لم يُرَ ولم يُعهَدْ في دارِ الدنيا. وقيل: اليَحموم: شدّةُ الظُّلمة لا باردٌ فيُرغَب، ولا يُغني من اللهَب فإليه منه يُهرَب، لا باردُ المظهَر ولا كريمُ المنظر، لا باردٌ فيُطلَب ولا كريمٌ فيُرغَب، بل هو جامعٌ بين الحرِّ والقتَر، والنَّتَن والشَّرَر، والظُّلمةِ والكَدَر.

ثم جَعَل يُبيِّنُ السببَ الذي استحَقُّوا به ذلك لِيُتَّقى، فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ} [الواقعة: ٤٥]: مشتغلينَ بتنعيم أنفسِهم بأنواع الشَّهَوات، لا

يَهُمُّهم من ذلك خوفُ عقاب ولا ينغِّصُه عليهم خوفُ عاقبة، لانهماكِهم فيما تدعُوهم إليه أهواؤهم، حتى استباحوا المَياسيرَ والقهَوات، فأفضَى بهم ذلك إلى الإصرارِ على الحِنْث، وهو يمينُ الغَمُوس[1]، وقيل: كانوا يُقيمونَ مُصِرِّينَ على الذنبِ العظيم من غير توبةٍ ولا إقلاع، وقيل: المرادُ بالحِنثِ العظيم: حَلِفُهم أنهم لا يُبعَثون، ويدُلُّ على ذلك سياقُ الكلام، وهو قولُه تعالى: {وَكَانُوا يَقُولُونَ} على وجهِ الاستبعاد {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ} [الواقعة: ٤٧- ٤٨]، فردَّ اللهُ عليهم بقولِه: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ} يعني: الآباءَ، {وَالْآخِرِينَ} [الواقعة: ٤٩] يعني: الأبناءَ {لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} [الواقعة: ٥٠] عندَ الله، وهُو يومُ القيامة، {ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ} عن الهدى {الْمُكَذِّبُونَ} [الواقعة: ٥١] بالبَعْثِ، {لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ [زَقُّومٍ][2]} [الواقعة: ٥٢]: من جنسِ الزَّقُّوم، وذلك أنّ اللهَ يُسلِّطُ عليهمُ الجُوعَ حتى يُلجئَهم بذلك إلى أكل الزَّقُّوم ظنًّا منهم أنه يُخفِّفُ عنهم بعضَ ما بهم منَ الجُوع، فلا يَزيدُهم إلّا جوعاً والتهاباً وعطشاً فيُلجئُهم العطشُ إلى الشُّربِ عليه منَ الحميم؛ لأنّ الأكلَ في العادة يستدعي الشّربَ، والماءُ يطفئُ الحرارةَ، فيزيدُهم عطشاً إلى عطشِهم وظمأً إلى ظمإِهم وسَغَباً إلى سَغَبِهم، فتسقطُ أناملُهم عندَ تناولِه ولحومُ وجوهِهم

(١) كأن الناسخ هنا أسقط قوله تعالى: {وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ} [الواقعة: ٤٦]، وذلك بائن من غياب هذه الآية في النص وحضور شرح المصنف لها وتعليقه عليها وتأمله.

(٢) هذه الكلمة القرآنية سقطت في النسخة.

عند إرادةِ شربِه، فإذا شربوا قطَّعَ أمعاءهم، فتُصهَر، فيُلقونَها من أدبارِهم مُقطَّعةً، كما قال تعالى: {فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [محمد: ١٥]، فيشربونَهُ لشدّةِ ما بهم من العطش {شُرْبَ الْهِيمِ} [الواقعة: ٥٥]، وهي الرّمالُ السَّيّالةُ التي لا يرويها ما يُصَبُّ عليها من الماء، وقيل: الهِيمُ: جمعُ هَيْماءَ، وهي الناقةُ التي أصابها داءٌ يقالُ لهُ: الهُيَام، فلا تزالُ تشربُ حتى تموت، وكذلك ساكنو[1] النار لا يزالُ[2] عطشُه فيُقلعَ عن الشراب، بل لا يزيدُه شرابُه إلا ظمأً، فلا يزالُ يشربُ، إلّا أنه لا يموتُ كما تموتُ الهِيم، فطعامُها لا يُشبع فيُقنع وشرابُها لا يَروي فيُمتع.

{هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ} [الواقعة: ٥٦]، والنُّزُل، بضمِّ النّون والزاء: ما يُقدَّمُ للضَّيفِ عند نزولِه من التحف، فإذا كان هذا نُزُلَهم فما ظنُّك بسائرِ ضيافتِهم الواردةِ عليهم من ربٍّ دَيّانٍ مُنتقم غَضْبان؟

ثم خَصَّ الموحِّدينَ بالوعيد في قولِه تعالى: {وَيْلٌ} وهُو اسمٌ جامعٌ لكلِّ شرّ، أو لِما تكرهُهُ النفوسُ مما يسيءُ، أو هُو: وادٍ في جهنّمَ نستعيذُ منه بالله في كلِّ يوم سبعينَ مرّة، {لِكُلِّ هُمَزَةٍ} يعني: المُحرِّشَ بينَ المؤمنينَ حتى يُوقعَ بينَهمُ الشرَّ،

---

(١) كذا في النسخة، بواو بعد النون، مع أن الفعل مفرد، وهذا ربما يدل على أن هذه النسخة قد تكون منسوخة بالسماع، سمع الناسخ من المملي الضمة واوًا.

(٢) كذا في النسخة، والجادة: يزول.

فيَدخُلُ في ذلك النمّامُ، {لُمَزَةٍ} [الهمزة: ١] هُو: المُغتابُ العَيّابُ الطَّعّانُ اللَّعّانُ المُتجسِّس.

رَوى ابنُ عبّاس، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمنُ هيِّنٌ ليِّن صَفُوحٌ سَمُوح مُتعفِّفُ مُتنظِّف، والمنافقُ غَمّازٌ لَمّازٌ همّاز، لَعّانٌ طَعّان"، أخرجَهُ البيهقيُّ مرفوعاً(١).

فيُفهَمُ من سياقِ هذا الخبر أنّ هذه الصّفاتِ لا توجدُ إلّا في منافق، وليس ذلكَ كذلك، بل ربَّما وُجدتْ في المؤمن غيرِ التامِّ الإيمان لغَلَبَةِ الهوى على نفسِه.

قال السُّدّي: الهمزُ باليدِ، واللَّمزُ باللّسانِ والشَّفَتيْن، والغمزُ بالعينِ والحاجبيْنِ على وجهِ الغضِّ من أعراضِ الناس والإغماضِ من مناصبِهم.

ومن ذلك: حكايةُ أقوالِ الناس وأصواتِهم من أجل الضَّحِك، قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ الرَّجُلَ لَيقولُ الكلمةَ ليَضحَكَ بها جلساؤه لا يُلقي لها بالاً وإنّها لَتهوي به في النار أربعينَ خريفاً"(٢).

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ الجامع لخصال المؤمن والمنافق عند البيهقي، وانظر اللفظ المشهور في: سنن الترمذي (٢٤٨٨)، ومسند أحمد (٣٩٣٨)، وفيه تخاريج.

(٢) سنن أبي داود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٤٦) و(٢٠٠٥٥) و(٢٠٠٧٣) وفيه طرق أخرى مع تخاريج وفوائد.

واختُلِف فيمَن نزلتْ هذه الآية؟ فقيل: في الأخنس بن شُرَيْق بن وَهْب، وكان يقعُ في الناس، وقيل: في أُميّةَ بن خَلَف الجُمَحيّ، وقيل: في الوليدِ بن المُغيرةِ، كان يغتابُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم من ورائهِ ويطعَنُ عليه إذا حضَر.

بل هي عامّةٌ في كلِّ شخص هذه صفتُه كائنًا ما كان؛ لأنّ خصوصَ السّبب لا يقدَحُ في عموم اللفظِ والحكم، ومن قال: إنها في ناسٍ مُعيَّنين قيل لهُ: إنّ كونَ اللفظِ عامًّا لا يُنافي أن يكونَ المرادُ منه شخصاً معيَّناً، وهو تخصيصُ العامِّ بقرينةِ العُرف، فالأولى أن يُحملَ على العموم في كلِّ مَن هذه صفتُه.

ثم وَصَفَه تعالى بما يؤكِّدُ سُنوحَ علّتِه، قال: {الَّذِي جَمَعَ مَالًا} [الهمزة: ٢]، وإنّما وَصَفَهُ بهذا الوصفِ لجَرَيانِه مجرى السّببِ في الهمزِ واللَّمز، لإعجابِه بما جَمَع من المال، فيُفضي به ذلك إلى احتقارِ الناس والسُّخْريةِ منهم، كما قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: ٦- ٧]، وإنما ذكر {مَالًا} لأنه بالنسبةِ إلى مالٍ هو أكثرُ منه يكونُ كالشيءِ الحقيرِ وإن كان عظيماً عند صاحبِه، فكيف يَليقُ بالعاقل أن يفتخرَ بالشيءِ الحقيرِ الفاني الزائل؟

ثم أكَّد الجمعَ بصِفةٍ هي أشدُّ منَ الصِّفةِ الأولى على صاحب المال[١]؛ لأنّ تعديدَه إياهُ لا لأداءِ حقِّ الله فيه ممّا يدُلُّ على حرصِه عليه وصرفِ همّتِه إليه. وليس ذلك من أخلاقِ المؤمن المعتني بتخليصِ مُهجتِه وتهذيبِ همّتِه وتصحيح خِدمتِه وتنفيذ عَزْمتِه، قال الرسُولُ صلى الله عليه وسلم لمّا تلا قولَه تعالى: {وَجَمَعَ

(١) يعني قوله تعالى في آخرها: {وَعَدَّدَهُ} [الهمزة: ٢].

فَأَوْعَى} [المعارج: ١٨]، قال: "طُوبى لَمَن وَعَى، والويْلُ لمنِ أوْعى"[١]، أي: جَمَع المالَ ومَنَعَ منهُ حقَّ الله، وذلك معنى قولِه تعالى: {وَعَدَّدَهُ} [الهمزة: ٢]، أي: أحصاهُ، وقيل: اتَّخَذه عُدّةً وجَعَلهُ ذَخيرةً وغِنًى له.

{يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ} [الهمزة: ٣] فلا يموتُ، بل هو يموت لا مَحالةَ والمالُ يفوت، واليَسَارُ يذهَب والبناءُ يخرَب والشبابُ يُنهَب والجمالُ يُسلَب، والعزيزُ يَذِلّ والكثيرُ يَقِلّ. قال الحَسن: ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيه أشبهَ من شكٍّ[٢] لا يقينَ فيه منَ الموت.

{كَلَّا} ردًّا عليه، أي: لا يُخلِّدُه مالُه، بل يُخلِّدُه ذكرُه وعملُهُ الصالح، قال صلى الله عليه وسلم: "الدُّنيا رواية، فليُحسِنْ أحدُكم روايتَه"[٣].

وقال عليٌّ رضي الله عنه: مات خُزّانُ المال وهم أحياء، والعلماءُ باقونَ ما بقيَ الدّهر، تُروَى علومُهم وتُقتفَى آثارُهم ورسُومُهم.

كما قيل: عِزُّ التاجر في كيسِه وعِزُّ العالِم في كراريسِه.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) كذا شبه الجملة في النسخة، والجادة: "بشك"؛ لأن المقام مقام شيئين: تفاضل في صورة أفعل، وتشبيه، فلزم الباء للتشبيه.

(٣) لم أقف عليه.

ثم أقسَمَ: {لَيُنْبَذَنَّ}، أي: لَيُطْرَحنَّ ومالُه. وحقيقةُ النَّبذ: إلقاءُ الشيءِ مصحوباً بالهوانِ والاحتقار، مَن هذه صفاتُه وأخلاقُه معَ اليهودِ الذين شاكَلَهم في أخلاقِهم من البُهتِ والازدراء والغضِّ من أخلاق الكرام في دَرْكتِهِمُ التي هي: الحُطَمةُ، وسُمِّيتْ حُطَمةً لأنها تحطِمُ العظامَ وتكسرُها.

والمعنى: يا أيُّها الهُمَزةُ اللُّمَزة الذي يأكُلُ لحومَ الناس ويُكثِر من أعراضِهم، إنّ وراءكَ الحُطَمةَ التي تأكُلُ اللُّحوم وتكسِرُ العظام.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ} [الهمزة: ٥] أي: العَجَبُ منك إذْ لم تأخُذ الأُهْبةَ لِما يُنجيكَ من هوْل الحُطمة، إذْ هي نارٌ لا كسائر النِّيران. ولفظُ {مَا أَدْرَاكَ}، "ما كذا؟" إنّما يُؤتَى بها للتهويل والإعظام والتعجُّب.

هي أيُّها الغافلُ عنها المُتهاونُ بأمرِها الجاهلُ لحقيقتِها {نَارُ اللَّهِ}، وإنّما أضافَها إليه على سبيل التعظيم والتفخيم لشأنِها، {الْمُوقَدَةُ} [الهمزة: ٦] التي لا تخمُدُ أبداً.

عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم، قال: "أُوقِدَ على النار ألفَ سنةٍ حتى احمَرَّت، ثم أُوقِدَ عليها ألفَ سنةٍ حتى أبيضَّت، ثم أُوقِد عليها ألفَ سنةٍ حتى اسوَدَّت فهي سوداءُ مُظلِمة"، أخرجهُ الترمذيُّ مرفوعاً[1].

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٩١)، وقال في شأن رفعه: "حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح، ولا أعلم أحدًا رفعه غيرَ يحيى بن أبي بكير عن شَريك".

{الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ} [الهمزة: ٧] إذْ يبلُغُ ألمُها ووَجَعُها القلوبَ، والمعنى: أنها تأكُل كلَّ شيءٍ حتى تنتهيَ إلى الفؤاد، وإنّما خَصَّ الفؤادَ بالذِّكر لأنه ألطفُ شيءٍ في بدَنِ الإنسان، وأنهُ يتألَّمُ بأدنَى شيء، فكيف إذا طَلَعتْ عليه واستَوْلتْ على أجزائه؟ ثم أنه معَ لطافتِه لا يَحترق، إذْ لو احترَقَ لَمات صاحبُه، وليس في النار موت.

وقيل: إنّما خَصَّهُ بالذِّكر لأنه مَحَلُّ الفِكْر والعقائدِ والذِّكرِ والنيّاتِ الفاسدات، والكُفر والإصرارِ على المعاصي، والغدرِ ومَوطِن الخَديعةِ والمكر.

{إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ} [الهمزة: ٨] أي: بطبقةٍ مُغلَقةٍ كالوَصِيد.

{فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ} [الهمزة: ٩]، قال ابنُ عبّاس: أدخَلَهم في عَمَد فمُدَّتْ عليهم بعمادٍ وفي أعناقهمُ السَّلاسلُ فسُدَّت عليهم بها الأبواب. وقال قَتادةُ: بَلَغَنا أنها عَمَدٌ يُعذَّبونَ بها في النار. وقيل: هي أوتادُ الأطباق التي تُطبِقُ على أهل النار، والمعنى: أنها مُطبِقةٌ عليهم بأوتادٍ ممدودة. وقيل: أُطبِقتْ بالأوتاد ثم سُدَّتْ بأوتادٍ من حديدِ النار ليَرجِعَ عليهم غمُّها وحرُّها، فما يُفتَحُ عليهم باب ولا يُطلَقُ عليهم رَوْح.

والمُمَدّةُ(١) من صفةِ العَمَد، أي: مُطوَّلة؛ لأنها أرسخُ من القصيرة.

---

(١) كذا.

ثم ذَكَر منَ العذابِ ما هو أخصُّ برجال مُعيَّنين لأسبابٍ مُعَيَّنة، ولو كان كُفرُهم من وراءِ ذلك؛ لأنّ عذابَ الكافر إنّما هو بكُفرِه ونيّةِ المقام عليه، وبذلك استوجَبَ الخلودَ في النار، بخلافِ المؤمنِ العاصي والمنافق، فإنّ العذابَ يتنوَّعُ عليهما ما تنوَّعتْ أفعالُهما الخبيثة، فينفَدُ عذابُ المؤمن بنفادِ العقوبة، بخلافِ المنافق والكافر؛ لأنّ المنافقَ يَجمَعُ عليه التنويعَ والتأبيدَ لكونِه مُخاطَباً بالفروع الشَّرعيّة لتلفُّظِه بالشهادتيْن وانقيادِه ظاهراً لاستعمال أشخاص الطاعاتِ معَ كُفرِه حقيقةً، ولذلك جُوزيَ بأنْ جُعل في الدَّرْك الأسفل من النار، فقال في شأنِ الخَصْميْنِ في سبيلِه وبيانِ شأنِهما {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} [الحج: ١٩]، أي: تَجادَلوا في دينِه وأمرِهِ واختلَفوا واقتتَلوا وتباغَضوا وافترَقوا وتدابَروا، وذلك جازَ في حقِّ كلِّ مؤمنٍ وكافر، وكلِّ مُخلِصٍ ومنافق، وكلِّ مُبطِلٍ ومُحِقّ، وكلِّ مظلوم وظالم. ثم فسَّره بقولِه تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر: ٣١]، قال أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه(١): لمّا نَزَلتْ هذه الآيةُ عجِبْنا منها، فقلتُ: كيف نختصمُ وربُّنا واحدٌ ودينُنا واحدٌ ونبيُّنا واحدٌ ونحن إخوانٌ في الله؟ فلمّا قُتل عثمانُ رضي اللهُ عنه ورأينا بعضَنا يضربُ أُنوفَ بعض بالسُّيوفِ فهِمنا تأويلَ الآية وعلِمنا أنها إنّما أُنزِلتْ فينا وفيما بينَنا وبينَ المشركين.

---

(١) يروى هذا الأثر عن إبراهيم النخعي، ينظر على سبيل المثال: تفسير عبد الرزاق ٣/ ١٣٠ (٢٦٢٩)، والطبري ٢١/ ٢٨٨، والسيوطي في الدر المنثور ٧/ ٢٢٦، وسواهم.

رُويَ عن قيس بن عبّاد، أنهُ قال: سمعتُ أبا ذرٍّ يُقسمُ قَسَماً أنَ هذه الآيةَ، يعني {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا}، أنّها نَزَلتْ في الذين بَرَزوا يومَ بدرٍ وهم: حمزةُ وعليٌّ وعُبَيدةُ بنُ الحارث وعُتبةُ وشَيْبَةُ ابنا ربيعة والوليدُ بنُ عُتبة. أخرجاهُ في الصَّحيحيْن[1].

وعن عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه، قال: أنا أولُ مَن يَجْثو للخُصومةِ بينَ يدَي الله يومَ القيامة[2].

وقال ابنُ عبّاس: نَزَلتِ الآيةُ بينَ المسلمينَ وأهل الكتابِ حيث يقولون: نحن أوْلى بالله وأقدَمُ منكم كتاباً ونبيُّنا أقدَمُ من نبيِّكم، فقال المسلمون: نحن أحقُّ بالله، آمَنّا بنبيِّنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم ونبيِّكم وبما أُنزِلَ من كتاب، وأنتم تعرفونَ نبيَّنا وكتابَنا ثم تكفُرونَ بهما حَسَداً وجَحْداً.

فهذه خصومتُهم في ربِّهم.

{هَذَانِ}: إشارةٌ إلى سببٍ تقدَّم ذكرُه، وهي مُخاصَمةُ أهل الأديان الستّة أو عليٍّ ورهطِه وعُتبةَ ورهطِه، وفيهما نَزَلتِ الآية، وبسببِهما وَرَد الوعدُ والوعيد. وإنّما قدَّم وعيدَ أهل الكُفر والمعصية لأنّ أهلَ النار يدخُلونَ النار قبل دخولِ أهل

---

(١) البخاري (٣٩٦٩)، ومسلم ٣٤- (٣٠٣٣).

(٢) البخاري (٣٩٦٥) و(٤٧٤٤).

الجنّةِ الجنّةَ؛ لأنّ أهلَ الجنّة يشفَعونَ ويُهذَّبون ويمُرُّونَ على الصَّراط، بخلافِ أهل النار، فإنهم يُدخَلونَ النار من أول وَهْلة.

ولذلك قال: {فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ}، قال سعيدُ بنُ جُبَيْر: ثيابٌ من نُحاس مُذاب، وليس من المعادنِ شيءٌ إذا حَمِي أشدَّ حرًّا منهُ. وإنّما سُمِّيتْ ثياباً جَرْياً على المجازِ والكناية؛ لأنها تحيطُ بهم كما يحيطُ الثوبُ بلابسِه.

وقيل: يَلبَسُ أهلُ النار مُقطَّعاتٍ من نار.

{يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ} [الحج: ١٩]، وهو ماءٌ انتهت حرارتُه، وهو مُشتقٌّ منَ الحمأِ، قال اللهُ تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ} [القارعة: ١٠ - ١١].

{يُصْهَرُ بِهِ}، أي: يُذابُ بالحَميم الذي يُصَبُّ من فوق رؤوسِهم {مَا فِي بُطُونِهِمْ} من الشُّحوم والأمعاءِ {وَالْجُلُودُ} [الحج: ٢٠].

وعن أبي هريرةَ، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ الحَميمَ لَيُصبُّ على رأس أحدِهم فينفُذُ حتى يَخلُصَ إلى جوفِه فيَسْلُتَ ما في بطنِه حتى يبرُزَ من قدميْهِ، ثم يعادُ كما كان"، أخرجهُ الترمذيُّ وقال: حديثٌ حَسنٌ صحيحٌ غريب[١]. {وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ} [الحج: ٢١]، يقالُ: قَمَعهُ: إذا ضَرَبَه على عينِه أو أنفِه فانقمع، أي: رَجَع من حيث جاء، وهي سِياطٌ ومرازبُ من حديد. وفي

(١) سنن الترمذي (٢٥٨٢)، وهو في مسند أحمد (٨٨٦٤) مع زيادة تخريج.

الخبر: "لو وَقَع مِقمَعٌ منها على الأرض ثم اجتمَع عليه الثَّقَلان ما أقَلُّوه من الأرض"(1).

{كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ} أيْ: كلَّما حاوَلوا الخروجَ من النار لِما يلحقُهم من الغمِّ والكرْبِ الذي يأخُذ بأنفاسِهم، {أُعِيدُوا فِيهَا}: رُدُّوا إليها بالمقامع، وقيل: إنّ جهنَّمَ لَتجِيشُ بهم فتلقيهِم إلى أعلاها، فيريدونَ الخروجَ منها فتضربُهُمُ الزَّبانيَةُ بمقامعَ من حديد، فيَهوُونَ فيها سبعين خريفاً.

{وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج: ٢٢]، وهو قولُ الزَّبانيَةِ للمشركين. والحريقُ: فَعيلٌ بمعنى مُفعِل.

فهذا عذابُ أحدِ الخصْمَيْن، وهمُ الكُفّارُ وما شاكَلَهم.

ثم وَصَف الخصمَ الثانيَ، وهو الداعي إلى الله المجاهدُ في سبيلِه، فقال: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [الحج: ٢٣]، والحريرُ: الإِبْرَيْسَمُ(2) الذي حرَّم اللهُ لُبسَهُ على الرّجال في الدنيا. عن معاويةَ- وهو جَدُّ بَهْزِ بن حَكيم- عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "إنّ في الجنّةِ بحرَ الماء وبحرَ العَسَل وبحرَ اللَّبَن وبحرَ الخمر، ثم تشقَّقُ الأنهارُ بعدُ"، أخرجهُ الترمذيُّ(3).

---

(1) البعث والنشور، للبيهقي (٥٣٧).

(2) بفتح السين وضمها، ومنهم من يقول: ابريسم بفتح الهمزة والراء، ومنهم من يكسر الهمزة ويفتح السين. تاج العروس (برسم).

(3) سنن الترمذي (٢٥٧١)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

وعن أبي موسى، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "جَنّتانِ من فضّة آنيتُهما وما فيهما، وما بينَ القوم وبينَ أن ينظُروا إلى ربِّهم إلّا رداءُ الكِبرياءِ على وجهِه في جنّةِ عَدْن"(١).

عن أبي سعيدٍ، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ عليهم لَتيجاناً أدنى لؤلؤةٍ منها لَتضيءُ ما بينَ المشرقِ والمغرب"، أخرجه الترمذيُّ وقال: حديثٌ غريب(٢).

{وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ}، وهو: سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إلهَ إلّا الله واللهُ أكبرُ ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ العليِّ العظيم، وقيل: كلُّ كلام طيِّبٍ من تلاوةٍ وتعلُّم عِلم نافع وأمرٍ بمعروفٍ ونهي عن مُنكَر ووَعْظٍ وحِكمة، {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} [الحج: ٢٤] وهو ما عليه النبيُّ وأصحابُه.

فصلٌ: في ذكرِ أحوالِ تاركِ الأعمال الصّالحات والعاملينَ بالمعاصي وذكرِ نُبَذٍ من أحوال أهل البِدَع في الموقفِ وبعدَهُ

قال اللهُ تعالى لرسُولِه والمُخاطبُ غيرُه: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ} [الغاشية: ١]، قيل: هي يومُ القيامة؛ لأنّ هولَها يَغشَى جميعَ العالَم، وقيل: هي النارُ؛ لأنها تَغشَى وجوهَ ساكنيها.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٦- (١٨٠).

(٢) سنن الترمذي (٢٥٦٢).

قولُه تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ} [الغاشية: ٢] من الذُّلِّ والهَوان، والمرادُ: أربابُها.

{عَامِلَةٌ} لمُعالجتِها السَّلاسلَ والأغلالَ لتركِها الأعمالَ الصالحةَ في دار الدنيا {نَاصِبَةٌ} [الغاشية: ٣]: في الآخرة بمُعاجَلةِ العذاب، وقال ابنُ عبّاس: نَزَلتْ في أصحابِ الصَّوامع من أهل الكتابِ وأرباب البِدَع من هذه الأُمّة يُكابِدونَ العبادةَ الشاقّةَ في دار الدُّنيا والعذابَ الأليمَ يومَ القيامة.

قال عليٌّ رضي اللهُ عنه: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنه سيكونُ في هذه الأُمّة أقوامٌ يَحقِرُ أحدُكم صَلاتَهُ إلى صَلاتِهم وصيامَهُ إلى صيامِهم وقراءتَهُ إلى قراءتِهم، يَمرُقونَ من الدِّين كما يَمرُقُ السَّهمُ من الرَّمِيّة"، أخرجَهُ البيهقيُّ[١]، وفي روايةٍ بزيادةِ: "هم أهلُ الأهواء وأهلُ البِدَع من هذه الأُمّة".

وقالت عائشةُ رضي اللهُ عنها: سمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الخوارجُ كلابُ النار"[٢]، قال ابنُ مسعود: يخوضونَ في النار كما تخوضُ الإبِلُ في الوحل.

---

(١) بل أخرجه الشيخان: البخاري (٣٦١٠) و(٦١٦٣) و(٦٩٣٣)، ومسلم ١٤٨- (١٠٦٤).

(٢) ليس يرويه عائشة، وانظر: مسند أحمد (١٩١٣٠) و(١٩٤١٥) و(٢٢١٨٣)، وفيه تفاصيل تغني وتخاريج.

وقال ابنُ عبّاس: إنها لم تعملْ لله في الدُّنيا فأعْمَلَها وأنْصَبَها في النارِ بمُعالجةِ السلاسل والأغلال.

{تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً} [الغاشية: ٤]، قال ابنُ عبّاس: قد حَمِيَتْ فهِيَ تتلظَّى على أعداءِ الله.

{تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ} [الغاشية: ٥]: مُتَناهيةٍ في الحرارة لو وَقَعتْ منها قطرةٌ في الدُّنيا لَعطَّلَتْ على الخلائقِ معايشَهم، فيُدفَعون إليها وِرْداً عطاشاً، هذا شرابُهم.

ثم ذَكَر طعامهم فقال تعالى: {لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ} [الغاشية: ٦]، وهو الشَّبْرِقُ ما دام أخضرَ، فإذا يبِسَ يقالُ لهُ الضَّريعُ، فهو أخبثُ طعام؛ لأنه أَمَرُّ من الصَّبر وأنتنُ من المِيتةِ وأشدُّ حرًّا من النار.

قال أبو الدَّرداء: إنّ اللهَ تعالى يُسلِّطُ على أهل النار الجُوعَ حتى يَعدِلَ عندَهم ما هم فيه من العذاب، فيَستغيثونَ فيُغاثونَ بطعام ذي غُصَّة، فيَذكرونَ أنّهم كانوا يُجيزونَ الغَصَصَ في الدُّنيا بالماء، فيَستسْقُون، فيُعطِّشُهم ألفَ سنة، ثم يُسْقَوْنَ من عينٍ آنيةٍ شَربةً لا هنيّةٍ ولا مَريّة، فإذا أدنَوْهُ من وجوهِهم سَلَخ جلدةَ وجوهِهم وشَواها، فإذا وَصَل إلى بطونِهم قطَّع أمعاءهم، وذلك قولُهُ تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [محمد: ١٥].

ولمّا نَزَلتْ هذه الآيةُ قال المشركون: إنّ إبِلَنا لَتسمَنُ على الضَّريع، وكذَبوا! إنّما تأكُلُه الإبِلُ إذا كان أخضرَ، ولذلك ردَّ اللهُ عليهم قولَهم بقولِه: {لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ} [الغاشية: ٧]، يعني: أنّ هذا الطعامَ لا تَقدِرُ البهائمُ على أكلِه، فهُو إذنْ لا يُسمِنُ ولا يغني من جوع.

واستَشكَلَ بعضُهم قولَهُ تعالى: {لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ} [الغاشية: ٦]، وذَكَر في غيرِ هذه الآيةِ أنه ليس لهم طعامٌ {إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ} [الحاقة: ٣٦]، فكيف الجمْعُ بينَهما؟ فوجهُ الجمْع بينَهما أنّ النارَ لها دَرَكات، وأنّ العقابَ يتنوَّعُ بتنوُّع المعاصي وتفاوتِها، فمنهم مَن ليس لهُ طعامٌ إلّا الزَّقُّوم، ومنهم مَن ليس له طعامٌ إلّا الغِسْلينُ، ومنهم مَن ليس لهُ طعامٌ إلّا الضَّريع، ومنهم مَن يتناولُ منَ الجميع، ومنهم مَن عقوبتُهُ دونَ ذلك، وهو صاحبُ الضَّحْضاح(١)، ومنهم مَن تأخذُه النارُ إلى رُكْبتيْه.

فصلٌ: في صفةِ نَعيم أهل الجنّة

وإنّما أتَى اللهُ تعالى بهِ بعدَ ذكرِ أحوال أهل النار ليقعَ الرّجاءُ إثْرَ الخوفِ كما يقعُ الخوفُ إثرَ الرّجاءِ ليكونَ المؤمنُ في اعتدالٍ من أحوالِه لئلّا يَقنَطَ ولا يَغترَّ،

---

(١) أصل الضحضاح في الماء إذا كان قليلًا رقيقًا، فشبه قلة النار به. غريب الحديث، للقاسم بن سلام ٤/ ٣٩٢.

كما في قولِهِ تعالى: {أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} [الحجر: ٤٩- ٥٠].

رُويَ عن عُمرَ رضي اللهُ عنه، أنه قال: لو بَلَغَني أنّ الجنّةَ لا يَدخُلُها إلّا رجلٌ واحدٌ لَرَجَوْتُ أن أكونَهُ، ولو بَلَغَني أنّ النارَ لا يَدخُلُها إلّا رجلٌ واحد لَخِفتُ أنْ أكونَهُ.

ولذلك أعقَبَ ذكرَه لأحوال أهل النار وأليم عقابِهم بقولِه: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ} [الغاشية: ٨]، أي: ذاتُ بَهْجةٍ وحُسن في نَعمةٍ وكرامة، {لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ} [الغاشية: ٩] أي: لأجل ثوابِ سعيِها في دارِ الدُّنيا راضيةٌ حينَ أُعطِيتِ الجنّةَ بعملِها، {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} [الغاشية: ١٠] أي: عاليةِ القدرِ والمنزلةِ منَ الله، وقيل: عاليةُ البناءِ والدَّرجات؛ لأنّ الجنّةَ درجاتٌ بعضُها أعلى من بعض كلُّ درجةٍ كما بينَ السماءِ والأرض.

{لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً} [الغاشية: ١١]، بخلافِ أهل الدُّنيا، فإنهم إذا كانوا في خَفْض عيْشٍ وعافية اشتَغَلوا باللَّهوِ واللَّغوِ والغناءِ والمَعازف، لا سيَّما عندَ الشُّرب.

{فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ} [الغاشية: ١٢] في غيرِ أُخْدودٍ تجري حيثُ أرادوا من منازلِهم وقصورِهم.

{فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ} [الغاشية: ١٣] ألواحُها من ذهبٍ مُكلَّلةٌ بالزَّبَرْجَدِ والياقوت، مرتفعةٌ ما لم يريدوا الجلوسَ عليها، فإذا أرادوا الجلوسَ عليها اتَّضعتْ لهم ثم ارتفعت بهم إذا جَلَسوا عليها.

{وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ} [الغاشية: ١٤] على حافاتِ العيْنِ الجارية، كلَّما أرادوا الشُّربَ منها وَجَدُوها مملوءةً، وهيَ كيزانٌ لا عُرى لها بخلافِ الأباريقِ فإنّها لها آذان، قيل: إنّ هذه الأكوابَ والأباريقَ من ياقوتٍ أحمر، وقيل: من الذَّهب، وقيل: من الوَرِق، وقيل: من الفيْرُوزَج، والمتَّجهُ أنها من الجميع؛ لأنّ القصورَ في الجنّة إذا كانت من الذَّهبِ كانت آنيتُها من الذَّهب، وإذا كانت من اليواقيتِ كانت آنيتُها منَ اليواقيت، وإذا كانت من الفَيْرُوزَج كانت آنيتُها من الفَيْرُوزَج وهو أشرفُها، والمتَّجهُ أن تكونَ آنيةَ عِليِّينَ لأنها سيّدةُ الجِنان كما أنّ الفيْرُوزَجَ أشرفُ المعادن وأعزُّها وجوداً.

{وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ} [الغاشية: ١٥] وهُو مِخَدٌّ من إستَبْرقٍ محشُوّةٌ بالمِسك، مصفوفةٌ بعضُها إلى جنبِ بعض، أينما أراد أن يجلسَ وليُّ الله جَلسَ على نُمرُقةٍ[١] وأسندَ ظهرَه إلى أخرى.

{وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ} [الغاشية: ١٦]: مُتفرِّقةٌ في مجالسِهم، وهيَ الطنافِسُ ذواتُ الخَمْل، كلُّ واحدةٍ منها: زُرْبِيّة.

---

(١) النمرق والنمرقة مثلثة. تاج العروس (نمق).

فإنْ قلتَ: إنّ اللهَ تعالى قال في هذه الآية: {وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ}، وقال في آيةٍ أخرى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} [الرحمن: ٧٦]، وقال في موضع آخر: {مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} [الرحمن: ٥٤]، وقال في غيرِها: {وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ} [الواقعة: ٣٤]، فما الجمعُ بينَ ذلك؟ قلتُ: أمّا الزَّرابيُّ المبثوثةُ فإنها في مجالسِهم وأندِيتِهم حيث يَستأنسُ بعضُهم ببعضٍ في مُتنزَّهاتِهم من غُرَفِهم وبساتينِهم يَستحِفُّونَها كما كانوا يَستحِفُّونَ في دار الدُّنيا ببيوتِ الشَّعَر والأُدُم يومَ ظعنِهم، وأمّا الفُرُشُ المرفوعةُ فكانوا يجلسونَ عليها عندَ قصدِ المزاورةِ فتسيرُ بهم كما تسيرُ السُّفُنُ بأهل الدُّنيا حتى يتقابَلوا فيتحدَّثوا ما شاء اللهُ أن يتحدَّثوا فإذا اشتَهَتْ أنفسُهمُ الانصرافَ إلى منازلِهم سار بكلٍّ سريرُه إلى حيثُ أراد من منزلِه من غيرِ معالجةٍ، وذلك قولُه تعالى: {عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧].

وأمّا الفُرُشُ التي بطائنُها من إستَبرَقٍ وفُرُشُ[١] الأنبياءِ والمُقرَّبينَ في أعلى عِلِيِّين. قيل لابن عبّاس: إذا كانت بطائنُها من إستبْرَقٍ فما تكونُ ظواهرُها؟ قال: من نُور جامد، وإنّما سَكَت اللهُ عنه لأنّ اتّكاءَهم على النُّورِ الجامد لم يُعهَدْ مثلُه في دار الدُّنيا؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يُخاطبُ العامةَ إلّا بما تحملُ عقولُها.

---

(١) كذا عبارته، ولعله أراد: فهي فرش الأنبياء...، إلخ.

والجنّةُ وما فيها مُعدَّةٌ لعامّةِ المؤمنين، وأمّا الخاصّةُ ف {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر: ٥٥]، قُرّةُ عينِهم التمتُّعُ بكلام ربِّهمُ العظيم والنظرُ إلى وجهِه الكريم في حضرةِ القُدس ومحَلِّ الأُنس، ويتّكئونَ ساعةَ نومِهم وخَلوتِهم بأزواجِهم {عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} [الرحمن: ٧٦]، فالرَّفْرَفُ: الوَشْيُ، وهو كلُّ بساطٍ عريضٍ واسع نَفِيس قد وُشِّيَ حريرُه بالذَّهب ولُمِّعَ بالياقوت وغُشِّيَ ظاهرُه بالنُّورِ الجامد، والعبقريُّ: كلُّ جليلٍ نفيس لا يكادُ يوجدُ مثلُه.

فإن قلتَ: يؤخذُ من ظاهرِ الآية أنّ العينَ واحدةٌ في قولِه تعالى: {فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ} [الغاشية: ١٢]؟ وليس كذلك، بل في كلِّ منزلٍ من منازِلها عينٌ جاريةٌ كما بيَّن ذلك بقولِه تعالى: {وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ} [الواقعة: ٣١]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [البروج: ١١]، أي: من تحتِ قصورِها وتخلَّلُ حيطانَها. وقيل: إنها هي عينٌ واحدةٌ تجري من منزلِ رسُول الله صلى الله عليه وسلم ثم تكونُ بحراً ثم تنفجرُ منها أنهارُ الماءِ ثم تنبجسُ من تلك الأنهارِ العيونُ التي تنسكبُ في منازلِ أهل الجنّةِ جميعاً، فتكونُ الآيةُ مِصْداقاً لحديثِ البيهقيِّ المشهور[١]: "إنّ جميعَ أهل الجنّةِ أضيافُ رسُول الله صلى الله

---

(١) لم أهتد إليه.

عليه وسلم في الماءِ والحِلَل، ويشاركونَ في أنهارِ اللبَنِ والعسَلِ والخمر"، ولا يتأتى ذلك إلّا بهذه المثابة، فتكونُ بهذا الاعتبارِ واحدةَ الأصل كثيرةَ الفروع.

وفي حديثِ مسلم[1] المشهورِ المُخرَّج في الصِّحاح ما نصُّه: أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "لَمقدارُ سَوطِ أحدِكم من الجنّة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها"، هي دارُ القرار لا ينفَدُ نعيمُها ولا يُحرمُ ساكنُها، "{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً} [السجدة: ١٧]، فيها ما لا عينٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سمِعتْ، ولا خَطَر على قلبِ بشر"[2]، "مَجامرُ أهلِها اللؤلؤ ورَشْحُهمُ المِسْك"[3]، لا يبلَى شبابُهم ولا تخلَقُ ثيابُهم، وإنّ في أعلاها لَسُوقاً يمُرُّونَ عليه إذا أقْبَلوا من زيارة ربِّهم ليس فيها بيعٌ ولا شراء، إنّما هي صورُ الرِّجال والنساء، فمنِ اشتهى منهم صورةً تكوَّنَها، وإنِ اشتهاها لزوجتِه تكوَّنتْها، يَرجِعون من زيارتِهم بقُرّةِ أعيُنِهم وقد تخلَّلتْ أنوارُ المشاهدة أجزاءهم، فيقولُ لهم أهلُهم: إنكم رجعتُم إلينا بجمالٍ وأنوار وكمالٍ وبهجة لم تذهَبوا عنا بها ولم تكونوا عليها؟ فيقولونَ لهم: وأنتم قد وجدناكُم كذلك.

فصلٌ: في تنوُّع عذابِ الموحِّدينَ، وأنّ العذابَ يتنوَّعُ عليهم بتنوُّعاتِ الذنوب

---

(١) بل هو من رواية الشيخين، ينظر: الجمع بين الصحيحين ١/ ٥٥٣ (٩١٤).

(٢) أخرجه الشيخان: الجمع بين الصحيحين ١/ ٥٥٨ (٩٣٢)، و ٣/ ١٣٣ (٢٣٥٠).

(٣) كذلك، الجمع بين الصحيحين ٣/ ١٧٠ (٢٣٩٣).

فأشدُّها- بعدَ قتل النفسِ وأكل الرِّبا وعقوقِ الوالديْنِ وأخذِ الرُّشا على الأحكام-: الزِّنا، قال اللهُ تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً} ومقْتًا {وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ} [النور: ٢]، يعني: لا ترحَموهم، فإنّ اللهَ تعالى قد غَضِبَ عليهم، فاغضَبوا عليهم بغَضَبِه إن كنتُم من حزبِه وإلّا عمَّكم وإيّاهم بعقابِه، فإن لم يؤخَذ الحدُّ منهم في دارِ الدُّنيا ضُرِبوا بسِياطٍ من نار على رؤوسِ الأشهادِ يومَ القيامة لُيفتضَحوا، كما قال تعالى: {وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النور: ٢] في دار الدُّنيا ليتوبوا من حِمل الفضيحةِ وألم العذاب، وليكُفَّ الحاضرونَ خوفاً من مثلِها ولْيُبلغ الشاهدُ الغائبَ فيتَّقِه.

قال صلى الله عليه وسلم: "احذَروا الزِّنا فإنّ فيه ستةَ خصال، ثلاثةٌ في الدُّنيا وثلاثةٌ في الآخرة، أمّا اللَّواتي في الدُّنيا فإنه يُورِثُ الفقرَ ويُذهِبُ البَرَكةَ ولا تحضُرُه ملائكةُ الرّحمةِ عندَ النَّزع ولا ينظرُ اللهُ إليه بعيْن الرّحمة، وأمّا اللَّواتي في الآخرةِ فسوادُ وجهِه وغَضَبُ ربِّه وجَرُّهُ بالسِّلسلةِ الكبرى على وجهِه"[١]. [و]رُويَ أنه: لمّا خَلَقَ اللهُ الأرضَ والجبال، قال: أنا اللهُ ذو بَكّة، أُفقرُ الزانيَ ولو بعدَ حين وأُغني الحاجَّ ولو بعدَ حين، وإنّ أهلَ النار لَيضحكونَ من نتَنِ فروج الزُّناة"[٢]. أخرجهما البيهقيُّ بسندٍ مرفوع[٣].

---

(١) تاريخ بغداد، للخطيب ١٤/ ٥٢٢، وشعب الإيمان، للبيهقي (٥٤٧٥).

(٢) بحر الدموع، لابن قيم الجوزية، ص: ١١٩.

(٣) سبقت الإشارة إلى شعب الإيمان بشأن الحديث الأول فقط.

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ الزُّناةَ لَيأتُونَ يومَ القيامة وفروجُهم تشتعلُ ناراً يُعرَفونَ بنَتَن فروجِهم يُسحَبون على وجوهِهم إلى النار، فإذا دَخَلوها ألبَسَهم مالكٌ دروعاً من نار لو وُضِع أحدُها على جبل لَذابَ من حرِّه وثِقْلِه ويأمُر زَبانيَةَ العذابِ بتسميرِ أعيُنِهم بمساميرَ من نار لنظرِهم إلى الحرام وغَلِّ أيديهم لكثرة ما امتدَّتْ إلى الحرام وأن يُقيِّدوا أرجُلَهم بقيودٍ من نار فلطالما مُشِّيَتْ إلى الحرام فيمتثلونَ أمرَه فينادُون: يا معشرَ الزَّبانيَة، ارحَمونا وخفِّفوا عنا من العذاب فيقولون: كيف نرحمُكم وأرحمُ الراحمينَ غضبانُ عليكم؟ أخرجه الطبرانيُّ في "الكبير"[(١)].

ومن حديثِ أبي ذرٍّ رضي اللهُ عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن مَلأَ عينَهُ من حرام ملأَ اللهُ عينَهُ من جمرِ جهنَّم"، أخرجه ابنُ ماجةَ في "مسندِه"[(٢)].

ومن حديثِ معاذِ بن جَبَل، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن زَنَى ولم يتُبْ توبةً نَصُوحاً بَعَثَه اللهُ من قبرِه عطشاناً جائعاً عُرياناً باكياً حزيناً

---

(١) الحديث رواه الطبراني؛ كما في "الترغيب والترهيب" للمنذري (٣٥٢٤)، وتناوله ابن أبي حاتم في علل الحديث (١٢٤٨)، وقال: "هذا حديث منكر".

(٢) يريد: سننه، ولم أقف عليه فيها، ورأيته في الفوائد المجموعة، للشوكاني (٢٧)، قال: "لا أصل له".

مُسوَدًّا وجهُه مُظلماً، في عنُقِه سلسلةٌ من نارٍ وعليه سِربالٌ من قَطِران، لا يُكلِّمُه اللهُ ولا يُزكِّيه ولهُ عذابٌ أليمٌ"، أخرجهُ النَّسائيُّ(١).

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن زَنى بامرأةٍ متزوِّجةٍ كان عليه وعليها نصفُ عذابِ الأُمّةِ يومَ القيامة، ويُعطي اللهُ جميعَ حَسَناتِه لزوجِها، ويجعلُ عليه جميعَ سيِّئاتِه، ويأمُرُه بسَوْقِه إلى النار حتى يَكُبَّهُ فيها على مَنخِرِيْه إن كان غيرَ عالِم، وإن كان الزوجُ عالماً حرَّم اللهُ عليه الجنّة، فإنّ اللهَ تعالى كَتَب على بابِ الجنّة حين خَلَقها أنتِ حرامٌ على الدَّيُّوث وإنّ الأرْضِينَ والسَّمواتِ لَيَلعنَّ الدَّيُّوثَ والزانيَ"، أخرجهُ الترمذيُّ بسندٍ صحيح(٢).

ومن حديثِ ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "رأيتُ ليلةَ أُسرِيَ بي تنانيرَ من نُحاس أعلاها ضيِّقٌ وأسفلُها واسع، فيها رجالٌ ونساءٌ محبوسونَ معَ العقارب والحيّات، تنهَشُهمُ الحيّاتُ وتلسَعُهم العقاربُ، والسُّمُ يسيلُ من موضع نهْشِهم ولسْعِهم، والصَّديدُ يَسيلُ من فروجِهم

---

(١) لم أقف عليه في سنن النسائي، وفي صحيح مسلم شيء من هذه العقوبة بحق النائحة، لا الزاني، الحديث ٢٩- (٩٣٤) عن أبي مالك الأشعري.

(٢) لم أقف عليه عند الترمذي، وأخرجه الذهبي في الكبائر، ص ٤٥، وابن حجر الهيتمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/ ٢٢٥.

وهم مُعلَّقون بشعورِهم، فقلتُ: من هؤلاءِ يا جبريل؟ قال: الزَّوَاني والزانياتُ من أُمّتِك"، أخرجَه الترمذيُّ أيضاً بسندٍ لا بأسَ به(١).

كما أخرجهُ مسلمٌ والنسائيُّ من حديثِ ابنِ عُمر رضي اللهُ عنهما، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن صافَح امرأةً لا تحِلُّ له جاء يومَ القيامة ويدُه مغلولةٌ إلى عُنُقِه بسلسلةٍ من نارٍ، فإنْ قبَّلها قَرَضَتِ الزَّبانيَةُ شفتيْهِ بمَقاريضَ من نار، فإنْ زَنَى بها نَطَق فخِذاهُ بينَ يدَي الله، فيقولُ له: فعلتَ كذا في موضع كذا في وقتِ كذا في شهرِ كذا، فينظرُ اللهُ سبحانه إليه بعين الغَضَب فيقعُ لحمُ وجهِه ويبقى عظماً بلا لحم، فيقولُ اللهُ سبحانَه للَّحم: ارجِعْ بإذْني فيرجعُ، ويتحوَّلُ لونُ وجهِه فيصيرُ أسودَ من النار، فيبكي ويقول: ما عصيتُكَ قطُّ، فيقولُ اللهُ سبحانَه للِّسان: اخرَسْ، فيخرَس، فتقولُ اليدُ: أنا للحرام تناولت، وتقولُ العينُ: وأنا نظرتُ، وتقولُ الرِّجلُ: وأنا للحرام مشَيْت، ويقولُ الفرجُ: وأنا زَنَيتُ، ويقولُ الحافظ: وأنا سمعتُ، ويقولُ الآخَر: وأنا كتبتُ، وتقولُ الأرضُ: وأنا رأيتُ، ويقولُ اللهُ سبحانه: أنا وعِزَّتي وجَلالي اطَّلعتُ وسَتَرت، يا ملائكتي خُذوه، وفي عذابي ألقُوه، ومن سَخَطي فأذِيقُوه، فقد اشتدَّ غَضَبي على مَن قلَّ حياؤه منّي"، أخرجهُ ابنُ ماجةَ بسندٍ حَسَن غريب(٢).

---

(١) لم أقف عليه فيه.

(٢) ليس هذا الحديث في شيء من المصادر التي سماها المصنف، وبنحوه في مسند الحارث (٢٠٥).

فصلٌ: في نكالِ آكِلِ الرِّبا ومُوكِلِه والشاهِدِ عليه والحاكم به

قال اللهُ تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} [البقرة: ٢٧٥].

ومن حديثِ ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ آكلَ الرِّبا لَيقومُ من قبرِه وبطنُه كالجَبَل يَسقُطُ تارَةً ويقومُ أخرى، كالَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، وهو الصَّرَع، وما آذَن اللهُ بحربِه إلّا أكَلَةَ الرِّبا ومَن آذى وليًّا لهُ، فويلٌ لِمَن وَقَع الحربُ بينَهُ وبينَ الله، فإنّ اللهَ لا قِبَلَ لأحدٍ بحربِه" أخرجه البيهقيُّ من طريق أبي أُمامةَ مرفوعاً. ومن حديثِ عبد الله بن عَمْرِو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما أنا أسيرُ ليلةَ أُسرِيَ بي إذْ سمعتُ من فوقِ رأسي رعداً وبرقاً وصواعقَ، فرفعتُ رأسي فإذا رجالٌ بطونُهم كالبيوتِ وإذا فيها حيّاتٌ وعقاربُ تنهَشُ ولا تُقلِع فقلتُ من هؤلاءِ يا جبريل؟ قال أكَلةُ الرِّبا"[١].

ومن حديثِ أبي ذَرٍّ، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن أكَل منَ الرِّبا درهماً فكأنّما زَنَى بأُمِّه في الإسلام"، أخرجهُ الترمذيُّ أيضاً[٢].

---

(١) كذا، ولم أقف عليه من طريق ابن عباس ولا من طريق أبي أمامة

(٢) لم أقف عليه عند الترمذي، وبمعناه في مسند أحمد (٢١٩٥٧) و (٢١٩٥٨) مع زيادة تخريج فيهما.

ومن حديثِ البراءِ، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أَكَلةُ الرِّبا لا ينظرونَ إلى وجهِ الله تعالى يومَ القيامة"، أخرجه البيهقيُّ(١).

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لَعَن اللهُ آكِلَ الرِّبا ومُوكِلَه وشاهدَه وكاتبَه والحاكمَ به، والواشمةَ والمُستوشِمةَ، والمُحلِّل، ومانعَ الزّكاة"، أخرجه النسائيُّ(٢).

ومن حديث حُذَيفةَ بنِ اليَمان رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لَيَظهرَنَّ في آخرِ الزَّمان أربعُ خلال: أكلُ الرِّبا، والزِّنا والأيْمانُ الفاجرةُ في البيع والشّراء، ونقصُ المِكْيال وبَخْسُ الميزان، فإذا ظَهَر فيهم ذلك ابتلاهمُ اللهُ بجميع الأمراض وجرَّد عليهمُ السَّيفَ ومَنَع منهمُ القَطْرَ ورُفِعتْ عنهمُ البَرَكة"(٣).

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن أكلَ الرَّبا مَلأَ اللهُ سُبحانَهُ بطنَه بعددِ ما أَكَل منَ الرِّبا وإنِ اكتَسبَ منه

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في السنن الكبرى (٩٣٣٥) ، والصغرى (٥١٠٤)، عن الحارث، يعني: ابن عبد الله الأعور، قال الدكتور بشار عند ترجمة الحارث هذا من تهذيب الكمال: "والنسائي مع تعنته في الرجال، فقد احتج به وقوى أمره، والجمهور على توهين أمره مع روايتهم لحديثه في الأبواب". التهذيب ٥/ ٢٥٣.

(٣) هو في موطأ مالك (طبعة الأعظمي) ٣/ ٦٥٤ (١٦٧٠)، وهو بغير اللفظ الذي ساقه المصنف رحمه الله هنا.

مالاً لم يقبَلِ[1] اللهُ منه صَرْفاً ولا عدْلاً، ولا يزالُ في لعنةِ الله وسَخَطِه ما بقيَ عندَهُ وزنُ دانُقٍ من ذلك المال الذي اكتَسَبه منَ الرِّبا"، أخرجه الطبرانيُّ في "الأوسط"[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: "الذَّهبُ بالذَّهبِ وزناً بوزنٍ يداً بيدٍ، والفضّةُ بالفضّةِ وزناً بوزنٍ يداً بيدٍ، والطعامُ بالطعام وزناً بوزنٍ يداً بيدٍ، والزائدُ والمُستزيدُ في النار"[3].

واعلمْ أنّ الرِّبا يُحبطُ الحسنات ويُبطلُ الطاعات ويُعظِمُ الخطيئات، فمَن كان صائماً وأفطرَ عليه لم يُقبَلْ صومُه، ومَن تصدَّق منه لم تُقبَلْ صدقتُه وكانت زادَه إلى النار، وما مِن ساعةٍ تمضي عليه إلّا واللهُ يُحاربُه ولا ينظرُ إليه بعين الرّحمةِ ولا يُكلِّمُه.

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "آكلُ الرِّبا كعابدِ الوَثَن"[4]، و"لا يَدخُل الجنةَ لحمٌ نَبَت من ربًا وسُحتٍ

---

(١) في النسخة: "لم يقبله".

(٢) لم أقف عليه فيه، وبنحوه عند الإمام الغزالي في الإحياء ٢/ ٨٩، وابن الجوزي في بحر الدموع، ص ١٤٤، والشوكاني في الفوائد المجموعة (١٦).

(٣) من حديث أبي بكر الصديق، وهو في مسنده (٤٨) و(٨٥).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤٨١٠)، والمشهور أن الذي كعابد الوثن هو مدمن الخمر، كما في دواوين السنة الكبيرة، انظر مثلًا: مسند أحمد (٢٤٥٣)، وصحيح ابن حبان (٥٣٤٧)

حتى تأكُلَه النار"، أخرجه البيهقيُّ[1]، قال: "ألا أُخبرُكم بأخبثِ لحم نَبَت في الدُّنيا؟"، قالوا: بلى يا رسُولَ الله، قال: "لحمٌ رَبِيَ من حرام"، أخرجه ابنُ ماجة[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنّ في جهنَّم وادياً تستعيذُ جهنَّمُ من ريحِهِ كلَّ يوم سبعَ مرّات، لو أُلقيَتْ فيه الجبالُ لَذابتْ من حرِّه، يُسجَنُ فيه المُتهاوِنونَ بالصَّلاة، والمُطفِّفونَ للمِكْيال والميزان، فويلٌ لِمَن باعَ الجنّةَ التي عرْضُها كعرضِ السماءِ والأرض بحظٍّ قليل تافهٍ من الدُّنيا الفانية"، رواهُ صاحبُ "الترغيبُ والترهيب"[3].

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أيُّها الناس، اتَّقوا اللهَ في خمسٍ قبلَ خمس: ما نَقَص قومٌ المِكْيالَ إلّا ابتلاهُمُ اللهُ بالغلاءِ ونَقْص من الثَّمرات، وما نَكَثَ قومٌ عهدَهم إلّا سلَّط اللهُ عليهم عدوَّهم، وما مَنَع قومٌ زكاتَهم إلّا أمسَكَ اللهُ عنهم قطرَ السّماء، وما ظَهَرتِ

ونقل عن أبي حاتم أنه فسره بقوله: "قال أبو حاتم: يشبه أن يكون معنى هذا الخبر: من لقي الله مدمن خمر مستحلا لشربه، لقيه كعابد وثن، لاستوائهما في حالة الكفر".

(١) في شعب الإيمان (٩٣٩٩)، وهو في دواوين السنة وسننها.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أخرج المنذري قطعة منه في مواضع عدة: (٤٤) و(٥٥٦٠)، وفي البدع لابن وضاح (٢٦٣) رواية أتم.

الفاحشةُ في قوم إلّا سلَّط اللهُ عليهمُ البلاء، وما حَكَم قومٌ بغير القرآن إلّا أذاقَهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ ظُلْمَ الأُمراء وجَورَ الوُزَراء وأذاقَ بعضَهم بأسَ بعض"، أخرجهُ النسائيُّ وغيرُه[1].

ومن حديثِ حُذَيفةَ بن اليَمان رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ على الصّراط لَكلاليبَ من نار، فمَن تقلَّد درهماً حراماً تعلَّقتْ تلك الكلاليبُ برِجْليْهِ فلا يستطيعُ المرورَ على الصِّراطِ حتى يرُدَّه إلى أهلِه، فإن لم يوفِهِ من حسناتِه حُمِل عليه من خطاياهُ ثم يُطرَحُ في النار، رُدُّوا المظالمَ إلى أهلِها قبلَ أن تؤخذَ من حسَناتِكم"، أخرجه الترمذيُّ بسندٍ مرفوع[2].

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن سَرقَ بعيراً جاء به يومَ القيامة يحملُه على عُنُقِه وله رُغاء، ومن سَرقَ بقرة جاء يومَ القيامة يحملُها ولها خُوار، ومن سَرقَ شاةً جاء يومَ القيامة يحملُها ولها ثُغاء، ثم يُنادَى عليه في الجَمْع: ألَا إنّ فلاناً قد سَرق وخان، فلَذلك النداءُ والافتضاحُ أشدُّ عليه من دخول النار، ومن سَرق شيئاً من ذهبٍ أو وَرِق أو غيرِ ذلك منَ المتاع جاء يومَ القيامة وقد طُوِّقَه في عُنُقِه وهو يتلهَّبُ عليه ناراً، ومن أكل شيئاً حراماً أُوقدَ له النارُ في بطنِه ولها صوتٌ يرعبُ أهلَ الموقف، فلا يزالُ

---

(١) هو في موطأ مالك، طبعة الأعظمي (١٦٧٠).

(٢) لم أقف عليه.

كذلك حتى يقضيَ اللهُ بينَ العباد"، رواه الطبرانيُّ في "الكبير"(١)، وله أسانيدُ جَمّةٌ وروايات يزيدُ بعضُها على بعض.

فصلٌ: في إثم مَن قَتَل نفساً بغيرِ نفسٍ

أمّا قاتلُ النفسِ فإنه يقومُ من قبرِه وقد كُتبتْ في جبهتِه ثلاثةُ أسطُر: الأولُ: يا مَن هَدَم بُنيانَ الله، وفي الثاني: اليومَ تيْأسُ من رحمةِ الله، وفي الثالث: أبشِرْ بغَضَبٍ منَ الله.

رُويَ أنّ القاتلينَ محبوسُونَ في آبارٍ من نار خالدينَ فيها إلى أبدِ الآباد، وفي البرزَخ لا تزالُ الملائكةُ تذبَحهُم بسكاكينَ من نار، فيسيلُ من حلوقِهم دمٌ أسودُ منَ القَطِران، ثم يعودُ كما كان، ثم يُذبَح، فلا يزالُ كذلك حتى يُبعَثَ.

ومَن قَتَل نفسَه بسِكِّينٍ فإنه لا تزالُ الملائكةُ تتوَجّاهُ بتلك السِّكّين في أوديةِ جهنّمَ إلى أبدِ الآباد، يقولُ اللهُ تبارك وتعالى لِمَن قَتَل نفسَه: "بادَرَني عبدي بنفسِه، حرَّمتُ عليه الجنة"(٢).

ومَن ألقَى بنفسِه من شاهقِ جبل أو في بئرٍ لا تزالُ الملائكةُ تُلقيه من شواهق جبال من نارٍ في أوديةٍ من نارٍ خالداً مُخلَّداً.

---

(١) هو في تفسير الطبري ٦/ ٢٠٧، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٣/ ٨٥ (٤٤٥٦).

(٢) قطعة من حديث في البخاري (٣٤٦٣).

وإن علَّق نفسَه بحبل فماتَ لا يزال معلقاً في جُذوع من نارٍ أبدَ الآباد آيِساً من رحمةِ الله.

وأمّا الموءودةُ فإنّها تأتي يومَ القيامة ولها صوتٌ مثلُ الرَّعد فتتعلَّقُ بأُمِّها فتقولُ: يا ربّ، سَلْ هذه لِمَ قتلتْني؟ فيقولُ اللهُ سبحانَه لها: لِمَ قتلتِها؟ فتدَّعي أنها لا تقدرُ على رزقِها، فيقول: إنّي لم أُكلِّفْكِ رزقَها وقد حرَّمتُ قتلَ النفس إلّا بالحقّ، يا ملائكتي، أسلِموها إلى مالكٍ خازنِ النار، فيضعونَ الطَّوقَ والسِّلسِلةَ في عُنُقِها ويسحبونَها على وجهِها إلى النار، فيرميها مالكٌ في جُبِّ الأحزان، وهو جُبٌّ عميقٌ فيه نارُ اسمُها نارُ الأَنْيار إذا خَمَدت جهنَّمُ يُفتحُ ذلك الجُبُّ فتتَّقدُ النارُ من حرِّه، وذلك معنى قولِه تعالى: {كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [الإسراء: ٩٧][١].

وفي ذلك الجُبِّ سِباعٌ وعقاربُ وحيّاتٌ تنهَشُ المعُذَّبين، وزَبانيَةٌ بأيديهم حِرابٌ من نار تطعنُ بها القاتلين، فتبقَى في ذلك الجُبِّ خمسينَ ألفَ سنةٍ حتى يقضيَ اللهُ سبحانَه بينَهم ما يشاء.

وكذلك يُفعَلُ بكلِّ مَن عذَّبَ نفساً بغيرِ حقّ، يُروَى أنّ العُصفورَ إذا عذَّبه إنسانٌ يأتي يومَ القيامة وله دَوِيٌّ يقولُ: يا ربّ، سلْ هذا: لِمَ عذَّبني وقتَلَني بغير حاجة؟ فيقولُ اللهُ سبحانه: لقد أُخِذ لك بحقِّكِ منه، وعزَّتي وجلالي لا يُجاوزُني

---

(١) كتب العلامة الدكتور جواد علي فصلًا متحفًا حول وأد البنات عند العرب في كتابه العظيم "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" ٩/ ٨٨ وما بعدها، فانظره فإنه عزيز.

اليومَ ظُلمُ ظالم، ولَأُعذِّبنَّ كلَّ مَن عذَّب رُوحاً بغيرِ حقّ، أنا المَلِكُ الديّان، لا ظُلمَ اليوم، عبادي، وعزَّتي وجلالي لَأُنصِفَنَّ المظلومَ من الظالم ولو لطمةً بكفٍّ أو ضَربةً على يد، ولَأقتصَّنَّ للجَمّاءِ من القرناء، ولَأقتصَّنَّ للعُود ولَأسألَنَّهُ: لِمَ خَدَشَ العودَ، ولَأسألَنَّ الحجرَ: لِمَ دنَّستَ صاحبتَها؟ ولا يدخلُ الجنّةَ من عليهِ مَظلِمةٌ حتى يؤدِّيَها من حسناتِه، فإنْ لم تكنْ لهُ حَسَناتٌ رَفَع ذنوبَ المظلومينَ ومضَى إلى النار"، أخرجهُ البيهقيُّ بتمامِه(١).

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أكبرُ الكبائر عندَ الله الشِّركُ بالله وقتلُ النفْسِ(٢)، وكما لا أشفعُ في المُشركِ بالله فكذا لا أشفعُ في قاتل النفس، وكما أنّ المشركَ بالله مُخلَّدٌ في النار فكذلك قاتلُ النفس مُخَلَّدٌ في النار، وكما أنّ غَضَبَ الله على المُشرك شديدٌ فكذلك غَضبُه على قاتل النفس شديد، وكما يَلعَنُ اللهُ المُشركَ يومَ القيامة كذلك يَلعَنُ قاتلَ النفس، وإنّ جهنَّمَ لَتُخسَفُ به إلى الدَّرْك الأسفل من النار، وكما أعدَّ اللهُ سبحانه للمُشركِ عذاباً عظيماً كذلك أعدَّ لقاتل النفسِ عذاباً عظيماً، قال اللهُ عزَّ وجلّ: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالى: {أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) هما من ضمن آثام نسأل الله السلامة منها معدودة في الكبائر مضى تخريجها في ثنايا هذا الكتاب بإسناد صحيح.

الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: ٣٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: "لو اجتَمَعتْ ألفُ نفس على قتلِ قتيل كان على كلِّ واحدٍ منهم قتلٌ، ويُكتَبُ عليهم وِزرُ مَن قَتَل الناسَ جميعاً، ومَن أحسَن إلى نفسٍ مأسورةٍ بكُسْوةٍ أو طُعمة وسقاها شَربةَ ماء على ظمأٍ، أو فرَّج على مسلم كُربةً فكأنّما أحسَن إلى الناس جميعاً"(١).

فصلٌ: في جزاءِ مَن أحسَن إلى عيالِه ونسائه
وفي عقابِ من أساءِ عِشرتَهم ولم يقمْ بواجبِ حقِّهم

ومن حديثِ أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "المُحسِنُ إلى نسائه وعيالِه وأولادِه يُعطَى درجةَ المُجاهدِ في سبيل الله"، أخرجهُ الترمذيُّ(٢).

ومن حديثِ ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أفضَلُ الصَّدَقاتِ بعدَ الزَّكاة: درهمٌ تُنفقُه على نفسِك تصونُها عن مسألةِ الخَلْق، ودرهمٌ تُنفقُهُ على زوجتكَ، ودرهمٌ تُنفقُه على وَلَدِك وما مَلَكتْ يمينُك

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) سنن الترمذي (١٦٥٥).

تَصونُهم عن الحاجةِ إلى الناس، فيَكتُبُ الله سبحانه لكَ أجرَهُ سبعينَ ضِعفاً"، أخرجهُ النَّسائيُّ[١] وغيرُه.

ومن حديثِ معاذِ بن جَبَل رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ابدَأْ بنفسِك ثم بمَن تَعُول"، رواهُ الشَّيخان[٢].

وقال اللهُ تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} [البقرة: ٢١٩]، أي: الفَضْل.

وقال صلى الله عليه وسلم: "من أمسَى تَعباناً ليصونَ أهلَهُ عن مسألةِ الناس أمسَى مغفوراً لهُ، وكَتَب سبحانه أجرَه مُضاعفاً سبعينَ ضعفاً"، أخرجه البيهقيُّ من طريق أبي أُمامةَ مرفوعاً[٣].

ومن حديثِ أنسِ بن مالكٍ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن كان تحتَ يدِه شيءٌ فلْيُحسِنْ إليه"، فقال رجلٌ: يا رسُولَ الله، ليست لي زوجةٌ ولا وَلَدٌ ولا عَقِيلة، وما أصبح في مِلْكي إلّا دجاجة، فقال لهُ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لو قصَّرتَ في عَلَفِها يوماً لم يكتبْكَ اللهُ من المُحسنين"، أخرجَهُ النسائيُّ[٤] وغيرُه.

---

(١) المجتبى من سنن النسائي (٥٤١٨).

(٢) الجمع بين الصحيحين ٣/ ١٠١ و٢٣٦ (٢٢٩٣) و(٢٤٩٦) عن أبي هريرة، ثم ٣/ ٣٨٥ (٢٨٦٨) عن حكيم بن حزام، وأخرجه مسلم في أفراده ٩٧- (١٠٣٦) عن أبي أمامة.

(٣) ينظر: إحياء علوم الدين ٢/ ٩٠ وغيره.

(٤) لم أقف عليه.

ومن حديثِ أنس، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "عليكُم باللُّطفِ والرِّفق بنسائكم، لا تَظلِموهُنَّ ولا تُضيِّقوا عليهنَّ، فإنّ اللهَ سبحانه يغضبُ للمرأة إذا ظُلمت كما يغضبُ لليتيم"، أخرجهُ التّرمذيّ[١].

وقال صلى الله عليه وسلم: "خيرُكم خيرُكم لأهلِه، وأنا خيرُكم لأهلي، ما أكرمَ النِّساءَ إلّا كريم، ولا هانَهُنَّ إلا لئيم"، أخرجهُ السُّيوطيُّ في "الجامع" مرفوعاً[٢].

ومن حديثِ عليِّ بن أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أولُ ما يُحاسَبُ الرجُلُ يومَ القيامة على صلاتِه، ثم على نسائه وما مَلَكتْ يمينُه، إنْ أحسَن عِشرَتَهُنَّ أحسَن اللهُ تبارك وتعالى إليه، وأولَ ما تُحاسَبُ المرأةُ على صلاتِها، ثم على حقِّ زوجِها"، قالوا: يا رسُولَ الله، إنّ فلانةَ صَوّامةٌ قَوّامة، إلّا أنها تؤْذي زوجَها وجيرانَها بلسانِها، قال: "هي في النار"[٣].

قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ المرأةَ إذا آذَتْ زوجَها بلسانِها لا يَقبلُ اللهُ صلاتَها ولا حسنةً من حسَناتِها حتى تُرضيَهُ"، أخرجهُ البيهقيُّ.

---

(١) لم أقف عليه في سنن الترمذي، وبنحوه في مسند الحارث (٢٠٥) عن أبي هريرة وابن عباس.

(٢) جامع الأحاديث (١٢١٧١).

(٣) نحوه في مسند أحمد (٩٦٧٥) عن أبي هريرة.

وكان إبراهيمُ عليه السلامُ اشتكَى إلى الله خُلُقَ سارة، فأوحَى اللهُ إليه أنّي خلقتُها من ضِلْع[١] أعوَجَ، وكلُّ النساءِ كذلك، وإنك إنْ أردتَ تقويمَ الضِّلع كسرتَه[٢]، فاصبرْ عليها والبَسْها على ما فيها، إلّا أن ترى نقصاً في دينِها.

أخرج[٣] البيهقيُّ[٤]، أن رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "يَلزَمُ الرجلَ المسلمَ أن يُلزمَ أهلَه وما مَلَكتْ يمينُهُ الوضوءَ ونيّتَهُ، والتيمُّمَ، والغُسلَ من الجَنابة والحَيْض والنِّفاسِ والاستحاضة، وفرائضَ الصَّلاة وسُننَها، واعتقادَ أهل السُّنّة، وتركَ الغِيبةِ والنَّميمة، وتوقِّيَ النَّجاسة، والصَّمتَ على ما لا يعني، وملازمةَ الفِكْر والأدبِ واجتنابَ الآثام والسُّوء، فإنْ قصَّر علمُهُ عن ذلك: تعلَّم وعلَّمهم، وإلّا سأل وعلَّمهم، وإلّا أَذِن لهم في الخروج والسُّؤال عمّا يجبُ عليهم من أمرِ دينِهم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "طلبُ العلم فرْضٌ على كلِّ مسلم ومُسلمة"[٥].

---

(١) يجوز في هذه اللفظة كسر الأول وسكون الثاني، كجذع، أو كسر ففتح، كعنب. مستفاد من تاج العروس (ضلع). وكلمة الضلع تعبير عن المرأة الواحدة، وأما النساء فالتعبير عنهن بالقوارير. مستفاد من شرح السنة، للبغوي ١٢/ ٢٢١.

(٢) بنحو ذلك في الصحيحين، كما في الجمع بين الصحيحين ٣/ ١٧٩ (٢٤٠٧).

(٣) في النسخة: أخرجه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) أخرجه ابن ماجة (٢٢٤) عن أنس.

ويَلزَمُه أيضاً القيامُ عليهم بكفِّ بعضِهم عن ظلم بعض، وإقامةُ الحدِّ عليهم، والإحسانُ بالنفقةِ والكُسوةِ إليهم، وتفقُّدُ أحوالِهم، ويَحذَرُ عليهم من النار كما يَحذرُ على نفسِه، قال اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ} [التحريم: ٦].

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنّ أهلَ البيتِ لَيتتابَعونَ في الجنّة حتى لا يبقى منهم حُرٌّ ولا عبدٌ ولا أَمَة، وإنّ أهلَ البيتِ لَيتتابَعونَ في النار حتى لا يبقى منهم حُرٌّ ولا عبدٌ ولا أَمَة، وإنّ مِن هَوانِ المؤمن على الله أن يُدخلَ عبدُهُ وأَمَتَهُ النارُ وهُو ينظر"، أخرجهُ البيهقيُّ مرفوعاً(١).

وقال صلى الله عليه وسلم: "كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّتِه، فالرجلُ راعٍ في أهل بيتِه وهو مسؤولٌ عن رعيَّتِه، والمرأةُ راعيةٌ في مال زوجِها وهِي مسؤولةٌ عن رعيَّتِها، والعبدُ راعٍ في مال سيِّدِه وهو مسؤولٌ عن رعيَّتِه"، أخرجه ابنُ ماجةَ بأسانيدَ جَمّةٍ ورواياتٍ يزيدُ بعضُها على بعض، كما وَرَد في الصَّحيحيْن.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما يلقَى الرجلُ ربَّه بذنبٍ أعظمَ من جهالةِ أهلِه"(٢)، وقال: "أولُ مَن يلقَى الرّجلُ يومَ القيامة زوجتُه وأولادُه، ويقولونَ: يا

---

(١) لم أجده مرفوعًا، وبنحوه عند الطبراني في الكبير من كلام ابن عمر، كما في جامع الأحاديث للسيوطي (٣٩٢٦٢)، ومن كلام أبي جحيفة، كما فيه عنده أيضًا (٤٤٨٤٨).

(٢) الفوائد المجموعة (٦٧).

ربِّ، خُذْ لنا بحقِّنا من هذا الرجُل فإنهُ لم يُعلِّمْنا أمورَ دينِنا"، أخرجهُ النَّسائيُّ بسندٍ لا بأسَ به.

وإنْ كان قد علَّمَهم أمرَ دينِهم وقام عليهم بما ينبغي اجتمعوا عليه وهَشُّوا للقائهِ كما كانوا يهَشُّونَ إليه إذا قام في دارِ الدُّنيا، فيهنِّئونَه ويُهنِّئُهم، وملائكةُ الرَّحمة تُبشِّرُهم بجنّةٍ ورضوانٍ وربٍّ غير غَضْبانَ، وذلك معنى قولِه تعالى: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٦٧].

فصلٌ: في نعتِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أولياءَ الله الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنون غيرَ ما تقدَّم ذكرُه

عن أنسِ بن مالكٍ رضي اللهُ عنه، قال: سُئل رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقيل: يا رسُولَ الله، مَن أولياءُ الله الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون؟ فقال: "الذين نَظَروا إلى باطن الدُّنيا حين نَظَر الناسُ إلى ظاهرِها، واهتمُّوا بآجلِ الدُّنيا حين اهتمُّوا الناسُ بعاجلِها، فأماتوا منها ما خَشُوا أن يُميتَهم وتَرَكوا منها ما عَلِموا أنه سيترُكهم، فما اعترضَهم من نائلها عارضٌ إلّا رَفَضوهُ، ولا خَدَعَهم من رفيعِها خادعٌ إلّا وضَعوه، خَلُقَتِ الدُّنيا في صدورِهم فلم يجدِّدوها، وخرَّبت بُنيانَهم فلم يَعمُروها، بل يهدمونَها فيبنُونَ بها آخرتَهم ويبيعونَها فيشترونَ بها عاقبتَهم، نظروا إلى أهلِها صَرْعى قد خَلَتْ بهمُ المَثُلات،

فلا أمانيَ إلّا دونَ ما يَرجُون، ولا خوفَ إلّا دونَ ما يَحزَنون"، أخرجَهُ البيهقيُّ في كتابِ "الزُّهد"(١).

يُروَى أنّ عيسى عليه السلامُ سأل ربَّه أن يُريَهُ وليًّا من أوليائه، فأوحى اللهُ إليه: إنْ أردتَّ ذلك فاقصِدِ الخِربةَ الفُلانيّةَ، فقَصَدَها، فإذا هو برجُل ميِّت وتحتَه قطعةُ لَبَد، وتحتَ رأسِه لبِنة، فخَرج إلى الحَواريِّينَ فقال لهم: سألتُ اللهَ أن يُرِيَني وَليًّا من أوليائه، فأرانيهُ ميتًا، فتعالَوْا أعينُوني عليه، وكان قد مات لهم مَلِكٌ، فمشَى الناسُ معَ جَنازتِه، وأقاموا عندَ قبرِه ثلاثةَ أيام، فقال: سبحانك! وَليُّك أَمَتَّهُ بمَسغَبَةٍ لم يعبأْ به أحدٌ من خلقِك، وهذا مِلِكٌ جبّار فعلتَ بهِ كذا وكذا؟ فأوحَى اللهُ تعالى إلى جبريلَ أنِ اكشِفْ لعيسى عن الجنّةِ والنار، فكَشَف له عنهُما، فرأى موضعَ الوَليِّ من الجنّة وموضعَ الملِكِ من النار، فأوحَى اللهُ إليه أنْ: يا عيسى، ما ضرَّ وَليِّي ما زَوَيْتُ عنه من الدنيا وما أصابَهُ فيها من البلايا، حيث جعلتُ مصيرَه إلى الجنّة، وما نفَع عبداً ما بسَطتُ عليه من نَعيم الدُّنيا وعزِّها ومُلكِها حيثُ زَويْتُ عنه الجنّةَ وجعلتُ مصيرَه إلى النار وفضحتُهُ على رؤوسِ الأشهاد.

فصلٌ: في نُبَذٍ من الحِكَم النَّفيسة والحقائق الغريبة

قال صلى الله عليه وسلم: "من أطعَم أخاه حتى يُشبعَه وسقاه من مائهِ حتى يَرويَه أبعدَهُ اللهُ من النار، وجَعل بينَه وبينَها سبعةَ خنادقَ، ما بينَ كلِّ خندقيْنِ

(١) هو: كتاب "الزهد الكبير"

مسيرةُ خمسِ مئةِ عام(١)، وإنّ اللهَ لَيُدخلُ الرجُلَ الجنّةَ بلُقمةِ خبز وقبضةِ تمر وكل ما يَشبَعُ به المسكينُ يدخُلُ به الجنةَ ثلاثة: رَبُّ البيت والزَّوجةُ والخادمُ الذي يناولُ المسكينَ، ومَن أطعمَ أخاه لُقمةً من حلواءَ لم يذُقْ مرارةَ الموقف"، أخرجهُ الطَّبرانيُّ بتمامِه وبعضُه في الصَّحيحيْن(٢).

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "خمسةٌ غَضِب اللهُ عليهم إن شاء أمضَى غضبَهُ عليهم في الدُّنيا، وإلّا أمَرَ بهم يومَ القيامة فغُلَّت أيديهم وأرجُلُهم إلى أعناقِهم ثم أُلقُوا في النار، ونوديَ عليهم باللَّعنةِ والغضب: أميرُ قوم يأخُذ حقَّهُ من رعيَّتِه ولا يُنصفُهم من نفسِه ولا يدفعُ عنهمُ الظلمَ، وزعيمُ قوم يطيعونَهُ ولا يساوي بينَ القويِّ والضعيفِ ويتكلَّمُ بالهوى، ورجلٌ لا يأمُر أهلَه ووَلَدَها بطاعةِ الله ولا يُعلِّمُهم أمرَ دينِهم، ورجلٌ استأجَر أجيراً ولم يوفِهِ أجرَه، ورجلٌ ظلمَ امرأةً مهرَها"، أخرجهُ البيهقيُّ وغيرُه(٣).

قال أبو الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه: لما نزلَ قولُهُ تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ}

(١) إلى هنا في المعجم الكبير، للطبراني ١٣، ١٤/ ١٠٢ (١٤٧١٩).

(٢) أشرنا إلى لفظ الطبراني آنفًا، وانظر تخريج الحديث في كبير الطبراني ففيه غنية.

(٣) الكبائر للذهبي، ص١٠٦.

[فاطر: ٣٢] قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "السابقُ بالخيراتِ يَدخُلُ الجنّةَ بغيرِ حساب، ويجيءُ المُقتصِدُ فيُحاسَبُ حساباً يسيراً، ثم يتجاوزُ اللهُ عنه فيُدخلُه الجنّةَ، ويجيءُ الظالمُ بنفسِه فيقفُ ويعترفُ بذنوبِه فيُجزَى ثم يَدخُلُ الجنّةَ بفضل رحمةِ الله، وهم الذين يقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر: ٣٤]، غَفَر الذّنبَ الكثير وشكر اليسير.

ومن حديثِ ابن عباسٍ رضي اللهُ عنهما، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إن القرآنَ يجيءُ يومَ القيامة في صُورة رجُل حَسَن الخَلق، فيُشفَّعُ فيَشْفَعُ، والإسلامُ مثلُه فيُشفَّعُ فيَشْفَعُ، فيتعلَّقُ به من شاء اللهُ، فيَهوي بهم إلى الجنّة، ويؤتَى بالدُّنيا في صُورة عجوزٍ شمطاءَ أقبحَ ما تكون، فيقالُ للناس: أتعرفونَ هذه؟ فيقولون: نعوذُ بالله منها، فيقالُ لهم: هذه الدُّنيا التي كنتم تتحاسدونَ عليها وتتنافسونَ فيها، فيتَّبعُها أبناؤها الذين لا يريدونَ غيرَها، فتَهوي بهم إلى النار، فيتهافتونَ فيها كما تتهافتُ الحشراتُ في النار"، أخرجهُ الطَّبرانيُّ في "الكبير"[(١)].

وتأتي الجمُعةُ في صُورة عروسٍ تُزَفُّ أحسنَ ما تكون، فيُحدِّقُ بها مُلازِموها والمُعتَنُونَ بأمرِها وقد أحاطتْ بها كُثْبانُ المِسكِ والكافورِ عليها نورٌ يتعجَّبُ منه كلُّ مَن في الموقف، فتَهوي بهم إلى بُحبوحةِ الفردَوْس. ثم يُؤتَى بالكعبةِ الشَّريفةِ وقد تضاعَفَ نورُها وبهجتُها وقد حَفَّ بها زُوّارُها وعُمّارُها والطائفونَ

(١) لم أقف عليه باللفظ الذي ساقه.

والعاكفون والرُّكَّعُ السُّجود، فلا تنتهي حتى تقفَ بينَ يدَي الملِكِ المعبود، فيقولُ: مرحباً بكعبتي ومحَلِّ مَثوبتي ويمينِ بيْعتي ومُتعبَّدِ خاصَّتي وقبلتي، فتُشفَّعُ فتَشْفَعُ، فتؤمُّ بزُوّارِها وعُمّارِها بُحبوحةَ جنّةِ الفِردَوْس، فإذا استقرُّوا فيها رُفعتِ الوسيلةُ فوُضِعتْ فيها.

ثم يُؤتى بالمساجدِ وقد رُفعت على كواهل المَلَإِ الأعلى والأنوارُ خلالَها كالسَّحابِ المركوم، فيحُفُّ بها عامروها والمؤذِّنونَ على الصَّوامع رافعي أصواتِهم بالتهليل والتكبير، وهم يومئذٍ أطولُ الناس أعناقاً وقد استحالتْ حيطانُها ذهباً ووَرِقاً، فيُشفَّعونَ فيَشفَعون، وذلك معنى قولِهِ تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ} [النور: ٣٦] في الدُّنيا بالذِّكر والصَّلاةِ والتطهير من الأقذارِ في الآخرة برَفْع الملائكةِ إياها على الكواهل وقلبِ أعيانِها ذهباً ووَرِقاً، وتراكُم الأنوارِ عليها وتشفيعِها في عُمّارها، قال الرسُولُ صلى الله عليه وسلم: "من بَنَى قدرَ فَحْص قَطاةٍ يُصَلَّى فيه بَنَى اللهُ لهُ بيتاً في الجنّة"، وقال صلى الله عليه وسلم: "بشِّرِ الخائضينَ في الظُّلماتِ إلى المساجدِ بالنُّور التامِّ يومَ القيامة"، أخرجهما البيهقيُّ والنَّسائيُّ وابنُ ماجةَ بأسانيدَ مرفوعة(١).

---

(١) أما الحديث الأول منهما ففي الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي ٢/ ٤٩٧، وأما الآخر ففي سنن ابن ماجة (٧٨١) والسنن الكبرى للبيهقي (٥١٧٤) و(٥١٧٥) و(٥١٧٦) وشعب الإيمان، له (٢٩٠١) و(٢٩٠٢) و(٢٩٠٣)، وليس في سنن النسائي رواية له.

وعنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إذا غضِبَ اللهُ على أهل الأرض وأرادَ أن يُنزلَ عليهم عاهةً، فنَظَرَ إلى عُمّارِ المساجد، رَفَعها عنهم ببرَكتِهم"(١).

وقال صلى الله عليه وسلم: "النِّفاقُ كلُّ النِّفاق، والكفرِ والشِّقاق، أن يسمعَ الرجُلُ المؤذِّنَ يُثوِّبُه(٢) ولا يأتيَهُ رغبةً عنها أو تهاوناً بالدِّين"، أخرجه الطَّبرانيُّ في "الكبير" بسندٍ رجالُه رجالُ الصحيح(٣).

و"تأتي الصَّلاةُ ولها نورٌ قد طبَّق السَّمواتِ والأرضَ حتى تغشَى مقيميها فتَهوي بهم إلى جنّةِ الفردَوْس". أخرجه ابنُ ماجةَ(٤).

ويشهَدُ له ما رواه ابنُ عبّاس، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "مَن صلَّى الصُّبحَ ثم جلسَ يذكُرُ اللهَ حتى تطلُعَ الشمسُ بنَى اللهُ له في الفردَوْس سبعينَ قصراً من الذهبِ والفضَّة، وإنْ صلَّى بعدَ طلوع الشمسِ ركعتيْنِ كانتا له بحَجّةٍ وعُمرةٍ تامَّتيْن تامَّتيْن"، أخرجهُ البيهقيُّ من طريق أبي أُمامَةَ(٥).

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال ٤/ ٢٠٥.

(٢) كتب الناسخ بعده: "التثويب: الدعاء إلى الصلاة وتثنية الدعاء وأن يقول في أذان الفجر: الصلاة خير من النوم، مرتين، والإقامة والصلاة بعد الفريضة والتعويض بالصلاة في مساجد الله".

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٢٠/ ١٨٣ (٣٩٤). وحكم المصنف رحمه الله لا يوافقه غيره عليه، وكيف يكون سنده صحيحًا وفيه زبان بن فائد؟

(٤) ونحوه في شعب الإيمان، للبيهقي (٣١٤٠).

(٥) الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٧٨ (٧٧٤١).

وقال صلى الله عليه وسلم: "مَن صلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ أربعين يوماً لم تفُتْهُ ركعةٌ كَتَب اللهُ سبحانه له براءتيْنِ: براءةً من نار وبراءةً من نفاق"، أخرجَهُ النَّسائيُّ مرفوعاً[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنّما مَثَلُ الصَّلاة كمثَل نَهَرٍ جارٍ على بابِ أحدِكم يَغتسلُ منه كلَّ يوم خمسَ مرّات، فهل يبقى عليه من دَرَنِه شيء؟"، قالوا: لا، قال: "فكذلك الصَّلاةُ تغسلُ الذُّنوبَ"، أخرجهُ النَّسائيُّ مرفوعاً، ورواه الشيخانِ بزيادة[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: "مَن حافَظَ على الصَّلواتِ الخمس بوضوئها ومَواقيتها وركوعِها وسجودِها يَعرفُ أنها حقٌّ الله عليه، كان جسدُه حراماً على النار"، أخرجهُ الترمذيُّ[3] وغيرُه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "مَن حافَظَ على الصَّلواتِ كانتْ له نجاةً يومَ القيامةِ ونوراً وبُرهاناً، ومَن لم يحافظْ عليها لم يكنْ له نورٌ ولا نجاةٌ ولا بُرهانٌ ولا أمانٌ يومَ القيامة"[1].

---

(١) ينظر: علل الدارقطني (١٥١).

(٢) رواه مسلم وحده ٢٨٣- (٦٦٧) وهو من أفراده، كما في الجمع بين الصحيحين ٣/ ٨٠ (٢٢٦٠)، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (٣١٩) والمجتبى (٤٦٢).

(٣) في مسند أحمد (١٨٣٤٦) وفيه زيادات تخريج.

كما يشهدُ لهُ قولُه تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى} [البقرة: ٢٣٨]، وقولُه تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} [الماعون: ٤- ٥] الآيةَ.

وعن أَنَسِ بن مالك، قال: كانت رُوحُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في صدرِه وهُو يقوُلُ: "الصَّلاةَ وما مَلَكتْ أيمانُكم"، فما زال يُوصي بها حتى انقطَع كلامُه"(٢).

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إذا تَرَك الرجُلُ فريضةً واجبةً مُتعمِّداً، كُتِب اسمُه على بابِ جهنَّم: فلانٌ لا بدَّ لهُ من دخول النار"، أخرجهُ الطَّبَرانيُّ.

ومن حديثِ ابن عبّاس رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لأصحابِه: "قولوا: اللهُمَّ لا تجعلْ فينا شَقيًّا ولا محروماً"، فقال: "أتدرونَ ما الشَّقيُّ والمحروم؟"، قالوا: لا، قال: "الشَّقيُّ المحرومُ تاركُ الصَّلاة على صحّتِه لا يَقبلُ اللهُ منهُ صَرْفاً ولا عَدْلاً، يتبرَّأُ اللهُ تعالى منه وملائكتُه على رؤوسِ الأشهاد"، رواه صاحبُ "الترغيبِ والترهيب" بسندٍ لا بأسَ به.

---

(١) أخرجه ابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك (٥٩).

(٢) أخرجه عن أنس: ابن ماجة (٢٦٩٧)، وأخرجه أبو داود (٥١٥٦ بتحقيق شعيب الأرناؤوط) وفيه زيادة تخاريج، وابن ماجة (٢٦٩٨)، كلاهما من حديث أم موسى سُرِّية علي بن أبي طالب، وله شاهد من حديث أم سلمة عند ابن ماجة (١٦٢٥).

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "عشَرةٌ من أُمّتي يسخَطُ اللهُ عليهم يومَ القيامة ويأمُرُ بهم إلى النارِ وليس على وجوهِهم لحمٌ"، قيل: مَن هم يا رسُولَ الله؟ قال: "الشَّيخُ الزاني، والإمامُ الضالّ، ومُدمِنُ خمر، وعاقٌّ لأَبويْه، والمَشّاءُ بالنَّميمة، وشاهدُ الزُّور، ومانعُ الزّكاة، والظالم، والدَّيُّوثُ، وتاركُ الصَّلاةِ إلّا أنّ تاركَ الصَّلاة يُضاعَفُ له العذابُ"، أخرجهُ البيهقيُّ من طريق أبي أُمامةَ.

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُسلِّموا زكاةَ أموالِكم لتاركِ الصَّلاة، ولا تساكنوهُ ولا تجالسوهُ، فإنّ اللَّعنةَ تنزلُ عليه"، رواهُ النَّسائيُّ.

وقال: "ما بينَ العبدِ وبينَ الكُفرِ إلّا الصَّلاةُ، فإنْ تَرَكَها فقد كَفَر"، أخرجهُ الترمذيُّ(١)، وبه أَخَذ الشافعيُّ رضي اللهُ عنه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "أولُ ما يسوَدُّ يومَ القيامة وجوهُ تاركي الصَّلاة"، رواه صاحبُ "العلوم الفاخرة".

وقال صلى الله عليه وسلم: "رأيتُ رجُلاً من أُمّتي جاءه عذابُ القبر، فأتاه وضوؤه فأنقذه منهُ، ورأيتُ رجُلاً من أُمّتي قدِ احتَوشَتْهُ الزَّبانيَة، فجاءتهُ الملائكةُ بذِكرِ الله الذي كان يَذكُر بهِ في دار الدُّنيا فخلَّصهُ منهم، ورأيتُ رجُلاً من أُمّتي قدِ

(١) سنن الترمذي (٢٦٢٠).

احتَوشَتْهُ ملائكةُ العذاب، فجاءتهُ صَلاتُه فخلَّصتْهُ منهم، ورأيتُ رجلاً من أُمّتي يلهَثُ عطشاً، فجاءه صيامُه فسقاهُ، ورأيتُ رجُلاً من أُمّتي والنَّبيُّونَ جلوسٌ حِلَقاً حِلَقاً، كلّما جاء إلى حَلَقةٍ طَردوهُ، فجاءه اغتسالُهُ من الجَنابةِ لأجْل الصَّلاة فأخَذ بيدِه حتى أجلسَهُ إلى جَنْبي، ورأيتُ رجلاً من أُمّتي وقُدّامَهُ ظُلمةٌ ومن تحتِه ظُلمة، فجاءهُ حَجُّه وعُمرتُه فأخرجاهُ من الظُّلُماتِ فأدخلاه في النار، ورأيتُ رجُلاً من أُمّتي يُكلِّمُ المؤمنينَ ولا يُكلِّمونَه، فجاءتهْ صِلةُ الرَّحِم فقالت: يا معشرَ المؤمنين، كلِّمُوهُ فإنهُ كان وَصُولاً للرَّحِم، فكلِّموهُ وصالِحوهُ وسلِّموا عليه، ورأيتُ رجُلاً من أُمّتي يتَّقي شَرَرَ النارِ وحرَّها عن وجهِه بيديْهِ، فجاءتْهُ صَدَقتُه فصارتْ سِتراً على وجهِه وظلًّا على رأسِه وحِجاباً له منَ النار"، أخرجها جميعاً السُّيوطيُّ في "الجامع الكبير".

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ قيَّض لمُضيِّعي الصَّلاةِ وادياً في قعرِ جهنَّمَ يقالُ لهُ: غَيٌّ، فيه حيّاتٌ كلُّ حيّة منهنَّ في طولِها مسيرةُ شهرٍ وَكَلُهنَّ اللهُ بهم تلسَعُهمُ الحيّةُ فيبقَى ألمُها سبعينَ سنةً فيتهرَّى لحمُ أحدِهم حتى يقعَ عن العظام، ثم يساقونَ إلى جُبِّ الحَزَن بمقامعَ لا يقومُ بها شيءٌ فيُقحمونَهم فيها، وفيها عقاربُ كالبغالِ السُّود لكلِّ واحدةٍ منهُنَّ سبعونَ شوكةً تحتَ كلِّ شوكةٍ ضَحْضاحٌ من سُمّ تضربُ أحدَهم فيمتلئُ جوفُه وجسمُه سُمًّا، ثم يخرُجُ من مَنخِريْهِ ودُبُرِه، ويتهرَّى لحمُهُ

يجدُ ألَمَ ذلك وحرَّهُ مئةَ خريف، ثم يُؤمَرُ به إلى الحميم[١] ليتوضَّأ منهُ، فتتساقطُ أوصالُه، ثم يُرهقونَهُ صَعُوداً، وهو جبلٌ من حديدٍ قدِ احمرَّ من لهبِ النار يُسجَدُ عليه، فإذا سَجَد عليه انتشرَ دماغُه وسَقَطتْ فروةُ رأسِه، ثم يَرجُف الجبلُ به، فيسقُط من أعلاهُ إلى أسفلِه، وذلك مسيرةَ ألفِ عام، فتحتوِشُهُ العقاربُ والحيّاتُ يَنهَشْنَهُ ويَلدَغْنَهُ، والزَّبانيةُ تضربُهُ على أنفِه ومواضع السُّجودِ منه، ويُدخِلونَ سفافيدَ من نارٍ في دُبُرِه حتى يُخرجوها مِن فيهِ، وطائفةٌ منهم يطعنُونَه بحِرابٍ من نارٍ في أحدِ جَنْبيْهِ حتى تنفُذَ من الجَنْبِ الآخَر؛ لأنه كان لا يتجافى عن المضاجع، قال اللّهُ تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} [مريم: ٥٩].

فصلٌ: في عذابِ النَّوائح والمستمِعينَ والمُعينِ لهُنَّ والميِّتِ حيث أوصَى بهِ أو عَلِم ذلك من عادتِهم فلم يَعهَدْ إليهم بتركِهِ

قال صلى الله عليه وسلم: "لَعَنَ اللهُ النائحةَ والمُستمعَ والمُعينَ لها"، وقال: "ليس منّا من خَمَش الخُدودَ وشقَّ الجُيوبَ ودعا بدعوَى الجاهليّة، وأنا بريءٌ ممَّن حَلَق وخَرَق"، أخرجَهُما مسلمٌ في "صحيحِه"[٢].

---

(١) كتب الناسخ إزاء هذه الكلمة في الحاشية: "النار"، كأنه يريد استبدالًا بها.

(٢)الأول منهما أخرجه السيوطي في جامع الأحاديث (١٨٤١٠) ، وأما الثاني فمن المتفق عليه، كما في الجمع بين الصحيحين ١/ ٢١٧ (٢٤٢) لم ينفرد به مسلم.

ومن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ صلى الله عليه وسلم: "تخرُجُ النائحةُ من قبرِها شعثاءَ غَبْراءَ عليها دِرعٌ من جَرَبٍ وجلبابٌ من لعنةِ الله وسِربالٌ من قَطِران، واضعةً يديْها على رأسِها تُنادي بالويْل والثُّبور"، أخرجه ابنُ ماجةَ[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: "أبغضُ الأصواتِ إلى الله تعالى صوتانِ: صوتُ نائحةٍ عندَ مُصيبة، وصوتُ مِزْمارٍ عندَ نعمة، لَعَن اللهُ الزامرَ والمُستمِع"، أخرجهُ النَّسائيُّ مرفوعاً.

ويُروَى أنّ العبدَ المذنبَ إذا ماتَ أقبلَ الشَّيطانُ إلى قبرِه ليَعلمَ ما هُو فيه، فإذا سَمِع تهديدَ الملائكةِ لهُ بذُنوبِه وما يتوعَّدونَهُ به منَ العقوبة، قال: والله لَأزيدَنَّك عذاباً إلى عذابِك من غيرِ ذنبٍ اقترفتَهُ، ولَآتينَّكَ به من حيثُ لا تحتسِب، فيأتي أهلَه فيُوَسوِسُ إليهم فيقولُ لهم: ما أهوَنَ ميّتَكم عليكم، رَمَيْتُموهُ كما يُرمَى اللَّقى، على مِثلِ فلانٍ فلْيبْكِ الباكونَ، وعلى مثلِه ينبغي نَوْحُ النائحات، فيبعثونَ إلى النَّوائح فيبكُونَ[2] بغيرِ شَجْوٍ، فيَفْتِنَّ الأحياءَ في دُورِهم ويُفسِدْنَ عليهم أجورَهم ويُعذِّبْنَ الأمواتَ في قبورِهم فيُعظِمْنَ أوزارَهم، فيغضَبُ اللهُ تعالى عليهم وعلى ميِّتِهم وعلى النائحة، فيُفتَحُ على الميِّت في قبرِه سبعونَ طاقةً من نار،

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١٥٨٢)، وهو في صحيح مسلم ٢٩- (٩٣٤).

(٢) كذا، والجادة: يبكين.

ويَدخُلُ عليه كلبٌ أسودُ ينهَشُهُ وينبَحُ في وجهِه، وزَبانيَةُ العذابِ يَشدَخونَ رأسَه بمَرازبَ من حديد، وهُو يُنادي: يا وَيْلاهُ! بأيِّ ذهبٍ استوجبتُ هذا العقاب؟ فتقولُ الزَّبانيَة: هديّةَ أهلِك إليك، فيقولُ: لا جزاهُم اللهُ عنّي خيراً، اللهُمَّ عذِّبْهم كما عذَّبوني، فتقولُ لهُ الزَّبانيَةُ: لكلِّ واحدٍ منهم مثلُ ما لقيتَ من العذاب، فيقولُ: لا ذنبَ لي، إنّما ناحوا من تلقاءِ أنفُسِهم وعدَّدوا، فيقولُ اللهُ تعالى: لم تعهَدْ إليهم وأنت تعلمُ ذلك من عادتِهم، وليس أحدٌ يُعذَّبُ بذنبِ غيرِه إلّا الميتَ ببُكاءِ أهلِه أو مَن سَنَّ سُنّةً سيّئةً، فيتزايدُ عذابُه ما عُمل بها، والرجلُ لا يُعلِّم أهلَه ورفيقَه أمرَ دينِهم ولا يدعوهم إلى الله"، أخرجهُ الطبرانيُّ في "الكبير" بتمامِه.

وعن أبي أُمامةَ الباهليِّ، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ النائحةَ لَتُوقَفُ يومَ القيامة على طريقٍ بينَ الجنّةِ والنار وثيابُها من قَطِرانٍ وعلى وجهِها غشاءٌ من نار، وتأتي الزَّبانيَةُ بالميِّت فيُمَدُّ بينَ يديْها، فتقولُ لها الزَّبانيَةُ: نُوحي عليه كما كنتِ تنوحينَ عليه في دار الدُّنيا، فتقول: أستحيي اليومَ، فيضربونَها فيقولونَ لها: يا ملعونة، لِمَ لم تستحيي منَ الله في دار الدنيا، أوَما علمتِ أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ يسمعُكِ ويراكِ؟ فتقولُ بعضَ قولها، فتنقطعُ رجلُه، ثم تقولُ كلمةً أخرى فتنقطعُ رِجلُه الثانيةُ، ثم تقولُ كلمةً أخرى فتنقطعُ يدُه، ثم تقولُ كلمةً أخرى فتنقطعُ يدُه الثانية، ثم يقولُ: يا ويْلاهُ! أيُّ ذنبٍ لي؟ فتقولُ الزَّبانيَةُ: ذنبُكَ تركُكَ العهدَ إلى أهلِك بتركِ النَّوْح عليك، ثم تضربُه الزَّبانيَةُ ضربةً تتفرَّقُ منها أوصالُه ويقولونَ لهُ: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان: ٤٩]. فإذا

قالت: مَن لليتامَى والأرامل بعدَك؟ قيل لهُ: كذا كنتَ، فيقولُ: لا يا ربِّ، فيُضرَبُ ضربةً أخرى تتفرَّقُ منها أوصالُه فيصيحُ صيْحةً يَفزَعُ مِن حولِها جميعُ مَن في المحشَر، فكلَّما عادتْ أوصالُه إلى أماكنِها ضُربَ حتى يُفعلَ به ذلك سبعَ مرات. فإنْ كان من أهل الخيرِ يبعثُه اللهُ إلى الجنّة، وإن كان من أهل الشرِّ أمَرَ اللهُ به إلى النار. ثم يُصْلي اللهُ النائحةَ حربةً من نار ويُلبِسُها درعاً من نار ونعليْنِ من نار، فتقولُ لها الزَّبانيَةُ: حاربي ربَّكِ جلَّت قُدرتُه كما كنتِ تحاربينَهُ في دار الدُّنيا، لَتَرَينَّ اليومَ منِ المغلوبُ الذَّليلُ الحزينُ الخائبُ المُلقَى في النار، فتقولُ: وا ويْلاه وا حَرْباه! ثم تُساقُ ومَن حَضَرَها إلى النار"، أخرجهُ البيهقيُّ.

ومن حديثِ أبي أُمامةَ، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "يَجعلُ اللهُ النوائحَ في النار مُصَفَّدين: صفٌّ عن يمينِ أهل النار وصفٌّ عن شمالِهم، فينبَحُونَ على أهل النار كما تنبَحُ الكلابُ، وإنّ ملائكةَ الرَّحمة لا يُصَلُّون على أيِّ نائحةٍ ولا مُغَنِّية"، أخرجة ابنُ ماجة.

فصلٌ: في ذكر عقوبةِ مانع الزكاة والمتهاونِ بها

رَوى البيهقيُّ، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "على كلِّ مسلم في مالِه زكاةٌ واجبة"، ففي الذهبِ رُبعُ العُشرِ إذا بَلَغ ما بيدِه عشرينَ ديناراً مصريّةً أو مئتيْ درهم، ولا زكاةَ فيها حتى يحولَ عليها الحوْلُ، فإنْ لم يُزَكِّها صارتْ كلُّها

مساميرَ من نارٍ في لحمِه، قال اللهُ تعالى: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة: ٣٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: "مَن مَلَك نِصاباً ولم يُزَكِّهِ جاء يومَ القيامة في صُورة ثُعبان، عيناهُ تتَّقدانِ ناراً، وأسنانُه من حديد، فيجري خلفَ مانع الزَّكاةِ ويقولُ: أعطِني يمينَك البخيلةَ حتى أقطعَها، فيهرُبُ مانعُ الزكاة وأينَ المهرَب؟ فيلحقُه فيقطعُ يدَه اليُمنى بأسنانِه ويبتلعُها، ثم تعودُ كما كانت ثم يقطعُها، وكلَّما قُطِعتْ يدُه يصيحُ صيْحةً تُرعبُ الخلائق"، أخرجه ابنُ ماجةَ.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما مُرْطٌ من ذهبٍ ولا فضَّةٍ لا يُؤدِّي منها زكاتَها إلّا إذا كان يومُ القيامة صُفِّحتْ له صفائحُ من نار فيُحمى عليها في نارِ جهنَّم فيُكوى بها جبينُه وجنبُه وظهرُهُ، كلَّما بَرَدتْ أُعيدَ لهُ {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} حتى يُقضَى بين العباد فيَرى سبيلَهُ: إمّا إلى الجنةِ وإمّا إلى النار"، قيل: يا رسُولَ الله، فالإبِلُ؟ قال: "ولا صاحبُ إبِلٍ لا يُؤدِّي منها حقَّها- ومن حقِّها حلبُها يومَ وِردِها- إلّا إذا كان يومُ القيامة بُطِح لها بقاع قَرقَر أوفرَ ما كانت لا يَفقِدُ منها فصيلاً واحداً تَطأُه بأخفافِها وتعَضُّه بأفواهِها، كلَّما مرَّتْ عليه أُخراها رُدَّت عليه أُولاها {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} حتى يَقضيَ اللهُ بين العبادِ فيَرى سبيلَه: إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار"، قيل: يا رسُولَ الله، فالبقرُ والغَنَم؟ قال: "ولا صاحبُ بقرٍ ولا غَنَم لا يُؤدِّي حقَّها إلّا إذا كان يومُ القيامة

بُطح لها بقاع قَرْقَر لا يَفقدُ منها شيئاً، ليس فيها عَقْصاءُ ولا جَلْحاءُ ولا عَضْباءُ تنطَحُهُ بقرونِها وتَطأُه بأظلافِها، كلّما مرَّ عليه أُخراها رُدَّ عليه أُولاها {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} حتى يُقضَى بينَ العبادِ فيَرى سبيلَهُ: إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار"، أخرجهُ مسلم[١].

وعن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن آتاهُ اللهُ مالاً فلم يؤدِّ زكاتَه مُثِّلَ له شجاعاً أقرعَ له زَبيبتانِ يُطوِّقُه يومَ القيامة ثم يأخُذُ بلَهزَمتَيْهِ ثم يقولُ: أنا مالُك، أنا كنزُك"، ثم تلا: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران: ١٨٠]، والزَّبيبتانِ هما: الزائدتانِ في الشِّدقَيْن، واللَّهْزَمتانِ: عظمتانِ ناتئتان في اللَّحْيَيْنِ تحتَ الأُذُنيْن.

وعن زيدِ بن وَهْب، قال: مَرَرتُ بالرَّبْذة، فإذا بأبي ذَرّ، فقلتُ: ما أنزلَكَ هذا المنزلَ؟ قال: كنتُ في الشام فاختلفتُ أنا ومعاويةَ في هذه الآية {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة: ٣٤]، فقال معاويةُ: نزلتْ في أهل الكتاب، وقلتُ: نزلتْ فينا وفيهم، فكان بيني وبينَهُ في ذلك كلام، فكَتَب إلى عثمانَ يشكوني، فكَتَبَ إليّ عثمانُ أنِ اقدَمْ إلى المدينة، فقدِمتُها فكثُرَ عليَّ الناسُ

---

(١) مسلم ٢٤- (٩٨٧).

حتى كأنهم لم يرَوْني قبلَ ذلك، فذكرتُ ذلك لعثمانَ فقال: إنْ شئتَ تنحَّيتُ فكنتُ قريباً، فذلك الذي أنزَلَني هذا المنزلَ، ولو أمَّروا عليَّ حبَشيًّا لَسمِعتُ وأطعتُ.

واختلف السَّلفُ في معنى الكَنز، فقيل: هو كلُّ مالٍ وَجَبتْ فيه الزَّكاةُ فلم تُؤدَّ زكاتُه؛ لأنّ أصلَ الكنزِ في اللُّغة: جعلُ المال بعضِه على بعض وحفظُه دونَ أن يطَّلعَ عليه غيرُ مالكِه أو مَن يثقُ به، يقال: مالٌ مكنوز، أي: مجموعٌ.

رُويَ عنِ ابن عُمرَ رضي اللهُ عنهما، أنه قال لهُ أعرابيٌّ: أخبِرْني عن قول اللهِ عزَّ وجلَّ: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة: ٣٤]، قال ابنُ عُمر: مَن كَنَزَها فلم يؤدِّ زكاتَها ويلٌ لهُ. هذا إنْ كان قبلَ أن تنزلَ الزَّكاة، فلما نَزَلتْ جعَلها اللهُ طُهرَ الأموال. أخرجَهُ البخاريُّ(١).

وفي روايةِ مالك، عن عبدِ الله بن دينارٍ، قال: سمعتُ عبدَ الله بنَ عُمرَ وهُو يسألُ عن الكَنْز: ما هو؟ فقال: هُو المالُ الذي لا تؤدَّى منهُ الزَّكاة.

ورواهُ الطَّبرانيُّ بسندِه، عن ابن عُمرَ، قال: كلُّ مالٍ أُدّيتْ زكاتُه فليس بكَنْز، وإنْ كان مدفوناً، وكلُّ مالٍ لم تؤدَّ زكاتُه فهُو الكَنْزُ الذي ذَكَرهُ اللهُ في القرآن، فيُكوَى به صاحبُهُ وإنْ لم يكنْ مدفوناً.

---

(١) البخاري (١٤٠٤) و(٤٦٦١).

ورُويَ عن عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، قال: أربعةُ آلافٍ: نفقةٌ، وما فوقَها: كَنْز.

وقيل: الكَنْزُ: ما فَضَل من المال عن حاجةِ صاحبِه.

ورَوى الطَّبرانيُّ بسندِه، عن أبي أُمامةَ، قال: توفِّي رجلٌ من أهل الصُّفّة فوُجِد في مِئزرِه دينار، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "كَيّة"، ثم توفِّي آخرُ فوُجد في مِئزَرِه ديناران، فقال: "كَيَّتانِ".

قال ابنُ مسعود: لا يوضَعُ دينارٌ على دينارٍ ولا درهمٌ على درهم، ولكن يوسَّعُ جِلدُه حتى يوضعَ كلُّ دينارٍ ودرهم على حِدَتِه في موضعِه.

وإنّما خَصَّ اللهُ هذه الأعضاءَ بالكَيِّ لأنّ أولّ ما يبدو أثرُ الكراهةِ في وجهِه فيعبِسُ، ثم إذا كرَّر السائلُ السؤالَ أعرضَ ونأَى بجانبِه، ثم إذا ألَحَّ عليه استَدبَرهُ بظهرِه.

وعن الأحنفِ بن قَيْسٍ، قال: قدِمتُ المدينةَ، فبينما أنا في حَلَقةٍ فيها ملأٌ من قُريشٍ إذْ جاء رجلٌ خشِنُ الثيابِ خشِنُ الجسَدِ خشِنُ الوجه، فقام عليهم فقال: بشِّرِ الكَنّازينَ برَضْفٍ يُحمى عليه في نار جهنَّم فيوضعُ على حَلَقةِ ثدي أحدِهم حتى يخرُج من نَقْضِ كتِفِه، ويوضعُ على نَقْض كتِفِه حتى يخرُجَ من حَلَمةِ ثديِه، قال: فوضَع القومُ رؤوسَهم فما رأيتُ أحداً رَجَع إليه شيئاً، قال: فأدبَر، فاتَّبعتُهُ حتى جلسَ إلى ساريةٍ، فقلتُ: ما رأيتُ هؤلاءِ إلّا كَرِهوا ما قلتَ لهم، فقال: إنّ

هؤلاءِ لا يعقِلون، ما قلتُ إلّا شيئاً سمعتُهُ من نبيِّهم صلى الله عليه وسلم، رَوى بعضُ فُضَلاءِ السَّلَف أنّ رجُلاً من هذه الأُمّةِ كان لا يؤدِّي زكاةَ مالِه، فبينَما هو ذاتُ يوم إذْ وَقَف عليه سائلٌ فرَحِمَهُ فتصدَّق عليهِ بكبشٍ من غنمِه، فلمّا نام رأى في نومِه جميعَ غنمِه وقد أقْبَلَتْ عليه تنطَحُه بقرونِها وهُو يفِرُّ منها ولا يقدرُ على التخلُّص والنَّجاة، إلّا أنّ ذلك الكبشَ الذي تصدَّق بهِ على المِسكين جَعَل يُناطحُها ويَكُفُّها عنه شفقةً عليه، فتارَةً لا يَكُفُّها عنه وتارَةً تغلِبُه عليه فتخلُصُ إليه لكثرتِها، حتى كادت تُهلِكُه في نومِه، فانتبَهَ وقد قُطِعَ قلبُه خوفاً ووَجَلاً، فقال: والله لَأجعلنَّ أتباعَكَ كثيراً، فتصدَّق بثُلُثِ مالِه وتابَ إلى الله من منعِهِ الزَّكاةَ.

وقال صلى الله عليه وسلم: "مكتوبٌ على بابِ الجنّة: أنتِ حرامٌ على كلِّ بخيل مانع لزكاةِ مالِه، وعلى الدَّيُّوث(١)"، أخرجهُ الطَّبرانيّ.

وقال صلى الله عليه وسلم: "مَن أدَّى زكاةَ مالِه تامّةً طيِّبةً بها نفسُهُ سُمِّي في السماءِ الدُّنيا كريماً، وفي الثانيةِ جَواداً، وفي الثالثة مُطيعاً، وفي الرابعة بارًّا، وفي الخامسةِ مقبولاً، وفي السادسةِ محفوظَ المال، وفي السابعةِ مغفوراً لهُ، وفي العَرْض: حبيبَ الله، ومن لم يؤدِّ زكاةَ مالِه سُمّي في السماءِ الدُّنيا بخيلاً، وفي الثانيةِ لئيماً، وفي الثالثةِ عاصياً، وفي الرابعةِ مفتوناً، وفي الخامسةِ منزوعَ البرَكة، وفي السادسةِ لا

---

(١) كتب الناسخ في الحاشية بإزاء هذه الكلمة: "الديوث بالمثناة بفوقية: من لا يغير على نسائه"، وصحّح عليها.

حَفِظَ اللهُ مالَهُ في بَرٍّ ولا بحر ولا سهل ولا جَبَل، وفي السابعةِ مطرودٌ عن رحمةِ الله"، رواهُ البَيْهقيّ.

ورُويَ أنه ينزلُ من السماءِ كلَّ يوم اثنتانِ وسبعونَ لعنة: واحدةٌ على اليهود وواحدةٌ على النَّصارى، وسبعونَ على مانع الزَّكاة.

وكلُّ مال لا تؤدَّى فيه الزّكاةُ فصاحبُه خبيثٌ وخازنُهُ شيطان، وكلُّ مال تؤدَّى زكاتُهُ فصاحبُه حبيبُ الرَّحمن ناجٍ من عذابِ النيران وممَّن له حظٌّ وافرٌ في كراماتِ الجنان.

وأيُّما مال أُدِّيتْ زكاتُه إلّا وكَّل اللهُ ملائكتَهُ يكتبونَ لصاحبِه ثوابَ زكاتِه بعدَ موتِه وافرةً زكاهُ ورَثَتُهُ أو لم يُزكُّوهُ، وما مِن عبدٍ أدَّى زكاةَ مالِه إلّا جاءت يومَ القيامةِ وهي عِقدٌ من نُور في رقبتِه يُشرقُ نورُ ذلك العِقدِ على المؤمن حتى يمشيَ به على الصّراطِ ويدخُلَ به الجنةَ، وما من عبدٍ منَع زكاةَ مالِه إلّا جاء مالُهُ في عُنُقِه وهو طوْقٌ من نار، لو أنّ ذلك الطَّوقَ وُضِع في الدُّنيا لاحترقتْ كلُّها ولَذابتْ جبالُها ويبِست بحارُها.

ويلحَقُ بتاركِ الزَّكاة آخِذُ الرَّشوة عليها، وكذلك إعطاؤها لأجْل أخذِها مُحِقًّا كان أو غيرَ مُحِقٍّ.

وكذا المُحابي بها والمُتساهِلُ بأمرِها بحيثُ يؤخِّرُها عن حولِها من غير عُذْرٍ مانع مُبيح لتأخيرِها.

رُويَ أنَّ السَّلفَ رضي اللهُ عنهم كانوا يُقدِّمونَ الظلَّ[1] عندما تجبُ على أحدِهم فلا يؤخِّرُها عن ذلك ما بقيَ.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما ضاع مالٌ، في بَرٍّ ولا بحرٍ، إلّا بتأخير الزكاة".

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما خالَطَتِ الزَّكاةُ مالاً إلّا أهلكتْهُ".

ومنَ المحظوراتِ: إعطاؤها لمَن لا يستحقُّها، وقَبولُ غيرِ المستحِقِّ لها، كما في حديثِ الصُّدَائيِّ[2]، قال: أتيْتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلتُ لهُ: يا رسُولَ الله، إنّ قومي يرجِعون إليَّ في كثيرٍ من أمورِهم، أفيحِلُّ لي أن آخُذَ من صدَقاتِ أموالهم شيئاً؟ فقال لي: "وأنت غنيّ؟"، قلتُ: نعم، قال: "لا، إنها كُدوحٌ في الوجه وصُداع الرأس ونارٌ تأجَّجُ في البطن، إنّ اللهَ لم يرْضَ في الزَّكاة بحُكم مَلَكٍ مُقرَّب ولا نبيٍّ مرسَل، حتى قَسَمها بنفسِه بين ثمانيةِ أصنافٍ من الناس، فمن سألها منهم على وجهِها أُعطِيتْ لهُ وساغَ لهُ أكلُها والتكسُّبُ بها، ومن مَنَعها أُخِذتْ منه كَرْهاً"، أخرجه الطَّبرانيُّ[3].

فصلٌ: في فَرْقِ ما بينَ الدُّنيا والآخرة

اعلمْ، طهَّر اللهُ سرِّي وسرَّك ونوَّر قلبي وقلبَك من رَيْنِ الذُّنوب، أنّ الآخرةَ هي الدارُ الجامعةُ لكلِّ مرغوبٍ ومرهوب، ولا يعرفُها حقَّ معرفتِها إلّا كلُّ مُخْبِت

---

(١) كذا هي الكلمة في النسخة واضحة مجودة، والله أعلم بمرادها.

(٢) هو: زياد بن الحارث. تهذيب الكمال ٩/ ٤٤٥.

(٣) هو في سنن أبي داود (١٦٣٠)، وفيه تخريجه، والطبراني في "الكبير" (٥٢٨٥)، ويروى نحوه عن سمرة.

مجذوب أو كلُّ مُكاشَفٍ بأمرِها محبوب، كما قال اللهُ تعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} [طه: ١٥]، وقال: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: ١٨٧] الآيةَ.

فهي مُباينةٌ لدار الدُّنيا غايةَ التبايُن، وبينَهما أشدُّ التغابُن.

والآخرةُ لا مجالَ لعقل ولا عادةٍ في أمرِها، لكونِها مبنيّةً على خَرْق العوائد، كما أنّ الدُّنيا مبنيّةٌ على العوائد.

والآخرةُ دارُ ثوابٍ وعقابٍ ولا عملَ فيها، عكسَ الدُّنيا، فإنها دارُ عمل ووَعيد وزجرٍ وتهديد، ولا ثوابَ فيها، وعلى هذا انعَقَد إجماعُ السَّلف، بل عليه جميعُ مِلَل الحقّ.

ولا مُنافاةَ بينَ ما ذكرتُه وبينَ قولِه تعالى: {فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ} [آل عمران: ١٤٨]؛ لأنّ المرادَ بثوابِ الدُّنيا: نصرُهُ إيّاهم على الأعداء ومغفرةُ ذنوبِهم والتمكينُ لهم في البلاد، وذلك كلُّه راجعٌ إلى ثوابِ الآخرة، إذْ لو لم يُنصَروا على الأعداءِ لَبطَلَتْ حكمةُ الرّسالة، ولَذهبتْ فائدةُ الجهادِ الذي نَدَب الحقُّ عبادَهُ إليه، ومغفرةُ ذنوبِهم أيضاً إنّما تَظهرُ فائدتُها في العُقْبَى، والتمكينُ لهم في البلادِ يتسبَّبُ عنه بناءُ المساجد وتعلُّمُ العلم وتعليمُه وإقامةُ الحدودِ والتفرُّغ للأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر وإقامةُ الموسم وترتيبُ

الحِرَفِ المُهِمّة وأداءُ الفرائض وإعطاءُ الحقوق الواجبةِ والمُناصَفات وتوليةُ الأُمراء وترتيبُ القضاة، وذلك كلُّه إنّما تَظهرُ ثمرتُه وتُحمَدُ عاقبتُه يومَ الجزاء.

فإنْ قلتَ: إنْ كان الأمرُ كما ذُكر فما فائدةُ عطفِهِ ثوابَ الآخرة على ثوابِ الدنيا في هذه الآيةِ الشريفة؟ قلتُ: يكونُ العطفُ بمعنى التفسير، أي: فآتاهمُ اللهُ ثوابَ الدُّنيا الذي هو حُسنُ ثوابِ الآخرة، أو آتاهم ثوابَ الدُّنيا المؤدِّي إلى حُسن ثوابِ الآخرة، ولذلك ذَكَر ثوابَ الآخرة بالحُسن دونَ ثوابِ الدُّنيا لأنّ ثوابَ الدُّنيا قليلٌ ذاهبٌ ومعَ ذلك لا يخلو من مُنغِّص من فقْدِ حبيبٍ أو موتِ قريبٍ أو مُصيبةٍ بمال أو خوفٍ من مآل أو تشويشِ حال أو مَرَض مُدنِف أو عُدْم مُجْحِف أو عدوٍّ مُناوٍ أو حاسدٍ مُساوٍ، بخلافِ ثوابِ الآخرة، إذْ حقيقةُ الجنّةِ وما فيها من النَّعيم المُقيم الذي لا يزولُ ولا يحول ولا يشابُ بتنغيصٍ ولا يُكدَّرُ بتمحيص.

وكذلك قولُهُ تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا} [آل عمران: ١٤٥]، أي: مَن أراد بعلمِه وطاعتِه عاجلَ رزقِ الدُّنيا وحُطامَها، بأنْ عملَ على ذلك {نُؤْتِهِ مِنْهَا} ما يكونُ جزاءً لعملِه، والمعنى: نُؤْتِه منها ما نشاءُ ممّا قدَّرناهُ لهُ أزلاً مِن رزقِه؛ لأنه ثوابٌ، بل في مقابلةِ الثواب لَمن هو أهلُ الثّواب، كما يقولُ اللهُ تعالى في حقِّ المنافقين: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [النساء: ١٤٢]، وذلك بأنْ يُعاملَهم معاملةَ المُخادِع في مقابلة مُخادعتِهم؛ لأنّ اللهَ تعالى يستحيلُ عليه المُخادعة، وكذلك هؤلاءِ لمّا أرادوا بعملِهم الذي من حقِّهِ أنْ لا يكونَ إلّا لطلبِ

ثوابِ الآخرة، جازاهمُ اللهُ بأنْ لم يجعلْ لهم ثواباً في الآخرة، بل جَعل ثوابَهم من جنسِ ما قَصَدوهُ بأعمالِهم فصاروا لا ثوابَ لهم في دار الآخرة، كما أنه لا ثوابَ لهم في الدُّنيا إذْ ليست بدارِ ثواب، فصارت أعمالُهم ونيّاتُهم باطلةً ولم يُرزَقوا في الدُّنيا إلّا ما قُدِّر لهم أزلاً، قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ يعطي الدُّنيا بنيّةِ الآخرة، ولا يعطي الآخرةَ بنيّةِ الدُّنيا".

رَوَى البغَويُّ بسندِه، عن أنسِ بن مالك، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم، قال: "مَن كانت نيّتُهُ طلبَ الآخرة جَعَل اللهُ غِناهُ في قلبِه وجَمَع عليه أمرَه وأتتْهُ الدُّنيا وهِي راغمة، ومَن كانت نيّتُه طلبَ الدُّنيا جَعَل اللهُ فقرَهُ بينَ عينيْه وشتَّت عليه أمرَه ولا يأتيهِ منها إلّا ما كُتِبَ له".

بابٌ: في الترغيبِ في الإكثار منَ الصَّلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم واستحضارِ رُوحانيّتِه عندّ النُّطقِ بها واستشعارِ إجلالِه والتلذُّذِ بذكرِه محبّةً فيه وأداءً لحقِّه صلى الله عليه وسلم(١)

قال صلى الله عليه وسلم: "من صلَّى عليَّ واحدةً صلَّى اللهُ عليه عشْرَ صَلَوات وحَطَّ عنهُ عشْرَ سيّئات"، أخرجهُ ابنُ حِبّانَ في "صحيحِه"(١)، وقال صلى الله

---

(١) فصّل ابن القيم هذا الفصل تفصيلًا جميلًا في كتابه النافع "جلاء الأفهام"، فلينظر.

وسلم: "مَن صلّى عليَّ واحدةً صلّى اللهُ عليه عشْراً، ومَن صلّى عليَّ عشْراً صلّى اللهُ عليه مئةً، ومَن صلّى عليَّ مئةً كَتَب اللهُ بينَ عينيْهِ براءةً من النار وبراءةً من النِّفَاق وأسكَنَهُ معَ الشُّهداء"، أخرجهُ الطَّبرانيّ.

وعن عبدِ الرَّحمن بن عوْفٍ رضي اللهُ عنه، قال: خَرَج النبيُّ صلى الله عليه وسلم فاتَّبعتُهُ حتى دَخَل نخلاً، فسَجَد فأطال السُّجودَ حتى خِفتُ أنّ اللهَ قد تَوفّاهُ، فجئتُ أنظرُ، فرَفَع رأسَه فقال: "ما لكَ يا عبدَ الرَّحمن؟"، فذكرتُ ذلك، فقال: "إنّ جبريلَ قال: ألا يسُرُّك أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: مَن صلَّى عليكَ صلَّيتُ عليه، ومَن سلَّم عليكَ سلَّمتُ عليه، فسجدتُ لله شُكراً"، رواه الحاكمُ في "المستدرَك".

ومن حديثِ البراءِ بن عازب رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "مَن صلَّى عليَّ كَتَب اللهُ له عشْرَ حَسنات ومحا عنهُ عشْرَ سيّئات ورَفَعَهُ بها عشْرَ درجاتٍ وكان له عِدْلُ عشْرِ رَقَبات"، أخرجه أبو عاصم في كتاب "الصَّلاة".

---

(١) وهو في السنن الكبرى للنسائي (٩٨٠٧)، وعمل اليوم والليلة (٦٢) و(٦٤)، وفي ترغيب المنذري وترهيبه ما نصه: "رواه أحمد والنسائي- واللفظ له- وابن حبان في صحيحه والحاكم"، فلعل المصنف رحمه الله نقل ذلك منه.

ومن حديثِ أبي بُردةَ بنِ نِيَارٍ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "مَن صلَّى عليّ من أُمّتي صلاةً مُخلِصاً من قلبِه صلّى اللهُ عليه بها عشْرَ صَلَوات ورَفَعهُ بها عشْرَ درجات وكَتَب لهُ بها عشْرَ حَسَناتٍ ومحا عنه عشْرَ سيّئات"، رواه الطَّبرانيُّ.

ومن حديثِ عمّار بن ياسرٍ رضي اللهُ عنهُ قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ وَكَّل بقبري مَلَكاً أعطاهُ أسماءَ الخلائق، فلا يُصلِّي عليّ أحدٌ إلى يوم القيامة إلّا بلَّغَنيها وأخبرني باسمِه واسم أبيه"، رواه البزّارُ وأبو الشَّيخ بنُ حيّان.

ومن حديثِ عُمرَ بن ربيعةَ رضي اللهُ عنه، قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يخطُبُ ويقول: "مَن صلَّى عليَّ صلاةً لم تزلِ الملائكةُ تُصلِّي عليه ما دام يُصلِّي عليَّ، فلْيقلِّلْ عند ذلك أو لِيكثِّرْ"، أخرجه ابنُ ماجة.

ومن حديثِ أبي الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "أكثروا من الصلاة عليّ يومَ الجمُعة، فإنه يومٌ مشهودٌ تشهَدُه الملائكة، وإنّ أحداً لن يُصلِّيَ عليَّ إلّا عُرِضتْ عليَّ صلاتُه حتى يَفرُغَ منها"، قال: قلتُ: وبعدَ الموت؟ قال: إنّ اللهَ حرَّم على الأرض أن تأكُلَ أجسادَ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام"، أخرجه ابنُ ماجةَ بسندٍ جيّد.

ومن حديثِ أبي أُمامةَ رضي اللهُ عنهُ، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال: "أكثروا من الصَّلاة عليَّ في كلِّ يوم جمُعة، فإنّ صلاةَ أُمّتي تُعرَضُ عليَّ في كلِّ يوم جمُعة، فما كان أكثرَهم عليَّ صلاةً كان أقربَهم منّي منزلةً"، رواه البيْهقيُّ.

ومن حديثِ أوْسِ بن أوْس، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "إنّ مِن أفضل أيامِكم يومَ الجمُعة: فيه خُلِق آدمُ وفيه قُبِض، وفيه النَّفخةُ وفيه الصَّعقة، فأكثروا عليَّ من الصَّلاةِ فيه، فإنّ صلاتَكم معروضةٌ عليّ"، قالوا: يا رسُولَ الله، كيف تُعرَضُ صلاتُنا عليك وقد أرِمتَ[1]؟ فقال: "إنّ اللهَ حرَّم على الأرض أن تأكُلَ أجسادَ الأنبياء"، أخرجه الطَّبرانيُّ.

ولقَبُول الصَّلاة شروطٌ، أولُها:

الإقبالُ على مُناجاة الله تعالى بالكُلِّيَةِ، عندَما تقولُ: اللهُمَّ صلِّ، واستحضارُ جلالِهِ وعظَمتِهِ، وأنه عندَ ذلك أقربُ إليكَ من حبل الوَرِيد، معَ اعتقادِك تنزيهَهُ عنِ القربِ المكانيّ.

وأن تكونَ الصلاةُ منهُ على نبيِّه الطاهرِ[2] لأنّا لسنا كفُؤاً لهُ حتى نُصلِّيَ عليه، فأمَرَنا اللهُ بالصَّلاةِ عليه في قولِه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٥٦].

---

(١) في النسخة أرحت

(٢) كذا العبارة في النسخة.

فجَهِل أصحابُه رضوانُ الله عليهمُ الكيفيّةَ[١]، فقالوا: كيف نُصلِّي عليكَ يا رسُولَ الله؟ فقال: "قولوا: اللهُمَّ صلِّ على محمد وعلى آلِ محمد، وبارك على محمد وعلى آلِ محمد، وارحَمْ محمداً وآلَ محمد، كما صَلَّيتَ ورحِمتَ وباركتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيم، في العالمينَ إنك حميدٌ مجيد". فأحالَنا على الله لتكونَ الصَّلاةُ من ربٍّ ظاهر على نبيٍّ طاهر، ويكونَ الثوابُ واصلاً إلينا فضلاً منهُ ومِنّةً علينا.

وللصلاةِ إمداداتٌ غيرَ الثواب، منها: تنويرُ الباطن بمُناجاة العَلِيِّ الأعلى، ومنها: سَرَيانُ رُوحانيّةِ النبيِّ الكريم في ذواتِ ذاتِ المُصَلِّين، ومنها: اكتسابُ محبّتِهِ التي هي كيمياءُ السّعادة، ومنها: أداءُ حقِّه الواجبِ على كلِّ مسلم، ومنها: مكافأتُهُ على ما أسداهُ إلينا من إيصال أنوارِ الإيمان إلينا وإخراجِه إيّانا من الظُّلماتِ إلى النور.

ومن شروطِ قَبول الصَّلاة: استحضارُ شخصِه الشّريف صلّى الله عليه وسلم في سِرِّه عندَما يقولُ: على محمد، أو عندَما يقول: اللهُمَّ صلِّ على عبدِكَ ونبيِّكَ ورسُولِك، مُتلذِّذاً بذلك مُستحضِراً أنّ الصلاةَ تُعرَضُ عليه كما تُعرَضُ عليه سائرُ أعمالِهِ وأحوالِه، وخصوصاً الصَّلاةَ عليه؛ لأنها حظُّهُ من العبد وحظُّ العبدِ منه،

---

(١) يتناول المصنف رحمه الله هنا كيفية الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، وهي الشرط الثالث بحسب ترتيبه .

إذْ[1] إنّما يَتعرَّفُ إليه بها كما في حديثِ الطَّبرانيِّ يرفعُه بإسنادِه، عن أنس بن مالك، قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ وَكَل بقبري مَلَكاً أعطاهُ أسماءَ المخلوقين، فكلَّما صَلّى عليَّ أحدٌ من أُمّتي بَلَغَني صلاتُه وقال: إنّ فلانَ ابنَ فلانَ يُصلِّي عليك، فأعرِفُه بذلك".

فيؤخذُ من هذا أنّ المُواظبينَ على الصّلاةِ عليه أخصُّ به من غيرِهم وأعرَفُ به ممّن سواهم، كما في قولِه صلى الله عليه وسلم: "أقربُ الناسِ إليّ وأسعدُهم بي أكثرُهم صلاةً عليّ"، أخرجهُ البيهقيُّ.

ثم الناسُ في ذلك على قسمين: مُحبٍّ، وغيرِه، فالمحبُّ يسمع ....[2] وغيرُ المحبِّ تُعرضُ عليه عرضًا، كما في قولِه صلى الله عليه وسلم: "إنّي لَأسمعُ صلاةَ المُحبِّينَ فيّ، وتُعرَضُ عليَّ صلاةُ غيرِهم عرضاً"، رواهُ صاحبُ "مطالع المسَرّات".

والمقصودُ بالصّلاةِ عليه صلى اللهُ عليه وسلم: التقرُّبُ إلى الله تعالى بامتثال أمرِه وأداءِ حقِّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم علينا، فليستْ صلاتُنا عليه شفاعةً له، فإنّ مثلَنا لا يَشفَعُ لمثلِه، ولكنّ اللهَ أمَرَنا مكافأةَ مَن أحسنَ إلينا، فإنْ عَجَزْنا عنها كافأناهُ بالدُّعاء، فلمّا علمَ اللهُ عجْزَنا عن مكافأةِ نبيِّنا عليه الصلاةُ والسّلام أمَرَنا أن نطلبَ الصّلاةَ منَ اللهِ عليه.

---

(١) كتب الناسخ هذه الكلمة في الحاشية: "إذا" وصححها أيضًا، ولا يستقيم السياق بها.

(٢) فراغ بقدر كلمتين حل سوء التصوير دون معرفتهما.

وتتفاوتُ مراتبُها على قَدْرِ نصُوح العقيدةِ وإخلاص النيّة والتمكينِ من المحبّة والمُداومةِ على الطاعةِ والاحترام للواسطةِ الكريمة.

واختُلفَ في حُكم الصّلاة عليه، فقيل: إنّها تجبُ في الجُملةِ لغيرِ حصْر، لكنْ أقلُّ ما يحصُل به الإجزاءُ مرةٌ كسائر الأذكار، وقيل: يجبُ الإكثارُ منها من غير تقييدٍ بعدد، قال أبو بكر ابنُ فُورِك: وقيل: إنّ اللهَ افترَضَ على خلقِه أن يُصلُّوا على نبيِّه ويُسلِّموا تسليمًا، ولم يجعلْ لذلك وقتاً معلوماً، فالواجبُ- إذْ ذاكَ- الإكثارُ منها من غيرِ غفلة.

وقيل: تجبُ كلما ذُكِر، قالهُ الطَّحاويّ، واستَدلُّوا لذلك بحديث: "مَن ذُكِرتُ عندَه ولم يُصَلِّ عليَّ فمات فدَخَل النارَ فأبعَدَه اللهُ"، أخرجه ابنُ حِبّانَ من حديثِ أبي هريرة(١).

وكما يدُلُّ عليه أيضاً حديثُ "رَغِم أنفُ مَن ذُكِرتُ عندَه ولم يُصَلِّ عليَّ"، رواه التّرمذيُّ(٢).

وحديثُ "شَقِيَ عبدٌ ذُكِرتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليَّ"، أخرجه الطَّبرانيُّ من حديثِ جابر.

---

(١) صحيح ابن حبان (٤٠٩) وفيه مزيد طرق وتخريج.

(٢) سنن الترمذي (٣٥٤٥).

لأنّ الدُّعاءَ بالرَّغْم والإبعادِ والشَّقاءِ يقتضِي الوعيدَ، والوعيدُ على التَّركِ من علاماتِ الوجوب، ومعلومٌ أنّ فائدةَ الأمر بالصّلاةِ عليه: مُكافأتُهُ على إحسانِه، وإحسانُهُ مستمرّ، فيتأكَّدُ وجوبُ الصّلاةِ كلّما ذُكِر الاستمرارُ وإحسانُه معَ الأنفاسِ والساعات.

واستدَلَّ بعضُ الفُضَلاء على وجوبِ الصّلاةِ عليه كلَّما ذُكِر بقولِه: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ} [النور: ٦٣] الآيةَ. فلو كان إذا ذُكِر لا يُصَلَّى عليه كان كآحادِ الناس.

وأجابَ مَن لم يوجبْ ذلك بأجوبةٍ، منها: أنه قولٌ لا يُعرَفُ عن أحدٍ من الصَّحابةِ ولا التابعين، وهو قولٌ مُخترَع، ولو كان ذلك على عمومِه لَلزِمَ المؤذِّنَ إذا أذَّن وكذا سامعُه، ولَلزِمَ القارئَ إذا مَرَّ بآيةٍ فيها ذكرُه، ولَلزِمَ الداخلَ في الإسلام إذا تلفَّظ بالشهادتيْنِ، ولَكان في ذلك من المشَقّةِ والحرَج ما جاءتِ الحَنَفيّةُ السَّمْحةُ بخلافِه، ولَكان الثناءُ على الله تعالى كلَّما ذُكِر أحقَّ بالواجبِ، ولم يقولوا به.

وقد أطلق القُدُوريُّ وغيرُه من الحَنَفيّة أنّ القولَ بوجوبِ الصَّلاة عليه كلَّما ذُكِر مُخالِفٌ للإجماع المُنعقِد قِبَلَ قائلِه؛ لأنه لا يُحفَظُ عن أحدٍ من الصَّحابة أنه خاطبَ النبيَّ فقال: يا رسُولَ الله صلى اللهُ عليك، إذْ لو كان كذلك لَما تفرَّغ

لعبادةٍ أخرى ولأخرَجَها عن الأحاديثِ المتقدِّمة؛ لأنها أُخرِجتْ مَخرجَ المبالغةِ في تأكيدِ ذلك وطلبِه وفي حقِّ من تعوَّد تركَ الصلاة عليه.

وبالجُملة، فلا دِلالةَ على وجوبِ تكرُّر ذلك بتكرُّر ذكرِه في المجلس الواحد، قاله ابنُ الخطيب(١).

فعلى ما قرَّرناهُ تجبُ في كلِّ مجلسٍ مرّةً، ولو تكرَّر ذلك مراراً وفي كلِّ دعاء، وقيل: إنها من المستحَبّات، وهو قولُ ابنِ جَريرٍ الطَّبريّ، وادَّعى الإجماعَ على ذلك. وليس الأمرُ بقولِها مُستلزِماً فَرْضيّتَها حتى يكونَ تاركُ ذلك عاصياً، فإنّ صيغةَ الأمر ربما جاءت للنَّدبِ وربما جاءت للإذن، كما في قولِه تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ } [البقرة: ١٨٧]، فعلى هذا يحصُلُ الامتثالُ لمن تلفَّظ بها ولو خارجَ الصَّلاة. والصحيحُ المُنعقدُ عليه الإجماعُ: وجوبُها في العُمُرِ مرّةً بنيّةٍ تخُصُّها وتعيِّنُها، وإلّا لَما تأدَّى الوجوبُ، إذْ لا بدَّ من فاصل بينَ الواجبِ والمندوبِ إليه، كان ذلك في الصَّلاة أو خارجَها، ككلمةِ التوحيدِ والتكبير والتسبيح والاستغفارِ والحجّ، رواه أبو بكرٍ الرازيّ في مسندِه. وعن أبي جعفرٍ الباقريِّ أنها تجبُ في الصَّلاة من غير تعيينِ محلّ. ونُقِل عن الشافعيِّ رضي اللهُ عنه وجوبُها في التشهُّدِ الأخير قبلَ سلام التحليل، واستدَلَّ لذلك بما رواه أصحابُ السُّنن وصحَّحهُ الترمذيُّ وابنُ خُزيمةَ والحاكمُ،

(١) ينقل المصنف تاليًا نصًّا طويلًا عن ابن الخطيب ويصرح بالنقل عنه في آخره.

عن أبي مسعودٍ البَدْريِّ، أنهم قالوا: يا رسُولَ الله، أمّا السلامُ عليك فقد عَرْفناهُ، فكيف نُصلِّي عليكَ إذا نحنُ صلَّينا في صلاتِنا؟ فقال: "قولوا: اللهُمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد"، الحديثَ. ومعنى قولِهم: أمّا السلامُ عليكَ فقد عرفناهُ، وهُو الذي في التشهُّدِ الذي كان يُعلِّمُهم إياهُ كما يُعلِّمُهمُ السُّورةَ من القرآن، وفيه: السَّلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه. رواه الشافعيُّ في مسند أبي هريرة. وقد احتجَّ بهذه الزّيادة جماعةٌ من الشافعيّة، منهم: ابنُ خُزَيْمةَ والبيهقيُّ، بإيجابِ الصَّلاة عليه بعدَ التسليم وقبلَ السلام، وقال الشافعيُّ في "الأُمّ"(١): فَرَضَ اللهُ الصّلاةَ على رسُول الله صلى الله عليه وسلم بقولِه: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٥٦]، ولم يكنْ فرضُ الصلاةِ عليه في موضع أولى منهُ في الصّلاة، ووجدْنا الدِّلالةَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم بذلك، أخبرنا إبراهيمُ بن محمد، قال: حدثنا صفوانُ بنُ سُليم، عن أبي سَلَمةَ بن عبد الرحمن، عن أبي هريرةَ، أنه قال: يا رسولَ الله، كيف نُصلِّي عليك؟ يعني: في الصلاة، قال: "تقولون: اللّهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمد، كما صلّيتَ على إبراهيم" الحديثَ. أخبرنا إبراهيمُ بنُ محمد، قال: حدّثني سعدُ بن إسحاقَ بن كعب بن عُجْرةَ، عن عبدِ الرَّحمن بنِ أبي ليلى، عن كعبِ بن عُجْرةَ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أنه كان يقولُ في الصلاة: "اللهُمَّ صلِّ على

(١) الأم، للشافعي ١/ ١٤٠.

محمدٍ وآلِ محمد، كما صلَّيتَ على إبراهيم"، الحديثَ. قال الشافعيُّ: فلما رُوي أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يُعلِّمُهم التشهدَ في الصلاة، ورُوي أنه علَّمهم كيف يُصلُّون عليه في الصلاة، لم يجُزْ أن يقولَ: التشهدُ في الصلاة واجبٌ والصلاةُ عليه فيه غيرُ واجبة. وقد تعقَّب بعضُ المخالفينَ هذا الاستدلالَ من أوجُه، أحدُها: ضعفُ إبراهيمَ بن محمد بن أبي يحيى، لكن لا يلتفتُ إلى اعتراضِه؛ لأنّ الصّلاةَ عليه صلى الله عليه وسلم من جنسِ التقرُّبِ إلى الله، ومن الواجبِ باستقلالِه، فكيف لمُنكرٍ القولُ بوجوبِ الصلاة عليه وهي من جنس الصلاةِ ومقتضَياتها؟ وإذا شَرَع السلامَ فيها على نفس المصلّي وعلى عبادِ الله الصالحين، فكيف لا تجبُ على سيّدِ المرسَلين؟ وقد انتصرَ جماعةٌ كثيرةٌ من العلماءِ الأعلام للشافعي، منهم: عمادُ الدّين ابنُ كثير، والعلامة ابنُ القيِّم، والحافظُ أبو الفضل ابنُ حجر، وغيرُهم، واستدَلّوا لذلك بأدلّةٍ: نقليّةٍ ونظريّة، حتى دَفَعوا دعوى الشُّذوذ، فنَقَل القولَ بالواجب عن جماعةٍ من الصحابةِ منهُم: ابنُ مسعود البدريُّ وجابرُ بن عبد الله، ونَقَلهُ أصحابُ الشافعيِّ عن عُمرَ بن الخطاب وابنِه عبد الله، ومن التابعين: الشَّعبيُّ فيما رواهُ البيهقي، وكذا أبو جعفرٍ الباقريُّ ومُقاتل. وأخرج الحاكمُ بسندٍ قوي، عن ابن مسعود، قال: يتشهّدُ الرجلُ ثم يُصلّي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ثم يدعو لنفسه. قال الحافظُ ابنُ حَجَر: وهذا أقوى شيءٍ يَحتجُّ به الشافعي، فإنّ ابنَ مسعود ذَكَر أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم علَّمهمُ التشهدَ في الصلاة، وأنه قال: "ثم لْيختَرْ منَ الدعاءِ ما شاء"، فلمّا ثَبَت عن ابن

مسعودٍ الأمرُ بالصلاةِ عليه قبلَ الدُّعاء دلَّ على أنه اطَّلع على زيادةِ ذلك بين التشهُّد، واندفعت حجةُ من تمسَّك بحديثِ ابن مسعود، كالقاضي عياض ومَن وافَقَه على رأيِه على نَفْي وجوبِ الصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم في التشهُّد. ويَعضُد ما ذهب إليه الشافعيُّ ما رواه العُمَري[1] في "عمل اليوم والليلة" عن ابن عُمر، بسندٍ جيّد، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكونُ صلاةٌ إلّا بقراءة وتشهُّدٍ وصلاةٍ عليَّ". وعن البيهقيِّ بسند قوي، عن الشَّعبيّ، قال: كنا نعلَّمُ التشهد، فإذا قال أحدُنا: وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، يحمَدُ ربَّه ويُثني عليه ثم يُصلّي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ثم يسألُ حاجتَه. وفي حديث أبي جعفر، عن ابن مسعودٍ مرفوعًا: "مَن صلَّى صلاةً ولم يُصلِّ فيها عليَّ وعلى أهل بيتي لم تُقبَلْ منه". ومن حديث أبي جعفرٍ محمد بن عليٍّ بن الحُسين، قال: لو صلَّيتُ صلاةً لم أُصلِّ فيها على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وعلى أهل بيتِه لَرأيتُ أنها لا تتِمّ. لكنْ رواهُ عن أبي جعفر: جابرٌ الجُعفيُّ، وهو ضعيف. وأوجب إسحاقُ بن راهُويةَ الإعادةَ معَ تعمُّد تركِها دونَ النِّسيان. والمشهورُ عن أحمدَ أنها تبطُل بتركها عمدًا وسهوًا، وعليه أكثرُ أصحابه. ووافَقَ الخُرَقيُّ إسحاقَ في تقييدِه بالعَمْد دون النسيان. والخلافُ في ذلك أيضًا عندَ المالكيّةِ كما ذَكَره ابنُ الحاجِب

(١) كذا في النسخة، وقد وهم فيه كثير غير المصنف، وإنما هو: الحسن بن علي بن شبيب المعمري، له ترجمة في تاريخ بغداد ٨/ ٣٥٩، وتاريخ الإسلام ٦/ ٩٢٩ و سير أعلام النبلاء ١٣/ ٥١٠، وسواها، والحديث في فتح الباري لابن حجر ١١/ ١٦٤.

في "سُنَن الصَّلاة"، ثم قال: على الصحيح، فقال شارحُه ابنُ عبدِ السلام: يريدُ أنّ في وجوبها قوليْنِ، وهو ظاهرُ كلام الإمام ابن المَوّاز، وبه صرّح عنه ابنُ القصّار وعبدُ الوهاب، كما في "الشِّفا" بلفظ: أنه يراها فريضةً في الصلاة. وحكى أبو يَعلى العبديُّ المالكيُّ عن المذهب فيها ثلاثةَ أقوال: الوجوبَ والسُّنّية والنَّدب. ورأيتُ ممّا عزا القاضي أبو بكر ابنُ الكرب في "سراج المُريدين": قال الشافعيُّ: الصلاةُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم من فرائض الصلاة، وهو الصحيح. انتهى نصُّ ابن الخطيب برُمّتِه.

وأمّا مُخالفةُ الخطابيِّ- من أصحابِ الشافعي- للشافعيِّ فلا يُعتَدُّ بها؛ لأنّ الشافعيَّ قدوةٌ يقتدى به، والمقام مقام اجتهاد فلا افتقار له فيه إلى غيره.

وأمّا قولُه: وقد شنَّع الناسُ عليه، يعني: الشافعيَّ، هذه المسألةَ جدًّا، فلا معنى له. وأيُّ شناعةٍ في ذلك وهو لم يُخالفْ نصًّا ولا إجماعًا ولا قياسًا ولا مصلحةً ولا حجةً؟ بل القولُ بذلك من محاسن مذهبِه.

ولا ريبَ أنّ القائلَ بجواز تركِ الصَّلاة على أفضل خلقِ الله بالصَّلاةِ التي هي رأسُ العبادات المطلوبِ منها الخضوعُ واستحضارُ شارعها والثناءُ عليه أوْلى بالتشنيع.

وأمّا دعواهُ الإجماعَ فإنه باطلٌ لا دليلَ لهُ عليه.

وأمّا قولُه: إنّ الشافعيَّ اختار تشهُّدَ ابن مسعودٍ فلم يقلْ به أحد، والشافعيُّ إنما اختار تشهدَ ابنِ عباس، وهُو الثابتُ المحقَّقُ عندَ جميع من يُحتجُّ بقوله.

وقدِ استدَلُّوا بالوجوبِ بما أخرجه أبو داودَ والنَّسائيُّ والترمذيُّ- وصحَّحه- وكذا ابنُ خُزيمةَ وابنُ حِبّانَ والحاكم[١]، من حديث فَضَالةَ بن عبد الله، قال: سَمِع النبيُّ صلى الله عليه وسلم رجلًا يدعو في صلاتِه لم يحمَدِ اللهَ ولم يُصلِّ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقال: "عَجِلَ هذا"، ثم دعاهُ فقال: "إذا صلَّى أحدُكم فلْيبدَأْ بالحمدِ لله ثم لْيصَلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم ثم لْيدْعُ بما شاء".

ولقد أطنب الشيخُ أبو أمامة[٢] ابنُ النقّاش في "تفسيرِه" من الانتصار للشافعيِّ في هذه المسألةِ بما يطولُ ذكرُه، فاللهُ يُثيبُه على ذلك.

---

(١) مسند أحمد (٢٣٩٣٧) وتخريجه وبيان طرقه ورواياته.

(٢) اتضح الآن أن أبا أمامة هو شيخ من الشيوخ، وليس يريد المصنف به مع كثرة تكراره في الكتاب أبا أمامة الباهلي الصحابي رضي الله عنه، وهو:
شمس الدين أبو أمامة محمد بن علي بن عبد الواحد بن يحيى بن عبد الرحيم الدكالي، الشيخ الإمام العالم الفاضل المعروف بابن النقاش الشافعي الفقيه المحدث المفسر الواعظ (ت٧٦٣هـ). أعيان العصر وأعوان النصر ٤/ ٦٧٠، والسلوك لمعرفة دول الملوك ٤/ ٢٦٤، وغيرهما. وأما تفسيره فاسمه: سابق اللاحق. ولعلي إبراهيم الناجم رسالة علمية جليلة بعنوان: "أبو بكر النقاش ومنهجه في تفسير القرآن الكريم".

وأمّا صفةُ الصَّلاة عليه صلى الله عليه وسلم فعن عبدِ الرحمن ابن أبي ليلى، قال: لقيَني كعبُ بن عُجْرةَ فقال: ألا أُهدي لك هَديّة؟ إنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم خَرَج علينا فقلنا: يا رسولَ الله، قد عَلِمنا كيف نُسلِّمُ عليك، فكيف نُصلِّي عليك؟ قال: "قولوا: اللهُمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيمَ إنك حميدٌ مجيد، اللهُمَّ باركْ على محمدٍ وعلى آل محمد، كما باركتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيمَ إنك حميدٌ مَجيد"، رواه أصحابُ الصِّحاح الستة[١].

وقال عبدُ الرحمن ابنُ أبي ليلى: ويقال: وعلينا مَعَهم.

وعن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسولَ الله، كيف نصلي عليك؟ قال: "قولوا: اللهُمَّ صلِّ على محمدٍ وأزواجِهِ وذُرّيّته كما صلَّيتَ على إبراهيم[٢]، وباركْ على محمدٍ وأزواجِه وذُرّيّتِهِ كما باركتَ على إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد". رواه الإمامُ أحمد[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٠) و(٦٣٥٧) و مسلم ٦٦- (٤٠٦)، وأبو داود (٩٧٦) وفيه طريق ابن ماجة والترمذي، والنسائي في السنن الكبرى (١٠١١٩),

(٢) في مصادر التخريج: "آل إبراهيم" هنا وفي المرة الآتية.

(٣) كذا، وهو فيه (١٦٥٨٨)، وأخرجه الشيخان وهو من المتفق عليه بينهما: البخاري (٣٣٦٩) و (٦٣٦٠)، ومسلم ٦٩- (٤٠٧).

فإن قلت: ما موقعُ التشبيه في قوله: "كما صليت على إبراهيم" معَ أنّ المقرَّرَ أن المشبهَ دون المشبه [به][1] والواقعُ هنا عكسُه؛ لأنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم أفضل من إبراهيمَ وآل إبراهيم، ولا سيّما وقد أضيفَ إليه آلُه، ونتيجةُ كونِه أفضلَ أن تكونَ الصلاةُ المطلوبةُ أفضلَ من كلِّ صلاةٍ حصلت أو تحصُلُ لغيره، فالمتَّجهُ إنّما هو لأجْل الصَّلاة بأصل الصلاة لا للقَدْر بالقَدْر، كما في قولِه تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ} [النساء: ١٦٣]، وهو كقول القائل: أحسِنْ إلى ولدِك كما أحسنتَ إلى فلان، ويريدُ بذلك أصلَ الإحسان لا قَدْرَه، ومنهُ قولُه تعالى: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [القصص: ٧٧].

ومنها: رفعُ المقدّمةِ المذكورة أولًا، وهي أنّ المشبَّهَ به يكونُ أرفعَ من المشبَّه وأنّ ذلك ليس مطَّردًا، بل قد يكونُ التشبيهُ بالمِثل بل بالدُّون، كما في قولِه تعالى: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ} [النور: ٣٥]، وأين يقعُ نورُ المشكاةِ من نورِه تعالى؟ ولكنْ لمّا كان المرادُ من المشبَّه به أن يكونَ ظاهرًا واضحًا للسامع فلذلك ساغ تشبيهُ النُّور بالمِشكاة، وكذا هنا؛ لأنه لمّا كان تعظيمُ إبراهيمَ وآل إبراهيمَ بالصَّلاة عليهم مشهورًا واضحًا عندَ جميع الطوائف حسُن أن يُطلبَ لمحمدٍ وآل محمد من الصَّلاة عليهم مثلُ ما حصَلَ لإبراهيمَ وآل إبراهيم.

(١) أسقط الناسخ شبه الجملة.

ويؤيِّدُ ذلك ختمُ الطلبِ المذكور بقوله: "في العالمين"، أي: كما أظهرتَ الصلاةَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيمَ في العالَمين، ولهذا لم يقعْ "في العالَمينَ" إلّا في ذكر إبراهيمَ دونَ ذكرِ محمد على ما وَقَع في الحديثِ الذي وَرَدت فيه، وهو حديثُ ابن مسعودٍ المتقدِّم ذكرُه.

وهذا معنى قول الطِّيبي: وليس التشبيهُ المذكورُ من باب إلحاقِ الناقص بالكامل، بل من بابِ إلحاق ما لم يُشتهَرْ بما اشتُهر.

وقال النَّوَويّ: أحسنُ الأجوبةِ ما نُسِب للشافعيِّ أنّ التشبيهَ لأصل الصَّلاة بأصل الصلاة، والمجموعُ بالمجموع.

وأحسنُ من الجميع أن يُقالَ: هو صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيمَ، كما ثَبَت ذلك عن ابن عبّاس- في تفسير قولِه تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٣٣]- [أنه][١] قال: محمدٌ من آل إبراهيمَ، فكأنه أمَرَنا أن نُصلّيَ على محمدٍ وعلى آل محمد خصوصًا بقَدْرِ ما صلَّينا عليه معَ إبراهيمَ وآل إبراهيمَ عمومًا، فيحصُلُ بما لهُ ما يليقُ بهم ويبقى الثاني كلُّه له، وذلك القدرُ أزيدُ مما لغيرِه من آل إبراهيم، وتظهرُ حينئذ فائدةُ التشبيه وأنّ المطلوبَ له بهذا اللفظ أفضلُ من المطلوبِ بغيره من هذه الألفاظ.

---

(١) إضافة لازمة أخلت بها النسخة.

وقال الحَليميُّ: سببُ هذا التشبيهِ أنّ الملائكةَ قالت في بيتِ إبراهيمَ: {رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} [هود: ٧٣]. وقد عُلم أن محمدًا وآلَ محمد من أهل بيتِ إبراهيم، فكأنه قال: أجبْ دعاءَ الملائكةِ الذين قالوا ذلك في محمدٍ وآل محمد كما أجبتَها عندما قالوها في آل إبراهيمَ الموجودينَ حينئذٍ، ولذلك ضمَّن ما خُتمت به الآيةُ، وهو قولُه تعالى: {حَمِيدٌ مَجِيدٌ}.

ومما يُعزَى للعالمِ الرَّبّانيِّ أبي محمدٍ المَرجانيِّ أنه قال: وسرُّ قولِه صلى الله عليه وسلم: "كما صلّيتَ على إبراهيم" و"كما باركتَ على إبراهيم"، ولم يقلْ: كما صلَّيتَ على موسى: لأن موسى عليه السلامُ كان التجلي له بالجلال ولذلك خَرّ صَعِقًا، والخليلُ إبراهيمُ كان التجلّي له بالجمال؛ لأن المحبةَ والخُلّةَ من آثارِ التجلّي بالجمال، فلهذا أمَرَهم صلواتُ الله وسلامُه عليه بالصلاةِ عليه كما صُلّي على إبراهيم ليسألوا له التجلّيَ بالجمال، وهذا لا يقتضي التسويةَ فيما بينَه وبينَ الخليل صلواتُ الله وسلامُه عليهما؛ لأنه إنما أمَرَهم أن يسألوا لهُ التجلّيَ بالوصف الذي تتجلّى به للخليل عليه السلام.

والذي يقتضي ظاهرُ الحديثِ المشاركةَ في الوصفِ الذي هو التجلّي بالجمال، ولا يقتضي التسويةَ في المقامينِ ولا في الرُّتبتيْنِ، فإنّ الحقَّ سبحانه يتجلَّى بالجمال لشخصيْنِ بحسَبِ مقامِهما وإنِ اشترَكا في وصفِ التجلِّي بالجمال، فيتجلَّى لكلِّ

واحدٍ منهما بحسَبِ مقامِه عندَه ورُتبتِه منه ومكانتِه، فيتجلَّى للخليل بحسَب مقامِه، ويتجلَّى لسيّدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم بالجمال بحسَب مقامِه.

فعلى هذا يُفهَم الحديثُ معَ أنه قد ثَبَت وتقرَّر عند جميع الأولياءِ من الصحابةِ والتابعين إلى يومِنا هذا أنه زاد على إبراهيمَ عليه السلامُ بتجلِّي الكمال، فأين تجلِّي الكمال من تجلِّي الجمال؟ إذْ لا تصحُّ الرُّؤيةُ ولا تمكنُ إلّا بعدَ تجلِّي الحقِّ تعالى على عبدِه بتجلِّي الكمال، فيحصُلُ لهُ حينئذٍ من تجلِّي الكمال ما يكونُ به متأهِّلًا للرؤية ومقام المكافحةِ والحَمْل على الرَّفْرفِ الأعلى والذَّوق من نقطةِ العلم، فحصَلَ منَ الجميع على ما لم يحصُلْ عليه غيرُه من العالَم: العُلويِّ والسُّفليّ، إذِ المُطوَّقُ بالنُّور عليه السلامُ[١] وَقَف دونَ ذلك المقام ولم يتجاسرْ عليه بعدَما سألهُ الرسولُ صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال له : يا محمد، {وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ} [الصافات: ١٦٤]، يا محمد، لو جاوزتُهُ قِيْدَ شِبر لاحترقتُ.

وليس ذلك لهُ قادحًا في منصبِه عليه السلام بعدَما قال اللهُ تبارك وتعالى في مدحِه: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [التكوير: ١٩ - ٢١] فجميعُ الملأِ الأعلى يعلمون بأمرِه ويرجِعونَ إلى

---

(١) يعني جبريل الأمين عليه السلام.

قولِه، ولا يضرُّه أنْ فضّلَ عليه من خُصِّص بالفَضل المطلق أزَلًا ومآلًا يزال و...[١] محمد[٢] صلى الله عليه وسلم.

فإنْ قلتَ: ما المرادُ بآل محمد في هذا الحديث؟ فالجوابُ: أن الراجحَ أنهم من حرُمت عليهمُ الصَّدَقةُ كما نصَّ عليه الشافعيُّ واختاره الجمهورُ، ويؤيِّدُه قولُه عليه السلام للحسَن بن عليّ: "إنا آلَ محمد لا تحِلُّ لنا الصَّدقة".

وقيل: المرادُ بآل محمد: أزواجُه وذرّيّتُه.

وقيل: المرادُ بهم: جميعُ الأُمةِ أُمةِ الإجابة، حكاهُ أبو الطيب الطبريُّ عن بعض الشافعيّة، ورجَّحهُ النَّوويُّ في "شرح مسلم".

وقيَّده القاضي حُسينٌ بالأتقياءِ منهم، وعليه يُحمَلُ كلامُ من أطلق، ويؤيِّدُه ما رواه تَمّامٌ في "فوائدِه" والدَّيلميُّ، عن أنس، قال: سُئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : من آلُه؟ فقال: "كلُّ تقيٍّ من أُمةِ محمد"، زاد الدَّيلميُّ: ثم قرأ: {إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ} [الأنفال: ٣٤]. وإسنادُه جيد.

وقد وَرَد ما يشهدُ لذلك في الصَّحيحيْن، كحديث: "إن آلي: أُمّتي، وإنّ آلَ فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليِّيَ اللهُ وصالح المؤمنين". انتهى باختصار[٣].

---

(١) بعد الواو حرف لا يبين، كأنه: أن.

(٢) كذا هذه العبارة قرأتها غير تامة التهمة فيها على الناسخ والله أعلم بمراده.

(٣) الجمع بين الصحيحين ٣/ ٤٢٣ (٢٩٢١).

فإنْ قلتَ: أيُّ كيفيّاتِ الصلاة على النبيِّ أفضل؟ فالجوابُ: أنّ أفضلَها ما اختاره النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وقد أصْفقَ[1] على ذلك جميعُ علماءِ السلف، ويؤيّدُ ذلك تعليمُهم صلى الله عليه وسلم إياها بعدَ سؤالِهم عنها، فباعتبار ذلك يُعلَمُ أنها أفضلُ كيفيّاتِ الصلاة؛ لأنه لا يختارُ لنفسِه إلّا الأشرفَ الأفضل، وهي الصلاةُ الكاملةُ المتقدِّمُ ذكرُها.

ويترتبُ على ذلك أنه لو حَلَف إنسانٌ أن يُصلِّيَ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم أفضلَ الصلاة فطريقُ البِرِّ أن يأتيَ بتلك الكيفيّة المتقدِّم ذكرُها كما صوَّبها النوويُّ في "الرَّوضة"[2] بعدَ ذكر حكايةِ الرافعيِّ عن إبراهيمَ المَرْوزيِّ، أنه قال: يبَرُّ إذا قال: كلَّما ذَكَره الذاكرون وكلَّما غَفَل عن ذكرِه الغافلون.

وعن القاضي حُسين، قال: البِرُّ أن يقولَ: اللهُمَّ صلِّ على محمدٍ كما هو أهلُه ويستحقُّه، كما نَقَله البَغَويُّ في تعليقِه.

ولو جَمَع بينَهما، فقال ما في الحديثِ وأضاف إليه أثرَ الشافعيِّ وما قاله القاضي حُسينٌ لَكان أشملَ، ولو قيل: إنه يعمَدُ إلى جميع ما اشتملتْ عليه الرواياتُ الثابتةُ فيستعملُ منها ذكرًا يحصُلُ به البِرُّ لَكان حسنًا.

---

(١) كذا، ولعله أراد: أطبق، فأشبه عليه التعبير.

(٢) روضة الطالبين وعمدة المفتين ١١/ ٦٥.

وعن ابنِ مسعود، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا شهد[1] أحدُكم في الصَّلاة فلْيقلْ: اللهُمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وارحَمْ محمدًا وآلَ محمد، كما صلَّيت ورحِمتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيمَ إنك حميدٌ مجيد"، رواهُ الحاكم[2].

وقد استدَلَّ بهذا الحديثِ من ذهبَ إلى جواز الترحُّم عليه صلى الله عليه وسلم، كما هُو قولُ الجمهور، ويَعضُده حديثُ الأعرابي: اللهُمَّ ارحَمْني وارحمْ محمدًا ولا ترحمْ معَنا أحدًا، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لقد حجَّرتَ واسعًا"[3].

وأمّا منعُ القاضي عِياض رحمه اللهُ الترحُّمَ عليه فمجازفةٌ أتَى بها من غير دليل؛ لأنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عبدٌ من عبيد الله وفي قبضتِه ومُفتقرٌ إلى رحمته، وإنما قولُه مجرَّدُ إطراءٍ يُكتفى من المدح بدونه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا تُطروني كما أطْرَتِ النَّصارى عيسى ابنَ مريم ولكنْ قولوا: عبدُ الله ورسولُه"، أخرجه الطبرانيُّ والنَّسائيُّ وغيرهما بأسانيدَ مرفوعة[4]، وكما رُويَ عنهُ

(١) كذا كتبها من غير بدئها بتاء معجمة بنقطتين من تحت.

(٢) المستدرك ١/ ٢٦٨ (٤٠٥)، وفيه: "كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم".

(٣) رواه البخاري (٦٠١٠) من حديث أبي هريرة، وتمامه: يريد رحمة الله.

(٤) هو في البخاري (٣٤٤٥) و(٦٨٣٠)، فلا يقال بعده: طبراني ولا نسائي.

صلى الله عليه وسلم أنه كان يقولُ بينَ السَّجدتيْن: "اللهُمَّ اغفرْ لي وارحَمْني واهدِني وارزُقني واعفُ عنّي وعافني"، وكما يدُلُّ عليه قولُه تعالى: {رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ} [هود: ٧٣]، ودلائلُ ذلك من الكتابِ والسُّنّة لا تُحصَى ولا يُحاطُ بها.

ويُكذِّبُه من دلائل العقل كونُه تعالى مستبدًّا بالغِنى لايشاركُ فيه أحدًا من خلقِه، كما يدُلُّ عليه قولُه تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: ١٥]. وكما يدُلُّ عليه قولُه صلى الله عليه وسلم للأعرابيِّ لمّا قال لهُ: يا رسولَ الله، ليس لي إلّا اللهُ وأنت، فانتَهَره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له: "أتريدُ أن تتخذني ندًّا؟ ولكنْ قلْ إن شئتَ: ليس لي إلّا اللهُ ثم أنت"، أخرجه الطبرانيُّ في "الكبير"[١] بسندٍ رجالُه رجال الصحيح.

وعن سلامةَ الكنُوديّ[٢]، أن عليًّا كان يُعلّمُ الناسَ هذا الدُّعاء، وفي رواية: يُعلِّمُ الناسَ الصلاةَ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فيقول: اللهُمَّ داحيَ المدحُوّات وبارئَ المسموكات، اجعلْ شرائفَ صلواتك ونواميَ بركاتِك ورأفةَ تحنُّنِك على محمدٍ عبدِك ورسولِك، الفاتح لما أُغلق والخاتَم لما سَبَق والمُعلنِ الحقَّ

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١١/ ١٦١ (١١٣٦٥).

(٢) كذا، ويورد اسمه في آخر الخبر: الكندي، وهو الصواب، كما في التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ١٩٥ (٢٤٦٨)، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/ ٣٠٠ (١٣٠)، والثقات لابن حبان ٤/ ٣٤٣ (٣٢٥٥).

بالحقّ والدامغ لجَيْشاتِ الأباطيل، كما حُمِّل فاضْطَلع بأمرِك مُستوفِزًا بضاعتَكَ في مَرْضاتِك، واعيًا لوحيِك، حافظًا لعهدِك، ماضيًا على نفاذِ أمرِك، حتى أوْرَى قبسًا لقابسِ آلاءِ الله تصلُ بأهلِه أسبابُه به هديةَ القلوب بعدَ خَوْضاتِ[1] الفتنِ والآثام، وأبهَجَ مُوضِحاتِ الأعلام ونائراتِ الأحكام ومُنيراتِ الإسلام، فهُو أمينُكَ المأمون وخازنُ علمِك المخزون، وشهيدُك يومَ الدِّين، وبَعيثُك نعمة، ورسولُك بالحقِّ رحمة. اللهُمَّ افسَحْ له في عَدْنِك، واجْزِهِ مُضاعَفاتِ الخيرات من فضلِك، مهنَّئاتٍ له غيرَ مُكدِّرات، من فوز ثوابِك المحلول وجزيل عطائك المعلول. اللهُمَّ أعلِ على بناءِ الناس بناءه وأكرمْ مثواهُ لديْك ونُزُلَه، وأتمِمْ له نورَه، واجْزِهِ منَ ابتعاثك له مقبولَ الشهادة ومرضيَّ المكانة، ذا منطقٍ عدل، وخُطّةِ فَصْل وبُرهان عظيم. حديثٌ موقوفٌ رواهُ الطبرانيُّ، لكن قال الحافظُ ابنُ كثير في مسندِه: فيه نظر، وقال الحافظ أبو الحَجّاج المِزّي: سلامةُ الكِنْديُّ هذا ليس بمعروفٍ ولم يدركْ عليًّا، كذا قال.

وقولُه: داحي المَدْحُوّات، أي: باسطُ الأرضِينَ، وكلُّ شيء بسطتَه ووسَّعتَه فقد دحوْتَه. وبارئُ المسموكات، أي: خالقُ السموات، وكلُّ شيءٍ رفعتَه وأعليْتَه فقد سَمَكتَه. والدامغُ لجَيشاتِ الأباطيل، أي: المُهلِكُ لما طَلَع وارتفع منها وفار، وأصلُ الدَّمغ من الدماغ، دَمَغَه: إذا أصاب دماغَه. وجيشات: من جاش: إذا

---

(١) كتب الناسخ إزاء هذه الكلمة في الحاشية: خترات (كذا).

ارتفع. واضطلع، بضادٍ معجمة، افتعل: من الضَّلاعة، وهي القوة، يقال: رجلٌ ضليع: إذا كان قويًّا جسيمًا. وأورَى، وفي روايةٍ: أدرَى، قبسًا لقابس، أي: أظهر نورًا من الحق لطالبِه. وآلاءُ الله: نعمُه. تصلُ بأهلِه، أي: أهلِ ذلك القبس، وهُو الإسلامُ والحق. أسبابُه وأهلُه: المؤمنون به. هَديتَ القلوبَ بعدَ خَوْضاتِ الفتن والآثام، أي: هديتَ بعدَ الكفر والفتن. لمُوضِحات الأعلام والنائرات، والمُنيرات: الواضحات، يقال: نارَ الشيءُ وأنار: إذا وَضَح. وشهيدُك يومَ الدِّين، يعني: الشاهدَ على أُمّته يومَ القيامة. وبَعيثُك نعمة: مبعوثك، فعيلٌ بمعنى مفعول. وافسَحْ، أي: وسِّعْ له. في عَدْنك، أي: في جنّتِك جنةِ عَدْن. والمعلول: من العَلَل، وهو الشرب بعد النَّهل، يريدُ أنّ عطاءه يضاعَفُ كأنه يعلُّ به عباده، أي: يعُطيهم عطاءً بعدَ عطاء. وأعلِ على بناء الناس، وفي رواية: البانِينَ، أي: ارفعْ فوقَ أعمال العاملين عملَه. وأكرمْ مثواهُ، أي: نُزُلَه، وهو ما يُتحَفُ به النازلُ من الكراماتِ والتبجيل. والخُطّةُ، بضم الخاء المعجمة: الأمر، والخِطّة بالكسر: السَّهم. والفصل: القطع، ومنه فصْلُ الخطاب.

وعن عبدِ الله بن مسعود، قال: إذا صلَّيتُم على رسُول الله صلى الله عليه وسلم فأحسِنوا الصلاةَ عليه، فإنكم لا تدرونَ لعلّ ذلك يُعرَضُ عليه، قال: فقالوا له: علِّمنا، قال: قولوا: اللهُمَّ اجعلْ صلواتِك وبركاتِك ورحمتَكَ على سيّدِ المرسَلين وإمام المتَّقين محمدٍ عبدِك ورسولِك إمام الخير ورسُول الرحمة، اللهُمَّ ابعثْهُ مقامًا محمودًا يَغبِطُه فيه الأوَّلونَ والآخِرون، اللهُمَّ صلِّ على محمد وعلى آلِ

محمد، كما صلَّيتَ على إبراهيمَ(١) إنكَ حميدٌ مَجيد، وباركْ على محمدٍ وعلى آل محمد كما باركتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيم، إنكَ حميدٌ مَجيد. حديث موقوفٌ رواه ابنُ ماجة.

وعن رُوَيْفع بن ثابتٍ الأنصاري، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَن صلَّى على محمد وقال: اللهُمَّ أنزلْهُ المقعدَ المقرَّبَ عندك يومَ القيامة، وَجَبت له شفاعتي"، رواه الطبرانيُّ، قال ابنُ كثير: وإسنادُه حسن ولم يخرِّجوه.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن سرَّه أن يكتالَ بالمِكيال الأوفَى إذا صلى علينا أهلَ البيت فليقُل: اللهُمَّ صلِّ على محمد النبيِّ الأُمّيِّ وأزواجِه أمهاتِ المؤمنين وذُرّيّته وأهل بيتِه كما صلَّيتَ على إبراهيمَ إنك حميد مجيد"، رواه أبو داود(٢).

وعن طاووس، قال: سمعتُ ابنَ عبّاس يقول: اللّهم تقبَّلْ شفاعةَ محمدٍ الكبرى، وارفعْ درجتَه العليا وأعطِه سُؤلَه في الآخرة والأولى كما آتيتَ إبراهيمَ وموسى"، رواه إسماعيلُ القاضي، قال ابن كثير: وإسنادُه جيد قويٌّ صحيح.

---

(١) كذا في النسخة في هذا الموضع، وكأن الناسخ طرح: وعلى آل إبراهيم.

(٢) سنن أبي داود (٩٨٢).

فصل: في المواضع التي تُشرَعُ فيها الصلاةُ

فمنها: التشهُّدُ في الأخير، ومنها: خطبةُ الجمُعة، ولا تصحُّ إلا بها، وكذا غيرُها من الخُطب من غير شرط، وعَقِبَ حكايةِ المؤذِّن، لما رُوي عن عبد لله بن عَمرو بن العاص، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا سمعتُم المؤذِّنَ فقولوا مثلَ ما يقولُ ثم صَلُّوا عليّ، فإنه مَن صلّى عليّ واحدةً صلى اللهُ عليه بها عشرًا، ثم اسألوا اللهَ لي الوسيلةَ فإنها منزلةٌ في الجنّة لا تنبغي لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمن سأل اللهَ لي الوسيلةَ حلَّتْ له الشفاعة"، أخرجه مسلمٌ وأبو داود والترمذيُّ والنَّسائيُّ[١] من حديث كعبِ بن علقمة[٢].

وذَكَرَهُ بلفظ الرجاء وإن كان محقَّقَ الوقوع إرشادًا وتعليمًا منه وتذكيرًا بالخوف وتفويضًا إلى الله بحسَبِ مشيئتِه وليكونَ الطلبُ للشيء بينَ الرجاءِ والخوف.

قولُه: "حَلَّت له الشفاعة"، أي: وَجَبت، وقيل: غشِيتْه ونزلت به.

(١) هذا الحديث أخرجه الشيخان: عن جابر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، ينظر: الجمع بين الصحيحين ٢/ ٣٦٣ (١٥٩٠) ثم ٣/ ٤٤٣ (٢٩٥٥)، وفي الباب عن أبي هريرة أيضًا عند غير الشيخين، وانظر: جامع الأصول ٨/ ٥٣٩ (٦٣٤٥) و ٩/ ٣٨٠ و٣٨١ (٧٠٢٧) و(٧٠٢٨).

(٢) أحد رجال السند بينه وبين ابن عمرو في مسلم: ابن جبير.

ومن حديث أحمدَ والبخاريِّ والأربعة، عن جابر مرفوعًا: "من قال حين يسمع النداءَ: اللهُمَّ ربَّ هذه الدعوة التامّة والصلاةِ القائمة آتِ محمدًا الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثهُ مقامًا محمودًا الذي وعدتَه".

ومنها: أولُ الدعاء ووسطُه وآخرُه، لما رَوى أحمدُ[1] من حديث جابر، أنّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تجعلوني كقَدَح الراكب، فإنّ الراكبَ يملأ قدحَه ثم يضعُه ويرفعُ متاعَه، فإنِ احتاج إلى شرابٍ شربَهُ، وإلى وضوءٍ توَضّأ وإلّا أراقهُ، ولكنِ اجعلوني أولّ الدعاءِ ووسطَه وآخرَه".

ومنها: عَقِبَ دعاءِ القنوتِ عندَ غيرِ مالكٍ من أصحاب المذاهب، لِما رواه أحمدُ وأهلُ السُّنن وابنُ جَرير وابنُ حِبّان والحاكمُ من حديث أبي الحَوْراء[2]، عن الحَسن بن عليّ، قال: علَّمَني رسولُ صلى اللهُ عليه وسلم كلماتٍ أقنُتُ بهنّ، وهنّ: "اللهُمَّ اهدني فيمن هدَيتَ وعافِني فيمن عافَيتَ وتوَلَّني فيمن تولَّيتَ وبارِكْ لي فيما أعطيتَ وقِني شرَّ ما قضَيْت فإنك تقضي ولا يُقضَى عليك إنه لا يذِلُّ من والَيْت ولا يَعِزُّ من عادَيْت تباركتَ ربَّنا وتعاليْت، وصلّى اللهُ على النبيِّ الأُمِّيِّ وعلى آله وصحبِه وسلَّم".

---

(١) وهو في مصنف عبد الرزاق (٣١١٧)، وعند البيهقي في شعب الإيمان (١٥٧٨)، وفي مسند الشهاب للقضاعي (٩٤٤)، وغيرها.

(٢) ينظر: مسند أحمد (١٧١٨) ففيه غنية.

ومنها: عندَ دخول المسجدِ والخروج منه، لِما رَوى أحمدُ بسنده[1]، عن فاطمةَ، أنها قالت: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا دَخَل المسجدَ، صلى على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ثم قال: "اللهُمَّ اغفرْ لي ذنوبي وافتحْ لي أبوابَ رحمتِك"، وإذا خَرَج، على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: "اللهُمَّ اغفرْ لي ذنوبي، وافتحْ لي أبوابَ فضلِك".

ومنها: صلاةُ الجِنازة، وبعدَ التلبية، وعندَ الصَّفا والمَرْوة، كما رواهُ إسماعيلُ القاضي، عن عُمرَ بن الخطاب، أنه قال: إذا قدِمتم فطُوفوا بالبيت سبعًا وصلُّوا عند المقام ركعتيْنِ ثم ائْتوا الصَّفا فقوموا عليه من حيث ترونَ البيتَ، وكبِّروا سبعَ تكبيرات كلُّ تكبيرةٍ بعدَ حمدٍ وثناءٍ عليه وصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ومسألةٍ لنفسِك، وعلى المَروة مثلُ ذلك. قال ابنُ كثير: إسنادُه جيّدٌ قوي.

ومنها: عندَ الاجتماع والتفرُّق، كما رواه الترمذيُّ[2] من حديثِ أبي هريرة، أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما جلسَ قومٌ مجلسًا لم يذكُروا اللهَ فيه ولم يُصلُّوا على نبيِّه إلّا كانت عليهم تِرَةٌ، فإنْ شاء عذَّبهَم وإن شاء غَفَر لهم".

---

(١) مسند أحمد (٢٦٤١٦).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٨٠).

وروى إسماعيلُ القاضي[١]، عن أبي سعيد، قال: ما مِن قوم يقعُدون ثم يقومون ولا يُصلُّون على النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلّا كانتْ عليهم حسرةً وإن دَخَلوا الجنةَ لِما يرَوْا[٢] من الثواب".

ومنها: عند الصَّباح والمساء، كما في "الطبرانيّ"[٣] من حديث أبي الدَّرداء مرفوعًا: "من صلّى عَلَيّ حِين يصبحُ عشْرًا وحين يُمْسي عشْرًا، أَدْرَكتْهُ شفاعتي يَوْمَ القيامة".

ومنها: عندَ الوضوء، لحديثِ ابن ماجةَ[٤]، عن سهل بن سعد، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لا وضوءَ لمن لم يُصلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم".

ومنها: عندَ طَنين الأُذُن، لحديثِ أبي رافع [في][٥] ابنِ السُّنِّي مرفوعًا: "إذا طَنَّتْ أُذُنُ أحدِكُم فلْيذكرْني وليُصلِّ عَلَيّ ولْيقُلْ: ذَكَر اللهُ مَن ذَكرني بخَيرٍ".

---

(١) في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (٥٥).

(٢) كذا في النسخة.

(٣) وهو في الترغيب والترهيب للمنذري (٩٨٧)، قال: "رواه الطبراني بإسنادين أحدهما جيد".

(٤) سنن ابن ماجة (٤٠٠)، وقد نقل عنها مختلًّا ها هنا فانظره ثمة.

(٥) أسقط الناسخ حرف الجر، ولا يخفى أن أبا رافع ليس هو ابن السني، فالأول راوي الحديث والثاني مخرجه في كتابه "عمل اليوم والليلة" (١٦٦).

ومنها: عندَ نسيان الشيء، لحديثِ أبي موسى المَدَني بسندٍ فيه ضعف، عن أنس يرفعُه: "إذا نسيتم شيئًا فصلُّوا عليَّ تذكروهُ إن شاء الله تعالى"[١].

ومنها: عندَ زيارةِ قبرِه الشريف، لحديث أبي داودَ[٢]، عن أبي هريرةَ، قال: إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من أحدٍ يُسلِّمُ عليّ إلا ردَّ اللهُ عليّ رُوحي حتى أرُدَّ عليه السلام".

وروى ابنُ عساكرَ: "مَن صلَّى عليّ عند قبري سمعتُه ورددتُ عليه السلام".

ووَردَ الأمرُ بالإكثار منها يومَ الجمُعة وليلتَها، فعن أوسِ بن أوس الثقفي، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "من أفضل أيامِكم يومُ الجمُعة، فأكثِروا عليَّ من الصلاة فيه، فإنّ صلاتَكم معروضةٌ عليَّ".

فإنْ قلتَ: ما الحكمةُ في خصوصيّة الإكثار من الصّلاة عليه صلى الله عليه وسلم يومَ الجمُعة وليلتَها؟ أجاب ابنُ القيِّم[٣] بأنه صلى الله عليه وسلم سيّدُ الأنام، ويومُ الجمُعة سيّدُ الأيام، فالصلاةُ عليه فيه لها مزيّة ليست لغيرِه، معَ حكمةٍ أخرى وهي أنّ كلَّ خيرٍ نالتْه أُمّتُه في الدُّنيا والآخرة إنّما نالتْهُ على يدِه صلى

(١) لم أقف عليه.

(٢) سنن أبي داود (٢٠٤١).

(٣) في زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٣٦٤.

الله عليه وسلم، فجَمَعَ [اللهُ][(١)] لأُمَّتِهِ بهِ بينَ خَيْرَي الدُّنيا والآخِرة، وأعظمُ كَرامةٍ تحصُلُ لهُم فإنّها تحصُلُ يَوْمَ الجُمُعة؛ لأنّ فيه بَعْثَهُم إلى منازِلِهم وقصُورِهم في الجنّة، وهُو يَوْمُ المَزِيد لهم.

فصـــلٌ

في كونِ الصّلاة والسلام شعارَ الأنبياء ولا يُشركُ معَهم أحدًا فيه إلا تبَعًا وما اختصَّ به صلى الله عليه وسلم من الصّلاة

سُئل مالكٌ رضي اللهُ عنه: هل يُصلَّى على غير النبيِّ من الأنبياءِ باستقلالِه؟ فقال: لا أدري إلّا أنّ اللهَ تبارك وتعالى خصَّه من ذلك بما لم يُعطِه لنبيٍّ قبلَه، فقال: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأحزاب: ٥٦] الآيةَ، فهذا النصُّ لم يحظَ به نبيٌّ قبلَه، وهو جمعيّةُ صلاةِ الله وملائكتِه والناس أجمعين.

فبهذا الاعتبارِ كانت الصلاةُ شعارًا له، ويشاركُهم في السلام الذي هو شعارُهم، قال اللهُ تعالى: {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} [الصافات: ٧٩]، وقال: {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} [الصافات: ١٣٠]، وقال: {سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ} [الصافات: ١٢٠]، فلم يجعل الصلاةَ شعارًا لأحدِهم منهم لا في القرآن ولا في غيرِه من الكتب السالفة.

(١) لفظ الجلالة أسقطه الناسخ وهو ثابت في المصدر الذي ينقل المصنف منه.

وقال أبو محمدٍ الجَونيّ: السلامُ بمعنى الصلاة، فلا يُستعمَلُ في الغائب، ولا يُفرَدُ به غيرُ الأنبياء، فلا يقال: عليٌّ عليه السلام، وسواءٌ في هذا الأحياءُ والأموات، وأمّا الحاضرُ فيُخاطَبُ به فيقال: سلامٌ عليكم، وعليكم السلام، أو: السلامُ عليك أو: عليهم، وهذا قد انعقد عليه إجماعُ السلف.

وقد جرتْ عادةُ بعض النُّسّاخ أن يُفردوا عليًّا وفاطمةَ رضي اللهُ عنهما بالسلام فيقولوا: عليه أو: عليهما السلام، من دون سائر الصحابة، فذلك وإنْ كان معناهُ صحيحًا فليس بمَرضيّ؛ لأنه ينبغي أن يُسوِّيَ بين الصحابةِ رضي الله عنهم في ذلك، إذْ هو من بابِ التعظيم والتكريم، والشيخانِ وعثمانُ أولى بذلك منهما لفضلِهم عليهما. أشار إليه ابنُ كثير.

وأمّا الصلاةُ على غيرِ النبي صلى الله عليه وسلم فاختُلف فيما أخرج الطبرانيُّ من حديث ابن عبّاسٍ رَفَعَه: "إذا صلَّيتُم عليَّ فصَلُّوا على أنبياءِ الله، فإنّ اللهَ بَعثَهم كما بعثني".

وثَبَت عن ابن عبّاسٍ اختصاصُ الصلاةِ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم دونَ سائر الأنبياء، أخرجَ ابنُ أبي شيْبةَ من طريق عثمانَ، عن عكرمةَ، عنه، قال: ما

أعلمُ الصلاةَ تنبغي على أحدٍ إلّا على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وسندُه ...[1]، وحُكيَ القولُ بهِ عن مالك، وجاء نحوُه [عن][2] عُمرَ بن عبد العزيز، وعن بعض الشيوخ مذهب ما ... لا يجوزُ أن يُصلَّى إلا على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وهُو غيرُ معروفٍ عن مالك، وإنما المعروفُ غيرُه كما قدَّمتُ صدرَ الباب.

وقولُه: أكرهُ الصَّلاةَ على غيرِ الأنبياء وما ينبغي لنا ... بالرّحمة، فلا ينبغي إلّا بنصٍّ أو إجماع. وأمّا الصلاةُ على غير الأنبياءِ فإذا كان على سبيل التَّبَعيّة كما تقدَّم في الحديث: "اللهُمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد" فجائزٌ بإجماع الأُمّة، وإنما وَقَع النزاعُ فيما إذا انفرد[3] غيرُ الأنبياءِ بالصلاةِ .... قائلونَ بجواز ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ} [الأحزاب: ٤٣]، وبقولِه: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ} [البقرة: ١٥٧]، وبقولِه: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} [التوبة: ١٠٣] الآيةَ.

---

(١) فراغ بقدر كلمة لم تتضح، وليعذرنا القارئ، فسوف ترى فراغات كثيرة في هذا اللوح الأخير من المخطوط، وهو مشوه عدت عليه الرطوبة في غالب كلماته وألفاظه، فوضعنا نقاطًا مكان كل محو فيه فليعلم.

(٢) إضافة لازمة منا.

(٣) كذا، ولعل صوابها القول: أفرد، بالبناء للمفعول.

وعن عبدِ الله بن أبي أوفى، قال: كان رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أتَى قومٌ بصَدَقتهم قال: "اللهُمَّ صلِّ عليهم"، فأتاهُ أبي بصدقتِه، فقال: "اللهُمَّ صلِّ على آل أبي أوفى"، أخرجهُ الشيخان[1].

وقال أحمدُ .... يجوزُ إفرادُ غير الأنبياءِ بالصّلاة؛ لأنها شعارُ الأنبياء إذا ذُكروا فيُلحَقُ بهم غيرُهم بهم ..... صلى الله عليه وسلم، ولا يقالُ لهم: صلى اللهُ عليه وسلم، وإن كان المعنى صحيحًا إلّا أن يقالَ .... كان .... ذكر الله عزَّ وجل .... لا يجوزُ ذلك؛ لأنّ الصلاةَ على غير الأنبياءِ قد صار من شعارِ ... هذا لأنهم ... فيهم ... تقترنُ بهم في ذلك، ثم اختلف المانعون هل ... محمولةٌ على .... الأولى على ثلاثةِ أقوال حكاها النَّوويُّ في كتاب "الأذكار"[2]، وقال: [والصحيحُ الذي عليه الأكثرون][3] أنه مكروهٌ كراهةَ تنزيه؛ لأنه شعارُ أهل الأهواءِ والبدع، وقد نُهينا عن شعارهم.

والصلاةُ والسلامُ على النبيِّ الخاتَم وعلى آلِه وأصحابِه البالغينَ لغاية الشرف والمكارم، وعلى ... وأزواجِه الطاهراتِ الجيوبِ.

---

(١) الجمع بين الصحيحين ١/ ٥٠٦ (٨٢٠).

(٢) أذكار النووي، ص ١١٨.

(٣) ما بين معكوفين أتت الرطوبة عليه فانمحى، واستدركناه من الأذكار.

وكان الفراغُ من تصنيفِ هذا الكتابِ المبارك ضَحوةَ ذي القَعدة من العام السابع بعد المئتينِ والألف، جَعَله اللهُ خالصًا لوجهِه ونَفَع به مَن نَظَر فيه بعين القَبول، إنه الربُّ المسؤول وبيده السؤالُ والمأمول لا ربَّ غيرُه ... حبَّرتُه وسمَّيتُه:

بالجُرعة الصافية والنَّفحةِ الكافية

ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم وهُو حسبُنا ونعمَ الوكيل ... والحمدُ لله ربِّ العالمين، على يدِ كاتبه الفقير ... محمدٍ الأمير ... ابن أحمدَ بن صالح، عام ستةٍ وخمسين على ... رَزَقَهم اللهُ رضا الودود بجاهِ النبيِّ المحمود، آمين.

فهرس محتويات

الجزء الثاني

فهرس محتويات الجزء الثاني